التفسير المأمون

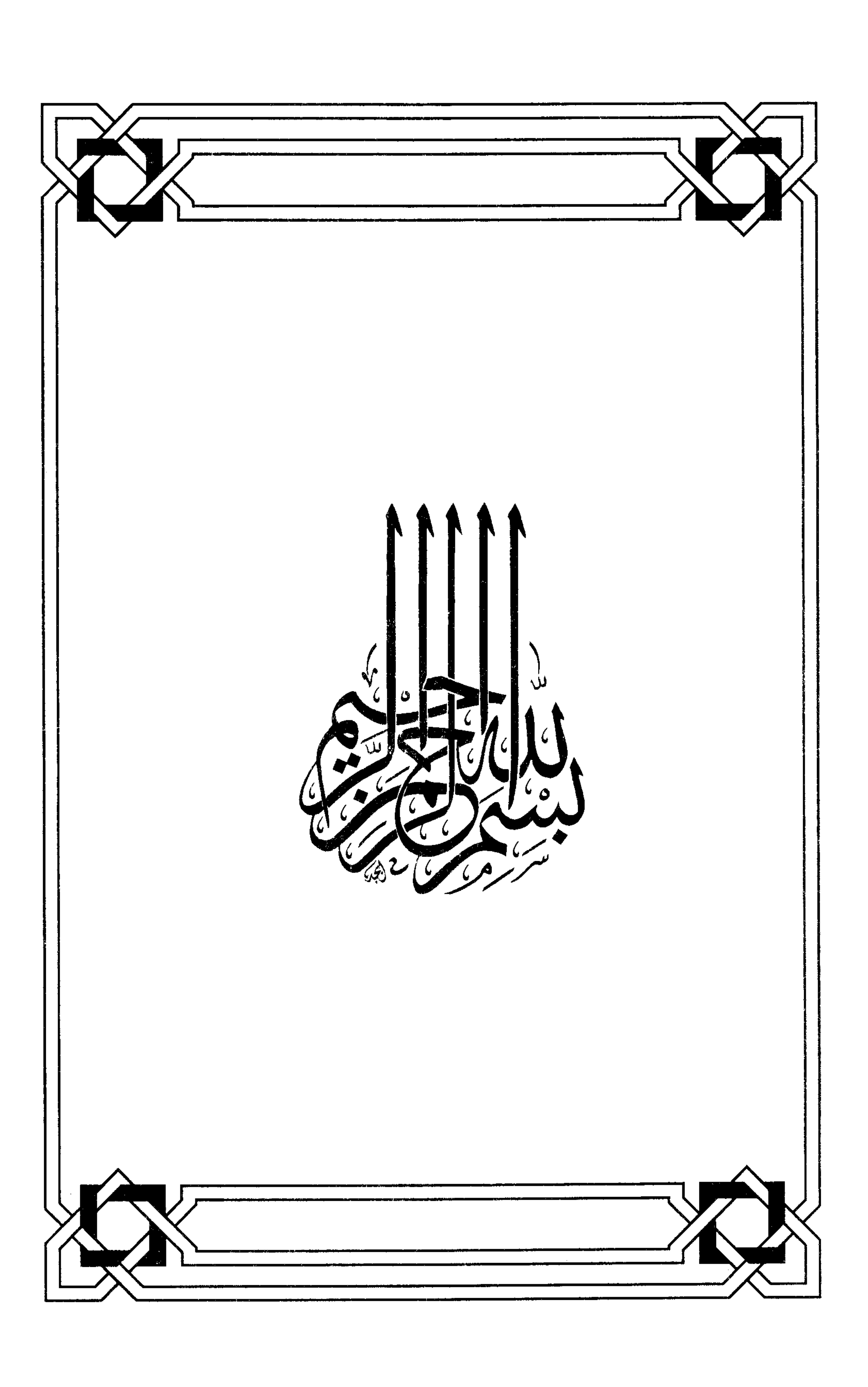
على منهج التنزيل والصحيح المسنون

تفسير القرآن الكريم على منهاج الأصلين العظيمين
- الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة -
على فهم الصحابة والتابعين

تفسير منهجي فقهي شامل معاصر

الجزء الثاني

تأليف الأستاذ الدكتور
مأمون حموش


بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المأمون

على منهج التنزيل والصحيح المسنون

الطبعة الأولى
1428 هـ ـ 2007 م

موافقة وزارة الإعلام
رقـم: 91092
ورقم: 91451
تاريخ: 16/ 7/ 2006 م
دمشق ـ سورية

يطلب من المؤلف
دمشق هاتف: 3218471

المدقق اللغوي
الدكتور أحمد راتب حموش



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (200) .

فضائلها وما ورد في ذكرها :

لقد ورد في فضل هذه السورة الكثير ، كما ذكرناه في أول سورة البقرة ، فالبقرة وآل عمران هما الزهراوان ، وقد اشتركتا بالفضل الكبير .

قيل : سميتا بالزهراوين لما يزهر لصاحبهما من أنوارهما ، أو لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة . أو لاشتمالهما على اسم الله الأعظم .

ففي صحيح مسلم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [اقرؤوا القرآن ، فإنه شافع لأصحابه يوم القيامة . اقرؤوا الزهراوين : البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فِرْقان من طير صواف يحاجّان عن أهلهما] الحديث[1] .

وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي من حديث النواس بن سمعان يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [يؤتىٰ بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به ، تَقْدُمُهم سورة البقرة وآل عمران][2] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (804) ، وأحمد (5/249-254) ، وابن حبان (116) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (805) ، والترمذي (2883) ، ورواه أحمد (4/183) وغيرهم .

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أسماء بنت يزيد ، أن النبي ﷺ قال : [اسمُ الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. وفاتحة آل عمران : ﴿الم ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 1-2]][1].

موضوع السورة

اصطفاء آل عمران على العالمين

والثناء على المجاهدين الصابرين على منهاج المرسلين.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ ذكر اسم الله الأعظم بعد افتتاح السورة.

2 ـ تعظيم القرآن الذي هو الفرقان بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال.

3 ـ العزيز العليم الخبير المصور في الأرحام هو الإله الحق المستحق للعبادة.

4 ـ القرآن محكم ومتشابه ، ومنهاج المؤمنين ردّ المتشابه إلى المحكم لفهمه ، وليس في القرآن اختلاف ولا تعارض ، وإنما العلم بالوحيين يضيء السبيل.

5 ـ قلوب العباد بيد الله ، والمؤمنون يسألون الله الهداية والثبات على الحق.

6 ـ أموال الكفار وقود أهلها في جهنم ، وفي أخذ الله فرعون وجنوده عبرة لكل معتبر.

7 ـ اليهود لم يعتبروا بوقعة بدر ، وستدور الدوائر عليهم حيث لا مناص ولا مَفَرّ.

8 ـ الشهوات من النساء والأولاد والذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث فتنة الحياة الدنيا ، فما ابتغي به وجه الله من ذلك لقي صاحبه حسن المآب.

9 ـ الثناء على المؤمنين الصابرين القانتين المتصدقين والمستغفرين بالأسحار.

10 ـ شهادة الله لنفسه بالوحدانية ، وكذلك الملائكة وأهل العلم شهدوا وأقرّوا له بالألوهية ، فأفردوه بالعبادة والتعظيم.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في جامع الدعوات. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2764). ورواه ابن ماجة في السنن (3855) ، وإسناده حسن.

11 ـ إن الدين عند الله الإسلام ، والتصديق بمحمد ومتابعته فرض على الأنام ، وإنما أعرض اليهود والنصارىٰ عما في كتابيهما من الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام .

12 ـ تحويل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي محمد ﷺ .

13 ـ النهي عن اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، والله يعلم السرائر والعلائن في جميع العالمين .

14 ـ ذكر مشهد المحشر وتوزيع الصحف ، وتحذير الله عباده هول الموقف .

15 ـ تعليق الله محبته من عباده ، على متابعة نبيه محمد ﷺ على شريعته .

16 ـ مريم البتول ، تنذرها أمها لخدمة بيت المقدس .

17 ـ حمل زوجة زكريا وولادتها بيحيىٰ وهي عجوز عاقر ، وبشارة الملائكة مريم بعيسىٰ ، الذي سيخلق الطير ويحيي الميت ويشفي الأبرص والأعمىٰ بإذن الله .

18 ـ مسؤولية اليهود عن وشايتهم لصلب عيسىٰ قائمة ، ولو المصلوب شبيهه .

19 ـ أنام الله المسيح ورفعه إليه مكرماً ، وأنقذه من أيدي اليهود القذرة .

20 ـ ذلك هو عيسىٰ قول الحق ، وحاشا لله أن يتخذ ولداً سبحانه ، وإن كان تأليه المسيح لدىٰ الضالين لأنه بلا أب ، فآدم بلا أم ولا أب .

21 ـ امتناع وفد نجران عن المباهلة ، لتأكدهم من نبوة محمد ﷺ .

22 ـ تكذيب دعوىٰ اليهود والنصارىٰ أن إبراهيم كان على دينهم ، بل كان حنيفاً على ملة الإسلام ، وفضح الله يهود في كتمانهم صفة محمد ﷺ في التوراة ووجوب الإيمان به .

23 ـ تكذيب الله اليهود في دعواهم حِلّ أكل أموال العرب لديهم .

24 ـ الرسل : لم يأمروا بعبادة أحد إلا الله تعالىٰ وحده لا شريك له .

25 ـ النهي عن سؤال أهل الكتاب عن شيء ، فليس عندهم هداية إلى الحق وقد ضلوا عنه ، والله لا يقبل من أحد ديناً إلا الإسلام ، ولا يغفر الشرك والكفر إلا من تدارك نفسه بالتوبة منهما قبل الموت .

26 ـ إثبات ميثاق الله على النبيين التبشير بمحمد والتصديق به .

27 ـ الكعبة أول بيت وضع لعبادة الله وحده ، ومن دخل الحرم كان آمناً ، ووجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً .

28 ـ تعنيف الله أهل الكتاب لصدهم عن سبيل الله ، ونهيه عن طاعتهم .

29 ـ حق التقوىٰ : طاعته تعالىٰ وذكره وشكره وتعظيم حرماته وشعائر دينه .

30 ـ امتنان الله على العرب بتأليف قلوبهم على الإسلام ، بعد أن كانوا أعداء تمزقهم الحروب والفتن عبر الأيام .

31 ـ وصية الله هذه الأمة بعدم الفرقة واجتناب الاختلاف ، وإقامة منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

32 ـ من اليهود من آمن برسول الله واستقاموا فاستحقوا من الله الثناء .

33 ـ الكفر بالله والرسل واليوم الآخر يمنع الكفار من الاستفادة مما بذلوه من الأموال في أعمال الخير والبر .

34 ـ نهي المؤمنين عن اتخاذ بطانة من المنافقين أو الكافرين ، والله يحفظ المؤمنين من كيد المنافقين .

35 ـ القلة المؤمنة الصابرة ، تغلب الكثرة الكافرة الفاجرة .

36 ـ بدء الخروج إلى معركة أحد ، واستعداد الملائكة وآمال النصر ، وصلة ذلك اليوم بيوم بدر .

37 ـ تحذير المؤمنين من الربا وأمرهم بالطاعة .

38 ـ ذكر ماأصابهم يوم أحد وتعزيتهم ، وحثهم على طلب الجنة بذكر شجاعة المجاهدين مع أنبيائهم .

39 ـ تحذيرهم من إطاعة الكفار ، وتأنيبهم لفرارهم عن نبيّهم .

40 ـ فضح المنافقين والثناء على الشهداء .

41 ـ رعب المشركين وهربهم ، لعلمهم بلحوق المؤمنين بهم .

42 ـ إخلاف المشركين موعدهم ببدر ، وحضور المؤمنين ورجوعهم بنعمة الله .

43 ـ البخل بزكاة المال شر مستطير ، ويمثل كنزه ثعباناً يأخذ بشدقي صاحبه يوم القيامة .

44 ـ تطاول اليهود وافتراؤهم بقولهم: الله فقير وهم أغنياء ، وسيلقون وبال ذلك عليهم.

45 ـ الموت حق على كل نفس ، وإنما السعيد من زحزح عن النار وأدخل الجنة ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

46 ـ تهديد أهل الكتاب لكتمانهم نبوته ﷺ ، وتحذير علماء هذه الأمة من كتم العلم.

47 ـ المخلوقات في السماء والأرض دالة لأهل العقول على الخلّاق العظيم ، والتفكر في خلق السماوات والأرض يورث الإيمان واليقين.

48 ـ الإيذاء في الله ، والهجرة إليه ، جزاؤه الجنة. والمؤمن لا يغتر بما عليه أهل الكفر من الترف فالعاقبة للمتقين ولهم تمام المنة.

49 ـ من آمن من أهل الكتاب بنبيّه ثم أدرك محمداً ﷺ وآمن به فله أجران.

50 ـ دعوة المؤمنين إلى الصبر والمصابرة والرباط ولزوم منهاج التقوىٰ ليحظوا بالنصر والفلاح.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

1-4. **قوله تعالى**: ﴿الٓمٓ ۞ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۞﴾ .

في هذه الآيات: توحيد الله العظيم ، وانتصار لقرآنه الكريم ، المصدق للتوراة والإنجيل ، وفيه كالكتب التي قبله هدى للعالمين ، وهو الفرقان بين الحق والباطل ، والناسخ لكل الشرائع قبله ، والكافرون لهم عذاب أليم .

أما ﴿الٓمٓ﴾ فهي تفيد الإعجاز ، كما مضى في أول سورة البقرة .

وقوله : ﴿اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ـ قد بسطنا معناه أثناء تفسير آية الكرسي .

وقوله : ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ﴾ . خطاب للرسول ﷺ ، بأن القرآن منزّل من عند الله كالكتب التي قبله. قال ابن جرير : (بالحق : يعني بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ، وفيما خالفك فيه محاجّوك من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم) .

وقوله : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ . قال مجاهد : (لما قبله من كتاب أو رسول) .

وقوله : ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ . قال قتادة : (هما كتابان أنزلهما الله، فيهما بيانٌ من الله ، وعصمةٌ لمن أخذ به وصدّق به ، وعمل بما فيه) .

وقوله : ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ فيه تأويلان :

1 ـ قال محمد بن جعفر بن الزبير : (﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ ، أي : الفصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره) واختاره ابن جرير .

2 ـ قال قتادة: (هو القرآن، أنزله على محمد، وفرّق به بين الحق والباطل، فأحلّ فيه حلاله وحرّم فيه حرامه، وشرع فيه شرائعه، وحدّ فيه حدوده، وفرض فيه فرائضه، وبيّن فيه بيانه، وأمر بطاعته، ونهىٰ عن معصيته).

قلت: ولا شك أن الفرقان من أسماء القرآن الكريم، وبه يفرق الله بين الحق والباطل.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾. قال محمد بن إسحاق، عن محمد بن جعفر بن الزبير: (أي: إن الله منتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء منه فيها).

وقد ذكر ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق أن صدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجران، وكانوا نصارى وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة في ستين راكباً، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم: العاقب أميرُ القوم وذو آرائهم واسمه عبد المسيح، والسَّيِّدُ ثِمالُهم وصاحب مُجْتَمَعهم واسمه الأيْهم، وأبو حارثة بن عَلْقَمَةَ أخو بني بكر بن وائل أُسقُفّهم وعالمهم، فدخلوا على رسول الله ﷺ إثر صلاة العصر، عليهم ثياب الحِبَرات جُبَبٌ وأرْدية. فقال أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا وفداً مثلهم جَمالاً وجلالة. وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد النبي ﷺ إلى المَشْرِق. فقال النبي ﷺ: دَعُوهم. ثم أقاموا بها أياماً يُناظرون رسول الله ﷺ في عيسى ويزعمون أنه ابن الله، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة، ورسول الله ﷺ يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصرون، ونزل فيهم صَدْر هذه السورة إلى نَيِّف وثمانين آية، إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة[1].

5 - 6. **قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾.**

في هذه الآيات: يخبر تعالى عباده أنه يعلم السر وأخفى، ويعلم ما في السماوات

(1) انظر سيرة ابن هشام (2/151-155) عن ابن إسحاق مطوّلاً، عن محمد بن جعفر بن الزبير. وذكره الواحدي في أسباب النزول(190)، وانظر تفسير القرطبي، (سورة آل عمران آية (2)).

وما في الأرض ، لا يخفى عليه شيء من ذلك .

قال قتادة : (﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ : قادر والله ربُّنا أن يصوِّرَ عبادَه في الأرحام كيف يشاء ، من ذكر أو أنثى ، أو أسود أو أحمر ، تام خلقه وغير تام) .

وفي الآية تعريض بل تصريح أن عيسى بن مريم عبد مخلوق كغيره من سائر البشر .

قال الربيع : (﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ ، أي : أنه صوّر عيسى في الرحم كيف شاء) . والمقصود : كيف يكون إلهاً كما زعمت النصارىٰ وقد تقلّب في الأحشاء ، وتنقّل من حال إلى حال .

وقوله : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . تأكيد وتنزيه من الله تعالى ذكره نفسه أن يكون له في ربوبيته ندّ أو مِثل ، أو أن تجوز الألوهة لغَيره ، وتكذيب منه للذين قالوا في عيسى ما قالوا . قال الربيع : (﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، يقول : عزيز في نقمته ، حكيم في أمره) .

7 - 9. قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يبين سبحانه لعباده أن في القرآن آيات محكمات ، هن أمّ الكتاب ، أي : أصله وثوابته ، فإليها المرجع عند التحاكم ، وآيات أخرىٰ تحتمل التأويل ، فيها اشتباه على كثير من الناس أو بعضهم ، وإنما منهج المؤمنين أهل العلم برد المتشابه إلى المحكم لفهمه استناداً إلى ثوابت الدين ومقاصده وأركانه وقواعده ، وسؤال الله الثبات على الحق والهداية والبعد عن الزيغ والفتن ، والنجاة يوم يجمع الله عباده ويفصل بينهم ، إنه الحق ووعده الحق وهو أرحم الراحمين .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن أبي مُليكة ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: [تلا رسول الله ﷺ ، هذه الآية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ قالت: قال رسول الله ﷺ: فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم][1] .

وفي لفظ لأحمد: (إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنىٰ الله ، فاحذروهم)[2] . وفي لفظ عند الترمذي: (فإذا رَأَيْتيهم فاعْرِفيهم).

وقد ورد في تفسير المحكم والمتشابه أقوال متقاربة ، منها:

1 ـ قال ابن عباس : (المحكمات ناسخه ، وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وأحكامه ، وما يُؤمر به ويُعمل به). وقال: (المحكمات قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ والآيات بعدها. وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ إلى ثلاث آيات بعدها).

2 ـ قال سعيد بن جبير: (﴿ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يقول : أصل الكتاب ، وإنما سماهنَّ أم الكتاب لأنهن مكتوبات في جميع الكتب). وقال مقاتل بن حيان: (لأنه ليس من أهل دين إلا يرضى بهن).

3 ـ وقال يحيىٰ بن يعمر: (الفرائض ، والأمر والنهي ، والحلال والحرام).

4 ـ قال قتادة: (المحكمات: الناسخ الذي يعمل به ، ما أحلّ الله فيه حلاله وحرّم فيه حرامه ، وأما المتشابهات: فالمنسوخ الذي لا يُعمل به ويُؤمن به).

5 ـ قال محمد بن جعفر بن الزبير: (﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ ﴾ ، فيهن حجّة الرب ، وعصمةُ العباد ، ودفعُ الخصوم والباطل ، ليس لها تصريف ولا تحريف عمّا وضعت عليه ، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ ، في الصدق ، لهن تصريف وتحريف وتأويل ، ابتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، لا يُصرفن إلى الباطل ولا يحرّفن عن الحق).

6 ـ قال مجاهد: (المتشابهات يصدق بعضهن بعضاً). وهذا كما ذكر في تفسير قوله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4547) ، ومسلم (2665) ، وأبو داود (4598) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (48/6). قال الحافظ في الفتح (210/8): (سمع ابن أبي مُليكة من عائشة كثيراً. وكثيراً أيضاً ما يدخل بينهما واسطة).

تعالى: ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾ ، فالمتشابه الكلام يكون في سياق واحد ، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين ، كصفة الجنة وصفة النار ، وذكر حال الأبرار وحال الفجار ، ونحو ذلك. وأما ها هنا فالمتشابه الذي يقابل المحكم.

وقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ . قال مجاهد: (شك). وقال محمد بن جعفر بن الزبير: (أي: ميل عن الهدى). وقال ابن جريج: (﴿ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ ، المنافقون). والمقصود: أهل الضلال والخروج عن الحق ومنهاجه إلى سبل الباطل والأهواء والشبهات.

وقوله: ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ . يعني ما تشابهت ألفاظه وتصرّفت معانيه بوجوه التأويلات ، بهدف التلبيس على ضعاف العلم والمعرفة بالدين.

قال ابن عباس: (﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ ، فيحملون المحكم على المتشابه ، والمتشابه على المحكم ، ويلبّسون ، فلبّس الله عليهم). وقال مجاهد: (الباب الذي ضلوا منه وهلكوا فيه ابتغاء تأويله). وقال محمد بن جعفر بن الزبير: (﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ﴾ ، أي: ما تحرّف منه وتصرف ، ليصدقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا ، ليكون لهم حجة على ما قالوا وشُبْهة). وقال السدي: (يتبعون المنسوخ والناسخ فيقولون: ما بال هذه الآية عمل بها كذا وكذا مكان هذه الآية ، فتركت الأولى وعُمل بهذه الأخرى ؟ هلاّ كان العمل بهذه الآية قبل أن تجيء الأولىٰ التي نُسخت ؟ وما باله يعد العذابَ مَنْ عمل عملاً يعذبه في النار ، وفي مكان آخر: مَنْ عمله فإنه لم يُوجب النار).

وقوله: ﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ فيه أقوال:

1 ـ قال السدي: (إرادة الشرك).

2 ـ قال مجاهد: (﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ : الشبهات ، بها أُهلكوا). أو قال: (والشبهات ما أهلكوا به).

3 ـ قال محمد بن جعفر بن الزبير: (﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ ، أي: اللَّبْس). واختاره ابن جرير مع ما قبله. قال الحافظ ابن كثير: (﴿ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾ أي: الإضلال لأتباعهم ، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجّة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارىٰ بأن القرآن قد نطق بأن عيسىٰ روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: 59] وبقوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59] ، وغير ذلك من

الآيات المحكمة المصرحة بأنه خَلْقٌ من مخلوقات الله ، وعبدٌ ، ورسولٌ من رسل الله).

وقوله: ﴿ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾. يعني: ابتغاء تحريفه على ما يريدون. وقال السدي: (يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن) أو قال: (متى يأتي الناسخ منه فينسخ المنسوخ). والمقصود: أنهم يريدون بذلك ما يوافق أهواءهم.

وقوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فيه معنيان:

الأول: التأويل بمعنى حقيقة الشيء ، وما يؤول أمره إليه من الحقائق الغيبية.

كقوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ [يوسف: 100]. وكقوله تعالىٰ: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [الأعراف: 53]. والمقصود: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد.

فبمثل هذه الحقائق التي لا يعلم حقيقة كنهها وظهورها إلا الله ، فالوقف هنا على لفظ الجلالة ، ثم يستأنف القول: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾.

يروي ابن جرير بسنده عن هشام بن عروة قال: (كان أبي يقول في هذه الآية: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويله ، ولكنهم يقولون: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾. وكذلك روى عن عمر بن عبد العزيز يقول: (انتهىٰ علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾).

أخرج الطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ قال: [إن القرآن لم ينزل ليكذّب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به][(1)].

الثاني: التأويل بمعنى التفسير والبيان والإيضاح.

كقوله تعالىٰ: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ [يوسف: 36] والمراد بتفسيره. وهذا التعبير عن فهم الآيات مما يعلمه الراسخون في العلم ، فهم يدركون فهم ما خوطبوا به ، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه. وهنا يسوغ الوقف على قوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾.

---

(1) حديث حسن. رجاله ثقات ، انظر مجمع الزوائد (171/1) ، وتفسير ابن كثير (1361).

قال ابن عباس: (التفسير على أربعة أنحاء، فتفسير لا يُعْذَرُ أحدٌ في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله عز وجل).

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: [سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارَؤون، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تُكذِّبوا بعضه بعضاً، فما علِمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه][1].

وفي المسند عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [نزل القرآن على سبعة أحرف، والمراء في القرآن كفر ـ قالها ثلاثاً ـ ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه][2].

وروى ابن جرير بسنده عن مجاهد، عن ابن عباس أنه قال: (أنا ممن يعلم تأويله).

وقال مجاهد: (يعلمون تأويله ويقولون: آمنا به). وقال الضحاك: (﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، قال: المحكم والمتشابه).

وقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾. قال الربيع: (يقولون: المحكم والمتشابه من عند ربنا). أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: [كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا][3].

وقوله: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. قال ابن جرير: (وما يتذكر ويتعظ وينزجر عن أن يقول في متشابه آي كتاب الله ما لا علم له به، إلا أولوا العقول والنهىٰ).

ثم روى عن محمد بن جعفر بن الزبير: (وما يذكر في مثل هذا، يعني: في ردّ

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (185/2)، وابن ماجة (85)، ورجاله ثقات، وله شواهد.
(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (300/2)، وأبو يعلىٰ (6016)، والطبري (11/1)، وله شواهد.
(3) حديث صحيح. انظر تفسير الطبري (30/1)، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1115) لتفصيل البحث.

تأويل المتشابه إلى ما قد عرف من تأويل المحكم ، حتىٰ يتسقا على معنى واحد ، ﴿ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾).

وقوله : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا ﴾ . أي : لا تصرفها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه إلى الضلال والهوىٰ . ﴿ وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً ﴾ تقوي بها إيمان قلوبنا ، فلا تهتز أمام الفتن ، ولا تضعف أمام الشهوات .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾ . يعني : المعطي ، فالثبات والتوفيق والسداد والتصديق بيده سبحانه يهب من ذلك من يشاء .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أم سلمة : [أن رسول الله ﷺ كان يُكثر في دعائه : اللهم مُقَلِّبَ القلوب ، ثبت قلبي على دينك . قالت : قلت : يا رسول الله ، وإن القلب ليتقلّب ؟ قال : نعم ، ما خلق الله من بني آدم من بشر إلا قلبه بين أُصبعين من أصابع الله عز وجل ، فإن شاء أقامه ، وإن شاء أزاغه](1) .

وله شاهد عند ابن جرير عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة ، أن النبي ﷺ كان يقول : [يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . ثم قرأ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴾](2) .

وقوله : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ . أي باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم . قال القرطبي : (وفي هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجاج : هذا هو التأويل الذي عَلِمه الراسخون وأقرّوا به ، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه) .

10 - 11 . قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

في هذه الآيات : يخبر الله سبحانه عن مصير من جحد الحق بعدما تبيّن من أمر نبوة محمد ﷺ ، من يهود بني إسرائيل ومنافقيهم ومنافقي العرب وكفارهم ، وأن ما أوتوه

(1) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (302/6) ، والطبري في التفسير (6648) ، وله شواهد .
(2) حسن الإسناد . أخرجه الطبري في التفسير ـ حديث رقم ـ (6647) ، ويشهد له أحاديث أخرىٰ .

في هذه الحياة الدنيا من أموال وبنين ليس بدافع عنهم عذاب الله يوم القيامة ، كما لم يدفع ذلك عن فرعون وقومه والطغاة من قبله .

وفي التنزيل : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة : 55]. وقد أخبر النبي ﷺ عن مصير بعض المرائين المنافقين من هذه الأمة الذين اتخذوا القرآن وسيلة للكبر والغرور ومصالح الدنيا ، بمثل ما أخبر عن الجاحدين السابقين .

فقد أخرج الطبراني في الكبير بسند حسن عن أم الفضل : [أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة ، فقال : «هل بلّغت» ، يقولها ثلاثاً ـ فقام عمر بن الخطاب وكان أواهاً ، فقال : اللهم نعم ، وحَرَصتَ ، وجَهِدتَ ، ونصحْتَ ، فاصبر . فقال النبي ﷺ : ليظهَرَنّ الإيمان حتىٰ يُرَدَّ الكفر إلى مواطنه ، وليخوضَنّ رجالٌ البحار بالإسلام ، وليأتينّ على الناس زمانٌ يقرؤون القرآن ، فيقرؤونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا ، وقد علمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فما في أولئك من خير . قالوا : يا رسول الله ، فمن أولئك ؟ قال : أولئك منكم وأولئك هم وقود النار][1] .

وقوله : ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ﴾ . قال السدي : (ذكر الذين كفروا وأفعالَ تكذيبهم ، كمثل تكذيب الذين من قبلهم في الجحود والتكذيب) .

والدأب : المثابرة في العمل والتعب فيه ، ثم استخدمته العرب في الشأن والأمر والعادة . قال الربيع : (﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ ، يقول : كسنتهم) . وقال الضحاك : (كعمل آل فرعون) . وقال مجاهد : (كفعل آل فرعون ، كشأن آل فرعون) . وقال ابن عباس : (كصنع آل فرعون) . والمقصود أن الكافرين لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم بل يهلكون ويعذبون كما جرىٰ لآل فرعون والأمم المكذبة قبلهم ، فإن الله ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والأخذ والعذاب لمن سلك طريقتهم .

12- 13 . قوله تعالىٰ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ

(1) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (25/27-28) ، وانظر تفسير ابن كثير ـ سورة البقرة ـ آية (10) ، وانظر : «صحيح الترغيب» (1/133) ، كتاب العلم .

ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

في هذه الآيات: قل يا محمد للذين كفروا ـ من اليهود والمشركين ـ ستغلبون في الدنيا وتحشرون إلى جهنم يوم القيامة. فقد كان لكم عبرة وتفكر في فرقتين التقتا للحرب: فرقة الإيمان يوم بدر، وفرقة الكفر التي تظهر للعين مثلي قوة المسلمين، ومع ذلك فقد نصر الله المؤمنين، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

أخرج ابن هشام وابن جرير بسند مرسل عن عاصم بن عمر بن قتادة: [أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب، ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع، وقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يُصيبكم الله بما أصاب قريشاً. فقالوا: يا محمد لا يغُرنَّك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا؟ فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾][1].

وروى ابن جرير عن عكرمة في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: (قال فِنْحاص اليهودي في يوم بدر: لا يغرَّن محمداً أن غلب قريشاً وقتلهم! إن قريشاً لا تُحسنُ القتال، فنزلت هذه الآية: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾).

وعن مجاهد: (﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، قال: بئسما مَهدُوا لأنفسهم).

وقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾. قال قتادة: (عبرة وتفكر). ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ يعني فرقتين وحزبين، ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ للحرب. ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم رسول الله ﷺ ومن كان معه ممن شهدَ يوم بدر. ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش.

قال مجاهد: (ذلك يوم بدر، التقى المسلمون والكفار).

(1) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (427/2)، وابن جرير في «التفسير» (6664)، والبيهقي في الدلائل (174/3) عن قتادة مرسلاً، ويشهد له ما بعده، فقد أخرجه ابن هشام (426/2) والطبري (6663) والبيهقي (3/173-174) عن ابن عباس وفي سنده محمد بن أبي محمد. قال الذهبي في الميزان: لا يُعرف.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ فيه تأويلان بناء على قراءتين:

القراءة الأولىٰ: قراءة أهل المدينة « ترونهم ». والمعنى: ترون أيها اليهود المشركين مِثْلي المسلمين رأي العين ، ومع ذلك نصر الله المؤمنين لتعتبروا.

القراءة الثانية: قراءة أهل الكوفة والبصرة وبعض المكيين: « يرونهم مثليهم ». أي يرىٰ المسلمون الكفار مثليهم في القدر. وهذه القراءة الأشهر.

وفي الواقع كان المشركون أكثر من ذلك ، كما في المسند وسنن أبي داود من حديث علي ـ في يوم بدر ـ: [قال: ثم إن النبي ﷺ سأله: كم ينحرون من الجزر؟ قال: عشر كل يوم ، فقال رسول الله ﷺ: القوم ألف كل جزور لمئة ونيفها][1].

ورواه ابن إسحاق بلفظ: [قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله ﷺ: القوم ما بين التسع مئة والألف][2].

وأما وجه الجمع بين ذلك وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 44]. فالجواب ـ كما ذكر الحافظ ابن كثير ـ أن هذا كان في حالة والآخر كان في حالة أخرى.

فقد أخرج ابن جرير عن السدي عن مرة الهمداني ، عن ابن مسعود: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ ، قال: (هذا يوم بدر. قد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضْعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً ، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾).

وقال أبو إسحاق ، عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: (لقد قُلِّلُوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة. قال: فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً). فعندما عاين كل من الفريقين الآخر ، رأى المسلمون المشركين مثليهم ، أي: أكثر منهم بالضعف ، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم ، عز وجل. ورأىٰ المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرعب

---

(1) حديث صحيح . رواه أحمد (117/1) ، وأبو داود (2665) ، في أثناء حديث طويل .

(2) رواه ابن إسحاق في «السيرة». وانظر مسند أحمد (193/2) ، وصححه أحمد شاكر برقم (948) ، وكتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة (544/1) .

والخوف والجزع والهلع. ثم لما حصل التصافُّ والتقىٰ الفريقان ، قلّلَ الله هؤلاء في أعين هؤلاء ، وهؤلاء في أعين هؤلاء ، لِيُقْدِمَ كل منهما على الآخر ﴿ لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أي: ليفرّق بين الحق والباطل ، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان ، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: 123]. وقال هاهنا: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله وأفعاله ، وقَدَره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد[1].

14 - 15. **قوله تعالىٰ:** ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: أخبر سبحانه عن أنواع الملاذ التي جعلها في هذه الحياة الدنيا نعمة وفتنة لبني آدم ، من النساء والولد والمال والخيل والأنعام والأرض ، فإن استمتع بها في طاعة الله ووجهها لإعلاء كلمته كان ذلك سعادة له في الدارين ،وما عند الله خير وأبقىٰ.

فبدأ بالنساء ، لأنهن أشد فتنة على الرجال من سائر الملذات الأخرىٰ. وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنىٰ ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم عن أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: [ما تَرَكْتُ بعدي فتنة ، هي أضَرُّ ، على الرجال ، من النساء][2].

(1) انظر تفسير ابن كثير ، سورة آل عمران ، الآيتان (12، 13).

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2740) ، كتاب الرقاق ، باب أكثرأهل الجنة الفقراء ، وأكثرأهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء .

وفي لفظ : [ما تَرَكْتُ بعدي في الناس ، فِتْنةً أضَرَّ على الرجال من النساء] .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم عن ابن عباس قال: قال محمدٌ ﷺ: [اطلعت في الجنة فرأيت أكثرَ أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء][1] .

وله شاهد عنده من حديث عِمرانَ بن حُصَيْن ، أن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ أقل ساكني الجنة النساء] .

الحديث الثالث : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإن الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها ، فَيَنْظُرُ كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أوّلَ فتنةِ بني إسرائيل كانت في النساء][2] .

وأما إن كان القصد الزواج والإكثار من الذرية الصالحة وحصول الإعفاف بهن فهذا أمر قد ندب إليه الشرع في أحاديث ، منها :

الحديث الرابع : أخرج الإمام البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال لي ابنُ عَبّاس : هل تزوجت ؟ قلت : لا ، قال: [فتزوَّج فإن خيرَ هذه الأمة أكثرُها نساء][3] .

الحديث الخامس : أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [الدنيا متاعٌ وخيرُ متاع الدنيا المرأة الصالحة][4] .

الحديث السادس : أخرج الإمام أحمد والنسائي والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة ، قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي النساء خير ؟ قال: [خير النساء التي تسره إذا نظر ، وتُطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ولا مالِها بما يكره][5] .

وله شاهد عند الطبراني من حديث عبد الله بن سلام بلفظ :

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2737) ، كتاب الرقاق . الباب السابق . وانظر كذلك ـ حديث رقم ـ (2738) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2742) ، كتاب الرقاق ، الباب السابق .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (5069) ، كتاب النكاح ، باب كَثْرَةِ النساء .

(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1469) ، كتاب الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة .

(5) حديث حسن . رواه النسائي (72/2) ،والحاكم (161/2) ، وأحمد (251/2) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1838) ، وصحيح الجامع الصغير (3293) .

[خير النساء مَنْ تُسِرُّكَ إذا أبْصَرْتَ ، وتُطيعكَ إذا أَمَرْتَ ، وتَحْفَظُ غَيْبَتَكَ في نفسها ومالك][1].

الحديث السابع: أخرج النسائي وأحمد بسند حسن ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [حُبِّبَ إليَّ من دُنياكم: النساء والطيب ، وجُعلتْ قرّةُ عيني في الصلاة][2].

الحديث الثامن: أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث أنس ، قال رسول الله ﷺ: [تزوجوا الودودَ الولودَ ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة][3].

وله شاهد عند البيهقي من حديث أبي أمامة بلفظ: [تزوجوا فإني مكاثرٌ بكمُ الأممَ ، ولا تكونوا كرهبانية النصارى].

وقوله: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾. قال الضحاك: (يعني المال الكثير من الذهب والفضة).

وقوله: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ فيه أقوال:

1 ـ قال سعيد بن جبير: (الراعية ، التي ترعىٰ). وقال الحسن: (المسرَّحة في الرعي).

2 ـ قال مجاهد: (﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: المطهَّمة). أو قال: (المطهّمة الحسان). وقال عكرمة: (تسويمها: حُسنها). وقال السدي: (﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ، الرائعة). واختاره ابن جرير.

3 ـ قال ابن عباس: (﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ ، يعني المعلَمة). وقال قتادة: (وسيماها شِيَتُها). وقال قتادة: (شِيَةُ الخيل في وجوهها).

4 ـ قال ابن زيد: (﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: المعدّة للجهاد).

والظاهر أن الراجح ما ذهب إليه ابن جرير من أن الخيل المسومة هي المعلَمة بالشِّيات ، الحسان ، الرائعة حسناً من رآها. والمطهمة والمعلمة والرائعة هي معان

---

(1) حديث صحيح ، رجاله ثقات . انظرصحيح الجامع (3294) ، والسلسلة الصحيحة (1838) .

(2) حديث حسن . أخرجه النسائي (61/7) ، وأحمد (128/3) ، وصحيح الجامع الصغير (3119) .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد (158/3) ، والبيهقي (81/7-82) ، وانظر صحيح الجامع الصغير (2938) ، للشاهد بعده ، و(2937) لرواية أبي داود والنسائي .

متقاربة. ويدُل على هذا أن السياق في الآية يقتضي المدح وحسن الوصف لهذه الخيول التي جعلت من الزينة التي يحبها الناس في الحياة الدنيا.

وقوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾. يعني: الإبل والبقر والغنم، فهي ثروة في كل زمان، وللناس ميل إليها لمنافعها الكثيرة في الطعام والشراب واللباس والركوب.

وقوله: ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾. يعني الأرض المتخذة للزرع والغرس وما ينتج عن ذلك من زينة ومصالح واستمتاع.

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن عن سُويد بن هُبيرة، عن النبي ﷺ قال: [خيرُ مال امرئ له مُهْرَةٌ مأمورة، أو سِكّةٌ مأبورة](1).

والمأمورة: الكثيرة النَّسلِ، والسِّكَّةُ: النخل المصطف، والمأبورة: المُلْقَحَة.

وفي المسند وجامع الترمذي بسند صحيح عن أبي قتادة، عن النبي ﷺ قال: [خيرُ الخيلِ الأدهمُ، الأقرَحُ الأرثمُ، المحجَّلُ ثلاثٌ، مطلَقُ اليمين، فإن لم يكن أدْهَمَ فَكُمَيْتٌ على هذه الشِّية](2).

الأدهم: أي الأسود. والأقرح: ما كان في جبهته قرحة، وهو بياض يسير دون الغرة، والمحجل: الذي في قوائمه بياض. الأرثم: الذي أنفه أبيض وشفته العليا. مطلق اليمين: أي يده اليمنىٰ ليس فيها تحجيل. (فكميت) هو الذي لونه بين السواد والحمرة. والشية: كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره.

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [يُمْنُ الخَيْلِ في الشُّقْرِ](3).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. أي: كل ذلك مما يُستمتع به في هذه الدنيا الفانية ويحرص عليه الناس لقضاء شهواتهم، وقليلٌ مَنْ يَصْرِفُهُ في طاعة الله والتقوي على إقامة دينه في الأرض.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (468/3)، والطبراني في الكبير (6470)، ورجال أحمد ثقات.
(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (1763)، باب ما يستحب من الخيل. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3268).
(3) حسن صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (1386) الباب السابق، وصحيح المشكاة (3879).

قال عمر: (تمعْدَدوا[1] واخْشَوشِنوا واقطعوا الرّكُبَ[2] وثبوا على الخيل وَثْباً لا تغلبنّكم عليها رعاة الإبل).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾. أي حسن المنقلب، وهي الجنة.

وقوله: ﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. أي: قل يا محمد للناس: هل أخبركم عن بديل هذه الزينة الزائلة التي سترحلون عنها بين عشية وضحاها، إنه هذا النعيم الخالد في جنات الله المستقرة التي تَتَخَرَّقُ الأنهار بين جوانبها وأرجائها وتحت أشجارها وثمارها، والتي فيها ما لذّ وطاب من كل بهجة وسرور، وشراب من لبن وعسل وماء وخمور، ولطيف العيش في جوار النساء الحور، فهن ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ من الدنس والخبث والأذىٰ، والحيض والنفاس وما يعتري نساء الدنيا من الأمور، ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ فهو غاية سعادة الدنيا والآخرة، أن يحظىٰ المؤمن برضوان ربه فلا يسخط عليه بعده أبداً.

وفي التنزيل: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: 72]. أي: أكبر من كل سعادة ولذة.

أخرج الحاكم وابن حبان بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله عز وجل: هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ فيقولون: ربنا وما فوق ما أعطيتنا؟ قال: فيقول: رضواني أكبر][3].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ قال القرطبي: (وعد ووعيد).

16 - 17. قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا

(1) تمعدد الغلام: إذا شب وغلظ.
(2) هي كل ما يركب من دابة. أو هي الرواحل من الإبل. فأمرهم بملازمة الخيل ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها.
(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (82/1)، وابن حبان (2647) من حديث جابر بن عبد الله، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1336).

وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

في هذه الآيات: نَعْتٌ للمتقين أهل السعادة في الدارين. فهم يقولون: ربنا إننا صدّقنا بك وبنبيك وما جاء من عندك، فاستر علينا ذنوبنا، بعفوك عنها، وتجاوزك عن عقوبتنا عليها، وادفع عنا عذاب النار فنجنا منها إلى دار الخلود والنعيم. وهم الصابرون، والصادقون، والقانتون، والمنفقون أموالهم في طاعة الله، والمستغفرون بالأسحار.

وعن قتادة: (﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ﴾. «الصادقين» قوم صدقت أفواههم واستقامت قلوبهم وألسنتهم، وصدقوا في السرّ والعلانية، و﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ قوم صبروا على طاعة الله، وصبروا عن محـارمه، والقانتون هم المطيعون لله).

وأما ﴿المنفقون﴾ فهم الباذلون من أموالهم في ألوان الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، ومواساة ذي الحاجات، وسدّ الخلات، من الزكوات والصدقات.

وقوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾. قال قتادة: (هم أصل الصلاة. قال: يصلون بالأسحار). وقال زيد بن أسلم: (هم الذين يشهدون الصبح).

قال ابن جرير: (هم السائلون ربهم أن يستر عليهم فضيحتهم بها). وقال: (وقد يحتمل أن يكون معناه: تعرّضُهم لمغفرته بالعمل والصلاة. غير أن أظهر معانيه ما ذكرناه من الدعاء).

قلت: والأسحار: جمع «سَحَر»، وهو وقت مبارك للدعاء والاستغفار والصلاة، وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر ذلك، في أحاديث، نذكر منها:

الحديث الأول: يروي البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [يَنْزِلُ ربنا تبارك وتعالىٰ كُلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ الليل الآخِرُ يقول: مَنْ يدعوني فأستجيبَ لَهُ، مَنْ يَسْألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغْفِرَ له][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1145)، كتاب التهجد، وأخرجه مسلم برقم (758)، ورواه أحمد في المسند (387/2).

الحديث الثاني: يروي البخاري عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها كيف صلاةُ رسول الله ﷺ بالليل ؟ قالت: [كان ينامُ أوَّلَهُ ويقومُ آخِرَهُ فيصلّي ، ثم يرجع إلى فراشه ، فإذا أذَّنَ المؤذن وَثَبَ ، فإن كانَتْ به حاجةٌ اغتسل وإلا توضأ وخرج][1]

قال البخاري: (وقال سلمانُ لأبي الدرداء رضي الله عنهما: نَمْ ، فلما كان من آخِرِ الليل قال: قمْ ، قال النبي ﷺ: صدقَ سلمان).

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عمرو بن عبسة ، عن النبي ﷺ قال: [أقرب ما يكونُ الرب من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن][2].

الحديث الرابع: أخرج الشيخان وأحمد وأصحاب السنن عن عائشة رضي الله عنها قالت: [مِنْ كُلِّ الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره ، فانتهىٰ وتره إلى السَّحَر][3].

وروى ابن أبي حاتم عن نافع قال: (وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ، ثم يقول: يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال: نعم ، أقبل على الدعاء والاستغفار حتىٰ يصبح). وروى ابن جرير بسنده عن إبراهيم بن حاطب ، عن أبيه قال: (سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: ربِّ أمرتني فأطعتك ، وهذا سحرٌ فاغفر لي. فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه).

18 - 20. قوله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1146) ، كتاب التهجد ، باب من نام أول الليل وأحْيا آخره .
(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في السنن (3579). انظر صحيح سنن الترمذي (2833). وانظر صحيح الترغيب (276/2) ، وصحيح الجامع الصغير (1184) .
(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (996) ومسلم (745) ، وأحمد (46/6) ، وأبو داود (1435) والنسائي (230/3) ، والترمذي (456) ، وابن ماجة (1185) ، ورواه ابن حبان والبيهقي .

بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ .

في هـذه الآيـات: شهد الله سبحانه أنه المتفرد بالإلهية ، الغني عما سواه ، وأن جميع الخلق عبيد محتاجون لرحمته . وأن الدين عنده هو الإسلام ، ومن ابتغى غيره فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين .

قال السدي : (﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ إلى ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ، قال : الله يشهد هو والملائكة والعلماء من الناس : أنّ الدين عند الله الإسلام) .

وقوله : ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ . خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ، وبيان لفضل أهل العلم ، ومكانة العلم والعلماء .

وقوله : ﴿ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ في محل نصب على الحال ، قال مجاهد : (﴿ بِٱلْقِسْطِ ۚ ﴾ : بالعدل) . والمقصود أنه سبحانه هو الذي يلي العدل بين خلقه .

وقوله : ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ تأكيد لما سبق من تفرده سبحانه بالألوهية وكمال التعظيم ، وهو العزيز في كبريائه وعظمته ، فلا يرام جَنابُه ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ ﴾ . إخبار منه سبحانه أنه لا يقبل من أحد إلا الإسلام ، كما قال جل ذكره : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

قال قتادة : (﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ ﴾ ، والإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذي شرع لنفسه ، وبعث به رسله ، ودلّ عليه أولياءه ، لا يقبل غيره ، ولا يجزي إلا به) .

وقال أبو العالية : (الإسلام : الإخلاص لله وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وسائر الفرائض لهذا تَبَعٌ) .

وقوله: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾. قال الربيع: قال أبو العالية: (إلا من بعد ما جاءهم الكتاب والعلم، بغياً على الدنيا، وطلبَ ملكها وسلطانها، فقتل بعضهم بعضاً على الدنيا، من بعد ما كانوا علماءَ الناس).

وقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾. أي: سريع الإحصاء. قال مجاهد: (إحصاؤه عليهم).

وقوله: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾. قال محمد بن جعفر بن الزبير: (﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي: بما يأتونك به من الباطل، من قولهم: «خلقنا، وفعلنا، وجعلنا، وأمرنا»، فإنما هي شبه باطلة قد عرفوا ما فيها من الحق، ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾). وقال ابن جرير فيها: (فإن حاجّك، يا محمد، النفر من نصارى أهل نجران في أمر عيسى صلوات الله عليه، فخاصموك فيه بالباطل، فقل: انقدت لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي، وإنما خصّ جل ذكره بأمره بأن يقول: ﴿ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾، لأن الوجه أكرمُ جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه، فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه).

وقوله: ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ أي: وأسلم من اتبعني أيضاً وجهه لله معي.

وقوله: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ﴾. يعني: وقل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، والأميين: الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب، هل أسلمتم وأفردتم التوحيد والتعظيم لله سبحانه وتركتم الأوثان والأنداد فكفرتم بها، فإن انقادوا لذلك فقد أصابوا سبيل الحق والمؤمنين، ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. يعني: إن أعرضوا فقد أعذرت من أنذرت والله يتولىٰ الأمر، فيعلم من يستحق الهداية ممن يستحق الغواية والضلال.

فائدة: هذه الآية تشير إلى عموم دعوته ﷺ إلى سائر الأمم.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

وقال تعالىٰ: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾.

وقد حفلت السنة الصحيحة بذلك المعنى في أحاديث ، منها :

الحديث الأول : أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [والذي نفس محمد بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به ، إلا كان من أصحاب النار][1] .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم ، واللفظ له ، عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : [أُعطيت خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أَحدٌ قبلي : كان كُلُّ نَبيٍّ يُبْعثُ إلى قومه خاصة ، وَبُعِثْتُ إلى كلِّ أحمرَ وأسودَ . وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ ، ولم تُحَلَّ لأحدٍ قبلي . وجُعِلتْ لي الأرضُ طيبةً طهوراً ومسجداً ، فَأيُّما رَجُلٍ أدركتْهُ الصلاةُ صلّىٰ حيث كان ، ونُصِرْتُ بالرعب بين يَديْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ ، وأعطيت الشفاعة][2] .

الحديث الثالث : أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : [فُضِّلْتُ على الأنبياء بِسِتٍّ : أُعطيت جوامِعَ الكلِم ، ونُصِرْتُ بالرُّعْب ، وأُحِلَّتْ لي المغانم ، وجُعلت لي الأرض طهوراً ومَسْجداً ، وأُرسِلْتُ إلى الخلق كافة ، وَخُتِمَ بي النبيون][3] .

الحديث الرابع : أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أنس رضي الله عنه : [أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ، ويناوله نَعْلَيه ، فَمَرِضَ فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبي ﷺ : يا فلان ، قل : لا إلٰه إلا الله . فنظر إلى أبيه ، فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ ، فنظر إلى أبيه ، فقال أبوه : أطع أبا القاسم . فقال الغلام : أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله . فخرج النبي ﷺ وهو يقول : الحمد لله الذي أخرجه بي من النار][4] .

21 - 22 . قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ

---

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (153) ، كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (521) ، وأخرجه البخاري (335) ، (3122) ، وأحمد (304/3) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (523) ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1356) ، وأحمد (280/3) ، وأبو داود (3095) .

حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إن الكفرة الذين جمعوا إلى كفرهم بآيات الله قتل الأنبياء والعلماء والصالحين لهم عذاب أليم. فهم الذين أحبط الله أعمالهم في الدارين، وما لهم من أولياء ولا ناصرين.

يروي ابن جرير بسنده عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: (ثم جمع أهل الكتابين جميعاً، وذكر ما أحدثوا وابتدعوا، من اليهود والنصارىٰ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾).

فالآية ذمٌّ لأهل الكتاب فيما صدر منهم من اجتراح للمحارم وارتكاب للآثام، ومن أشد ذلك قتلهم النبيين بغير حق.

أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: [أشد الناس عذاباً يوم القيامة: رجل قتله نبي، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين][1].

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» بلفظ: [أشد الناس عذاباً يومَ القيامة رجلٌ قتلَ نبيّاً أو قتله نبيٌّ، أو رجلٌ يضلُّ الناس بغير علم، أو مصور يصوّر التماثيل].

وقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. قال قتادة: (هؤلاء أهل الكتاب، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكِّرونهم، فيقتلونهم).

وهذا شأن الطغاة على مدار الزمان، يرون في رجال الحق مصدر قلق عليهم، وموضع ضرر على شهواتهم وكبرهم في الأرض، فيقتلونهم لئلا يكشف أمرهم وينفض الناس عنهم، وهذا هو غاية البغي والكبر والعلو في الأرض بالظلم.

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (407/1)، وانظر معجم الطبراني «الكبير» (2/80/3)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (281)، وصحيح الجامع الصغير، حديث رقم (1011).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ من كِبر. قال رجل: إن الرجل يحبُّ أن يكون ثوبُه حسناً، ونَعْلُهُ حسنةً. قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ: بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس][(1)].

وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

فقابلهم الله بكبرهم وطغيانهم أن هيأ لهم عذاباً موجعاً بعد أن أحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة، ولا سبيل لهم إلى النجاة من عذابه وعقابه.

23 - 25. قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٢٤ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥﴾.

في هذه الآيات: فَضْحُ سبيل اليهود في كذبهم، وتأكيد عذاب النار الواقع بهم.

قال قتادة: (﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾، الآية، قال: هم اليهود، دُعوا إلى كتاب الله وإلى نبيه، وهم يجدونه مكتوباً عندهم، ثم يتولون وهم معرضون).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾. قال الربيع: (قالوا: لن نعذب في النار إلا أربعين يوماً. قال: يعني اليهود. وقال: هي الأيام التي نصبوا فيها العجل). وقال قتادة: (قالوا: لن تمسنا النار إلا تحلة القسم التي نصبنا فيها العجل، ثم ينقطع القسم والعذاب عنا، قال الله عز وجل: ﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، أي قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾. أي: كيف يكون حالهم وقد سقطوا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (91)، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

في قبضة العدل ، لينالوا نصيبهم لقاء كذبهم وظلمهم وقتلهم للأنبياء والمؤمنين ، ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

26-27 . قوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إثبات الملك كله لله ، وأن العطاء والمنع بيد الله ، فهو المعزّ المُذِلّ مولج الليل في النهار والنهار في الليل ، وهو المحيي والمميت والرزاق بغير حساب .

فقوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ . يقول تعالىٰ ذكره : قل يا محمد ، مقدساً ربك معظماً له ولقدرته وجبروته . يروي ابن جرير بسنده عن محمد بن جعفر بن الزبير : (قوله : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ ، أي : ربَّ العباد الملكَ ، لا يقضي فيهم غيرك) .

والمعنىٰ : الملك كله بيد الله ، يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويأتي بملوك بعد ملوك .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ : [لا تسبوا الدهر ، فإن الله عز وجل قال : أنا الدهر ، الأيام والليالي لي أجددها وأبليها ، وآتي بملوك بعد ملوك][1] .

وفي لفظ لمسلم : [قال الله تعالىٰ : يؤذيني ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره ، فإذا شئت قبضتهما] .

وأخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، من حديث عُبيد الله بن رُفاعة عن أبيه قال : [لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون ، قال رسول الله ﷺ : استووا حتىٰ أثني على ربي ، فصاروا خلفه صفوفاً ، فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسطَ لما قبضت ، ولا هادي لما أضللت ، ولا مضل لمن هديت ،

(1) حديث صحيح . انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1813) ، (1814) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (882/2) لتفصيل هذا البحث .

ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت ، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، . . . .] الحديث[1] .

وقوله : ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ . أي : بإعطائه الملك والسلطان ، وبسط القدرة له ، أو بسلبه الملك وتسليط العدو والذل عليه .

وجاء في قنوت الوتر الذي علمه رسول الله ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنه : [وإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت] . أخرجه ابن خزيمة بسند صحيح .

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن المقداد بن الأسود ، عن النبي ﷺ قال : [ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين ، بعز عزيز أو بذل ذليل ، عِزّاً يعز الله به الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر][2] .

وقوله : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . يعني : إن ذلك بيدك لا إلى غيرك ، إذ لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك ، قال تعالىٰ : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾ [الروم : 54] .

وقوله : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾ . أي : تزيد في طول هذا وتنقص من طول هذا فيعتدلان ، على مدار السنة في الفصول الأربعة .

قال ابن عباس : (ما نقص من النهار يجعله في الليل ، وما نقص من الليل يجعله في النهار) . وقال قتادة : (هو نقصان أحدهما في الآخر) . وقال الضحاك : (يعني أنه يأخذها أحدُهما من الآخر ، فيكون الليل أحياناً أطول من النهار ، والنهار أحياناً أطول من الليل) .

وقال ابن زيد : (هذا طويل وهذا قصير ، أخذ من هذا فأولجه في هذا ، حتىٰ صار هذا طويلاً وهذا قصيراً) .

وقوله : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ . يعني : النطفة تخرج من الرجل وهي ميتة وهو حي ، ويخرج الرجل منها حياً وهي ميتة .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (424/3) ، ورجاله رجال الصحيح . وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين : القرآن والسنة الصحيحة ، البحث (41) (ج2/ ص740) .

(2) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1631 -1632) . ورواه أحمد والطبراني من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (3/1) ص7 .

قال مجاهد: (الناس الأحياء من النُّطف والنُّطف ميتة ،ويخرجها من الناس الأحياء ، والأنعام).

وهناك تفاسير أخرىٰ تصب في المعنىٰ:

1 ـ قال عكرمة: (النخلة من النواة والنواة من النخلة ،والحبة من السنبلة والسنبلة من الحبة). وقال: (هي البيضة تخرج من الحي وهي ميتة ، ثم يخرج منها الحي).

2 ـ قال الحسن: (﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ ، يعني المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والمؤمن عبد حيُّ الفؤاد ، والكافر عبدٌ ميتُ الفؤاد).

3 ـ قال ابن زيد: (النطفة ميتة ، فتخرج منها أحياء. قال: تخرج النطفة من هؤلاء الأحياء ، والحبُّ ميتٌ تخرج منه حبّاً. قال: تخرج من هذا الحيّ حباً ميتاً).

وخلاصة المعنىٰ: تخرج الحياة من النطفة الميتة ، وتخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرىٰ هذا المجرىٰ من جميع الكائنات والأشياء.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. أي: تغدق المال والخير على من تشاء مما لا قدرة على إحصائه ، وتقتّر على آخرين كيف شئت ، فلك الحكمة الكاملة في القبض والبسط.

أخرج الإمام أحمد عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ هو الخالق ، القابضُ ، الباسطُ ، الرازق ، المُسَعِّرُ ، وإني لأرجو أن ألقىٰ الله ولا يطلبني أحدٌ بمظلمة ظلمتها إياه في دمٍ ولا مال][1].

28. قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ

(1) حديث صحيح . رواه أحمد بسند صحيح. انظر صحيح الجامع (1842) ،وكتابي : أصل الدين والإيمان (386/1) ، ورواه أهل السنن إلا النسائي . انظر صحيح أبي داود (2945).

ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾.

في هذه الآية: نهيٌ من الله سبحانه المؤمنين أن يتخذوا أعواناً لهم من الكافرين أو أنصاراً وظهوراً، ومن يفعل ذلك يبرأ من الله عز وجل.

قال ابن عباس: (نهىٰ الله سبحانه المؤمنين أن يُلاطفوا الكفار أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفارُ عليهم ظاهرين، فيظهرون لهم اللُّطف، ويخالفونهم في الدين. وذلك قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾). قال: (التقاة التكلم باللسان، وقلبه مطمئن بالإيمان). وقال مجاهد: (إلا مصانعةً في الدنيا ومخالفة).

وقال أبو العالية: (التقيَّة باللسان وليس بالعمل). وقال عكرمة: (ما لم يُهرق دم مسلم، وما لم يستحل ماله).

قال البخاري: (قال الحسن: التقيَّةُ إلى يوم القيامة). وكذلك حكى البخاري عن أبي الدرداء، أنه قال: (إنا لنكشرُ في وُجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم).

وقال قتادة: (﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾، الرحم من المشركين، من غير أن يتولوهم في دينهم، إلا أن يصل رحماً له في المشركين). وقال الحسن فيها: (صاحبهم في الدنيا معروفاً، الرحم وغيره. فأما في الدين فلا).

قلت: والأول أظهر، فالرحم يستثنىٰ منه الوالدان بحسن الصحبة مع مخالفة الشرك إذا كانا عليه، والسياق يدل أكثر على المعنىٰ الأول.

وقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾. أي: يخوفكم بطشه وغضبه إن واليتم الكفار.

وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي لله مرجعكم ومصيركم إذا خرجتم من قبوركم للحساب.

29-30. قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ

مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إن الله يعلم السر من عباده وأخفىٰ. ويكشف لكل امرئ يوم الحساب ما ترك لنفسه من العمل وأبقىٰ، والله تعالى يحذر عباده مغبة مخالفة التقوى.

قال السدي: (أخبرهم أنه يعلم ما أسرّوا من ذلك وما أعلنوا، فقال: ﴿ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ ﴾).

وقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾. أي: فكيف يخفىٰ عليه موالاتكم لأعدائه أو ما أخفيتم في صدوركم لهم من الميل والمودة والمحبة، وهو يعلم السر في السماوات والأرض ولا يخفىٰ عليه من ذلك شيء. ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾: فلو شاء عاجلكم بالعقوبة على ما ظهر من موالاتكم لأعدائه الكافرين، فانتبهوا وانتهوا.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾. قال قتادة: (موفَّراً).

وقوله: ﴿ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾. قال الحسن: (يسر أحدَهم أن لا يلقىٰ عمله ذاك أبداً، يكون ذلك مُناه. وأما في الدنيا فقد كانت خطيئة يستلذّها).

وقوله: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. قال الحسن: (من رأفته بهم أن حذّرهم نفسه).

31-32. قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إن صدق محبة الله تعالىٰ تعني اتباع نبيّه ﷺ واتخاذه أسوة، فذلك الذي يورث محبة الله عباده ومغفرة ذنوبهم. إن طاعة الله وطاعة رسوله فيهما النجاة كل النجاة، والكافرون لهم عذاب أليم.

قال الحسن البصري: (زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾).

والمقصود أن من ادّعىٰ محبة الله تعالىٰ، فالحَكَمُ هو التزامه منهج السيرة النبوية العطرة، والسنة المحمدية المطهرة، وإلا فما أكثر الادعاء والكذب.

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ][1]. وفي لفظ: [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ].

وجاء في الشرح والإبانة (153) عن الفضيل بن عياض يقول: (أدركت خيار الناس كلهم أصحاب سنة ينهون عن أصحاب البدع).

وذكر اللالكائي (65/1): قيل لأبي بكر بن عياش (ت 194هـ): من السني؟ قال: (الذي إذا ذكرت الأهواء لم يتعصب إلى شيء منها).

وعند الدارمي عن الحسن البصري قال: (فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضىٰ، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الأتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتىٰ لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا).

وجاء في مقدمة صحيح مسلم (15/1) عن ابن سيرين (ت110هـ) يقول: (لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم).

وقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. أي ببركة صدق اتباعكم لرسوله ﷺ يتجاوز الله عما مضىٰ من زلاتكم ومعاصيكم، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾. تأكيد للأمر، وبيان لسبيل النجاة.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾. تهديد ووعيد لمن ارتضىٰ غير ذلك. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه وصف بالكفر لمخالفة طريق النبوة، والله لا يحب الكفر ولا الكافرين.

33-34. قوله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1718)، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، وردّ محدثات الأمور.

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن المصطفين الأخيار: آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران في ذرية الأبرار.

قال قتادة: (ذكر الله أهل بيتين صالحين، ورجلين صالحين، ففضلهم على العالمين، فكان محمدٌ من آل إبراهيم). وقال الحسن: (فضلهم الله على العالمين بالنبوّة، على الناس كلهم، كانوا هم الأنبياء الأتقياء المصطفين لربهم).

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾. يعني في الموالاة في الدين وتعظيم الحق.

قال قتادة: (﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾، يقول: في النية والعمل والإخلاص والتوحيد له). وفي نصب «ذرية» وجهان أو أكثر، فهي إما منصوبة على الحال، أي في حال كون بعضهم من بعض، أي ذرية بعضها من ولد بعض. أو هي بدل، والتقدير: اصطفىٰ ذرية بعضها من بعض. أو هي منصوبة على القطع، والتقدير: إن الله اصطفىٰ آل إبراهيم وآل عمران ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ﴾.

والمراد بعمران والد مريم بنت عمران، أم عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. قال ابن جرير: (يعني بذلك: والله ذُو سمع لقول امرأة عمران، وذو علم بما تضمره في نفسها، إذ نذرت له ما في بطنها محرراً).

36-35. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾.

في هذه الآيات: لجوء أم مريم عليها السلام إلى الله تعالى بالدعاء، ليتقبَّل ما في بطنها خالصاً للعبادة وخدمة بيت المقدس، وليعيذ المولودة مريم وذريتها من الشيطان الرجيم.

وقوله: ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾. هي أم مريم عليها السلام، وهي حنَّةُ بنت فاقوذ جدّة عيسىٰ عليه السلام. زوجها عمران. قال محمد بن إسحاق: (تزوج زكريا وعمران

أختين ، فكانت أمّ يحيىٰ عند زكريا ،وكانت أم مريم عند عمران ، فهلك عمران وأم مريم حاملٌ بمريم). قال: (وكانت امرأة لا تحمل ، فرأت يوماً طائراً يَزُقُّ فرخه ، فاشتهت الولد ، فدعت الله تعالىٰ أن يَهَبَها ولداً ، فاستجاب الله دعاءها ، فواقعها زوجها ، فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محرراً أي: خالصاً مفرغاً للعبادة ولخدمة بيت المقدس ، فقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾). أي: السميع لدعائي ، العليم بنيتي.

وقال مجاهد: (﴿مُحَرَّرًا﴾: خادماً للبِيعة). أو قال: (خادماً للكنيسة). وقال الشعبي: (جعلته في الكنيسة ، وفرّغته للعبادة). وقال الضحاك: (جعلت ولدها لله ، وللذين يدرسُون الكتاب ويتعلّمونه).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ يعني ولدتها. ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ أي: ولدت النذيرة أنثىٰ.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ فيه قراءتان: الأولىٰ: «وضعتُ». والثانية: «وضعتْ» وهي الأشهر عند القراء.

وقوله: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾. أي في القوة والخدمة والجَلَد في العبادة والقيام بشؤون المسجد الأقصىٰ. قال ابن إسحاق: (لأن الذكر هو أقوىٰ على ذلك من الأنثى). وقال عكرمة: (﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: يعني: في المحيض ، ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال ، أمها تقول ذلك).

وقوله: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. قال ابن كثير: (فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ، لأنه شرع من قبلنا ، وقد حُكي مقرراً).

وقد جاء في السنة الصحيحة ما يؤيد ذلك ، في أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [وُلِدَ لي الليلةَ غلامٌ ، فَسَمَّيْتُهُ باسم أبي ، إبراهيمَ ـ عليه السلام][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم ـ واللفظ له ـ من حديث جابر قال: [ولد لرجل منا غلامٌ ، فسماه محمداً ، فقال له قومه: لا نَدَعُكَ تُسَمِّيَ باسمِ رسول الله ﷺ ،

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2315) ، وأبو داود (3126) ، وأحمد (194/3) .

فانطلق بابنه حاملَهُ على ظهره ، فأتىٰ به النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ، وُلِدَ لي غلامٌ ، فَسَمَّيْتُه مُحمّداً ، فقال لي قومي: لا نَدَعُكَ تُسَمِّي باسم رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: تَسَمَّوْا باسمي ولا تَكْتَنُوا بِكُنْيتي ، فإنما أنا قاسم ، أقسِمُ بينكم][1].

ولفظ البخاري: [يا رسول الله: وُلد لي الليلة وَلَدٌ ، فما أسمِّيه ؟ قال: أَسْمِ ابنك عبد الرحمٰن].

الحديث الثالث: أخرج الشيخان وأحمد وأبو داود عن أنس بن مالك قال: [ذَهَبْتُ بعبد الله بن أبي طلحة الأنصاري إلى رسول الله ﷺ حين وُلِدَ ، ورسولُ الله ﷺ في عَبَاءة يَهْنَأُ[2] بعيراً له ، فقال: هل معك تمرٌ ؟ فقلت: نعم ، فناولته تَمرات ، فألقاهن في فيه ، فَلاكَهُنَّ ثم فَغَرَ فا[3] الصبي فمجَّهُ في فيه ، فجعل الصبي يتلمَّظُهُ ، قال رسول الله ﷺ: حُبُّ الأنصار التَّمْرُ. وسمّاه عبدَ الله][4].

قلت: وأما حديث سَمُرَة بن جُندب: أن رسول الله ﷺ ، قال: [كُلُّ غلام رهين بعقيقته ، يُذْبح عنه يوم سابعه ، ويُسَمَّىٰ ، ويُحْلَقُ رأسه][5]. فيحمل عندئذ على إشهار الاسم بين الناس إن كان قد سَمّاه.

وقوله: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾. يعني: إني أجعل مَعاذها ومَعاذ ذريتها من الشيطان الرجيم ، بك. فاستجاب الله دعاءها فأعاذها من الشيطان ، وأعاذ ذريتها ، وهو ولدها عيسىٰ عليه السلام.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من مولود يولَدُ إلا مسّه الشيطان حين يولد ، فيستَهِلُّ صارخاً من مَسّه إياه ، إلا مريم وابنها. ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾][6].

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2133) ، كتاب الآداب ، وأخرجه البخاري (6186) .
(2) أي : يطليه بالقطران ، ويصح يَهْنِئُ بكسر النون أيضاً .
(3) أي : فتح فم الصبي .
(4) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2144) واللفظ له ،والبخاري (5470) ، وأحمد (106/3) .
(5) حديث حسن . رواه أحمد وأهل السنن . وصححه الترمذي . انظر سنن النسائي (4546) « الكبرىٰ » ، وانظر سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2837) .
(6) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3431) ، (4548) ،ومسلم (2366) ، وأحمد (233/2) .

وفي لفظ: [كُلُّ بني آدم يَطْعُن الشيطان في جنبه حين تَلِدُه أمُّـهُ ، إلا عيسىٰ بن مريم ، ذهب يطعن فطعَنَ في الحجاب][1] .

37 . **قوله تعالىٰ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ .**

في هذه الآية: تقبُّـل الله تعالى مريم وكفالة زكريا لها ، وَبَسْطُ الله الرزق لها بغير حساب .

قـال ابـن جـريـج: (تقبـل مـن أمهـا مـا أرادت بهـا للكنيسـة ، وأجـرَهـا فيهـا ، ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ ، قال: نبتت في غذاء الله) .

قال ابن كثير: (﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً ، ويَسَّرَ لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده ، تتعلم منهم العلم والخير والدين) .

وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ . أي جعله كافلاً لها . وكان زوج خالتها . قال ابن إسحاق: (وما ذلك إلا أنها كانت يتيمة) . فقدّر الله كون زكريا كفلها لسعادتها ، لتقتبس منه علماً جَمّاً نافعاً وعملاً صالحاً .

وقد جاء في حديث الإسراء: [فإذا بيحيىٰ وعيسىٰ ، وهما ابنا الخالة] رواه مسلم . وكذلك ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قضىٰ في عُمَارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب ، وقال: [الخالة بمنزلة الأم][2] .

وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ . إخبار من الله عن تولّيه لها بالكرامة وحسن الضيافة والرعاية ، وعن سيادتها وجلالتها في محلّ عبادتها .

قال مجاهد: (وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف) .

وقال قتادة: (وجد عندها ثمرة في غير زمانها) .

وقوله: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ . أي: من أي وجه لك هذا الرزق ؟! .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (3286) ، والبغوي في التفسير (381) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2699) ، وابن حبان (4873) من حديث البراء مطوّلاً .

فقالت مجيبة له: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ، الذي ساقه لها وأنعم به وتكرّم عليها.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. خبرٌ من الله أنه يسوق الرزق إلى من يشاء من عباده بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده ، فعنده خزائن السماوات والأرض.

38-41. **قوله تعالىٰ**: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾.

في هذه الآيات: طمع زكريا عليه السلام حين رأىٰ ما رأىٰ من كرم الله على مريم من الرزق والفضل دون تسبب أوتدخل أحد من الآدميين بذلك ، فرجا الله أن يرزقه الولد ، رغم كبر سنه ، وكون امرأته عاقراً. فنادته الملائكة بالبشرىٰ وهو في محرابه.

قال السدي: (فلما رأىٰ زكريا من حالها ذلك ، يعني: فاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف ، قال: إن رباً أعطاها هذا في غير حينه ، لقادر على أن يرزقني ذرية طيبة ! ورغب في الولد ، فقام فصلىٰ ، ثم دعا ربه سرّاً فقال: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 4-6]. وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾). وقال: (طيبة: يقول مباركة).

وقوله: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. قال السدي: (وهو جبريل ، أو: قالت الملائكة ، وهو جبريل ، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾). فإن العرب تخبر أحياناً عن الواحد بمذهب الجمع.

وقوله: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾. أي: حالة قيامه في محراب عبادته ، ومحل خَلْوَتِهِ ، ومجلس مناجاته وصلاته ، فبشرته بولد من صلبه اسمه يحيىٰ.

قال قتادة: (إنما سمي يحيىٰ لأن الله تعالىٰ أحياه بالإيمان).

وقوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. قال قتادة: (مصدّقاً بعيسىٰ بن مريم، وعلى سنته ومنهاجه). وقال الضحاك: (كان يحيىٰ أول من صدق بعيسىٰ وشهد أنه كلمة من الله، وكان يحيىٰ ابن خالة عيسىٰ، وكان أكبر من عيسىٰ).

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا﴾. قال سعيد بن جبير: (السيد التقي). وقال قتادة: (أي: والله، لسيد في العبادة والحلم والعِلم والوَرَع). وقال مجاهد: (السيد الكريم على الله). وقال ابن زيد: (السيد الشريف). وقال سعيد بن المسيب: (السيد الفقيه العالم). وقال عكرمة: (السيد الذي لا يغلبه الغضب).

وخلاصة المعنىٰ: إن الله أخبر أنه يبشره بيحيىٰ مصدقاً بهذا، وسيداً: أي شريفاً في العلم والورع والحلم والعبادة.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾. يروي ابن جرير عن عاصم عن زر عن عبد الله قال: (الحصور: الذي لا يأتي النساء). وقال الربيع: (هو الذي لا يولد له). وقال الضحاك: (هو الذي لا يولد له ولا ماء له). وقال السدي: (الحصور الذي لا يريد النساء).

قال الحافظ ابن كثير: (وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالىٰ على يحيىٰ بأنه كان حصوراً ليس كما قال بعضهم: إنه كان هَيُوباً، أو لا ذَكَرَ له، بل قد أنكر هذا حُذّاق المفسرين، ونُقّاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصةٌ وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام. وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب، أي: لا يأتيها كأنه حُصِرَ عنها. وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة، ثم قمعها: إما بمجاهدة كعيسىٰ، أو بكفاية من الله عزَّ وجلَّ كيحيىٰ عليه السلام، ثم هي في حق من قدر عليها، وقام بالواجب فيها، ولم تشغله عن ربه، درجةٌ عليا، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحصينهن، وقيامه عليهن واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره).

ثم قال ابن كثير: (والمقصود أن مدح يحيىٰ بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قال هو وغيره: أنه معصوم عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء

زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال: ولداً له ذرية ونسل وعَقِب، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم).

وقوله: ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. فيه بشارة بالنبوة ليحيىٰ بعد البشارة بولادته، وقد وصفه الله بالصلاح ثناء منه سبحانه عليه.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. تَعَجُّبٌ من زكريا عليه السلام مع إيمانه بالبشارة، إذ كيف يكون الولد ممن بلغ من السن ما بلغ وامرأته عاقر لا تلد. فأجابه الله تعالىٰ على لسان المَلَك: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ إذ لا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه أمر، وهو على كل شيء قدير.

قال السدي: (﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾: وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً).

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾. أي ليزول الشيطان عني بوسوسته، وأزداد إيماناً وبصيرة بأن ما بُشِّرت به هو من ملائكتك وهو بأمرك.

فأجابه سبحانه: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إلا إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح تنطق، وذلك ثلاثة أيام.

قال قتادة: (فأخِذَ عليه بلسانه، فجعل لا يقدر على الكلام إلا ما أومأ وأشار).

وقال الضحاك: (الرمز أن يشير بيده أو رأسه، ولا يتكلم).

وقوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. هو أمر الله له بتسبيحه وتعظيمه في هذه الحال، التي أوقف بها عن تكليم الناس بغير خرس ولا عاهة ولا مرض ـ آية من آيات الله عزَّ وجلَّ.

قال مجاهد: (الإبكار أول الفجر، والعشيّ مَيْلُ الشمس حتىٰ تغيب).

42-44. قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ

ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: تبشيرُ الملائكة مريم باصطفاء الله تعالى لها ، وَحَثُّها على الإقبال على شكره سبحانه والركوع له والسجود.

قال مجاهد: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾: جعلك طيبة إيماناً). والمقصود أن الله سبحانه قد اختارها واجتباها لطاعته وخصّها بكرامته ، فقد عرفت بكثرة عبادتها وزهادتها وطهارتها من الأكدار والوساوس.

وقوله: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال ابن جريج: (ذلك للعالمين يومئذ).

قلت: وقد ثبتت كرامتها على نساء العالمين ، هي وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وابنتها فاطمة ، في السنة الصحيحة ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [خير نسائها مريم بنت عِمْران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد][(1)].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ـ زاد ابن مردويه: (وخديجة بنت خويلد) ـ وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام][(2)].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح ، عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [خير نساء العالمين أربع: مريمُ بنتُ عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون][(3)]. ورواه الترمذي بلفظ: [حَسْبُكَ من نساء العالمين مريم. . . .].

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3432) ، ومسلم (2430) ، وأحمد (1/84-132) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (3411) ، (5418) ، وصحيح مسلم (2331) ، ومسند أحمد (4/394) ، (4/409) ، وصحيح ابن حبان (7114) ، وصحيح الجامع (4454) .

(3) حديث صحيح . انظر مسند أحمد (3/ 135) ، ومستدرك الحاكم (3/ 157) ، وانظر صحيح الجامع (3323) ، وكتابي : السيرة النبوية (1/102) في فضائل خديجة .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم عن سعيد بن المسيب في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. قال: وكان أبو هريرة يحدِّث عن رسول الله ﷺ: [خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صِغَرِه، وأرعاه على زَوْجٍ في ذات يده، ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط][1].

وقوله: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾. هو اختصاصٌ من الله لها إذ أمر الملائكة أن يأمروها بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لها، لما في ذلك من رفعة لها في الدارين.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾. أي: حجة لك أمام خصومك من أهل الكتابين، وتحقيقاً لصدقك، إذ: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾.

قال قتادة: (كانت مريم ابنة إمامهم وسيّدهم، فتشاحَّ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيُّهم يكفلها، فقرعهم زكريا، وكان زوجَ أختها، ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾، يقول: ضمّها إليه).

وقال الضحاك: (اقترعوا بأقلامهم أيّهم يكفل مريم، فقرعهم زكريا).

وعن محمد بن جعفر بن الزبير: (﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾، أي: ما كنت معهم إذ يختصمون فيها. يخبره بخفيّ ما كتموا منه من العلم عندهم، لتحقيق نبوته والحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه).

45-47. قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾.

في هذه الآيات: بشَّرت الملائكة مريم عليها السلام بولد عظيم يوجد منها، سيكون

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2527)، من طريق عبد الرزاق (20603)، وأخرجه أحمد في المسند (275/2) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

له شأن كبير وأمر عظيم ، وسيكون ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ سبحانه ، يعني بأمره كن فيكون ،واسمه المسيح عيسىٰ بن مريم ، فهذه شهرته بين الناس في الدنيا وهو في الآخرة من الصالحين.

وفي تأويل: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ أقوال عند المفسرين:

1 ـ أي مَسَحَهُ الله فطهّره من الذنوب. قال ابن جرير: (ولذلك قال إبراهيم: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: الصّدّيق).

2 ـ قيل بل المراد مُسحَ بالبركة. قال سعيد: (إنما سمي المسيح لأنه مُسِحَ بالبركة).

3 ـ قيل بل سمي المسيح لكثرة سياحته. ذكره بعض السلف.

4 ـ وقيل: لأنه كان مسيح القدمين ، لا أخْمَصَ لهما. ذكره والذي بعده ابن كثير.

5 ـ وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات بَرِئَ بإذن الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾. نسبه إلى أمه ، حيث لا أب له. وإلا فالناس ينسبون إلى آبائهم في الدنيا والآخرة. قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وفي صحيح مسلم عن نافع ، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا جمع الله الأولين والآخِرين يوم القيامة ، يُرْفَعُ لكل غادر لواءٌ ، فقيل: هذه غَدْرَةُ فُلانِ بنِ فلان][1].

وقوله: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾. أي: له وجاهة ومنزلة ومكانة رفيعة عند الله في الدنيا بما يوحيه إليه من الشريعة وأحكام الكتاب الذي نزله عليه ، وشفيعاً في الآخرة بإذن الله لمن ارتضىٰ سبحانه ، فيقبل منه كإخوته الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾. قال الربيع: (من المقربين عند الله يوم القيامة).

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾. قال ابن عباس: (مضجع الصبي في رَضاعه).

وقوله: ﴿وَكَهْلًا﴾. قال الحسن: (كلمهم في المهد صبياً ، وكلمهم كبيراً).

وقال قتادة: (يكلمهم صغيراً وكبيراً). وقال مجاهد: (الكهل الحليم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1735) ، كتاب الجهاد ، باب تحريم الغدر.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾. يعني في عدادهم وأوليائهم، لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل.

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسىٰ، وصبي كان في زمن جريج، وصبي آخر].

ورواه مسلم بلفظ: [لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسىٰ بن مريم، وصاحب جُريج،... وبَيْنا صبي يَرْضَعُ من أمه، فَمَرَّ رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة، فقالت أمه اللهم! اجعل ابني مِثْلَ هذا، فترك الثديَ وأقبل إليه فنظرَ إليه، فقال: اللهم! لا تجعلني مثله....] الحديث[1].

وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾. أي: كيف لي بولد يوجد مني ولست بذات زوج، ولا أعزم على الزواج، ولست بغياً؟ فأجابها الملك يؤكد لها البشرىٰ التي عجبت لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: يصنع ما أراد، ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر، ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: مما يشاء وكيف يشاء، ﴿فَيَكُونُ﴾ ما أراد سبحانه ولا يتأخر شيئاً، بل هو كلمح البصر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: 50].

48-51. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾.

في هذه الآيات: يُكْمِلُ الله البشرىٰ لمريم عليها السلام، بأن ما عَلِمت فيما نزل من

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2550)، كتاب البر والصلة، وصحيح البخاري (2482)، ومسند أحمد (433/2)، عن أبي هريرة مطوّلاً.

الكتب أن الله باعثٌ نبياً يوحىٰ إليه بكتابه الإنجيل ، هو الولد الذي وهبه لها وبشّرها به ، وسيجري على يديه من المعجزات ما ينصر به الدين الحق.

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾. قال ابن جرير: (وهو الخط الذي يخطه بيده). يعني الكتابة.

قال ابن جريج: (﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ، قال: بيده). وقوله: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾. قال قتادة: (الحكمة: السنة). والمراد السنة التي يُوحيها إليه في غير كتاب.

وقوله: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾. المراد التوراة التي أنزلت على موسىٰ ، كانت فيهم من عهد موسىٰ.

وقوله: ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾. يعني إنجيل عيسىٰ ولم يكن قبله ، ولكن الله أخبر مريم قبل خلق عيسىٰ أنه مُوحيه إليه.

وقوله: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. يعني: ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبي الله وحجته على خلقه ، معه علامة من الله تصدق خبره.

قال محمد بن جعفر بن الزبير: (﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ، أي: يُحقق بها نبوّتي ، أني رسولٌ منه إليكم).

وقوله: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. معجزة له من الله: كان يُصَوِّر من الطين شكلَ طير ، ثم ينفخ فيه ، فيطير عياناً بإذن الله.

وقوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾. وهو الذي يبصر نهاراً ولا يُبصر ليلاً ، وقيل بالعكس. وقيل: الأعشىٰ ، وقيل: الأعمش. وقيل: الذي يولد أعمىٰ. وتفصيل ذلك من أقوال المفسرين:

1 ـ قال مجاهد: (الأكمه الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل ، فهو يتكمَّه).

2 ـ قال قتادة: (كنا نُحدّثُ أن الأكمه الذي ولد وهو أعمىٰ مغموم العينين).

3 ـ قال السدي: (هو الأعمىٰ). وقال ابن عباس: (الأكمه: الذي يولد وهو أعمىٰ).

4 ـ قال عكرمة: (﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ ، قال: الأعمش).

واختار ابن جرير وابن كثير أنه الأعمىٰ الذي لا يبصر شيئاً لا ليلاً ولا نهاراً.

قال ابن جرير: (لأن علاج مثل ذلك لا يدّعيه أحدٌ من البشر ، إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطىٰ عيسىٰ ، وكذلك علاجُ الأبرص).

وقوله: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن كثير: (قال كثيرمن العلماء: بعث الله كُلَّ نبي من الأنبياء بمعجزة تُناسب أهلَ زمانه ، فكان الغالب على زمان موسىٰ عليه السلام السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سَحّار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من عباد الله الأبرار. وأما عيسىٰ عليه السلام ، فبعثه في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه. إلا أن يكون مُؤيّداً من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعثِ من هو في قَبْرِه رهين إلى يوم التناد ؟ وكذلك محمد ﷺ ، بعثه الله في زمن الفصحاء والبُلغاء ونحارير الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عزَّ وجلَّ ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشرسور من مثله ، أو بسورة من مثله ، لم يستطيعوا أبداً ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب عزَّ وجلَّ لا يشبه كلام الخلق أبداً).

وقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. قال مجاهد: (بما أكلتم البارحة ، وما خبأتم منه. عيسىٰ بن مريم يقوله). وقال عطاء بن أبي رباح: (الطعام والشيء يدخرونه في بيوتهم ، غيباً علمه الله إياه).

والمقصود: يخبرهم عيسىٰ بإذن ربه ما أكل أحدهم وما هو مدّخر للغد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. يعني ما سبق ذكره من معجزات وآيات ، فيها عبرة لهم ، إن كانوا يصدقون بحجج الله ويقرون بتوحيده.

وقوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. يعني يوافق ما جاءهم في التوراة مما قرّرته من أصول الدين ومقاصده. ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾: قال قتادة: (كان الذي جاء به عيسىٰ ألين مما جاء به موسىٰ ، وكان قد حُرّم عليهم فيما جاء به موسىٰ لحومُ الإبل والثروب[1] ، وأشياء من الطير والحيتان).

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: (أي أخبركم أنه كان حراماً عليكم فتركتموه ، ثم أحله لكم تخفيفاً عنكم ، فتصيبون يُسْرَه ، وتخرجون من تِباعَته).

(1) الثروب: جمع ثَرْب ، وهي الشحم الرقيق الذي يغشىٰ الكرش والأمعاء من الذبائح والأنعام.

وقال الحسن: (كان حرّم عليهم أشياء ، فجاءهم عيسىٰ ليحل لهم الذي حرّم عليهم ، يبتغي بذلك شُكْرهم).

ولا شك أن الآية تدل عند أهل العلم على نسخ بعض أحكام التوراة أيام عيسىٰ عليه السلام.

وقوله: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. قال مجاهد: (ما بيّن لهم عيسىٰ من الأشياء كلها ، وما أعطاه ربه).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾. يعني: التمسوا تقوىٰ الله سبحانه ، فأنا وأنتم مشتركون في عبادة الله ومأمورون بتوحيده وتعظيمه وحده لا شريك له ، فهذا صراط النجاة في الدنيا والآخرة.

52-54. قوله تعالىٰ: ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

في هذه الآيات: لما وجد عيسىٰ عليه السلام من بني إسرائيل محاولات التكذيب والصد والجحود ، نادىٰ: من أعواني على المكذبين بحجة الله ، ومن ينصرني ويعاونني على الدعوة إلى الله؟ فأجابه الحواريون ، ومكر الملأ الطغاة الماكرون.

قال مجاهد: (﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾: أي من يتبعني إلى الله). فأجابه الحواريون ـ وهم الأنصار لكل نبي ـ نحن أنصار الله وحملة لواء دينه بايعنا على ذلك. قال الضحاك: (الحواريون: أصفياء الأنبياء).

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر بن عبد الله ، قال: [كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس في الموسم. فيقول: ألا رجلٌ يحملني إلى

قومِه ، فإن قريشاً قد منعوني أن أُبلِّغَ كلامَ ربي][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن جابر: أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ، ثم ندبهم ، فانتدب الزبير رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ: [إنَّ لكل نبي حوارياً وحواريَّ الزبير][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ،ومسلم في الصحيح ، عن عبد الله بن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال: [ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمته حَوارِيُّون وأصحابٌ يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تَخْلُفُ من بَعْدهم خُلوفٌ ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن. وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل][3] .

وقوله: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ . هو قولهم الذي أصابوا به الفضل من ربهم.

وقوله: ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . قال محمد بن جعفر بن الزبير: (لا كما يقول هؤلاء الذين يحاجونك فيه ـ يعني وفد نصارىٰ نجران).

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ . قال عكرمة: (مع أمة محمد ﷺ). قال ابن جرير: (أي صدقنا بما أنزلت على نبيك عيسىٰ من كتابك ، ﴿ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ ، يعني بذلك: صرنا أتباع عيسىٰ على دينك الذي ابتعثته به ، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك ، وقوله: ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ ، يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق ، وأقرّوا لك بالتوحيد ،وصدقوا رسلك).

وقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

إخبار من الله سبحانه عن الملأ من بني إسرائيل حين هَمّوا بقتل عيسىٰ عليه السلام وصلبه ، عندما وشوا لملك ذلك الزمان ، وكان كافراً ، أن رجلاً يضل الناس عن

---

(1) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (201) ، وأخرجه أحمد في المسند (339/3-440) ، وهو على شرط مسلم .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2846) ، وأخرجه مسلم (2415) ، وأحمد (314/3) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (50) ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان من حديث عبد الله بن مسعود.

طاعتك ، ويفسد عليك رعاياك ، حتىٰ أحاط الطغاة بمنزله ، فرفعه الله إلى السماء ، وأخذوا رجلاً شبهاً له فقتلوه وصلبوه.

55-58. قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: رَفْعُ الله تعالى عيسىٰ عليه السلام إليه ، ورَفْعُ الذين اتبعوه في الدرجات ثم المرجع إليه ، فالكفار هم أصحاب الجحيم ، والمؤمنون في جنات النعيم.

وقوله: ﴿ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ فيه أقوال:

1 ـ قال الربيع: (يعني وفاةَ المنام ، رفعه الله في منامه).

2 ـ قال مطر الورّاق: (متوفيك في الدنيا ، وليس بوفاة موت). والمعنىٰ: قابضك من الأرض حيّاً ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك إلى جواري في السماء. قال الحسن: (متوفيك من الأرض). قال: (رفعه الله إليه ، فهو عنده في السماء).

3 ـ قال ابن عباس: (يقول: إني مميتك). أي إني متوفيك وفاة موت.

4 ـ قيل بل هو من المقدم الذي معناه التأخير ، والمؤخر الذي معناه التقديم. أي: إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ، ومتوفيك بعد إنزالي إياك إلى الدنيا.

والراجح المعنىٰ الثاني ، إني قابضك من الأرض حياً ورافعك إلى جواري لتعود يوماً إلى الدنيا ، فتنزل في سماء دمشق عند المنارة البيضاء ، وتحكم في بقية أمة محمد ﷺ بالقرآن والسنة المحمدية المطهرة. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم من حديث النواس بن سمعان ، قال عليه الصلاة والسلام: [فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة

البيضاء ، شرقيّ دمشق بين مهروذتين[1] ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه مثل جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد من ريح نفسه إلا مات][2] .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني في المعجم الكبير بسند صحيح ، عن أوس بن أوس ، عن النبي ﷺ قال: [ينزل عيسىٰ بن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق][3] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسىٰ بن مريم ، فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا ، فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذه الأمة][4] .

وقوله: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ .

قال قتادة: (هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته ، فلا يزالون ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة).

وقد وقع ذلك ، فإن النصارىٰ كانوا أقرب إلى الحق من اليهود ، فلما رفع الله المسيح عليه السلام تفرقت أصحابه شيعاً بعده ، منهم من آمن به أنه عبد الله ورسوله ، ومنهم من غلا فيه ، واستمروا على ذلك قريباً من ثلاث مئة سنة. قال ابن كثير: (ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل: حيلة ليفسدَه ، فإنه كان فيلسوفاً ، وقيل: جهلاً منه ، لأنه بدّل لهم دين المسيح وحَرَّفه ، وزاد فيه ونقص منه ، ووضعت له القوانين ، والأمانة الكبيرة ـ التي هي الخيانةُ الحقيرةُ ـ وأحلَّ في زمانه لحم الخنزير ، وصَلَّوا له إلى المشرق ، وصَوَّروا له الكنائس ، والمعابد والصوامع ، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه ـ فيما يزعمون ـ وصار دين المسيح دينَ قسطنطين ، إلا أنه بنىٰ لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد ، وبنىٰ المدينة

---

(1) أي يلبس ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران . ذكره النووي .

(2) حديث صحيح . وهو جزء من حديث طويل ، انظر مختصر صحيح مسلم (2048) .

(3) حديث صحيح . رواه الطبراني في «المعجم الكبير». انظر صحيح الجامع الصغير (8025).

(4) حديث صحيح . رواه مسلم في الصحيح (1/ 95). وانظر مختصر صحيح مسلم (2061) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (1047/2) لتفصيل الحدث.

المنسوبة إليه ، واتبعه طائفة المَلْكِيَّة منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود ، أيّدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم ، وإن كان الجميع كفاراً ، عليهم لعائن الله. فلما بعث الله محمداً ﷺ ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض ، إذ قد صَدَّقوا الرسول النبي الأمي العربي ، خاتم الرسل ، وسيد ولد آدم على الإطلاق ، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق ، فكانوا أولىٰ بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على مِلّته وطريقته ، مع ما قد حَرَّفوا وبدّلوا ، ثم لو لم يكن شيء من ذلك ، لكان قد نسخَ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق ، الذي لا يُغيَّر ولا يُبَدَّل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واحتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرىٰ ، وقَصَروا قيصر ، وسلبوهما كُنوزَهما ، وأنفقت في سبيل الله ، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عزَّ وجلَّ في قوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور : 55]. . الآية ، فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً ، سَلبُوا النصارى بلاد الشام وأجْلَوهم إلى الروم فلجؤوا إلى مدينتهم القُسْطَنْطينيّة ، ولايزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ، ويستفيئُون ما فيها من الأموال ، ويقتلون الروم مقتلةً عظيمة جداً ، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها. . . . ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾. وكذلك فعل تعالىٰ بمن كفر بالمسيح من اليهود ، أو غلا فيه وأطراه من النصارىٰ ، عذبهم في الدنيا بالقتل والسَّبي ، وأخذ الأموال ، وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق) انتهىٰ.

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾. أي : وما لهم من عذاب الله من مانع ولا دافع.

وقوله : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾. أي : في الدنيا : بالنصر والظفر والتمكين والتأييد ، وفي الآخرة : بجنات الخلود والنعيم.

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾. يعني : الذين يبغون في الأرض بغيرالحق ، ولا يقيمون العدل ويأكلون حقوق الناس بالباطل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

أي: هذا الذي قصصناه عليك يا محمد من أمر عيسىٰ وميلاده وكيف أوحينا إليه، ونبوته ورفعه، من الآيات التي هي حجج بالغة على من حاجك من نصارىٰ نجران وغيرهم من أهل الكتاب.

قال ابن عباس: (﴿وَٱلذِّكْرِ﴾، يقول: القرآن، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾، الذي قد كمل في حكمته). فهو الكتاب ذو الحكمة الفاصلة بين الحق والباطل، وبينك ـ يا محمد ـ وبين من ينسب الكذب في قصة عيسىٰ وأمه والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

59-63. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يقرن سبحانه وتعالىٰ بين خلق عيسىٰ وخلق آدم عليهما السلام، فالله خلق آدم من غير أب ولا أم، فلا عجب في قدرة الله أن يخلق عيسىٰ من غير أب، ومن ثمَّ فجواز ادعاء البنوة في آدم هو أولىٰ منه في عيسىٰ، وهذا باطل باتفاق أهل الأديان، الأمر الذي يقتضي فساد هذا الادعاء في عيسىٰ عليه السلام.

وإنما الأمر حقيقته إظهارقدرة الله في الخلق، فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. فمن حاجك فيه بعد ذلك يا محمد فادعهم إلى المباهلة.

قال الربيع: (﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: فلا تكن في شك مما قصصنا عليك أن عيسىٰ عبدُ الله ورسوله، وكلمةٌ منه وروح، وأن مثله عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون).

وقوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾. أي: جادلك في شأن المسيح عيسىٰ بن مريم، يا محمد. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾ هلموا فلندع: ﴿أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ يقول: ثم نلتعن.

والمعنىٰ: نحضرهم في حال المباهلة ثم نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منا أو منكم.

أخرج الحاكم من حديث يونس بن بكير عن سلمة بن عبد يسوع، عن أبيه، عن جده، قال يونس: (فلم تزل به وبهم ـ يعني وفد نجران ـ المسألة حتىٰ قالوا له: ما تقول في عيسىٰ عليه السلام؟ فإنا نرجع إلى قومنا، ونحن نصارىٰ، فيسرّنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه؟ فقال رسول الله ﷺ: ما عندي فيه شيءٌ يَوْمي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يُقال لي في عيسىٰ عليه السلام، فأصبح الغد وقد أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فأبوا أن يقروا بذلك، فلما أصبح رسولُ الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر، أقبل مشتملاً على الحسن والحسين رضي الله عنهما في خميل له، وفاطمة رضي الله عنها تمشي عند ظهره للمُباهلة.... فخافوا وتشاوروا فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقىٰ على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفر إلا هلك...)[1].

وله شاهد عند الترمذي عن سعد قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ﴾ الآية، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»].

وأخرج البيهقي بسند صحيح إلى ابن مسعود: [أن السيد والعاقب أتيا رسول الله ﷺ، فأراد أن يُلاعنهما، فقال أحدُهما لصاحبه: لا تُلاعِنْهُ، فوالله إن كان نبياً فلاعنتَه لا نُفْلِحُ نحن، ولا عَقِبُنَا من بعدنا، قالوا له: نعطيك ما سألت، فابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً، فقال رسول الله ﷺ: لأبعَثَنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين. فاستشرف لها أصحابه، فقال: قُمْ يا أبا عبيدة بنَ الجراح. فلما قام، قال: هذا أمين هذه الأمة][2].

---

(1) انظر سيرة ابن هشام (573/1-584)، والحديث السابق فيه ضعف، لجهالة سلمة بن يسوع فما فوقه، لكن ذكره ابن كثيرفي السيرة (101/4-106)، وفي التفسير(369/1-370). وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (384/5-392)، وأكثره له شواهد، وفي بعضه نكارة قد حذفتها، وانظر تفصيل ذلك في كتابي: السيرة النبوية (1631/2-1633)، وصحيح الترمذي (2397).

(2) حديث صحيح. أخرجه البيهقي، ويشهد له ما بعده في الصحيحين، وانظر زاد المعاد (637/3).

ورواه مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: [جاء أهل نجران إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ابعث لنا رجلاً أميناً، فقال: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين، حقَّ أمين، قال: فاستشرف لها الناس، قال: فبعث أبا عبيدة بن الجراح][1].

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ قال: إن لكل أمة أميناً، وإنَّ أميننا، أيَّتُها الأمةُ، أبو عبيدة بن الجراح][2].

وفي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبة قال: [بعثني رسولُ الله ﷺ إلى نجران، فقالوا فيما قالوا: أرأيت ما يقرؤون «يا أخت هارون»، وقد كان بين عيسىٰ وموسىٰ ما قد علمتم، قال: فأتيت النبي ﷺ، فأخبرتُه، قال: أفلا أخبرتَهُمْ أنهم كانوا يُسَمُّون بأسماء أنبيائهم والصالحين الذين كانوا قبلهم][3].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾. قال ابن عباس: (إن هذا الذي قلنا في عيسىٰ، هو الحق، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، الآية).

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أي: العزيز في انتقامه ممن عانده وعصاه وخالف أمره، وادعىٰ معه إلهاً غيره، أو عبد رباً سواه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره وقدره وشرعه.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾. أي: إن أعرضوا رغم البيان والحجج الدامغة فإن الله يعلم من عدل عن الحق إلى الباطل واتبع سبيل المفسدين والمبطلين وسيجازيه على عمله يوم يلقاه.

64. قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2420)، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه. وانظر صحيح البخاري (4380) وكذلك (3745)، وأحمد (385/5).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (74/7) في فضائل أصحاب النبي ﷺ. باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2135)، كتاب الآداب: باب النهي عن التكني بأبي القاسم، من حديث المغيرة بن شعبة.

نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

في هذه الآية: دعوة أهل الكتاب إلى توحيد الله ونبذ الشرك والتحاكم إلى الدين الحق دين الإسلام.

وقوله: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾. يشمل أهل التوراة وأهل الإنجيل. ﴿ تَعَالَوْا۟ ﴾ أي: أقبلوا وهلمّوا. ﴿ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾. قال قتادة: (عدل بيننا وبينكم). وقال أبو العالية: (كلمة السواء: لا إله إلا الله).

وقوله: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾. يعني نفرده بالتعظيم والدعاء، فلا ندعو وثناً، ولا صليباً، ولا صنماً، ولا طاغوتاً، ولا ناراً، ولا شيئاً.

وقوله: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. قال ابن جريج: (لا يُطع بعضنا بعضاً في معصية الله. ويقال إنّ تلك الرّبوبية: أن يطيع النّاس سادتهم وقادتهم في غير عبادة، وإن لم يصلّوا لهم). وقال عكرمة: (﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، قال: سجود بعضهم لبعض).

وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. يعني: إن تولىٰ بعد ذلك أهل الكتاب وأصروا على الشرك بالله فقولوا أيها المؤمنون لهم: اشهدوا علينا بأنا على التوحيد قائمون، وعلى إفراد الله سبحانه بالتعظيم عاكفون.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس ـ في قصة هرقل مع أبي سفيان وسؤاله لهم ـ: [ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دِحْيةُ إلى عظيم بُصرىٰ فدفَعَهُ إلى هِرقل فقرأه فإذا فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم: من محمدٍ عبد الله ورسوله إلى هِرَقْلَ عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهُدىٰ، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسْلِم تَسْلَم يُؤْتك الله أجْرَك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيِّينَ، و: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64]][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (7)، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، وهو جزء من حديث طويل.

65 ـ 68. **قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٨﴾.

في هذه الآيات: يا أهل التوراة والإنجيل، لم تجادلون في إبراهيم وتخاصمون فيه، ويدعي كل فريق منكم أنه كان منكم ولم ينزل الإنجيل والتوراة إلا بعد حين من موت إبراهيم عليه السلام ووفاته ؟! أفلا تفقهون خطأ قيلكم. إنما كان إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، وإن أولىٰ الناس به هذا النبي وأهل الحق المؤمنين.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: (اجتمعت نصارىٰ نجران وأحبارُ يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً! وقالت النصارىٰ: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً! فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾. قالت النصارىٰ: كان نصرانياً! وقالت اليهود: كان يهودياً! فأخبرهم الله أن التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية).

ثم عاب عليهم سبحانه هذا الحكم منهم بغير علم، فقال جلَّ ذكره: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾. قال السدي: (أما الذي لهم به علم: فما حرّم عليهم وما أمروا به، وأما الذي ليس لهم به علم: فشأن إبراهيم).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. أي: يعلم ما غاب عنكم وأنتم لا تعلمون إلا ما عاينتم وشاهدتم أو أدركتم علمه بالإخبار والسَّماع.

ثم أكذبهم سبحانه فقال: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾، فأدحض حجتهم يعني اليهود ـ في ادعائهم أن إبراهيم مات يهودياً، أو نصرانياً ـ يعني في ادعاء النصارىٰ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر: [أن زيدَ بنَ عمرو بن نُفَيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبَعُهُ، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لَعَلّي أن أدينَ دينَكُم فأخْبرني فقال: لا تكون على ديننا حتىٰ تأخذ بنصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أَفِرُّ إلا من غضب الله ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيعه، فهل تَدُلّني على غيره، قال: ما أعلمُهُ إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارىٰ، فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتىٰ تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفِرُّ إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله، فلما رأىٰ زيْدٌ قولَهُم في إبراهيم عليه السلام، خرج فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم][1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

المعنىٰ: إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، في التوحيد والعبادة وإفراد الله بالتعظيم، من سائر الأديان، والله مؤيد جميع المؤمنين وناصرهم.

أخرج الترمذي والحاكم بسند صحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ قال: إن لكل نبيّ ولاة من النبيين، وإن وَليّي منهم أبي وخليل ربي عزَّ وجلَّ، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾.. الآية][2].

69-74. قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3827)، كتاب المناقب، وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (117/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2995)، والحاكم (292/2)، (553/2) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي. وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2394).

تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: اليهود أمكر من دبّ على وجه الأرض ، فهم أهل بغي وظلم وحسد ، والله تعالىٰ يخبر في هذه الآية : ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني جماعة من أهل التوراة من اليهود ، وأهل الإنجيل من النصارىٰ ، ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ أي: يصدونكم عن الإسلام إلى ما كنتم عليه من الكفر لتهلكوا به ، والله تعالىٰ يحذركم طاعتهم ويكشف لكم مكرهم ، ويُبَيِّنُ اختصاصه تعالىٰ برحمته من يشاء من المؤمنين.

وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: ما يهلكون بمحاولتهم هذه إلا أنفسهم وأهل ملتهم بِحلول سخط الله عليهم. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: أي: وهم لا يدرون ولا يعلمون.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ . قال قتادة: (تشهدون أن نَعْتَ محمد نبي الله ﷺ في كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به ، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل: ﴿ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾).

وقوله: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ . قال قتادة: (يقول: لم تلبسون اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيرَه ، الإسلام ، ولا يجزي إلاّ به).

وقوله: ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . قال الربيع: (يقول: تكتمون شأن محمد ﷺ ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

قال ابن عباس: (وذلك أن طائفة من اليهود قالوا: إذا لقيتم أصحاب محمد ﷺ أول النهار فآمنوا، وإذا كان آخره فصلوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب، وهم أعلم منا! لعلهم ينقلبون عن دينهم. ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم).

وقال مجاهد: (يهودُ تقوله. صلَّت مع محمد صلاة الصبح، وكفروا آخرَ النهار، مكراً منهم، ليُروا الناس أن قد بدت لهم منهم الضلالة، بعد أن كانوا اتّبعوه). وقال: (قال: صلوا معهم الصبح، ولا تصلوا معهم آخر النهار، لعلكم تستزلّونهم بذلك).

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. قال قتادة: (لعلهم يدعون دينهم، ويرجعون إلى الذي أنتم عليه). وقال ابن عباس: (لعلهم ينقلبون عن دينهم). وقال السدي: (لعلهم يشكّون).

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾. قال السدي: (لا تؤمنوا إلا لمن تبع اليهودية). ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ اعتراضٌ وسط الكلام، وهو خبر من الله عن أن البيان بيانه والهدى هُداه.

وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾. قال مجاهد: (حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم، وإرادة أن يُتَّبعوا على دينهم).

وقوله: ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾. قال ابن جُريج: (قال بعضهم لبعض: لا تخبروهم بما بيّن الله لكم في كتابه، ليحاجّوكم ـ قال: ليخاصموكم ـ به عند ربكم).

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾. يعني التوفيق والهداية للإيمان والدين الحق. ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بحكمته وعلمه، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾: ذو سعة بفضله يعلم من يستحق الهداية والنور والإيمان ممن لا يستحق ذلك.

وقوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. قال مجاهد: (النبوة يخصّ بها من يشاء). وقال ابن جريج: (القرآن والإسلام).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾. يعني في اختصاص المؤمنين بالإيمان ومتابعة محمد ﷺ، وهدايتهم إلى أشرف الشرائع والتأسي بسيد الخلق.

75-76. **قوله تعالى**: ﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ

عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالىٰ عن طائفة من يهود هم أهل أمانة يؤدونها ولا يخونونها ، وعن طائفة أخرىٰ: أهل خيانة للأمانة واستحلال للمحرمات.

فمنهم من إن تأمنه بقنطار من المال يؤده إليك ، وهذا يشمل ما دونه بطريق الأولىٰ. ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ . قال قتادة: (إلا ما طلبته واتبعته). وقال السدي: (يعترف بأمانته ما دمت قائماً على رأسه ، فإذا قمتَ ثم جئت تطلبُه كافرك ـ الذي يؤدِّي ، والذي يجحد [1]).

فالمعنىٰ: لا يؤديه إليك إلا بالمطالبة والاقتضاء والملازمة والإلحاح لاستخلاص حقك منه ، فإذا كان هذا صنيعه في الدينار ، فنكوله لما فوقه من باب أولىٰ. قال مالك بن دينار: (إنما سُمِّيَ الدينار لأنه دِين ونار)[2]. وقيل: (معناه أنه من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار).

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: [أنه ذكرَ رجلاً من بني إسرائيل: سأل بعضَ بني إسرائيل أن يُسْلِفَهُ ألفَ دينار فقال: ائْتِني بالشهداء أُشْهِدُهُمْ ، فقال: كفىٰ بالله شهيداً. قال: فأتني بالكفيل قال: كفىٰ بالله كفيلاً. قال: صَدقت ، فدفعَها إليه إلى أجَلٍ مسمّى ، فخرج في البحر فقضىٰ حاجَتَهُ ثم التمسَ مَرْكباً يركَبُها يَقْدَمُ عليه للأجل الذي أجّله فلم يجدْ مَرْكباً ، فأخذ خَشَبَةً فنقرها فأدْخَلَ فيها ألفَ دينار وصحيفةً منه إلى صاحبه ثم زَجَّجَ مَوْضِعَها ثم أتىٰ بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تَعْلَمُ أني كنْتُ تَسَلَّفْتُ فلاناً ألفَ دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفىٰ بالله كفيلاً فرضِيَ بكَ ، وسألني شهيداً فقلت: كفىٰ بالله شهيداً فرضِيَ بذلك ، وإني جَهَدْتُ أن أجِدَ مَرْكباً أبْعَثُ إليه الذي له فلم أَقْدِرْ ، وإني أَسْتَوْدِعُكَها ، فرمىٰ بها في البحر حتىٰ وَلَجَتْ فيه ، ثم انصرفَ ، وهو في ذلك يلتمس مَرْكَباً يخرجُ إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسْلَفَهُ ينظُرُ لَعَلَّ مَرْكَباً قد جاء بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حَطَباً ، فلما نَشَرها وَجَدَ المال والصحيفة ، ثم قَدِمَ الذي كان أسْلَفَهُ فأتىٰ بالألف دينار ، فقال: والله

(1) بيان عن ذكر الفريقين . أي : هذا الذي يؤدي ، وهذا الذي يجحد .

(2) رواه ابن أبي حاتم من طريق زياد بن الهيثم . ذكره والذي بعده الحافظ ابن كثير في التفسير .

مازِلْتُ جاهداً في طلب مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بمالِكَ فما وجدتُ مَرْكباً قبل الذي أتيتُ فيه. قال: هل كنتَ بَعَثْتَ إليَّ بشيء؟ قال: أُخْبِرُكَ أني لم أجدْ مَرْكباً قبل الذي جئتُ فيه، قال: فإن الله قد أدّىٰ عنك الذي بَعَثْتَ الخَشَبَةَ وانْصَرِف بالألف الدينارِ راشداً][1].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾. يعني ـ قال الذين استحلوا الخيانة من اليهود ـ: لا حرج علينا فيما أصبنا من أموال العرب ولا إثم، لأنهم على غير الحق، وأنهم مشركون.

قال قتادة: (قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل).

وقال: (قال: ليس علينا في المشركين سبيل، يعنون من ليس من أهل الكتاب).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. قال ابن جريج: (يعني ادّعاءهم أنهم وجدوا في كتابهم قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾).

والمعنىٰ: يقولون على الله الكذب، ويفترون وهم يعلمون أنهم يكذبون.

وقوله تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

المعنىٰ: ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكذبة من اليهود، أنه ليس عليهم حرج ولا إثم في أموال الأميين، ولكن الأمر أنه من أوفىٰ بعهده وأدى الأمانة، واتقىٰ الميثاق الذي عقده الله بالإيمان بمحمد ورسالته، فصدق بذلك وقام بمقتضىٰ هذا العهد والميثاق الذي أخذه الله على الأنبياء والأمم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

77. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

في هذه الآية: إن الذين ارتضوا أن يستبدلوا الذي هو أدنىٰ: الأثمان الزهيدة والعروض الفانية، والزينة البالية، بالذي هو أعلىٰ: تصديق عهد الله باتباع محمد ﷺ والإيمان بما جاء به، لا نصيب لهم في خيرات الآخرة، ولا يكلمهم الله كلام تشريف ومدح، بل كلام إهانة وتوبيخ، ثم ينتظرهم بعد ذلك عذاب أليم.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2291) تعليقاً، بصيغة الجزم. كتاب الكفالة. وانظر (1498).

وفي أسباب النزول لهذه الآية أحاديث صحيحة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن شقيقٍ، عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ حَلَفَ على يمين يَقْتَطِعُ بها مالَ امرئٍ مُسلمٍ هو عليها فاجر، لقِيَ الله وهو عليه غَضْبَانُ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]، فجاء الأشعثُ فقال: ما حَدَّثكم أبو عبد الرحمٰن؟ فِيَّ أُنْزِلتْ هذه الآية، كانت لي بِئْرٌ في أرض ابنِ عَمٍّ لي، فقال لي: شهودَك. قلتُ: ما لي شهودٌ، قال: فَيَمينَهُ، قلت: يا رسول الله إذن يَحْلِفَ، فذكرَ النبيُّ ﷺ هذا الحديثَ، فأنزل الله ذلك تصديقاً له][1].

ورواه أحمد وفيه: (فقال الأشعث: فيَّ والله كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني أرضي، فقدمته إلى رسول الله ﷺ. فقال لي رسول الله ﷺ: ألك بينة؟ قلت: لا. فقال لليهودي: احلف. فقلت: يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي. فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾... الآية).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله تعالىٰ عنهما: [أن رجلاً أقام سِلْعَةً في السوق، فحلف فيها لقد أُعْطِيَ بها - ما لم يُعْطَهُ - لِيُوقِعَ فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية][2].

قلت: ولا مانع من نزول الآية في السببين السابقين معاً. وقد جاءت أحاديث أخرىٰ في بيانها:

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن رجاء بن حَيْوَة والعُرُس بن عَميرة، عن أبيه عَدِيّ - هو ابن عميرة الكندي - قال: [خاصم رجل من كندة يقال له - امرؤ القيس بن عابس، رجلاً من حَضْرَمَوْت إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقضىٰ على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، فقضىٰ على امرئ القيس

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2356)، كتاب المُسَاقاة، باب الخصومة في البئر والقضاء فيها. وانظر (2673)، وصحيح مسلم (138)، ومسند أحمد (44/1)، (211/5)، (212/5) للرواية الأخرىٰ، ورواه ابن ماجة (2323)، والبيهقي (44/10).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4551)، كتاب التفسير، سورة آل عمران، آية (77)، من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنه.

باليمين. فقال الحضرمي: أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبت ـ ورب الكعبة ـ أرضي. فقال النبي ﷺ: من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقي الله عزَّ وجلَّ وهو عليه غضبان. قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾. فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال: الجنة. قال: فاشهد أني قد تركتها له كلها][1].

الحديث الرابع: أخرج البخاري عن أبي هريرة، قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة لا يَنْظُرُ الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: رجُلٌ كان لهُ فَضْلُ ماءٍ بالطريق فمنعَهُ من ابن السبيل، ورجلٌ بايع إمامَهُ لا يُبايِعُهُ إلا لِدُنيا، فإن أعطاه منها رَضِيَ وإنْ لمْ يُعْطِهِ منها سَخِطَ، ورجلٌ أقام سِلْعَتَهُ بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيرُهُ لقد أعطيتُ بها كذا وكذا، فصَدَّقه رجلٌ، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾][2].

الحديث الخامس: روىٰ الإمام أحمد في المسند، ومسلم في الصحيح، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم. قلت: يا رسول الله، من هم ؟ خسروا وخابوا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: المُسْبِلُ، والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب، والمنان][3].

الحديث السادس: أخرج البخاري في صحيحه عن ابن أبي مُلَيْكَةَ: [أَنَّ امرأتين كانتا تَخْرِزانِ في بيتٍ وفي الحُجْرَةِ، فَخَرَجَتْ إحداهما وقد أُنْفِذَ بإشفَىٰ في كَفِّها، فادَّعَتْ على الأخرىٰ فرُفِعَ إلى ابن عباس، فقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: لو يُعْطىٰ الناسُ بِدَعْواهُمْ لَذَهَبَ دِماءُ قَوْمٍ وأموالُهُم، ذَكِّروها بالله واقرؤوا عليها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ فَذَكَّروها فاعْتَرَفَتْ. فقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: اليمين على المدَّعىٰ عليه][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (192/4) بإسناد صحيح، وأخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (5996) من حديث عدي بن عميرة الكندي.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2358) كتاب المساقاة، باب إثم مَنْ مَنَعَ ابنَ السبيل من الماء.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (106)، وأحمد (148/5)، ورواه أبو داود (4087)، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4552)، كتاب التفسير، سورة آل عمران، آية (77).

78. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

في هذه الآية: وإن من اليهود قوماً يحرِّفون كلام الله ويبدلون مواضعه ليزيلوه عن المراد به كذباً على الله وهم يعلمون.

قال مجاهد: (﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾، قال: يحرفونه). وقال قتادة: (هم أعداء الله اليهود، حرّفوا كتاب الله، وابتدعوا فيه، وزعموا أنه من عند الله).

وروىٰ البخاري عن ابن عباس: (أنهم يحرِّفون ويزيلون).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. يعني: يتعمدون الكذب على الله، والشهادة عليه بالباطل، والإلحاق بكتاب الله ما ليس منه، طلباً للرياسة والخسيس من حطام الدنيا. ذكره ابن جرير.

79-80. **قوله تعالىٰ:** ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ ذكره عن استحالة دعوة نبيّ ـ اصطفاه الله واختاره ـ لنفسه ليتخذه العباد رباً من دون الله، ولكن يدعو الناس ليكونوا أسوة يُقتدىٰ بهم في العلم والدين. وكذلك ما ينبغي له أن يأمر الناس بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، فإن هذا أمْرٌ بالكفر بعد الإسلام.

فقوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

قال قتادة: (يقول: ما كان ينبغي لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة، يأمر عباده أن يتخذوه ربّاً من دون الله).

وقال ابن جريج: (كان ناس من يهود يتعبّدون الناس من دون ربهم، بتحريفهم كتابَ الله عن موضعه، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ثم يأمر الناس بغير ما أنزل الله في كتابه).

وفي جامع الترمذي بسند حسن: [أن النبي ﷺ تلا هذه الآية ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ـ على عدي بن حاتم الطائي، فقال: يا رسول الله لسنا نعبدهم. قال: أليس يحلّون لكم ما حرّم الله فتحلونه، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلىٰ. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم][1].

وقوله: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾.

قال البخاري في كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل. وقال ابن عباس: (﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾: حُلماء، فُقهاء، عُلماء، ويقال: الرَّبَّانِيُّ الذي يُـرَبِّي الناس بصغار العلم قبل كباره). وقال مجاهد: (وهم فوق الأحبار) ـ أي العلماء. وعليه: فالربانيون هم عمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا، فالرباني الجامعُ إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم.

وقوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾.

قال الضحاك: (حق على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً). وقوله: ﴿ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي: من التعليم. وقرأها عاصم: ﴿ بما كنتم تَعْلَمونَ الكتاب ﴾ قال: القرآن، ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾، قال: الفقه).

والقراءة الأولىٰ أشهر ﴿ تُعَلِّمون ﴾ وهي قراءة عامة قرّاء الكوفة.

فالمعنىٰ: بل كونوا سادة الناس وقادتهم في أمر دينهم ودنياهم، ربّانيين بتعليمكم إياهم كتاب الله وما فيه من حلال وحرام، وفرض وندب، وسائر ما حواه من معاني أمور دينهم، وبتلاوتكم إياه ودراسَتِكموه. ذكره ابن جرير.

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3095)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾. يعني: ولا كان لبشر أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً، أي: لا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب.

وقد قرأها قراء الحجاز والمدينة على وجه الابتداء: ﴿ ولا يأمُرُكم ﴾ بالخبر عن النبي ﷺ أنه لا يأمركم. في حين قرأها قرّاء الكوفة والبصرة، بنصب الراء: ﴿ ولا يأمرَكم ﴾، عطفاً على قوله: ﴿ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ ﴾، وهي القراءة الأشهر في الأمة.

وقوله: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾. يعني إن ذلك غير كائن من النبي ﷺ أبداً. إذ كيف يأمركم بعبادة آلهة غير الله بعد انقيادكم لله بالطاعة وتذللكم له بالعبادة.

81-82. قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالىٰ عن أخذه ميثاق الأنبياء أَنْ يُصَدِّق اللاحق السابق، وأن يمضي على منهاج النبوة في الإيمان وحراسة الدين، حتىٰ يأتي خاتم الرسل والأنبياء محمد ﷺ فيصدقوه وينصروه إن أدركوه، وإلا أوصوا أقوامهم بذلك، فعاهدوا الله جميعهم على ذلك، وقد شهد عليهم بذلك جلّت عظمته. فمن نقض هذا العهد أو أعرض عنه بعد توثيقه فأولئك هم العاصون الآثمون.

فقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾.

قال طاووس: (أخذ الله ميثاق الأُوَل من الأنبياء، ليصدقن وليؤمنن بما جاء به الآخِرُ منهم). وقال قتادة: (هذا ميثاق أخذه الله على النبيين أن يصدق بعضُهم بعضاً، وأن يُبلّغوا كتاب الله ورسالاته، فبلغت الأنبياء كتاب الله ورسالاته إلى قومهم، وأخذ عليهم ـ فيما بلَّغتهم رُسلهم ـ أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ويصدقوه وينصروه). وقال السدي: (لم يبعث الله عزَّ وجلَّ نبياً قط من لدُنْ نوح، إلا أخذ ميثاقه ليؤمننّ بمحمد

ولينصرنَّه إن خَرَج وهو حي ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ولينصرُنَّه إن خرج وهم أحياء).

وخلاصة المعنىٰ: أن الله أخذ الميثاق على كل نبي من لدن آدم إلى عيسىٰ عليهم السلام ، مهما أوتي أحدهم من كتاب وحكمة ، وبلغ بإذن الله أي مبلغ ، ثم جاءه رسول من بعده ، ليؤمنن به ولينصرنه ، فإن هذا من ميثاق النبوة. ذكره ابن كثير.

قلت: ولا شك أن الرسول محمداً ﷺ هو خاتم الرسل والأنبياء ، وهو الإمام الأعظم في الأمة ، والقائد الأعلى إلى يوم القيامة ، ونبوته قديمة وعريقة. فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن عبد الله بن شقيق عن ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متىٰ كُتِبْتَ نبياً ؟ قال: [كُتِبتُ نبياً وآدمُ بين الروح والجسد][1].

وفي لفظ: [كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد][2].

وله شاهد عند الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، قوله ﷺ: [إني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وإن آدمَ لمنجدِلٌ في طينته][3].

وقوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾. قال ابن عباس ومجاهد: (يعني: عهدي). وقال محمد بن إسحاق: (إصري أي: ثقل ما حُمِّلْتُم من عهدي). أي ميثاقي الشديد المؤكد.

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾. يعني ، قال الأنبياء: أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك الذين ترسلهم مصدقين لما معنا من كتبك ، وبنصرتهم.

وقوله: ﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

قال علي رضي الله عنه: (يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك ، ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ، عليكم وعليهم).

والمعنىٰ: إن هذا العهد يتطلب منكم نقله إلى أممكم أيضاً ، فالكل مطالب بتصديق

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (59/5) ، وأبو نعيم في الحلية (53/9) ، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ص(111) . انظر السلسلة الصحيحة (1856) .

(2) رواه أحمد في السنة . انظر المرجع السابق ، وصحيح الجامع الصغير (4457) .

(3) أخرجه أحمد (4/ 127) ، والطبري (34054) ، والحاكم (2/ 418). وقوله: «لمنجدل»: أي لملقي على الأرض ، وانظر البحث في كتابي : أصل الدين والإيمان (118/1) .

رسل الله والإيمان بالوحي النازل إليهم ، والله يشهد على الجميع بذلك .

وقوله تعالىٰ : ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي : من أعرض ونقض عقد هذا الإيمان الواجب فهو منعوت عند الله بالفسق والخروج عن الطاعة .

قال علي بن أبي طالب : (فمن تولىٰ عنك ، يا محمد ، بعد هذا العهد من جميع الأمم ، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، هم العاصون في الكفر) ذكره ابن جرير بسنده .

83-85. قوله تعالىٰ : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: ينكر سبحانه وتعالىٰ على من يلتمس منهجاً وديناً غير دين الله العظيم ، الذي استسلم لأمره من في السماوات ومن في الأرض ، إما طائعاً وإما كارهاً ، والكل إليه يرجعون. ثم يأمر نبيّه ﷺ أن يصرح بإيمانه بالله وهذا القرآن الذي أنزل عليه ، وما أنزل على الأنبياء والرسل قبله من الصحف والوحي ، وأن أمته ﷺ مؤمنون بهذا النهج النبوي العظيم. إنه من يطلب منهجاً غير دين الإسلام ليكونن من الخاسرين.

فقوله : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ .

قال مجاهد : (الطائع المؤمن ، و﴿وَكَرْهًا﴾ ، ظل الكافر). وقال : (سجود المؤمن طائعاً ، وسجود ظلّ الكافر وهو كارهٌ).

وقال الربيع عن أبي العالية : (كل آدمي قد أقرّ على نفسه بأن الله ربي وأنا عبده. فمن أشركَ في عبادته فهذا الذي أسلم كَرْهاً ، ومن أخلص له العبودة ، فهو الذي أسلم طوعاً).

وفي التنزيل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾

[الرعد: 15]. وفيه أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 48 - 49].

قلت: والآية تشمل استسلام بعض الكفار لسلطان الإسلام وقهر رجاله الفاتحين، وقودهم في الأسر ثم يُعْجَبُون بدين الله ويؤمنون. فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [عَجِبَ الله من قَوْمٍ يَدْخُلونَ الجنة في السَّلاسل][1].

وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. يعني يوم المعاد، فيقفون بين يديه للحساب والجزاء.

وقوله: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾. يعني: القرآن. ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: من الصحف والوحي.

وقوله: ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾. هم ولد يعقوب الاثنا عشر، يعني بطون بني إسرائيل.

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾. يعني: ما أنزل عليهما من التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾. يشمل جميع الأنبياء. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني بالإيمان، بل نؤمن بهم جميعهم ونوقرهم، ولا نفعل كما فعل أهل الكتاب من الإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. خبرٌ عن المؤمنين من هذه الأمة أنهم يؤمنون بالله وما أنزل من الوحي على جميع رسله وأنبيائه، وأنهم منقادون له سبحانه بالطاعة كمايحب ويرضى.

وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾. يعني: من يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به فهو مرفوض في منهاجه الذي ارتضىٰ عند الله، ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الباخسين أنفسهم حظوظها، ومن الهالكين النادمين.

86-89. قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3010)، كتاب الجهاد والسير. باب الأُسارىٰ في السلاسل.

أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

في هذه الآيات: المرتد عن دين الله بعد الإيمان به يستحق عند الله اللعنة ـ منه ومن ملائكته ومن الناس أجمعين ـ. إلا من تدارك نفسه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى منهاج الإيمان فإن الله غفور رحيم.

أخرج ابن جرير ـ ورجاله رجال الصحيح ـ وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: [كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتدّ ولحق بالشرك، ثم نَدِمَ فأرسل إلى قومه: أن سلوا لي رسول الله ﷺ هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فأرسل إليه قومه فأسلم][1].

فقد استثنىٰ الله تعالىٰ الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم، فراجعوا الإيمان بالله وبرسوله، وصدقوا وأصلحوا ما فاتهم فعملوا من الصالحات ما ينجيهم عند الله الغفور الرحيم.

90-91. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن مصير المرتدين عن الإيمان وقد ارتضوا الكفر منهجاً بدلاً عنه حتىٰ وافتهم المنية، فإنه لن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ـ لو

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (85)، وأحمد (247/1)، والحاكم (142/2)، والطبري (7358)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

استطاع ذلك ـ على سبيل الفدية ، بل مأواهم النار خالدين فيها مع شر البريّة .

أخرج البزّار بسند جيد عن عكرمة ، عن ابن عباس : [أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾][1] .

قال ابن جريج : (﴿ لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ ، يقول : إيمانهم أوّلَ مرة لن ينفعهم) .

وقال السدي : (فعند موته ، إذا تاب لم تقبل توبته) .

وفي التنزيل : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ . أي : الذين أخطؤوا منهج النجاة وطريق الحق حيرة منهم وعمىً في قلوبهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ . قال الحسن : (هو كل كافر) .

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ، أن نبي الله ﷺ كان يقول : [يُجاء بالكافر يوم القيامة فيُقال له : أرأيتَ لو كانَ لكَ مِلءُ الأرض ذهباً أكُنْتَ تفتدي به ؟ فيقول : نَعَمْ ، فيقال له : قد كنْتَ سُئِلتَ ما هو أيْسَرُ من ذلك][2] . وفي لفظ : [فقد سألتك ما هو أهونُ من هذا وأنت في صُلْبِ آدم ، أن لا تشركَ بي فأبَيْتَ إلا الشركَ] .

وأخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [يؤتىٰ بالرجل من أهل الجنة فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : أي رب ، خير منزل . فيقول : سل وتمنَّ . فيقول : ما أسأل ولا أتمنىٰ إلا أن تردني إلى الدنيا ، فأقتل في سبيلك عشر مرات . لما يرىٰ من فضل الشهادة . ويؤتىٰ بالرجل من أهل النار فيقول له : يا ابن آدم ، كيف وجدت منزلك ؟ فيقول : يا رب ، شر منزل . فيقول له : تفتدي مني بطلاع الأرض ذهباً ؟ فيقول : أي رب ، نعم . فيقول : كذبت ،

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو بكر البزّار ، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ، وقال : وإسناده جيد . وانظر : الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة آل عمران ، آية (90) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6538) ، كتاب الرقاق ، وكذلك (3334) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، وأخرجه مسلم (2805) ، وأحمد (218/3) ، وغيرهم .

قد سألتك أقلَّ من ذلك وأيسرَ فلم تفعل ، فيُرَدّ إلى النار][1] .

وفي صحيح مسلم عن مسروقٍ ، عن عائشةَ قالت : [قلتُ : يا رسول الله ! ابْنُ جُدْعانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرحم ، ويُطْعم المسكينَ ، فهل ذاكَ نافِعُهُ ؟ قال : لا يَنْفَعُهُ ، إنه لم يقل يَوْماً : ربِّ اغفِرْ لي خطيئتي يومَ الدين][2] .

وقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ . إخبارٌ عن سوء المصير الذي ينتظر المرتدين عن دين الله العظيم ، لقاء استهتارهم بما عَرَّفهم الله به من هديه الكريم ، ومن ثَمَّ فلا نجاة لهم يومئذ وما لهم من قريب ولا حميم ولا صديق يُنْتظر منه النصر أو الاستنقاذ من المكروه والألم المحدق .

92. قوله تعالىٰ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

في هذه الآية : إخبار من الله تعالىٰ أن بلوغ الجنة منوطٌ بالإنفاق في سبيل الله من المال الطيب المحبَّب ، وما ينفق المؤمنون من شيءٍ إلا وهو محفوظ لهم عن العليم الكريم .

يروي ابن جرير بسنده عن السدي قال : (أما البر فالجنة) . وكذلك رواه عن عمرو بن ميمون . قال قتادة : (يقول : لن تنالوا برَّ ربكم حتىٰ تنفقوا مما يعجبكم ، ومما تَهْوَوْن من أموالكم) .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴾ . قال سعيد عن قتادة : (يقول : محفوظ لكم ذلك ، الله به عليمٌ ، شاكرٌ له) .

وقد حفلت السنة الصحيحة بذكر آفاق هذا المعنىٰ العطر ، في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك قال : [كان أبو طَلْحةَ أكثرَ الأنصار بالمدينةِ مالاً من نَخْلٍ ، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحاءُ ، وكانَتْ مستقبلةَ المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يَدْخُلُها ويَشْرَبُ من ماءٍ فيها طيّب . قال أنس رضي الله

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (239/3) ، والنسائي (36/6) ، والحاكم (75/2) .
(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (214) ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل ، ورواه أحمد (93/6) ، وابن حبان (330) .

عنه: فلما أُنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ! إن الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحَبَّ أموالي إليَّ بَيْرُحاء ، وإنَّها صَدَقةٌ لله أرجو برَّها وذُخْرَها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، قال: فقال رسول الله ﷺ: بَخْ ، ذلكَ مالٌ رابحٌ ، ذلِكَ مالٌ رابحٌ ، وقَدْ سَمِعْتُ ما قُلْتَ ، وإني أرىٰ أن تَجْعَلَها في الأقربين. فقال أبو طلحةَ: أَفْعَلُ يا رسول الله ! فَقَسَمَها أبو طلحةَ في أقاربِهِ وبني عَمِّه][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما: [أن عُمَرَ تَصَدَّقَ بمال له على عهد رسول الله ﷺ وكان يُقال له: ثَمْغٌ ، وكان نَخْلاً ، فقال عمر: يا رسول الله ، إني اسْتَفَدْتُ مالاً وهو عندي نفيسٌ فأردتُ أن أتصدق به. فقال النبي ﷺ: تَصَدَّقْ بأصْلِهِ ، لا يُباعُ ولا يُوهَبُ ولا يُورَثُ ، ولكن يُنْفَقُ ثَمرُه. فتصدَّق به عُمَرُ فَصَدَقَتُهُ تلك في سبيل الله وفي الرقاب والمساكينِ والضَّيفِ وابنِ السبيل ولذي القُرْبىٰ ، ولا جُناح على من وَلِيَهُ أن يأكُلَ منه بالمعروف ، أو يُؤْكِلَ صديقَهُ غيرَ مُتَمَوِّلٍ به][2].

وفي لفظ: [قال: يا رسول الله لم أصب مالاً قطُّ هو أنفسُ عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال: حَبِّس الأصل وسَبِّل الثمرة].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن ، عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [أفضلُ الصدقات ظِلُّ فسطاطٍ في سبيل الله عزَّ وجلَّ ، أو منحةُ خادمٍ في سبيل الله ، أو طروقةُ فَحْلٍ في سبيل الله][3].

الحديث الرابع: أخرج البخاري عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [أفضل

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1461) ، كتاب الزكاة ، باب الزكاة على الأقارب ، وأخرجه مسلم (998) ، ومالك (595/2) ، وأخرجه أحمد (141/3) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (2764) ، كتاب الوصايا ، باب : وما للوصي أن يَعْمَلَ في مال اليتيم وما يأكُلُ منه بِقَدْرِ عُمَالَتِه . وأخرجه مسلم (1633) ، وأحمد (114/2) .

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1627). وانظر صحيح سنن الترمذي (1328). ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع الصغير (1120) ، ورواه الحاكم وغيره . انظر تخريج الترغيب (158/2) ، ورواه الترمذي من حديث عدي بن حاتم أيضاً .

الصدقة ما ترك غِنىً ، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلىٰ ، وابدأ بمن تعول][1].

الحديث الخامس: أخرج البزار عن حمزة بن عبد الله بن عمر قال: قال عبد الله: [حَضَرتني هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئاً أحب إليّ من جارية لي رُوميَّةٍ ، فقلت: هي حُرَّةٌ لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، يعني تزوجتها][2].

93-95. **قوله تعالىٰ**: ﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبار من الله سبحانه عن يعقوب عليه السلام حين مرض مرضاً شديداً فنذر إن شفاه الله أن يحرم على نفسه أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان ذلك قبل تنزل التوراة ، وقد جاءت التوراة بعد ذلك تصدق ذلك. فمن ادّعىٰ بعد ذلك أن الله شرع ـ ليهود ـ السبت أو كذّب بما نزل من الوحي بعد التوراة فقد أعظم على الله الفرية. فقل يا محمد: صدق الله فيما أنزل وأرسل وشرع ، وقد أمرَ باتباع ملة إبراهيم ، ملة التوحيد وإفراد الله بالتعظيم ، عليه وعلى نبيِّنا وعلى الرسل أفضل الصلاة والتسليم.

فقد أخرج الإمام أحمد عن ابن عباس قال: [حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي. قال: سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه: لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتُتابعُنّي على الإسلام. قالوا: فذلك لك. قال: فسلوني عما شئتم. قالوا: أخبرنا على أربع خلال: أخبرنا أيُّ الطعام حَرَّمَ إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثىٰ ؟ وأخبرنا كيف هذا النبي الأمي في النوم ؟ ومن وليه من

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5355) ، كتاب النفقات ، باب وجوب النفقة على الأهل والعيال .

(2) أخرجه الحافظ أبو بكر البزار من طريق عمرو بن حماس ، وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير ، سورة آل عمران ، آية (92) .

الملائكة ؟. فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعُنَّه فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسىٰ: هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه ، فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليُحَرِّمن أحبَّ الشراب إليه وأحب الطعام إليه ، وكان أحبَّ الطعام إليه لحْمانُ الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها. فقالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد عليهم. وقال: أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، الذي أنزل التوراة على موسىٰ: هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله ، إنْ علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان ذكراً بإذن الله ، وإنْ علا ماءُ المرأة ماء الرجل كان أنثىٰ بإذن الله. قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد عليهم. وقال: وأَنْشُدُكُم بالذي أنزل التوراة على موسىٰ: هل تعلمون أن هذا النبيّ الأميَّ تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ قالوا: اللهم نعم. قال: اللهم اشهد. قالوا: وأنت الآن فحدّثنا من وليُّكَ من الملائكة ؟ فعندها نُجَامِعُكَ أو نفارقُكَ. قال: إن وليِّي جبريل ، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليّه. قالوا: فعندها نفارقك ، لو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ الآية][1].

وقد جاء بسند أقوىٰ عند الإمام أحمد والطبراني والترمذي ـ مختصراً ـ عن ابن عباس قال: [أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا: يا أبا القاسم ، إنا نسألك عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك. فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾. قال: هاتوا. قالوا: أخبرنا عن علامة النبي ؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: أخبرنا كيف تُؤْنِثُ المرأةُ ، وكيف تُذْكِرُ ؟ قال: يلتقي الماءان ، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة ، أَذْكَرَت ، وإذا علا ماء المرأة آنثت. قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ قال: كان يشتكي عرق النسا ، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا ـ قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل ـ فحرم لحومها. قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال: مَلَكٌ من ملائكة الله عزَّ وجلَّ مُوَكَّل بالسحاب بيده ـ أو في يده ـ مِخْراقٌ من نار يَزْجُرُ به السحاب ، يسوقه حيث أمر الله عزَّ وجلَّ. قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسمعُ ؟ قال: صوته. قالوا: صدقت ، إنما بقيت واحدة ، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها ، فإنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحَرْب والقتال والعذاب ، عَدُوُّنا. لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات

---

(1) حسن لشواهده . أخرجه أحمد (278/1) ، والطبراني (13012) ، ويشهد له الحديث الذي بعده .

والقَطْرِ لكان ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ والآية التي بعدها][1].

يروي ابن جرير في التفسير عن ابن جُريج والعوفي ، عن ابن عباس قال: (كان إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ عليه السلام يعتريه عرْق النّسا بالليل ، وكان يقلقه ويزعجه عن النوم ، ويُقْلِعُ الوجع عنه بالنهار ، فنذر لله لئن عافاه الله لا يأكل عِرْقاً ولا يأكل ولدٌ له عرقاً). قال: (فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استناناً به واقتداء بطريقه).

وقوله: ﴿ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾. قال ابن عباس: (أي إن هذا قبل التوراة). يعني: حرّم ذلك يعقوب على نفسه من قبل أن تنزل التوراة.

قال الحافظ ابن كثير: (ولهذا السياق بعدما تقدم مناسبتان: **إحداهما**: أن إسرائيل عليه السلام حرَّمَ أحب الأشياء إليه وتركها لله ، وكان هذا سائغاً في شرعهم ، فله مناسبة بعد قوله: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾. فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الإنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [البقرة: 177]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ [الإنسان: 8] الآية.

المناسبة الثانية: لما تقدم بيان الرد على النصارىٰ ، واعتقادهم الباطل في المسيح ، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه ، وظهور الحق واليقين في أمر عيسىٰ وأمه ، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته ، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالىٰ ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالىٰ وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع ، فإن الله تعالىٰ قد نص في كتابهم التوراة أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة ، أباح الله له جميع دوابِّ الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرّم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه في ذلك ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك ، وأشياء أخرى زيادة على ذلك. وكان الله عزَّ وجلَّ قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه. وقد حُرِّمَ ذلك بعد ذلك. وكان التسرِّي على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرّىٰ بها على سارة ، وقد حُرِّم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين ، ثم حُرِّم

(1) حديث حسن أخرجه الترمذي (3117) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (9072) ، وأحمد (2483) ، والطبراني (12429) ، وله شاهد وهو ما قبله . وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول آية البقرة (97) ، وقد مضىٰ هناك بتمامه .

عليهم ذلك في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم ، وهذا هو النسخ بعينه ، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام ، في إحلاله بعض ما حُرِّمَ في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه ؟ بل كذبوه وخالفوه ؟ وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وملة أبيه إبراهيم ، فما بالهم لا يؤمنون ؟).

وقوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإنها تنطق بما قلناه.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. يعني: من ادّعى بعد ذلك أن الله شرع لهم السبت أو تكذيب ما أنزل بعد التوراة فقد أعظم على الله الفرية.

وقوله: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ﴾. أي: قل يا محمد صدق الله فيما أنزل وأرسل وشرع. ﴿ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ فإن ملته هي ملة محمد ﷺ وجميع الرسل: التوحيد وإفراد الله بالتشريع والتعظيم.

96-97. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عباده أن الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل ﷺ هي أول بيت وضع للناس ، أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ، ويصلون إليه ، ويعتكفون عنده. وفيه علامات واضحات أنه من بناء إبراهيم ، ومن عاذَ بالبيت كان حرماً آمناً له وملاذاً وملجأ ، وقد فرض الله الحج على المستطيع من عباده ، ومن جحَد وجوبه كان من الكافرين.

فقوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾. قال مجاهد وقتادة: (لم يوضع قبله بيت). وقال علي رضي الله عنه: (كان قبل البيت بيوت كثيرة ، والمعنىٰ أنه أول بيت وضع للعبادة).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: [سألت رسول الله ﷺ عن أوّل مسجد وضع في الأرض. قال: المسجد الحرام. قلت: ثم أي ؟ قال: المسجد الأقصىٰ. قلت: كم

بينهما ؟ قال: أربعون عاماً ، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل][1] .

قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (49/1): (أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به ، فقال: معلوم أن سليمان هو الذي بنىٰ المسجد الأقصىٰ ، وبينهُ وبين إبراهيم أكثر من ألف عام ، وهذا جهل من هذا القائل ، فإن سليمان إنما جدّد المسجد الأقصىٰ ، والذي أسّسه أولاً يعقوب بن إسحاق).

أخرج النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ: [أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنىٰ بيت المقدس سأل الله خِلالاً ثلاثة: سأل الله عزَّ وجلَّ حُكْماً يصادف حكمه فأُوتِيَهُ ، وسأل الله عزَّ وجلَّ مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه ، وسأل الله عزَّ وجلَّ حين فرغ من بناء المسجد ألا يأتيه أحد لا يَنْهَزُهُ[2] إلا الصلاةُ فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمّه فأوتيه][3] .

قال القرطبي في التفسير بعد إيراده الحديثين: (فجاء إشكالٌ بين الحديثين ، لأن بين إبراهيم وسليمان آماداً طويلة. قال أهل التواريخ: أكثر من ألف سنة. فقيل: إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدا ما كان أسَّسَه غيرهما. وقد روي أن أوّل من بنىٰ البيت آدم عليه السلام كما تقدّم. فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً ، ويجوز أن تكون الملائكة أيضاً بنته بعد بنائها البيت بإذن الله ، وكل محتمل ، والله أعلم).

قلت: والتمسك بالنص أولىٰ من التأويل ، فهو صريح أن أول بيت وضع للناس بيت الله الحرام ، والله أعلم بمن وضع أساسه الأول هل هو آدم أو بعض ولده أو الملائكة ، ثم وُضع المسجد الأقصىٰ بعده بأربعين عاماً ، والله أعلم بمن وضعه ، أهو يعقوب أم إبراهيم عليهما السلام ، أم غيرهما ، ثم جُدِّد بناء الكعبة والمسجد الأقصىٰ ، فأقام الأول إبراهيم ، وجدد بناء الثاني سليمان عليهما السلام ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر إن ، واللام للتوكيد ، وبكّة من أسماء مكة. قال

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3366) و(3425) ، وأخرجه مسلم برقم (520) ، ورواه أحمد في المسند (160/5) .
(2) النهز : الدفع . لا ينهزه : أي لا يدفعه ولا يزعجه .
(3) حديث صحيح . أخرجه النسائي في « الكبرىٰ » (772) ، وابن حجر في الفتح (408/6) بإثر حديث (3371) ، وذكره القرطبي في التفسير ، وقال : إسناده صحيح .

مجاهد: (بكة هي مكة). وقيل: سميت بكّة لأنها تَبُكّ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنىٰ أنهم يذلّون بها ويخضعون عندها. قال عبد الله بن الزبير: (لم يقصدها جبار قطّ بسوء إلا وقَصَهُ الله عزَّ وجلَّ).

وقيل: بكّة مشتقة من البَكّ وهو الازدحام. وسميت بذلك لازدحام الناس في موضع طوافهم. قال قتادة: (إن الله بكَّ به الناس جميعاً، فيصلي النساء أمام الرجال، ولا يُفْعَل ذلك ببلد غيرها). وأما مكة فسميت بذلك لأنها تمكّ من ظلم فيها أي تهلكه، وقيل: لقلة مائها سميت بذلك، وقيل لأنها تمك المخ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة.

قلت: وكل هذه المعاني محتملة، فإن «بكة» موضع البيت، ومكة سائر البلد. ومن أسمائها: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، والمأمون، وأم رُحْم، وأم القرىٰ، والبلدة، والكعبة وغير ذلك.

وقوله: ﴿مُبَارَكًا﴾. أي: جعله الله مباركاً لتضاعف العمل فيه، وقد نُصب على الحال.

وقوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. عطف عليه، يعني: ومآباً لنسك الناسكين وطواف الطائفين، تعظيماً لله رب العالمين.

وقوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾. أي فيه علامات واضحات أنه من بناء إبراهيم، وهناك قراءة: «فيه آية بينة». قال مجاهد: (قدَماه في المقام آية بينة). والقراءة الأولىٰ أشهر. قال قتادة: (﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾، قال: مقامُ إبراهيم، من الآيات البينات). وقال ابن عباس: (مقام إبراهيم والمشعر). قال ابن كثير: (﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولدُه إسماعيل، وقد كان مُلصقاً بجدار البيت، حتىٰ أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطُواف منه، ولا يشوّشون على المصلين عنده بعد الطواف، لأن الله تعالىٰ قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾).

وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾. قال ابن عباس: (من عاذ بالبيت أعاذه البيت، ولكن لا يُؤوىٰ ولا يُطْعَمُ ولا يُسْقىٰ، فإذا خرج أُخِذَ بذنبه). وقال الحسن وعطاء: (في الرجل يصيب الحدّ ويلجأ إلى الحرم ـ يخرج من الحرم، فيقامُ عليه الحد).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يحل لأحدكم أن يحمل السلاح بمكة][1].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

اللام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ لام الإيجاب. ثم أكد الوجوب بقوله: ﴿عَلَى﴾ التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب. وهذه آية وجوب الحج عند الجمهور. والحج أحد أركان الإسلام، ويجب على المستطيع في العمر مرة.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: [خَطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجّوا. فقال رجل: كلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتىٰ قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت نعم لوجبتْ ولما استطعتم. ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه][2].

ورویٰ الحاكم بسند حسن عن أنس: [أن رسول الله ﷺ سُئِل عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فقيل: ما السبيل؟ قال: الزاد والراحلة][3].

قلت: والاستطاعة تشمل عند الفقهاء:

1 ـ صحة البدن. 2 ـ أمن الطريق. 3 ـ ملك الزاد والراحلة. 4 ـ المَحْرم للمرأة.

ودليل الصحة: ما في الصحيحين عن ابن عباس: [أن امرأة من خثعم قالت: يا رسول الله، إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فأحج عنه؟ قال: حجي عنه][4].

ودليل الأمن: فلأن إيجاب الحج مع عدم ذلك ضرر، والنبي ﷺ يقول: [لا ضرر ولا ضرار، من ضارَّ ضاره الله، ومن شاق شاقّه الله][5].

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم، وقد تقدم في سورة البقرة (آية: 126).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1337)، وأحمد (508/2)، وابن حبان (3704)، وغيرهم.
(3) حديث حسن. أخرجه الحاكم (442/1)، ورواه الدارقطني (216/2)، وله شواهد.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1513) و(1855)، وأخرجه مسلم برقم (1334)، ورواه أحمد في المسند (346/1).
(5) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (57/2-58) بسند صحيح عن أبي سعيد، والبيهقي (96/6-70).

ودليل ملك ما يكفيه: فاضلاً عن حاجته وحاجة من تلزمه نفقته ، قول النبي ﷺ: [كفىٰ بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت][1] .

ودليل وجوب المحرم للمرأة: ما في الصحيحين عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم ، فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجّة ، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا. فقال: انطلق فحجَّ مع امرأتك][2] .

وإلى جعل المحرم للمرأة من الاستطاعة ذهب الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد.

فإذا تحققت الشروط السابقة وجب الحج على الفور كما ذهب لذلك الإمام مالك وأحمد وأبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعي وأبو يوسف ، محتجين بما روى الإمام أحمد وابن ماجة بسند حسن عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال: [من أراد الحج فليتعجَّل ، فإنه قد يَمْرَض المريض ، وتَضِلُّ الضالة ، وتعرُض الحاجة].

وله طريق آخر عند أحمد بلفظ: [تعجلوا إلى الحج ، فإن أحدكم لا يدري ما يَعْرِض له][3] .

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. قال ابن عباس: (من زعم أنه ليس بفرض عليه). وقال الضحاك: (من جحد الحج وكفر به). وقال الحسن: (من أنكره ، ولا يرىٰ أن ذلك عليه حقاً ، فذلك كُفْرٌ).

وروىٰ أبو بكر الإسماعيلي الحافظ من حديث أبي عمرو الأوزاعي ، حدثني إسماعيل بن عُبيد الله بن أبي المهاجر ، حدثني عبد الرحمٰن بن غَنْم ، أنه سمع عمر بن

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1692) ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وانظر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (996) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3006) ، كتاب الجهاد والسير ، وكذلك (1862) ، ورواه مسلم (1341) ، كتاب الحج ، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد (1/214-314) ، وانظر صحيح الجامع (2954) ، وكذلك (5880) ، (5879) للفظ الأول ، وانظر تخريج إرواء الغليل (990) .

الخطاب رضي الله عنه يقول: (من أطاق الحج فلم يحج ، فسواء عليه يهودياً مات أو نصرانياً)(1).

98-99. قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تقريع بكفرة أهل الكتاب ممن كفر بمحمد ﷺ وجحد نبوته ، وقد علموا الحجج على نبوته من كتبهم ، والله يشهد ما يصدون به عن سبيله ، يبغون بذلك العوج والميل عن الهوىٰ ، وهم يعلمون أنهم يَحْرِفون الطريق الحق والصراط المستقيم ، والله سبحانه ليس بغافل عن أعمالهم وتحريفهم ومكرهم.

100-101. قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تحذير من الله سبحانه للمؤمنين أن يسقطوا في الطريق فيطيعوا طائفة من حسّادهم أهل الكتاب ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109]. ثم استنكار أن يقع الكفر من أحدهم بعدما سمع الوحي وعاصر النبوة. ثم تقرير أن الاعتصام بالله هو العمدة في الهداية إلى الصراط المستقيم.

فقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾. قال قتادة: (علَمان بيِّنان: وِجْدانُ نبي الله ﷺ ، وكتابُ الله. فأما نبي الله فمضىٰ ﷺ. وأما كتاب الله، فأبقاه الله بين أظهركم رحمة من الله ونعمة، فيه حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته).

(1) صحيح موقوف . قال ابن كثير : (وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه) . ولا يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ ، فقد أخرجه الترمذي (812) من حديث علي ، وهو ضعيف جداً في إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث الأعور يضعف في الحديث .

وقوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يمتنع ويتمسّك بدينه وطاعته. قال ابن جريج: (﴿يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾: يؤمن به). وقيل: المعنىٰ يتمسك بحبل الله، وهو القرآن.

أخرج ابن أبي شيبة بسند صحيح على شرط مسلم، عن أبي شريح الخزاعي قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: فإن هذا القرآن سببٌ طرفُه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً](1).

وقوله: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال ابن كثير: (أي: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد).

102-103. قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣)﴾.

في هذه الآيات: أمْرُ الله المؤمنين التزام التقوىٰ بصدق والموت على الإسلام، والاعتصام بالجماعة والقرآن، ونبذ التفرقة والطغيان، وتذكر نعمة الله في صقل القلوب على المحبة وترك العدوان، فإن النجاة من عذاب الله بالهداية والإيمان.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال رسول الله ﷺ: لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه](2).

وأخرج الحاكم والطبري بسند صحيح موقوف عن مُرّة، عن عبد الله بن مسعود:

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة (165/12)، والطبراني في «الكبير» (1/77/1)، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» (74)، وانظر السلسلة الصحيحة (713).

(2) حديث صحيح. انظر تخريج «مشكاة المصابيح» (5683)، وصحيح الجامع (5126).

﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ ، قال: (أن يُطاع فلا يُعصىٰ ، ويُذكر فلا يُنسىٰ ، ويُشكر فلا يُكفر)[1] .

وقوله: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ . قال طاووس: (على الإسلام ، وعلى حُرْمة الإسلام). وقال ابن كثير: (أي: حافظوا على الإسلام في حال صحّتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرىٰ عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بُعِثَ عليه ، فعياذاً بالله من خلاف ذلك).

وفي مسند أحمد وسنن النسائي بسند صحيح عن حكيم بن حزام قال: [بايعت رسول الله ﷺ أن لا أخِرَّ إلا قائماً][2] .

قيل: معناه أن لا أموت إلا مسلماً. وقيل: معناه أن لا أقتل إلا مُقْبلاً غير مُدبر.

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بالحث على حسن الظن بالله حتىٰ آخر لحظة عند الاحتضار ، وعلى المبادرة بفعل الخيرات من أجل حسن الختام. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: [لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ][3] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله: أنا عند ظن عبدي بي][4] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد صحيح عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي إن ظنّ خيراً فلَهُ ، وإن ظنّ شراً فلهُ][5] .

وله شاهد عند الطبراني في «الأوسط» من حديث واثلة بلفظ: [إن الله تعالىٰ يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي ، إن خيراً فَخَيْرٌ ، وإن شرّاً فَشَرٌّ][6] .

---

(1) حديث موقوف . أخرجه الحاكم (294/2) ، والطبري (7534) ، وسنده صحيح .
(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (402/3) ، والنسائي (205/2) وإسناده صحيح على شرطهما .
(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2877) ، وأبو داود (3113) ، وأحمد (315/3) .
(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (7505) ، كتاب التوحيد . وأخرجه مسلم (2675) .
(5) حديث صحيح . أخرجه أحمد (391/2) ، وابن حبان (2394) ، وانظر صحيح الجامع (4191) .
(6) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط » (8115 ـ ترقيم الألباني) من حديث واثلة ، ورواه أبو نعيم في الحلية (306/9) .

وفي لفظ: [قال الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء][1].

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند صحيح عن أنس مرفوعاً: [قال الله عزَّ وجلَّ: عبدي! أنا عند ظنك بي، وأنا معك إذا ذكرتني][2].

الحديث الخامس: أخرج الترمذي بسند حسن عن أنس: [أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت، فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف][3].

وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ ـ فيه أكثر من تأويل لمعنىٰ «حبل الله»:

التأويل الأول: عن الشعبي، عن عبد الله بن مسعود أنه قال في قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ قال: (الجماعة). وفي رواية: (قال: حَبْلُ الله، الجماعة).

التأويل الثاني: عن قتادة قال: (حبل الله المتين الذي أمر أن يُعْتصمَ به: هذا القرآن). وقال السدي: (أما «حبل الله»، فكتاب الله).

التأويل الثالث: عن عطاء: (﴿بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾، قال: العهد). وقال مجاهد: (بعهد الله). وقال قتادة: (بعهد الله وأمره).

التأويل الرابع: قال أبو العالية: (يقول: اعتصموا بالإخلاص لله وحده).

التأويل الخامس: قال ابن زيد: (الحبل: الإسلام).

قلت: وهذه التفاسير متقاربة يعضد بعضها بعضاً، فإن حبل الله هو القرآن والمنهج الذي ارتضاه لنبيّه ﷺ في فهمه، ولا يستقيم الاعتصام بذلك إلا بالجماعة، وهو مفهوم سيرته ﷺ ورحلة البناء التي مضىٰ عليها طيلة حياته، حتىٰ أفرز للأمة جماعة الحق ودولة الإسلام.

---

(1) أخرجه الحاكم (240/4)، وانظر السلسلة الصحيحة (1663)، وصحيح الجامع (4192).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (497/1) بإسناد صحيح لغيره. انظر السلسلة الصحيحة (2012).

(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي في الجامع (983)، وابن ماجة في السنن (4261)، وعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (ص 25/24)، وابن أبي الدنيا كما في «الترغيب» (141/4)، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (2).

وقد جاء في السنة الصحيحة ربط الحبل بالاعتصام ، والقرآن بالجماعة . في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الطبراني في «المعجم الكبير» بسند صحيح ، عن جبير بن مطعم قال : [كنا مع رسول الله ﷺ بالجحفة فخرج علينا فقال : أبشروا ، فإن هذا القرآن طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تهلكوا ولن تضلوا بعده أبداً](1) .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وأحمد بسند حسن ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : [كتابُ الله ، هو حَبْلُ الله الممدود من السماء إلى الأرض](2) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث زيد بن أرقم عن النبي ﷺ قال : [ألا وإني تارك فيكم ثقلين ، أحدهما كتاب الله عز وجل ، وهو حبل الله ، ومن اتبعه كان على الهدىٰ ، ومن تركه كان على ضلالة](3) .

وقوله : ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ . قال قتادة : (إن الله عزَّ وجلَّ قد كره لكم الفُرقة ، وقدّم إليكم فيها ، وحذّركموها ، ونهاكم عنها ، ورضي لكم السمع والطاعة والألفة والجماعة ، فارضوا لأنفسكم ما رضي الله لكم إن استطعتم ، ولا قوة إلا بالله) .

وقال أبو العالية : (﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ ، لا تعادوا عليه ، يقول : على الإخلاص لله ، وكونوا عليه إخواناً) .

قال الحافظ ابن كثير : (أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة . قال : وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ) .

قلت : وقد أشارت السنة الصحيحة إلى هذا الضمان ، فيما أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالىٰ لا يجمع أمتي على ضلالة ، ويدُ الله على الجماعة](4) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني (1/77/1) ، وابن أبي شيبة (165/12) نحوه .

(2) حديث حسن . أخرجه الترمذي في السنن (3790) من حديث أبي سعيد الخدري ، ورواه أحمد في المسند (14/3 ، 17) ، وانظر صحيح الجامع (4349) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (123/7) ، وابن حبان (123 ـ شاكر) .

(4) حديث صحيح . أخرجه الترمذي في الجامع ، والطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 209/ 1) ، والحاكم (1/ 115 ـ 116) . وانظر تخريج المشكاة (173) ، وصحيح الجامع (1844) .

وقوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.
قال ابن جرير: (واذكروا ما أنعم الله به عليكم من الألفة والاجتماع على الإسلام).
والمقصود أن الجاهلية ونعراتها كانت قد أجهزت عليهم وفرقتهم وهي كذلك اليوم تفرق الناس وراء سبل الشياطين، ولا يجمعهم والله إلا هذا الدين.

قال قتادة: (﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾، كنتم تذابحون فيها، يأكل شديدكم ضعيفكم، حتىٰ جاء الله بالإسلام فآخىٰ به بينكم، وألّف به بينكم. أما والله الذي لا إله إلا هو، إن الألفة لرحمة، وإن الفرقة لعذاب).

وقال ابن إسحاق: (كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومئة سنة، حتىٰ قام الإسلام وهم على ذلك، فكانت حربهم بينهم وهم أخوان لأب وأم، فلم يسمع بقوم كان بينهم من العدواة والحرب ما كان بينهم. ثم إن الله عزَّ وجلَّ أطفأ ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسوله محمد ﷺ).

يروي عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند حسن عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: [من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب][1].

وقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

قال السدي: (يقول: كنتم على طرف النار، من مات منكم أوبِقَ في النار، فبعث الله محمداً ﷺ فاستنقذكم به من تلك الحفرة). وقال حسن بن حيّ: (﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾، قال: عصبية).

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. يعني: لتهتدوا إلى سبيل النجاة والرشاد، فتسلموا في الدنيا، وتنجوا في الآخرة.

104-109. قوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (4/ 278)، ورواه عبد الله بن أحمد في «الزوائد» (4/ 375)، وإسناده حسن. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (667).

ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

في هذه الآيات: يأمر سبحانه أن تَنْفِرَ أمةٌ من الأمة لحراسة الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلا هلكت الأمة جميعاً. ثم يحذر سبحانه من الفرقة والاختلاف، ومغبة ذلك في الدنيا والآخرة، فإن أهل السعادة تبيَّض وجوههم يوم الحساب، وأهل الشقاوة تسوَّد وجوههم، وإلى الله المَلِكِ ترجع الأمور.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

قال الضحاك: (هم خاصة أصحابِ رسول الله، وهم خاصة الرواة). قال ابن كثير: (يعني المجاهدين والعلماء).

وقد حفلت السنة الصحيحة بهذا الأمر الإلهي المبارك في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [من رأىٰ منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان][1]. وفي لفظ: «وليس وراء ذلك من الإيمان حبّةُ خردل».

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن، عن حُذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: [والذي نفسي بيده، لتأمُرُنّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكَنّ الله أن يبعث عليكم عِقاباً من عنده، ثم لَتَدْعُنَّه فلا يستجيب لكم][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بإسناد حسن عن عبيد الله بن جرير عن أبيه قال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (49) وأحمد (20/3)، وأبو داود (1140) والترمذي (2172)، والنسائي (112/8)، وابن ماجة (1275)، وابن حبان (306).

(2) حسن صحيح بشواهد: أخرجه الترمذي (2169)، وأحمد (391/5)، وحسنه الترمذي والألباني.

قال رسول الله ﷺ: [ما من قوم يُعْمل فيهم بالمعاصي، هم أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب][1].

وكذلك روى الإمام مالك في الموطأ عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمرَ بن عبد العزيز يقول: [كان يُقال: إن الله تبارك وتعالىٰ لا يُعَذِّبُ العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عمل المنكر جِهاراً استحقوا العقوبة كلُّهم].

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. نهيٌ عن سلوك سبيل الأمم الماضية التي فشا فيها التفرق في الدين وتشتيت الكلمة وتضييع العلم.

وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾. وفي المسند وسنن أبي داود بسند حسن عن أبي عامر عبد الله بن لُحَيّ قال: [حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلما قدمنا مكة، قام حين صلّى صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين مِلّة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين مِلّة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ـ وهي الجماعة ـ وإنه سيخرج في أمتي أقوام تُجَارىٰ بهم الأهواء كما يتجارىٰ الكلب بصاحبه، لا يبقىٰ منه عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخله. والله ـ يا معشر العرب ـ لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ لغَيْرُكُم من الناس أحرىٰ أن لا يقوم به][2].

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. يعني في الآخرة لقاء تفرقهم وتضييع دينهم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. قال ابن عباس: (تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفُرْقة). والمقصود: يوم القيامة.

وقوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. قال الحسن: (هم المنافقون، كانوا أعطوا كلمةَ الإيمان بألسنتهم، وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم).

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (4009). انظر صحيح ابن ماجة (3238). وانظر تخريج المشكاة (5142)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (687/1) له وللأثر الذي بعده عن عمر بن عبد العزيز.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4597)، وأخرجه أحمد في المسند (102/4) وإسناده حسن. وله شواهد كثيرة.

وقوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: مقابل النفاق والجحود والاستهزاء بالدين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. قال ابن جرير: (يعني: في جنته ونعيمها وما أعدّ الله لأهلها فيها، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أي: باقون فيها أبداً بغير نهاية ولا غاية).

وقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾. يعني: مواعظ الله وعبره وحججه، نقرؤها عليك ونقصّها بالصدق واليقين يا محمد. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: لا يظلم أيّاً من الفريقين، فهؤلاء بَيّضَ وجوههم وكرّمهم برحمته وفضله لقاء ما أخلصوا له الدين، وهؤلاء سوّد وجوههم وانتقم منهم لقاء ما أجرموا ومكروا، فهو الحكم العدل الذي لا يجور.

وفي صحيح أبي داود والنسائي عن هانئ بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الله هو الحَكَمُ، وإليه الحُكم][1].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ: [قال الله تعالىٰ: يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا..][2].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

تقرير للحقيقة الكبيرة الخالدة، فمردّ الجميع إلى خالقهم وبارئهم ومليكهم الحق، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

110-112. قوله تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4955). انظر صحيح سنن أبي داود (4145). وأخرجه النسائي. انظر صحيح الجامع (1841)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (389/1) لتفصيل أدلة الصفات.

(2) حديث صحيح. وهو جزء من حديث طويل. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1828).

مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (١١٢)﴾.

في هذه الآيات: إخبار من الله تعالىٰ عن كرامة هذه الأمة ، وأنها أفضل الأمم إلى يوم القيامة ، إذا قامت بمقتضىٰ التوحيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأنّ أهل الكتاب لو آمنوا بما أَنزل الله على محمد ﷺ مصدقاً لما معهم لكان خيراً لهم ، وقليل منهم المؤمنون. إنهم لن يضروكم إلا أذىٰ تسمعونه منهم ، وهم أجبن الناس عند القتال ، فقد كتب الله عليهم الذلة والهزيمة ، وأنزل عليهم غضبه لقاء كفرهم وتجرئهم على أنبيائه بالقتل ، ونشرهم الفساد والبغي في الأرض.

فقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾. قال مجاهد: (كنتم خير الناس للناس على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتؤمنوا بالله).

قال البخاري: حدثنا محمد بن يوسف ، عن سفيان ، عن مَيْسَرَة ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: (خَيْرَ الناس للناس ، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتىٰ يدخلوا في الإسلام).

ومفهوم كلام أبي هريرة أن إدخال الناس في الإسلام إنما هو رحمة لهم ونجاة من عذاب الله ، فإنهم يقعون في الأسر أولاً بانتصار المسلمين ، ثم يرون عظمة الإسلام ورحمته فيدخلون فيه ، وكأنهم بهذه الصورة سيقوا إلى الجنة بالسلاسل.

وفي مسند أحمد وجامع الترمذي بسند حسن عن معاوية بن حَيْدَة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [أنتم تُوفُّونَ سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله عزَّ وجلَّ][1].

وقد جاء في كثرة الداخلين الجنة من هذه الأمة أحاديث ، يبدو منها أنهم يشكلون ثلثي أهل الجنة ، وقسم كبير يدخلها بغير حساب ولا عذاب.

الحديث الأول: في الصحيحين والمسند عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: [عُرضت عليَّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرُّهَيط ، والنبي ومعه الرُّهيط ، والنبي ومعه

---

(1) صحيح بشواهد: أخرجه أحمد (447/4) ، وأخرجه الترمذي (3001) ، وقال: حديث حسن.

الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذْ رُفِعَ لي سواد عظيم ، فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي: هذا موسىٰ وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق. فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، ولا عذاب. ثم نهض فدخل منزله. فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم: فلعلّهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً. وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقال: ما الذي تخوضون فيه ؟ فأخبروه. فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون. فقام عُكّاشة بن مِحْصَن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: أنت منهم. ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عُكَّاشة][1] .

الحديث الثاني: في المسند وجامع الترمذي بسند جيد ، عن أبي أمامة الباهلي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [وعدني ربي أن يُدخِلَ الجنة من أمتي سبعين ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً ، لا حسابَ عليهم ولا عذاب ، وثلاث حثيات من حَثَيات ربي عزَّ وجلَّ][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: [قال لنا رسول الله ﷺ: أما ترضون أن تكونوا رُبُع أهل الجنة ؟. فكبَّرنا. ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلثَ أهل الجنة ؟ فكبرنا. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا شطْرَ أهل الجنة][3] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن ، عن ابن بُرَيدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: [أهل الجنة عشرون ومئة صف، هذه الأمة من ذلك ثمانون صَفّاً][4] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6541) ، ومسلم (220) ، وأحمد (271/1) ، ولفظ « لا يرقون » تفرد به مسلم دون البخاري وهو غريب ، فإن صحّ فالمعنىٰ لا يرقون برقية الجاهلية ، والحديث رواه ابن حبان في صحيحه (6430) .

(2) حديث إسناده جيد . أخرجه الترمذي (2437) ، وأحمد (268/5) ، وابن أبي عاصم (589) .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6528) ، ومسلم (221) ، وأحمد (386/1) ، وغيرهم .

(4) حديث حسن . أخرجه أحمد في المسند (355/5) من حديث بريدة ، والترمذي في الجامع (2546) ، وابن ماجة في السنن (4289) ، وغيرهم .

والخلاصة: هذه الأمة هي أمة الخيرية، وأمة الشهادة على الناس، وأمة الوسطية، فمن التزم الشرط الذي ذكره الله تعالىٰ: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ دخل في هذا الثناء العطر لهذه الأمة. قال عمر بن الخطاب: (من فعل فعلهم كان مثلهم). وقال قتادة: (بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حَجَّة حَجَّها، رأىٰ من الناس دَعَة، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ثم قال: من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله فيها) ذكره ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾. يعني: بما أنزل الله على محمد ﷺ مصدقاً لما معهم. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. قال قتادة: (ذم الله أكثر الناس). والمراد: أن قلة منهم ستؤمن بما أنزل إليكم، وأكثرهم يتابعون على الفسق والضياع والانحراف.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾. قال قتادة: (لن يضروكم، إلا أذى تسمعونه منهم). وقال الحسن: (تسمعون منهم كذباً على الله، يدعونكم إلى الضلالة). وقال ابن جريج: (إشراكهم في عُزير وعيسىٰ والصَّليب).

وقوله: ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾. كناية عن انهزامهم وجُبْنهم أثناء القتال، وتولية ظهورهم يركبون الفرار، وقد كتب الله عليهم الذل وأيد المؤمنين بنصره عليهم.

قال ابن كثير: (وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارىٰ بالشام كَسَرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم مُلْكَ الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولاتزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتىٰ ينزل عيسىٰ بن مريم، وهم كذلك، وَيَحْكُم بملة الإسلام وشرع محمد، عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام).

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾.

قال الحسن: (أذلهم الله فلا مَنْعةَ لهم، وجعلهم الله تحت أقدام المسلمين).

وقال السدي: (﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ يقول: إلا بعهد من الله وعهد من الناس). قال عطاء: (العهد حبلُ الله).

والمعنىٰ: ألزمهم الله الذلة والصغار فلا يأمنون إلا بذمة من الله ـ وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم ـ وذمة من الناس ـ أي أمان لبعضهم إذا أمّنه واحد من المسلمين ، أو ما يكون حال المهادنة والأسر.

وقوله: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ . أي: تحمّلوا غضب الله فانصرفوا به مستحقّيه.

وقوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ . أي: ألزموها. قال ابن جرير: (ومعنىٰ المسكَنة: ذل الفاقة والفقر وخشوعهما).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ . أي: إنما قضىٰ عليهم ما قضىٰ من الذل والهزيمة لقاء كفرهم وتجرئهم على الأنبياء بالقتل حسداً منهم وبغياً في الأرض وحباً للكبر.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ . قال قتادة: (اجتنبوا المعصية والعدوان ، فإن بهما أهلِكَ مَنْ أُهلك قبلكم من الناس).

113-117. قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ .

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ أن من أهل الكتاب أمة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه ، آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم برسلهم وما أنزل من قبل ، يقومون الليل ويتلون القرآن وهم من الصالحين. وما يفعلوا من خير فهو محسوب لهم والله عليم بالمتقين. إن أموال الكفار وأولادهم لن تدفع عنهم عذاب النار يوم القيامة. وإنما مثل ما ينفقون في هذه الدنيا من أموال وما يعملون من أعمال ظاهرها البر والصلاح كمثل زرع أهلكته الريح ، فإن الله لا يقبل مع الشرك شيئاً.

وقد جاء في أسباب النزول لما تقدم من الآيات في أهل الكتاب حديثان صحيحان:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وابن حبان بسند حسن عن ابن مسعود قال: [أخّر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم. قال فنزلت هذه الآيات: ﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾][1].

فوصف الله تعالى أمة محمد ﷺ بأنهم يصلُّونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسوله.

الحديث الثاني: أخرج الطبراني ورجاله ثقات، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: [لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من يهود فآمنوا وصدقوا ورغبوا في الإسلام، قالت أحبار يهود أهل الكفر: ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا، ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ في ذلك من قوله: ﴿ ليسوا سواء ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿ من الصالحين ﴾][2].

قال السدي: (﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ ﴾ الآية، يقول: ليس هؤلاء اليهود، كمثل هذه الأمة التي هي قائمة).

قلت: ولا شك أن من آمن من أهل الكتاب وصدق بمحمد ﷺ فقد صار من أمته، وهم بذلك داخلون في الثناء العطر على أهل التلاوة والقيام والإيمان.

ولذلك قال: ﴿ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾. أي: من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل في صلاتهم، وهم مع ذلك يسجدون فيها سجود هذه الأمة المعروف في صلاتها.

وقوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (396/1)، وصححه ابن حبان (1530)، وأخرجه النسائي في « التفسير » (93)، وأخرجه أبو يعلىٰ (5306). وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة آل عمران، آية (113).

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني ورجاله ثقات. انظر المرجع السابق، سورة آل عمران (113).

أي: يقرون بالله ويصدقون بالبعث ويأمرون بالمعروف الذي جاء في الشرع، وأعلاه التصديق بمحمد ﷺ، وينهون عن المنكر ومنه التكذيب بمحمد ﷺ، وهم مسارعون في العمل الصالح لنيل مرضاة الله سبحانه واللحاق بالصالحين وهم أصحاب محمد ﷺ في الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وما تفعل هذه الأمة من خير وبر وعمل صالح، فلن يبطل الله ثوابه، فهو أعلم بمن اتقاه وحرص على رضاه.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: لن تدفع الأموال والأولاد شيئاً من عذاب الله مقابل الكفر، ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: فإن من مات على الكفر ألزم صحبة النار الدائمة، ولا يقبل الله مالاً ولا رشوة ولا أحداً يفتدي به من العذاب.

وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. قال مجاهد: (نفقة الكافر في الدنيا).

وقوله: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

قال السدي: (يقول: كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون، فأصابه ريح فيها صر، أصابته فأهلكته، فكذلك أنفقوا، فأهلكهم شِرْكهم).

والصر: شدة البرودة. قال ابن عباس: (برد شديد وزمهرير). وقال الضحاك: (ريح فيها برد). والمقصود: إبطال الله أجر ما ينفق هؤلاء الكفار في هذه الحياة الدنيا من أعمالٍ ظاهرها البر والصلاح ما داموا لم يقروا لله بالتوحيد، وللنبي ﷺ بالأسوة والرسالة والمتابعة.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمناً حسنته، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتىٰ إذا أفضىٰ إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزىٰ بها][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2808) ح (56)، ح (57). ورواه أحمد في المسند بلفظ مقارب. انظر صحيح الجامع الصغير (1849).

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. ردٌّ لما نزل بهم إلى صنيعهم، فإن الله سبحانه لا يظلم مثقال ذرة، بل الكافر هو الظالم لنفسه، الموردها هلاكها.

118-120. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (118) هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (119) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)﴾.

في هذه الآيات: يُحذِّر الله تعالىٰ عباده المؤمنين أن يتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسهم من دون أهل دينهم وملتهم، يطلعونهم على سرائرهم ليجهد هؤلاء المنافقون في المكر والخديعة وإلحاق الأذىٰ بالمؤمنين. ها أنتم تحبون التقرب من هؤلاء الكفار، وهم يبادلونكم العداوة والغش والبغضاء، ويتآمرون مع المنافقين عليكم، فيحسدونكم على كل خير ينزل بكم، ويشمتون عند كل نازلة ومصيبة تلحق بكم، وإن تصبروا وتحتسبوا عند الله لا يضركم كيدهم، والله بما تعملون محيط.

فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾. ـ إنما جعل البطانة مثلاً لخليل الرجل، فهو لشدة قربه منه يشبه ما ولي بطنه من ثيابه، في اطلاعه على أسراره.

قال قتادة: (نهىٰ الله عزَّ وجلَّ المؤمنين أن يستدخلوا المنافقين، أو يؤاخوهم، أو يتولوهم من دون المؤمنين).

وقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾. أي: لا يدعون جهدهم لإيقاع الفساد فيكم.

وقوله: ﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾. قال ابن جريج: (يقول: في دينكم، يعني: أنهم يودون أن تعنتوا في دينكم). قال القرطبي: (﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾: أي ودوا عنتكم، أي: ما يشق عليكم. والعنت المشقة).

وقوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾. قال قتادة: (قد بدت البغضاء من أفواه المنافقين إلى إخوانهم من الكفار، من غشهم للإسلام وأهله، وبغضهم إياهم).

وقوله: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾. قال الربيع: (يقول: ما تكنُّ صدورهم أكبر مما قد أبدوا بألسنتهم).

ثم قال تعالىٰ: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أيها المؤمنون، ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عن الله مواعظه وأمره ونهيه ومواقع النفع لكم.

وقد حفلت السنة الصحيحة بالتحذير من بطانة السوء وتوضيح بعض معالم مفاهيم السياسة الشرعية والعلاقات الدولية. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: [ما اسْتُخْلِفَ خليفةٌ إلا لهُ بطانتانِ: بِطانةٌ تأمُرُه بالخير وتحضُّهُ عليه، وبطانةٌ تأمُرُهُ بالشر وتحضُّه عليه، والمعصوم من عصم الله][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح من حديث جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: يا رسول الله، لم؟ قال: لا تراءىٰ ناراهما][2].

الحديث الثالث: أخرج أبو داود بسند صحيح عن سمرة بن جندب: [أما بعد، قال رسول الله ﷺ: من جامَعَ المُشْرِكَ، وسَكَنَ مَعَهُ، فإنه مثله][3].

وقوله: «من جامع المشرك» أي: بحيث يصير أكيله وقعيده وشريبه، وقوله: «وسكن معه» أي في ديار الكفار، فإن كان للكفار وجود في ديار الإسلام، فالحكم يبقىٰ كذلك، لا بد من الولاء والبراء.

أخرج ابن أبي حاتم، عن ابن الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6611)، كتاب القدر، وأخرجه أحمد في المسند (39/3)، والنسائي (158/7).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2645)، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود. انظر صحيح أبي داود (2304)، كتاب الجهاد، الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2787)، كتاب الجهاد، باب في الإقامة بأرض الشرك.

إن هاهنا غلاماً من أهل الحيرة ، حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً ؟ فقال: (قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين).

وقوله: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ ﴾. قال ابن جرير: (يقول: تحبون هؤلاء الكفار الذين نهيتكم عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، فتودونهم وتواصلونهم وهم لا يحبونكم ، بل يبطنون لكم العداوة والغش).

وقوله: ﴿ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ ﴾. قال ابن عباس: (أي: بكتابكم وكتابهم وبما مضىٰ من الكتب قبل ذلك ، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم ، منهم لكم).

وقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ ﴾. قال قتادة: (إذا لقوا المؤمنين قالوا: ﴿ ءَامَنَّا ﴾ ، ليس بهم إلا مخافة على دمائهم وأموالهم ، فصانعوهم بذلك ، ﴿ وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ ﴾ ، يقول: مما يجدون في قلوبهم من الغيظ والكراهة لما هم عليه. لو يجدون ريحاً لكانوا على المؤمنين ، فهم كما نعت الله عزَّ وجلَّ).

والأنامل: جمع «أنْمُلَة». قال السدي: (الأصابع). وقال قتادة: (أطراف الأصابع). والمقصود: عضوا على أصابعهم تغيظاً من قوة المسلمين وتمنياً لإفساد شوكتهم.

وقوله: ﴿ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾. أي: قل يا محمد لهؤلاء الحُسّاد ـ من اليهود وأمثالهم من أهل الكتاب والمشركين ـ موتوا غيظاً لما رأيتموه من شوكة المؤمنين واجتماع كلمتهم وائتلاف جماعتهم ، فإن الله مع المؤمنين يؤيدهم بنصره وعونه ، وهو ذو علم بما تخفيه صدور العالمين ، من المنافقين والمؤمنين.

وقوله: ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ ﴾. قال الربيع: (هم المنافقون ، إذا رأوا من أهل الإسلام جماعة وظهوراً على عدوهم ، غاظهم ذلك غيظاً شديداً وساءهم. وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً ، أو أصيب طرفٌ من أطراف المسلمين ، سرَّهم ذلك وأعجبوا به. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾).

121-123. قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣)﴾.

في هذه الآيات: إخبار الله تعالىٰ عن يوم أحد حين غدا النبي ﷺ يجهز منازل المؤمنين لخوض القتال، وهو سبحانه سميع للحوار الذي جرىٰ بين نبيّه وبين أصحابه، عليم بسداد رأي النبوة في البقاء بالمدينة والتحصن بها. ثم تذكيره ـ تعالىٰ ـ بتخاذل المنافقين حتىٰ كادت فئتان من المؤمنين أن تجبنا لولا تثبيت الله لهم. ثم تذكيره ـ تعالىٰ ـ المؤمنين بيوم بدر إذ نصرهم وهم قلة ليتقوا الله ولعلهم يشكرون.

فقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾.

يخبر تعالىٰ في هذه الآية عن يوم أحد، وكانت يوم السبت من شوال سنة ثلاث للهجرة. قال قتادة: (لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال). وقال عكرمة: (يوم السبت للنصف من شوال)، والله أعلم.

قال قتادة: (﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ﴾، ذلك يوم أحد، غدا نبيُّ الله ﷺ من أهله إلى أحد يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال).

وقال مجاهد: (مشىٰ النبي ﷺ يومئذ على رجليه يبوئ المؤمنين).

وقال ابن هشام: (تبوئ المؤمنين: تتخذ لهم مقاعد ومنازل).

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. أي: سميع للحوار الذي جرىٰ بينك وبين أصحابك يا محمد، عليم أن رأيك بالبقاء والتحصن في المدينة أصوب وأدق.

وكان النبي ﷺ قد رأىٰ رؤيا تشير إلى هزيمة وقتل يقع في أصحابه، ورأىٰ أنه في درع حصينة فأوَّلَها المدينة.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صَدْرُه، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته بأخرىٰ فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله خيرٌ، فإذا هم المؤمنون يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير

وثوابِ الصدق الذي آتانا الله بعد يوم بدر][1] .

وفي رواية أحمد: [ورأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة][2] .

ويروي الطبري بسندٍ حسن مرسل عن قتادة: [فقال ناس من أصحابه من الأنصار: يا نبي الله ، إنا نكره أن نقتل في طرق المدينة ، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية ، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه فابرز إلى القوم ، فانطلق رسول الله ﷺ فلبس لأمته ـ وهي الدرع الحصينة وأداة الحرب ـ، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره ، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله ﷺ: أمرنا لأمرك تبع. فأتىٰ حمزة فقال له: يا نبي الله إن القوم قد تلاوموا فقالوا: أمرنا لأمرك تبع. فقال رسول الله ﷺ: إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتىٰ يناجز][3] .

ثم ذَكَّر سبحانه بتخاذل بعض الجيش من المنافقين حتىٰ كادت فئتان من المؤمنين أن تجبنا وتفكرا في الرجوع ، فعصمهم الله وثبتهم ، فقال جل ذكره: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ . قال قتادة: (وذلك يوم أحد ، والطائفتان بنو سلمة وبنو حارثة ، حيان من الأنصار) .

أخرج البخاري ومسلم عن جابر قال: [نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ بني سلمة وبني حارثة ، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: والله وليهما][4] .

فهؤلاء همّوا بالرجوع لَمَّا أحدث المنافق عبد الله بن أُبي الخلل في الصفوف ، فرجع بأهل النفاق إلى المدينة ، فعصم الله بني سلمة وبني حارثة من الوقوع والزلل ، وثبتهم حين جَبُنا عن لقاء العدو ، وأعطىٰ الله الأمة بذلك درساً كبيراً ، أن من أصابه ضعف فليتوكل على الله ، وليتذكر عظمته وجبروته ، فإن ذلك يعينه على تجاوز الضعف والكسل ، ويقوي نيّته وعزيمته.

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4081) ، كتاب المغازي . وانظر كتابي : السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (658/2) لتفصيل البحث .

(2) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (271/1) ، وانظر المرجع السابق .

(3) حسن لشواهده انظر تفسير الطبري (372/7) ، وله طرق عند البيهقي وأحمد تقويه ، فقد رواه أحمد ووصله من حديث جابر . انظر كتابي : السيرة النبوية (658/1-659) .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4051) في المغازي ، وأخرجه مسلم (2505) في فضائل الصحابة ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

ثم ذَكَّرَ الله سبحانه المؤمنين بيوم بدر ، إذ كانوا قلة فأضعف أعداءهم ، وأمدّهم بالملائكة المسوِّمين ، أي المُعْلمين ، وعوض النقص بالعدد والعدة بهم. فقال جلَّ ذكره : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي : فاتقوني ، فإنه شكر نعمتي) .

124-129. **قوله تعالىٰ :** ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : إخبار الله تعالىٰ عن يوم بدر وما كان من مشاركة الملائكة المؤمنين النصر ، ونزول البشرىٰ والطمأنينة والظفر. ثم وعدهم سبحانه وعداً مماثلاً يوم أحد ، إن يصبروا ويصدقوا الاتباع والتقوىٰ ، فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفاً من المشركين فينتقم منهم أو يخزيهم بالخيبة والرجوع أذلاء صاغرين. إنه ليس لك ـ يا محمد ـ من الأمر شيء ، فلو شاء الله لهداهم أو أخزاهم ، فلا تستبعد إنابتهم ، فقلوبهم بيد مالك السماوات والأرض العزيز الغفور الرحيم.

قال الحسن : (﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ ، قال : هذا يوم بدر). وقال ابن إسحاق : (كانت سيماهم يوم بدر عمائم بيضاً). ولا تعارض مع قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ ـ إلى قوله ـ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فإن قوله ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ أي : يَرْدَفُهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم ، فالتنصيص على الألف هاهنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها ، ذكره ابن كثير. وبعض المفسرين ذهب أن الآية في يوم أحد ، والتفسير الأول الذي ذكرناه أقرب ، وهو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير.

ثم وعدهم سبحانه وعداً مماثلاً يوم أحد ، أنهم إن يصبروا ويتقوا الله ويصدقوه الإيمان والقتال ، ويأتيهم كفار قريش وتُبّاعهم ﴿من فورهم هذا﴾ ، وهو ابتداء غضبهم الذي غضبوه لقتلاهم ببدر ، يمددهم الله بخمسة آلاف من الملائكة الكرام ، يقاتلون معهم في سبيل الله ، ويقذفون الرعب في صفوف المشركين ويفرقوهم ويمزقوهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ له تأويلان عند المفسرين:

التأويل الأول: ما ذكره مجاهد ، قال: (من غضبهم هذا). يعني الكفار يوم أحد ، غضبوا ليوم بدر مما لقوا.

والتأويل الثاني: ما ذكره قتادة ، قال: (من وجههم هذا) والمراد يوم بدر ، إذ همّ كرز بن جابر وأصحابه بنصرة المشركين.

قال أبو جعفر: (وأصْلُ الفَوْر: ابتداء الأمر يؤخذ فيه ثم يوصل بآخر).

وفي لغة العرب: فارت القدرُ فوراً وفوراناً إذا ابتدأ ما فيها بالغليان ثم اتصل. ويُقال: مضيت إلى فلان من فوري هذا: أي من وجهي الذي ابتدأت فيه.

ولم يحصل المدد يوم أحد لعدم الصبر ومخالفة الأمر ، على العكس من يوم بدر ، وكنتم أيها المؤمنون يومئذ أحوج ما تحتاجون إلى مدد الملائكة وتأييدهم ، لتطمئن بذلك قلوبكم ، وتسكن بذلك نفوسكم ، فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا (أي طائفة) قتلهم يوم بدر ، وكانوا صناديدهم وقادتهم.

قال قتادة: (فقطع الله يوم بدر طرفاً من الكفار ، وقتل صناديدهم ورؤساءهم وقادتهم في الشر).

وقال الحسن: (هذا يوم بدر ، قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة).

وقال ابن إسحاق: (أي ليقطع طرفاً من المشركين بقتل ينتقم به منهم).

وقطع طرفاً آخر منهم يوم أُحد ، إذ قُتل منهم بضع وعشرون من قادتهم وفرسانهم. قال السدي: (ذكر الله قتلىٰ المشركين ـ يعني بأحد ـ وكانوا ثمانية عشر رجلاً فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، ثم ذكر الشهداء فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية). في حين فصّل ابن إسحاق وابن هشام في السيرة أسماء القتلىٰ من مختلف بطون المشركين.

قال ابن إسحاق: (فجميع من قتل الله تبارك وتعالىٰ يوم أحد من المشركين اثنان وعشرون رجلاً).

ثم قال سبحانه: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾. أي: يخزيهم بالخيبة مما رجوا من الظفر بكم أيها المؤمنون سواء يوم بدر إذ رجعوا فَلاًّ منهزمين، أو يوم أحد إذ لم يصيبوا شيئاً مما رجوا وكانوا يأملون.

فعن قتادة: (قوله: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يقول: يخزيهم).

وقد تجلّى هذا الكبت والخزي لجيش مكة وقادته في الأمور التالية:

أولاً: إن جيش المدينة بقي صامداً، إذ لم يلتجئ المقدار الكبير منهم إلى الفرار رغم الارتباك الذي حصل، والفوضىٰ التي عمت وسرت، بل قاوم ببسالة وشجاعة واستماتة حتىٰ تجمع حول مقر قيادته والتف حولها، ولم تسقط كفته إلى حد يطارده جيش المشركين.

ثانياً: إن جيش المدينة لم يقع أحد منهم في الأسر، رغم الطوق الحديدي الذي فرضه عليهم فرسان مكة وجنودها الغاضبون.

ثالثاً: لم يحصل كفار مكة على شيء من غنائم المسلمين رغم تطور الأحداث لصالحهم في بعض مراحل القتال.

رابعاً: لم ينهض كفار مكة إلى الصفحة الثالثة من القتال، مع أن جيش المسلمين لم يزل في معسكره أمام أعينهم وعلى مدّ أبصارهم.

خامساً: مغادرة المشركين أرض المعركة فوراً، إذ لم يقيموا بها يوماً أو يومين أو ثلاثة كعادة المنتصر في ذاك الزمان، مما يشير إلى خوف ورعب قد ملأ قلوبهم، وخشية من تطور مفاجئ للأحداث لا يمضي لصالحهم.

سادساً: عدم اجترائهم على دخول المدينة لنهب أموالها وسبي ذراريها ونسائها، رغم أنها كانت على خطوات قريبة منهم، وكانت مفتوحة أمام تقدمهم لو أرادوا.

فكل هذه المعاني والآفاق داخلة في مفهوم قوله تعالىٰ: ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾. فقد انسحب أبو سفيان من ساحة المعركة بسرعة كبيرة، خشية صفحة ثالثة من القتال، تكون فيها المعرة والهزيمة، وتستأنف فيها الفئة المؤمنة شجاعتها وتألقها المعهود.

ومع ذلك يا محمد، ليس لك من الأمر شيء، فلو شاء الله لهداهم أو أخزاهم،

فهو سبحانه أعلم بقلوبهم ومستقبلهم ، وقد كان النبي ﷺ يستبعد إنابتهم لما أدموه.

روىٰ مسلم في صحيحه عن أنس: [أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أحد ، وشجَّ في رأسه ، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا نبيّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾][1] .

وقد جاء في أسباب نزول هذه الآية أحاديث أخرىٰ صحيحة ، مما قد يدل على تعدد الحادثة التي تنزل فيها بعض آيات القرآن.

الحديث الأول: أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة: [أن الرسول ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً وفلاناً لأحياءٍ من العرب ، حتىٰ أنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾][2] .

وفي لفظ عند مسلم: (اللهم العن رِعْلاً وذكوان وعصية).

الحديث الثاني: أخرج البخاري في التفسير عن حنظلة بن أبي سفيان قال: سمعت سالم بن عبد الله يقول: [كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوانَ بن أمية ، وسهيلَ بن عمرو ، والحارث بن هشام ، فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾][3] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن الزُّهري ، حدثني سالم بن عبد الله ، عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ، إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: « اللهم العَنْ فلاناً وفلاناً وفلاناً ». بعدما يقول: « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ». فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾][4] .

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . أي: جميع ما بين أقطار السماوات

---

(1) حديث صحيح . انظر صحيح مسلم (1791) ، وعلقه البخاري بإثر (4068) ووصله مسلم كما سبق ، ورواه أحمد (99/3) ، (253/3) ، والترمذي (3002) ، وغيرهم .

(2) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (4560) ، وصحيح مسلم (675) ، ومسند أحمد (255/2) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (4070) ـ كتاب المغازي ، وكذلك (4559) ـ كتاب التفسير . ورواه أحمد (93/2) ، (104/2) ، والترمذي (3005) ، وله شواهد كثيرة .

(4) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4069) ، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ سورة آل عمران ، آية (128) .

والأرض داخل في ملكه سبحانه وتحت تصرفه ، وأهلهما عبيد بين يديه . ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ فمردّ الأمر له وحده لا شريك له ، إن شاء غفر وستر ، وإن شاء فضحَ ونشر ، فلا يسأل عما يفعل . ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . قال ابن إسحاق : (أي يغفر الذنوب ، ويرحم العباد ، على ما فيهم) .

130-136 . **قوله تعالىٰ :** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ .

في هذه الآيات : في هذه الآيات : يخاطب الله تعالىٰ المؤمنين يخبرهم أن الربا من أمر الجاهلية ليحذروه ، وأن طاعة الله ورسوله سبيل النجاة والنصر والسعادة في الدارين . ثم يحثهم سبحانه على المسارعة بالاستغفار والإنفاق وكظم الغيظ والإحسان ، واجتناب الفواحش والظلم والآثام ، ليكونوا من أهل الخلود في الجنان .

فقوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ .

قال ابن إسحاق : (أي لا تأكلوا في الإسلام إذ هداكم الله له ، ما كنتم تأكلون إذ أنتم على غيره ، مما لا يحل لكم في دينكم) .

وقال مجاهد : (قوله : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً﴾ ، قال : ربا الجاهلية) .

وقال عطاء : (كانت ثقيف تدّاين في بني المغيرة في الجاهلية ، فإذا حلّ الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون ؟) .

وقال ابن زيد : (كان أبي يقول : إنما كان الربا في الجاهلية في التضعيف وفي السن .

يكون للرجل فضل دين ، فيأتيه إذا حلّ الأجل فيقول له: تقضيني أو تزيدني ؟ فإن كان عنده شيء يقضيه قضى ، وإلا حوّله إلى السن التي فوق ذلك ، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون في السنة الثانية ، ثم حِقَّة ، ثم جَذَعة ، ثم رباعياً ، ثم هكذا إلى فوق ، وفي العين يأتيه ، فإن لم يكن عنده أضعفه في العام القابل ، فإن لم يكن عنده أضعفه أيضاً ، فتكون مئة فيجعلها إلى قابل مئتين . فإن لم يكن عنده جعلها أربع مئة ، يضعفها له كل سنة أو يقضيه . قال: فهذا قوله: ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾) .

وقد يسأل سائل: ما علاقة آية الربا بمعركة أحد ، إذ تخللت هذه الآية فجأة بين آيات وصف المعركة !؟

والجواب والله المستعان: كأن الله سبحانه يقول للمؤمنين الذين قاتلوا يوم أحد: كما أن الربا من أمر الجاهلية فيه تجاوز للحق ، فكذلك ما حصل يوم أحد حينما عصىٰ بعضكم أمر الرسول وغادروا المواقع فيه تجاوز للحد ، فالربا فيه تجاوز للحد وكذلك معصية الرسول ، وكلاهما محرم ممنوع .

وهذا التفسير من ربط الربا بالحديث عن المعركة وآلام بعض مواقفها والحث على الطاعة مما لم أقف عليه في التفاسير ، وأظنه من فتح الله وإلهامه وتوفيقه ، وهو سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقد ذكر الإمام القرطبي في التفسير عند هذه الآية نكتة بديعة أخرىٰ حيث قال: (وإنما خصّ الربا من بين سائر المعاصي ، لأنه الذي أذن فيه بالحرب في قوله: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول: إن لم تتقوا الربا هُزِمتم وقتلتم . فأمرهم بترك الربا ، لأنه كان معمولاً به عندهم والله أعلم) .

ثم أمرهم سبحانه باستئناف حياة الطاعة لله والرسول والمسارعة إلى طلب المغفرة والأعمال الموصلة إلى الجنان ونعيم الآخرة، فإنما ينفعكم أيها المؤمنون أن تسارعوا إلى مغفرة من الله ورضوان وجنات فيها نعيم مقيم، وأن تخبتوا له سبحانه ولا تصروا على الزلل ومعاودة السقوط، وترفقوا بالناس إذا زلوا كما زللتم أو ضعفوا كما ضعفتم .

فقوله سبحانه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ فيه أكثر من تأويل متقارب في المفهوم:

الأول: المسارعة إلى الصلوات المفروضة والنوافل . فعن أنس بن مالك ومكحول قالا: (معناه إلى تكبيرة الإحرام) .

الثاني: المسارعة إلى المساجد لأداء الفرائض. فعن علي بن أبي طالب قال: (إلى أداء الفرائض).

الثالث: المسارعة إلى الإخلاص والتقوىٰ. روي ذلك عن عثمان بن عفان.

الرابع: المسارعة إلى التوبة من الربا. ذكره القرطبي.

الخامس: المسارعة إلى الصدق والثبات في القتال. ذكره القرطبي.

ثم ذكر سبحانه بعض أبواب الخير الموصلة للنعيم والحور العين والخلود في جنات عدن، فذكر البذل والإنفاق في سبيل الله وكظم الغيظ والعفو عن الناس.

فعن ابن عباس قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ يقول: (في العسر واليسر). قال ابن جرير: (وقوله: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ يعني: والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه. يقال منه: كظم فلان غيظه، إذا تجرَّعه، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها).

وقد حفلت السنة الصحيحة بمدح الكاظمين الغيظ والخازنين ألسنتهم وغضبهم، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب][1].

الحديث الثاني: أخرج أحمد وأصحاب السنن بسند حسن، عن معاذ بن أنس، عن النبي ﷺ قال: [من كظَمَ غَيظاً، وهو قادر على أن يُنْفِذَه، دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتىٰ يُخَيِّرَه من الحور العين، يزوجه منها ما شاء][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، والإمام مسلم في الصحيح، من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [ما تَعُدّون الصرعة فيكم؟ قال: قلنا: الذي لا تَصْرَعُه الرجال. قال: لا، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6114)، ومسلم (2609)، وأحمد (236/2) وغيرهم.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد، وأبو داود (4777)، كتاب الأدب، ورواه ابن ماجة (4186)، وبقية أهل السنن. انظر تخريج المشكاة (5088)، وصحيح الجامع الصغير (6398).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (8/ 30)، وأحمد (382/1)، وإسناده على شرط الشيخين.

قال رسول الله ﷺ: [الصُّرَعَةُ كُلُّ الصُّرَعةِ الذي يَغْضَبُ فيشتَدُّ غضبُهُ ويحمرّ وجهُهُ ويقشَعِرّ شعرُهُ فيصرَعُ غضبه][1].

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن جارية بن قُدامة السعدي: [أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله قل لي قولاً ينفعني وأَقْلِلْ عليّ، لَعَلّي أعيه. فقال رسول الله ﷺ: لا تغضب. فأعاد عليه حتىٰ أعاد عليه مراراً، كل ذلك يقول: لا تَغْضب][2].

الحديث السادس: أخرج الطبراني بسند حسن من حديث ابن عمر: [ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضاً يوم القيامة][3].

وله شاهد عند أبي يعلىٰ من حديث أنس، قال رسول الله ﷺ: [من كفّ غضبه كفّ الله عنه عذابه، ومن خَزَنَ لسانَه ستر الله عَوْرتَه، ومن اعتذر إلى الله، قبل الله عُذْرَه][4].

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾. قال السدي: (أما الفاحشة فالزنا). وقال إبراهيم: (الظلم من الفاحشة، والفاحشة من الظلم). وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد.

وقوله: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾. قال قتادة: (فإياكم والإصرار، فإنما هلك المصرّون الماضون قُدُماً، لا تنهاهم مخافة الله عن حرام حرَّمه الله عليهم، ولا يتوبون من ذنب أصابوه، حتىٰ أتاهم الموت وهم على ذلك).

وقال الحسن: (إتيان العبد ذنباً إصرارٌ، حتىٰ يتوب).

وقال السدي: (أما ﴿يُصِرُّواْ﴾ فيسكتوا ولا يستغفروا).

---

(1) حديث حسن. انظر تخريج الترغيب (278/3)، وصحيح الجامع الصغير (3753).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (34/5)، والحاكم (615/3)، وابن حبان (5689) من حديث جارية بن قدامة السعدي، وسنده صحيح.

(3) حديث حسن. وهو جزء من حديث طويل، رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (3/ 209/ 2)، وابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (ص 80) رقم (36). وانظر صحيح الجامع (174).

(4) حديث حسن. انظر مسند أبي يعلىٰ (4338)، والمجمع برقم (13708) من حديث أنس.

أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرين ، الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون][1] .

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . قال ابن إسحاق: (يعلمون ما حرمت عليهم من عبادة غيري). وقال مجاهد: (﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه من تاب تاب الله عليه).

فكأنه يخاطب سبحانه أهل أحد بقوله: يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا معصية الرسول والوقوع في مخالفته ، وسارعوا إلى المغفرة والصدقة والعمل الصالح لتتجاوزوا ما حصل ، وإياكم والإصرار على الذنب ، فإن ذلك من الكبائر ، وليكن ما حصل لكم يوم أحد مصدر رحمة يحملكم على رحمة الناس إذا ما وقعوا أو زلوا ، فتتجاوزون عن هفواتهم ، وتكظمون الغيظ عنهم ، لتنالوا بذلك عفو الله ورضوانه.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ . أي: جزاؤهم على هذه الصفات التي اتصفوا بها المغفرة والجنات ، تجري تحتها الأنهار من ألوان المشروبات ، ماكثين فيها أبداً لا يحولون عنها.

وقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ : أي: نعم المستقر للعاملين المجدين ، وهي أرض الجنة وما زينها الله به ، وما هيأها لأحبابه وأوليائه ، ففيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

137-143. قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (2/ 165) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (380). وانظر صحيح الجامع الصغير (910) ، من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً .

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول تعالىٰ ذكره: يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به، قد مضت وسلفت سنن من الله في أقوام نوح وصالح وهود ولوط، وغيرهم من سُلاَّف الأمم قبلكم، من آمن منهم مثلكم ومن كفر، ثم كان الدمار والهلاك على من كذبوا رسلي، وسخروا بوحيي، فذاقوا غِبَّ خلافهم أمري. فلا تضعفوا ولا تهنوا ولا تأسوا على ما فاتكم، فلكم العاقبة والظهور إن صدقتم وآمنتم بنبيي، وإن كان نزل بكم جراح وألم فقد أصاب عدوّكم مثلُ ذلك، وهي السنن يصرفها الله بين عباده، والجنة تحتاج إلى جهاد وصدق لتبلغوها. لقد كنتم تتمنون الموت قبل لقائه فاصدقوا الله إذ رأيتموه ولا تجبنوا فتنقلبوا خاسرين.

وعن الربيع: (قوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قال: إن كان أصابكم قرح فقد أصاب عدوكم مثله، يعزي أصحاب محمد ﷺ، ويحثهم على القتال).

وقال مجاهد: (القرح: جراح وقتل).

وفي لغة العرب: أدال الله فلاناً من فلان إذا ظفر به. قال ابن إسحاق: (قوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: نصرفها للناس للبلاء والتمحيص).

وقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. قال ابن عباس: (في مثل هذا لنرىٰ من يصبر على مناجزة الأعداء).

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾. قال ابن إسحاق: (أي: ليميز بين المؤمنين والمنافقين، وليكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة). أي: ممن يبذلون مُهَجَهُم في سبيل الله ومرضاته.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. أي: الذين ظلموا أنفسهم بمعصيتهم ربهم. قال ابن إسحاق: (أي: المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم الطاعة، وقلوبهم مصرة على المعصية).

وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قال مجاهد: (ليبتلي). وقال ابن إسحاق:

(أي: يختبر الذين آمنوا، حتىٰ يخلّصهم بالبلاء الذي نزل بهم، وكيف صَبْرهم ويقينُهم).

وقوله: ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. قال ابن عباس: (ينقصهم). وقال الحسن: (يمحق الكافر حتىٰ يكذِّبه). والمقصود ينقصهم ويفنيهم.

وقال سلمة عن ابن إسحاق: (أي: يبطل من المنافقين قولهم بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، حتىٰ يظهر منهم كفرهم الذي يستترون به منكم).

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. يعني: هل حسبتم أن ترثوا الجنة دون ابتلاء في قتال وجهاد أو شدائد ومصائب، كما قال تعالىٰ في آية البقرة: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾. وكقوله في سورة العنكبوت: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾. فلا بد من الفتنة ولا بد من الصبر.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾. تذكير من الله لهم بأيام الرخاء، والتسابق في الحديث عن الجهاد وتمني الموت في سبيل الله، وإنما يظهر الصدق عند اللقاء والتحام الصفوف.

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تتمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف][1].

وقوله: ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾. قال مجاهد: (غاب رجال عن بدر، فكانوا يتمنون مثل يوم بدر أن يلقوه، فيصيبوا من الخير والأجر مثل ما أصاب أهل بدر. فلما كان يوم أحد، ولّىٰ من ولّىٰ منهم، فعاتبهم الله).

وقال ابن إسحاق: (﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾. أي: الموتَ بالسيوف في أيدي الرجال، قد خلّىٰ بينكم وبينهم، وأنتم تنظرون إليهم، فصددتُم عنهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2966)، ومسلم (1742)، وأبو داود (2631)، وغيرهم.

144-148. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: إنكم إنما تقاتلون من أجل دين الله سواء بقي محمد فيكم أو مات، ومن ثم فإن الشجاعة أثناء القتال لا تقصر الأعمار، وكذلك الجبن والفرار لا يزيد فيها، وأكثر الأنبياء من قبل قاتل معهم أتباعهم وحواريوهم وجنودهم، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وماضعفوا وما استكانوا بل كانوا من الصابرين، فتأسوا بهم واستغفروا الله واسألوه الثبات والنصر، فإنه ينصركم كما نصرهم على القوم الكافرين، ويؤتيكم ثواب الدنيا والآخرة وهو سبحانه يحب المحسنين.

أخرج البخاري عن عائشة: [أن أبا بكر رضي الله عنه أقبل على فرس مِن مَسْكَنِه بالسُّنْح حتىٰ نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتىٰ دخل على عائشة، فتيمَّمَ رسول الله ﷺ وهو مُغَشًّى بثوب حِبَرَة، فكشف عن وجهه، ثم أكبّ عليه وقبّله وبكىٰ، ثم قال: بأبي أنت وأمي. والله لا يجمع الله عليك مَوْتَتَيْن، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتَّها. قال الزهري: وحدثني أبو سلمة، عن ابن عباس: أن أبا بكر خرج وعمر يُكلِّم الناس فقال: اجلس يا عمر فأبىٰ عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر فقال أبو بكر: أما بعد، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت. قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾. قال: فوالله لكأن الناس لم يعلموا

أن الله أنزل هذه الآية حتىٰ تلاها عليهم أبو بكر ، فتلقّاها منه الناس كلُّهم ، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. وأخبرني سعيد بن المسيِّب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعَقُرت حتىٰ ما تُقِلّني رجلاي ، وحتىٰ أهويت إلى الأرض][1] .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ . أي: لا يفارق أحد هذه الدنيا إلا في يومه الذي كتبه الله له ، وفي الأجل الذي أراد الله له استيعابه.

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتىٰ تستكمل أجلها وتستوعب رزقها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله ، فإن الله تعالىٰ لا يُنال ما عنده إلا بطاعته][2] .

وفي التنزيل: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ [فاطر: 11].

قال ابن كثير: (وهذه الآية ـ يعني آية آل عمران ـ فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقصُ من العمر ولا يزيد فيه ، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العَبْدي قال: سمعت أبا معاوية ، عن الأعمش ، عن حبيب بن صُهْبَان قال: قال رجل من المسلمين ـ وهو حُجْر بن عَدِيّ ـ: ما يمنعكم أنْ تَعْبروا إلى هؤلاء العدوّ هذه النطفة ـ يعني دجلة ـ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ثم أقحم فرسه دجلة. فلما أقحم أقحم الناس ، فلما رآهم العدو قالوا: ديوان. فهربوا).

وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ . قال ابن إسحاق: (أي: فمن كان منكم يريد الدنيا ، ليست له رغبة في الآخرة ، نؤته ما قسم له منها من رزق ، ولا حظ له في الآخرة ، ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ ما وعده ، مع ما يُجرىٰ عليه من رزقه في دنياه).

وقوله: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ . أي: سنعطيهم من رزقنا ورحمتنا وذلك حسب أعمالهم ، وذلك في الدنيا وفي الآخرة.

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4453) ، (4454) ، في كتاب المغازي من صحيحه .

(2) حديث حسن . أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. انظر تخريج المشكاة (15) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2081) .

ثم قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

المعنىٰ: أكثر الأنبياء من قبل قاتل معهم أتباعهم وحواريوهم وجنودهم، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا بل كانوا من الصابرين، فتأسوا بهم وبمنهاجهم.

والربيون: هم من يعبدون الربّ واحدهم ربِّي، ذكره نحويو البصرة، وأما نحويو الكوفة فقالوا: هم العلماء والألوف، وأما أهل التفسير فقد ذكروا أكثر من معنىٰ:

الأول: الربيون هم الجموع. قال ابن عباس: (ربيون كثير: جموع كثيرة).

الثاني: الربيون هم العلماء. قال ابن عباس أيضاً: (ربيون كثير: علماء كثير).

الثالث: الربيون هم الفقهاء. قال الحسن: (فقهاء علماء).

الرابع: الربيون هم الأتقياء الصابرون. قال ابن المبارك: (أتقياء صُبُر).

الخامس: الربيون هم الأتباع. ذكره ابن جرير.

وجملة القول: إن كثيراً من الرسل قاتلوا في سبيل الله، وقاتل معهم أتباعهم، من الأتقياء والصابرين والفقهاء والعلماء والجموع الكثيرة المؤمنة، فما عجزوا ولا نكلوا عن جهاد أعدائهم، وما انهزموا حين أصابهم الألم والقتل، بل ثبتوا أثناء القتال وما فروا من عدوهم، فهؤلاء هم الأسوة لكم يا أصحاب محمد من بين الأمم.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا ﴾. قال ابن عباس: (خطايانا). وقال مجاهد: (﴿ وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا ﴾، خطايانا وظلمنا أنفسنا).

وقوله: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾. أي: عند لقاء عدونا. ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾: أي وانصرنا على القوم الذين جحدوا وحدانيتك ونبوة نبيك، وارتضوا بتحكيم مناهج الأهواء والشهوات بدلاً من منهاج الحق.

وقوله: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾. قال ابن جريج: (النصر والغنيمة). أي الظهور على عدوهم.

وقوله: ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ ﴾. أي رضوان الله ورحمته. قال ابن إسحاق: (الجنة وما أعدّ فيها).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. أي: بأقوالهم وأفعالهم، فيثبتون على منهاج العلم والجهاد إلى حين يلقون ربهم.

149-153. قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر الله سبحانه المؤمنين المصدقين لرسوله في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه، بأنهم إن يطيعوا الجاحدين لنبوته عليه السلام، المكذبين بهديه وبالقرآن، فإنهم سيحملونهم بذلك على الردة بعد الإيمان، والضلال والهلاك والخسران، ولكن سيلقي الله أيها المؤمنون الرعب والهلع في قلوب من حاربكم بأحد، بشركهم وطاعتهم للشيطان، وبامتثالكم لأوامر نبيكم عليه الصلاة والسلام، فها أنتم تحسونهم في بداية المعركة حَسّاً. قال مجاهد: (تقتلونهم). وقال الربيع: الحَسُّ القتل). حتى إذا جبنتم[1] وضعفتم واختلفتم في أمر الله وعصيتم نبيكم، أنزل بكم شيئاً من الهزيمة، وقذف عليكم عدوكم، بعدما أراكم من عدوكم ما تحبون، فلما آثرتم الدنيا ردّ وجوهكم عنهم لمعصيتكم، بعدما طاردتموهم، ليكروا عليكم من جديد مستفيدين من مخالفتكم، ثم عفا الله عنكم رحمة بكم وتقديراً لإيمانكم.

(1) قال ابن جريج: قال ابن عباس: (الفشل: الجُبن). وقال ابن إسحاق: (فشلتم: أي تخاذلتم).

وقد ثبت في السنة الصحيحة إلقاء الله الرعب في قلوب أعداء هذا النبي ﷺ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله قال: [أعطيت خمساً لم يُعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعب مَسِيرة شَهْرٍ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحِلَّت لي الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة][1].

الحديث الثاني: روى مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [نصرت بالرعب على العدو][2].

الحديث الثالث: أخرج البيهقي بسند صحيح عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [فُضِّلتُ بأربع: جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً، فأيُّما رجلٍ من أمتي أتىٰ الصلاةَ فلم يجدْ ما يصلي عليه وَجَدَ الأرض مسجداً وطَهوراً، وأُرسلتُ إلى الناس كافة، ونُصرتُ بالرعبِ من مسيرة شهرين يَسيرُ بينَ يديَّ، وأُحِلَّت لي الغنائم][3].

الحديث الرابع: أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد عن النبي ﷺ قال: [فضلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى الناس كافة، وادخرت شفاعتي لأمتي، ونصرت بالرعب شهراً أمامي، وشهراً خلفي، وجُعلت ليَ الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحِلّت لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لأحد قبلي][4].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾. بيان لما كان من النصر أول المعركة.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبيد الله، عن ابن عباس أنه قال: [ما نصر الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في موطن كما نصره يوم أحد. قال: فأنكرنا ذلك. فقال ابن عباس: بيني وبين مَنْ أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ يقول ابن عباس: والحسُّ: القتل. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (335) ومسلم (521)، وأحمد (3/ 304) والنسائي (1/ 209).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (523) ح 7 بأتم منه.
(3) حديث صحيح. أخرجه البيهقي (1/ 212)، وانظر صحيح الجامع الصغير (4096).
(4) حديث صحيح. أخرجه الطبراني ويشهد له ما قبله، وانظر صحيح الجامع الصغير (4097).

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾. الآية، وإنما عنىٰ بهذا الرماة. وذلك أن النبي ﷺ أقامهم في موضع، ثم قال: «احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نُقْتَلُ فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا». فلما غنم النبي ﷺ، وأباحوا عسكر المشركين، أكبّ الرماة جميعاً ودخلوا في العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ منهم هكذا ـ وشبك بين يديه ـ وانتشبوا، فلما أخلّ الرماة تلك الخَلَّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار..][1].

وفي صحيح البخاري عن البراء قال: [لقينا المشركين يومئذ، وأجْلَسَ النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله ـ يعني ابن جبير ـ وقال: «لا تَبْرَحُوا إن رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا». فلما لقيناهم هَرَبوا، حتىٰ رأيت النساء يَشْتَددنَ في الجبل، رفعن عن سوقهنّ، قد بدت خلاخِلُهُنَّ، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله بن جبير: عهد إليّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا. فأبوا، فلما أبَوا صرف وجوههم، فأصيبَ سبعون قتيلاً، فأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقال: لا تجيبوه. فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قُتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه فقال له: كَذَبْتَ يا عدوَّ الله، أبقىٰ الله لك ما يُحْزِنُكَ. فقال أبو سفيان: اعْلُ هُبَل. فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجَلّ. قال أبو سفيان: لنا العُزّىٰ ولا عُزّىٰ لكم. فقال النبي ﷺ: أجيبوه. قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا، ولا مولىٰ لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سِجالٌ، وستجدون مُثْلَة لم آمر بها ولم تسؤني][2].

وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾. قال قتادة: (أي: اختلفتم في الأمر، ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾، وذاكم يوم أحد، عهد إليهم نبي الله ﷺ وأمَرَهُم بأمر فنسوا العهد، وحاوزوا، وخالفوا ما أمرهم نبي ﷺ، فقذف

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند من حديث ابن عباس. وأخرجه الحاكم (2/ 296 ـ 297)، والبيهقي في «الدلائل» (3/ 269 ـ 270)، وله شواهد في الصحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3039)، (4043)، وأبو داود (2662)، وأحمد (4/ 293).

عليهم عدوّهم ، بعدما أراهم من عدوهم ما يحبون). وقال الربيع: (﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ ، يقول: جبنتم عن عدوكم).

وقوله: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ . قال السدي: (فالذين انطلقوا يريدون الغنيمة هم أصحاب الدنيا ، والذين بقوا وقالوا: لا نخالف قول رسول الله ﷺ ، أرادوا الآخرة).

وقوله: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ . قال ابن إسحاق: (أي: صرفكم عنهم ليختبركم ، وذلك ببعض ذنوبكم).

والمقصود حين صُرفوا إلى الغنائم والدنيا ، فمال عليهم خالد بن الوليد.

قال الحسن: (صرف القوم عنهم ، فقتل من المسلمين بعدّة من أسروا يوم بدر ، وقتل عم رسول الله ﷺ ، وكسرت رباعيّته ، وشجّ في وجهه ، وكان يمسح الدم عن وجهه ويقول: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيِّهم وهو يدعوهم إلى ربهم»؟ فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران: 128] ، الآية. فقالوا: أليس كان رسول الله ﷺ وعدنا النصر؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾).

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: [لما كان يوم أحد هُزِمَ المشركون، فصرخ إبليس لعنةُ الله عليه، أي عبادَ الله أُخْراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فَبَصُرَ حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال: أي عباد الله أبي، أبي ، قال: فوالله ما احتجزوا ـ أي ما انفكوا عن بعضهم ـ حتىٰ قتلوه ، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتىٰ لحق بالله عز وجل][1].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن جريج: (﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ ، قال: لم يستأصلكم). وقال ابن إسحاق: (ولقد عفا الله عن عظيم ذلك ، لم يهلككم بما أتيتم من معصية نبيكم ، ولكن عُدْتُ بفضلي عليكم).

وقال الحسن: (هؤلاء مع رسول الله ﷺ ، في سبيل الله ، غضابٌ لله ، يقاتلون أعداء الله ، نهوا عن شيء فصنعوه ، فوالله ما تركوا حتىٰ غُمُّوا بهذا الغم ، فأفسق

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4065) ، كتاب المغازي ، وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ، الأبحاث: (37 ـ 42) لتفاصيل المعركة والدروس والنتائج والأحكام.

الفاسقين اليوم يَتَجَرْثَمُ[1] كلَّ كبيرة ، ويركب كل داهية ، ويسحبُ عليها ثيابه ، ويزعم أن لا بأس عليه!! فسوف يعلم).

وقوله: ﴿ ۞إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

قال ابن عباس: (صعدوا في أحد فراراً). وقال: (﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ إليّ عباد الله ارجعوا ، إليّ عباد الله ارجعوا).

إلا أنَّ المشركين حين سمعوا صوته عرفوه ، فمالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من أصحابه ، محاولين الإجهاز عليه بكل ما يمكنهم ، وكان رسول الله ﷺ بين تسعة من رجاله ، خاضوا عراكاً عنيفاً ، وَأَظْهَرُوا نوادرَ من الحب والتفاني والاستبسال.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ أُفرِدَ يومَ أُحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رهقوه ـ أي غشوه وقربوا منه ـ قال: من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتىٰ قتل ، ثم رهقوه أيضاً فقال: من يردهم عنا وله الجنة أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتىٰ قُتِل ، فلم يزل كذلك حتىٰ قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: ما أنصفنا أصحابنا][2].

أي: ما أنصفت قريش الأنصار ، لكون القرشيين لم يخرجا للقتال ، بل خرج الأنصار واحداً بعد واحد فقتلوا عن آخرهم ، ثم شقّت فئة من المسلمين طريقها عبر الأهوال حتىٰ وصلت إلى مكان القيادة النبوية المحاصر.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي عثمان قال: [لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ غيرُ طلحة وسعد][3].

وقوله: ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾. قال قتادة: (كانوا تحدّثوا يومئذ أن نبي الله ﷺ أصيب ، وكان الغم الآخر قتل أصحابهم والجراحات التي أصابتهم).

---

(1) تجرثم الشيء: أخذ معظمه. وجرثومة كل شيء: أصله ومجتمعه.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1789) ، كتاب الجهاد والسير ، وانظر تفصيل الحدث في كتابي: السيرة النبوية (2/ 687) البحث (38): معركة أحد ـ مرحلة الهزيمة.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3723) ، كتاب المغازي ، وانظر المرجع السابق (2/ 688).

وقال الربيع: (الغم الأول: الجراح والقتل، والغم الآخر حين سمعوا أن رسول الله ﷺ قد قتل. فأنساهم الغم الآخر ما أصابهم من الجراح والقتل، وما كانوا يرجون من الغنيمة، وذلك حين يقول الله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ [آل عمران: 153]).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. أي: من الهرب أو الإقدام، وهو محص عليكم جميع أعمالكم.

154-155. **قوله تعالىٰ**: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

في هذه الآيات: إنزال الله النعاس أماناً على أهل الصدق واليقين، وفضح سلوك المنافقين، واختبار الصدق في قلوب المؤمنين.

فقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً﴾. أي: الأمان، أنزله تعالىٰ على أهل الصدق واليقين، دون أهل الشك والمنافقين. ثم بين أن الأمنة كانت نعاساً، بنصب النعاس على البدل من أمنة.

أخرج النسائي والترمذي بسند صحيح عن أنس، عن أبي طلحة قال: [رفعت رأسي يوم أحد، وجعلت أنظر وما منهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حَجَفَتِهِ من النعاس، فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾][1].

قال ابن عباس: (أَمَّنَهُم يومئذ بنعاس غشّاهم، وإنما ينعُسُ من يأمن).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3007)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11198)، والحاكم (2/ 297).

فلقد كان المسلمون مغتمين مهمومين آنذاك لما أصابهم ونبيّهم من الإجهاد والأذىٰ والتعب ، فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيراً ثم أفاقوا وقد أذهب الله عنهم القلق والخوف وأبدلهم مكانه راحة وسكناً ، وملأ نفوسهم وقلوبهم أمناً وطمأنينة .

يروي البخاري عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال : [كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتىٰ سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه][1] .

وقوله : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ .

قال ابن إسحاق : (أهل النفاق قد أهمتهم أنفسهم تخوُّف القتل ، وذلك أنهم لا يرجون عاقبة) . وعن قتادة : (﴿ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ ، قال : ظن أهل الشرك) . يشير سبحانه بذلك إلى طائفة المنافقين الذين أهمتهم أنفسهم دون أن يفكروا بمصاب المسلمين وبمصير الإسلام ، فذمهم الله في هذه الآية ، بعد أن ذكر نعمته على طائفة الحق الذين أهمهم مصير الإسلام وربطوا سعادة قلوبهم بانتصار هذا الدين وزهوه وعلوه في الأرض ، فأنزل عليهم أمنة نعاساً يجلو به الغم عن نفوسهم وينعش قلوبهم . في حين لا يغشىٰ النعاس من أهمتهم أنفسهم بسبب القلق والجزع والخوف على مصالح دنياهم .

وقوله : ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ . قال القرطبي : (لفظه استفهام ومعناه الجحد ، أي : ما لنا شيء من الأمر ، أي من أمر الخروج ، وإنما خرجنا كرها) .

فأجابهم الله بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ يعني القدر خيره وشره من الله .

وقوله : ﴿ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ . مُفَسَّرُ بقوله تعالىٰ بعده يوضح ما أخفوه عن رسول الله ﷺ ، وهي هذه المقالة : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ .

قال ابن إسحاق : (فحدّثني يحيىٰ بن عبّاد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير ، قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره . قال : فوالله إني لأسمع

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (4068)، كتاب المغازي ، تعليقاً ، لكن وصله برقم (4562)، ورواه أحمد في المسند (4/ 49) ، من حديث أبي طلحة الأنصاري .

قول مُعَتِّب بن قُشَير[1] ، ما أسمعه إلا كالحلم يقول: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ . فحفظتها منه)[2] .

وقرأ عامة قراء الحجاز والعراق: ﴿قل إن الأمرَ كلَّه لله﴾ بنصب الكل على النعت للأمر. وقرأه بعض قراء البصرة ﴿كلُّه﴾ بالرفع على الابتداء ، وخبره ﴿لله﴾ والجملة خبر ﴿إن﴾ ، والقراءة الأولىٰ أشهر عند القراء. وهي اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ .

قل ـ لهؤلاء المنافقين ـ يا محمد : لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا الموقف والحرب كما تحبّ نفوسكم ، لظهر للموضع من قد كتب عليه القتل فيه ، ولخرج لينال مصرعه في المكان الذي كُتب عليه أن يصرع فيه.

وقوله: ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ ﴾ أي: ليكشف الله بالاختبار المؤمن من المنافق فيظهر أمره ، فيميز الخبيث من الطيب.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ . أي: لا يخفىٰ عليه ما في صدورهم ، مما استخفَوْا به منكم ـ أيها المؤمنون.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ ﴾ . عتاب لمن فرّ من المؤمنين بأحد ، وإنما دعاهم إلى هذه الزلة الشيطان.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ ﴾ . قال ابن جريج: (إذ لم يعاقبهم). ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عاصم ، عن شقيق ، قال: (لقي عبد الرحمن بن عوف الوليدَ بن عقبة ، فقال له الوليد: ما لي أراك جَفَوْتَ أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أني لم أفرّ يوم عَيْنَيْن ـ قال عاصم: يقول: يوم أحد ـ ولم أتخلف عن بدر ، ولم أترك سُنَّة عمر. قال: فانطلق فَخَبَّرَ ذلك عثمان ، قال: فقال عثمان: أما قوله إني لم أَفِرَّ يوم عَيْنَيْن ، فكيف يُعَيِّرني بذنب وقد عفا الله عنه ، فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ

(1) معتب بن قشير: هو أحد المنافقين من أتباع ابن سلول. قيل تاب بعد ذلك ، والله أعلم.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبري (8093) ، (8094) ، والبيهقي (3/ 273) ، وإسناد الطبري حسن ، رجاله ثقات ، وقد صرّح ابن إسحاق بالتحديث.

عَنۡهُمۡۗ﴾ . وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر ، فإني كنت أمرض رُقَيَّةَ بنت رسول الله ﷺ حتىٰ ماتت ، وقد ضرب لي رسول الله ﷺ بسهم ، ومن ضرب له رسول الله ﷺ فقد شَهِدَ ، وأما قوله: إني تركت سُنَّةَ عمر ، فإني لا أطيقها ولا هو ، فائْتِهِ فحدِّثه بذلك][1] .

قال القرطبي: (ونظير هذه الآية توبة الله على آدم عليه السلام. وقوله عليه السلام: «فحج آدم موسىٰ» أي: غلبه بالحجة).

156 - 158. **قوله تعالىٰ:** ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: تحذيرٌ من الله سبحانه المؤمنين أن يشابهوا الكفار في سوء يقينهم بالله العظيم ، وترغيب لهم في الشهادة في سبيل الله لنيل المغفرة ورحمة الله الكريم .

قال ابن إسحاق: (أي: لا تكونوا كالمنافقين الذين ينهون إخوانهم عن الجهاد في سبيل الله وَالضرب في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله ، ويقولون إذا ماتوا أو قتلوا: لو أطاعونا ما ماتوا وما قتلوا).

وأصل الضرب في الأرض الإبعاد فيها سيراً. قال السدي: (﴿ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، وهي التجارة). وقال ابن إسحاق: (الضربُ في الأرض في طاعة الله وطاعة رسوله).

قال ابن جرير: (يخبر بذلك عن قول هؤلاء الكفار أنهم يقولون لمن غزا منهم فقتل ، أو مات في سفر خرج فيه في طاعة الله ، أو تجارة: لو لم يكونوا خرجوا من عندنا وكانوا أقاموا في بلادهم ما ماتوا وما قتلوا ، ﴿ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ ،

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (1/ 68) ح (492). قال الهيثمي في «المجمع» (7/ 226): (فيه عاصم ، وهو حسن الحديث ، وبقية رجاله ثقات).

يعني: أنهم يقولون ذلك، كي يجعل الله قولهم ذلك حزناً في قلوبهم وغمّاً، ويجهلون أن ذلك إلى الله جل ثناؤه وبيده). وقيل: المعنىٰ لا تصدقوهم ولا تلتفتوا لهم، فكان ذلك حسرةفي قلوبهم. وقيل: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يوم القيامة لما هم فيه من الخزي والندامة، ولما فيه المسلمون من النعيم والكرامة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾. أي: يقدر على أن يحيي من يخرج إلى القتال، ويميت من أقام في أهله. ومنه قول خالد بن الوليد عند موته: (ما فيّ موضع شبر إلا وفيه ضربة أوطعنة، وها أنا ذا أموت كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء).

وجاء في سير أعلام النبلاء عن عاصم بن بهدلة: عن أبي وائل قال: (لما حضرت خالداً الوفاة، قال: لقد طلبت القتل مظانَّهُ فلم يُقدَّر لي إلا أن أموت على فراشي. وما من عملي شيء أرجىٰ عندي بعد التوحيد مِن ليلة بتُّها وأنا متترس، والسماء تهلّني ننتظر الصبح حتىٰ نُغير على الكفار. ثم قال: إذا متُّ، فانظروا إلى سلاحي وفرسي، فاجعلوه عدة في سبيل الله. فلما توفي، خرج عمر على جنازته، فذكر قوله: ما على آل الوليد أن يَسْفَحْنَ على خالد من دموعهن ما لم يكن نَقْعاً أو لَقْلَقَةً[1])[2].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. قال القاسمي: (تهديد للمؤمنين في مماثلة من ذكر).

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. إخبار من الله سبحانه أن القتل في سبيله والموت في مرضاته وحيث الدفاع عن دينه خير من جميع هذه الدنيا وزينتها، وهوالسبيل الأمثل إلى نيل مغفرته ورحمته ورضوانه.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: [مِنْ خير معاشِ الناس لهم، رجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فرَسِهِ في سبيل الله، يطير على مَتْنِه، كُلَّما سمعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانَّه. .] الحديث[3].

وقوله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾.

قال القرطبي: (وَعْظٌ. وعظهم الله بهذا القول، أي لا تَفِرّوا من القتال ومما أمركم

(1) اللقلقة: الصوت الشديد المضطرب، والنقع رفع الصوت وشق الجيب.

(2) انظر: «سير أعلام النبلاء» (1/ 381) ـ الذهبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1889)، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط.

به ، بل فِرّوا من عقابه وأليم عذابه ، فإن مَرَدَّكُم إليه لا يملك لكم أحد ضرّاً ولا نفعاً غيره).

والمعنىٰ: من مات أو قُتل فالمآل إلى الله ، وهناك الجزاء والثواب ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر ، عن رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربه عز وجل: [يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه][1].

159 - 164. **قوله تعالىٰ:** ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تليينُ الله تعالى جانب وطباع هذا النبي الكريم ، وحثه على العفو والاستغفار والمشاورة للمؤمنين ، وحسن التوكل على الله الذي بيده النصر المبين ، وامتنان من الله تعالىٰ على المؤمنين بهذا النبي وهذا الوحي العظيم.

فلقد امتن الله على هذه الأمة أن ألان لهم قلب نبيه الكريم ، وأطاب لهم لفظه ، وجعله بهم رؤوفاً رحيماً. قال قتادة: (﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ ، يقول: فبرحمة من الله لنت لهم). و «ما» صلة ، والعرب تجعل «ما» صلة في المعرفة والنكرة ، كقوله

---

(1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث قدسي طويل رواه مسلم (8/ 17) ، وأحمد (5/ 160).

تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾. والمعنى: فبنقضهم ميثاقهم. هذا في المعرفة. وقال تعالىٰ: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾. والمعنى: عن قليل. وهذا في النكرة.

والمقصود: برحمة الله، يا محمد، بك وبمن آمن بك، سهلت أخلاقك ولان جانبك وحسنت طبائعك. وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

وفي المسند للإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة قال: [أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلين له قلبي][1].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

المعنىٰ: لو كنت قاسي القلب شديد الطباع سيِّئ الكلام لتركوك ولم يتبعوك، ولكن الله جمع لك من صفات الرفق واللين حتىٰ كنت مضرب المثل بين قومك في حسن الخلق وجمال الطباع ومحاسن العادات. قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وفي صحيح البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ـ يحكي عن صفة النبي ﷺ في التوراة ـ: [والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر][2].

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [مكتوب في الإنجيل: لا فظٌّ، ولا غليظ، ولا سَخَّابٌ بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، بل يعفو ويصفح][3].

وقوله: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾.

قال ابن إسحاق: (﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾، أي: فتجاوز عنهم، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾، ذنوبَ من قارف من أهل الإيمان منهم).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (5/ 217)، وأخرجه الطبراني (7499).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2125) ـ كتاب البيوع ـ باب كراهية السَّخب في السوق. وانظر تخريج المشكاة (5752) باب فضائل سيد المرسلين.

(3) حديث صحيح. رواه الحاكم (2/ 614)، وابن عساكر (1/ 264/ 2) من حديث عائشة رضي الله عنها، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2458).

وقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. قال قتادة: (أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يشاور أصحابه في الأمور وهو يأتيه وحي السماء، لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضاً وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده).

وقال الضحاك بن مزاحم: (ما أمر الله عز وجل نبيه ﷺ بالمشورة، إلا لما علم فيها من الفضل).

وقال الحسن: (ما شاور قوم قطّ إلا هُدوا لأرشد أمورهم).

وفي سنن ابن ماجة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [المستشار مؤتمن][1]. وقد امتلأت السنة الصحيحة بصور من الشورى في حياة النبي ﷺ وأصحابه، منها:

1 ـ مشورته لأصحابه يوم بدر في الذهاب إلى قتال المشركين.

يروي البخاري من حديث عبد الله بن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مَشْهَداً لأنْ أكونَ صاحِبَه أحَبُّ إليّ مما عُدِلَ به، أتىٰ النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قومُ موسىٰ: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: 24] ولكنّا نقاتِلُ عن يمينك وعن شمالِكَ وبينَ يديك وخَلْفَكَ. فرأيت النبي ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وسَرَّه، يعني قوله][2].

2 ـ مشورته عليه الصلاة والسلام لأصحابه في قصة الإفك.

يروي البخاري عن عائشة قالت: [لمّا ذُكِرَ مِنْ شأني الذي ذُكِرَ، وما عَلِمْتُ به، قام رسول الله ﷺ فِيَّ خطيباً فتشَهَّدَ فَحَمِدَ الله وأثنىٰ عليه بما هو أهلُهُ ثم قال: أمّا بعد، أشيروا عليَّ في أناس أَبَنُوا أهلي، وايمُ الله ما علمت على أهلي من سوء، وأبَنُوهُمْ بِمَنْ والله ما علمتُ عليه من سوء قَطّ، . . .] الحديث[3].

3 ـ مشورته عليه السلام لأصحابه في أسارىٰ بدر.

روى مسلم عن ابن عباس قال: [فلما أسَروا الأسارىٰ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعُمَرَ: ما ترون في هؤلاء الأُسارىٰ؟ فقال أبو بكر: يا نبيّ الله هم بنو العمّ والعشيرة. . . فقال رسول الله ﷺ: ما ترىٰ يا ابن الخطاب؟ قال: لا، والله

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (5128)، والترمذي (2823)، وابن ماجة (3745).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3952)، كتاب المغازي، وانظر كذلك الحديث (4609) منه.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4757)، كتاب التفسير، في أثناء حديث طويل. وأَبَنوا: اتهموا.

يا رسول الله! ما أرىٰ الذي رأى أبو بكر ، ولكني أرىٰ أن تُمَكِّنا فنضرب أعناقهم . . .] الحديث[1] .

4 ـ مشورته عليه السلام قبل معركة أحد أيبقىٰ في المدينة أم يخرج إلى العدو[2] .

5 ـ مشورته السعدين يوم الخندق ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ لمصالحة العدو على بعض ثمار المدينة مقابل انصرافهم ، فأخذ برأيهما[3] .

6 ـ مشورته أصحابه في حصار الطائف ومشورته عام الحديبية[4] .

وأما في حياة أصحابه :

فقد روىٰ البيهقي بسند صحيح عن ميمون بن مهران قال : (كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه أمر نظر في كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضي به قضىٰ بينهم ، وإن علمه من سنة رسول الله ﷺ قضىٰ به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنة ، فإن أعياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم)[5] .

وذكر البخاري في كتاب الاعتصام : (كان القراء أصحاب مشورة عمر كُهولاً كانوا أو شباباً ، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل)[6] .

ثم قال البخاري : (وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضح الكتاب والسنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ . يعني : إن صحّ عزمك ـ بتثبيت الله لك وتسديده

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1763) ، كتاب الجهاد ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم ، وهو جزء من حديث طويل.

(2) قد مضىٰ ذكر ذلك ، وانظر سيرة ابن هشام (3/ 63).

(3) انظر مصنف عبد الرزاق (5/ 368) ، والبداية والنهاية (4/ 104).

(4) انظر باب غزوة الطائف في كتاب الجهاد والسير ـ صحيح مسلم (1778) ، والمسند (4588) تحقيق أحمد شاكر. وانظر في شأن الحديبية سنن البيهقي (10/ 109).

(5) أخرجه البيهقي بسند صحيح قاله الحافظ ابن حجر في الفتح (13/ 342). وانظر : كتاب الإمامة العظمىٰ عند أهل السنة والجماعة ـ الدميجي ـ (ص 429).

(6) ذكره البخاري في كتاب الاعتصام باب (28) ، قول الله تعالىٰ : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح : 13/ 339).

لك فيما نابك ـ وقد استشرت أصحابك فامض متوكلاً على الله ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ .

وقوله : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ .

يعني : إن أراد سبحانه نصركم وقد اجتمعت أهل الأرض على خذلانكم فلا سبيل لهم عليكم ، وإن أراد خذلانكم وقد أجمع أهل الدنيا على نصركم فلا سبيل لنصركم ، فعليه سبحانه فتوكلوا ، وانصروا دينه وأخلصوا ، حتىٰ تنالوا نصره وتأييده. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ .

وقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ .

أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : [بعث النبي ﷺ جيشاً فَرُدّت رايته ، ثم بعث فردت بغلول رأس غزال من ذهب ، فنزلت : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾][1] .

وأخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال : [نزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ في قطيفة حمراء : فُقِدَت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله ﷺ أخذها ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ إلى آخر الآية][2] .

وله شاهد عند البزار بإسناد صحيح عن عكرمة عن ابن عباس : [﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ قال : ما كان لنبي أن يتهمه أصحابُهُ][3] .

قال مجاهد : (﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ : ما ينبغي لنبي أن يخون). وقال ابن عباس : (أي : بأن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً). ثم قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ . وقد جاءت السنة الصحيحة بالتحذير الشديد من الغلول ، وفي ذلك أحاديث ، منها :

الحديث الأول: أخرج الشيخان عن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : [من

(1) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات. انظر : «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ آل عمران (161). وانظر تفسير الطبري (8135) ـ (8137).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3971) ، والترمذي (3012) ، وانظر صحيح أبي داود (3360).

(3) إسناده صحيح. أخرجه البزار في مسنده (2197 ـ كشف الأستار) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2788).

ظلم قيد شبر من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: [كان على ثَقَلِ النبي ﷺ رجلٌ يُقال له: كِرْكَرَةُ، فمات فقال النبي ﷺ: هو في النار. فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غَلَّها][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [قام فينا النبي ﷺ فذكر الغُلولَ فَعَظَّمَهُ وَعظَّمَ أمره، قال: لا أُلْفِيَنَّ أحدَكُمْ يوم القيامة على رقبته شاةٌ لها ثُغاءٌ، على رَقَبَتِهِ فرسٌ له حَمْحَمَةٌ يقول: يا رسول الله أَغِثْني، فأقولُ: لا أملكُ لك شيئاً، قد أَبْلغْتُك، وعلى رَقَبَتِه بعيرٌ له رُغاءٌ يقول: يا رسول الله أغِثْني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً قد أبْلَغْتُكَ، وعلى رقبَتِهِ صامِتٌ فيقول: يا رسول الله أغِثْني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبْلَغْتُكَ، على رَقَبَتِهِ رِقاعٌ تخْفِقُ فيقول: يا رسول الله أغِثْني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد في المسند عن أبي حميد الساعدي قال: [استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللُّتْبِيَّةِ على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أُهدِيَ لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: ما بال العامل نبعثُه فيجيء فيقول: هذا لكم وهذا أُهدِيَ لي. أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيُهدىٰ إليه أم لا؟ والذي نفس محمد بيده لا يأتي أحد منكم منها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بَعيراً له رُغاء، أو بقرة لها خُوار، أو شاة تَيْعَر. ثم رفع يديه حتىٰ رأينا عُفْرَةَ إبطيه ثم قال: «اللهم هل بَلَّغت» ثلاثاً][4].

وقوله: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. قال ابن إسحاق: (ثم يُجْزىٰ بكسبه غير مظلوم ولا مُتـعَدّىً عليه).

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2452)، (3198)، ومسلم (1610)، وأحمد (1/ 188).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3074)، كتاب الجهاد والسير، باب القليل من الغلول.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3073)، كتاب الجهاد والسير، باب الغُلول.
(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 423 ـ 424) واللفظ له، وانظره في صحيح البخاري (6979) وفي صحيح مسلم (1832)، وكذلك رواه ابن حبان في صحيحه (4515).

المعنىٰ: أفمن ترك الغلول وكل ما نهىٰ الله عنه ومضىٰ يعمل بطاعة الله وامتثال أمره واجتناب ما يسخطه ، كمن انصرف متحمِّلاً سخط الله وغضبه ، واستحق وعيده بسكنىٰ جهنم وبئس السكن والمأوىٰ؟ يقول: ليسا سواءً.

وقوله: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾. قال ابن عباس: (يقول: بأعمالهم).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾. قال ابن إسحاق: (يقول: إن الله لا يخفىٰ عليه أهل طاعته من أهل معصيته).

وقوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾. يعني: نبياً من أهل لسانهم يفقهوا قوله ، ولم يجعله بغير لسانهم.

وقوله: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾. أي يقرأ عليهم آي كتابه وتنزيله ويطهرهم من ذنوبهم باتباع ما جاء فيه ، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي: القرآن والسنة.

وقوله: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. أي: في عمياء من الجاهلية ، لا يعرفون حسنة ولا يستغفرون من سيئة ، قد أخطؤوا طريق الهدى والنجاة ، فهم في غيّ وجهل ظاهر جليّ لكل من له بصر.

165 - 168. قوله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تأنيب لطيف من الله تعالىٰ للمؤمنين لما صدر منهم ، وفضح سلوك أهل النفاق وكشف مكرهم.

قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا أبو نوح قراد أنبأنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: [لما كان يوم بدر ، قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف ، ونظر إلى

المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ثم مدّ يديه وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال: اللهم أين ما وعدتني ، اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً ، قال: فمازال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتىٰ سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، وأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ . فلما كان يومئذ والتقوا فهزم الله عز وجل المشركين فقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً ، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر رضي الله عنهم ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، فإني أرىٰ أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار ، وعسىٰ الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله ﷺ: ما ترىٰ يا ابن الخطاب؟ قلت: والله ما أرىٰ ما رأىٰ أبو بكر ، ولكني أرىٰ أن تمكنني من فلان قريباً لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن علياً رضي الله عنه من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتىٰ يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه ، ولم يهو ما قلت فأخذ منهم الفداء ، فلما أن كان من الغد قال عمر رضي الله عنه: غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر رضي الله عنه وإذا هما يبكيان ، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد تباكيت لبكائكما! قال: فقال النبي ﷺ: الذي عرض عليّ أصحابك من الفداء ، لقد عرض علي عذابكم أدنىٰ من هذه الشجرة ـ لشجرة قريبة ـ وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ، ثم أحل الله لهم الغنائم ، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون ، وفرّ أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ ، وكُسرت رباعيته ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، وأنزل الله عز وجل: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ بأخذكم الفداء][1] .

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ . قال الحسن: (فإنما أصابنا هذا لأنا قبلنا الفداء يوم بدر من الأسارىٰ ، وعصينا النبي ﷺ يوم أحد) .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 30) ورجاله رجال الصحيح ، ورواه ابن أبي حاتم مختصراً.

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. قال ابن إسحاق: (أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو، قدير).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. أي: ما أصابكم يوم أحد من قتل وجراح فهو بقضائه سبحانه وقدره فيكم، وليميّز أهل الإيمان والصدق من أهل الكذب والنفاق.

وقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ ﴾.

المراد: عبد الله بن أبي بن سلول المنافق وأصحابه الذين تخاذلوا ورجعوا، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا.

وقوله: ﴿ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾.

يروي ابن إسحاق بإسناد مرسل أن عبد الله بن عمرو بن حرام اتبعهم وهو يقول: (يا قوم، أُذكِّركم الله ألا تخذلوا قومَكم ونبيّكم عندما حضر من عدوهم). فقالوا: (لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسْلمناكم ولكنا لا نرىٰ أنه يكون قتال).

فاحتجوا بما حكته الآية الكريمة عنهم، وقد أظهر الله ما أبطنوه من الجبن والهلع والخوف من خوض القتال في سبيل الله، فعند ذلك قال لهم عبد الله بن عمرو بن حرام، لما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف: (أبعدكم الله أعداءَ الله، فسيغْني الله عنكم نَبِيَّهُ)[1].

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ ﴾.

المقصود: عبد الله بن أبي المنافق وأصحابه يقولون: لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرنا ما قتلوا هنالك. قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: (نزلت هذه الآية في عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه). فأجابهم الله بقوله: ﴿ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ أي: قل لهم يا محمد، إن استطعتم أن تردوا الموت الذي لا محالة سينالكم فردّوه إن كنتم صادقين. قال ابن إسحاق: (أي: إنه لا بد من الموت، فإن استطعتم أن تدفعوه عن أنفسكم فافعلوا. وذلك أنهم إنما نافقوا وتركوا الجهاد في سبيل الله، حرصاً على البقاء في الدنيا، وفراراً من الموت).

(1) انظر سيرة ابن هشام (3/ 9)، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (2/ 662) لتفصيل أكبر.

وفي التنزيل: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [إن روح القدس نفث في رُوعي أن نفساً لن تموت حتىٰ تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالىٰ لا يُنال ما عنده إلا بطاعته][1].

169 - 175. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (175) ﴾.

في هذه الآيات: بيان منزلة الشهادة والشهداء الكرام، وثناء من الله على استجابتهم وخوضهم المعركة ضد الكفار اللئام، وفضح لسلوك ومكر الشيطان عدو أهل الإيمان.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [لما أصيب إخوانكم بأُحد، جعل الله عز وجل أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أُبَلِّغُهُم عنكم. فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي

(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. انظر تخريج المشكاة (15)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2081).

سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ . . . وما بعدها][1] .

وأخرج الترمذي بسند حسن عن جابر رضي الله عنه قال: [لقيني رسول الله ﷺ فقال: يا جابر ما لي أراك منكسراً ؟ فقلت: يا رسول الله استشهد أبي وترك عيالاً وديناً. فقال: ألا أبشرك بما لقي اللهُ به أباك؟ قال: بلىٰ يا رسول الله ، قال: ما يكلم الله أحداً قط إلا من وراء حجابه ، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً فقال: تمنّ عليّ أعطِك. قال: يا رب تحييني فأقتل فيك ثانية. قال الرب تبارك وتعالىٰ: إنه قد سبق مني القول: أنهم إليها لا يرجعون. قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ ﴾ الآية][2] .

وأخرج ابن جرير بسند صحيح أن سبب نزول الآية قتلىٰ بئر معونة. قال العلامة الشوكاني في تفسيره: (وعلى كل حال فالآية باعتبار عمومها تعم كل شهيد).

وقد جمع الله للشهداء من الكرامة في حياة البرزخ ما يفوق من الكرامة لبقية المؤمنين فضلاً عما أعدّ الله لهم في الآخرة من رفيع المنازل والمقامات.

ففي مسند الإمام أحمد بسند جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [الشهداء على بارقِ نهرٍ بباب الجنة ، فيه قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعَشيّاً][3] .

فأرواح الشهداء تسرح في الجنة ، ولها خصوصية ورود هذا النهر. وأما أرواح بقية المؤمنين: فقد روى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعي ، عن مالك بن أنس ، عن الزُّهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [نَسَمَةُ المؤمن طائر يَعْلَقُ في شجر الجنة ، حتىٰ يَرْجِعَهُ الله إلى جسده يوم يَبْعَثُه][4] . يَعْلَقُ: أي يأكل.

فالفرق بين الشهداء وبقية المؤمنين أن أرواح الشهداء تطير في حواصل طَير خضر

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (1/ 266) ، وأبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (2520) ، وصححه الحاكم (2/ 88) ، ووافقه الذهبي.

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3010) ، وابن ماجة (2800) ، وابن حبان (7022) ، وغيرهم.

(3) إسناده جيد. أخرجه أحمد (1/ 266) ، والطبري (8212) ، وابن حبان (4658).

(4) حديث صحيح. أخرجه مالك (1/ 240) ، وأحمد (3/ 455) ، والنسائي (4/ 108) ، وابن ماجة (4271) ، وابن حبان (4657). وقال الحافظ ابن كثير: (هو بإسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة).

تأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش ، وترد حيث تشاء من أنهار وأشجار الجنة ، ولها شرف العبور إلى ذلك النهر في منتهىٰ سيرها ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها.

وقوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

فرحين: في محل نصب حال من المضمر في ﴿ يُرْزَقُونَ ﴾.

فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله ، مستبشرون بمن لم يلحق بهم.

قال ابن إسحاق: (أي: ويسرون بلحوق من لحق بهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم ، وأذهب الله عنهم الخوف والحزن).

وقال ابن جريج: (يقولون: إخواننا يقتلون كما قتلنا ، يلحقوننا فيصيبون من كرامة الله تعالى مَا أَصَبْنا). وخلاصة المعنىٰ كما أفاد شيخ المفسرين رحمه الله: قال ابن جرير: (يفرحون بمن لم يلحق بهم من إخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء في الدنيا على منهاجهم من جهاد أعداء الله مع رسوله ، لعلمهم بأنهم إن استشهدوا فلحقوا بهم صاروا من كرامة الله إلى مثل الذي صاروا هم إليه. . . لا خوف عليهم ، لأنهم قد أمنوا عقاب الله ، وأيقنوا برضاه عنهم ، . . . ، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها ، للخفض الذي صَاروا إليه والدعة والزُّلْفة).

قلت: وقد ثبت لقاء أرواح المؤمنين وتزاورها في حياة البرزخ وفرح بعضها بقدوم بعض ـ في السنة الصحيحة ـ:

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا حُضرَ المؤمن أتتْ ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء ، فيقولون: اخرُجي راضيةً مرضيّاً عنك ، إلى رَوْح الله وريحان ، وربّ غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك ، حتىٰ إنه ليُناولَه بعضهم بعضاً ، حتىٰ يأتوا به أبوابَ السماء ، فيقولون: ما أطيبَ هذه الريح التي جاءتكم من الأرض! فيأتون به أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدُم عليه ، فيسألونه: ماذا فعل فلانٌ ، ماذا فعل فلان؟

فيقولون: دعوه ، فإنه كان في غمِّ الدنيا . . .] الحديث[1] .

وقوله: ﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ . قال ابن إسحاق: (لما عاينوا من وفاء الموعود وعظيم الثواب).

وقوله: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . أي: لا يبطل جزاء أعمال من صدّق رسوله واتبعه ، وعمل بما جاء من عند الله .

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أخرج الطبراني ورجاله رجال الصحيح عن عكرمة عن ابن عباس قال: [لما انصرف أبو سفيان والمشركون عن أحد وبلغوا الروحاء قال أبو سفيان: لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، شر ما صنعتم . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فندب الناس فانتدبوا حتىٰ بلغوا حمراء الأسد ـ أو بئر بني عينة ـ الشك من سفيان ـ فأنزل الله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾ وذلك أن أبا سفيان قال للنبي ﷺ موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا ، فأما الجبان فرجع ، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة ، فأتوه فلم يجدوا به أحداً وتسوقوا ، فأنزل الله عز وجل ذكره: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾][2] .

وأخرج البخاري في كتاب المغازي عن هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . قالت لعروة: (يا ابن أختي كان أَبَواكَ منهم الزبيرُ وأبو بكر ، لما أصابَ رسولَ الله ﷺ ما أصاب يومَ أُحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، قال: من يَذْهَبُ في إثرهم فانتدب منهم سبعون رجلاً . قال: كان فيهم أبو بكر والزبير).

فسارع سبعون رجلاً من الصحابة لامتثال رغبة القيادة النبوية ، ثم تتابع بقية الجيش خلفهم حتىٰ صار عددهم ست مئة وثلاثين مقاتلاً ، كلهم مستعد لخوض معركة دامية

---

(1) حديث صحيح . ورواه الحاكم وابن حبان . انظر صحيح الجامع الصغير (504) ، وكتابي: تحصيل السعادتين على منهج الوحيين (321) ، لتفصيل أكبر حول تزاور الأرواح في البرزخ .

(2) حديث صحيح . أخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ـ وقال السيوطي في لباب النقول: إن سنده صحيح . وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» ـ الوادعي ـ آل عمران (171 ـ 173) .

جديدة ، ولدخول ساحة الموت مرة أخرىٰ ، فأثنىٰ الله سبحانه في كتابه على صدقهم ، وجمال مبادرتهم ، وعظيم استجابتهم رغم القرح وشدة التعب والجراح .

قال ابن هشام : (حدثنا أبو عبيدة : أن أبا سفيان بن حرب لما انصرف يوم أُحد ، أراد الرجوع إلى المدينة ، ليستأصل أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال لهم صَفْوان بن أمية بن خلف : لا تفعلوا فإن القوم قد حَرِبوا ـ أي غضبوا ـ وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الذي كان ، فارجعوا ، فرجعوا ـ وفي رواية : فارجعوا والدولة لكم فإني لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم) .

فقال النبي ﷺ وهو بحمراء الأسد ، حين بلغه أنهم همّوا بالرَّجعة : «والذي نفسي بيده ، لقد سُوِّمت[1] لهم حجارةٌ ، لو صُبِّحوا بها لكانوا كأمس الذاهب» .

فأثنىٰ الله بذلك على المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول رغم القرح والألم، ومَدَحَهم في قرآن يتلىٰ على ألسنة الأجيال إلى يوم القيامة، فيه ذكر عطر لاستئنافهم مبادرة صفحة جديدة من القتال رغم تخويف الناس لهم ، وقولهم : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس : [﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾][2] .

وقوله : ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ .

قال مجاهد : (والفضل ما أصابوا من التجارة والأجر) . وقال ابن جريج : (﴿ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ قال : قتل) .

وقوله : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ . قال ابن جريج : (طاعة النبي ﷺ) .

وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ . قال ابن إسحاق : (لما صرف عنهم من لقاء عدوهم) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ . قال مجاهد : (يخوف المؤمنين بالكفار) . وقال ابن عباس : (الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه) .

وقال السدي : (يعظم أولياءه في صدوركم فتخافونهم) .

(1) أي جُعلت لها علامة يعرف بها أنها من عند الله .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4564) ، والنسائي في «التفسير» (101) ، والحاكم (2/ 298) .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند جيد عن سبرة ، عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد بطريق الإسلام ، فقال: تُسلِمُ وتذرُ دينك ودينَ آبائك وآباء آبائك؟! فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك... فعصاه فهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتُقتل فتُنكح المرأة ويقسم المال؟! فعصاه فجاهد..][1].

وقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا عليّ والجؤوا إلي ، فأنا كافيكم وناصركم عليهم).

وفي التنزيل: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: 19].

176 - 180. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾.

في هذه الآيات: تثبيتُ الله تعالىٰ نبيّه ﷺ والمؤمنين ، بإظهار ما أعدّ من الذل والخزي للمنافقين ، وببيان سنته تعالىٰ في التمحيص لتمييز الصادقين من الكاذبين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 483) ، والنسائي (6/ 21 ـ 22) ، وابن حبان (4593) ، وإسناده لا بأس به. وانظر صحيح الجامع (1648).

قال مجاهد: (﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ يعني: أنهم المنافقون).

وقال ابن إسحاق: (﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: أن يحبط أعمالهم). ثم أخبر سبحانه أنهم مع حرمانهم ثواب الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في نار جهنم.

ثم أكدّ ذلك سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ يعني المنافقين ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بل إنما يضرون أنفسهم بإيجابهم عليها عقوبة الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله ليُملي للظالم، حتىٰ إذا أخذه لم يُفلِته. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]][1].

فلا يظنن الذين كفروا بالله ورسوله وما جاء به من عند الله أن تأخيرهم يكفرون في الأرض خير لهم، بل هو من باب المكر بهم حتىٰ إذا نزل بهم الموت دخلوا في جحيم العذاب المتتابع من البرزخ إلى يوم القيامة إلى الخلود في الشقاء والجحيم والعياذ بالله.

وقوله: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

قال مجاهد: (ميز بينهم يوم أحد، المنافقَ من المؤمن). وقال ابن جريج: (ليبين الصادق بإيمانه من الكاذب).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾. قال ابن إسحاق: (أي: فيما يريد أن يبتليكم به، لتحذروا ما يدخل عليكم فيه).

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. قال مجاهد: (يخلصهم لنفسه).

وقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾. قال ابن إسحاق: (أي: ترجعوا وتتوبوا، ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686)، ومسلم (2583)، والترمذي (3109)، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾.

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من آتاه الله مالاً فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ له شجاعاً أقرع له زبيبتان، يُطَوِّقُه يوم القيامة، يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه ـ يعني بشدْقيه ـ يقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ إلى آخر الآية][1].

والشجاع: هو الذكر من الحيات، والأقرع: هو الذي ذهب شعره من كثرة السم.

ـ وهناك شواهد كثيرة في المسند وبعض السنن للحديث السابق:

الشاهد الأول: في مسند أحمد بسند صحيح عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: [إن الذي لا يؤدي زكاة ماله يُمَثِّلُ الله له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، ثم يُلزِمُه يطوِّقه، يقول: أنا مالك أنا كنزك أنا كنزك][2].

الشاهد الثاني: أخرج الترمذي والنسائي وابن ماجة عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: [ما من عبد لا يؤدي زكاة ماله إلا جُعِلَ له شجاع أقرع يتبعُه، يفِرُّ منه وهو يتبعه، فيقول: أنا كنزك. ثم قرأ عبد الله مِصْداقه من كتاب الله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾][3].

الشاهد الثالث: أخرج الحاكم والطبراني بسند جيد عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: [من ترك بعده كنزاً مُثِّلَ له شجاعاً أقرع يوم القيامة له زبيبتان، يتبعه ويقول: من أنت؟ ويلك. فيقول: أنا كنزك الذي خَلَّفتَ بعدك. فلا يزال يتبعه حتىٰ يُلْقِمهُ يدَه فيقضِمُها، ثم يتبعه سائر جسده][4].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾. فإن الناس تزول عنهم أملاكهم ويصير لله ميراث كل هذه المعمورة: ما في السماوات وما في الأرض.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4565)، وأحمد (2/ 279)، والنسائي (5/ 39) وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 98)، وأخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (2260).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3012)، والنسائي في «الكبرىٰ» (2221)، وابن ماجة (1784)، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 98)، وإسناده متصل.

(4) إسناده جيد، رواه الحاكم (1/ 388 ـ 389)، والطبراني (1408)، وابن حبان (3257).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. أي: فهو سبحانه يعلم أعمالكم ونياتكم.

181 - 184. **قوله تعالىٰ:** ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ۝١٨٤﴾.

في هذه الآيات: توبيخٌ وتقريعٌ من الله تعالىٰ لليهود الماكرين، وفضح لسلوكهم عبر الزمان مع المرسلين، وتوعد لهم بصلي العذاب المهين، وتسليةٌ من الله تعالىٰ لرسوله لِيَثْبُتَ على الحق المبين.

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الآية).

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ فيه أقوال متشابهة:

1 ـ سنجازيهم عليه. ذكره ابن كثير.

2 ـ سنكتبه في صحائف أعمالهم. قال القرطبي: (أي نأمر الحفظة بإثبات قولهم حتىٰ يقرؤوه يوم القيامة في كتبهم التي يؤتونها، حتىٰ يكون أوكدَ للحجة عليهم. وهذا كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: 94]).

3 ـ وقيل: مقصود الكتابة الحفظ، أي: سنحفظ ما قالوا لنجازيهم.

وقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. أي: ونكتب قتلهم الأنبياء، أي: رضاهم بالقتل. فلما رضي الحفدة بفعل أسلافهم وأجدادهم الذين قتلوا الأنبياء بأيديهم اشتركوا في الحكم والإثم.

أخرج أبو داود بسند حسن عن العُرْس بن عميرة الكندي عن النبي ﷺ قال: [إذا عُمِلت الخطيئة في الأرض، كان من شهدها فكرِهها كمنْ غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها][1].

وقوله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾. يعني بذلك: عذاب نار السعير الملتهبة المحرقة.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾. أي: ذلك العذاب بما سلف من الذنوب وحصل الرضىٰ بها، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾. قال ابن عباس: (كان الرجل يتصدق، فإذا تُقُبِّلَ منه، أنزلت عليه نارٌ من السماء فأكلته).

فزعم اليهود أن الله تقدم إليهم في كتبه وعلى ألسن أنبيائه، أن لا يصدقوا رسولاً فيما يقول إنه جاء به من عند الله حتىٰ يجيء بقربان ـ مما يتقرب به العبد إلى الله من صدقة ـ تأكله النار يبعثها الله من السماء دلالة على القبول.

فأكذبهم الله وقال لنبيه: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

يعني: قد جاءتكم الرسل فيما مضىٰ بالحجج القاطعة أنهم من عند الله ثم مع ذلك قتلتموهم؟! فأين عهدكم المزعوم إن كنتم صادقين؟!

قال ابن جرير: (﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن الله عهد إليكم أن تؤمنوا بمن أتاكم من رسله بقربان تأكله النار حجة له على نبوته).

وقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾. قال الضحاك: (يعزِّي نبيّه ﷺ).

وقوله: ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾. البينات: الدلالات. والزبر: الكتب المزبورة، يعني المكتوبة. والزُّبُر: جمع زَبور وهو الكتاب. والكتاب المنير: أي الواضح المضيء. والمقصود بالكتاب: التوراة والإنجيل. فإن اليهود كذبت عيسىٰ وما جاء به، وحرّفت ما جاء به موسىٰ عليه السلام من صفة محمد ﷺ، وبدلت عهده

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن (4345)، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (702).

إليهم فيه ، وأن النصارىٰ جحدت ما في الإنجيل من نعته ، وغيرت ما أمرهم به في أمره. أفاده شيخ المفسرين.

185 - 186. **قوله تعالىٰ:** ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾.

في هذه الآيات: إخبارٌ من الله سبحانه عن الفناء المحتوم لكل نفس ثم البعث يوم القيامة لنيل الحساب ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ونجا من العقاب. وبيانٌ أن الابتلاء حق والصبر على أذىٰ المشركين أيام الغربة يُقابل بجميل الثواب.

أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [مَوْضِعُ سَوْطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها ، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾][1].

وقوله: ﴿زُحْزِحَ﴾. أي: أبعد. ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: ظفر بما يرجو ، ونجا مما يخاف.

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد من حديث عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتىٰ إليه][2].

وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾. أي تغرّ المؤمن وتخدعه فيظن طول

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3013) ، وأحمد (438/2) ، والحاكم (2/ 299).
(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1199) ، ومسند أحمد (2/ 192).

البقاء وهي فانية ، فلا تركنوا إليها وتسكنوا لها ، فإنما أنتم عن قريب عنها راحلون مسافرون ، والمستقر الدار الآخرة.

قال قتادة: (هي متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها ، فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع).

وفي التنزيل: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: 16 ـ 17]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓۚ ﴾ [القصص: 60].

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد ، عن النبي ﷺ قال: [والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَغْمِسُ أحدُكم أُصبعَهُ في اليمِّ ، فلينظر بم ترجع إليه][1].

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود قال: [اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثّر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه ، فقلت: يا رسول الله ألا آذنتنا حتىٰ نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول الله ﷺ: ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنّما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها][2].

وله شاهد في المسند من حديث ابن عباس بلفظ: [ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها][3].

وقوله: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾. خطاب من الله لهذه الأمة ـ أمة محمد ﷺ ـ المعنىٰ: لَتُختَبَرُنّ في أموالكم بالمصائب وبالإنفاق في سبيل الله وسائر تكاليف الشرع بذلك ، ولتمتحنن في الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب.

قال القرطبي: (وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها).

وفي التنزيل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: 155].

قال ابن كثير: (أي: لا بد أن يُبتلىٰ المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2858) ، والترمذي (2323) ، وأحمد (4/ 228).
(2) حديث حسن صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 60)، والحاكم (4/ 310). وانظر: «الصحيحة» (439).
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/ 301) ، وابن حبان (2526). وانظر المرجع السابق (440).

أهله ، ويُبتلىٰ المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيدَ في البلاء).

قلت: وهذا المعنىٰ قد جاء في السنة الصحيحة ، وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الترمذي ، وابن ماجة بسند جيد ، عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلىٰ الرجل على حسب (وفي رواية: قدر) دينه ، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ، ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتىٰ يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: [دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حرّه بين يدي فوق اللحاف ، فقلت: يا رسول الله! ما أشدها عليك! قال: إنا كذلك ، يضعف لنا البلاء ، ويضعف لنا الأجر. قلت: يا رسول الله! أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ، قلت: يا رسول الله! ثم من؟ قال: ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلىٰ بالفقر ، حتىٰ ما يجد أحدهم إلا العباءة التي يحويها ، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء][2].

الحديث الثالث: روى أحمد في مسنده عن أبي عبيدة بن حذيفة عن عمته فاطمة أنها قالت: [أتينا رسول الله ﷺ ، نعوده في نسائه ، فإذا سقاء معلق نحوه يقطر ماؤه عليه من شدة ما يجد من حر الحمىٰ ، قلنا: يا رسول الله لو دعوت الله فشفاك. فقال رسول الله ﷺ: إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم][3].

وقوله: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه ، وكان أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ، وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 64) ، وابن ماجة (4023) ، وأحمد (1/ 172).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4024) ، والحاكم (4/ 307). انظر السلسلة الصحيحة (144). ورواه ابن سعد (2/ 208). وسنده صحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 369)، وسنده صحيح. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (145).

ويحرض عليه كفار قريش ، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون ، والمشركون يعبدون الأوثان ، واليهود وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه ، فأمر الله عز وجل نبيّه ﷺ بالصبر والعفو ، ففيهم أنزل الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ. . .﴾ الآية.

فلما أبىٰ كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذىٰ النبي ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً يقتلونه ، فبعث محمد بن مسلمة ـ وذكر قصة قتله ـ فلما قتلوه فزعت يهود والمشركون ، فغدوا على النبي ﷺ فقالوا: طرق صاحبنا فقتل ، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول ، ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه ، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة][1].

قال الحافظ في الفتح: (وروىٰ ابن أبي حاتم وابن المنذر بإسناد حسن أنها نزلت فيما بين: «أبي بكر وبين فنحاص اليهودي» في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ تعالىٰ الله عن قوله ـ فغضب أبو بكر فنزلت ، وذكره السيوطي في اللباب ، وقال: إن سنده حسن. ولا تنافي بينهما ، فيحتمل أنها نزلت في هذا وهذا).

وروى ابن أبي حاتم بسند صحيح على شرط الشيخين عن الزُّهري ، أخبرني عروة بن الزبير: أن أسامة بن زيد أخبره قال: [كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذىٰ ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾. قال: وكان رسول الله ﷺ يتأوّلُ في العفو ما أمره الله به ، حتىٰ أذِنَ الله فيهم][2].

وفي صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ باب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ قال: حدثنا أبو اليمان: أخبرنا شُعيب عن الزّهري: أخبرني عروة بن الزبير: [أن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخبره: أن رسول الله ﷺ ركِبَ على حِمار على قطيفة فَدَكِيّة ، وأرْدَف أسامة بن زيد وراءَه يعودُ سَعْدَ بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وَقْعَةِ بدر ، قال: حتىٰ مَرَّ بمجلس فيه

(1) حديث صحيح: انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2593) ـ باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة. وكتابي: السيرة النبوية (644/2 - 645). وانظر الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة آل عمران آية (186). ويبدو أنه أراد بقوله عن أبيه في السند ـ جدّه كعب بن مالك ـ فيكون الحديث بهذا مسنداً.

(2) إسناده صحيح على شرطهما. انظر تفسير ابن كثير ـ تحقيق المهدي ـ سورة آل عمران ـ آية (186).

عبدُ الله بن أبيّ بن سلول ، وذلك قبل أن يُسْلِمَ عبد الله بن أبي ، فإذا في المجلس أخْلاطٌ من المسلمين والمشركين: عَبَدةِ الأوثان ، واليهود والمسلمين ، وفي المجلس عبد الله بنُ رواحةَ ، فلما غَشِيَتِ المجلسَ عَجَاجَةُ الدابة خمَّرَ عبد الله بنُ أبيّ أنفه بردائه ثم قال: لا تُغَبِّرُوا علينا ، فَسَلَّم رسولُ الله ﷺ عليهم ، ثم وَقَفَ فَنَزَل ، فدعاهمْ إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول: أيها المَرْءُ ، إنه لا أحْسَنَ مما تقول ، إن كان حقاً فلا تؤذِنا به في مجالسنا. ارجِعْ إلى رَحْلِكَ ، فمن جاءكَ فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلىٰ يا رسول الله فاغْشَنَا به في مجالسنا ، فإنا نحبّ ذلك ، فاستَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتىٰ كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبيّ ﷺ يُخَفِّضُهُم حتىٰ سَكنوا ، ثم ركِبَ النبي ﷺ دابّتَهُ فسار حتىٰ دخل على سعد بن عُبادة ، فقال له النبي ﷺ: أيا سَعْدُ! ألم تسمع ما قال أبو حُباب؟ ـ يريد عبد الله بن أبي ـ قال كذا وكذا ، قال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعفُ عنه واصفح عنه ، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البُحيرة على أن يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بالعصابة ، فلما أبىٰ الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ وأصحابُه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ﴾ الآية ، وقال الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: 109] إلى آخر الآية ، وكان النبي ﷺ يتأوّل العفو ما أمره الله به حتىٰ أذِنَ الله فيهم ، فلما غزا رسولُ الله ﷺ بدْراً فقتل الله به صناديدَ كفار قريش قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمرٌ قد توجّه ، فبايعوا الرسول ﷺ علىٰ الإسلام فأسلموا][1].

وقوله: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾. يعني: إن الصبر والتقوىٰ من أمثل ما التزم المؤمن به ، وعزم الله عليه وأمر به.

وفي الأثر عن عمر: (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت). وقال أيضاً: (أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً).

وقال بعض السلف: (لولا مصائب الدنيا لوردنا الآخرة مفاليس).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (4566) ، كتاب التفسير ، وكذلك (2987).

187 - 189. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

في هذه الآيات: تقريعٌ بصنيع أهل الكتاب وتهديد ووعيد لمن سلك مسلكهم في كتمان الحق والعلم، فإن الله سبحانه أخذ عليهم العهد على ألسنة أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن يرشدوا أقوامهم إلى الإيمان به ومتابعته، إلا أنهم كانوا عند أسوأ الظن، فكتموا أمره وَحَرَّفُوا ما ورد في ذكره وصفاته وشمائله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وفيها فَضْحٌ لسلوك المنافقين وَتَوَعُّدٌ لهم من الله الملك القدير بالعذاب الأليم.

قال الشعبي: (﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾: إنهم قد كانوا يقرؤونه، إنما نبذوا العمل به). وقال ابن جريج: (نبذوا الميثاق).

وقوله: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. قال ابن جرير: (وابتاعوا بكتمانهم ما أخذ عليهم الميثاق أن لا يكتموه من أمر نبوتك، عوضاً منه خسيساً قليلاً من عرض الدنيا).

وقوله: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾. قال مجاهد: (تبديل اليهود التوراة).

والمعنىٰ: بئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم، إذ ارتضوا بالدون الفاني الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، لقاء الكبر في الأرض والغرور، وترك الأهوال تنزل بهم يوم النشور.

والآية فيها تهديد ووعيد لمن سلك سبيل اليهود من هذه الأمة في كتمان العلم أو تحريفه أو استبداله بالقصص المكذوبة والخرافات والأحاديث الموضوعة. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: [من سُئِلَ عن علمٍ فكتمه ، أُلْجِمَ يومَ القيامة بلجامٍ من نار][1].

وفي رواية لابن ماجة: [ما من رجل يحفظ علماً فَيَكْتُمُهُ إلا أتىٰ يومَ القيامة ملجوماً بلجامٍ من نار].

الحديث الثاني: أخرج ابن حبان والحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال: [من كتم علماً ألجمه الله يومَ القيامة بلجام من نار][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني والدارمي بسند حسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [مثلُ الذي يتعلّم العلمَ ثم لا يحدِّثُ به ، كمثل الذي يكنِزُ الكنزَ ثم لا ينفِقُ منه][3].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ، على هذا المنبر: [إياكم وكثْرةَ الحديث عني. فمن قال عَلَيَّ فليقل حَقاً أو صِدْقاً. ومن تَقَوَّلَ عليَّ ما لم أَقُلْ ، فليتبوأ مقعده من النار][4].

وأصل معناه في الصحيحين من حديث أنس بلفظ: [من كَذَب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار].

وقوله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن رِجالاً من المنافقين على عهد الرسول ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، وإذا قدم رسول الله ﷺ اعتذروا إليه وأحبوا أن

---

(1) حديث صحيح. رواه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (3658) ، والترمذي في الجامع ـ حديث رقم ـ (2649) ، وابن ماجة وابن حبان والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير (6160) ، وصحيح الترغيب (1/ 116) كتاب العلم ، الترهيب من كتم العلم.

(2) حديث صحيح. رواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال: «صحيح لا غبار عليه». انظر صحيح الترغيب (1/ 117) الباب السابق ، ورواه ابن عدي عن ابن مسعود. انظر صحيح الجامع (6393).

(3) حديث حسن. أخرجه الدارمي في السنن (1/ 134) ، وأحمد في المسند (2/ 499) من طريق الطبراني ، وأخرجه ابن عبد البر (1/ 122) ، وله شواهد.

(4) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (35) ، باب التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ ، وهو في صحيح ابن ماجة برقم (33) ، وفي الباب أحاديث أخرىٰ نحوه.

يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾][1] .

وقال البخاري: حدثني إبراهيم بن موسىٰ أخبرنا هشام أن ابن جريج أخبرهم عن ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره: [أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبنّ أجمعون. فقال ابن عباس: مالك ولهذه الآية: إنما دعا النبي ﷺ يهوداً وسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أَتَوْا من كتمانهم ثم قرأ ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كذلك حتىٰ قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾][2] .

وأخرج الحاكم والطبراني بسند حسن عن محمد بن ثابت الأنصاري: [أن ثابت بن قيس الأنصاري قال: يا رسول الله ، والله لقد خشيتُ أن أكون هلكت. قال: ولم؟ قال: نهىٰ الله المرء أن يُحِبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل. وأجدني أحِبُّ الحمدَ ، ونهىٰ الله عن الخُيَلاء وأجدني أحبُّ الجمال ، ونهىٰ الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ: أما ترضىٰ أن تعيش حميداً ، وتقتل شهيداً ، وتدخل الجنة؟ قال: بلىٰ يا رسول الله. قال: فعاش حميداً ، وقُتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب][3] .

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾. قال ابن زيد: (بمنجاة من العذاب).

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أي: موجع مهين ، مع ما لهم من الخزي في الحياة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ردّ على الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وتكذيب لهم ، فكل هذا الكون ملك له سبحانه ، والسماوات والأرض وما فيهن تحت أمره ، وهو القادر على إهلاك من عاند وطغىٰ وتجبّر متىٰ شاء ، فهو الجبار المتكبر وحده لا شريك له.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4567) ، ومسلم (2777) ، ورواه ابن جرير.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري بإثر (4568) ، ومسلم (2778) ، وأحمد (1/ 298).

(3) حديث حسن. أخرجه الحاكم (3/ 234) ، والطبراني (13110) ، من حديث محمد بن ثابت الأنصاري ، عن ثابت بن قيس الأنصاري ، وسنده حسن.

190 - 194. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾.

في هذه الآيات: احتجاج من الله سبحانه على سائر خلقه، أنه الخالق البارئ المدبر لهذا الكون المصرف ليله ونهاره، وسماءه وأرضه، وجباله وبحاره، ومياهه وأنهاره، فكل ما في هذا الكون من آيات تدعو لتوحيده وتعظيمه لا شريك له وهو العلي العظيم. وثناء منه تعالىٰ على المؤمنين في حسن توسلهم ودعائهم وإخباتهم لربهم الكريم.

قال ابن جرير: (قال جلّ ثناؤه: تدبروا أيها الناس واعتبروا، ففيما أنشأته فخلقته من السماوات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقَّبت بينه من الليل والنهار فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا راحة لأجسادكم، معتبرٌ ومذّكر وآيات وعظات).

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾. هو من نعت أولي الألباب ووصف حالهم، فهم يتقلبون في أحوالهم المختلفة ويذكرون ربهم لا يغفلون عنه.

قال ابن جريج: (هو ذكر الله في الصلاة وفي غير الصلاة، وقراءة القرآن). وقال قتادة: (وهذه حالاتك كلها يا ابن آدم، فاذكره وأنت على جنبك، يُسراً من الله وتخفيفاً). وخلاصة المعنىٰ لهؤلاء الذاكرين أولي الألباب كما قال ابن جرير ـ شيخ المفسرين ـ: (يعني بذلك قياماً في صلاتهم، وقعوداً في تشهدهم وفي غير صلاتهم، وعلى جنوبهم نياماً).

وفي صحيح البخاري وسنن أبي داود وابن ماجة والترمذي عن عِمران بن حُصين:

أن رسول الله ﷺ قال: [صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلىٰ جنب][1] .

وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ . أي يعتبرون بما فيهما من آيات كبيرة تدل على عظمة الخالق وكمال صفاته ، ووجوب تعظيمه .

قال بشر الحافي: (لو تفكر الناس في عظمة الله تعالىٰ لما عصوه) .

وقد ذمّ الله تعالىٰ من لا يعتبر بهذه الآيات البديعة ، ويمر عليها دون تفكر ، فقال جل ذكره: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ .

وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ . أي: لم تخلقه عبثاً ولهواً ، بل إنما يكمن وراءه أمر عظيم ، من ثواب وعقاب ، ومحاسبة ومجازاة ، ونعيم وجحيم ، وخلود في أحد المستقرين .

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ . هو نتيجة وثمرة هذا التفكر ، فتحركت ألسنتهم يلهجون بذكره وتسبيحه وتنزيهه ، ورجوه أن يرضىٰ عنهم وينجيهم من عذابه .

وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ . فهذه حقيقة لا شك فيها ، فكل من كتب الله عليه دخول النار ولو إلى فترة فقد ناله من الخزي والعنت والألم .

وقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ . أي: لا نصرة لمن اختار معصية الله وسخطه ، ولا سبيل له لدفع العذاب عنه ، فهو خزي لا منقذ له .

وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ .

هذه الآية دليل على مشروعية التوسل إلى الله سبحانه بعمل صالح . فإن التوسل إلى الله تعالى مشروع بأحد الأنواع الثلاثة:

1 ـ التوسل باسم من أسماء الله أو صفة من صفاته .

2 ـ التوسل إلى الله بعمل صالح .

3 ـ التوسل إلى الله بدعاء الرجل الصالح .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (1117) ، وأبو داود في السنن (952) ، والترمذي في الجامع (372) ، وابن ماجة في السنن (1223) .

وقد بسطت القول في ذلك في كتابي: «أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان» ولله الحمد والمنة.

وأما المنادي في الآية الذي ينادي للإيمان فهو الرسول ﷺ، أو القرآن. قال محمد بن كعب: (هو الكتاب، ليس كلهم لقي النبي ﷺ).

وقال ابن زيد: (ذلك رسول الله ﷺ). وقال ابن جريج: (هو محمد ﷺ).

والمعنىٰ: لقد توسّل هؤلاء المؤمنون إلى الله بتصديقهم كتابه أو رسوله ﷺ إذ سمعوا نداءه إلى الإيمان، فسألوه سبحانه المغفرة وتكفير الذنوب والموت علىٰ الإسلام.

وقوله: ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾. قال القرطبي: (أي أبراراً مع الأنبياء، أي في جملتهم. واحدهم بَرٌّ وبارٌّ وأصله من الاتساع، فكأن البر متسِع في طاعة الله ومتّسِعة له رحمة الله).

والخلاصة: أنهم سألوا الله اللحاق بالصالحين، الذين برّوا الله تبارك وتعالى بطاعتهم إياه وخدمتهم لدينه حتىٰ رضي عنهم وأبرهم.

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعانَ الأنصاري قال: سألت رسول الله ﷺ عن البِرّ والإثم؟ فقال: [البِرُّ حُسْنُ الخُلقِ، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس][1].

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

قال القاسمي رحمه الله في التفسير: (﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ أي: على تصديق رسلك والإيمان بهم. أو على ألسنة رسلك. وهو الثواب). وهذا حكاية لدعاء آخر لهم، معطوف على ما قبله. وتكرير النداء لما مرّ ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ قصدوا بذلك تذكير وعده تعالىٰ بقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ ﴾ [التحريم: 8]. بإظهار أنهم ممن آمن معه).

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ يتلاءم مع سؤالهم ربهم أن يؤتيهم ما وعدهم من أربعة أوجه:

---

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح (2553)، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم.

1 ـ أن الله وعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا ممن وُعد بذلك دون الخِزي والعقاب.

2 ـ أنهم سألوا ذلك ودعوا على جهة العبادة والخضوع. قال القرطبي: (وهذا كقوله: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنبياء: 112] وإن كان هو لا يقضي إلا بالحق).

3 ـ سألوا ما وعدوا من النصر على عدوهم معجّلاً ، والمقصود أصحاب النبي ﷺ الذين هاجروا وهم يتمنون خزي المشركين عاجلاً. قال ابن جرير: (فقالوا: ربنا آتنا ما وعدتنا من نصرتك عليهم عاجلاً ، فإنك لا تخلف الميعاد ، ولكن لا صبر لنا على أناتك وحلمك عنهم ، فعجل لهم خزيهم ، ولنا الظفر عليهم).

4 ـ أنهم سألوا الله النجاة يوم القيامة دون الخزي فإنهم مؤمنون بالمعاد والوقوف بين يديه سبحانه. قال الحافظ ابن كثير: (﴿ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ، أي: لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رُسُلَك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك).

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يخص هذه الآيات العشر من آخر آل عمران بالقراءة إذا قام من الليل لتهجده. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [بتُّ عند خالتي ميمونة ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقدَ ، فلما كان ثلثُ الليل الآخِرُ قعد فنظرَ إلى السماء فقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾. ثم قام فتوضأ واسْتَنَّ ، فصلىٰ إحدىٰ عَشْرَة ركعةً ، ثم أذَّنَ بلالٌ فصلىٰ ركعتين ، ثم خرج فصلىٰ الصبح][1]. ذكره البخاري في التفسير ـ باب قوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه ـ في كتاب التفسير ـ باب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. عن كُرَيب ، عن ابن عباس رضي الله تعالىٰ عنهما قال: [بتُّ عند خالتي ميمونةَ فقلتُ لأنظرنَّ إلى صلاة رسول الله ﷺ ، فَطُرِحَتْ لرسول الله ﷺ وِسادَةٌ ، فنام رسول الله ﷺ في طُولِها ، فجعل يَمْسَحُ النَّومَ عن وجهه ، فقرأ الآيات العشرَ الأواخِرَ من آل عمران ، حتىٰ ختمَ ، ثم أتىٰ سِقَاءً مُعَلَّقاً ، فأخذه فتوضأَ ثم قام يُصَلِّي ، فقمتُ فصَنَعْتُ مثل ما صنعَ ، ثم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4569) ، كتاب التفسير ، ورواه مسلم (763) ح (190).

جئت فقُمت إلى جَنبه ، فوضع يده على رأسي ، ثم أخذ بأُذُني فجعل يَفْتِلُها ، ثم صلى ركعتين ، ثم صلىٰ ركعتين ، ثم صلى ركعتين ، ثم صلىٰ ركعتين ، ثم صلى ركعتين ، ثم صلى ركعتين ، ثم أوتر][1].

الحديث الثالث: روىٰ مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس قال: [أمرني العباس أن أبيت بآل رسول الله ﷺ وأحفظ صلاته. قال: فصلىٰ رسول الله ﷺ بالناس صلاة العشاء الآخرة ، حتىٰ إذا لم يبق في المسجد أحد غيره قام فمرَّ بي ، فقال: من هذا؟ عبد الله؟ قلت: نعم ، قال: فَمَه؟ قلت: أمرني العباس أن أبيت بكم الليلة. قال: فَالْحَقْ الْحَقْ. فلما أن دخل قال: اِفرِشَنْ عبد الله؟ فأتىٰ بوسادة من مسوح قال: فنام رسول الله ﷺ عليها حتىٰ سمعت غطيطه ، ثم استوىٰ على فراشه قاعداً ، قال: فرفع رأسه إلى السماء فقال: «سبحان الملك القدوس». ثلاث مرات ، ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتىٰ ختمها][2].

195 . **قوله تعالىٰ**: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ .

في هذه الآية: استجابةُ الله سبحانه دعاء هؤلاء الداعين ، بأنه لا يضيع عمل عامل منهم عمل خيراً ، ذكراً كان أم أنثىٰ ، فإن الله سبحانه أمر بالدعاء ووعد بالإجابة وحسن الثواب للمجاهدين الصادقين.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

وقال جل ذكره: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4570) ، كتاب التفسير ، وكذلك (183) ، ورواه مسلم (763) ح (182) ، وأبو داود (1376) ، وأحمد (1/ 242) ، ومالك (1/ 121 ـ 122).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (763) ح (191) ، وأبو داود (1353) من وجه آخر.

وفي جامع الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه][1].

وأخرج الطبراني بإسناد صحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: [إذا تمنىٰ أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربّه][2].

وفي رواية: [إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه].

قال ابن القيم رحمه الله: (لكن قد يتخلف عنه أثره إما لضعفه في نفسه، بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإما لحصول المانع من الإجابة، من أكل الحرام والظلم، ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها).

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن أم سلمة: [قالت: يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾][3].

وقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾.

المعنىٰ: إن المهاجرين الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارهم بمكة، فأوذوا في طاعة الله وفي سبيله، وقاتلوا في سبيل الله وقتلوا فيها، وعدهم الله سبحانه أن يمحو عنهم ذنوبهم ويجزيهم بهجرتهم وجهادهم الجنة نعم الثواب ونعم المستقر. ومن ثم فإن الآية عامة في كل من مضىٰ على منهاج هجرتهم وجهادهم. وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [ثلاثةٌ كلهم ضامِنٌ على الله: رجلٌ خرجَ غازياً في سبيل الله فهو ضامن على الله حتىٰ يتوفاه فيدخلَهُ الجنة، أو يردّه بما نال من أجر أو غنيمة، ورجلٌ راح إلى المسجد فهو

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2/ 261)، والحاكم (1/ 493). وانظر: «الصحيحة» (594).
(2) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير (450)، وكذلك رقم (605) للرواية الثانية.
(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2420) ـ كتاب التفسير ـ وانظر كذلك (2419) منه.

ضامن على الله حتىٰ يتوفاه فيدخلَه الجنة أو يردَّه بما نال من أجر ، ورجلٌ دخلَ بيتَه بسلام ، فهو ضامن على الله][1] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [ما أحد يدخلُ الجنة يحب أن يرجعَ إلى الدنيا ، وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد ، فإنه يتمنىٰ أن يرجع فيقتل عشر مرات ، لما يرىٰ من الكرامة][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد ، بإسناد صحيح ، عن المقدام ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال: [للشهيد عند الله سبع خصال: يُغفر له في أول دفعةٍ من دمه ، ويرَىٰ مقعده من الجنة ، ويُحَلّىٰ حلَّة الإيمان ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويشفع في سبعين إنساناً من أهل بيته][3] .

الحديث الرابع: أخرج البخاري ومسلم عن جابر قال: [قال رجل للنبي ﷺ يومَ أحُد: أرأيت إنْ قُتِلتُ فأين أنا؟ قال: في الجنة. فألقىٰ تمرات في يده ، ثم قاتل حتىٰ قُتِل][4] .

وفي رواية أخرىٰ: [يا رسول الله: أرأيت إن قُتِلتُ في سبيل الله صابراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غير مُدْبر ، أَيُكَفِّرُ الله عني خطاياي؟ قال: نعم. ثم قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه ما قال: فقال: نعم ، إلا الدَّين ، قاله لي جبريل آنفاً].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ يعني حسن الجزاء والتكريم.

196 - 198. قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلۡبِلَٰدِ ۝١٩٦ مَتَٰعٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2494) ، كتاب الجهاد ، باب فضل الغزو في البحر. انظر صحيح سنن أبي داود (2178) ، وانظر تخريج المشكاة (727) ، وصحيح الجامع الصغير ، رقم (3048).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2817) ، كتاب الجهاد والسير ، ورواه مسلم.
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد بسند صحيح عن المقدام. انظر صحيح الجامع الصغير (5058).
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4046) ، كتاب المغازي ، وأخرجه مسلم برقم (1899) ، ورواه أحمد في المسند (3/ 308).

قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

في هذه الآيات: استخفاف الله تعالىٰ بالكافرين الماكرين، ووعده جميل الجنان للأبرار المتقين.

قال السدي: (﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، يقول: ضربهم في البلاد). وقال قتادة: (والله ما غرُّوا نبيَّ الله، ولا وَكل إليهم شيئاً من أمر الله حتىٰ قبضه الله على ذلك).

والمعنىٰ: لا تعجبوا إلى ما أُترِف به الكفار في الدنيا من ألوان النعمة والغبطة والسرور، فعمّا قليل يتغير عليهم الحال ويزول، ويدور الزمان فَيُذِلُّ الله من فتنه بالأمس بالحكم والسلطان ليمسوا محمولين إلى القبور، مرتهنين بسيِّئ أعمالهم مستقبلين يوم النشور.

وقوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ هو مدة الغرور بالحكم والسلطان وتحكيم الأهواء والشهوات، ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ﴾ بعد مماتهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: بئس الفراش والمضجع والمأوىٰ والمستقر.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عُصَارة أهل النار، طينة الخبال][1].

وفي مستدرك الحاكم بسند حسن عن أبي موسىٰ عن النبي ﷺ قال: [إن أهل النار ليَبْكون حتىٰ لو أُجْريت السفن في دموعهم جَرَتْ، وإنهم ليبكون الدم][2].

ورواه في شرح السنة عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتىٰ تسيل دموعهم في وجوههم،

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر تخريج المشكاة (5112)، وصحيح الجامع الصغير (7896).

(2) حديث حسن. أخرجه الحاكم (605/4). انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1679)، وكتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (2/ 767) للرواية بعده.

كأنها جداول ، حتىٰ تنقطع الدموع ، فتسيل الدماء ، فتقرَّح العيون ، فلو أن سُفُناً أُزْجِيَتْ فيها لجرت]. وقوله: «أزجيت»: أرسلت.

وقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾.

وعد من الله سبحانه للذين اتقوه بتعظيم أوامره واجتناب نواهيه بساتين الخلود والنعيم ، إنزالاً من الله إياهم فيها ، تكريماً لهم وتشريفاً. ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ قال ابن زيد: (لمن يطيع الله).

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عمر قال: (إنما سماهم الله أبراراً لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقاً ، كذلك لولدك عليك حق).

قلت: ولا شك أن البر كلمة جامعة لكل أبواب الخير ، سواء في معاملة الوالدين والأبناء ، أو في معاملة الناس جميعاً ، وأعلى من ذلك كله صدق طاعة الله عز وجل.

وقد مضىٰ في حديث الإمام مسلم عن النواس ، عن النبي ﷺ قال: [البِرُّ حُسْنُ الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرِهت أن يطلع عليه الناس][1].

وفي المسند للإمام أحمد ، بسند صحيح ، من حديث أبي ثعلبة ، عن النبي ﷺ قال: [البِرُّ ما سكنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ، ولم يطمئن إليه القلب ، وإن أفتاك المفتون][2].

199 - 200. **قوله تعالىٰ**: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ثناء الله تعالىٰ على من صدق من أهل الكتاب وكان بمحمد ﷺ من

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2553) ، والترمذي. انظر صحيح الجامع (2877) ، وقد مضىٰ.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند بإسناد صحيح من حديث أبي ثعلبة. انظر تخريج المشكاة (2774) ، وتخريج الترغيب (3/ 16) ، وصحيح الجامع (2878).

المؤمنين ، وترغيب لأهل الإيمان بالصبر والمصابرة والمرابطة حتىٰ ينزل نصر الله المبين.

أخرج البزار والطبراني بسند جيد عن أنس رضي الله عنه: [أن النبي ﷺ صلىٰ على النجاشي حين نُعِيَ. فقيل يا رسول الله: تصلي على عبد حبشي! فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية][1].

فالآية إخبار عن بعض أهل الكتاب أنهم على منهج الإيمان بالله ، وما أنزل على محمد ﷺ ، قد جمعوا ذلك إلى إيمانهم برسلهم وكتبهم مع الخشية لله ، ولا يكتمون ما علموا من كتبهم من نبوة محمد ﷺ ووجوب اتباعه ، فهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم ، ولهم الجزاء الأوفىٰ يوم القيامة. قال مجاهد: (﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب).

وفي التنزيل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: 52 ـ 54].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين. ـ فذكر منهم: ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وآمن بي][2].

وقوله: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾. قال ابن زيد: (الخاشع ، المتذلل لله الخائف). وقد نصب قوله ﴿خَاشِعِينَ﴾ على الحال من ﴿يُؤْمِنُ﴾.

وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. أي: لا يحرفون ما أنزل الله من الحق في نعت محمد ﷺ ووجوب اتباعه ، من أجل حظ الرياسة وعرض الدنيا البخس.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال مجاهد: (يعني: سريعَ الإحصاء).

---

(1) حديث إسناده جيد. رواه البزار والطبراني في الأوسط ، ورجال الطبراني ثقات. انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة آل عمران ، آية (199).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3011) ، ومسلم (154) ، وأحمد (4/ 402) ، وغيرهم.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾. قال ابن جريج: (اصبروا على الطاعة، وصابروا أعداء الله، ورابطوا في سبيل الله). وقال ابن عباس: (المرابطة: انتظار الصلاة بعد الصلاة).

وأصل الرباط ارتباط الخيل للعدو، ثم استعمل في كل مقيم في ثغر. يدفع عمن وراءه بأس عدوهم، ولا شك أن انتظار الصلاة بعد الصلاة في الجماعة رباط.

وقد جاء الثناء العطر في السنة الصحيحة على الرباط وأهله، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن سَهْل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: [رباطُ يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن سَلْمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه قال: [رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجْرِيَ عليه رزقُه، وأمِنَ الفَتَّان][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: [من مات مُرابطاً وُقِيَ فتنةَ القبر، وأمِنَ من الفزع الأكبر، وغُدِيَ عليه ورِيحَ برزقه من الجنة، وكُتِبَ له أجر المرابط إلى يوم القيامة][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي ريحانة عن النبي ﷺ قال: [حَرُمَت النار على عين دَمِعتْ ـ أو بكت ـ من خشية الله، وحَرُمَتِ النار على عين سهرت في سبيل الله][4].

وله شاهد عند الترمذي من حديث ابن عباس بلفظ: [عينان لا تصيبهما النار: عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرُسُ في سبيل الله].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2794)، ومسلم (1881)، وأحمد (3/ 433)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1913)، والنسائي (6/ 39)، والترمذي (1665)، وأحمد (5/ 440) من حديث سلمان رضي الله عنه.

(3) حديث حسن بشواهده. أخرجه أحمد في المسند (2/ 404). وإسناده حسن، وله شواهد.

(4) حديث حسن. أخرجه أحمد (4/ 134)، والطبراني في «الأوسط» (8736). ورجال أحمد ثقات. وصححه الحاكم (2/ 83) ووافقه الذهبي. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3991) من أجل الشاهد بعده، وكذلك الأحاديث: (3990)، (3992).

الحديث الخامس: أخرج الإمام مالك والنسائي وأحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباطُ، فذلكم الرِّباطُ، فذلكم الرِّباطُ][1].

وأورد ابن جرير بسنده عن زيد بن أَسْلَمَ قال: (كتب أبو عبيدةَ إلى عمر بن الخطاب، يذكُرُ له جُمُوعاً من الروم وما يتخوَّفُ منهم، فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدّة يجعل الله له بعدها فرجاً، وإنه لن يغلبَ عُسْر يُسْرَين، وإن الله تعالىٰ يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾)[2].

وذكر الحافظ ابن كثير في التفسير قال: (وقد روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك، من طريق محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة قال: أملىٰ عليَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسُوس، وَوَدّعته للخروج، وأنشدها معي إلى الفُضيل بن عياض في سنة سبعين ومئة، وفي رواية سنة سبع وسبعين ومئة.

يا عابدَ الحرمين لَوْ أَبْصَرْتَنا ... لعلمت أنك في العبادة تَلعَبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ خَدَّه بدمُوعه ... فنُحورُنا بدمائنا تَتَخضَّبُ
أو كان يُتْعِبُ خَيْلَه في باطل ... فخيُولنا يوم الصبيحة تتْعبُ
ريحُ العبير لكم ونحنُ عَبيرُنا ... رهج السَّنابِكِ والغبارُ الأطْيبُ
ولقد أتانا مِنْ مَقال نَبِيِّنَا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكْذِبُ
لا يستوي غُبَار خيل الله في ... أنفِ امرئٍ ودخان نار تَلْهبُ
هذا كتاب الله يَنْطِقُ بيننا ... ليسَ الشهيدُ بِمَيِّتٍ لا يَكْذِبُ

قال: فلقيتُ الفُضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذَرِفَت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن، ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قال:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مالك في ا لموطأ (1/ 261)، ومن طريقه أخرجه مسلم (251)، والنسائي (1/ 89)، ورواه أحمد في المسند (2/ 277)، وابن حبان (1038).

(2) حديث موقوف. أخرجه الطبري في «التفسير» ـ حديث رقم ـ (8393) بإسناد حسن. رجاله ثقات.

قلت: نعم. قال: فاكتب هذا الحديث كِرَاءَ حَمْلِك كتاب أبي عبد الرحمن إلينا. وأملىٰ عَلَيَّ الفُضيل بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، عَلِّمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله. فقال: هل تستطيع أن تُصَلِّي فلا تَفْتُر، وتصوم فلا تفطر؟ فقال: يا رسول الله، أناأضعف من أن أستطيع ذلك. ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده، لو طُوِّقْتَ ذلك ما بلغتَ المجاهدين في سبيل الله، أو ما عَلِمْتَ أن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ[1] في طِوَلِهِ، فيكتب له بذلك الحسنات»[2])[3].

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾. هو أمر من الله لعباده المؤمنين، فلا فلاح لهم بدون منهاج التقوىٰ في كل أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم.

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي ذر، قال رسول الله ﷺ: [اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن][4].

وفي مسند الطيالسي وصحيح ابن حبان من حديث جابر بن سليم، عن النبي ﷺ قال: [اتق الله، ولا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تُفْرِغ من دلوك في إناء المستسقي، وأن تلقىٰ أخاك ووجهك إليه منبسطٌ، وإياك وإسبالَ الإزار، فإن إسبالَ الإزار من المخيلة، ولا يحبها الله، وإن امرؤٌ شتمك وعيرك بأمر ليس هو فيكَ، فلا تعيره بأمر هو فيه، ودعْهُ يكون وبالُه عليه، وأجرُه لكَ، ولا تسبّنَّ أحداً][5].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. أي: لتفلحوا فتخلدوا في نعيم الآخرة، وتتجاوز عقبة الهلاك والشقاء. فإن الفلاح كل الفلاح في التمسك بالإسلام في الدنيا، والفوز برضىٰ الله في الآخرة.

---

(1) يستنّ في طِوَلِهِ: يمرح في الطول. وقال أبو عبيدة: الاستنان أن يُحضر وليس عليه فارس.

(2) إسناده لا بأس به، محمد بن إبراهيم، وثقه ابن حبان، ومن فوقه رجال الصحيح، وأصله في الصحيحين. انظر: مختصر صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير ـ حديث رقم ـ (1146).

(3) انظر تفسير ابن كثير ـ آخر سورة آل عمران، تحقيق ـ عبد الرزاق المهدي.

(4) حديث حسن. رواه أحمد في المسند، ورواه الترمذي في الجامع (1987) من حديث أبي ذر. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (96).

(5) حديث صحيح. رواه الطيالسي (1208) من حديث جابر بن سليم، وروىٰ أحمد نحوه (5/ 63). وانظر: السلسلة الصحيحة (770).

أخرج الطبراني والحاكم عن فضالة بن عبيد ، عن النبي ﷺ قال : [أفلح من هُدِي إلى الإسلام ، وكان عيشُه كَفَافاً ، وَقَنِعَ به][1] .

وهذا آخر تفسير سورة آل عمران ، ولله الحمد والمنة ، ونسأله الموت على الكتاب والسنة . . . اللهم آمين .

تم تفسير سورة آل عمران
بعون الله وتوفيقه ، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح . أخرجه الحاكم (4/ 122) ، والترمذي (2/ 56) . وانظر المرجع السابق (1506) .

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ الحروف المقطعة أوائل السور تفيد الإعجاز لهذا القرآن العظيم.

2 ـ اسم الله الأعظم في آية الكرسي وأول آل عمران وفي سورة طه.

3 ـ منهاج المؤمنين في فهم القرآن برد المتشابه إلى المحكم في الكتاب والسنة.

4 ـ حبُّ النساء للإعفاف والأولاد، والخيل أجر ووزر وستر.

5 ـ التوسل بالأعمال الصالحة مشروع، أما بذوات المخلوقين فممنوع.

6 ـ نزول الله تعالىٰ آخر الليل إلى السماء الدنيا حقيقة بلا كيف.

7 ـ لا يقبل الله ديناً غير الإسلام، والسماع بالرسول الأعظم يوجب المتابعة والإيمان، ومن كفر فموعده صلي النيران.

8 ـ التقية باللسان لا بالعمل، وهي باقية إلى يوم القيامة.

9 ـ محبة الله تعالىٰ يصدقها محبة نبيِّه ﷺ ومتابعة هديه.

10 ـ كرامة الأولياء حق، وهي ما وافق نصوص الشريعة الإسلامية.

11 ـ مريم بنت عمران من أكمل نساء العالمين، طهراً وكرامة وتقوىٰ.

12 ـ نصارىٰ نجران أول من أدىٰ الجزية إلى رسول الله ﷺ.

13 ـ اليهود يكتمون صفة محمد ﷺ في التوراة ووجوب الإيمان به، ويزعمون كذباً حل أموال العرب، ويكذبون على الله وهم يعلمون.

14 ـ الكافر لا ينتفع بما عمل من الخير في الآخرة، وإنما يقتصر انتفاعه بذلك على الدنيا. وأما المؤمن فينتفع بالعمل الصالح بالرزق في الدنيا والثواب في الآخرة.

15 ـ الحج ركن من أركان الإسلام ، وعلى المسلم المستطيع التعجل إلى الحج ، والاستطاعة : صحة البدن وملك الزاد والراحلة وأمن الطريق والمحرم للمرأة .

16 ـ هذه الأمة خير الأمم ، ما أقامت منهاج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

17 ـ أمة محمد ﷺ ثلثا أهل الجنة ، وهم أكثر أتباع الأنبياء .

18 ـ الولاء والبراء أصل من أصول الإيمان عند المؤمنين ، يمنعهم من اتخاذ بطانة من المنافقين أو الكافرين .

19 ـ تأخير النصر عن المسلمين ، هو نتيجة المعاصي ومخالفة أمر الرسول الكريم .

20 ـ سنة الله في الرسل أن تُبتلىٰ ولهم العاقبة .

21 ـ الشهادة في سبيل الله من أعلىٰ مراتب الأولياء فساقها إليهم .

22 ـ النعاس في الجهاد من الله تعالىٰ ، وفي الصلاة من الشيطان .

23 ـ أرواح الشهداء في أجواف طير خضر في الجنة ، ونسمة المؤمن طائر فيها .

24 ـ استدراج الله الكفار بالخيرات إنما هو شر لهم .

25 ـ إفشاء العلم واجب على العلماء ، وإنما كتمانه كان صفة للأحبار والرهبان الأشقياء .

26 ـ التفكر في خلق السماوات والأرض يثبت الإيمان ، ويقوي لدىٰ المؤمن الحجة والبرهان .

27 ـ الابتلاء حق ، وجزاء الأذىٰ في الله والهجرة إليه الجنة .

28 ـ أهل الكفر في الأرض في فتنة ومكر وغرور ، وأهل الإيمان في صبر وشكر وأمل بنصر من الله وسرور .

29 ـ المؤمن من أهل الكتاب بنبيّه ثم بمحمد ﷺ له أجران .

30 ـ الصلاة رباط المسلم في السلم ، والجهاد رباط على الثغور في الحرب ، وجزاء تقوىٰ الله في الرخاء والشدة الجنة .

❑ ❑ ❑



وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (176) .

فضلها وما ورد في ذكرها:

لقد ورد ذكر هذه السورة الكريمة في أحاديث من السنة الصحيحة:

الحديث الأول: روى مسلم في صحيحه عن حذيفة قال: [صَلَّيْتُ مع النبي ﷺ ذات لَيْلَةٍ ، فافتتح البقرة فقلت[1]: يركعُ عندَ المئةِ ، ثم مضى ، فقلت: يُصَلي بها في ركعة ، فمضى فقُلت: يَرْكَعُ بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مُتَرَسِّلاً ، إذا مَرَّ بآية فيها تَسْبيحُ سَبَّحَ ، وإذا مَرَّ بسؤالٍ سألَ ، وإذا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثم رَكَعَ فجعل يقول: «سبحان ربي العظيم» فكان ركوعه نحواً من قِيامه ثم قال: «سمع الله لمن حمده» ثم قام طويلاً ، قريباً مما ركَعَ ، ثم سَجَدَ فقال: «سبحان ربي الأعلى» فكان سجوده قريباً من قيامه][2] .

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال: [قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ عليَّ» ، قلت: أقرأ عليكَ وعليكَ أُنزل؟ قال: «فإني أُحِبُّ أن أسمعه من غيري» ، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

---

(1) فقلت: أي في نفسي ، يعني ظننت أن يركع عند مئة آية .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (772) ـ كتاب صلاة المسافرين ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل . ح (203) ، وانظر كذلك ح (204) .

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «أَمْسِك» ، فإذا عيناه تَذْرِفان][1].

ورواه الترمذي وفي آخره: [فَرَأَيْتُ عَيْنَي النبي ﷺ تهملان].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله قال: [أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ عليه، وهو على المنبر، فقرأت عليه من سورة النساء، حتى إذا بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41] غمزني رسول الله ﷺ بيده، فنظرت إليه وعيناه تدمعان][2].

موضوع السورة

العلاقات الأسرية وبر الوالدين وصلة الأرحام، والأحكام الشرعية المتعلقة بالنساء، وتشريعات خاصة في الصلاة والجهاد ومنهاج الولاء والبراء.

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ أَمْرُ الله تعالىٰ عباده بالتقوىٰ وصلة الأرحام، فهو سبحانه الرقيب عليهم، ويحصي أعمالهم.

2 ـ تنبيه الولي إن أراد نكاح يتيمته أن يعطيها مهر مثلها ولا يبخس حقها.

3 ـ وجوب العدل بين الزوجات، ولا زواج فوق أربع، وتحريم أكل المهور.

4 ـ النهي عن جعل الأموال بيد السفهاء يفسدون فيها. والسفهاء هم المجانين والصغار وقليلو الدين والجهلة بمواضع المصالح والمضار.

5 ـ ولي اليتيم الغني يستعفف، والفقير يأكل بالمعروف.

6 ـ إبطال عادات الجاهلية بعدم توريث النساء والأطفال والأمر بتوريثهم.

7 ـ أقصىٰ الوصية الثلث، وآكل مال اليتيم ظلماً إنما يأكل ناراً.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4582) ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء، آية (41). وانظر صحيح سنن الترمذي عقب الحديث (2421) ـ سورة النساء، آية (41).

(2) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2421)، سورة النساء، آية (41).

8 ـ القسمة الشرعية للميراث: للذكر مثل حظ الأنثيين ، والنساء فوق اثنتين لهن الثلثان ، وإن واحدة فلها النصف ، وللرجال نصف ما ترك أزواجهم إن لم يكن لهن ولد وإلا فالربع. وللنساء الربع مما ترك الأزواج إن لم يكن لهم ولد وإلا فالثمن ، والدَّين مقدم على الوصية.

9 ـ مفهوم الكلالة ، ولا وصية لوارث ، والإضرار بالوصية من الكبائر.

10 ـ حد الزنا كان الحبس في البيوت ، فنسخ إلى الجلد أو الرجم.

11 ـ حد عمل قوم لوط: قتل الفاعل والمفعول به.

12 ـ لا توبة عند الغرغرة ، ومن مات على كفره لا ينفعه ندم ولا توبة.

13 ـ النهي عن استرداد المهر بعد المفارقة ، والنهي عن نكاح ما نكح الآباء ، وعن الجمع بين الأختين ، والتحذير من الاقتراب من مدارج الزنىٰ.

14 ـ الرضاعة المحرّمة: خمس رضعات ، وهي تحرم ما يحرّم النسب والولادة.

15 ـ الربيبة حرام ، وزوجات الأبناء من الأصلاب حرام ، وذوات الأزواج محرمات ، إلا السبايا فحلال بعد الاستبراء.

16 ـ الحلال من النساء ، ما وراء ما ذكر من المحرمات.

17 ـ تخفيف الله عنا بإباحة نكاح الإماء لضعفنا ، ونكاح الأمة بإذن سيدها ، وحدّ المملوك نصف حد الحر ولا رجم عليه.

18 ـ النهي عن أكل الأموال بالحيلة والمكر ، والنهي عن ضرب النفس بحديدة أو تحسي السّم انتحاراً أو تدجيلاً ، واجتناب الكبائر يكفر الصغائر.

19 ـ النهي عن تمني ما بيد الآخرين من النعم ، والترغيب بسؤال الله من فضله وعطائه.

20 ـ نسخ توارث المهاجري الأنصاري والحليف حليفه ، إلى التوارث بالقرابة.

21 ـ التدرج في معالجة نشوز الزوجة: الوعظ ، والهجر ، والضرب غير المبرح.

22 ـ تنفيذ الحكمين ما يريانه من المصلحة توفيقاً أو تفريقاً.

23 ـ الترغيب ببر الوالدين ، والإحسان إلى الجار ، والتحذير من البخل وقطيعة الرحم ، والله يضاعف الحسنات ، ويهلك الكفار يوم القيامة بالحسرات والسيئات.

24 ـ النهي عن اقتراب السكران الصلاة ، تمهيد لتحريم الخمر.

25 ـ جواز مرور الجنب والحائض في المسجد عبور سبيل.

26 ـ إباحة التيمم لفقدان الماء في الحضر والسفر، ولخوف ازدياد المرض.

27 ـ المقصود من ﴿لامستم النساء﴾ الجماع، ولمس الأجنبية لا ينقض الوضوء.

28 ـ اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه، ويتلاعبون بالألفاظ ويقصدون غير ما يتلفظون.

29 ـ الشرك أعظم الظلم، والله لا يغفر الشرك وقد يغفر ما دون ذلك.

30 ـ الطاغوت ما عبد من دون الله برضاه، واليهود يحسدون العرب على النعمة العظمىٰ ـ نبوة محمد ﷺ الرسول العربي ـ، والكفار تبدل وجوههم في النار كلما نضجت.

31 ـ الأمر بأداء الأمانات إلى أصحابها والحكم في الناس بالعدل، والرسول يرد مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة.

32 ـ الطاعة في المعروف، وأما المعصية فلا سمع ولا طاعة، ووجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة، وجزاء من يطع الله ورسوله مرافقة الأنبياء والصديقين والصالحين والشهداء في الجنة.

33 ـ القتال شرع بالمدينة وقد كانوا يتمنونه أيام الضعف في مكة، فلما كتب عليهم وجد بعض المؤمنين جزعاً فثبتهم الله وأعانهم.

34 ـ طاعة رسول الله طاعة لله، ومعصيته معصية لله.

35 ـ أمْرُ الله رسوله بتحريض المؤمنين على الجهاد ليكف بأس الكافرين.

36 ـ رد السلام على المؤمنين فريضة، وإفشاء السلام دليل المحبة.

37 ـ النهي عن اتخاذ المنافقين أولياء، والاستنصار بهم على الأعداء.

38 ـ قتل الخطأ فيه تحرير رقبة مؤمنة ودية إلى أهله.

39 ـ تفصيل أحكام الديات: المسلم، الكافر، قتل العمد، الكفارة. وأولياء الدم مخيرون بين القتل والعفو والدية.

40 ـ إظهار الإيمان يمنع من المسارعة بالقتل، أو الاتهام بالكذب.

41 ـ معذرة أولي الضرر عن الجهاد ، وفضيلة المجاهدين على القاعدين .

42 ـ النهي عن مساكنة المشركين ، والأمر بالهجرة إلى دار الإسلام ، واستثناء المستضعفين ، وأجرهم إن ماتوا حسب نياتهم .

43 ـ تشريع قصر الصلاة في السفر ، والله تعالى يحب أن تؤتىٰ رخصه كما يحب أن تؤتىٰ عزائمه .

44 ـ تشريع صلاة الخوف : للإمام ركعتان ، ولكل طائفة ركعة ركعة .

45 ـ وقت الصلاة كوقت الحج ، لا تجوز بعد فواته ، فويل لمؤخريها .

46 ـ الرسول لا يعلم ما في القلوب ، بل يحكم بالظاهر ، والله يطلع على القلوب ، ويغفر الذنوب ، فمن تاب تابَ الله عليه ، ومن يقترف خطيئة ثم يرم بها بريئاً فله عذاب أليم .

47 ـ ترك سنة الرسول ومنهاج المؤمنين ، مآل أهله إلى الجحيم .

48 ـ المشركون جعلوا لله البنات وعبدوها لتقربهم إليه زلفىٰ ، واستحسنوا ما زينه لهم الشيطان .

49 ـ الدعوى لا تحق حقاً ولا تبطل باطلاً إلا ببرهان من الله .

50 ـ كل ما يصاب به المسلم كفارة حتىٰ الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها .

51 ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ بلغ مرتبة الخلة ، وكذلك نبينا محمد ﷺ وصلها ، وقد وفى .

52 ـ النهي عن عضل اليتامىٰ اللاتي في حجور المؤمنين ، فإما الزواج بهن أو تزويجهن .

53 ـ خوف المرأةِ نشوز زوجها فلا جناح عليها أن تسقط عن حقها .

54 ـ الأمر بالعدل بين النساء في المعاملة ، وأما ميل القلب فيعفى عنه .

55 ـ وصية الله بالتوحيد للأولين والآخرين ، والأمر بشهادة الحق ولو على النفس والوالدين والأقربين ، والموت على الكفر بعد التردد بين الإيمان والكفر مآل صاحبه إلى الجحيم .

56 ـ النهي عن الجلوس في مجلس يُستهزأ فيه بآيات الله ، ومن فعل ذلك فهو مثل المستهزئين ، والله سيجمع في العذاب بين المنافقين والكافرين ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، وما يفعل الله بعذاب عباده إن صدقوه الإيمان والإصلاح والعمل.

57 ـ لا يجوز الجهر بالسوء من القول ، أو دعاء أحد على أحد ، إلا من ظلم ، والعفو خير.

58 ـ الكفر بنبيٍّ واحد كفر بجميع الأنبياء.

59 ـ اليهود سألوا رسول الله نزول كتاب من السماء كما نزلت التوراة ، واحتالوا دوماً على ارتكاب ما حرم الله ، وقذفوا العذراء ، وكفروا بالمسيح ، وسعوا ليقتلوه ، وارتكبوا كل منكر في الأرض.

60 ـ الحواريون شاهدوا رفع المسيح ـ عليه السلام ـ إلى السماء حياً منزهاً مكرماً ، وفداه أحدهم بنفسه ممن شبهه فصلب مكانه ، وسينزل عيسىٰ من السماء إلى الأرض في دمشق وسيحكم بالإسلام ، ويقتل المسيح الكاذب الأعور الدجال ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام.

61 ـ الله يشهد وملائكته بما أنزل على محمد ﷺ ، والزبور نزل على داود ﷺ.

62 ـ النصارى غلوا في عيسىٰ حتىٰ عَبَدُوه ، واعتقدوا في أتباعه العصمة.

63 ـ عيسىٰ ﷺ خُلِق بكلمة «كن» ، وهو عبد الله ورسوله ، والله تعالى واحد لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد.

64 ـ المسيح نفسه لن يستنكف أن يكون عبداً لله فما بال هؤلاء يؤلهونه؟! والقرآن هو الدليل القاطع للعذر ، والحجة الخالدة المزيلة للشبه المبين الذي يضيء كل ما ظلم.

65 ـ الكلالة من ليس له ولد ولا والد ، وقد فصل الله حكم ذلك آخر السورة.

❑ ❑ ❑

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

1 . **قوله تعالى**: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

في هذه الآية: يأمر الله سبحانه عباده بالتقوى ويفتتح بذلك كلامه في هذه السورة، كما اختتمه في سورة آل عمران قبلها، حيث ختم كلامه بالأمر بالتقوى فإن فلاح العبد في الدنيا والآخرة منوط بها. ثم ينبه سبحانه على قدرته العجيبة في الخلق إذ خلق العباد كلهم من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام، وخلق حواء من ضلع منه، ثم بث منهما الذرية رجالاً ونساءً، ثم يؤكد سبحانه مرة أخرىٰ على التقوىٰ التي فيها سِرّ نجاة الخلق، وعلىٰ صلة الأرحام التي تحمل الرزق والسعادة للعباد، والله على كل شيء رقيب.

فعن قتادة: (﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، يعني آدم صلىٰ الله عليه).

وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾. قال مجاهد: (حواء، من قُصيرى[1] آدم وهو نائم، فاستيقظ فقال: «أثا» ـ بالنبطية، امرأة).

وقال قتادة: (يعني حواء، خلقت من آدم، من ضِلَع من أضلاعه).

وروى ابن أبي حاتم عن قتادة عن ابن عباس قال: (خلقت المرأة من الرجل، فجعلت نَهْمَتُها في الرجل وخُلِقَ الرجل من الأرض، فجعل نهمته في الأرض، فاحبسوا نساءكم).

(1) القُصيرىٰ والقُصرىٰ: أسفل الأضلاع، أو هي الضلع التي تلي الشاكلة بين الجنب والبطن.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن المرأة خُلِقَتْ من ضِلَع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها، وبها عِوَجٌ، وإن ذهبتَ تُقيمُها كَسَرْتَها، وكَسْرُها طلاقُها](1).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [استوصُوا بالنِّساء، فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ، وإن أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإن ذهبت تقيمُه كَسَرْتَه، وإن تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصوا بالنساء](2).

وقوله: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ يعني: ونشر منهما ـ من آدم وزوجته حواء ـ ذرية رجالاً كثيراً ونساءً على اختلاف أقطارهم وألوانهم وأجناسهم وألسنتهم.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، وأبو داود في السنن، بسند صحيح، عن أبي موسىٰ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ خلقَ آدم من قُبْضَةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمرُ، والأبيضُ، والأسودُ، وبين ذلك، والسَّهْلُ والحزْنُ، والخبيث والطيب، وبين ذلك](3).

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾. قال الضحاك: (يقول: اتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به). وقال ابن عباس: (تعاطفون به).

وقوله: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾. قال مجاهد: (يقول: أسألك بالله وبالرحم). يعني قول الرجل يسأل بالله وبالرحم. ومنه قول أبي سفيان لرسول الله ﷺ: [أنشُدُك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعني الوبر والدم]، ليدعو لهم ويستسقي لهم حين أصابهم ما أصابهم بعد حصار الشعب فأكلوا الجلود والميتة والجيف.

وقال السدي: (﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَالْأَرْحَامَ﴾، يقول: اتقوا الله، واتقوا الأرحام لا تقطعوها).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3643) طبعة دار السلام ـ الرياض، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء. من حديث أبي هريرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3331)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم وذريّته، وأخرجه مسلم (1466) من حديث أبي هريرة.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2955). انظر صحيح سنن الترمذي (2355). ورواه أحمد. انظر تخريج المشكاة (100)، وصحيح الجامع الصغير (1755).

والمعنىٰ الراجح لهذه الآية: اتقوا الله الذي تساءلون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها. أخرج ابن عساكر بسند حسن عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: [اتقوا الله ، وصلوا أرحامكم][1].

ورواه الطبراني عن جابر وزاد: [فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم].

ورواه ابن جرير عن قتادة وزاد: [فإنه أبقى لكم في الدنيا ، وخير لكم في الآخرة].

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالىٰ لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة ، من قطيعة الرحم والخيانة والكذب ، وإن أعجل الطاعة ثواباً لصلة الرحم ، حتىٰ إن أهل البيت ليكونوا فجرة ، فتنمو أموالهم ، ويكثر عددهم إذا تواصلوا][2].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. قال مجاهد: (حفيظاً). وقال ابن زيد: (رقيباً: على أعمالكم ، يعلمها ويعرفها). وفي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وفي حديث الإمام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسؤال جبريل للنبي ﷺ: أخبرني عن الإحسان؟ قال: [أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك][3].

قال ابن القيم رحمه الله: (المراقبة هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالىٰ على ظاهره وباطنه. قال: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحاً فاتهمه ، فإن الرب تعالىٰ شكور. يعني أنه لابد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا من حلاوة يجدها في قلبه وقوة انشراح وقرة عين ، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول)[4].

---

(1) حديث حسن. أخرجه ابن عساكر (16/ 74/ 2) ، وانظر السلسلة الصحيحة (869) وله شواهد ، وهو يصلح تفسيراً مباشراً لهذه الآية ـ آية النساء (1).

(2) حديث صحيح. وأخرجه ابن حبان (2038) ، وبنحوه عند أبي داود (2/ 301) ، وأحمد (5/ 36) ، وابن ماجة (2/ 552) ، وانظر السلسلة الصحيحة (917).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1/ 30) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (2) من حديث أبي هريرة بلفظ مشابه ، ورواه ابن ماجة بلفظ مقارب ، وهو جزء من حديث طويل.

(4) انظر كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان (1/ 280).

وقيل: (علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله ، وتعظيم ما عظم الله ، وتصغير ما صغر الله).

وقيل: (من راقب الله في خواطره عصمه في حركات جوارحه).

وقيل: (المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل).

وفي جامع الترمذي عن عبد الله بن عباس ، قال: [كنت خلف النبي ﷺ يوماً فقال: يا غلام إني أُعَلِّمُكَ كلمات: احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجِدْهُ تُجاهك ، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، . .] الحديث[1].

والخلاصة: فالمراقبة حالة في القلب المؤمن بأسماء الله وصفاته ، تحمله على تعظيم أوامره وحرماته واجتناب معاصيه ومسخطاته ، وإيثار رضاه على هوى نفسه وشهواته ، وخوفٌ سببه يقينه باطلاعه سبحانه على تصرفاته ، يدفعه إلى سياسة عمله بالعلم الذي يوصل إلى مرضاته.

ومن هنا قول بعض الصالحين: (إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب).

وقول أبي حفص لأبي عثمان النيسابوري: (إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك).

قلت: وهذه الآية قد كان النبي ﷺ يقرؤها في خطبة الحاجة أو خطبة النكاح. ففي صحيح مسلم من حديث المنذر بن جرير ، عن أبيه قال: [كنا عند رسول الله ﷺ في صدْرِ النّهار ، فجاءه قومٌ حفاةٌ عُراةٌ مجتابي النِّمار[2] أو العَباء ، متقلدي السيوف. عامّتُهم من مُضَرَ ، بل كُلُّهُمْ من مُضَرَ ، فَتَمَعَّرَ وجه رسول الله ﷺ لِمَا رأىٰ بهم من الفاقَةِ ، فدخل ثم خرج ، فأمَرَ بلالاً فأذّن وأقام ، فصلّى ثم خطب فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ . . . ﴾ إلى آخر الآية ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، . .] الحديث[3]. ثم حضّهم على الصدقة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2516). انظر صحيح سنن الترمذي (2043). وانظر تخريج المشكاة (5302) ، والمرجع السابق (1/ 281) لتفصيل مفهومه.

(2) أي خارقي أوساطها.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1017) ، كتاب الزكاة ، في الحث على الصدقة.

2 ـ 4. **قوله تعالى:** ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾﴾.

في هذه الآيات: أمر من الله بدفع الأموال المستحقة للأيتام إذا بلغوا الرشد، وتحذير من الاستهتار بها أو ضمها أو التلاعب بها، وترهيب من الوقوع في ظلم اليتامىٰ من النساء بنكاحهن دون القسط في مهورهن، فإن الله أباح غيرهن مثنىٰ وثلاث ورباع، وَرَغَّبَ في الاكتفاء بواحدة خشية الظلم، وأمَرَ بدفع المهور للزوجات فما سامَحْنَ به فكلوه هنيئاً مريئاً.

فقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾. قال مجاهد: (الحلال بالحرام). وقال إبراهيم: (لا تعط زيفاً وتأخذ جيداً). وقال الضحاك: (لا تعط فاسداً، وتأخذ جيداً).

وقد جاء تفسير آخر عن مجاهد: (لا تعجِّل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قدِّر لك). والأول أرجح واختاره ابن جرير. فالمعنىٰ: لا تستبدلوا أموالهم الحرامَ عليكم بأموالكم الحلال لكم. فقد كان أوصياء اليتامىٰ يأخذون الجيِّد من ماله ويجعلون مكانه لليتيم الرديء والخسيس.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾. قال مجاهد: (لا تأكلوا أموالكم وأموالهم، تخلطوها فتأكلوها جميعاً). يعني لا تخلطوا أموالهم بأموالكم فتأكلوها مع أموالكم.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾. قال ابن عباس: (إثماً عظيماً). وقال قتادة: (ظلماً كبيراً). يعني خلط أموال اليتامىٰ مع أموال الأوصياء إثم كبير.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: [أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها وكان لها عِذْقٌ، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ

خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ ـ أحسبه ـ شك من هشام بن يوسف ـ قال: كانت شريكته في ذلك العذق وفي ماله](1).

وفي صحيح البخاري عن عروة بن الزبير، أنه سأل عائشة عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾، قالت: [يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حِجْر وليِّها، تَشْرَكُه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وَليّها أن يتزوّجها بغير أن يُقْسِطَ في صَدَاقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهُوا أن ينكحوهُنَّ إلاّ أن يُقْسِطوا إليهن، ويبَلُغوا بهنَّ أعلى سُنَّتِهنَّ في الصداق، وأمِروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهُنّ. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127]. قال عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: 127] رغبة أحدكم عن يتيمته حين تكون قليلة المال والجمال، فنُهُوا أن يَنْكِحُوا مَنْ رغبوا في ماله وجماله من يتامىٰ النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كُنَّ قليلات المال والجمال](2).

وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. أي: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن ولا تقعوا في الظلم، ولكم أن ينكح أحدكم إن شاء ثنتين وإن شاء ثلاثاً وإن شاء أربعاً.

أخرج البيهقي بسند حسن عن ابن عمر: [أن غيلان بن سلمة كان عنده عشر نسوة فأسلم وأسلَمْنَ معه، فأمره النبي ﷺ أن يختار منهن أربعاً](3).

قال الشافعي: (وقد دلّت سنة رسول الله ﷺ المبيِّنَة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة).

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. قال ابن كثير: (أي: فإن خشيتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: 129]، فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة، أو

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4573). والعِذْق: النخلة. ورواه مسلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4574)، وأخرجه مسلم (3018)، والنسائي في «التفسير» (110). من حديث عروة بن الزبير عن خالته عائشة رضي الله عنها.

(3) حديث حسن. أخرجه البيهقي (7/ 183)، ورجال إسناده ثقات. وأخرجه الدارقطني (3/ 271)، وله شواهد عند النسائي وأحمد وابن حبان.

على الجواري السراري ، فإنه لا يجب قَسْمٌ بينهن ، ولكن يُستحب ، فمن فعل فحسن ، ومن لا فلا حَرَج).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾. قال مجاهد: (يقول: لا تميلوا). وقال الحسن: (العَوْل الميل في النساء). والمعنىٰ: ألا تجوروا وتظلموا.

وقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾. قال ابن عباس: (يعني بـ «النحلة» ، المهر).

وقال ابن جريج: (﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾: فريضة مسماة).

والمعنىٰ كما قال ابن جرير: (وأعطوا النساء مهورهن عطيّة واجبة ، وفريضة لازمة).

وقوله: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾. قال ابن زيد: (بعد أن توجبوه لهنّ وتُحلُّوه). يعني المهر. والمقصود: إن وهب لكم ـ أيها الرجال ـ نساؤكم شيئاً من مهورهن بعد أن عُيِّنَ ذلك لهن ، طيبة بذلك نفوسهن ، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾. قال قتادة: (ما طابت به نفساً في غير كَرْه أو هوان ، فقد أحَلَّ الله لك ذلك أن تأكله هنيئاً مريئاً).

ومعنىٰ ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ أي: دواء شافياً. من: «هنأت البعير بالقطِران» إذا جَرِب فعُولج به. والعرب تقول: أمرأني الطعام أي: انهضم. وقوله: ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ منصوب على الحال من الهاء في ﴿فَكُلُوهُ﴾.

5 ـ 6. قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾.

في هذه الآيات: نَهْيٌ من الله سبحانه عن تعريض الأموال للتلف والتصرف السيِّئ الهزيل بوضعها تحت تصرف السفهاء ، وأمْرٌ باختبار اليتامىٰ قبل دفع أموالهم إليهم عند سن الرشد ، وأنّ على ولي اليتيم الغني أن يستعفف ، وللفقير أن يأكل بالمعروف ، وأنه لابد من الإشهاد عند دفع الأموال إليهم لئلا يقع التجاحد يوماً ويدخل الشيطان.

فقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ ، المعني بالسفهاء عند المفسرين على أقوال:

1 ـ قال سعيد بن جبير: (اليتامىٰ والنساء). وقال الحسن: (لا تعطوا الصغار والنساء).

2 ـ قال مجاهد: (النساء والولدان). وقال قتادة: (أمر الله بهذا المال أن يخزن فتُحسن خِزانته ، ولا يملكه المرأة السفيهة والغلامُ السفيه).

3 ـ وقال مجاهد: (نهىٰ الرجال أن يعطوا النساء أموالهم ، وهنّ سفهاء مَنْ كُنَّ أزواجاً أو أمهات أو بنات).

4 ـ قال أبو هريرة: (هم الخدم ، وهم شياطين الإنس) رواه ابن أبي حاتم عن معاوية بن قرّة عنه.

قلت: والسفيه هنا الضعيف التصرف ، المستحق الحجرَ بتضييعه ماله وفساده وإفساده وسوء تدبيره ، ويشمل كل من كانت هذه صفته.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [ثلاثة يدعون الله عز وجل فلا يُستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخُلق فلم يطلقها ، ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه ، ورجل آتىٰ سفيهاً ماله ، وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾][1].

وقوله: ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾. قال ابن عباس: (بمعنىٰ: قوامكم في معايشكم). وقال الحسن: (قيام عيشك). وقال السدي: (فإن المال هو قيام الناس ، قِوام معايشهم. يقول: كن أنت قيم أهلك ، فلا تعط امرأتك وولدك مالك ، فيكونوا هم الذين يقومون عليك).

وقوله: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾. قال مجاهد: (أمروا أن يرزقوا سفهاءهم ـ من أزواجهم وأمهاتهم وبناتهم ـ من أموالهم). وقال ابن عباس: (أنفقوا عليهم). وقال السدي: (يقول: أطعمهم من مالك واكسهم).

وقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾. قال مجاهد: (أمروا أن يقولوا لهم قولاً معروفاً في البر والصلة). وقال ابن جريج: (عِدَةً تعدهم) يعني نحو قولك لهم: إن صلحتم ورشدتم سلمنا لكم أموالكم لتديروها بأنفسكم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 302) ، وابن جرير في «التفسير» (8546). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1805) ، وصحيح الجامع الصغير (3070) ، وله طرق.

وقوله: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾. قال ابن زيد: (اختبروه في رأيه وفي عقله كيف هو. إذا عُرف أنه قد أُنِسَ منه رُشد، دفع إليه ماله. قال: وذلك بعد الاحتلام).

وقال ابن عباس: (﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ﴾، قال: عند الحلم).

وقال الحسن: (﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ قال: رشداً في الدين، وصلاحاً، وحفظاً للمال). وقال مجاهد: (العقل). وقال ابن جريج: (صلاحاً وعلماً بما يصلحه).

والخلاصة: سن البلوغ يكون عند الحلم ـ كما ذهب الجمهور من العلماء ـ وبه ينتهي اليتم وسن الطفولة.

أخرج أبو داود بسند حسن عن علي قال: [حفظت من رسول الله ﷺ: لا يُتْمَ بعد احتلام، ولا صُمَاتَ يوم إلى الليل][1].

ويعرف الحُلُم بالاحتلام ـ وهو أن يرىٰ في منامه الماء الدافق الذي يكون منه الولد ـ، كما يعرف بالشعر الخشن ينبت حول الفَرْج، كما يعرف بسن الخامسة عشرة. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: [عُرِضت على النبي ﷺ يوم أُحُد وأنا ابن أربع عشرة فلم يُجِزْني، وعُرِضتُ عليه يومَ الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني][2].

قال عمر بن عبد العزيز ـ لما بلغه هذا الحديث ـ: (إن هذا الفرق بين الصغير والكبير).

وفي لفظ ابن ماجة: (هذا فصل ما بين الصغير والكبير).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود والترمذي بسند حسن عن عَطِيَّة القُرَظيِّ قال: [عُرِضنا على النبي ﷺ يوم قُريظة، فأمر من ينظر من أنبت، فكان من أَنْبَتَ قُتِل، ومن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2873) في السنن. انظر صحيح أبي داود (2497).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2664)، ومسلم (1868)، وأبو داود (4406)، وغيرهم.

لم يُنْبِتْ خُلِّيَ سبيله ، فكنت فيمن لم ينبت فَخُلِّي سبيلي][1] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد وأبو داود والنسائي بسند جيد عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال: [رفِعَ القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتىٰ يحتلم ـ أو يستكمل خمس عشرة سنة ـ وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتىٰ يُفِيقَ][2] .

وفي الأثر عند أبي عُبيد القاسم بن سلام قال: حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن إسماعيل بن أميَّة، عن محمد بن يحيىٰ بن حبّان ، عن عمر: (أن غلاماً ابتهرَ جارية في شِعْرِه ، فقال عمر رضي الله عنه: انظروا إليه. فلم يُوجَد أنْبَت، فدَرَأَ عنه الحدَّ. قال أبو عُبيد: ابتهَرَها أي: قذفها ، والابتهار أن يقول: فعلت بها ، وهو كاذب ، فإن كان صادقاً فهو الابتيار)[3] .

وقوله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴾ . قال ابن عباس: (يعني: أكل مال اليتيم مبادراً أن يبلغ ، فيحول بينه وبين ماله). والتقدير: لا تأكلوها مبادرة كِبرهم ، فأنْ في محل نصب. والآية تنهىٰ عن المبادرة بأكل أموال اليتامىٰ قبل بلوغهم للاستفادة منها ومنعهم من ذلك.

وقوله: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ .

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: [في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ أنها نزلت في مال اليتيم إذا كان فقيراً فإنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف][4] .

وفي لفظ مسلم: [أنزلت في والي مال اليتيم الذي يقوم عليه ويُصلحه ، إذا كان محتاجاً أن يأكل منه].

وله شاهد عند الإمام أحمد بسند جيد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: [أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال ولي يتيم؟ فقال: كُلْ من مال يتيمك غير

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4404) ، والترمذي (1584) ، والنسائي (6/ 155) وابن ماجة (2541). وعطية صحابي صغير. وكان ذلك لما حكم فيهم سعد بن معاذ بقتل مقاتلهم وسبي ذراريهم ، فقال له النبي ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات.

(2) حديث إسناده جيد. أخرجه أبو داود (4398) ، والنسائي (6/ 156) ، وأحمد (6/ 144).

(3) انظر تفسير ابن كثير ـ سورة النساء ، آية (6). وعزاه لأبي عبيد في كتاب الغريب.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4575) ـ كتاب التفسير ـ وأخرجه مسلم (3019) فيه.

مُسْرف ولا مُبَذِّر ولا مُتَأَثِّلٍ مالاً ، ومن غير أن تَقِيَ مالك ـ أو قال: تَفْدِي مالك ـ بماله][1] .

وشاهد آخر عند أبي داود والنسائي عنه بلفظ: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن عندي يتيماً له مال وليس لي مال ، آكل من ماله؟ قال: كُلْ بالمعروف غير مُسرف][2] .

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ ، أي: فأشهدوا على الأيتام دفعكم إليهم أموالهم واستيفاءهم ذلك منكم. وهو أمر من الله سبحانه لئلا يقع التجاحد يوماً ويدخل الشيطان.

قال ابن عباس: (إذا دفع إلى اليتيم ماله ، فليدفعه إليه بالشهود ، كما أمره الله تعالىٰ).

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ . قال السدي: (شهيداً).

قال ابن كثير: (أي: وكفىٰ بالله محاسباً وشهيداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام ، وحال تسليمهم للأموال ، هل هي كاملة موفَّرة أو منقوصة مَبْخوسة مدخلة مُرَوَّج حسابها مُدَلَّس أمورها؟ الله عالم بذلك كله.

ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر ، إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أُحِبُّ لنفسي ، لا تأمَّرَنَ على اثنين ، ولا تَلِيَنَّ مال يتيم»[3]).

7 ـ 10. قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ

(1) إسناده جيد. أخرجه أحمد في المسند (2/ 186) ، وله شواهد ، وانظر ما بعده.
(2) إسناده قوي. أخرجه أبو داود في السنن (2872) ، والنسائي (6/ 256) ، ورواه أحمد (2/ 215).
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1826) ، وأبو داود (2868) ، والنسائي (6/ 255).

قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ أن للذكور من أولاد الرجل إذا مات حصة من ميراثه، وكذلك للإناث حصة منه، من قليل ما خلّف بعده وكثيره، وهي حصة مفروضة واجبة معلومة. وإذا حضر هذه القسمة الفقراء ممن لا يرث من القرابة، واليتامىٰ والمساكين، فإن إكرامهم أمر يحبه الله ويجزي به. ثم ليتق الله كل من يوصي أن يضرّ بأحد من الورثة أو بأموال اليتامىٰ فإنه كما يحب لذريته من بعده، كذلك عليه أن يحسن في معاملة من وَلِيَ أَمْرَه. إن الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من أموال اليتامىٰ إنما يأكلون في بطونهم النار مقابل استهتارهم والعياذ بالله.

فعن قتادة، قال: (كانوا لا يُوَرِّثون النساء، فنزلت: ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾). وقال سعيد بن جبير: (كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورِّثون النساء ولا الأطفال شيئاً، فأنزل الله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ...﴾... الآية).

وقوله: ﴿نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا﴾. قال الفراء: (هو كقولك: قسماً واجباً، وحقاً لازماً، فهو اسم في معنىٰ المصدر فلهذا انتصب). وقال الزجاج: (انتصب على الحال).

وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾.

المعنىٰ ـ كما قال الحافظ ابن كثير ـ: (أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون، واليتامىٰ والمساكين قسمة مال جزيل، فإن أنفسهم تتوقُ إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ، وهم يائسون لا شيء يُعطونه، فأمر الله تعالى، وهو الرؤوف الرحيم: أن يُرْضَخَ لهم شيءٌ من الوسَط يكون براً بهم وصدقة عليهم، وإحساناً إليهم، وجَبْراً لكسرهم).

قلت: وقد خاض الناس فيما سبق في هذه الآية: مِنْ قائل إنها منسوخة بآية المواريث، ومن قائل: إنها محكمة. والصواب ما ذكر البخاري عن عكرمة، عن ابن عباس: (﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينُ﴾. قال: هي محكمة، وليست بمنسوخة). وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: (هي قائمة يعمل بها). وقال مجاهد: (هي واجبة على أهل الميراث ما طابت به أنفسهم).

قلت: والآية تشبه قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ

إن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]. فهذه أيضاً ليست بمنسوخة، إنما الواجب على الموصي أن يترك شيئاً من الثلث لفقراء أرحامه وأقاربه الذين لا يرثون.

أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند حسن، عن سلمان بن عامر، عن النبي ﷺ قال: [الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنتان: صدقة وصلة][1].

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

فيه تفسيران: الأول ـ أن يخاف من يحضر الميت أن يأمره بتفريق ماله فيمن لا يرثه وحرمان مستحقه.

قال ابن عباس: (هذا في الرجل يَحْضُرُه الموت، فَيَسْمَعُهُ رجل يوصي بوصية تضرّ بورثته، فأمر الله تعالىٰ الذي يَسْمَعُه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضَّيعة). وهو قول مجاهد واختيار شيخ المفسرين.

أخرج البخاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [كنت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع، فمرضت مرضاً أشفيت منه على الموت، فعادني رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً، وليس يرثني إلا ابنة لي، أفأوصي بثلثي مالي؟ قال: لا. قلت: بشطر مالي؟ قال: لا. قلت: فثلث مالي؟ قال: الثلث، والثلث كثير. إنك يا سعد! أن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكففون الناس][2].

وأخرج الإمام أحمد والشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال: [وددت أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع في الوصية، لأن النبي ﷺ قال: الثلث كثير][3].

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (658)، والنسائي (5/ 92)، وابن ماجة (1844)، وابن خزيمة (2385)، ورواه أحمد (4/ 17) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، وصححه ابن حبان (3344) والحاكم. انظر صحيح الجامع (3752).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/ 132)، ومسلم (1628)، وأحمد (1524)، وأصحاب السنن. من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2029)، (2076)، والشيخان، والبيهقي (6/ 269) وغيرهم.

الثاني ـ قيل المراد بالآية: فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامىٰ ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا. حكاه ابن جرير عن العوفي عن ابن عباس.

والمقصود هنا أنه كما تحب لذريتك من بعدك، كذلك فعامل الناس في ذريتهم إذا وليتهم. وهذا تفسير حسن أيضاً، وخاصة أنه مؤيد بالآية التي بعده: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

قال الجمهور: (إن المراد الأوصياء الذين يأكلون ما لم يبح لهم من مال اليتيم) ذكره القرطبي. وقال ابن زيد: (نزلت في الكفار الذين كانوا لا يورّثون النساء ولا الصغار).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات][1].

11. قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآية: ذكرُ الله تعالى تفصيل القسمة الشرعية في المواريث، وذلك بعد أداء الديون عن الميت، فريضة من الله على عباده لا تجوز مخالفتها، والله هو العليم الحكيم.

أخرج البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: [عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رشَّ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2766)، و(5764)، وأخرجه مسلم برقم (89)، ورواه بعض أهل السنن.

عليّ ، فأفقت فقلت ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ، فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾][1] .

وأخرج الترمذي وأبو داود وابن ماجة والحاكم بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه قال: [جاءت امرأة سعد بن الربيع فقالت: يا رسول الله! هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً. فقال: يقضي الله في ذلك. فنزلت آية المواريث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عَمِّهما فقال: أعط ابنتي سعد الثلثين وأُمَّهُما الثمن وما بقي فهو لك][2] .

والآية أمر من الله بالعدل في القسمة للمواريث ، فقد كان أهل الجاهلية يجعلون الميراث للذكور ويحرمون منه الإناث ، فعاب الله عليهم هذا الظلم ، وبيّن سبحانه القسمة الشرعية العادلة ، فقال سبحانه:

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. قال البخاري: عن ابن عباس قال: (كان المال للولد ، وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع).

فجعل للذكر ضعف ما للأنثىٰ لاحتياج الرجل إلى المال أكثر من الأنثىٰ ، أثناء معاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، وتكلف المؤونة وما يقوم به أمر الأسرة.

وقوله: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ .

المقصود: إن ترك الميت من البنات أكثر من اثنتين فلبناته الثلثان من التركة ، دون سائر ورثته ، إذا لم يكن الميت خلّف ولداً ذكراً معهن.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ .

المعنىٰ: إن كانت المتروكة ابنة واحدة ليس معها غيرها من ولد الميت ذكر ولا أنثىٰ ، فإنها تستحق نصف الميراث.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4577) ، ومسلم (1616) ، وأخرجه ابن جرير (8733).

(2) حديث صحيح لغيره. أخرجه أبو داود (2891) ، والترمذي (2092) ، وابن ماجة (2720) ، وأحمد (3/ 352). وأخرجه الحاكم (4/ 334) وصححه ووافقه الذهبي.

وقوله: ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾.

المقصود: إن ترك الميت أولاداً، ذكوراً أو إناثاً، واحداً أو جماعة، فإنه يعطىٰ كل من والدي الميت السدس من تركته وما خلّف من ماله، سواءٌ فيه الوالدة والوالد، لا يزداد أحد منهما على السدس.

وقد فصّل هنا الفقهاء في أحوال الأبوين في الميراث:

1 ـ أن يجتمعا مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنتٌ واحدة، فرض لها النصف، ولكل واحد من الأبوين السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب.

أولاد + أبوان			**بنت واحدة + أبوان**		
أم $\frac{1}{6}$	أب $\frac{1}{6}$	الباقي للأولاد	أم $\frac{1}{6}$	أب $\frac{1}{6} + \frac{1}{6}$	وللبنت $\frac{1}{2}$

2 ـ أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث، ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض.

أبوان فقط	
أم $\frac{1}{3}$	أب $\frac{2}{3}$

فلو كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة الربع. وتأخذ الأم ثلث الباقي والأب يأخذ ثلثي الباقي. كما يوضح الجدول الآتي أ ـ ب.

أ ـ

زوج + أبوان		
الزوج $\frac{1}{2}$	الأم $\frac{1}{6} = \frac{1}{3} \times \frac{1}{2}$	الأب $\frac{1}{3} = \frac{2}{3} \times \frac{1}{2}$

ب ـ

زوجة + أبوان		
الزوجة $\frac{1}{4}$	الأم $\frac{1}{4} = \frac{1}{3} \times \frac{3}{4}$	الأب $\frac{1}{2} = \frac{2}{3} \times \frac{3}{4}$

وهذا قول عمر وعثمان وأصح الروايتين عن علي. وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء رحمهم الله: أن الأم تأخذ ثلث الباقي في الحالتين (أ، ب). ويأخذ الأب ثلثيه.

3 ـ اجتماع الأبوين مع الإخوة، وسواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم. فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيُفْرَض لها مع وجودهم السدس. فإن لم يكن وارث سواها وسوىٰ الأب. أخذ الأب الباقي. وحكم الأخوين كحكم الإخوة عند الجمهور.

إخوة + أبـــــوان	
الأم = $\frac{1}{6}$	الأب: الباقي

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾. قال قتادة: (أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك. وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم من الثلث لأن أباهم يلي نكاحهم والنفقة عليهم دون أمهم).

قال ابن جرير: (لا خلاف بين الجميع: أنْ لا ميراث لأخي ميت مع والده).

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾. قال مجاهد: (يبدأ بالدين قبل الوصية).

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن سعد بن الأطول: [أن أخاه مات وترك ثلاث مئة درهم. وترك عيالاً. فأردت أن أنفقها على عياله. فقال النبي ﷺ: إن أخاك مُحْتَبَسٌ بِدَيْنِهِ. فاقض عنه. فقال: يا رسول الله! قد أديت عنه إلا دينارين، ادعتهما امرأة وليس لها بينة. قال: فأعطها فإنها مُحِقّة][1].

وأخرج الترمذي وابن ماجة وأحمد بسند حسن عن علي قال: [قضىٰ رسول الله ﷺ بالدَّين قبل الوصية. وأنتم تقرؤونها: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾. وإن أعيان بني الأم ليتوارثون دون بني العَلّات][2].

وقوله: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾. قال مجاهد: (في الدنيا).

وقال ابن زيد: (أيهم خيرٌ لكم في الدين والدنيا، الوالد أو الولدُ الذين يرثونكم، لم يدخل عليكم غيرهم، فرضَ لهم المواريث، لم يأت بآخرين يشركونهم في أموالكم).

قال القاسمي في التفسير: (أي: لا تعلمون من أنفع لكم ممن يرثكم من أصولكم وفروعكم في عاجلكم وآجلكم. والمعنىٰ: فرض الله الفرائض، على ما هو، على حكمة. ولو وكل ذلك إليكم لم تعلموا أيهم أنفع لكم. فوضعتم أنتم الأموال على غير حكمة. والتفاوت في السهام بتفاوت المنافع. وأنتم لا تدرون تفاوتها. فتولىٰ الله ذلك فضلاً منه. ولم يكلها إلى اجتهادكم لعجزكم عن معرفة المقادير).

وقوله: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾. يعني ما ذكر من تفصيل المواريث هو فرض الله الذي حكم به وقضىٰ بينكم. ونصب ﴿فريضة﴾ على المصدر المؤكد. إذ معنىٰ ﴿يوصيكم﴾ يَفْرض عليكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾: أي: بكل شيء، من قسمة المواريث وغيرها، ﴿حكيماً﴾ في قسمته وتقديره وشرعه. والخبر منه سبحانه بالماضي كالخبر

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (2433). باب أداء الدين عن الميت. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (1973).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2122)، وابن ماجة (2715). باب الدين قبل الوصية. وأحمد (1/ 131)، والحاكم (4/ 336)، والبيهقي (6/ 267). وانظر صحيح ابن ماجة (2195). وقوله: «بالدين» أي: بأدائه قبل إخراج الوصية، و«أعيان بني الأم» ـ الأعيان: الإخوة لأب واحد وأم واحدة. مأخوذ من عين الشيء وهو النفيس منه. و«بني العلات» الإخوة لأب، من أمهات شتىٰ.

منه بالاستقبال. قال سيبويه: (إن الله عز وجل كان كذلك لم يزل على ما رأيتم) - أي: من الحكمة والعلم.

12. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢)﴾.

في هذه الآية: الخطاب للرجال أن لهم نصف ما ترك أزواجهم بعد وفاتهن عن غير ولد، فإن كان لهنَّ ولد ذكر أو أنثىٰ يوم يحدث بهن الموت فللرجال الربع مما تركن من مال وميراث، وذلك بعد قضاء الديون، وبعد إنفاذ وصاياهن الجائزة إن كن أوصين بها. وكذلك فإن للنساء الربع مما ترك الرجال إن لم يكن لهم ولد وإلا فالثمن، وذلك بعد قضاء الديون وإنفاذ الوصايا. وإن كان المتوفىٰ لا ولد له ولا والد وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك اشتركوا في الثلث، وذلك بعد قضاء الديون وإنفاذ الوصايا، وصية الله لكم معشر المؤمنين والله عليم حكيم.

فائـدة: سواء في الربع أو الثمن فإن الزوجة والزوجتين والثلاث والأربع يشتركن فيه.

فقوله: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ إلى قوله: ﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾. قال مجاهد: (يبدأ بالدين قبل الوصية).

أخرج الترمذي بسند حسن عن علي أنه قال: [إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضىٰ بالدين قبل الوصية، وأن

أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات ، الرجل يرث أخاه لأبيه وأمه ، دون أخيه لأبيه][1] .

وكذلك روىٰ الترمذي في الباب عن علي قال: [قضىٰ رسول الله ﷺ أن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات][2] .

قال أبو عيسىٰ: (والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم).

و«أعيان بني الأم» ـ مأخوذ من عين الشيء وهو النفيس منه. والأعيان: الإخوة لأب واحد وأم واحدة ، بخلاف «بني العلات» الإخوة لأب ، من أمهات شتىٰ.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾. ـ الكلالة: من لا ولد له ولا والد.

والكلالة: مشتقة من الإكْليل ، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، قال ابن كثير: (والمراد هنا من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه ، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق ، أنه سئل عن الكلالة ، فقال: أقول فيها برأيي ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه: الكلالة من لا ولد له ولا والد. فلما وَلي عمر قال: إني لأسْتَحي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه. كذا رواه ابن جرير وغيره).

ثم ذكر رواية ابن أبي حاتم في تفسيره عن طاووس قال: سمعت ابن عباس يقول: (كنت آخر الناس عهداً بعُمر ، فسمعته يقول: القولُ ما قلت ، وما قلتُ ، وما قلتُ. قال: الكلالة من لا ولد له ولا والد). وبه يقول علي ، وابن مسعود وقتادة وأهل المدينة والكوفة والبصرة والفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف.

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾. قال قتادة: (فهؤلاء الإخوة من الأم: إن كان واحداً فله السدس ، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ، ذكرهم وأنثاهم فيه سواء).

وقال أيضاً: (والكلالة الذي لا ولد له ولا والد ، لا أب ولا جد ، ولا ابن ولا ابنة ، فهؤلاء الإخوة من الأم). وكان سعد بن أبي وقاص يقرؤها: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً وله أخ أو أخت من أمه﴾ ذكره ابن جرير.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في أبواب الفرائض. انظر صحيح سنن الترمذي (1073) ـ باب ما جاء في ميراث الإخوة من الأب والأم ـ ، ورواه بنحوه ابن ماجة (2715).

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1704) ـ الباب السابق ، وإسناده حسن.

وقوله: ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ ﴾.

يروي ابن أبي حاتم بسنده عن الزهري قال: (قضىٰ عمر أن ميراث الإخوة من الأم بينهم، للذكر مثل الأنثىٰ. قال: ولا أرىٰ عمر قضىٰ بذلك حتىٰ علم ذلك من رسول الله ﷺ، ولهذه الآية التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ ﴾).

فائــدة (1): إخوة الأم لهم اختلاف عن بقية الورثة من وجوه:

1 ـ أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم.

2 ـ ذكورهم وإناثهم في القسمة سواء.

3 ـ لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة، فلا يرثون مع أب ولا جدّ، ولا ولدٍ ولا ولد ابن.

4 ـ لا يأخذون أكثر من الثلث مهما كثر عدد ذكورهم وإناثهم.

فائــدة (2): (المسألة المشتركة: زوج، وأم أو جَدّة، واثنان من ولد الأم، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين).

مذهب الجمهور: الزوج: $\frac{1}{2}$	الأم أو الجدة: $\frac{1}{6}$	ولد الأم: $\frac{1}{3}$ ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم. وهو مذهب عمر وعثمان ومالك والشافعي.

وقوله: ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾.

قال ابن عباس: (الإضرار في الوصية من الكبائر)[1].

وقوله: ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾. يعني: عهداً من الله إليكم، وهو العليم بمصالح خلقه، الحليم في ترك معاجلته عقوبتهم إذا ظلموا في القسمة لمواريثهم.

(1) أخرجه الدارقطني (4/ 151). وهو موقوف على ابن عباس، ولا يصح رفعه.

13 ـ 14. قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: بيان من الله أن تلك الأحكام هي حدود الله الواجب تعظيمها، فطاعته تعالىٰ تورث الجنان، ومعصيته وتجاوز حدوده يورث العذاب في النيران.

فعن ابن عباس: (﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ ﴾ يعني: طاعة الله، يعني المواريث التي سمىٰ الله).

وقال قتادة: (﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ ﴾، التي حدّ لخلقه، وفرائضه بينهم من الميراث والقسمة، فانتهوا إليها ولا تعدَّوها إلى غيرها).

فإن من أقامها كما أمر الله تعالىٰ وقسم، أدخله بساتين النعيم يوم القيامة تجري تحتها الأنهار فيكون بذلك قد حظي بالفوز العظيم الذي ليس يشبهه فوز ونعيم، وإن عصىٰ أمر الله ورسوله وخالف القسمة الشرعية عرّض نفسه لنار الجحيم والعذاب المهين.

15 ـ 16. قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: كانت عقوبة الزنا ـ الثابت بالبينة التامة ـ أول الإسلام حبس المرأة في بيت فلا تمكن من الخروج إلى أن تموت، حتىٰ نسخ الله ذلك بالجلد أو الرجم. وكذلك كانت عقوبة اللواط الإيذاء باللسان والضرب حتى نسخ ذلك بالقتل.

فعن ابن عباس: (﴿ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً

﴿مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ قال: كان الحكم كذلك حتىٰ أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد أو الرجم).

وقال الضحاك بن مزاحم: (﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ ، قال: الحدّ ، نسخ الحدّ: هذه الآية).

أخرج الإمام مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: [خذوا عني ، خذوا عني ، خذوا عني ، فقد جعل الله لهن سبيلاً ، البِكرُ بالبكرِ جَلْدُ مئة ونفي سنة ، والثيِّبُ بالثيِّبِ ، جَلْدُ مئةٍ والرجم][1].

وفي لفظ عند الإمام أحمد ـ قال عبادة بن الصامت: [كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثَر عليه وكُرِبَ لذلك وتَرَبَّد وجهه ، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم ، فلما سُرِّيَ عنه قال: خذوا عني ، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً ، الثيِّبُ بالثيِّب ، والبِكْرُ بالبِكْر ، والثيبُ جلد مئة ، ورَجْمٌ بالحجارة ، والبِكرُ جلد مئة ، ثم نفي سنة][2].

وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ﴾.

قال مجاهد: (نزلت في الرجلين إذا فعلا ، لا يَكْني ، وكأنه يريد اللواط).

وقال عكرمة وعطاء: (نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا).

وقال السدي: (نزلت في الفتيان من قبل أن يتزوجوا).

ووجه الجمع بين لفظي ﴿واللاتي﴾ ، ﴿واللذان﴾ كما قال مجاهد: (الآية الأولىٰ في النساء عامة محصنات وغير محصنات ، والآية الثانية في الرجال خاصة). فعقوبة النساء الحبسُ ، وعقوبة الرجال الأذىٰ. قال قتادة: (كانت المرأة تحبس ويؤذيان جميعاً ، وهذا لأن الرجل يحتاج إلى السعي والاكتساب).

والإيذاء كما قال ابن عباس: (النيل باللسان والضرب بالنعال). وقال السدي: (معناه التوبيخ والتعيير). قال ابن كثير: (وكان الحكم كذلك حتىٰ نسخه الله بالجلد أو الرجم).

قلت: ولا شك أن الآية تشمل الزنا واللواط. ويؤيد ذلك اللفظ ، قوله في الأولىٰ:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1690) كتاب الحدود ، باب حد الزنىٰ. وأخرجه أبو داود (4415) ، والترمذي (1434) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (7142) ، وأحمد (5/ 313) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (5/ 318) من طريق محمد بن جعفر به. وله شواهد.

﴿ مِن نِّسَآئِكُمۡ ﴾ ، وفي الثانية ﴿منكم﴾. قال السدي وقتادة وغيرهما: (الأولىٰ في النساء المحصنات. يريد: ودخل معهنّ من أحصِن من الرجال بالمعنىٰ. والثاني في الرجل والمرأة البِكرين). وقال مجاهد: (الرجلان الفاعلان ، لايكْني).

أخرج أبو داود والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ، قال: قال رسول الله ﷺ: [من رأيتموه يعملُ عملَ قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به](1).

وفي لفظ: (من وجدتموه) بدل: (من رأيتموه).

وقوله: ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ ﴾. أي: إن تابا من الفاحشة التي سقطا في حبائلها وشباكها وراجعا طاعة الله سبحانه وأصلحا دينهما فاصفحوا عنهما وكفوا عنهما الأذىٰ الذي أمرتم به قبل ، فلا تعنفوهما بكلام قبيح بعد التوبة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا﴾ يحب التوبة لعباده إذا رجعوا إليه فيغفر لهم ما مضىٰ وهو ذو رحمة ورأفة بهم.

قلت: ولا شك أن هذا إنما كان قبل نزول الحدود ، فلما نزلت الحدود نسخت هذه الآية. ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: [إذا زنت الأمةُ فتبيَّن زناها فليجلدها ولا يُثَرِّب. . .] الحديث(2).

17 ـ 18. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: لا يزال الله يغفر للعبد المنيب ما دامت روحه في جسده ، فإذا بلغت الحلقوم ولم يتب فقد فات الأوان. وكذلك الذين يموتون وهم كفار ، فإن وراءهم العذاب والخذلان.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4462) ، والترمذي (1456) ، وابن ماجة (2561).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2152) ، كتاب البيوع ، باب بيع العبد الزاني ، وانظر (2555).

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغِرْ][1] .

وفي المسند وصحيح الحاكم عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال: [إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أُغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني][2] .

وقد سمىٰ الله تعالى الوقوع بالذنب جهالة. قال مجاهد: (كل من عصىٰ الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتىٰ يَنزع عن الذنب). وقال ابن عباس: (من جهالته عمل السوء).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾. قال ابن عباس: (ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت).

وقال الضحاك: (ما كان دون الموت فهو قريب). وقال قتادة: (ما دام في صحته).

وقال الحسن: (ما لم يغرغر). وقال عكرمة: (الدنيا كلها قريب).

وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ .

فإنه إذا حشرج العبد بنفسه وعاين ملائكة ربه أقبلوا لقبض روحه ، وبلغت الروح الحلقوم وضاق بها الصدر ، فلا تقبل التوبة عندها فقد فات أوانها.

وفي التنزيل: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ـ وذلك لأهل الأرض إذا عاينوا طلوع الشمس من مغربها.

وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ﴾. قال ابن عباس: (أولئك أبعدُ من التوبة).

وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أي: أعددنا لهم عذاباً مؤلماً موجعاً.

---

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (3537) ، وابن ماجة (4253) ، وأحمد (2/ 132).

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 261) ، والبيهقي في «الأسماء» ص (134) ، وأحمد (3/ 29) نحوه. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (104).

19 ـ 22. **قوله تعالى**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: نهي الله المؤمنين عن توارث النساء عند موت أزواجهن، أو الإضرار بهن إلا إن أتين بفاحشة فهناك السبل الشرعية، والأمر بحسن المعاشرة وعدم مكارهة الزوجة لتفتدي بما آتاها إن أراد طلاقها، وتحريم نكاح ما نكح الآباء، فإن ذلك كان فاحشة وساء سبيلاً.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: [﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يزوجوها وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك][1].

وعن ابن عباس قال: (كانت المرأة في الجاهلية إذا توفىٰ عنها زوجها فجاء رجل فألقىٰ عليها ثوباً كان أحق بها، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾)[2].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4579)، (6948)، وأبو داود (2089)، والنسائي في «التفسير» (114). وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي. النساء (19).

(2) رواه وكيع عن سفيان عن علي بن بَذِيمَة عن مِقْسَم عن ابن عباس. أورده ابن كثير في التفسير، ورجاله رجال الصحيح. وانظر المرجع السابق. سورة النساء ـ آية (19).

وأخرج الطبري بسند حسن عن أبي أمامة قال: [لما توفي أبو قيس بن الأسلت أراد ابنه أن يتزوج امرأته ، وكان ذلك لهم في الجاهلية ، فنزلت][1].

وقوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾. قال ابن عباس: (ولا تقهروهن ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ ، يعني الرجل تكون له المرأة وهو كاره لصحبتها ، ولها عليه مَهْر فَيُضِرّها لتفتدي). فهو نهي عن الإضرار في عشرة المرأة ومكارهتها حتىٰ تتنازل عن حقوقها وصداقها.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾. فيه تأويلان:

1 ـ قال ابن مسعود: (يعني بذلك الزنا). والمقصود: يحق للزوج إن زنت الزوجة أن يسترجع منها الصداق الذي أعطاها ، وأن يضاجرها ويكارهها حتىٰ تترك ذلك له وتخالعه. قال أبو قلابة: (إذا رأى الرجل من امرأته فاحشة ، فلا بأس أن يضارها ويشق عليها حتىٰ تختلع منه). وقال السدي: (﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ، وهو الزنا ، فإذا فعلن ذلك فخذوا مهورهن).

2 ـ قال ابن عباس والضحاك: (الفاحشة المُبَيِّنَة: النشوز والعصيان).

وقال ابن عباس: (﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ، وهو البغض والنشوز ، فإذا فعلت ذلك فقد حلّ له منها الفدية). وقال الضحاك: (فإذا نشزت حل له أن يأخذ خُلْعها منها). وقال: (عدل ربنا تبارك وتعالىٰ في القضاء ، فرجع إلى النساء فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ، و﴿الفاحشة﴾: العصيان والنشوز. فإذا كان ذلك من قِبَلها ، فإن الله أمره أن يضربها ، وأمره بالهجر. فإن لم تدع العصيان والنشوز ، فلا جناح عليه بعد ذلك أن يأخذ منها الفدية).

واختار شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ أنه يعمّ ذلك كله: الزنا ، والعصيان والنشوز ، وبذاء اللسان ، وغير ذلك. وقال ابن كثير: (يعني أن هذا كلّه يبيح مضاجَرَتها حتىٰ تُبْرئه من حقها أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد ، والله أعلم).

قلت: وهذا الذي ذهب إليه ابن جرير وابن كثير قوي طيب ، وفيه معالجة لكثير من مشاكل التمرد من بعض نساء هذا الزمان لمكارهة الزوج على الطلاق بالإخلال بالطاعة ، وهو مذهب الإمام مالك. قال مالك: (للزوج أن يأخذ من الناشز جميع

(1) إسناده حسن. كما قال الحافظ في الفتح ، والسيوطي في اللباب. وانظر المرجع السابق.

ما تملك). وقيده بعض أهل العلم بأن لا يتجاوز ما أعطاها ركوناً لقوله تعالىٰ: ﴿لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾. ذكره القرطبي.

قلت: ولفظ الفاحشة وإن كان الأشهر أنه الزنا، إلا أنه يتناول أموراً مؤذية أخرىٰ. قال ابن عبد البر: (الفاحشة قد تكون البذاء والأذىٰ، ومنه قيل للبذيّ: فاحش ومتفحِّش).

وقد ثبت ذلك فيما أخرجه الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [ليس المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللّعان، ولا الفاحش، ولا البذيّ][1].

وأخرج العقيلي بإسناد حسن عن عائشة مرفوعاً: [يا عائشة إياك والفحش إياك والفحش، فإن الفحش لو كان رجلاً لكان رجل سوء][2].

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. أَمْرٌ بحسن الصحبة والعشرة. قال السدي: (يقول: وخالطوهن). وقال محمد بن الحسين: (وهي المصاحبة).

وتشمل المعاشرة التلطف لهن بالقول والهيئة والفعل كما يحب ذلك له منها. قال بعضهم: (هو أن يتصنّع لها كما تتصنّع له). وقال ابن عباس رضي الله عنه: (إني أحِبُّ أن أتزينَ لامرأتي كما أحِبُ أن تتزين لي). وقال يحيىٰ بن عبد الرحمن الحنظلي: (أتيت محمد بن الحنفية فخرج إلي في مِلْحَفَةٍ حمراءَ ولِحيتُه تَقْطُر من الغالية[3]، فقلت: ما هذا؟ قال: إن هذه الملحفة ألقتها علي امرأتي ودهنتني بالطِّيب، وإنهن يشتهين منا ما نشتهيه منهن).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بحسن العشرة والمصاحبة للزوجة، فإن في ذلك خيراً كثيراً. ومن الأحاديث في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الترمذي والدارمي بسند صحيح عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: [خَيْرُكُمْ خيرُكُم لأهله، وأنا خيركُم لأهلي][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1978)، وأحمد في المسند (3839)، والحاكم (1/ 12).

(2) حديث صحيح. أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (259)، وحسنه الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (537)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 282) لتفصيل البحث.

(3) هو نوع من الطيب مركب من عود ومسك وعنبر ودهن.

(4) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3895)، والدارمي (2/ 159)، وابن حبان (4177).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة والترمذي بسند صحيح من حديث عمرو بن الأحوص رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال ـ في خطبة حجة الوداع ـ: [ألا واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عوانٍ عندكم ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة[1] فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فأما حقكم على نسائكم ، فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخيارهم خيارهم لنسائهم][3] .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: [قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر ، وفي سهوتها ستر ، فهبت ريح ، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة لُعب ، فقال: ما هذا يا عائشة؟ قالت: بناتي ، ورأىٰ بينهن فرساً له جناحان من رقاع ، فقال: ما هذا الذي أرىٰ وسطهن؟ قالت: فرس ، قال: وما هذا الذي عليه؟ قالت: جناحان ، قال: فرس له جناحان؟ قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتىٰ رأيت نواجذه][4] .

الحديث الخامس: وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي بسند صحيح عنها: [أنها كانت مع رسول الله ﷺ في سفر ، وهي جارية . قال: لم أحمل اللحم ولم أُبَدِّنْ. فقال لأصحابه: تقدموا ، فتقدموا. ثم قال: تعالي أسابقك ، فسابقته ، فسبقته على رجلي ، فلما كان بعد ، خرجت معه في سفر ، فقال لأصحابه: تقدموا ، ثم قال:

(1) قال السندي في حاشيته: (والمراد النشوز وشكاسة الخلق ، وإيذاء الزوج وأهله باللسان واليد ، لا الزنا ، إذ لا يناسب قوله: «ضرباً غير مبرح» ، وهذا هو الملائم لقوله تعالىٰ: ﴿وَالَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ الآية ، فالحديث على هذا كالتفسير لها ، فإن المراد بالضرب فيها هو الضرب المتوسط لا الشديد). انظر آداب الزفاف ـ ص (151) ـ الألباني.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 204) وقال: «حديث حسن صحيح». وأخرجه ابن ماجة (1/ 568 ـ 569). وله شاهد في المسند (5/ 72). انظر آداب الزفاف ص (156).

(3) حديث حسن الإسناد. أخرجه الترمذي (2/ 204) ، وأحمد (2/ 250) ، (2/ 472).

(4) إسناده صحيح. أخرجه أبو داود (2/ 305) ، وأخرجه النسائي في «عشرة النساء» (75/ 1).

تعالي أسابقك ، ونسيت الذي كان ، وقد حملت اللحم ، وبدنت ، فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ فقال: لتفعلن ، فسابقته ، فسبقني ، فجعل يضحك ، وقال: هذه بتلك السبقة][1] .

فهذه بعض الروائع من جمال عشرته عليه الصلاة والسلام مع زوجاته ، وكان يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء أحياناً ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان دائم التلطف معهن ، دائم البِشْر ، وهو الأسوة لكل مؤمن إلى يوم القيامة .

وقوله: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ . قال ابن عباس: (والخير الكثير: أن يعطف عليها ، فيرزق الرجل ولدها ، ويجعل الله في ولدها خيراً كثيراً) .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً ، إن كره منها خلقاً رضي منها آخر][2] .

وقوله: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ . القنطار: المال الكثير. والآية نهي عن الإضرار بالزوجة لتفتدي بما آتاها من أجل إرادته استبدالها بزوجة أخرى ، حتىٰ ولو كان آتاها قنطاراً من مال .

قال مجاهد: (﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾: طلاق امرأة مكان أخرىٰ ، فلا يحل له من مال المطلقة شيء وإن كثر) .

وقوله: ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ . أي: أتأخذونه ظلماً بغير حق ، وإثماً واضح الإثم .

وقوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ . قال ابن عباس: (الإفضاء المباشرة ، ولكن الله كريم يَكْني عما يشاء) . وقال: (الإفضاء هو الجماع) . وقال مجاهد: (مجامعة النساء) .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 264) ، والنسائي في «عشرة النساء» (74/ 2) والسياق له ، وأخرجه أبو داود (1/ 403) ، وابن ماجة (1/ 610) مختصراً .

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (4/ 178 ـ 179) ، وقوله: «لا يفرك» أي: لا يبغض .

وقوله: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ الميثاق الغليظ: أن يقال للناكح: آلله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان. قال قتادة: (والميثاق الغليظ الذي أخذه للنساء على الرجال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد كان في عقد المسلمين عند إنكاحهم: «آلله عليك لتمسكن بمعروف أو لتسرحن بإحسان»).

2 ـ الميثاق الغليظ: هو كلمة النكاح التي استحلّ بها الفرج.

قال مجاهد: (كلمة النكاح التي استحلّ بها فروجهن).

3 ـ الميثاق الغليظ: هو قول النبي ﷺ: «أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

قال الربيع: (والميثاق الغليظ: أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله).

قلت: والتأويل الثالث أقرب، لما روىٰ مسلم في صحيحه عن جابر ـ في خطبة حجة الوداع ـ أن النبي ﷺ قال فيها: [واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستَحْلَلْتُم فروجهن بكلمة الله][1].

وقوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾.

أخرج ابن جرير ورجاله رجال الصحيح ـ إلا محمد بن عبد الله المخرمي وهو ثقة ـ عن عكرمة عن ابن عباس قال: [كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين. قال: فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾][2].

وقوله: ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ قيل معناه: لكن ما قد سلف فدعوه. قال القاسمي في التفسير: (أي سوىٰ ما قد مضىٰ في الجاهلية فإنه معفو لكم ولا تؤاخذون به).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1218)، وأبو داود (1905)، وابن ماجة (3074)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» ـ حديث رقم ـ (8939). وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول». سورة النساء، آية (22).

2 ـ قيل بل المعنىٰ: ولا تنكحوا نكاح آبائكم ـ يعني في الجاهلية ـ إلا ما قد سلف منكم في جاهليتكم من نكاح، لا يجوز ابتداء مثله في الإسلام، فإنه معفو لكم عنه. ذكره ابن جرير في التفسير. ويدل عليه ذكر «ما» في قوله: ﴿مَا نَكَحَ﴾ فإن «مَنْ» لبني آدم، و«ما» لغيرهم. والتقدير: لا تنكحوا مناكح آبائكم في الجاهلية.

3 ـ قيل بل المعنىٰ: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء بالنكاح الجائز كان عقده بينهم إلا ما قد سلف منهم من وجوه بالزنا عندهم، فإن نكاحهن لكم حلال، لأنهن لم يكن لهم حلائل. وإنما كان ما كان من آبائكم ومنهن من ذلك فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً. قال ابن زيد: (﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية، قال: الزنا).

قلت: وجميعها أقوال يحتملها السياق.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا﴾. المقت: البغض، وهذا يشير إلى ما يحصل من مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فغالب من يتزوج بامرأة يمقت من سبقه بزواج إليها. ومنه كان تحريم أمهات المؤمنين على الأمة إضافة إلى مقام النبي ﷺ وحقه ومكانته. قال عطاء: (﴿وَمَقْتًا﴾: أي: يمقت الله عليه).

وقوله: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾. قال ابن كثير: (أي: وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما رواهُ الإمام أحمد وأهل السنن من طرق، عن البراء بن عازب، عن خاله أبي بردة ـ وفي رواية: الحارث بن عمرو، وفي رواية: عن عمه ـ [أنه بعثه رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله][1]).

23 ـ 24. قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا

(1) حديث قوي بطرقه. أخرجه أحمد في المسند (4/ 297)، وأبو داود في السنن (4457). وأورده ابن كثير في التفسير. سورة النساء، آية (22). ورواه النسائي (6/ 109 ـ 110).

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ الله تعالىٰ المحرمات من النساء ، والتأكيد على وجوب دفع المهور عند النكاح ، والله عليم حكيم . فإلى تفصيل ذلك :

لقد ذكر الله تعالىٰ في هذه الآيات ما حَرَّم من النساء ، وإن المتأمل فيها يجد أن التحريم قسمان :

1 ـ تحريم مؤبد : وهو الذي يمنع المرأة أن تكون زوجة للرجل في جميع الأوقات .

2 ـ تحريم مؤقت : وهو الذي يمنع المرأة من التزوج بها ما دامت على حالة خاصة قائمة بها ، فإن تغير الحال زال التحريم وصارت حلالاً .

وأما أسباب التحريم المؤبد فهي :

1 ـ النسب .

2 ـ المصاهرة .

3 ـ الرضاع .

أولاً : المحرمات بسبب النسب :

1 ـ الأمهات . 2 ـ البنات . 3 ـ الأخوات . 4 ـ العمات . 5 ـ الخالات . 6 ـ بنات الأخ . 7 ـ بنات الأخت .

قال ابن عباس : (حرمت عليكم سبعٌ نسباً وسبعٌ صهراً ، وقرأ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ . . . ﴾ . . الآية)[1] .

(1) رواه ابن أبي حاتم بسنده عن سفيان بن حبيب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس .

وتفصيل ذلك:

1 ـ الأم: اسم لكل أنثىٰ لها عليك ولادة، فيدخل بذلك الأم، وأمهاتها، وجداتها، وأم الأب، وجداته، وإن عَلَوْن.

2 ـ البنت: اسم لكل أنثىٰ لك عليها ولادة، أو كل أنثىٰ يرجع نسبها إليك بالولادة، بدرجة أو درجات، فيدخل في ذلك بنت الصلب وبناتها.

3 ـ الأخت: اسم لكل أنثىٰ جاورتك في أصليك أو في أحدهما.

4 ـ العمة: اسم لكل أنثىٰ شاركت أباك أو جدك في أصليه أو في أحدهما. وقد تكون العمة من جهة الأم: وهي أخت أبي أمك.

5 ـ الخالة: اسم لكل أنثىٰ شاركت أمك في أصليها أو في أحدهما، وقد تكون من جهة الأب: وهي أخت أم أبيك.

6 ـ بنت الأخ: اسم لكل أنثىٰ لأخيك عليها ولادة، بواسطة أو مباشرة.

7 ـ بنت الأخت: اسم لكل أنثىٰ لأختك عليها ولادة، كالسابق.

ثانياً: المحرمات بسبب المصاهرة.

1 ـ أم زوجته، وأم أمها، وأم أبيها، وإن علت. لقوله تعالىٰ: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾. ومجرد العقد لا الدخول هو الذي يحرمها.

2 ـ ابنة زوجته التي دخل بها: ويدخل في ذلك بنات بناتها وبنات أبنائها وإن نزلن، لأنهن من بناتها. لقوله تعالىٰ: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

والربائب: جمع ربيبة، وربيب الرجل ولد امرأته من غيره.
ولا يشترط أن يكون في بيته أو لا يكون فالحرمة مطلقة.

ولا تحرم الربيبة بمجرد العقد على أمها حتىٰ يدخل بها، فإن طلق أمها قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بالربيبة.

3 ـ زوجة الابن، وابن ابنه، وابن ابنته، وإن نزل. لقوله تعالىٰ: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾.

حلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة. والزوج حليل.

يروي ابن أبي حاتم عن أشعث ، عن الحسن ومحمد : (أن هؤلاء الآيات مبهمات : ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ﴾ ﴿ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ ﴾). أورده ابن كثير وقال: (معنىٰ مُبْهمات: أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرُم بمجرد العقد عليها وهذا متفق عليه).

4 ـ زوجة الأب: يحرم على الابن التزوج بحليلة أبيه مجرد العقد من الأب عليها ، ولو لم يدخل لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ .

ثالثاً: المحرمات بسبب الرضاع.

يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب. أي: (الأم ، البنت ، الأخت ، العمة ، الخالة ، بنات الأخ ، بنات الأخت) المبينة بالآية السابقة.

وبناء على ذلك فَتُنَزَّل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضَع ، هي وكل من يحرم على الابن من قبل أمِّ النسب ، فتحرم:

1 ـ المرأة المرضعة ، فبإرضاعها تعد أماً للرضيع.

2 ـ أم المرضعة ، لأنها جدة له.

3 ـ أم زوج المرضعة ، لأنها جدة كذلك.

4 ـ أخت الأم لأنها خالة الرضيع.

5 ـ أخت زوجها لأنها عمة الرضيع.

6 ـ بنات بنيها وَبناتها: لأنهن بنات إخوته وأخواته.

7 ـ الأخت: سواء أكانت أختاً لأب وأم ، أو أختاً لأم ، أو أختاً لأب.

قلت: وأصل إلحاق ما يحرم من الرضاع بما يحرم من النسب ، ما في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن الرضاعة تحرّم ما تحرّم الولادة]. وفي لفظ لمسلم: [يَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من النَّسَبِ][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مالك (2/ 601) ، ومن طريقه أخرجه البخاري (2646) ومسلم (1444) ، والنسائي (6/ 99) ، وأخرجه أحمد (6/ 178) ، والبيهقي (7/ 159).

والرضاع المعتبر هو ما كان في الحولين ، لقوله تعالى: ﴿ ۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ .

قال الإمام مالك: (ما كان من الرضاعة بعد الحولين كان قليله وكثيره لا يحرم شيئاً ، إنما هو بمنزلة الماء).

والرضعة: هي أن يأخذ الصبي الثدي ويمتص اللبن منه ولا يتركه إلا طائعاً من غير عارض.

أخرج الترمذي عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: [لا يُحَرِّمُ من الرضاع إلا ما فتق[1] الأمعاء وكان قبل الفطام][2].

وقد اختلف الفقهاء في عدد الرضعات المحرمة:

1 ـ ذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله إلى مطلق الرضاع.

لما روىٰ البخاري ومسلم عن عقبة بن الحارث قال: [تزوجت أم يحيىٰ بنت أبي إهاب ، فجاءت أمة سوداء فقالت: قد أرضعتكما. فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك. فقال: كيف وقد قيل؟ . . . دعها عنك][3].

2 ـ وذهب أبو ثور والإمام أحمد ـ في رواية عنه ـ إلى ثلاث رضعات. لما روى مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [لا تُحَرِّمُ المصة ولا المصتان][4]. وفي لفظ آخر: [لا تُحرِّمُ الإملاجة ولا الإملاجتان].

ولما روى مسلم عن أم الفضل ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تحرم الرضعة أو الرضعتان ، أو المصة أو المصتان].

ومن ثمّ فإن أقله عند هؤلاء ثلاث رضعات.

3 ـ وذهب الشافعي وأحمد إلى القول بخمس رضعات مشبعات.

وقد احتجوا بما روىٰ مسلم في صحيحه عن عائشة قالت: [كان فيما أنزل من القرآن

---

(1) فتق الأمعاء: أي وصلها وغذاها واكتفت به دون غيره.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (1152). انظر صحيح سنن الترمذي (921). وانظر تخريج المشكاة (3173) ، والإرواء (2209) ، وصحيح الجامع (7509).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2660) ، كتاب الشهادات ، باب شهادة المرضعة.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1451) ، والنسائي (6/ 100) ، وأحمد (6/ 340) ، وغيرهم.

عشرُ رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن][1] .

أي نسخت الآية وبقي العمل بها على خمس رضعات ، ويبدو في التحقيق أن هذا هو الذي استقر عليه الإسلام ، بوفاة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام. وهو أن ما يحرم من الرضاع يكون بخمس رضعات مشبعات.

فائـدة: الجمهور علىٰ أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره. قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ .

وهو مذهب الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ، وجمهور السلف والخلف.

ولكن هناك أثرٌ عند ابن أبي حاتم بسند قوي عن مالك بن أوس قال: (كانت عندي امرأة فتوفيت ، وقد ولدت لي فوجدت عليها ، فلقيني علي بن أبي طالب ، فقال: مالك؟ فقلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم ، وهي بالطائف. قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا ، هي بالطائف. قال: فانكحها. قلت: فأين قول الله: ﴿وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾؟ قال: إنها لم تكن في حِجرك ، إنما ذلك إذا كانت في حجرك)[2] .

واختاره ابن حزم ، وهي من المسائل التي حيّرت ابن تيمية. فقد ذكر الحافظ الذهبي للحافظ ابن كثير أنه عرض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين بن تيمية فاستشكله وتوقف في ذلك.

قلت: والراجح ما ذهب إليه الجمهور من إطلاق الخطاب على الربيبة ـ ابنة الزوجة ـ سواء كانت في حجر الرجل أم لم تكن في حجره ، والله تعالىٰ أعلم.

وقوله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ .

المعنىٰ: تحريم الجمع بين الأختين في الزواج ، وكذا في ملك اليمين ، إلا ما كان

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1452) ، وأبو داود (2062) ، ومالك (2/ 608) ، والترمذي بإثر (1150) ، وابن حبان (4221) ، وغيرهم.

(2) انظر تفسير ابن كثير. سورة النساء ، آية (23). وقال: هذا إسناد قوي ثابت إلى علي بن أبي طالب على شرط مسلم.

من ذلك منكم في جاهليتكم فيعفىٰ عنه. ومن ثم فمن أسلم وتحته أختان خُيِّرَ، فيمسك منهما من شاء ويطلق الأخرىٰ لا محالة.

أخرج أبو داود والترمذي بسند جيد عن الضحاك بن فيروز، عن أبيه قال: [أسلمت وعندي امرأتان أختان، فأمرني النبي ﷺ أن أُطلِّق إحداهما][1].

وفي لفظ: فقال النبي ﷺ: (اختر أيَّتهما شئت).

يروي ابن عبد البر في «الاستذكار» بسنده إلى إياس بن عامر قال: (سألت علي بن أبي طالب فقلت: إن لي أختين مما ملكت يميني، اتخذت إحداهما سُرِّية فولدت لي أولاداً، ثم رغبت في الأخرىٰ، فما أصنع؟ فقال علي رضي الله عنه: تعتق التي كنت تطَأُ ثم تطأُ الأخرىٰ. قلت: فإن ناساً يقولون: بل تزوجها ثم تطأ الأخرى. فقال علي: أرأيت إن طلّقها زوجها أو مات عنها، أليس ترجع إليك؟ لأَنْ تَعْتِقَها أسلمُ لك. ثم أخذ عليٌّ بيدي فقال لي: إنه يَحْرُمُ عليك مما ملكت يمينك ما يَحْرُمُ عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد، أو قال: إلا الأربع، ويَحْرُم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله من النسب. ثم قال أبو عمر: هذا الحديث رحْلةٌ، لو لم يُصِب الرجل من أقصىٰ المغرب أوالمشرق إلى مكة غَيْره لما خابَتْ رحْلَتُه).

وقال الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن قَبيصة بن ذُؤَيب: (أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك اليمين، هل يُجْمع بينهما؟ فقال عثمان: أحَلَّتْهُما آية وحرّمتهما آية، وما كنت لأصنع ذلك).

وقوله: ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾.

أخرج الإمام مسلم وأكثر أهل السنن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس، فلقوا عدواً فقاتلوهم فظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا، فكأن ناساً من أصحاب الرسول ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ أي: فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن][2].

---

(1) حديث إسناده جيد. أخرجه أبو داود (2243)، والترمذي (1129)، وابن ماجة (1950)، (1951)، وأحمد (4/ 232)، والبيهقي (7/ 184).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1456) ح (35)، والترمذي (1132) و(3017)، والنسائي في «التفسير» (117)، وأحمد (3/ 72)، وغيرهم.

ومعنىٰ الآية: تحريم نكاح الأجنبيات المحصنات، وهنّ المتزوجات، إلا ما مَلَكْتُموهُنَّ بالسبي، فإنه يحلّ لكم وطؤهن إذا اسْتَبْرَأْتُموهُنّ.

وقوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾. أي كل ما سبق تحريمه عليكم قد كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، وشرعه وأمره، ولا تتجاوزوا حدوده.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾. قال عطاء: (أي: ما عدا مَنْ ذُكِرْنَ من المحارم، هُنَّ لكم حلال).

وقوله: ﴿أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾. يعني الزواج حتى أربع، أو السراري ما شئتم، بالطريق الشرعي من حضور الولي والشاهدين وبذل المهر وإشادة النكاح.

قال مجاهد: (السفاح: الزنا). وقال السدي: (﴿مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ﴾: يقول: محصنين غير زُناة).

وقوله: ﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ﴾.

قال ابن زيد: (هذا النكاح، وما في القرآن إلا نكاح. إذا أخذتها واستمتعت بها، فأعطها أجرها، الصداق).

وقد ذهب بعضهم إلى أن الآية في نكاح المتعة، وهذا على خلاف فهم الجمهور، فإن المتعة حرام إلى يوم القيامة.

روىٰ مسلم والطبراني عن الربيع بن سَبْرة الجُهني عن أبيه مرفوعاً: [نهىٰ عن المُتعة زمان الفتح متعةِ النساء، وقال: ألا إنها حرامٌ من يومِكم هذا إلى يوم القيامة][1].

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ﴾.

قال ابن عباس: (والتراضي: أن يوفيها صداقها ثم يخيِّرها).

وقال ابن زيد: (إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ). فالمعنىٰ: لا حرج عليك ولا عليها إن كنت فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه أو من بعضه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾. أي: ﴿عَلِيمًا﴾ بما يصلح شؤونكم في مناكحكم أيها الناس وفي سائر أمور حياتكم، ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يدبره لكم ويشرعه من أمر ونهي يخصكم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (4/ 134)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (1/ 174/ 2).

25. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) ﴾.

في هذه الآية: تخفيف الله عن المسلمين بإباحة نكاح الإماء حالة الضيق، ونكاح الأمة بإذن سيدها، وحدّ المملوك نصف حد الحر ولا رجم عليه، والصبر على العزبة خير من نكاح الأمة لأنه يفضي إلى إرقاق الولد.

قال ابن عباس: (﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ﴾ يقول: من لم يكن له سَعة). وقال مجاهد فيها: (الغنىٰ). وقال سعيد بن جبير: (الطول الغنىٰ، الطول السعة). وقال ربيعة: (الطول الهوىٰ. قال: ينكح الأمة إذا كان هواه فيها). والقول الأول أرجح وهو اختيار شيخ المفسرين.

وقوله: ﴿ أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ ﴾. قال سعيد بن جبير: (أما من لم يجد ما ينكح الحرة، تزوج الأمة). وقال ابن عباس: (﴿ مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ ﴾: فلينكح من إماء المؤمنين).

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ ﴾ جملة اعتراضية، مفادها أن لكم أيها الناس الظاهر من الأمور والله أعلم بحقائقها ودفائنها. فلا تستنكفوا من التزوج بالإماء عند الضرورة. قال القرطبي: (ففي اللفظ تنبيه على أنه ربما كان إيمان أمَة أفضل من إيمان بعض الحرائر).

وقوله: ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ ﴾ مبتدأ وخبر، وفي الكلام تقديم وتأخير. والتقدير: ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فلينكح بعضكم من بعض: هذا فتاة هذا، وهذا فتاة هذا. قال القرطبي: (والمقصود بهذا الكلام تَوْطِئة نفوس

العرب التي كانت تستهجن ولد الأمَة وتُعيّره وتسميه الهجين[1] ، فلما جاء الشرع بجواز نكاحها علموا أن ذلك التهجين لا معنىٰ له ، وإنما انحطت الأمة فلم يجز للحرّ التزوّج بها إلا عند الضرورة ، لأنها تسبب إلى إرقاق الولد ، وأن الأمة لا تَفرُغ للزّوج على الدوام ، لأنها مشغولة بخدمة المَوْلىٰ).

وقوله: ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ ﴾.

ذهب الشافعي والأوزاعي إلى أنه إذا نكح العبد بغير إذن سيده فسخ نكاحه. قال ابن كثير: (فدلّ على أن السيد هو وَليُّ أمته لا تُزَوّجُ إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده ، ليس لعبده أن يتزوج إلا بإذنه).

أخرج أبو داود وابن ماجة بسند حسن عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [أيما عبد تزوَّج بغير إذن مواليه فهو زان][2]. وفي رواية: (فهو عاهر).

فإن كان من يملك الأمة امرأة لم يجز لها أن تعقد زواجها ، بل يزوجها من يزوج المرأة بإذنها. لما أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [لا تزوِّج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها][3].

وقوله: ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾. يعني الصداق. لا يجوز أن يبخس منه شيئاً لكونهن إماء غير حرائر ، فلابد من دفع مهورهن عن طيب نفس ، بالمعروف: أي على ما تراضيتم به.

وقوله: ﴿ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍۚ ﴾. قال ابن عباس: (يعني: تنكحوهن عفائف غير زواني في سرّ ولا علانية ، ﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍۚ ﴾ ، يعني: أخلاء). وقال: (المسافحات: هن الزواني المعلنات). يعني الزواني اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بالفاحشة. وقال مجاهد: (﴿ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٍۚ ﴾ قال: الخليلة يتخذها الرجل ، والمرأة تتخذ الخليل).

وقوله: ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾. قال ابن عباس: (﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ ﴾: يعني إذا تزوجن). وقال قتادة:

---

(1) الهجين: أبوه عربي وأُمه أمة. أي: غير عربية.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2078) ، والترمذي (1111) ، وابن ماجة ، وأخرجه أحمد (3/ 301) ، وأبو يعلىٰ (2000) عن جابر ، وله شواهد.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة وله شواهد. انظر صحيح الجامع الصغير (7175).

(أحصنتهن البعولة). وقال: (﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: خمسون جلدة، ولا نفي ولا رجم). وقال ابن عباس: (ليس على أمة حد حتىٰ تحصن، فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات) ـ رواه الطبراني وهو موقوف صحيح ولا يصح رفعه.

وقال ابن مسعود: (إسلامها إحصانها). وقال السدي: (﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾: إذا أسلمن)[1]. والأول أرجح ويدل عليه السياق.

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: [يا أيها الناس، أقيموا على أرقَّائكم الحد من أَحْصَنَ منهم ومن لم يُحْصِنْ، فإن أمةً لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديث عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: أحسنت اتركْها حتىٰ تماثل][2].

والخلاصة: إن الأمَةَ إذا زنت وقد أحصنت مجلودة بكتاب الله، وإذا زنت ولم تحصن مجلودة بحديث رسول الله ﷺ ولا رجم عليها، لأن الرجم لا يتنصّف.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة وزيدِ بن خالد رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الأمَةِ إذا زنت ولم تُحْصَنْ؟ قال: إذا زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم إن زنت فاجلدوها، ثم بيعوها ولو بِضَفِير][3].

قال الزُّهري: (فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث). وقال ابن عبد البر: (ظاهر قول الله عز وجل يقتضي ألا حدّ على أَمَةٍ وإن كانت مسلمة إلا بعد التزويج، ثم جاءت السنة بجلدها وإن لم تحصن، فكان ذلك زيادة بيان).

وقال أبو عبد الله الشافعي رحمه الله: (ولم يختلف المسلمون في أن لا رَجْمَ على

---

(1) هناك قراءة: ﴿فإذا أَحْصَنَّ﴾ بمعنىٰ: إذا أسلمن، فصرن ممنوعات الفروج من الحرام بالإسلام. وهي قراءة مشهورة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1705)، والترمذي في الجامع (1441)، وأحمد في المسند (1/ 89). وعند عبد الله بن أحمد، عن غير أبيه: «فإذا تَعافَتْ من نفاسها فاجلدها خمسين». انظر زوائد المسند لعبد الله بن أحمد (1/ 136) ح(1146).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6837)، (6838)، ومسلم برقم (1704) ح (33)، ورواه أحمد في المسند (4/ 117).

مملوك في الزنا ، وذلك لأن الآية دلت على أن عليهن نصف ما على المحصنات من العذاب).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾. قال مجاهد: (الزنا). وقال ابن عباس: (العنت الزنا).

وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. قال السدي: (يقول: وأن تصبر ولا تنكح الأمة فيكون ولدك مملوكين ، فهو خير لك). والمقصود: أن الصبر على العُزْبة خير من نكاح الأمة ، لأنه يُفضي إلى إرقاق الولد.

وفي الأثر عن عمر: (أيّما حُرٍّ تزوّج بأمَةٍ فقد أرقّ نصفه).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أي: غفور لكم نكاح الإماء وما سلف منكم إن أصلحتم ، رحيم بكم إذ أذن لكم بنكاحهن عندالافتقار والحاجة.

26 ـ 28. قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

في هذه الآيات: يريد الله سبحانه تبيان حلاله وحرامه ، ففي معرفة ذلك والتزام حدوده رضاه جل ذكره ، كما يريد إرشاد عباده المؤمنين إلى سبل أهل الإيمان والصلاح في الأمم قبلهم ، وإلى مناهج الأنبياء والمرسلين في تحريم نكاح الأمهات والبنات والأخوات ، فإن الله ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصلح أحوال عباده في أديانهم ودنياهم ، ﴿حَكِيمٌ﴾ في قدره وشرعه وأمره ونهيه لهم جميعاً. والله يريد كذلك أن يتجاوز عما سلف منكم أيام الجاهلية ويريد أهل الباطل أن تستمروا على الفواحش. والله يريد اليسر بكم في أمر النكاح وفي كل أمر ، فإن الإنسان ضعيف أمام النساء.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ـ أي: يتجاوز عما كان في جاهليتكم من الاستهتار بنكاح حلائل الآباء والأبناء وغير ذلك مما يستبيحه أهل الجاهلية.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾. قال مجاهد: (أن

تكونوا مثلهم ، تزنون كما يزنون). قال: (﴿ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ ، قال: الزنا ، ﴿ أَن تَمِيلُواْ ﴾ ، قال: أن تزنوا).

وقال ابن زيد: (يريد أهل الباطل وأهل الشهوات في دينهم ، أن تميلوا في دينكم ميلاً عظيماً ، تتبعون أمر دينهم ، وتتركون أمرَ الله وأمرَ دينكم).

وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾. قال مجاهد: (في نكاح الأمة ، وفي كل شيء فيه يسر).

وقوله: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾. قال طاووس: (في أمور النساء. ليس يكون الإنسان في شيء أضعفَ منه في النساء).

29 ـ 31. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (30) إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا (31) ﴾.

في هذه الآيات: يعقب الله سبحانه بتذكير عباده بأمور أخرى من أمور الجاهلية يحبهم أن يتنزهوا عنها ويترفعوا عن السقوط في أوحالها ، كالربا والقمار ، وفاسد العلاقات في الأموال ، كما ينهاهم عن قتل النفس المفضي إلى عذاب النار ، ثم يقرّر أن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر من الأعمال.

يروي ابن جرير بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: (في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: «إن رضيته أخذته وإلا رددته ورددت معه درهماً» ، قال: هو الذي قال الله: ﴿ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ﴾).

وقال السدي: (أما أكلهم أموالهم بينهم بالباطل ، فبالربا والقمار والبخس والظلم).

وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾. قال قتادة: (التجارة رزق من رزق الله ، وحلال من حلال الله ، لمن طلبها بصدقها وبرّها. وقد كنا نحدَّث: أن التاجرَ

الأمين الصدوق مع السبعة في ظل العرش يوم القيامة). وقال السدي فيها: (﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً ﴾ ، ليربح في الدرهم ألفا إن استطاع).

وقرأها أكثر أهل الحجاز والبصرة ﴿تجارةٌ﴾ ، والتقدير: إلا أن توجد تجارة ، وعندها ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ ﴾ تامة لا حاجة بها إلى خبر.

وأما قراء الكوفة فقرؤوها ﴿ تِجَـٰرَةً ﴾ بالنصب على الخبر. والتقدير: إلا أن تكون الأموال تجارة عن تراض منكم. وكلاهما قراءتان مشهورتان عند قراء الأمصار.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال: [إن المُتَبايِعَيْن بالخيار في بيعهما ما لم يتفرّقا ، أو يكون البيعُ خِياراً][1].

قال نافع: (وكان ابنُ عمر إذا اشترىٰ شيئاً يُعجبه فارقَ صاحِبَه).

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن حكيم بن حِزامٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [البَيِّعَانِ بالخِيار ما لم يتفرّقا ـ أو قال: حتىٰ يتفرقا ـ فإن صدقا وبَيَّنا بُورِكَ لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذّبا مُحِقَت بركةُ بيعهما][2].

وفي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: [رحم الله رجلاً سَمْحاً إذا باعَ ، وإذا اشترىٰ ، وإذا اقتضىٰ][3].

وقوله: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾. قال السدي: (يقول: أهل ملتكم).

وقال عطاء: (قتل بعضكم بعضاً). قال ابن جرير: (يعني: ولا يقتل بعضكم بعضاً ، وأنتم أهل ملة واحدة ، ودعوة واحدة ، ودين واحد. فجعل جل ثناؤه أهل الإسلام كلهم بعضَهم من بعض. وجعل القاتل منهم قتيلاً ، في قتله إياه منهم ، بمنزلة قتله نفسه ، إذ كان القاتل والمقتول أهلَ يد واحدة على من خالف مِلَّتهما).

قلت: والآية في سياقها أعم من ذلك ، فإن أكل أموال المسلمين بغير حق بمثابة قتل يُعمل فيهم ، وإن ارتكاب المنكرات والمحرمات والآثام وتركها تفشو في حياة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2107) ، كتاب البيوع ، وأخرجه مسلم برقم (1531) ، ورواه أحمد في المسند (2/ 73).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2079) ، كتاب البيوع ، وانظر صحيح مسلم (1531) ، وسنن النسائي (7/ 249) ، وسنن البيهقي (5/ 269) ، وصحيح ابن حبان (4912).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2076) ، كتاب البيوع ، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع ، ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف.

المسلمين هو بمثابة إجهاز عليهم وقتل لوجودهم ومصدر إعدام لقوة شوكتهم وكيانهم في الأرض ، فإن انتشار الفواحش موت للأمة .

أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : [خمس بخمس : ما نقض قومٌ العهدَ إلا سُلِّطَ عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا المكيال إلا مُنعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم القطر][1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ . أي : في ما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فإنه ما شرع أمراً إلا رحمة بكم ، ولم يقض قضاء إلا كان خيراً لكم .

أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بسند صحيح ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : [عجبت للمؤمن ، إن الله تعالىٰ لم يقض له قضاء إلا كان خيراً له][2] . وفي لفظ : [عجباً للمؤمن لا يقضي الله له شيئاً إلا كان خيراً له] .

وقد ورد ذكر هذه الآية على لسان عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل حين تيمّم وصلى بأصحابه ـ من شدة البرد ـ فأقرّ النبي ﷺ فهمه لها .

فقد أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الرحمن بن جُبَير ، عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال لما بعثه النبي ﷺ ، عام ذات السلاسل قال : [احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أَنْ أَهْلِكَ ، فتيمّمت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح . قال : فلما قَدِمنا على رسول الله ﷺ ، ذكروا ذلك له ، فقال : يا عمرو ، صليت بأصحابك وأنت جُنُبٌ . قال : قلت : نعم يا رسول الله ، إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلِكَ ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ، فتيمّمتُ ثم صَلّيت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً][3] .

ولا شك أن الآية تتناول أيضاً من قتل نفسه بحديدة أو سمٍّ أو أية وسيلة أخرىٰ أراد بها إزهاق روحه ومعاجلة نفسه .

---

(1) حديث حسن . انظر تخريج الترغيب (1/ 271) ، وصحيح الجامع الصغير (3235) .

(2) حديث صحيح . رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه(5/ 24) . وانظر مسند أبي يعلىٰ (200/ 2) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (148) .

(3) حديث حسن . أخرجه أحمد(4/ 203) ، وأبو داود (334) ، والحاكم (1/ 177) . وسنده حسن .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يده ، يَجَأ بها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مُخلَّداً فيها أبداً ، ومن قتل نفسه بِسُمٍّ فَسُمُّهُ في يده ، يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن تردىٰ من جبل فقتل نفسه ، فهو مُتَرد في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً][1].

وفي الصحيحين عن جندب بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: [كان رجل ممن كان قبلكم وكان به جُرح ، فأخذ سكيناً نَحَرَ بها يده ، فما رقأ الدم حتىٰ مات ، قال الله عز وجل: عبدي بادرني بنفسه ، حَرَّمت عليه الجنة][2].

وفيهما عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [مَنْ قَتَل نفسه بشيء عُذِّبَ به يوم القيامة][3].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾. يخبر الله تعالىٰ عن مصير من عاند أمره أو خالفه عامداً متكبراً ظالماً متجاوزاً غير تائب ولا أواب ، بأن له النار وبئس المصير.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [ارحموا تُرحموا ، واغفروا يُغفر لكم ، ويلٌ لأقماع القول ، ويلٌ للمصرِّين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون][4].

وقوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾. يروي ابن جرير بسنده عن مسروق ، عن عبد الله قال: (الكبائر ، من أول «سورة النساء» إلى ثلاثين منها).

وقد وردت أحاديث صحيحة تُعَرِّفُ بالسبع الكبائر أو التسع:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: يا رسول الله ، وما هنّ؟ قال: الشرك بالله ، وقتل

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5778) ، وأخرجه مسلم (109) ، وأحمد (2/ 254).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1364) ، ومسلم (113) ، وأخرجه البيهقي (8/ 24).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1363) ، ومسلم (110) ، وأبو داود (3257) ، وغيرهم.
(4) إسناده صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 165) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (380).

النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقَذْفُ المحصنات الغافلات المؤمنات][1] .

الحديث الثاني: أخرج النسائي وأحمد بسند صحيح عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: [من عَبَد الله لا يشرك به شيئاً ، وأقام الصلاة ، وآتىٰ الزكاة ، وصام رمضان ، واجتنب الكبائر ، فله الجنة ـ أو دخل الجنة . فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال: الشرك بالله ، وقتل نفس مسلمة ، والفرار يوم الزحف][2] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر ، أو سئل عن الكبائر ، فقال: [الشرك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين. وقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلىٰ. قال: قول الزور ـ أو شهادة الزور ـ][3] . وفي لفظ: [ألا وشهادة الزور ، ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته سكت].

الحديث الرابع: أخرج البخاري في «الأدب المفرد» بسند صحيح ، عن طَيْسَلَة بن مَيّاس قال: [كنت مع النَّجَدَات[4] ، فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر ، فذكرت ذلك لابن عمر قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا. قال: ليست هذه من الكبائر. هن تسع: الإشراك بالله ، وقتل نسمة ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وإلحاد في المسجد ، والذي يستسخر[5] ، وبكاء الوالدين من العقوق. قال لي ابن عمر: أتفرق من النار وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: أي ، والله! قال: أحيٌّ والدك؟ قلت: عندي أمي. قال: فو الله! لو ألنت لها الكلام وأطعمتها الطعام لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر][6] .

الحديث الخامس: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال: [قلت: يا رسول الله ، أي: الذنب أعظم؟ ـ وَفي رواية: أكبر ـ قال: أن تجعل لله نداً وهو

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2766) ، ومسلم (89) ، وأبو داود (2874) ، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» ـ حديث رقم ـ (3472) ، وأحمد في المسند (5/ 413) ، ورجال النسائي ثقات.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5977) ومسلم (88) وأحمد (3/ 131) ، وانظر الرواية الأخرى ، وفيها: وكان متكئاً فجلس. أخرجه البخاري (5976) ، ومسلم (87).
(4) النَّجْدات: أصحاب نَجدة بن عامر الخارجي ، وهم قوم من الحرورية.
(5) يستسخر: الاستسخار من السخرية.
(6) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» ـ حديث رقم ـ (8). باب لين الكلام لوالديه.

خلقك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك][1].

الحديث السادس: أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [الخمر أمُّ الفواحش، وأكبرُ الكبائر، من شَرِبها وقع على أمه وخالته وعمته][2].

الحديث السابع: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: [أكبر الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، أو قتل النفس ـ شعبةُ الشاكّ ـ واليمين الغموس][3].

وفيه عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قالوا: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه][4].

الحديث الثامن: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: [ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجلٌ كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامه لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعْطاه منها رضي وإن لم يعطه منها سَخِط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أَعْطَيتُ بها كذا وكذا، فصدّقه رجل، ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]][5].

وقد استعرضت بقية الكبائر في كتابي: «منهج الوحيين في معالجة زلل النفس وتسلط الجن». وفيه ذكر للأمور التي نهىٰ الله عنها وحذر منها، بشيء من التفصيل، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾. قال قتادة: (إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4477)، ومسلم (86)، وأحمد (1/ 431).

(2) حديث حسن. رواه الطبراني (11372)، (11498)، وانظر السلسلة الصحيحة (1853).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6675)، وأحمد (2/ 201)، والترمذي (3021)، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5973)، ومسلم (90)، وأحمد (2/ 214)، وغيرهم.

(5) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2358)، كتاب المساقاة، وأخرجه مسلم برقم (108)، ورواه النسائي (7/ 246).

وقوله: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾. قال السدي: («الكريم»، هو الحسن في الجنة).

32. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

في هذه الآيـة: النهي عن تمني ما بيد الآخرين من النعم، وما قسم الله لكل من الذكر والأنثى في الأموال والإرث، والترغيب بسؤال الله من فضله.

قال ابن عباس: (لا يتمنىٰ الرجل يقول: «ليت أنّ لي مالَ فلان وأهلَه»! فنهىٰ الله سبحانه عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله).

وقال الحسن: (تتمنىٰ مالَ فلان ومال فلان! وما يدريك؟ لعل هلاكه في ذلك المال).

وقال غيره: (نهيتم عن الأماني، ودُللتم على ما هو خير منه: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾).

وقال عطاء: (نزلت في النهي عن تمني ما لفلان، وفي تمني النساء أن يكنَّ رجالاً فيغزون) رواه ابن جرير.

قلت: والصحيح المسند في ذلك ما رواه الترمذي عن أم سلمة أنها قالت: [يغزوا الرجال، ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾][1].

وقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: ما ترك الوالدان والأقربون. يقول: للذكر مثل حظ الأنثيين).

وقال عكرمة فيها: (في الميراث، كانوا لا يورّثون النساء).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2419)، كتاب التفسير، سورة النساء، آية (32).

وقال ابن جرير: (للرجال نصيب من ثواب الله وعقابه مما اكتسبوا فعملوه من خير أو شر، وللنساء نصيب مما اكتسبن من ذلك كما للرجال).

وقوله: ﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ فعنده خزائن السماوات والأرض، فلا يشغلكم التمني بل ليشغلكم سؤاله جل ذكره.

أخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: [إذا تمنىٰ أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه][1]. وفي رواية: [إذا سأل أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه].

وقال ليث ـ كما يروي ابن جرير ـ: ﴿فَضْلِهِۦٓ﴾: (العبادة، ليس من أمر الدنيا).

وقال مجاهد: (ليس بعرض الدنيا). وقال السدي: (﴿وَسْئَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ يرزقكم الأعمال، وهو خير لكم).

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول: [اللهم إني أسألك الهدىٰ، والتقىٰ، والعفاف، والغنىٰ][2].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: [كان أكثر دعاء النبي ﷺ: اللهم آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار][3].

وروىٰ الطبراني بسند صحيح عن العرباض بن سارية، عن النبي ﷺ قال: [إذا سألتم الله تعالىٰ فاسألوه الفردوس فإنه سر الجنة][4].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: ذا علم. فلا تتمنوا غير الذي قضىٰ لكم، ولكن عليكم بطاعته، والتسليم لأمره، والرضىٰ بقضائه، ومسألته من فضله).

قلت: وقد استثنىٰ الحديث نوعاً من التمني، يجوز للعبد في مثله، لا في تمني عين النعمة التي عليها صاحبه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني بإسناد صحيح من حديث عائشة رضي الله عنها. انظر صحيح الجامع الصغير حديث رقم (450)، وكذلك رقم (605) للرواية الثانية.

(2) حديث صحيح. رواه مسلم وغيره من حديث ابن مسعود. انظر صحيح الجامع (1286).

(3) حديث صحيح. وفي لفظ مسلم: (كان أكثر دعوة يدعو بها يقول...). انظر مختصر صحيح مسلم (1873). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(4) حديث صحيح. أخرجه الطبراني بإسناد صحيح من حديث العرباض. انظر صحيح الجامع (606).

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلّمها].

وأخرجاه من حديث ابن عمر بلفظ: [لا حسد إلا على اثنين: رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار][1].

وفي المسند وجامع الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أنّ لي مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته فأجرهما سواء..] الحديث[2].

33. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣)﴾.

في هذه الآية: لقد جعل الله سبحانه للناس عصبة ـ لكل منهم ـ يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له. وقد كان لمن تحالفتم معه ـ أيها المؤمنون ـ بالأيمان المؤكدة جزء من الميراث ثم نسخ هذا الحكم فصار الميراث في ذوي الرحم.

فقوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾. قال ابن جرير: (يقول: ورثة من بني عمه وإخوته وسائر عصبته غيرهم). والعرب تسمي ابن العم «مولىٰ».

قال ابن عباس: (﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ ، قال: ورثة). وقال مجاهد: (الموالي ، العصبة). وقال: (هم الأولياء). وقال قتادة: (الموالي ، أولياء الأب ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4/ 491) ، ومسلم (2/ 201) ، وأحمد (2/ 9). وانظر للرواية الأولى مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (2108).

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2325). انظر صحيح سنن الترمذي (1894). ورواه أحمد. انظر تخريج الترغيب (1/ 26) ، وصحيح الجامع الصغير (3021) ، وهو جزء من حديث أطول.

أوالأخ ، أو ابن الأخ ، أو غيرهما من العصبة). وقال السدي: (أما «موالي» ، فهم أهل الميراث).

قال البخاري: (وقال مَعْمَر: ﴿ مَوَالِيَ ﴾ أولياءَ ورثة).

وقوله: ﴿ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾. أي: من ترِكَة والديه وأقربيه من الميراث.

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ أي: تحالفتم معهم بالأيمان المؤكدة فأعطوهم من الميراث. وهذا حكم منسوخ فصار الميراث في ذوي الرحم.

أخرج البخاري عن ابن عباس: (﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ قال: وَرَثة ، ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحِمه ، للأخوة التي آخىٰ النبي ﷺ بينهم ، فلما نزلت: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ نُسِخَتْ ، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾ من النصر والرِّفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصي له)(1).

وقال البخاري: (﴿ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾. هو مولىٰ اليمين: وهو الحليف. والمولىٰ أيضاً: ابن العم ، والمولىٰ: المُنْعِمُ المُعْتِق ، والمولىٰ: المُعْتَقُ ، والمولىٰ: المليكُ ، والمولىٰ: مَوْلىً في الدين).

وقرأها قراء الكوفة: ﴿عَقَدَتْ﴾ ، وقرأها آخرون ﴿عاقَدَتْ﴾ وكلاهما مشهور.

أخرج الإمام مسلم عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: [لا حِلْفَ في الإسلام ، وأيُّما حِلْفٍ كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدَّة](2).

قال الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجَّاج ، عن ابن جريج ، وعثمان بن عطاء ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال: (﴿ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ﴾: فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ، ويقول: ترثني وأرِثُكَ. وكان الأحياء يتحالفون ، فقال رسول الله ﷺ: «كل حلف كان في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام ، فلا يزيده الإسلام إلا شدة ، ولا عَقْدَ ولا حلف في الإسلام». فَنَسَخَتْها هذه الآية: ﴿ وَأُولُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: 75])(3).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4580) ، كتاب التفسير ، سورة النساء ، آية (33).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2530) ، وأحمد (4/ 83) ، والبيهقي (6/ 262) وغيرهم.

(3) ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ـ سورة النساء ـ آية (33) ، وإسناده صحيح.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: فآتوا الذين عقدت أيمانكم نصيبهم من النصرة والنصيحة والرأي والله خير الشاهدين.

34. **قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.**

في هذه الآية: إثبات القيادة للرجل في أهله وولده، فهو الأجدر بضم الأسرة ومعرفة مصالحها، وما ينبغي من الإنفاق فيها، فالرجل قيم على المرأة وهو رئيسها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، يعني: أُمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرَها الله به من طاعته، وطاعته: أن تكون محسنةً إلى أهله، حافظةً لماله، وفضّله عليها بنفقته وسعيه).

وقال السدي: (﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ قال: يأخذون على أيديهن ويؤدّبونهنَّ).

وقال ابن المبارك: سمعت سفيان يقول: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، قال: (بتفضيل الله الرجال على النساء). قلت: وهذا التفضيل يشمل الإمارة والقضاء:

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: [لَنْ يُفلحَ قومٌ ولَّوا أمرهم امرأة][(1)].

وقوله: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾.

قال ابن عباس: (فضله عليها بنفقته وسعيه). وقال سفيان: (بما ساقوا من المهر).

وقال الشّعبي: (الصداق الذي أعطاها، ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها، ولو قَذَفَتْه جُلِدَت).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4425)، (7099)، والنسائي (8/ 227)، وأحمد (5/ 43).

وقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

قال سفيان: (﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾، يعملن بالخير). وقال ابن جرير: (﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾، المستقيمات الدين، العاملات بالخير).

وقوله: ﴿قَانِتَاتٌ﴾. قال ابن عباس: (مطيعات). وقال قتادة: (مطيعات لله ولأزواجهن).

وقوله: ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾. قال السدي: (تحفظ على زوجها مالَه وفرجَها حتى يرجع، كما أمرها الله). وقال قتادة: (حافظات لما استودعهن الله من حقه، وحافظات لغيب أزواجهن). وقال عطاء: (حافظات للأزواج).

وقد جاءت السنة الصحيحة بالثناء العطر على الزوجات الصالحات القانتات، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [الدنيا كلُّها متاع، وخيرُ متاعِ الدنيا المرأةُ الصالحة][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: [خيرُ النساء التي تَسُرُّه إذا نَظَرَ، وتُطيعُهُ إذا أَمَر، ولا تُخالفُهُ في نفسها ولا مالِها بما يكره][2].

وله شاهد عند الطبراني من حديث عبد الله بن سلام، بلفظ: [خير النساء من تُسِرُّك إذا أَبْصَرْتَ، وتطيعك إذا أمرتَ، وتحفظُ غيبتك في نفسها ومالك].

الحديث الثالث: أخرج ابن حبان والحاكم بسند صحيح عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ قال: [أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسعُ، والجارُ الصالح، والمركب الهنيء. وأربعٌ من الشقاء: المرأة السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1469) كتاب الرضاع. باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 251، 432، 438)، والنسائي (2/ 72). والشاهد رواه الطبراني كما قال الهيثمي (4/ 273). انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1838).

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (1232)، وأحمد (1/ 168) نحوه، والحاكم.

وقوله: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾.

النشوز: استعلاء المرأة على زوجها، بترك فراشه أو مخالفته فيما يلزم طاعته.

وأصل النشوز: الارتفاع. ويقال للمرتفع من الأرض «نشْز» و«نَشَاز».

وأقوال الصحابة والتابعين في ذلك متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، تلك المرأة تنشز، وتستخف بحق زوجها ولا تطيع أمره).

2 ـ قال السدي: (﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ قال: بغضهن).

3 ـ وقال ابن زيد: (﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، قال: التي تخاف معصيتها. قال: «النشوز»، معصيته وخِلافه). وقال عطاء: («النشوز»: أن تحب فراقَه، والرجلُ كذلك).

وقوله: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾. قال ابن عباس: (يعني: عظوهن بكتاب الله. قال: أمره الله إذا نشزت أن يعظها ويذكّرها الله، ويعظِّم حقّه عليها). وقال سعيد بن جبير: (عظوهن باللسان).

وقد جاءت السنة الصحيحة بالتحذير الشديد للمرأة من النشوز ومعصية الزوج، والترغيب الكبير في خدمته وطاعته، فإن رضا الله في رضاه. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها، لعنتها الملائكة حتىٰ تصبح][1].

ورواه البخاري بلفظ: [إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه، لعنتها الملائكة حتىٰ تصبح][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الله بن أبي أوفىٰ قال: [لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عِظَمِ حَقِّهِ عليها][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه، برقم (1436) ح (120).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5193)، ومسلم (1436)، وأحمد (2/ 439)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2322)، وابن ماجة (1853)، وابن حبان (4171)، وغيرهم.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح، عن حصين بن محصن قال: [حدثتني عمتي قالت: أتيت رسول الله ﷺ في بعض الحاجة فقال: أي هذه! أذات بعل؟ قلت: نعم، قال: كيف أنت له؟ قالت: ما آلوه إلا ما عجزت عنه، قال: فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك](1).

فإن لم ينفع الوعظ مع المرأة، شرع الله له المرحلة الثانية في التأديب: وهي الهجر.

قال ابن عباس: (عظوهن، فإن أطعنكم، وإلا فاهجروهن).

وهو قوله: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾. وفيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (يعني بالهجران: أن يكون الرجل وامرأته على فراش واحد لا يجامعها). وقال سعيد بن جبير: (الهجر هجر الجماع).

2 ـ وقال السدي: (أمّا ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾، فإن على زوجها أن يعظها، فإن لم تقبل فليهجرها في المضجع. يقول: يرقد عندها ويولِّيها ظهره ويطؤها ولا يكلمها). وقال الضحاك: (يضاجعها، ويهجر كلامها، ويولّيها ظهره).

3 ـ وقال سعيد بن جبير: (﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾، يقول: حتىٰ يأتين مضاجعكم). وفي رواية لابن عباس قال: (يعظها، فإن هي قبلت، وإلا هجرها في المضجع، ولا يكلمها، من غير أن يذر نكاحها، وذلك عليها شديد).

4 ـ وقال عكرمة: (إنما الهجران بالمنطق: أن يغلظ لها، وليس الجماع). وقال ابن عباس: (يهجرها بلسانه، ويُغْلظ لها بالقول، ولا يدع جماعها).

قلت: وكلها معان محتملة يحتملها البيان الإلـٰهي، وكذلك ما جاء في صحيح السنة. فقد أخرج أبو داود وأحمد وغيره عن معاوية بن حَيْدة القُشَيريِّ أنه قال: يا رسول الله، ما حق امرأةِ أحدنا عليه؟ قال: [أن تُطْعِمها إذا طَعِمْتَ، وتكسوها إذا اكتسيْتَ، ولا تضرب الوجه، ولا تقبّح، ولا تهْجُر إلا في البيت](2).

وقوله: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾.

هي المرحلة الثالثة من مراحل التأديب، أي: إذا لم يرتدعن بالموعظة والهجران

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 341)، وابن أبي شيبة (7/ 47/ 1)، والنسائي في العِشرة.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2143)، وأحمد (5/ 5)، وابن ماجة (1850). وسنده حسن.

فيمكن أن تضربوهُنّ ضرباً غير مُبَرِّح . قال الحسن البصري : (يعني غير مؤثر) .

وقال ابن عباس : (تهجرها في المضجع ، فإن أقبلت ، وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضرباً غير مبرح ، ولا تكسر لها عظماً. فإن أقبلت وإلاّ فقد حلّ لك منها الفدية) .

وعن عطاء قال : (قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح؟ قال : بالسواك ونحوه) .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال في حجة الوداع : [واتقوا الله في النساء ، فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن أن لا يُوطِئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مُبَرِّح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف][1] .

وفي سنن أبي داود عن إياس بن عبد الله بن أبي ذُباب قال : [قال النبي ﷺ : لا تضربوا إماء الله . فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال : ذَئِرَت النساء على أزواجهنَّ ، فَرَخَّصَ رسول الله ﷺ في ضربهنَّ ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير يشكون أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أطاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجَهُنَّ ، ليس أولئك بخياركم][2] .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ . قال ابن عباس : (إذا أطاعتك فلا تتجنَّ عليها العلل) . وقال سفيان : (إذا فعلت ذلك لا يكلفها أن تحبه ، لأن قلبها ليس في يديها) . وقال الثوري : (إذا أتت الفراش وهي تبغضه) .

والخلاصة : إن رجعت إلى الطاعة وامتثلت ما يحب مما أباحه الله له منها فلا يحق له بعد ذلك ضربها أو هجرانها . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ : تهديد للرجال إذا تطاولوا بالضرب بعد الطاعة ، فإن الله العلي الكبير وليّهن ينتقم ممن بغىٰ عليهن أو ظلمهن فاحذروا البغي معاشر الرجال .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1218) ، وأبو داود (1905) ، وابن ماجة(3074) ، وغيرهم .
(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (2146) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (9167) ، وابن ماجة (1985) .

35. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

في هذه الآيـة: الترغيب في إعادة الوفاق بين الزوجين عند الخلاف، وسدّ السبل على الشيطان، والله يعين على الرفق والإصلاح.

قال السدي: (إن ضربها. فإن رجعت، فإنه ليس له عليها سبيل. فإن أبت أن ترجع وشاقّته، فليبعث حكماً من أهله، وتبعث حكماً من أهلها).

وذكر ابن جرير بسنده عن عكرمة بن خالد، عن ابن عباس قال: (بعثت أنا ومعاوية حكمين، قال معمر: بلغني أن عثمان رضي الله عنهما بعثهما، وقال لهما: إن رأيتما أن تجمعا جمعتما، وإن رأيتما أن تُفرِّقا فرّقتما).

وقال قتادة: (إنما يبعث الحكمان ليصلحا. فإن أعياهما أن يصلحا، شهدا على الظالم بظلمه، وليس بأيديهما فرقة، ولا يُمَلّكان ذلك).

قلت: ووجه الجمع بين القولين في هذه المسألة أنّ الخطاب يشمل المسلمين والسلطان في ذلك، فأمر الله المسلمين ببعثة الحكمين عند خوف الشقاق بين الزوجين للنظر في أمرهما، فإن تعذر الإصلاح فالأمر للقاضي أو السلطان فهو الذي يفرّق إن شاء.

وقوله: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾. قال سعيد بن جبير: (إن يرد الحكمان إصلاحاً أصلحا). وقال مجاهد: (يوفق الله بين الحكمين).

يعني: إن أخلص الحكمان وأرادا بعملهما وجه الله تعالىٰ يسدد خطاهما للإصلاح.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾. أي: ﴿عَلِيمًا﴾ بما أراد الحكمان من صدق الإصلاح ﴿خَبِيرًا﴾ بذلك وبغيره من أمورهما وأمور العباد جميعاً، لا يخفىٰ عليه شيء، ثم يجازي كلاً بنيّته وعمله.

36. **قوله تعالىٰ:** ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

في هذه الآية: يخاطب سبحانه عباده آمراً لهم أن يفردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم ، ثم يوصي بالوالدين والأقربين واليتامىٰ والمساكين خيراً ، ثم يوجه الوصية للعناية بالجار والإحسان إليه ، ثم ابن السبيل وما ملكت الأيمان ، فإن من لا يشكر الله ولا يقوم بحق أرحامه: الوالدين والأقربين ، وجيرانه وما أوصىٰ الله ، كان مختالاً متكبراً يبغضه الله.

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: [كنت رديف النبي ﷺ على حمار ، فقال لي: يا معاذُ ، أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحقّ العباد على الله: أن لا يعذب من لا يُشرك به شيئاً. قلت: يا رسول الله ، أفلا أبشِّر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا][1].

قال ابن القيم: («الإله» هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة ، وإكراماً وتعظيماً ، وذلاً وخضوعاً ، وخوفاً ورجاء وتوكلاً).

وقال ابن رجب: («الإله» هو الذي يطاع فلا يعصىٰ ، هيبة له وإجلالاً ، ومحبة وخوفاً ورجاء ، وتوكلاً عليه ، وسؤالاً منه ودعاءً له ، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل. فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلٰهية ، كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قوله «لا إله إلا الله» وكان فيه من عبودية المخلوق ، بحسب ما فيه من ذلك)[2].

وقد قرن سبحانه في كتابه كثيراً بين إفراده بالعبادة والإحسان إلى الوالدين ، فقال جل ذكره: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (13/ 300) ، كتاب التوحيد. وأخرجه مسلم (30) في الإيمان.
(2) انظر فتح المجيد (47) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان ، (1/ 100) ، وكذلك لقول ابن القيم.

أخرج البخاري في الأدب المفرد ، وابن ماجة في السنن ، والحاكم في المستدرك ، بسند حسن عن أبي الدرداء قال: [أوصاني رسول الله ﷺ بتسع: لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعْتَ أو حُرِّقْتَ ، ولا تتركن الصلاة المكتوبة متعمداً ، ومن تركها متعمداً برئت منه الذمة[1] ، ولا تشربنّ الخمر ، فإنها مفتاح كل شر ، وأطع والديك ، وإن أمراك أن تخرجَ من دنياك ، فاخرج لهما ، ولا تُنازعنَّ ولاة الأمر ، وإن رأيت أنَّك أنت[2] ، ولا تفِرَّ من الزَّحف ، وإن هلكت وفرَّ أصحابك ، وأنفق من طَوْلك على أهلك ، ولا ترفع عصاك عن أهلك ، وأخِفْهم في الله عز وجل][3] .

وأخرج هو والحاكم عن أبي أيوب الأنصاري: [أن أعرابياً عرض للنبي ﷺ في مسيره ، فقال: أخبرني ما يقربني من الجنة ويباعدني من النار ، قال: تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم][4] .

وقوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ . أي أَمْرٌ بالإحسان إليهم ، وهم ذوو قرابة الرجل من قبل أبيه أو أمه ، فأمر بصلتهما سبحانه ، فإن الرحم تحتج على صاحبها يوم القيامة.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله عز وجل لما خلقَ الخلق قامت الرحم فأخذت بِحقْوِ الرحمن ، فقال: مَهْ ، قالت: هذا مقامُ العائذِ بكَ من القطيعة ، قال: نعم ، أما ترضين أن أَصل من وصلك ، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلىٰ يا رب! قال: فذاك لك. قال أبو هريرة: ثم قال رسول الله ﷺ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾][5] .

وقد أخبر النبي ﷺ عن أثر صلة الأقارب بثراء المال وطول العمر والمحبة في الأهل. فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني بسند صحيح عن عمرو بن سهل ، عن

---

(1) أي: أن لكل أحد من الله عهداً بالحفظ والكلاءة ، فإذا ألقى بيده إلى التهلكة ، أو فعل ما حرم عليه ، أو خالف ما أُمر به خذلته ذمة الله. «النهاية». صحيح الأدب المفرد ص 38.

(2) أي: أنك أنت وحدك على الحق.

(3) حديث حسن. انظر: «صحيح الأدب المفرد» للإمام البخاري ـ حديث رقم ـ (14) ، باب يبرُّ والديه ما لم يكن معصية.

(4) حديث صحيح. انظر: «صحيح الأدب المفرد» للإمام البخاري ـ (35) ، باب صلة الرحم.

(5) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 330) ، وانظر: «صحيح الأدب المفرد» للبخاري ـ (36).

النبي ﷺ قال: [صلة القرابة مثراةٌ في المال ، محبّةٌ في الأهل ، منسأةٌ في الأجل][1] .

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جمع يتيم. وهو الطفل قد مات والده وهلك .

وقوله: ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ جمع مسكين ، وهو من ركبه ذل الفاقة والحاجة ، فتمسكن لذلك. فأمر سبحانه بالإحسان إليهم ، ووعد على ذلك خيراً.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة ، قال رسول الله ﷺ: [إن أردت أن يلينَ قلبُكَ ، فأطعم المسكين ، وامسح رأس اليتيم][2] .

وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ . قال ابن عباس: (يعني الذي بينك وبينه قرابة). وقال مجاهد: (جارك ، هو ذو قرابتك). وقال قتادة: (إذا كان له جار له رحم ، فله حقّان اثنان: حق القرابة ، وحق الجار).

وقوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ . قال ابن عباس: (الذي ليس بينك وبينه قرابة). وقال نوف الشامي: (اليهودي والنصراني) ذكره ابن جرير. وقال مجاهد: (﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ يعني الرفيق في السفر).

قلت: والتفريق في الآية بين الجار ذي القربىٰ والجار الجنب يقتضي قرابة الأول وبعد الآخر حتىٰ لو كان يهودياً أو نصرانياً ، وفي ذلك اشتمال بالوصية لكل أنواع الجيران. وقد امتلأت السنة الصحيحة بالوصايا بالجار ، ومن ذلك:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: [ما زال جبريل يوصيني بالجار حتىٰ ظننت أنه سَيُوَرِّثُه][3] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ أنه قال: [خيرُ الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره][4] .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند حسن عن عبد الرحمن بن أبي قراد ، عن

---

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (2/ 374) ، والحاكم (4/ 161) ، وصحيح الجامع (3662).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 263) ، والطبراني في «مختصر مكارم الأخلاق» (1/ 120/ 1).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6015) ، ومسلم (2625) ، وأخرجه أحمد (2/ 85).

(4) حديث إسناده جيد. أخرجه أحمد في المسند (2/ 167) ، والترمذي (1944) ، ورجاله ثقات.

النبي ﷺ قال: [إن أحببتم أن يحبّكم الله تعالىٰ ورسولهُ فأدّوا إذا اؤْتمنتم ، واصدُقوا إذا حدَّثتم ، وأحسنوا جوار من جاوركم][1] .

وقوله: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ . قال سعيد بن جبير: (الرفيق في السفر) .

وقال مجاهد: (رفيقك في السفر ، الذي يأتيك ويده في يدك) .

وقال ابن مسعود: (هي المرأة) . قال ابن عباس: (يعني: الذي معك في منزلك) .

وقال زيد بن أسلم: (هو جليسك في الحضر ورفيقك في السفر) . وقال سعيد بن جبير: (هو الرفيق الصالح) .

وكلها أقوال يحتملها البيان الإلـٰهي ، وقد أوصىٰ سبحانه بالإحسان إلى هذا الصاحب: سواء كان المرأة في البيت أو الرفيق في السفر .

وقوله: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ . قال مجاهد: (هو الذي يمر عليك وهو مسافر) .

وقال ابن عباس: (هو الضيف) . وقال الربيع: (هو المارّ عليك ، وإن كان في الأصل غنياً) .

قلت: ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأن الضيف القادم عليك من سفر وإن كان غنياً فقد أوصىٰ الله سبحانه بالإحسان إليه وإكرامه .

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ . قال مجاهد: (مما خوّلك الله ، كل هذا أوصىٰ الله به) . فهي وصية بالأرقاء بالإحسان إليهم ، فإن الرقيق ضعيف الحيلة أسير عند الناس ، وقد كان من آخر كلامه عليه الصلاة والسلام في مرض موته: [الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم][2] .

وقد امتلأت السنة الصحيحة بالتحذير من إيذاء الرقيق واستغلال ضعفه:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن المعرور بن سُويد قال: رأيت أبا ذر الغفاري رضي الله عنه وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه حُلَّةٌ ، فسألناه عن ذلك فقال: إني سابَبْتُ رَجُلاً فشكاني إلى النبي ﷺ. فقال النبي ﷺ: أعَيَّرتَـهُ بأمِّه؟ ثم قال: [إن إخوانكم خَوَلُكُم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ولْيُلْبِسْهُ

(1) حديث حسن. رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع الصغير ، حديث رقم ، (1422) .
(2) حديث صحيح لشواهده. انظر مسند أحمد (3/ 117) ، وصحيح ابن حبان (6605) . وله شواهد .

مما يَلْبَسُ ، ولا تُكلّفوهم ما يَغْلِبُهُم ، فإن كَلَّفتموهم ما يَغْلِبُهم فأعينوهم][1] .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [للمملوك طعامه وكسْوته ، ولا يُكلّف من العمل إلا ما يُطيق][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا صنع لأحدكم خادمُه طعامه ثم جاء به ، وقد وَليَ حَرَّه ودُخانه فليقعده معه فليأكل ، فإن كان الطعام مشفوهاً قليلاً فليضع في يده منه أُكْلَةً أو أُكْلَتين][3] . قال داود وهو ابن قيس : يعني لقمة أو لقمتين .

الحديث الرابع : أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن المقدام بن مَعْد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ: [ما أَطْعَمْتَ نفسك فهو لك صدقة ، وما أطعمتَ ولدك فهو لك صدقة ، وما أطعَمْتَ زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة][4] .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ . قال مجاهد : (يعني متكبراً ، ﴿ فَخُورًا ﴾ قال : يعدّ ما أُعطي ، وهو لا يشكر الله) .

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث تحذر الكبر والفخر الجاهلي ـ أي على طريقة الجاهلية ـ :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن حارثة بن وهب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر][5] .

الحديث الثاني : أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2545) ، كتاب العتق ، وأخرجه مسلم برقم (1661) ، ورواه أحمد في المسند (5/ 158) .
(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1662) ، وأحمد (2/ 247) ، والبيهقي (8/ 6) ، وغيرهم .
(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم (1663) ، كتاب العتق . وانظر مختصر صحيح مسلم (909) .
(4) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (4/ 131) ، والنسائي في «الكبرى» (9185) .
(5) حديث صحيح . أخرجه البخاري (8/ 507) ، (10/ 408) ، وأخرجه مسلم (2853) .

يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة؟ قال: إن الله جميل يحب الجمالَ ، الكبر بطرُ الحق وغَمْطُ الناس][1] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [بينما رجل يمشي في حلة تُعْجِبُه نفسُه ، مُرَجِّلٌ رأسَهُ ، يختال في مِشْيَتِه ، إذ خسف الله بـه ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة][2] .

الحديث الرابع: أخرج الحاكم بسند صحيح عن مُطَرِّف قال: [كان يَبْلُغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءَه ، فلقيته فقلت: يا أبا ذر ، بلغني أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم: «إن الله يحب ثلاثة ويبْغض ثلاثة»؟ فقال: أجل ، فلا إخالني أكذب على خليلي ، ثلاثاً؟ قلت: مَن الثلاثة الذين يَبغِضُ الله؟ قال: المختال الفخور ، أو ليس تجدونه عندكم في كتاب الله المنزل؟ ثم قرأ الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾][3] .

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد من حديث أبي تميمة عن رجل من بَلْهُجَيم قال: قلت: يا رسول الله ، أوصني. قال: [إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله لا يحبّ المَخيلة][4] .

37 ـ 39. قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (91) ، وأبو داود (4091) ، وأخرجه الترمذي (1999).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 221) ، (10/ 222) ، وأخرجه مسلم (2088).
(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (2/ 88 ـ 89) ح (2446) ، والبيهقي في «الشعب» (9549) ، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وهو كما قالا.
(4) إسناده صحيح. وجهالة الصحابي لا تضر. وهو جزء من حديث أطول. انظر مسند أحمد(5/ 63). و(5/ 64) ، ح (20109) (20110).

ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذمّ الله تعالىٰ أهل البخل عن الإنفاق فيما أمرهم الله ، من الأرحام واليتامىٰ والمساكين. وفضح أهل الرياء الذين حملهم عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر على فساد نياتهم. ثم التقريع عليهم بأنه ما الذي كان يمنعهم من صدق الله الإيمان والاستعداد للقائه والإنفاق في سَبيله!! والله تعالىٰ غني عنهم محيط بأعمالهم ونيّاتهم سواء صَدقوا أم كذبوا.

قال طاووس: (البخل أن يبخل الإنسان بما في يديه ، والشحّ أن يشِح على ما في أيدي الناس. قال: يحبّ أن يكون له ما في أيدي الناس بالحِلِّ والحرام ، لا يقنع).

وقال قتادة: (﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ وهم أعداء الله أهل الكتاب ، بخلوا بحق الله عليهم ، وكتموا الإسلامَ ومحمداً ﷺ ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل).

وهذا تأويل محتمل ، وإن كان السياق يدل على التأويل الأول ، وهو البخل بالمال.

وفي التنزيل: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: 8 ـ 11]. وكذلك قوله تعالىٰ في سورة التغابن: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

وفي صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][1].

وله شاهد في المسند ، للإمام أحمد ، من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: [إياكم والشّح ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ، برقم (2578) ، كتاب البر والصلة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 195) ، والحاكم (1/ 11) ، والبيهقي (10/ 243) ، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾. تأكيد لشدة البخل المؤدي لجحود النعمة، فلا تظهر عليهم في مطعم أو ملبس أو إعطاء.

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾.

أخرج الإمام أحمد والنسائي عن والد أبي الأحوص قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ أثرُ نعمة الله عليك وكرامتِه][1].

وله شاهد عند الطبراني من حديث زهير بن أبي علقمة ولفظه: [إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك، فإن الله يحب أن يرىٰ أثره على عبده حسناً، ولا يحب البؤس ولا التباؤس][2].

وسببه أنه أتىٰ النبي ﷺ رجل سيِّئ الهيئة، فقال: ألك مال؟ قال: نعم كل أنواع المال. قال: فَلْيُرَ عليك، فذكره...

وله شاهد عند البيهقي في «الشعب» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله عز وجل إذا أنعم على عبدٍ نعمة يحب أن يرىٰ أثر النعمة عليه، ويكره البؤس والتباؤس، ويبغض السائل الملحف، ويحب الحيي العفيف المتعفف][3].

وقوله: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾.

قال القرطبي: (فَصَلَ تعالىٰ تَوَعُّدَ المؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة والثاني عذاباً مهيناً).

وقال ابن كثير: (والكفر هو الستر والتغطية، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها، فهو كافر لنعم الله عليه).

وقال ابن جرير: (وجعلنا للجاحدين نعمة الله التي أنعم بها عليهم، من المعرفة بنبوة محمد ﷺ، المكذبين به بعد علمهم به، الكاتمين نعته وصفته مَنْ أمرهم الله ببيانه له من الناس، ﴿ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ يعني: العقاب المذل من عُذِّب بخلوده فيه، عَتاداً له في آخرته، إذا قدِمَ على ربه وَجَدَه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/ 473)، والنسائي في السنن (8/ 180). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (252).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني رقم (5308)، ورجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد (5/ 132).

(3) أخرجه البيهقي (2/ 231/ 1) في «الشعب». وله شواهد. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1320).

قلت: ولا شك أن البخل والشح بريد إلى الكفر بالله ونعمه فأول المطاف البخل والشح ، وأوسطه استحلال المحارم وسفك الدماء وقطيعة الأرحام ، ونهاية المطاف الكفر بالمنعم سبحانه وجحود نعمه. وهذا يجمع بين الأقوال السابقة ، ولله الفضل والمنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾. يعني: أنهم يقصدون السمعة والمدح وحصول الثناء عليهم من الناس والشهادة لهم بالكرم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركتهُ وشِرْكَهُ][1].

وفي صحيح مسلم عن سليمانَ بن يسارٍ قال: تفرَّق الناسُ عن أبي هُريرة. فقال له نَاتِلُ أهل الشام[2]: أيها الشَّيْخُ! حَدِّثْني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، قال: نعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أوَّل الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه ، رجلٌ استُشهِدَ ، فَأُتِيَ به فَعرَّفَه نِعْمَتَه فَعَرَفها ، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قَاتَلْتُ فيكَ حتىٰ استُشهدت ، قال: كذبتَ ، ولكنَّك قاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ جَرِيءٌ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحبَ على وجهه حتىٰ أُلقِيَ في النار ، ورجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمهُ وقرأ القرآنَ ، فأُتِيَ به ، فَعَرَّفَهَ نِعَمَهُ فَعَرَفها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وعَلَّمْتُهُ وقرأت فيكَ القرآنَ. قال: كذبتَ ولكنكَ تَعَلَّمتَ العِلْمَ لِيُقالَ عالِمٌ ، وقَرَأْتَ القرآن لِيُقالَ هو قارئٌ ، فقد قيل ، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتىٰ أُلقيَ في النار ، ورجلٌ وسَّعَ الله عليه وأَعطاهُ من أصناف المال كُلِّه ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركْتُ من سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلا أَنْفَقْتُ فيها لك ، قال: كذبتَ ، ولكنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هو جوادٌ ، فقد قيل ، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهِهِ ، ثم أُلقي في النار][3].

وقوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

يعني: ولا يصدقون بوحدانية الله ، ولا بالرجوع إليه يوم المعاد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم (2985) ، كتاب الزهد والرقائق.

(2) وفي رواية: ناتل الشامي ، وهو ناتل بن قيس الحزامي الشامي من أهل فلسطين ، وهو تابعي ، وكان أبوه صحابياً ، وكان ناتل كبير قومه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1905) ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أخرج الإمام مسلم عن عائشة قالت: [قلت: يا رسول الله! ابْنُ جُدْعانَ كان في الجاهلية يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطْعِمُ المِسْكينَ، فهل ذاكَ نافِعُهُ؟ قال: لا يَنْفَعُهُ، إنه لم يَقُلْ يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين][1].

والخلاصــة: أنَّ الرياء الذي كان عليه هؤلاء كان بسبب عدم إيمانهم بالله واليوم الآخر، واتخاذهم الشيطان ولياً فَسَوَّلَ لهم وأملىٰ لهم، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

والمعنىٰ: من يكن الشيطان له خليلاً وصاحباً وناصحاً فساء الصاحِب وهلك المصحوب.

وقوله: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾.

المعنىٰ: أي شيء كان يمنع هؤلاء من صدق الإيمان بالله، والتصديق بالدار الآخرة، والاستعداد لها، والإنفاق في وجوه الطاعات مما رزقهم الله.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. أي: بنياتهم وأعمالهم، فمهما أرادوا فهو محيط به، سواء أرادوا الدنيا والسمعة أو أرادوا الله ورضوانه والدار الآخرة.

40 ـ 42. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

في هذه الآيــات: إخبار الله تعالىٰ أنه لا يبخس أحداً من عباده شيئاً حتىٰ لو كان مثقال ذرة، فيضاعف للمؤمن، ويعطي الكافر من الدنيا ثم يحبط عمله في الآخرة. فكيف ـ يا محمد ـ إذا أُحضر من كل أمة من يشهد عليهم وجئنا بك على كل الأمم شهيداً. يومئذ يتمنىٰ الذين جحدوا الله ونعمه وشكره لو سواهم الله والأرض فصاروا تراباً شأن مصير البهائم، ولم يكتموا شيئاً بل فضحهم الله وأخزاهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (214)، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل. ورواه أيضاً برقم (2791)، وأخرجه أحمد (6/ 35)، والترمذي (3121).

فعن ابن عباس: (الذرة: رأس النملة). وقال مرة: (النملة الحمراء).

وقال يزيد بن هارون: (زعموا أن الذرة ليس لها وزن).

قلت: وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فلها وزن عند الله وترجح بها كفة الميزان، كما قال جل ذكره: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 16].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 6 ـ 8].

وفي صحيح مسلم ومسند الطيالسي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله لا يظلم المؤمن حسنته، يثاب عليها الرزق في الدنيا ويُجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بها في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة لم تكن له حسنة][1].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ـ في حديث الشفاعة ـ قال رسول الله ﷺ: [فيقول الله تعالىٰ: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ دينار من إيمان فأخرجوه، ويُحرِّمُ الله صورَهم على النار، فيأتونهم وبعضُهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقَيْهِ، فَيُخرجون مَنْ عَرَفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ نصفِ دينار فأخرجوه، فيُخرجون مَنْ عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا. قال أبو سعيد: فإنْ لم تصدِّقوا فاقرؤوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: 40]][2].
وفي رواية: «أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار، فيُخرجون خلقاً كثيراً».

قال قتادة: (كان بعض أهل العلم يقول: لأن تفضُل حسناتي على سيئاتي ما يزن ذرّة، أحب إليّ من أن تكون لي الدنيا جميعاً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2808)، والطيالسي (2011)، وأحمد (3/ 123)، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7439)، كتاب التوحيد، وأخرجه مسلم برقم (183)، ورواه أحمد في المسند (3/ 16).

وقوله: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾. يعني: وإن تك زنةُ الذرة حسنة يضاعفها.

وفي الصحيحين عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال فيما يروي عن ربه عز وجل: [إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك في كتابه، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومَنْ همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هو همَّ بها فعمِلَها كتبها الله سيئة واحدة. زاد مسلم في رواية: أو محاها، ولا يهلك على الله إلا هالك](1).

وقوله: ﴿وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾. قال ابن مسعود: (أي: الجنة يعطيها). وقال سعيد بن جبير: (الأجر العظيم: الجنة).

وقوله: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾.

أخرج البخاري عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: [يجيء نوحٌ وأمته، فيقول الله: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم أي ربِّ! فيقول لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاء لنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، والوسط: العدل، فيُدعون، فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم](2).

وصَحَّ أن أمة محمد ﷺ تشهد لكل نبي أيضاً بالبلاغ حين يكذبه قومه يوم القيامة. فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري والنسائي عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبيّ ومعه الرجلان، والنبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعىٰ قومه، فيُقال لهم: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: مَنْ يشهدُ لك، فيقول: محمد وأمته، فيدعىٰ محمدٌ وأمتُه، فيقال لهم: هل بَلّغَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيُقال: وما عِلْمُكم بذلك؟ فيقولون: جاءَنا نبيّنا، فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فصدَّقناه، فذلك

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (131) ح (207)، (208). ورواه بنحوه البخاري. انظر صحيح الجامع (1792)، وتفصيل الروايات في كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 219).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3339)، كتاب أحاديث الأنبياء. وأخرجه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7890).

قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾][1].

والخلاصة في المعنى: كيف إذا جئنا من كل أمة بمن يشهد عليها بأعمالها، وتصديقها رسلَها أو تكذيبها، وجئنا بك يا محمد على كل الأمم شهيداً، بما فيها أمتك.

قال ابن جريج: (﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ ﴾، قال: رسولها، فيشهد عليها أن قد أبلغهم ما أرسله الله به إليهم، ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال: كان النبي ﷺ إذا أتى عليها فاضت عيناه).

فكل رسول يشهد على أمته، ثم يجيء محمد ﷺ وأمته فيشهدون على جميع الأمم، ولا شك أن هذه الآية أبكت نبينا ﷺ عندما سمعها تُتلى عليه.

ففي الصحيحين والمسند عن عبد الله بن مسعود قال: [قال لي رسول الله ﷺ: اقرأ عليّ. فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: نعم، إني أُحِبُّ أن أسمعه من غيري. فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال: حَسْبُكَ الآن. فإذا عيناه تَذْرِفان][2].

وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ ﴾. أي: يتمنى الذين جحدوا وحدانية الله وتعظيمه وعصوا رسوله. ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ ﴾ يعني لو سوّاهم الله والأرض فصاروا تراباً مثلها شأن مصير البهائم.

وقرأها قراء الكوفة ﴿لو تَسَوَّىٰ﴾. وقراء الحجاز ومكة والمدينة: ﴿لو تَسَّوَّىٰ﴾. وقرأها غيرهم: ﴿لو تُسَوىٰ﴾، وكلها قراءات مشهورة.

وقوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال قتادة: (معناه أنهم لما تبين لهم وحوسبوا لم يكتموا).

2 ـ قال ابن عباس: (لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (6/ 286)، ومسند أحمد (2/ 32)، ورواه النسائي. انظر صحيح الجامع (7889). من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5050)، ومسلم (800)، وأحمد (1/ 380)، وأخرجه أبو داود (3668)، وأخرجه النسائي (125) في «التفسير»، وأخرجه الترمذي (3028)، وابن حبان (735)، وغيرهم. من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

﴿كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم فلا يكتمون الله حديثاً).

3 ـ وقال الزجاج: (قال بعضهم: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ مستأنف، لأن ما عملوه ظاهر عند الله لا يقدرون على كتمانه. وقال بعضهم: هو معطوف، والمعنىٰ: يودّ لو أن الأرض سوّيت بهم وأنهم لم يكتموا الله حديثاً لأنه ظهر كذبهم).

قلت: وكلها معان يحتملها البيان الإلهي المعجز، فإن صدقوا فأعمالهم تدل عليهم، وإن كتموا وكذبوا أنطق الله جوارحهم فشهدت بما كان من مكرهم وصنيعهم وشركهم.

43. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)﴾.

في هذه الآيـة: نَهْيُ الله المؤمنين أن يُصَلُّوا حالة سكرهم في تمهيد لتحريم الخمر، ولا جنباً حتى يغتسلوا، وإباحة التيمم عند فقدان الماء.

قال مجاهد: (نُهوا أن يصلوا وهم سكارىٰ، ثم نسخها تحريمُ الخمر).

أخرج الإمام أحمد والإمام مسلم وأبو داود عن سعد بن أبي وقاص قال: [نزلت فيَّ أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاماً، فدعا أناساً من المهاجرين وأناساً من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتىٰ سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجلٌ لَحْيَ بعير فَفَزَر به أنف سعد، فكان سعد مَفْزور الأنف، وذلك قبل تحريم الخمر، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾... الآية] الحديث[1].

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن علي بن أبي طالب قال: [صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة، فقدّموني فقرأت ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ (١) لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ونحن نعبد

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1748) ح (34)، و(4/ 1878) ح (44)، وأخرجه أبو داود (208)، وأحمد (1/ 185 ـ 186)، والترمذي (3189)، وهو جزء من حديث أطول.

ما تعبدون ، فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾][1].

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾.

تحذير مما يكون حالة السكر من التخليط بالقراءة وفقدان التدبر والخشوع في الصلاة. وقد حذرت السنة النعسان المغلوب من استمرار القيام في الليل ، فربما يدعو على نفسه من حيث لا يدري.

أخرج البخاري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف فَلْيَنَمْ حتىٰ يعلم ما يقول][2].

وفي رواية لمسلم من حديث أبي هريرة: [إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع].

وفي لفظ عنده من حديث عائشة: [إذا نعس أحدكم فليرقد ، حتىٰ يذهب عنه النوم ، فإنه إذا صلى وهو ناعس ، لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه][3].

كما حذرت السنة من كل ما يشوش على المصلي ويشغله عن الإقبال بقلبه على الله كالجوع ومدافعة الأخبثين. ففي سنن أبي داود بسند حسن من حديث أبي هريرة قال ﷺ: [لا يصلين أحدكم وهو حاقن][4]. وروى مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [لا صلاة بحضرة طعام ، ولا هو يدافِعهُ الأخبثان][5]. وروىٰ عنها أيضاً مرفوعاً: [إذا حضر العَشاء وأقيمت الصلاة ، فابدؤوا بالعَشاء][6].

وقوله: ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾.

اختلف فيه أهل التأويل على أقوال ، أقربها للمعنى الصحيح الموافق للسنة الصحيحة ما يأتي:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ ، يقول: لا تقربوا الصلاة وأنتم

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي (2422) ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء ، آية (43).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (213) ، والنسائي (1/ 215) ح (442) ، وأحمد (3/ 100).
(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (212) ، وصحيح مسلم (786) ، ومسند أحمد (6/ 56).
(4) حديث حسن. أخرجه أبو داود (91)، والحاكم (1/ 168) وصححه، ووافقه الذهبي، وله شواهد.
(5) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح برقم (560) ، وأخرجه أبو داود في السنن برقم (89).
(6) حديث صحيح. أخرجه البخاري (671) ، (5465) ، وأخرجه مسلم (558) ، وأحمد (6/ 40).

جُنب إذا وجدتم الماء ، فإن لم تجدوا الماء فقد أحللتُ لكم أن تمسّحوا بالأرض).

2 ـ وقال علي رضي الله عنه: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ ، قال: (إلا أن تكونوا مسافرين فلم تجدوا الماء ، فتيمّموا) ذكره ابن جرير.

3 ـ وقال مجاهد: (ا[illegible] إذا لم يجد الماء فإنه يتيمّم ، فيدخلُه فيصلي). وقال: (مسافرين ، لا يجدون ماء فيتيممون صعيداً طيباً ، لم يجدوا الماء فيغتسلوا).

وأما ما ذكر الحسن: (الجنب يمر في المسجد ولا يقعُد فيه) ، وكذلك ما ذكر ابن مجاهد عن أبيه: (لا يمر الجنب في المسجد يتخذه طريقاً) فلا دليل على هذا المنع.

أضف إلى ذلك أن استنادهم في ذلك إلى أحاديث ضعيفة منها: [إني لا أحل المسجد لحائض ولا جنب] فهو ضعيف عند المحدثين ، فيه أفلت العامري ـ مجهول ـ قاله الخطابي. وفيه جَسْرة. قال البخاري: عند جسرة عجائب. وفيه محدوج لم يوثق. والحديث في ضعيف سنن أبي داود.

وكذلك استنادهم لحديث: [يا علي ، لا يحل لأحدٍ أن يُجْنِبَ في هذا المسجد غيري وغيرك]. أخرجه الترمذي وهو ضعيف ، فيه علتان: عطية العوفي وسالم بن أبي حفصة كلاهما واهٍ.

وخلاصة المعنىٰ: لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارىٰ ، ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنب حتىٰ تغتسلوا ، إلا أن تكونوا عابري سبيل في سفر ولم تجدوا ماء فتيمّموا صعيداً طيباً. وهذا هو المعنىٰ الذي يتوافق مع السنة الصحيحة: ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [قال لي رسول الله ﷺ: ناوليني الخُمْرَة من المسجد. فقلت: إني حائض. فقال: إن حيضَتَك ليست في يدك][1].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: [لَقِيَني رسولُ الله ﷺ وأنا جُنُبٌ ، فأخذ بيدي ، فمَشَيْتُ معه حتىٰ قَعَدَ ، فانسَلَلْتُ فأتيتُ الرَّحْلَ فاغْتَسَلْتُ ، ثم جئت وهو قاعِدٌ فقال: أين كنتَ يا أبا هريرة؟ فقلت له: فقال: سبحان الله يا أبا هريرة! إنَّ المؤمن لا يَنْجُسُ][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (298) ، وأبو داود (261) ، والنسائي (1/ 192) ، والترمذي (134) ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند (6/ 114).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (285) ، كتاب الغسل. باب: الجُنُبُ يخرج ويمشي في السوق وغيره. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: [الصعيد الطيّب طَهورُ المسلم ، وإن لم تجد الماء عشر حِجَج ، فإذا وجدت الماء فأمسَّهُ بشرتك ، فإن ذلك خير][(1)].

ويشهد للمعنىٰ السابق أيضاً ما رواه الإمام أحمد و سعيد بن منصور في سننه بسند صحيح أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك. قال سعيد بن منصور في سننه: [حدثنا عبد العزيز بن محمد ـ هو الدّراوَرْدِيُّ ـ عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار قال: رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ ، يجلسون في المسجد وهم مُجْنِبُون ، إذا توضوؤوا وُضوءَ الصلاة]. ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير ، وقال: وهذا إسناد على شرط مسلم.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾.

المرض المبيح للتيمم مع وجود الماء هو كل مرض لا ينصح معه باستعمال الماء لأنه يزيده أو يؤذي صاحبه. يروي ابن جرير بسنده عن ابن مسعود قال: (المريض الذي قد أرخص له في التيمم ، هو الكسير والجريح. فإذا أصابت الجنابة الكسيرَ اغتسل ، ولم يحلّ جبائره. والجريح لا يحل جراحته ، إلا جراحة لا يخشىٰ عليها).

قال ابن كثير: (أما المرض المبيح للتيمّم ، فهو الذي يُخاف معه من استعمال الماء ، فوات عضو أو شَيْنه أو تطويل البرء. ومن العلماء من جوز التيمّم بمجرد المرض لعموم الآية).

وقال الشافعي: (لا يجوز له التيمم مع وجود الماء إلا أن يخاف التلف) ، وبه قال مالك.

قلت: وأشمل ما ذكر هو قول ابن كثير رحمه الله ، فكل مرض يخشىٰ معه من استعمال الماء بتأخر البرء أو الإفساد لبعض مناطق الجسم وأعضائه فيباح فيه التيمم.

وقوله: ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾. يجوز التيمم بسبب السفر طال أو قصر عند عدم الماء. وهو مذهب مالك.

قلت: ولا يقتصر التيمم على السفر بل يجوز في الحضر في الحالات التالية:

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (332) ، وأحمد (5/ 155) ، والترمذي (124) ، وغيرهم.

1 ـ عند الحاجة للماء للطعام والشراب ، وعدم كفاية الماء المتوفر للطهارة.

2 ـ عند البرد الشديد وصعوبة التسخين في الوقت وخشية الأذىٰ من ذلك الماء البارد في الطقس البارد.

3 ـ عند المرض في الحضر وخشية إمرار الماء على العضو المصاب.

وقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾. يعني المقيم إذا عدم الماء تيمم.

أخرج البخاري عن أبي الجُهَيْم بن الحارث بن الصِّمّة الأنصاري قال: [أقبل النبي ﷺ من نحو «بئر جَمَلٍ»[1] فلقيه رجل فسلّم عليه فلم يردّ عليه النبي ﷺ حتىٰ أقبل على الجِدار فمسح بوجهه ويديه ، ثم ردّ عليه السلام][2].

ورواه الدَّارقُطْنِيّ من حديث ابن عمر وفيه: [ثم ردّ على الرّجل السلام ، وقال: إنه لم يمنعني أن أردّ عليك إلا أني لم أكن على طهر][3].

وقوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾.

قُرِئَ ﴿لَمَسْتم﴾ و«لا مستم». وفيه قولان:

1 ـ عني بذلك كلّ لمس ، بيدٍ كان أو بغيرها. وأوجبوا منه الوضوء. وهو قول الشافعي وأصحابه ، ومالك ، والمشهور عن أحمد. وحجتهم أنه ببعض القراءات ﴿لَمَسْتم﴾ والنبي ﷺ قال لِمَاعِزٍ حين أقرّ بالزنا: [لعلك قبّلت أو لَمَسْت]. وقول ابن مسعود: (اللمس ما دون الجماع) ذكره ابن جرير. وقوله أيضاً: (يتوضأ الرجل من المباشرة ومن اللمس بيده ، ومن القُبلة).

2 ـ عني بذلك الجماع دون ما سواه.

قال ابن عباس: (﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: الجماع) رواه ابن أبي حاتم.

ويروي ابن جرير بسنده عن سعيد بن جُبير قال: ذكروا اللمس ، فقال ناس من الموالي: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللمس الجماعُ. قال: فأتيت ابن عباس فقلت له: إن ناساً من الموالي والعرب اختلفوا في اللمس ، فقالت الموالي: ليس

(1) موضع قرب المدينة.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (337) ، وبنحوه أخرجه مسلم (369) ، وأخرجه النسائي (1/ 165) ، وكذلك أخرجه ابن حبان (805).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (16) ، والدراقطني (1/ 177) من عدة طرق ، وسنده قوي.

بالجماع. وقالت العرب: الجماع. قال: من أيّ الفريقين كنت؟ قلت: من الموالي. قال: (غُلب فريقُ الموالي. إن اللمس والمسّ والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء).

قلت: ولا عبرة باستخدامات اللفظ المختلفة في زمن التنزيل، إنما العبرة بفعل النبي ﷺ وتشريعه.

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة: [أن النبي ﷺ: قَبَّلَ امرأة من نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ][1].

قال عروة: فقلت لها: من هي إلا أنت؟ فضحكت[2].

وروى عن عائشة: [أن النبي ﷺ قبلها ولم يتوضأ][3].

وله شاهد عند الإمام أحمد والنسائي عنها قالت: [كان يُقَبِّلُ بعضَ أزواجه، ثم يصلي ولا يتوضأ][4].

فالتقبيل مسٌّ وزيادة، وهذه الأحاديث الصحيحة تقطع الخلاف عند من نوّر الله حياته بعلم الحديث، ومن ثمَّ فاللمس المقصود بالآية بعد الاستئناس بالسنة الصحيحة هو الجماع، وهذا يوافق مرونة الشريعة ومقاصدها، فالحرج كل الحرج أن يتوضأ العبد لكل لمس عارض ليد أخته أو أمه أو زوجته أو ما يكون في طريق الناس وازدحام أسواقهم.

وقوله: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾.

منه استنبط الفقهاء القاعدة المشهورة: (إذا حضر الماء بطل التيمم).

أخرج البخاري ومسلم عن عِمْران بن حُصين: [أن رسول الله ﷺ رأىٰ رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم، فقال: يا فلان، ما منعك أن تُصَلّي مع القوم؟ ألست برجل مسلم؟

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود (165)، باب الوضوء من القُبلة.

(2) هو عروة بن الزبير، الراوي عن عائشة وهو ابن أختها.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (164)، الباب السابق.

(4) حديث صحيح. رواه أحمد في المسند، والنسائي في السنن. انظر صحيح سنن النسائي (164). ورواه الترمذي وابن ماجة والبيهقي. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4873).

قال: بلىٰ يا رسول الله ، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء. قال: عليك بالصعيد ، فإنه يكفيك][1] .

والتيمّم لغة: القصد. والصعيد: كل ما صعد على وجه الأرض. ومن ثمّ فإن كل ما هو من جنس الأرض من التراب والرمل والحجر والجدران داخل في ذلك. والطيب: قيل الحلال ، أو الذي ليس بنجس.

ففي صحيح مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: [فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعِلت صُفُوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلُّها مسجداً ، وجُعِلت تربَتُها لنا طَهوراً إذا لم نجدِ الماء]. وفي لفظ: [وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء][2] .

وفي مسند أحمد وجامع الترمذي وصحيح الحاكم عن أبي ذر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الصَّعيد الطيِّبَ وَضُوء المسلم وإن لم يجد الماء عشرَ سنين ، فإذا وجد الماء فليُمِسَّه بشرتهُ ، فإنّ ذلك هو خير][3] .

وفي لفظ: [إن الصعيد الطيب طهور ما لم تجد الماء ولو إلى عشر حجج ، فإذا وجدت الماء فأمِسَّه بشرتَك].

وقوله: ﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: [أجنبت فلم أصب ماء ، فتمعكت[4] في الصعيد وصليت ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: إنما كان يكفيك هكذا. وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما ، ثم مسح بهما وجهه وكفيه][5] .

وفي المسند عن عمار ، عن النبي ﷺ قال: [التيمم ضربة للوجه والكفين][6] . وسيأتي سبب نزول آية التيمم في أول سورة المائدة إن شاء الله تعالىٰ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (344) و(348) ، ومسلم (682) ، وأخرجه أحمد (4/ 434).
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (522) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (8022) ، وأحمد (5/ 383).
(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (5/ 155) ، وسنن الترمذي (124) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1663) ، وكذلك رقم (1662) للفظ الذي بعده.
(4) فتمعكت: تمرغت.
(5) متفق عليه. أخرجه البخاري (347/ 455/ 1) ، ومسلم (368/ 280/ 1) ، والنسائي (166/ 1).
(6) حديث صحيح. رواه أحمد وغيره. انظر صحيح الجامع (3017) ، وهو في معنى الحديث السابق.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. أي: عفواً عن ذنوب عباده، ما لم يشركوا به، ﴿غَفُورًا﴾ فلم يزل يستر عليهم ذنوبهم كما غفر وستر عن صلاتهم في ما مضىٰ سكارىٰ.

44 ـ 46. قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

في هذه الآيات: فضحُ الله اليهود في تكذيبهم محمداً ﷺ وقد عرفوه، وفي سلوكهم الفاسد وتعاملهم المنكر، وطردهم من رحمة الله بكفرهم.

قال قتادة: (﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾، فهم أعداء الله اليهود، اشتروا الضلالة).

والمقصود باشترائهم الضلالة: تكذيبهم بمحمد ﷺ وتركهم الإيمان به وهم عالمون أن الواجب عليهم كما جاء في كتبهم الإيمان به.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾. أي: يود هؤلاء اليهود لو تكفرون بما أنزل عليكم فتشابهونهم في الضلال.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾. أي: بعداوة هؤلاء اليهود ومكرهم بكم أيها المؤمنون، فاحذروا الوقوع في أهوائهم.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾. أي: حسبكم الله يحرسكم من أعداء دينكم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾ أي: وينصركم عليهم.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾. ﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنس. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يبدلون معناها ويغيِّرونها عن تأويله. قال مجاهد: (تبديل اليهود التوراة).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾. قال ابن زيد: (قالوا: قد سمعنا، ولكن لا نطيعك). وقال مجاهد: (قالت اليهود: سمعنا ما تقول ولا نطيعك). يخاطبون رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ ـ فيه قولان:

1 ـ قال الحسن: (كما تقول اسمع غيرَ مسموعٍ منك).

2 ـ وقال الضحاك عن ابن عباس: (أي: اسمع ما نقول، لا سمعت)، وهذا استهزاءٌ منهم واستهتار. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾.

قال ابن عباس: (فإنهم كانوا يستهزئون، ويلوون ألسنتهم برسول الله ﷺ، ويطعنون في الدين).

فهم يُوهِمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم راعنا، وإنما يريدون الرعونة، وقد مضىٰ الكلام في ذلك في سورة البقرة، آية (104)، وكيف يستخدمون ذلك في سب النبي ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

قال ابن جرير: (ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم، قالوا لنبي الله: سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا ما نقول، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا... لكان ذلك خيراً لهم عند الله، ﴿وَأَقْوَمَ﴾ يقول: وأعدل وأصوب في القول).

وقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

المعنىٰ: ولكن استمرارهم على صفة التكبر والمكر أبعدهم عن الله، فلا يؤمنون إيماناً نافعاً ينجيهم، وإنما هو خليط من التشكيك والاستهزاء والكبر والغرور.

47 ـ 48. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾.

في هذه الآيات: الخطاب موجه لأهل الكتاب، يأمرهم به الله سبحانه أن يؤمنوا بالقرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ، والذي فيه تصديق ما بأيديهم من بشارات

التوراة والإنجيل، وذلك قبل أن ينالهم ما يكرهون من طمس الوجوه واللعن وغير ذلك من أسباب الخزي والهلاك. فإن الله تعالىٰ لا يغفر الشرك به وقد يغفر ما دون ذلك من الأعمال لمن يشاء، فالشرك أكبر الإثم وأعظم الظلم.

وقوله: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ ـ فيه أكثر من تفسير:

التفسير الأول: محوه آثارها حتىٰ تصير كالأقْفاء، أو نطمس أبصَارها فنصيّرها عمياء، أوْ نجعل أبصارها من قبل أقفائها.

قال ابن عباس: (وطمسها: أن تعمىٰ. ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾، يقول: أن نجعل وجوههم من قبل أقفِيتهم، فيمشون القهقرىٰ، ونجعل لأحدهم عينين في قفاه).

وقال قتادة: (نحول وجوهها قبل ظهورها).

التفسير الثاني: أن نعمي قوماً عن الحق فنردهم في الضلالة والكفر.

قال مجاهد: (﴿ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾، فنردها عن الصراط، عن الحق، ﴿ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾، قال: في الضلالة).

وقال الضحاك: (يعني: أن نردهم عن الهدىٰ والبصيرة، فقد ردَّهم علىٰ أدبارهم، فكفروا بمحمد ﷺ وما جاء به).

التفسير الثالث: أن نمحو آثارهم فنردهم من حيث جاؤوا من الشام.

قال ابن زيد: (﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ قال: كان أبي يقول: إلى الشأم).

التفسير الرابع: أن نمحو آثارها فنجعل الوجوه منابت الشعر كالقردة، لأن شعور بني آدم في أدبار وجوههم.

واختار ابن جرير التفسير الأول: أي من قبل أن نطمس أبصار وجوههم ونمحو آثارها فنسويها بالأقفاء، فيمشون القهقرىٰ، فإن السياق يقتضيه.

وقوله: ﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾. أي: نحولهم قردة. قاله قتادة والحسن.

وقال ابن زيد: (هم يهود جميعاً، نلعن هؤلاء كما لعنّا الذين لعنّا منهم من أصحاب السبت).

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾. أي: لا يُخالف ولا يمانَع.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

المعنىٰ: من لقي الله وهو يشرك به لا يغفر له، ويغفر سبحانه ما دون ذلك من الذنوب لمن شاء من عباده.

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنىٰ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي ذر قال: [أتيت رسول الله ﷺ فقال: ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة. قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: وإن زنىٰ وإن سرق. قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: وإن زنىٰ وإن سرق. ثلاثاً، ثم قال في الرابعة: على رَغْم أنف أبي ذر. قال: فخرج أبو ذر وهو يجرُّ إزاره وهو يقول: وإن رَغِمَ أنف أبي ذر. وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد ويقول: وإن رغم أنف أبي ذر][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار][2].

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بسند صحيح عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال:

[قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم! مهما عَبَدتني ورجَوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرتُ لك على ما كان منك، وإن استقبلتني بملءِ السماء والأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بملئِهِنَّ من المغفرة، وأغفِرُ لك ولا أبالي][3].

الحديث الرابع: أخرج البزّار بسند جيد عن نافع، عن ابن عمر قال: [كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتىٰ سمعنا نبينا ﷺ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقال أَخَّرْتُ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة][4].

وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5827)، ومسلم (94) ح (154)، وأحمد (5/ 166).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (93)، كتاب الإيمان. باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار. وانظر كتابي: أصل الدين والإيمان (1/ 72)، لتمام البحث.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح الجامع (4217)، ومسند أحمد (5/ 154)، (5/ 153).

(4) إسناده جيد. أخرجه البزار ـ حديث رقم ـ (3254)، وذكره ابن كثير في التفسير، وله شواهد.

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله قال: [قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك. .] الحديث[1].

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

49 ـ 52. قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

في هذه الآيـات: ذم الله الذين يزكون أنفسهم من أهل الكتاب، ويفترون على الله الكذب، ويؤمنون بالجبت والطاغوت، ويمدحون المشركين ويطعنون بالمؤمنين، أولئك الذين طردهم الله من رحمته في الملعونين.

قال قتادة: (﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، وهم أعداء الله اليهود، زكوا أنفسهم بأمر لم يبلغوه، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وقالوا: لا ذنوب لنا).

وقال الضحاك: (قالت اليهود: ليست لنا ذنوب إلا كذنوب أولادنا يوم يولدون! فإن كانت لهم ذنوب فإن لنا ذنوباً! فإنما نحن مثلهم، قال الله تعالى ذكره: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾).

وقال الحسن: (هم اليهود والنصارىٰ، قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾. وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾).

وقيل: تزكيتهم أنفسهم تقديمهم أطفالهم لإمامتهم في الصلاة زعماً أنه لا ذنوب

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6001)، كتاب الأدب، وأخرجه مسلم برقم (76)، ورواه أحمد في المسند (1/ 434)، وغيرهم.

لهم. أو زعمهم أن أبناءهم سيشفعون لهم. وكله مرجوح بالقول الأول المناسب للسياق.

وقد جاءت السنة الصحيحة بذم التمادح والتزكية، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن المقداد بن الأسود قال: [أَمرنا رسول الله ﷺ أن نحثوَ في وجود المدَّاحين التراب][1].

وفي لفظ: [إذا رأيتم المداحين، فاحْثوا في وجوههم التراب].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي موسىٰ قال: [سمع النبي ﷺ رجلاً يُثني على رجل ويُطريه في المِدْحة، فقال: أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل][2]. والإطراء المبالغة في المَدْح.

الحديث الثالث: أخرج الشيخان من حديث أبي بكرة وفيه: [إن كان أحدكم مادحاً لا محالة، فليقل: أَحْسِبُ كذا وكذا، إن كان يرىٰ أنه كذلك، ولا يزكي على الله أحداً][3].

وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

1 ـ قال ابن عباس: (الفتيل ما خرج من بين إصبعيك). يعني من الوسخ، إذا فتلت إحداهما بالأخرىٰ.

2 ـ وقال عطاء: (الفتِيل، الذي في بطن النواة). وقال مجاهد: (الفتيل، في النّوىٰ).

3 ـ وقال الضحاك: (الفتيل، شق النواة).

وكلها معان محتملة، مفادها أن الله يزكي من يشاء من خلقه فيوفقه، ويخذل من يشاء من أهل معاصيه، ولا يظلم أحد عنده مقدار الفتيل.

وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾. يعني الذين يزكون أنفسهم من أهل

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (3002)، والبخاري في «الأدب المفرد» (339)، وأحمد (6/ 5).

(2) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (2662)، وصحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (3000)، ومسند أحمد (5/ 46)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (10/ 397)، (10/ 398)، وصحيح مسلم (3000)، (3001)، وكذلك سنن أبي داود (4805)، وسنن البيهقي (10/ 242).

الكتاب ويقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وأنه لا ذنوب لهم، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارىٰ، إلى غير ذلك من الزور والكذب.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا﴾. قال ابن جرير: (يعني أنه يبين كذبهم لسامعيه، ويوضح لهم أنهم أَفَكَةٌ فجرة).

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ۝٥١ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

أخرج الإمام أحمد وابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس قال: [لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترىٰ إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية. قال: أنتم خير منه، قال: فأنزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾. وأنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾][1].

وفي قوله: ﴿بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ أقوال:

1 ـ قال عكرمة: (الجبت والطاغوت صنمان).

2 ـ قال ابن عباس: (الجبت: الأصنام، والطاغوت: الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبّرون عنها الكذب ليضلوا الناس).

3 ـ قال مجاهد: (الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان).

وقال: (والطاغوت: الشيطان في صورة إنسان يتحاكمون إليه، وهو صاحب أمرهم).

4 ـ قال سعيد بن جبير: (الجبت: الساحر، بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن).

والجمع بين هذه الأقوال: الجبت والطاغوت اسمان لكل معظَّم بعبادة من دون

(1) حديث صحيح. ورواه ابن جرير (9791) ورجاله رجال الصحيح. وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة النساء آية (51). والصنبور المنبتر: كناية عن الرجل الضعيف الذليل بلا أهل ولا عقب ولا ناصر.

الله ، فيدخل في ذلك الحجر والإنسان والكاهن والساحر والشيطان ، ومن دعا إلى عبادة نفسه ، ومن عُبد وهو راض ، وكل منهج يخالف شريعة الله ومنهجه الذي ارتضىٰ لعباده.

وقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾. يعني: أخزاهم وأبعدهم من رحمته بسبب إيمانهم بالجبت والطاغوت وكفرهم بالله ورسوله. ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾. يعني: من يخزه الله ويطرده من رحمته فلا ناصر له ولا منقذ.

53 ـ 55. **قوله تعالىٰ:** ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

في هـذه الآيـات: ذمُّ القوم من أهل الكتاب الموصوفين بالبخل ، والحاسدين لمحمد ﷺ وأصحابه على النبوة والصحبة ، وقد كانت النبوة فيهم من قبل والملك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وكفىٰ بجهنم سعيراً.

قال ابن كثير: (﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾؟ وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك. ثم وصفهم بالبخل ، فقال: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾: أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً ، ولا ما يملأ النقير).

قال ابن عباس: (﴿نَقِيرًا﴾ يقول: النقطة التي في ظهر النواة). وقال مجاهد: (النقير ، حبة النواة التي في وسطها).

والخلاصـة: لقد وَصف الله هؤلاء القوم من أهل الكتاب بالبخل بالشيء اليسير الدنيء ، حتىٰ لو كانوا أهل سعة وقدرة. كما قال سبحانه في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾. والقتور: البخيل.

وقوله: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ .

المعنىٰ: توبيخ من الله لهؤلاء اليهود على حسدهم محمداً وأصحابه ، على اختياره الله سبحانه للنبوة ، واختيار الأصحاب للجندية والمتابعة .

قال مجاهد: (﴿ ٱلنَّاسَ ﴾ محمداً ﷺ). وقال قتادة: (أولئك اليهود ، حسدوا هذا الحيَّ من العرب على ما آتاهم الله من فضله). وقال ابن عباس: (نحن الناس دون الناس).

وقوله: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ . يعني جعلنا النبوة في ذرية إبراهيم ، وأنزلنا عليهم الكتاب والسنن ، وجعلنا منهم الملوك.

وقولُه: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾ . يعني بما اصطفينا للنبوة. ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾ أي: كفرَ وأعرض عنه. قال مجاهد: (﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ ﴾: بما أنزل على محمد من يهود ، ﴿ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ﴾).

وقوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ . أي: كفىٰ بالنار لهيباً وعقوبة وألماً لمن كان من أهلها.

56 ـ 57. قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: آية هي من أشد آيات القرآن هولاً ورهبة ووعيداً ، يخبر بها سبحانه عن حال مقيت لأهل النار ، وعن مصير فاجع مؤلم رهيب. وآية تقابل الأولىٰ تَنْعَتُ الحال الهنيء لأهل الإيمان والعمل الصالح ، في روضات الجنات حيث الظل الظليل وجريان الأنهار والزوجات المطهرة ذات الجمال.

فقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا ﴾ ـ أي: ندخلهم فيها لتذوق أجسامهم لهيبها.

وقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

يروي ابن جرير بسنده عن ابن عمر قال: (إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً بيضاً أمثال القراطيس). وقال قتادة: (كلما احترقت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها). أي: هم في عذاب دائم يشبه ديمومة كفرهم في الأرض ومكرهم المتتابع بالرسل والمؤمنين.

وقوله: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾. أي: ليجدوا ألم العذاب وكربه وشدته، مقابلة لما كانوا يستكبرون ويبغون في الأرض بغير الحق.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. أي: ﴿عَزِيزًا﴾ في انتقامه ممن عانده، ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وقضائه.

وقد جاءت السنة الصحيحة بوصف بعض ألوان العذاب للكفار ونعت بعض صفاتهم آنذاك:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين منكبي الكافر في النار مسيرةُ ثلاثة أيام للراكب المسرع].

وفي رواية: [ضِرسُ الكافر مثل أحد، وغِلظ جلده مسيرة ثلاث][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً، وإن ضِرْسَهُ مثل أحد، وإن مَجْلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن سمرة بن جندب، أن النبي ﷺ قال: [منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَـرْقُـوَتِـه][3].

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1983)، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 766) لمزيد من تفصيل عن صفة النار وصفة أهلها وأحوالهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3/ 342)، والحاكم (4/ 595). وانظر تخريج المشكاة (5675)، والسلسلة الصحيحة (1105)، وصحيح الجامع (2110) بزيادة: «وأربعون ذراعاً بذراع الجبار» أي: من جبابرة الآدميين ممن كان في القرون الأولىٰ وأحسبه ملكاً من ملوك الأعاجم كان تام الذراع، وكان أعظم خلقاً وأطول أعضاء وذارعاً من الناس.

(3) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1953) في تفصيل أكبر من حديث المقداد. والحجزة: وسط الإنسان، ومعقد إزاره.

الحديث الرابع: أخرج الحاكم في المستدرك بسند حسن عن أبي موسىٰ ، عن النبي ﷺ قال: [إن أهل النار ليبكون ، حتىٰ لو أُجريت السفن في دموعهم جَرَتْ ، وإنهم ليبكون الدم][1] .

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ ﴾ .

هذه هي الصورة المقابلة للصورة الأولىٰ. فجنات الخلود والنعيم والسعادة والاستقرار ، وهي تجري من تحتها الأنهار ، من ثواب العاملين المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح .

وقوله: ﴿ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ ﴾ . قال ابن عباس: (مطهرة من الأقذار والأذىٰ). وقال مجاهد: (مطهرةٌ من البول والحيض والنُّخام والبزاق والمني والولد) .

وقال قتادة: (مطهرة من الأذىٰ والمآثم ولا حيض ولا كَلَف) .

والمقصود أن الله سبحانه هيأ للمؤمنين في الجنة أزواجاً جمعن من الحسن والجمال والأدب والطهارة والفتنة والبهاء أعلى درجاته .

وقوله: ﴿ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ . أي: ظلاً كنيناً عميقاً ممدوداً. قال تعالىٰ: ﴿ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴾ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن في الجنة لشجرةً يسير الراكبُ الجوادَ المضمَّرَ السريع في ظلها مئة عام ما يقطعها][2] . زاد ابن جرير في رواية عنده: (اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴾) .

58 . قوله تعالىٰ: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ .

في هذه الآيــة: أَمْـرٌ من الله سبحانه بأداء الأمانات إلى أهلها ، وإقامة العدل عند الحكم بين الناس ، فنعم الأمرُ هو من المنعم الكبير السميع البصير .

---

(1) حديث حسن. أخرجه الحاكم (4/ 605). انظر السلسلة الصحيحة ، حديث رقم (1679).

(2) حديث صحيح. وانظر صحيح البخاري (3251) من حديث أنس ، وصحيح مسلم (2828) من حديث أبي سعيد. وانظر اللفظ السابق في صحيح الجامع ـ حديث رقم (2121).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتىٰ يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء][1] .

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخنْ من خانك][2] .

قال أبو العالية: (الأمانة ما أمروا به ونُهوا عنه). وقال أبيّ بن كعب: (من الأمانات أن المرأة اؤْتُمِنَتْ على فَرْجها). وقال ابن عباس: (يدخل فيه وَعْظُ السلطان النساء ، يعني يوم العيد). وقال الربيع بن أنس: (هي من الأمانات فيما بينك وبين الناس).

وفي الصحيح: [وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً].

وقوله: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾ .

هذا أمر للولاة بإقامة العدل في الحكم بين الناس ، ويدخل في ذلك كل من وُكل إليه أمر الفصل بين الناس في شؤونهم المختلفة ، وأمر القضاء.

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن معقل بن يسار ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ مع القاضي ما لم يَحِفْ عمْداً][3] .

ورواه الحاكم والبيهقي من حديث ابن أبي أوفىٰ بلفظ: [إن الله تعالىٰ مع القاضي ما لم يجرْ ، فإذا جارَ تبرّأَ منه ، وألزمه الشيطان].

ورواه ابن حبان عنه بلفظ: [إن الله مع القاضي ما لم يَجُرْ عمداً ، فإذا جار وكلهُ إلى نفسه].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ .

أي: نعم ما يعظكم الله به من أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، فهو سبحانه لم يزل سميعاً بما تقولون وتنطقون ، بصيراً بما تعملون وتفعلون فيما وكل إليكم حفظه من الأمانة أو الرعية.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2583) ، كتاب البر والصلة ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 235).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3535) ، والترمذي (1264) ، وانظر صحيح الجامع (238).

(3) حديث حسن. ورواه الطبراني عن ابن مسعود. انظر تخريج المشكاة (3741) ، وصحيح الجامع الصغير (1824) ، وانظر لرواية الحاكم وابن حبان بعده صحيح الجامع الصغير ، الحديث رقم (1822) ، (1823) ، ورواه الترمذي وغيره.

أخرج أبو داود وابن خزيمة في الصفات بسند على شرط مسلم ، عن المقري ، حدثنا حرملة ، حدثني أبو يونس ، سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ ، ويضع إبهامه على أذنه ، والتي تليها على عينه ويقول : [هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع إصبعيه][1] .

59. قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ .

في هذه الآية : أمْرُ الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله وأمراء الحق والعلماء من بعدهم ، وَبِرَدِّ الأَمْرِ عند الخلاف إلى الأصلين العظيمين : الكتاب والسنة ، ذلك هو السبيل القويم لمن آمن بالله واليوم الآخر .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما : [﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن حُذافة بن قيس بن عَدِيّ إذ بعثه رسول الله ﷺ في سَرِيّة][2] .

وعن عطاء : (﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ ، قال : طاعة الرسول ، اتباعُ سنته) . أو قال : (طاعة الرسول ، اتباع الكتاب والسنة) . وقد ورد أكثر من قول في قوله : ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ :

1 ـ قال أبو هريرة : (هم الأمراء) ـ ذكره ابن جرير .

2 ـ وقال مجاهد : (أولي الفقه منكم) . أو قال : (أولي الفقه والعلم) .

3 ـ وقال ابن أبي نجيح : (أولي الفقه في الدين والعقل) .

4 ـ وقال ابن عباس : (يعني : أهل الفقه والدين) .

---

(1) حديث على شرط مسلم. أخرجه أبو داود (4728) ، وابن حبان (265) ، وابن خزيمة في «الصفات» ص 42 ـ 43. وأورده الحافظ ابن كثير. النساء (58) .

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4584) ، ومسلم (1834) ، وأبو داود (2624) ، وغيرهم .

5 ـ قال مجاهد: (أهل العلم). وقال عطاء: (الفقهاء والعلماء).

6 ـ وقال مجاهد في رواية: (أصحاب محمد). وقال عكرمة: (أبو بكر وعمر). واختار ابن جرير أنهم الأمراء والولاة. وقال الحافظ ابن كثير: (والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الآية عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء).

قلت: ولا شك أن الأمراء المسلمين من الخلفاء والحكام ومن قام بالأمر منهم على منهاج الكتاب والسيرة النبوية يجب طاعتهم، فإن غابوا أو غاب الحكم بالإسلام فالواجب طاعة العلماء الربانيين الذين هم يقتفون أثر المنهج النبوي لإعادة بناء جماعة المسلمين واستئناف الخلافة في الأرض والشوكة. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: [السمعُ والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ وكَرِه، ما لم يُؤْمَرْ بمعصية، فإذا أُمِرَ بمعصية فلا سمع ولا طاعة][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: [اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمِّرَ عليكم عبدٌ حَبَشيٌ كأن رأسه زبيبة][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن عُبادة بن الصامت قال: [بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في مَنْشَطِنا ومكرهنا، وعُسْرنا ويُسْرِنا، وأثَرَةٍ علينا، وأن لا نُنازعَ الأمر أهله. قال: إلا أن تروا كُفراً بَواحاً عندكم فيه من الله برهان][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [أوصاني خليلي أن أسمع وأُطيعَ، وإن كان عبداً حبشياً مُجَدَّعَ الأطراف][4].

الحديث الخامس: أخرج البخاري ومسلم، وأحمد واللفظ له، عن علي قال: [بعث رسول الله ﷺ سَرِيَّةً، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا وَجَدَ عليهم في شيء، فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلىٰ. قال: اجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخُلُنَّها.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2955) و(7144)، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة من صحيحه (1839)، ورواه أحمد (2/ 17)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (693) و(7142)، وابن ماجة (2860)، وأحمد (3/ 114).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7055 ـ 7056)، ومسلم (1840) ح (42)، وأحمد (5/ 321).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1837). وانظر الرواية رقم (1838) بمعناه أيضاً.

قال: فَهَمَّ القوم أن يدخلوها. قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تَعْجَلوا حتىٰ تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعةُ في المعروف][1].

الحديث السادس: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: [كانت بنو إسرائيل تَسُوسُهم الأنبياء، كلَّما هلك نبي خلفَهُ نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون. قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم][2].

الحديث السابع: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [من رأىٰ من أميره شيئاً فكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدٌ يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية][3].

وله شاهد في صحيح مسلم من حديث ابن عمر بلفظ: [من خلعَ يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حُجَّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعةٌ مات ميتة جاهلية].

وقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾. قال مجاهد: (أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله).

فهذا منهاج المؤمنين عند التنازع، التجرد من حظوظ النفس والشبهات، والنزول عند حكم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه، ولا حياة للأمة ولا قوة ولا شوكة إلا بهذا المنهج العظيم، فهو الذي يوحد القلوب والنفوس ويحيي مجد هذه الأمة من جديد، وغيابه شر عظيم يمزق الأمة ويفرق قلوب أبنائها ويُسلط عليها أعداءها.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾.

في هذه الآية تشكيك بإيمان من لا يرضىٰ بالتحاكم لله وسنة رسوله وسيرته العطرة عند التنازع، يشكك الله بها بإيمانه به وبلقائه في الدار الآخرة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7257)، ومسلم (1840)، وأحمد (1/ 82)، (1/ 124).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3455)، ومسلم (1842)، وأحمد (2/ 297)، وابن ماجة (2871)، وأبو يعلىٰ (6211)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7053)، ومسلم (1849)، وانظر للشاهد بعده صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1851).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾. أي: التحاكم إلى المنهاج الأحكم والأمثل: كتاب الله وسنة نبيه.

وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. قال مجاهد: (أحسن جزاءً). وقال قتادة: (أحسن ثواباً وخيرٌ عاقبة). وقال ابن زيد: (وأحسن عاقبة. والتأويل: التصديق).

60 ـ 63. قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرٌ مِنَ الله بالكفر بمناهج الطاغوت واقتراحات الشياطين، وتحكيم شرع الله الحكيم، وفَضْحٌ لسبل المنافقين والمُبْطلين والمعاندين، وكَشْفٌ لِما في قلوبهم من الزيغ والهوىٰ وما في ألسنتهم من الافتراء والكذب والحلف الباطل.

يروي الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، عن عكرمة عن ابن عباس قال: [كان أبو بَرْزَةَ الأسلمي كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾][1].

ثم إن الآية عامة في كل من عدل عن الكتاب والسنة ورضي التحاكم إلى منهج من مناهج أهل الدنيا، وهو المراد بالطاغوت في تعريفه العام: كل منهج يخالف منهج الله

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس. قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ سورة النساء ـ آية (60).

ورسوله ، فيدخل بذلك الشيطان ومناهج الكهنة والسحرة وأهل المناهج الوضعية الأرضية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ . أي : يمتنعون من المجيء إليك لتحكم بينهم ، كما يمنعون من المصير إليك غيرهم ، فيعرضون عنك كبراً وعُلواً .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ .

أي : كيف بهم يا محمد إذا نزلت بهم نقمة من الله أو مصيبة بما اكتسبوه من ذنوبهم ثم جاؤوك يعتذرون ويحلفون كذباً وزوراً ، أنهم ما ذهبوا ليتحاكموا إلى غيرك إلا مداراة ومصانعة ، فإن قلوبهم معك ومع التحاكم إليك .

فقال سبحانه : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ . أي : من الكذب وإرادة التحاكم إلى الطاغوت لأنه يناسب أهواءهم وشهواتهم ومنهاج حياتهم الفاسد. ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ ﴾ . قال ابن جرير : (يقول : فدعهم فلا تعاقبهم في أبدانهم وأجسامهم ، ولكن عظهم بتخويفك إياهم بأسَ الله أن يحلّ بهم ، وعقوبته أن تنزل بدارهم ، وحذِّرهم من مكروه ما هم عليه من الشك في أمر الله وأمر رسوله ، ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ ، يقول : مرهم باتقاء الله والتصديق به وبرسوله ووعده ووعيده) .

64 ـ 65 . قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : يخبر تعالىٰ أن الرسل طاعتهم مرهونة بإذنه سبحانه ، فلا أحد يستطيع في هذه الدنيا أن يحدث طاعة لله إلا بإذن الله ومشيئته وتوفيقه ، ثم يخبر عن حال العصاة المذنبين زمن النبوة أنهم لو تواضعوا حينئذ وجاؤوك ـ يا محمد ـ لتستغفر لهم الله ، لوجدوا الله تواباً غفوراً رحيماً يحب التوبة والاستغفار والندم من المذنبين ،

ثم يقسم تعالىٰ بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتىٰ يحكم الرسول ﷺ في جميع أموره ، ثم ينقاد للحق الذي يحكم به ويستسلم لذلك دون حرج أو مدافعة .

قال مجاهد : (﴿ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ : لا يطيعهم أحد إلا بإذن الله) . وهذا توبيخ من الله للمنافقين المتحاكمين إلى الطاغوت ، وهم يزعمون أنهم يؤمنون بما أنزل الله إلى رسوله ﷺ . فإن من هداه الله ونوّر قلبه وفقه لطاعة رسله ، وإلا تركه متخبطاً تائهاً في ظلمات الهوىٰ .

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ .

إرشاد من الله للعصاة المذنبين أن يأتوا إلى الرسول ﷺ ، فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم ، إذن لوجدوا مغفرة الله ورحمته قريبة منهم .

قلت : وهذه الآية خاصة في حياة النبي ﷺ ، أما وقد غاب عنا ومات فلا يلجأ العبد عند استغفاره إلا إلى الله العزيز الغفار .

ففي صحيح مسلم عن الأغَرِّ بن يسار المُزَني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإني أتوب في اليوم مئة مرة][1] .

وفي صحيح مسلم أيضاً عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [إن الله تعالىٰ يبسط يده بالليل ليتوب مسيءُ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها][2] .

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : [من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه][3] .

قال القرطبي : (هذا الحديث أجري مجرىٰ المثل الذي يُفهم منه قبول التوبة واستدامة اللطف والرحمة ، وهو تنزل عن مقتضىٰ الغني القوي القاهر إلى مقتضىٰ اللطيف الرؤوف الغافر) .

---

(1) حديث صحيح . رواه مسلم في صحيحه برقم (2702) (42) دون قوله : «واستغفروه» ، وبزيادة «إليه» بعد «في اليوم» ، وأخرجه أبو داود (1515) ، وغيرهما .

(2) حديث صحيح . أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم (2759) ، كتاب التوبة .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2703) ـ كتاب الذكر والدعاء . باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه .

وقوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾.

أي: حتىٰ يجعلوك حكماً بينهم فيما تشابه واختلط عليهم والتبس حكمه.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾. قال مجاهد: (شكّاً).

وقال الضحاك: (إثماً).

وقوله: ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾. قال الضحاك: (ويُسلّموا لقضائك وحكمك، إذعاناً منهم بالطاعة، وإقراراً لك بالنبوة تسليماً).

أخرج البخاري ومسلم عن عروة قال: [خاصم الزبير رجلاً من الأنصار في شريج[1] من الحَرَّة، فقال النبي ﷺ: اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك. فقال الأنصاري: يا رسول الله، أَنْ كان ابن عمتك؟ فتلوّنَ وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: اسق يا زبيرُ، ثم احبس الماء حتىٰ يرجعَ إلى الجَدْر، ثم أرسل الماء إلى جارك. واستوعىٰ النبي ﷺ للزبير حَقَّهُ في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سَعَة، قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾... الآية][2].

ورواه ابن ماجة بسند صحيح عن عروة بن الزبير، أن عبد الله بن الزبير حدثه: [أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبيرَ عند رسول الله ﷺ في شِراج الحَرَّةِ التي يسقون بها النخل. فقال الأنصاري: سرِّح الماء يمر. فأبىٰ عليه. فاختصما عند رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: اسْقِ يا زُبَيْر. ثم أرسل الماء إلى جارك. فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله! أَنْ كان ابْنَ عَمَّتِكَ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: يا زُبيرُ، اسْقِ. ثم احبسِ الماء حتىٰ يرجع إلى الجَدْر. قال، فقال الزبير: والله، إني لأحْسِبُ هذه الآية نزلت في ذلك. ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾][3].

---

(1) أي في مسيل الماء من الحرة إلى السهل.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4585) (2361) مرسلاً، وأخرجه (2708)، ووصله البخاري (2359)، وأخرجه مسلم (2357)، وأحمد (4/ 4 ـ 5).

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (15) ـ باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ والتغليظ على من عارضه. والشراج جمع شرجة، وهي مسايل الماء. والحرة: أرض ذات حجارة سود. والجدر: الجدار. قيل المراد ما رفع حول المزرعة. وقيل أصول الشجر.

66 ـ 70. **قوله تعالىٰ:** ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ عن قلوب هؤلاء المتحاكمين للطاغوت وهم يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، فلو أمروا بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم طاعة لله ما فعلوا ذلك ولا هاجروا، ولو امتثلوا أمر الله لهم لكان لهم عنده ذخراً وأجراً ونوراً، فإن من يطع الله والرسول يجعله الله مع مَنْ أنعم عليهم من خير خلقه: النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وهؤلاء خير الرفقاء، وهذا فضل كبير من الله الكريم العليم.

قال مجاهد: (﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾، كما أمر أصحاب موسىٰ أن يقتل بعضهم بعضاً بالخناجر، لم يفعلوا إلا قليل منهم).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾. قال السدي: (تصديقاً). أي: لو أنهم امتثلوا ما يُذَكّرونَ به من طاعة الله وتعظيم أمره لكان خيراً لهم في عاجل دنياهم وآجل معادهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾. يعني: جزاء وثواباً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. أي: طريقاً لا اعوجاج فيه يسهل فيه الثبات، فهداية الله تحمل الثبات، والصراط المستقيم هو دين الله القويم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

أخرج الطبراني في «الصغير» بسند جيد، عن عائشة قالت: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحَبُّ إليّ من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي

ومالي ، وأحب إلي من ولدي ، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتىٰ آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإني إذا دخلت الجنة خشيت ألا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً حتىٰ نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾][1] .

وقوله : ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ . يعني في الجنة . فإن مرافقة الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين مقامٌ عظيم يوم القيامة .

أخرج البخاري عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ما من نبي يمرَضُ إلا خُيِّرَ بين الدنيا والآخرة . وكان في شكواه الذي قبض فيه فأخذته بُحَّةٌ شديدة ، فسمعته يقول : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ﴾ فعلمت أنه خُيِّرَ][2] .

ثم قال عليه الصلاة والسلام وهو مسند ظهره إلى عائشة : اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلىٰ . كرّرها ثلاثاً ثم مالت يده .

فكذلك أخرج البخاري عنها ـ في قصة وفاته عليه الصلاة والسلام ـ قالت : [فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسَحُ بهما وجهه يقول : لا إله إلا الله ، إن للموت سَكَرات . ثم نصب يده فجعل يقول : في الرفيق الأعلىٰ . حتىٰ قُبِضَ ومالت يَدُه][3] .

وفي رواية : [أنها سمعت النبي ﷺ ، وأصغَتْ إليه قبل أن يموتَ ، وهو مسندٌ إليَّ ظهره يقول : اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلىٰ] . قالت عائشة : [فكانت آخر كلمة تكلم بها : اللهم الرفيق الأعلىٰ] .

والرفيق : اسم جنس يشمل الواحد والجماعة . أي : أدخلني في جملة الرفقاء الذين

(1) حديث حسن . أخرجه الطبراني في «الصغير» (52) ، و«الأوسط» (480) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (ج 7) ص (7) : رجاله رجال الصحيح إلا عبد الله بن عمران وهو ثقة . وله شاهد من حديث ابن عباس ، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ، وله شواهد كما في تفسير ابن كثير تقويه . وانظر : الصحيح المسند من أسباب النزول ـ سورة النساء ـ آية (69) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4586)، ومسلم (2444)، وأخرجه أحمد (6/ 176) ، وغيرهم .

(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4449) ، كتاب المغازي ، وهو جزء من حديث أطول . وأحمد (6/ 48) . وانظر للروايات الأخرىٰ صحيح البخاري ـ الحديث السابق ـ ، ومسند احمد (6/ 121) . ومسند أبي يعلىٰ (4585) .

خصصتهم بالمكانة الرفيعة في أعلى الجنان. وهم المذكورون في آية النساء السابقة.

وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: [كنتُ أبيتُ عند النبي ﷺ فأتيته بوَضوئه وحاجته، فقال لي: سل، فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود][1].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن أهلَ الجنة ليتراءَوْنَ أهل الغُرَف من فوقهم، كما تراءَونَ الكوكب الدُّرِيَّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلىٰ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين][2].

وفي صحيح البخاري عن أنس: [أن رجلاً من أهل البادية أتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، متىٰ الساعةُ قائمةٌ؟ قال: وَيْلَكَ، وما أعْدَدْتَ لها؟ قال: ما أعددتُ لها إلا أني أُحِبُّ الله ورسوله، قال: إنك مع من أحْبَبْت، فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: نعم، ففرِحْنا يومئذٍ فَرَحاً شديداً][3].

وفي رواية: [المرء مع من أحب]. قال أنس: (فما فرح المسلمون فَرَحهم بهذا الحديث). وفي رواية أخرىٰ قال أنس: (إني لأحبُّ رسول الله ﷺ، وأحبُّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وأرجو أن يبعثني الله معهم وإن لم أعمل كعملهم).

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾. يعني ذلك عطاء الله المؤمنين وفضله عليهم.

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾. أي: بطاعة المطيع منهم، ومعصية العاصي، ومن يستحق صحبة الذين أنعم الله عليهم من الرفيق الأعلىٰ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (489)، والنسائي (2/ 227)، (2/ 228)، وغيرهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3256)، وأخرجه مسلم (2831)، وابن حبان (7393).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6167) كتاب الأدب. وانظر لروايات أنس: صحيح البخاري (3688)، وصحيح مسلم (2639) ح (164)، ومسند أحمد (3/ 192)، وصحيح مسلم (2639) ح (163)، وكذلك صحيح ابن حبان (557).

71 ـ 74. قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

في هـذه الآيـات: أَمْرٌ مِنَ الله تعالىٰ عباده المؤمنين بالتأهب للعدو وأخذ الحذر واستكمال العدة لِقتالِهِ والحثّ على ملاقاته جماعة جماعة وفرقة بعد فرقة وسرية بعد سرية لإنهاكه وتحقيق كسره. ثُمَّ تحْذيرٌ من سبيل المنافقين وأساليب مكرهم وخداعهم، وحث على الصدق في التجارة مع الله سبحانه وشراء الحياة الدنيا بالآخرة، وتذكيرٌ بأجر القتال في سبيل الله في الدنيا والآخرة.

فقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ﴾. كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ﴾. وكقوله: ﴿ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: 102].

قال القرطبي: (هذا وصاة بالحذر لئلا ينال العدو أمله، ويدرك فرصته).

وفي معجم الطبراني بسند صحيح من حديث معاذ، عن النبي ﷺ قال: [استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود][1].

فالآية أمر من الله بأخذ العدة والسلاح الذي ينفع في مواجهة العدو وغزوه وحربه.

وقوله: ﴿فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ﴾. قال ابن عباس: (يقول: عصباً، يعني سرايا متفرقين). وقال مجاهد: (فرقاً، قليلاً قليلاً). وقال قتادة: (الثبات: الفرق). والثبات: جمع ثُبَة، وقد تجمع علىٰ ثُبين. والمقصود انفروا جماعة بعد جماعة وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، بما يحصل فيه كسر العدو وقهره.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في المعاجم الثلاثة، وأبو نعيم في الحلية (5/ 215)، (6/ 96)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 291/ 1)، وانظر السلسلة الصحيحة (1453).

وقوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾. قال ابن عباس: (كلكم). وقال السدي: (مع النبي ﷺ). وكل ذلك يرجع إلى قرار الإمام والقائد. قال القرطبي: (ولا تخرج السرايا إلا بإذن الإمام ليكون متجسساً لهم، عَضُداً من ورائهم، وربما احتاجوا إلى دَرْئه).

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾. قال قتادة: (عن الجهاد والغزو في سبيل الله). وقال ابن جُريج: (المنافق يُبَطِّئُ المسلمين عن الجهاد في سبيل الله). وكلاهما صحيح.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾. فقوله: ﴿مُّصِيبَةٌ﴾. قال ابن زيد: (هزيمة). وقال ابن جريج: (بقتل العدو من المسلمين). فينطق بقول الشامت الكاذب: ﴿قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾. ولم يدر هذا المنافق كم فاته من أجر الشهادة والصبر على القتال وحضور المعركة.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾. أي نصر وظفر وغنيمة. قال ابن جريج: (ظهور المسلمين على عدوهم فأصابوا الغنيمة).

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾. قال القرطبي: (أي: كأن لم يعاقدكم على الجهاد).

وقال ابن كثير: (أي: كأنه ليس من أهل دينكم). وقال القاسمي: (أي: صلة في الدين، ومعرفة بالصحبة). والكلام فيه تقديم وتأخير.

فالمنافقون كانوا يوادّون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر، ويبغون لهم الغوائل في الباطن، فقولهم هذا: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ـ أي: أصيب غنائم كثيرة، وحظاً وافراً ـ هو قول من لم تتقدم له معكم موادّة، بل هو قول الحاسد. قال قتادة وابن جريج: (﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ حسداً منهم لهم).

ثم حثّ سبحانه المؤمنين على الجهاد ـ بعد ذم المبطئين المنافقين ـ فقال: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يبيعونها بها. فهناك تأويلان:

1 ـ قال السدي: (يبيعون الحياة الدنيا بالآخرة). وقال ابن زيد: (﴿يشري﴾: يبيع، و﴿يشري﴾: يأخذ، وإن الحمقىٰ باعوا الآخرة بالدنيا).

فالمعنى هنا: ليقاتل المخلصون الباذلون أنفسهم في طلب الآخرة أعداءَ الله.

2 ـ قيل: بل عني بالاسم الموصول ﴿الذين﴾ المنافقين المبطئين. قال القاسمي: (أي الذين يشترونها ويختارونها على الآخرة، فيكون وعظاً لهم بأن يبدلوا التثبيط بالجهاد).

وقال ابن كثير: (﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ﴾ أي: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: يبيعون دينهم بعَرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم).

وكلا المعنيين يحتملهما البيان الإلهي، والسياق القرآني.

وقوله: ﴿ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [تضمّن الله لمن خرج في سبيله لا يُخرجُه إلا جهادٌ في سبيلي وإيمانٌ بي وتصديق برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أُرجِعَهُ إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة](1).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مثلُ المجاهد في سبيل الله ـ والله أعلمُ بمن يجاهدُ في سبيله ـ كمثل الصائم القائم، وتوكَّلَ الله للمجاهد في سبيله بأنْ يتوفّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجنة أو يَرْجِعَهُ سالماً مع أجْرٍ أو غنيمة](2).

وأما حديث عبد الله بن عمرو ـ رواه مسلم ـ: [ما من غازية تَغْزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجّلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقىٰ لهم الثلث وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم](3).

فلا تعارض مع الحديث قبله، فالحديث الأول محمول على مجرّد النية والإخلاص في الجهاد، فذلك الذي ضمن الله له إما الشهادة، وإما ردّه إلى أهله مأجوراً غانماً، ويحمل الثاني على ما إذا نوى الجهاد ولكن مع نيل المغنم، فلما انقسمت نيّته انحط أجره. ذكره القرطبي.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3123)، (7457)، وأخرجه مسلم (1876)، وأحمد (2/ 399). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2787)، كتاب الجهاد والسير. وأخرجه مسلم (1876) ح (104). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1906)، وأبو داود (2497)، وأحمد (2/ 169)، وغيرهم.

75 ـ 76. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

في هذه الآيات: يحث تعالىٰ أهل الصدق والإيمان على الجهاد لكسر شوكة الكافرين، واستنقاذ المستضعفين بمكة، ـ ثم الآية عامة في كل وضع مشابه إلى قيام الساعة ـ من الرجال والنساء والولدان الذين يقاسون تحت حكم الكفر. فالمؤمنون يقاتلون في سبيل الله العظيم، والكافرون يقاتلون في سبيل الشيطان الرجيم المهين.

قال مجاهد: (أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفي المؤمنين، كانوا بمكة). وقال ابن عباس: (هم أناس كانوا بمكة، لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا، فعذرهم الله، فهم أولئك).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: (كنت أنا وأمي من المستضعفين)[1].

وفيه عن ابن مُلَيْكة أن ابن عباس تلا: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ قال: (كنت أنا وأمي ممن عذر الله عز وجل).

قال ابن زيد: (﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، قال: وما لكم لا تفعلون؟ تقاتلون لهؤلاء الضعفاء المساكين الذين يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها، فهم ليس لهم قوة، فما لكم لا تقاتلون حتىٰ يسلم الله هؤلاء ودينهم؟ قال: و﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾، مكة).

وقوله: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾.

أي: هم يسألون الله سبحانه أن سخّر لنا من عندك ولياً وناصراً لنخرج مما نحن فيه من الفتنة في الدين.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. أي: في سبيل إعلاء كلمته وإقامة منهاج

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري (4587)، والأثر بعده أخرجه أيضاً البخاري (4588).

دينه وشريعته. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ ـ أي: في سبيل طاعة الشيطان وحزبه وفي سبيل نشر منهاجه وطريقه.

وقوله: ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾.

أمْرٌ من الله للمؤمنين بقتال أعدائه الذين يتولون الشيطان وحزبه، ويريدون أن يحكموا في الأرض بمنهاجه، وتهوين لكيد الشيطان وأوليائه، فإنه ضعيف مهزومٌ لا يثبت أمام الصدق مع الله والصدق في الجهاد.

77 ـ 79. **قوله تعالى**: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79) ﴾.

في هذه الآيات: لقد كان الأمر في بدء الإسلام بتمكين إقامة الدين والمجاهدة بالقرآن الكريم، فأُمر المسلمون بمكة بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ـ دون نصاب معلوم قد عُرف بعد ـ بمواساة الفقراء والمحتاجين والأرحام، وكان كثير من الصحابة يتمنون لو أُمروا بالقتال ليشفوا صدورهم من جَلّاديهم ومن الطغاة المجرمين الذين كانوا يعيثون في البلاد فساداً ـ وهي البلاد أشرف بقاع الأرض وفيها بيت الله الحرام ـ فلما حوّلهم الله إلى المدينة وصارت للمسلمين دولة وشوكة ونزل الأمر بالقتال خاف بعضهم من سفك الدماء ويتم الأولاد وتأيم النساء ومتاع الحياة الدنيا، فنزلت هذه الآية تقرعهم. إن الموت الذي تفرون منه قادم ولو تحصّنتم في قصور مشيدة، والنصر والهزيمة من عند الله، وإنما يُنصر المسلمون بإخلاصهم لربهم، ويهزمون بمعصيتهم وتخاذلهم عن الحق والصبر.

أخرج النسائي والحاكم والبيهقي بسند صحيح عن عكرمة عن ابن عباس: [أن عبد

الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة ، فقالوا: يا رسول الله ، إنا كنا في عزة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا ، فلما حولنا الله إلى المدينة أمرنا بالقتال فكفوا ، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ . . .﴾ الآية][1].

وقوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وهو الموت. قال ابن جريج: (قال: إلى أن نموت موتاً ، هو «الأجل القريب»).

وقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾. قل يا محمد لهؤلاء: إن عيشكم في الدنيا وتمتعكم بها قليل لأنها فانية وما فيها فان ، وإن نعيم الآخرة هو النعيم الباقي لمن أقام الدين وجاهد في سبيل الله. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: أي لا ينقصكم الله من أجوركم مقدار فتيل ـ وهو ما يكون في شق النواة.

وقرأ الحسن: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فقال: (رحم الله عبداً صَحِبها على حَسب ذلك ، وما الدنيا كلُّها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومةً ، فرأىٰ في منامه بعض ما يحبُّ ثم انتبه) ـ ذكره ابن كثير بسَنده عند ابن أبي حاتم.

وقال ابن معين: كان أبو مُسْهر ينشد:

ولا خيرَ في الدنيا لمن لم يكنْ له   من الله في دار المقام نصيب
فإن تعجِب الدنيا رجالاً فإنها   متاعٌ قليلٌ والزّوال قريب

وقوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.

قال قتادة: (في قصور محصنة). وقال ابن جريج: (قصور مشيدة). وقال السدي: (وهي قصور بيض في سماء الدنيا ، مبنية). وقال الربيع: (ولو كنتم في قصور في السماء).

والمقصود أن الموت قادم إلى العبد لا محالة ولو تحصن في أعلى أبراج الدنيا وقصورها. وفي التنزيل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي (6/ 3) ، وفي «التفسير» (132) ، والحاكم (2/ 66) ، والبيهقي (9/ 11) ، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي. النساء (77).

وقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾.

قال ابن جرير: «وإن ينلهم رخاء وظفر وفتح ويصيبوا غنيمة «يقولوا هذه من عند الله» ، يعني: من قبل الله ومن تقديره ، «وإن تصبهم سيئه» ، يقول: وإن تنلهم شدة من عيش وهزيمة من عدو وجراح وألم ، يقولوا لك يا محمد: «هذه من عندك» ، بخطئك التدبير).

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (يقول: الحسنة والسيئة من عند الله ، أما الحسنة فأنعم بها عليك ، وأما السيئة فابتلاك بها).

وقوله: ﴿فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾. أي لا يكادون يعلمون حقيقة ما يجري حولهم في شأن الحسنات والسيئات ، وقسمة الله ذلك بين عباده كالأرزاق ، فمن رضي الله عنه وفقه لفعل الحسنات ، ومن سخط على منهجه ذلل له فعل السيئات ، والله وحده أعلم بالشاكرين.

وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾. المعنىٰ: الحسنة فضل من الله ييسّرها للعبد ليرفعه عنده سبحانه ، والسيئة عقاب من الله لتقصير في حياة العبد يبتعد العبد بها عن ربه.

قال ابن جريج: (﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ ، قال: عقوبةً بذنبك).

أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: [ما يصيب المسلمَ من نصب ولا وصب ولا همٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذى ولا غمٍّ حتىٰ الشوكة يُشاكُها إلا كفّر الله بها من خطاياه](1). والنصب: التعب ، والوصب: المرض.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن البراء ، عن النبي ﷺ قال: [ما اختلج عِرْقٌ ولا عينٌ إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر](2).

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم (1798) ، ومسند أحمد (2/ 303) ، وسنن البيهقي (3/ 373) ، وصحيح مسلم (2573) ، وسنن الترمذي (966).

(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم 1053) ، وانظر: الصحيحة (2215).

وفي التنزيل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾.

وقوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾.

المعنىٰ: وإنما جعلناك يا محمد رسولاً إلى الخلق كافة، تبلغهم رسالة ربك فيما أوحىٰ إليك، وقد أيّدك الله بحجة الوحي وبإثباتات النبوة، فما عليك إلا البلاغ، ثم الله شهيد على أعمال عباده ومطلع على قلوبهم، وهو جامعهم بين يديه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

80 ـ 81. قوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١﴾.

في هذه الآيات: طاعة رسول الله ﷺ واجبة لأنها من طاعة الله، ولا عذر لأحد عند الله في التنكر لمنهاج نبيه وسنته وسيرته، فهو رسوله الذي دعا إلى دينه الذي ارتضىٰ، والله محيط بما يُبَيِّت المنافقون والكافرون من المكر بدينه ورسوله، فتوكل عليه يا محمد، وكفىٰ بالله وكيلاً.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصىٰ أميري فقد عصاني][1].

وقوله: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾. قال ابن زيد: (هذا أول ما بعثه، قال: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: 48]. قال: ثم جاء بعد هذا بأمره بجهادهم والغلظة عليهم حتىٰ يسلموا).

والمقصود أن من أطاعه فقد نجا، ومن عصاه فقد خاب وخسر، فلا عليك منه يا محمد.

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كل أمتي يدخلون الجنة إلا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7137)، ومسلم (1835)، وأحمد (2/ 270)، وغيرهم.

من أبىٰ ، قيل: ومن يأبىٰ؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبىٰ][1] .

وقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ خبر عن المنافقين يظهرون الموافقة ويقولون لنبي الله ﷺ أمرك طاعة، وهم الذين ذُكر أنهم يخشون الناس من الجهاد كخشية الله أو أشد خشية.

وقوله: ﴿ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ .

أي: إذا خرجوا من لقائك غيّر جماعة منهم ليلاً الذي تقول لهم. قال قتادة: (يغيّرون ما عهد نبي الله ﷺ). وقال ابن عباس: (غَيَّرَ أولئك ما قال النبي ﷺ).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ . أي: ما يقولون ويغيّرون. قال الضحاك: (هم أهل النفاق). وقال ابن جرير: (والله يكتب ما يغيّرون من قولك ليلاً في كُتب أعمالهم التي تكتبها حفظتُه).

وقوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

إرشاد من الله لنبيه ﷺ بالصفح عنهم وعدم مكاشفتهم ، والاعتصام بالله سبحانه وكفىٰ به منتقماً منهم ، ودافعاً عنك ووليّاً وناصراً ومعيناً.

82 ـ 83. قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يرشد تعالى هؤلاء ويأمرهم بِتَدَبُّرِ هذا الكتاب وتفهم معانيه ، ويحذرهم مغبة الإعراض عنه ، فإنه لو كان مفتعلاً لوجدوا فيه اضطراباً كثيراً. ثم يحذر سبحانه من الإشاعة الكاذبة وبث الأخبار بين المسلمين دون تثبت من مصادرها ونقلتها ، وأنهم لو ردوها إلى عالميها لكان خيراً لهم من بثها وخلخلة الصفوف بها ، وتدخل الشيطان في محاولات الإفساد والتخريب لمجتمع المسلمين.

فعن قتادة: (﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

---

(1) حديث صحيح. رواه البخاري في الصحيح ـحديث رقمـ (7280)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أي: قول الله لا يختلف ، وهو حق ليس فيه باطل ، وإن قول الناس يختلف).

وقال الضحاك: (﴿ يَتَدَبَّرُونَ﴾ ، النظر فيه).

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ. . . ﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: [لما اعتزل رسول الله ﷺ نساءه قال: دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصىٰ ويقولون: طلق رسول الله نساءه ، وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب. قال عمر: فقلت: لأعلمن ذلك اليوم ـ فذكر الحديث ، وفيه بعد استئذانه على رسول الله ﷺ ـ فقلت: أطلقتهنَّ يا رسول الله؟ قال: لا ، قلت: يا رسول الله إني دخلت المسجد والناس ينكتون بالحصىٰ يقولون: طلّق رسول الله ﷺ نساءه ، فأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: نعم إن شئت ، فذكر الحديث وفيه: فقمت على باب المسجد فناديت بأعلىٰ صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ، ونزلت الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾. قال: وكنت أنا استنبطت ذلك ، وأنزل الله آية التخيير][1].

فالآية إنكار على من يبادر بنشر الأمور قبل التحقق منها ، فإنه قد لا يكون لها أساس من الصحة.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [كفىٰ بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع][2]. قلت: والآيتان مترابطتان مع بعضهما في المنهج ، فإن العلم بالواقع جزء من العلم بالدين ، فكما أن فهم القرآن لا يكون إلا من عالم بتأويله وبتفسير رسول الله ﷺ له ، وكذلك الواقع لا يؤخذ الخبر فيه إلا من أهل التثبت والدقة. وتفصيل ذلك:

أ ـ في أمر الدين وفهم المتشابه من القرآن

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جده قال: [لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حُمْرَ النَّعم ، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ عند باب من أبوابه ، فَكَرِهْنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حَجْرَة إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتىٰ ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مُغْضَباً

(1) حديث صحيح. رواه مسلم (1479) ح (30) من حديث ابن عباس عن عمر. وهو حديث طويل.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (5) ، وأخرجه أبو داود (4992) ، وابن حبان (30). عن أبي هريرة.

حتىٰ احمرَّ وجهه يرميهم بالتراب ويقول: مهلاً يا قوم ، بهذا أُهْلِكت الأمم من قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكَذِّبُ بعضه بعضاً ، إنما نزل يُصَدِّقُ بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردّوه إلى عالمه][1] .

وله شاهد عند ابن ماجة بسند حسن عنه قال: [خرج رسول الله ﷺ ذات يوم ، والناس يتكلمون في القدر ، فكأنما يُفْقَأ في وجهه حَبُّ الرمّان من الغضب . قال: فقال لهم: مالكم تَضْرِبُون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم. قال: فما غَبَطْتُ نفسي بمجلس فيه رسول الله ﷺ ولم أشهده ما غبطت نفسي بذلك المجلس ، أني لم أشهده][2] .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: [هَجَّرْتُ إلى رسول الله ﷺ يوماً ، فإنّا لجلوسٌ إذ اختلف اثنان في آية ، فارتفعت أصواتهما فقال: إنما هلكت الأمم قبلكم باختلافهم في الكتاب][3] .

ب ـ في أمر الواقع وفقهه

أخرج البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة قال: قال النبي ﷺ: [إن الله حَرَّم عليكم عقوق الأمهات ، ووأدَ البنات ، ومَنَعَ وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال][4] .

فقوله: «وكره لكم قيل وقال» يشمل إشاعة الأخبار بين الناس دون تثبت من صحتها ، ودون الرجوع إلى مصادرها ، وسؤال أهل العلم فيها وبمدلولاتها.

وقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

يعني بفضل الله ورحمته كان حفظ المؤمنين من اتباع سبيل المنافقين والشياطين.

قال ابن زيد: (هذه الآية مقدَّمة ومؤخرة ، إنما هي: أذاعوا به إلا قليلاً منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لم ينج قليل ولا كثير) .

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (2/ 181) ح (6663) ، وله شواهد.

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (85) ، وأحمد (2/ 178). وانظر صحيح ابن ماجة (69).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2666) ، وأحمد (2/ 192) ، والنسائي في الكبرىٰ (8095).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2408) ، كتاب الاستقراض ، وكذلك (5975) ، وأخرجه مسلم (3/ 1341) ح (14) ، وأحمد (4/ 233) ، وغيرهم.

84 ـ 87. قوله تعالىٰ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾.

في هذه الآيات: أَمْرٌ مِنَ الله لرسوله ﷺ بمجاهدة المشركين أعداء الله وقتالهم، ثم لا عليك يا محمد بمن نكل عنك، وإنما عليك أن تحرض المؤمنين وتحثهم على قتال الكفار لعل الله أن يكف قتال من جحد وعاند، والله أشد نكاية في عدوه من هؤلاء الكفار في المؤمنين. ثم إن من يسعىٰ في أمر فيترتب عليه خير يناله من ذلك نصيب، ومن يسعىٰ في أمر يترتب منه شر يناله من ذلك الوزر والله حفيظ على كل ذلك. ثم مَن سلم عليكم فردوا عليه بمثل ما سلم أو أحسنوا والله حفيظ كذلك على كل ذلك. فهو الإله المعبود وحده لا شريك له ليبعثنكم بعد مماتكم وليحشرنكم جميعاً إلى موقف الحساب فهو وعْدُه، ومن أصدق من الله حديثاً.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي إسحاق قال: [قلت للبراء: الرجلُ يحمل على المشركين، أهو ممن ألقىٰ بيده إلى التَّهلُكة؟ قال: لا، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾، إنما ذلك في النفقة][1].

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾. أي: وحضهم على قتال من أمرت بقتاله.

وقد امتلأت السنة الصحيحة بكنوز في الحث على الجهاد والترغيب بأجره ومقامه.

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وآتىٰ الزكاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي وُلد فيها. قالوا:

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 281) بإسناد صحيح. وله شاهد آخر ذكره ابن كثير.

يا رسول الله ، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: إن في الجنة مئة درجة أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: [يا أبا سعيد ، من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبياً ، وجَبَتْ له الجنة. قال: فعَجِبَ لها أبو سعيد ، فقال: أَعِدْها عَليَّ يا رسول الله ، ففعل ، ثم قال رسول الله ﷺ: وأخرىٰ يرفع الله العبد بها مئة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله][2] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أنس ـ في غزوة بدر حين دنا المشركون ـ: [فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض][3] .

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ راح روحةً في سبيل الله ، كان له بمثل ما أصابه من الغبار مِسْكاً يوم القيامة][4] .

الحديث الخامس: يروي الطبراني بسند صحيح عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [عليكم بالجهاد في سبيل الله ، فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم][5] .

وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾. قال ابن كثير: (أي: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هِمَمُهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حَوْزَةِ الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2790) ، ورواه ابن حبان (1748) ، والبيهقي (9/ 15) من حديث أبي هريرة.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1884) ، والنسائي (6/ 19) ، وأحمد (3/ 14) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1901) ، كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد ، ضمن حديث طويل.

(4) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة (2775). انظر صحيح سنن ابن ماجة (2239) ـ كتاب الجهاد ـ باب الخروج في النفير. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6136).

(5) حديث صحيح. أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة ، وأخرجه الحاكم (2/ 74 ـ 75) ، وانظر مسند أحمد (5/ 326) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1941).

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾. قال قتادة: (أي عقوبة).

وقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾. قال مجاهد: (شفاعة بعض الناس لبعض).

وقال الحسن: (﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾، كتب له أجرها ما جرت منفعتها).

وقال السدي: (أما «الكفل» فالحَظّ). وقال الربيع: (﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ قال: حَظّ منها، فبئس الحظّ).

وخلاصة المعنىٰ: أنَّ من يسعىٰ في أمر يترتب عليه نفع وخير كان له نصيب من ذلك، كما لو سعىٰ في أمر ترتبت عليه مفسدة في حياة الناس كان له من ذلك الوزر.

وفي الصحيحين والمسند من حديث أبي موسىٰ الأشعري، عن النبي ﷺ قال: [اشفعوا تُؤْجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء][1].

وأصل الشفاعة والشّفعة من الشَّفع وهو الزوج من العدد، ومنه الشفيع، لأنه يصير مع صاحب الحاجة شَفْعاً. والشفاعة تشمل البر والطاعة والدعاء وكل وجوه الخير. وفي صحيح مسلم من حديث أبي الدرداء، قال رسول الله ﷺ: [منْ دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكَّلُ به: آمين، ولك بِمثل][2].

وفي لفظ: [دعوة المرء المسلم لأخيه ـ بِظَهْرِ الغَيْبِ ـ مستجابة، عند رأسه ملك مُوَكَّلٌ، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكَّلُ به: آمين، ولك بمثل].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾.

قال ابن عباس: (حفيظاً). وقال مجاهد: (شهيداً، حسيباً، حفيظاً).

وقال السدي: (قديراً). وقال الضحاك: (المقيت الرزّاق).

وقال عبد الله بن كثير: (المُقيت: الواصب). أي القائم على الأمر أحسن القيام.

قلت: وكلها معان يحتملها البيان الإلهي، وهي تزيد المعنىٰ ثراء وتوضح آفاقه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1431)، وأخرجه مسلم برقم (2627)، وأخرجه أحمد (4/ 400)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2732)، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب.

وقوله: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾.

قال ابن زيد: قال أبي: حق على كل مسلم حيِّي بتحية أن يحيِّيَ بأحسن منها، وإذا حيّاه غير أهل الإسلام أن يردّ عليه مثل ما قال).

وقال ابن كثير: (أي: إذا سَلّم عليكم المُسَلِّم فرُدوا عليه أفضل مما سلَّم، أو ردوا عليه بمثل ما سَلَّم، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة).

وقال الحسن البصري: (السلام تطوع، والردّ فريضة).

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عِمْران بن حُصَين: [أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليكم يا رسول الله، فرَدَّ عليه ثم جلس. فقال: عَشْرٌ. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله يا رسول الله، فرَدَّ عليه ثم جلس، فقال: عشرون. ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه، ثم جلس فقال: ثلاثون][1].

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا سلَّم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك][2].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [لا تبدؤوا اليهود والنصارىٰ بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطرُّوهم إلى أضيقه][3].

قلت: «السلام» اسم من أسماء الله تعالىٰ وضعه بين المؤمنين في الأرض ليفشوه بينهم، فإذا فعلوا تحاببوا، وزادت المودة والأخوة بينهم.

فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [إن السلام اسم من أسماء الله تعالى وضع في الأرض فأفشوا السلام بينكم][4].

ورواه البيهقي من حديث ابن مسعود بلفظ: [السلام اسم من أسماء الله وضعه الله في الأرض فأفشوه بينكم]. ورواه البزار وزاد: [فإن الرجلَ المسلمَ إذا مرَّ بقوم فسَلَّمَ عليهم

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 439)، وأبو داود (5195)، والترمذي (2689)، وله شواهد.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6257)، ومسلم (2164)، وأحمد (2/ 19)، وغيرهم.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2167)، والترمذي (1602)، وأحمد (2/ 266)، وغيرهم.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (989)، وانظر السلسلة الصحيحة (184).

فردوا عليه ، كان له عليهم فضل درجة ، فإن لم يردوا عليه ردّ عليه من هو خير منهم وأطيب][1] .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابّوا ، أولا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتُم؟ أفشوا السلام بينكم][2] .

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ . قال مجاهد: (حفيظاً). أي حتىٰ يجازيكم بها جزاءه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ .

المعنىٰ: هو الإله المعبود سبحانه الذي لا تنبغي الألوهية إلاَّ له ، ولا يليق التعظيم والكبرياء إلا به ، ليبعثنكم من بعد مماتكم ، ثم ليحشرنكم في مشهد الحساب ، ثم يضع الميزان سبحانه ليزن أعمالكم ، فيجازي كلاً حسب عمله ، قوله الصدق وخبره الحق وليس في الوجود أصدق من الله حديثاً وخبراً ، سبحانه وتعالىٰ عما يشك المنافقون علواً كبيراً .

88 ـ 91 . **قوله تعالىٰ**: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ

(1) حديث صحيح أخرجه البزار (رقم ـ 1999) ، وانظر معجم الطبراني الكبير (10392) ، والسلسلة الصحيحة (1894). من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (54) كتاب الإيمان. باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ، وأن محبة المؤمنين من الإيمان ، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها .

فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾.

في هذه الآيــات: إنكار من الله على المؤمنين اختلافهم في شأن المنافقين الذين تخاذلوا يوم أحد، وهؤلاء المنافقون كانوا يتمنّون أن تجحدوا وحدانية ربكم وتصديق نبيكم كما جحدوا، فإياكم أن توالوهم حتىٰ يهاجروا من دار الشرك إلى دار الإسلام ابتغاء دين الله ونصره، فإن أَبَوا الإيمان والهجرة فخذوهم واقتلوهم، إلا من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم موادعة وعهد وميثاق فدخلوا فيهم، أو جاؤوكم ضاقت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، ولو شاء الله لسلط هذين الفريقين عليكم ولكنه كفّهم سبحانه، فإن اعتزلكم هذان الفريقان: مَنْ دخل منهم مع قوم بينهم وبينكم موادعة أو ضاقت نفوسهم عن قتالكم، فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً بالقتل والسبي. وهناك قوم آخرون من المنافقين يظهرون الإسلام لرسول الله ﷺ وأصحابه خوف القتل والسباء وأخذ الأموال وهم كفار، كُلّما خلوا إلى قومهم عبدوا الأوثان معهم وأشركوا بالله، فهؤلاء إن لم يستسلموا إليكم بالصلح ويكفوا أيديهم عن قتالكم فخذوهم أين أصبتموهم فاقتلوهم ولكم عليهم حجة بذلك وسلطان.

أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: [لما خرج رسول الله ﷺ إلى أحد رجع ناس ممن خرج، وكان أصحاب النبي ﷺ فرقتين: فرقة تقول نقاتلهم وفرقة تقول لا نقاتلهم، فنزلت: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾. وقال: إنها طيبة تنفي الذنوب كما تنفي النار خبث الحديد][1].

وفي لفظ: [إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾. قال ابن عباس: (أوقعهم). وقال قتادة: (أهلكهم).

وقال السدي: (أضلهم). أي بسبب عصيانهم رسول الله ﷺ وتخاذلهم عنه، والمراد عبد الله بن أبي بن سلول حين رجع بثلث الجيش يوم أحد، وبقي النبي ﷺ في سبع مئة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1884)، و(4050)، ومسلم (1384)، وأحمد (5/ 184).

وقوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾. خطاب من الله للفئة التي دافعت عن هؤلاء المنافقين، أتريدون هدايتهم وقد أعمىٰ الله قلوبهم بنفاقهم وخشيتهم على دنياهم، ومن يضله الله فلا طريق له إلى الهدى والنور، بل إلى العمىٰ والظلام والأفول.

وقوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾. يقول: تمنىٰ هؤلاء المنافقون أنكم نافقتم مثلهم، وجحدتم أمر الله كما جحدوا لتكونوا سواء، وما ذلك إلا لشدة بغضهم لكم وشدة عداوتهم. فإياكم أن توالوهم حتىٰ يخلصوا لله ويهاجروا كما هاجرتم. قال ابن عباس: (يقول: حتىٰ يصنعوا كما صنعتم، يعني الهجرة في سبيل الله).

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾. قال ابن عباس: (فإن تولوا عن الهجرة).

وقال السدي: (يقول: إذا أظهروا كفرهم، فاقتلوهم حيث وجدتموهم).

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. أي: لا توالوهم ولا تناصروا بهم على عدوكم.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾. استثناء لبعض هؤلاء القوم. قال السدي: (يقول: إذا أظهروا كفرهم فاقتلوهم حيث وجدتموهم، فإن أحدٌ منهم دخل في قوم بينكم وبينهم ميثاق، فأجروا عليه مثل ما تجرون على أهل الذمة).

وقال ابن زيد: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾، يصلون إلى هؤلاء الذين بينكم وبينهم ميثاق من القوم، لهم من الأمان مثل ما لهؤلاء).

وقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ﴾.

قال السدي: (رجعوا فدخلوا فيكم، . . . ، ضاقت صدورهم، ﴿أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ﴾). فهؤلاء لا لكم ولا عليكم، يبغضون أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أن يقاتلوا قومهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ﴾. أي: من رحمته سبحانه بكم كفّهم عنكم. وقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: صالحوكم وسالموكم.

وقوله: ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾. أي: لم يجعل الله لكم إذناً بقتل فيهم أو سباء.

قال ابن كثير: (أي: فليس لكم أن تقتلوهم ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهىٰ النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره).

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾.

هؤلاء منافقون أظهروا الإسلام حقناً لدمائهم وأموالهم وذراريهم، وهم يصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون. قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾. قال قتادة: (كلما عرض لهم بلاء، هلكوا فيه). والفتنة في كلام العرب: الاختبار، والإركاس: الرجوع. والمقصود كلما دعاهم قومهم إلى الماضي المشترك المليء بالوثنية والشرك وتعظيم الآبائية في منهجها الجاهلي، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم. قال مجاهد في هذه الآية: (ناس كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان، يبتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا. فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويُصلحوا) ذكره ابن جرير.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾. قال الربيع: (الصلح).

والمقصود أن هؤلاء لابد أن يستسلموا وينقادوا إلى الحق وإلى طريق المؤمنين.

وقوله: ﴿وَيَكُفُّوٓا أَيْدِيَهُمْ﴾. أي عن قتالكم، فيصالحوكم ويعطوكم المقاد.

وقوله: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾. يعني: خذوهم أين أصبتموهم فاقتلوهم إن لم يفعلوا ما أمروا به. ﴿وَأُولَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾. قال السدي: (أما السلطان المبين فهو الحجة). وقال عكرمة: (ما كان في القرآن من «سلطان»، فهو الحجة).

92 - 93. قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن

لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ .

في هذه الآيـات: تحذير ووعيد أن يقتل مؤمن أخاه المؤمن ، فإن حصل فالمسوِّغُ الوحيد هو الخطأ ، ومع ذلك ففيه الكفارة والدية . فإلىٰ تفصيل ذلك كما ذكر الفقهاء :

القتل ثلاثة أنواع :

1 ـ **القتل العمد** : وهو أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم بأداة يغلب الظن أنه يقتل بها . كالإحراق بالنار ، والإغراق بالماء ، والإلقاء من شاهق ، أو إلقاء حائط عليه ، أو خنق الأنفاس ، أو حبس الإنسان ومنعه من الطعام والشراب ، أو تقديمه لحيوان مفترس ، أو تقديم الطعام المسموم له .

فقد ثبت في صحيح أبي داود أن النبي ﷺ أمر بقتل اليهودية التي سمّت النبي ﷺ في طعام قدّمته إليه فمات منه بشر بن البراء بن معرور .

أخرج الطبراني بسند صحيح لغيره من حديث عمرو بن حزم مرفوعاً : [العَمْدُ قَوَدٌ ، والخطأ دِيَـةٌ][1] .

وله شاهد عند الدارقطني عن ابن عباس مرفوعاً : [العمد قود ، والخطأ عقل لا قود فيه] .

ومعنىٰ : «قَوَد» : قصاص ، وهو مجازاة الجاني بمثل صنيعه .

وولي المقتول ـ في القتل العمد ـ بالخيار بين القود والعفو على الدية ، لقوله تعالىٰ : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 178] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه الطبراني في «الكبير» . انظر مجمع الزوائد (6/ 286) ، وأخرجه ـ كما في الشاهد ـ الدارقطني في «سننه» (ص 324) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1986) .

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [مَنْ قُتِلَ له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يُودي وإما أن يقاد](1) .

وليست هذه الدية هي الواجبة بالقتل ، بل بَدل عن القصاص ، ومن ثم فإن لهم أن يصالحوا على غير الدية ، ولو بالزيادة عليها.

فقد أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن النبي ﷺ قال: [مَنْ قَتَلَ مُتعَمداً دُفِعَ إلى أولياء المقتول فإن شاؤوا قَتَلوا ، وإن شاؤوا أخذوا الدِّيَة ، وهي ثلاثون حِقَّةً ، وثلاثون جَذَعَةً ، وأربعونَ خَلِفَةً ، وما صالحوا عليه فهو لهم. وذلك لتشديد العَقْل](2) .

وأما العفو مجاناً فهو أفضل عند الله تعالىٰ ، لقوله سبحانه: ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ [البقرة: 237]. ولقوله ﷺ: [وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً](3) .

2 ـ **القتل شبه العمد**: وهو أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم بما لا يقتل عادة ، كأن يضربه بعصا خفيفة ، أو حجر صغير ، أو لكزة بيده ، أو سوط. فإن مات فشبه عمد ، وفيه دية مغلظة: مئة من الإبل في بطون أربعين منها أولادها.

وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وجماهير الفقهاء.

خالف مالك والليث ، قالوا: يعتبر عمداً وفيه القصاص. إذ الأصل عندهم عدم اعتبار الآلة في إزهاق الروح ، فكل ما أزهق الروح أوجب القصاص.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عمر: [أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الفتح فقال: ألا إن دية الخطأِ العمد بالسوط أو العصا مغلظةٌ مئة من الإبل منها أربعون خلِفة في بطونها أولادها](4) .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6880/ 205/ 12) ، وأخرجه مسلم (1355/ 988/ 2) .

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (1121) ، أبواب الديات ، وسنن ابن ماجة (2626) .
و«حِقّة»: من الإبل ما طعن في السنة الرابعة والجمع حقاق. و«جذعة» مؤنث جذع ، ولد الشاة في السنة الثانية ، وولد البقرة في السنة الثالثة. وللإبل في السنة الخامسة. و «خلفة» هي الحامل من الإبل.

(3) حديث صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (1894) من طريق أبي كبشة الأنماري ، وصحيح مسلم (2588) ، وهو جزء من حديث أطول.

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند. انظر تخريج «الإرواء» (7/ 257) . وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2127) ، باب دية شبه العمد مغلظة.

وأخرج أبو داود بسند حسن من حديث ابن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [عقلُ شبه العمد مُغَلظٌ مثل عقل العمد ، ولا يُقْتَلُ صاحبُه](1) .

3 ـ **القتل الخطأ**: وهو أن يفعل المكلف ما يباح له فعله ، كأن يرمي صيداً ، أو يقصد غرضاً ، فيصيب إنساناً معصوم الدم فيقتله ، وكأن يحفر بئراً فيتردىٰ فيها إنسان ، أو ينصب شبكة حيث لا يجوز فيعلق بها رجل فيقتل. وكأن يقود سيارة مسرعاً فيقفز طفل إلى الطريق من مدخل بيته أو البناء الذي هو فيه ، إلى غير ذلك مما فيه نوع تقصير من الذي رُمي بالقتل الخطأ.

موجب القتل الخطأ:

1 ـ الدية المخففة.

2 ـ الكفارة: (عتق رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، كما بنص الآية السابقة).

أخرج الإمام أحمد بسند حسن من حديث ابن عمرو ، قال رسول الله ﷺ: [منْ قُتل خطأً فديته مئةٌ من الإبل: ثلاثون بنتَ مخاض ، وثلاثون بنتَ لبون ، وثلاثون حِقّة ، وعشرة بني لبون](2) .

والدية تسمىٰ العقل لأن القاتل يجمع الدية من الإبل فيعقلها بفناء أولياء المقتول ، أي يشدها بعقالها ليسلمها إليهم.

فقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾. قال قتادة: (ما كان له ذلك فيما أتاه من ربه ، من عهد الله الذي عهد إليه). وقوله: «إلا خطأ» استثناء منقطع.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا يَحِلُّ دمُ امرئٍ مسلم

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4565) ـ كتاب الديات. انظر صحيح سنن أبي داود (3819). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (3904) ، وتخريج المشكاة (3501).

(2) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (2128) ، وسنن أبي داود (4518) ، والنسائي (8/ 43). من حديث عبد الله بن عمرو.
وبنت المخاض: الأنثىٰ من الإبل تم لها سنة ، وبنت اللبون: الأنثىٰ من الإبل تم لها سنتان ، والحِقّة: الأنثىٰ من الإبل تمّ لها ثلاث سنين. والجَذَعَة: حوالي أربع سنين.

يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، إلا بإحدىٰ ثلاث : النفس بالنفس ، والثيِّبُ الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة][1] .

فإن وقع المسلم في خصلة مما سبق ، فلا يحل لأي واحد أن يقتله ، بل إن ذلك راجع إلى الإمام العام أو نائبه ، فلا ينتقل ذلك إلى آحاد المسلمين .

ففي المسند بسند صحيح ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [لا يزالُ العبدُ في فُسحةٍ من دينه ما لم يُصب دماً حراماً][2] .

وقوله : ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾ .

قال ابن عباس : (يعني بالمؤمنة : من قد عقل الإيمان وصام وصلىٰ . فإن لم يجد رقبة ، فصيام شهرين متتابعين ، وعليه دية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا بها عليه) . وقال قتادة : (﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ ، لا يجزئ فيها صبي) .

وفي مسند الإمام أحمد بسند صحيح عن الزُّهري ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن رجل من الأنصار : [أنه جاء بأمَةٍ سوداء فقال : يا رسول الله ، إنّ عليَّ عتق رقبة مؤمنة ، فإن كنت ترىٰ هذه مؤمنة أعتقتها ، فقال لها رسول الله : أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت : نعم . قال : أتشهدين أني رسول الله؟ قالت : نعم . قال : أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟ قالت : نعم . قال : أعتقها][3] .

وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ يعني : إلا أن يضعوها . ذكره ابن زيد .

وقوله : ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ .

قال إبراهيم : (هو الرجل يُسْلم في دار الحرب فيقتل . قال : ليس فيه دية ، وفيه الكفّارة) . وقال عكرمة : (يعني المقتول يكون مؤمناً وقومه كفار . قال : فليس له دية ، ولكن تحرير رقبة مؤمنة) . وقال ابن زيد : (لا يؤدي إليهم الدية فيتقوون بها عليكم) . قلت : فإن أسلم العدو أثناء القتال وجب إيقاف السيف ، فإن حصل خطأ وجبت الدية . أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر قال : [بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جُذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يُحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صَبَأْنا صَبَأْنا ، فجعل خالد يقتلهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فرفع يديه وقال : اللهم

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6878) ، وأخرجه مسلم (6876) ، وأحمد (1/ 444) .
(2) حديث صحيح . رواه أحمد ، ورواه البخاري ، انظر صحيح الجامع الصغير ـ رقم (7568) .
(3) حديث صحيح . أخرجه أحمد (3/ 452) ، ورجاله رجال الصحيح ، وجَهالة الصحابي لا تضرّ .

إني أبرأ إليك مما صنع خالد. وبعث علياً فَوَدىٰ قتلاهم وما أتلف من أموالهم، حتىٰ مِيْلغَةَ الكلب][1].

قال الحافظ ابن كثير ـ وذكر هذا الحديث في التفسير ـ : (وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال).

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

يعني: إن كان المقتول أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم (دية المؤمن كاملة، ودية الكافر نصف دية المسلم)، ويجب على القاتل أيضاً تحرير رقبة مؤمنة.

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [دية المعاهِدِ نصف ديةِ الحرّ][2] أي المسلم، فقد صح من حديث ابن عمر بلفظ: [دية المسلم]. وله شاهد عند الترمذي عنه بلفظ: [ديةُ عَقْلِ الكافرِ نصْفُ عقل المؤمن].

وقوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

يعني من لم يجد عتق رقبة مؤمنة، فعليه صيام شهرين لا إفطار بينهما، فإن أفطر لعذر: مرض أو حيض أو نفاس، استأنف ولا حرج.

وقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن جرير: (يعني: تجاوزاً من الله لكم إلى التيسير عليكم، بتخفيفه عنكم ما خفف عنكم من فرض تحرير الرقبة المؤمنة إذا أعسرتم بها، بإيجابه عليكم صوم شهرين متتابعين).

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. أي: لم يزل سبحانه «عليماً» بما يصلح أمر عباده وما هو الأمثل لهم في التكليف «حكيماً» بما يشرع لهم ويقضي فيهم ويأمر وينهىٰ ويريد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4339)، و(7189)، وأحمد (2/ 150 ـ 151)، وأخرجه النسائي (8/ 236)، وميلغة الكلب: الإناء الذي يشرب منه.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4583) ـ كتاب الديات ـ، وابن ماجة (2644). انظر صحيح سنن أبي داود (3831). وانظر الإرواء (2252)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3389)، وكذلك ـ حديث رقم ـ (3391) للشاهد بعده.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾.

قال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا المغيرة بن النعمان، قال: سمعت ابن جُبير قال: اختلف فيها أهل الكوفة، فرَحلْتُ إلى ابن عباس فسألته عنها، فقال: [نزلت هذه الآية: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ هي آخر ما نزل، وما نسخها شيء][1].

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن زيد بن ثابت قال: [لما نزلت هذه الآية التي في «الفرقان»: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ عَجِبْنا لِلِيْنِها، فلبثنا ستة أشهر، ثم نزلت التي في «النساء»: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ حتىٰ فرغ][2].

وروىٰ ابن جرير بسنده عن سعيد بن جبير قال: سألت ابن عباس عن قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ قال: (إن الرجل إذا عرف الإسلام وشرائع الإسلام ثم قتل مؤمناً متعمداً، فجزاؤه جهنم ولا توبة له). فذكرت ذلك لمجاهد فقال: «إلا من ندم».

وقد جاءت السنة الصحيحة بالتهديد والوعيد لمن أهدر دم مسلم أو أصاب من ذلك.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [أول ما يُقضىٰ بين الناس يوم القيامة في الدماء][3].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي الدرداء: أن رسول الله ﷺ

---

(1) حديث موقوف، أخرجه البخاري (4590)، وغيره. وله شواهد عند ابن جرير في التفسير.

(2) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (5/ 150/ 4869)، وإسناده حسن في المتابعات والشواهد. وأخرجه النسائي (4007)، وابن جرير في «التفسير» (4/ 139)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2799).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6533)، وكذلك (6864)، وأخرجه مسلم برقم (1679)، وغيرهما. من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

قال: [لا يزال المؤمن مُعْنِقاً صالحاً ما لم يُصب دماً حراماً ، فإذا أصابَ دماً حراماً بَلَّحَ][1] . والمعنى: طويل العنق، الذي له سوابق في الخير. وقوله: «بَلَّحَ» أي: أعيا وانقطع وتعرض للهلاك.

الحديث الثالث: وأخرج أبو داود عن أبي الدرداء أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [كل ذنب عسىٰ الله أن يغفره ، إلا من مات مشركاً ، أو مؤمن قتل مؤمناً متعمداً][2] .

الحديث الرابع: أخرج الترمذي والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [لزوال الدنيا أهونُ عند الله من قتل رجل مسلم][3] .

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من قتل مؤمناً فاغتبط بقتله لم يقبل الله منه صرْفاً ولا عدْلاً][4] .

وروى عن أبي مجلز في قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ قال: (هي جزاؤه ، فإن شاء الله أن يتجاوز عنه فعل)[5] .

وعند ابن جرير عن ابن عباس قال: (أكبر الكبائر: الإشراك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله ، لأن الله سبحانه يقول: ﴿ فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾). وقال ابن مسعود في هذه الآية: (إنها لمحكمة ، وما تزداد إلا شدّة).

94. قوله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود وغيره. انظر صحيح سنن أبي داود (3590) ، باب: في تعظيم قتل المؤمن. من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم (3588) ـ الباب السابق.

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً ، (1395) ، ورواه النسائي (7/82).

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود عن عبادة. انظر صحيح سنن أبي داود (3589) ـ الباب السابق.

(5) حسن مقطوع. أخرجه أبو داود عن أبي مجلز. انظر صحيح سنن أبي داود (3595) ـ الباب السابق.

فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾ .

في هذه الآيــة: أمْرٌ من الله سبحانه بالتأني أثناء القتال وعدم التعجل بقتل من التبس أمره ، وعدم الإسراع في القتل إلا لمن كان حرباً لله ورسوله ، فإن ما عند الله أكبر من غنيمة الدنيا بأسرها ، وإسلام الناس أحب إلى الله من سفك الدماء حتىٰ لو كان ظاهره الخوف من أهوال السلاح والحرب ، فقد كنتم أيها المؤمنون في جاهلية وامتن الله عليكم وأنقذكم منها فتمهلوا والله خبير بنواياكم وأعمالكم.

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن عطاء ، عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾. قال: قال ابن عباس: [كان رجل في غُنَيْمةٍ له ، فلحقه المسلمون ، فقال: السلام عليكم ، فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَته ، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾. قال ابن عباس: عَرَض الدنيا تلك الغنيمة][1]. ولفظ الترمذي: [مرّ رجل من بني سُليم على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، ومعه غنم له ، فسلم عليهم ، قالوا: ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منكم ، فقاموا وقتلوه ، وأخذوا غنمه ، فأتوا بها رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾].

وأخرج الإمام أحمد بسند جيد عن عبد الله بن أبي حدرد رضي الله عنه قال: [بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة الحارث بن ربْعيّ ، ومُحَلِّم بن جَثَّامة بن قيس ، فخرجنا حتىٰ إذا كنا ببطن إضَم ، مَرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قَعود له ، معه مُتَيّع له وَوَطْبٌ[2] من لبن ، فلما مرَّ بنا سَلَّم علينا ، فأمسكنا عنه ، وحمل عليه مُحلِّم بن جَثَّامة فقتله ، لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومُتَيِّعه ، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر ، نزل فينا القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿خَبِيرٗا﴾][3].

وأخرج الحافظ أبو بكر البزّار بسند جيد عن ابن عباس قال: [بعث رسول الله ﷺ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4591) ، ومسلم (3025) ، وأبو داود (3974). وانظر صحيح سنن الترمذي (2426) ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء ، آية (94).
(2) القَعود: البكر من الإبل: متيّع: تصغير متاع ، والوطب: سقاء اللبن.
(3) حديث رجاله ثقات. أخرجه أحمد (6/ 11) ، والطبري (10217) ، والطبراني وغيرهم.

سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجَدُوهم قد تفرّقوا ، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله. فأهوىٰ إليه المقداد فقتله ، فقال له رجل من أصحابه: أقتلتَ رجلاً شهدَ أن لا إله إلا الله؟ والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله ، إن رجلاً شهِدَ أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد. فقال: ادعوا لي المقداد ، يا مقداد: أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله ، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً؟ قال: فأنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ . فقال رسول الله ﷺ للمقداد: كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل][1] .

وله شاهد عند البخاري عن سعيد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للمقداد: [إذا كان رجل مؤمن يُخفي إيمانه مع قوم كفار ، فأظهر إيمانه فقتلته ، فكذلك كنت أنت تُخفي إيمانك بمكة من قبل][2] .

وقوله: ﴿ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞ ﴾ . أي: من الخير والنعيم والخلود مما هو أجمل وأطيب من كل ما حرصتم عليه من هذه الدنيا الفانية ، إذ حملكم ذلك على قتل من شهد أن لا إله إلا الله ، واعتبرتموها تقية وتجاوزتم.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ـ فيه تأويلان:

1 ـ قال سعيد بن جبير: (﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ ﴾ ، تستخفون بإيمانكم ، كما استخفىٰ هذا الراعي بإيمانه). وقال في لفظ: (تكتمون إيمانكم في المشركين). واختاره ابن جرير.

2 ـ قال ابن زيد: (﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ، كفاراً مثله ، ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾).

قلت: وكلاهما يحتمله البيان الإلـٰهي.

---

(1) إسناده جيد. أخرجه البزار (2202) ، والطبراني (12379) ، وانظر ما بعده.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (6866) معلقاً ، وانظر ما قبله.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. قال سعيد بن جبير: (هذا تهديد ووعيد).

95 ـ 96. قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

في هذه الآيات: معذرة أولي الضرر عن الجهاد، وفضيلة المجاهدين على القاعدين، فالجهاد ذروة سنام الإسلام، ويترتب عليه الدرجات العظيمة والمغفرة والرحمة، والله هو الغفور الكريم الرحيم.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي إسحاق، قال: سمعت البراء رضي الله عنه يقول: [لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فجاءه بكتف فكتبها وشكىٰ ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾][1].

وفي الصحيحين عن البراء قال: [لما نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ: ادع فلاناً. فجاءه ومعه الدواةُ واللوحُ والكتف، فقال: اكتب: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله»، وخَلْفَ النبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضرير؟ فنزلت مكانها: «﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»][2].

وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي: [أنه رأىٰ مروان بن الحكم في المسجد، قال: فأقبلتُ حتىٰ جلست إلى جنْبِهِ، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: أن رسول الله ﷺ أملىٰ عليّ: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4593)، كتاب التفسير، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول»، سورة النساء، آية (95).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4594)، ومسلم (1898)، والترمذي (1670)، والنسائي (6/ 10). من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

الله». فجاءه ابن أم مكتوم ، وهو يمليها عليَّ ، قال: يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدتُ ـ وكان أعمىٰ ـ فأنزل الله على رسوله ﷺ وكان فخذه على فخذي ، فثقلت عليَّ حتىٰ خفت أن تُرَضَّ فخذي ، ثم سُرِّيَ عنه ، فأنزل الله: «غير أولي الضرر»][(1)].

وقد جاءت رواية صحيحة عند الإمام أحمد وأبي داود تفصل ما حصل ، قال زيد بن ثابت: [إني قاعد إلى جنب النبي ﷺ إذ أوحي إليه ، قال: وغَشِيته السكينة ، قال: فوقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة . قال زيد: فلا والله ما وجدت شيئاً قطّ أثقل من فخذ ر سول الله ﷺ ثم سُرِّيَ عنه فقال: اكتب يا زيد. فأخذت كتفاً فقال: اكتب: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» إلى قوله: «أجراً عظيماً» فكتبت ذلك في كتف ، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم ـ وكان رجلاً أعمىٰ ـ فقام حين سمع فضيلة المجاهدين وقال: يا رسول الله ، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ومن هو أعمىٰ وأشباه ذلك؟ قال زيد: فو الله ما قضىٰ كلامه ـ أو ما هو إلا أن قضى كلامه ـ غَشِيَت النبي ﷺ السكينةُ ، فوقعت فخِذُه على فخذي ، فوجدت من ثقلها كما وجدت في المرّة الأولىٰ ، ثم سُرِّيَ عنه فقال: اقرأ. فقرأت عليه: «لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون» فقال النبي ﷺ: «غير أولي الضرر». قال زيد: فألحقتُها ، فو الله لكأني أنظر إلى مُلْحَقِها عند صَدْع كان في الكتف][(2)].

وقد جاء تفسير عن ابن عباس للآية رواه البخاري من حديث مِقْسم: [أن ابن عباس أخبره: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر ، والخارجون إلى بدر][(3)].

قال الحافظ ابن كثير: (فقوله: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مُطْلقاً ، فلما نزل بوحيٍ سريعٍ ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾ ، صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد ـ من العمىٰ والعَرَج والمَرَض ـ عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4592) ، والترمذي (3033) ، وأحمد (5/ 84) ، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2507) ، وأحمد (5/ 190 ـ 191) ، والحاكم (2/ 81).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4595) ، وانظر تفسير ابن كثير ، وعزاه أيضاً إلى عبد الرزاق ، ثم ذكر له شاهداً عند الترمذي (3032) والنسائي (137) في التفسير.

قلت: فالمؤمن قد يبلغ بنيته ما لا يبلغه بعمله، وهؤلاء قوم علم الله في قلوبهم الصدق فأنزل الوحي ليستدرك ما يشمل أعذارهم ويشركهم بالأجر والفضيلة.

وفي صحيح البخاري عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: [إن بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه. قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: نعم حَبَسَهُم العذر][1].

وقوله: ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾.

قال ابن جريج: (على أهل الضرر). وقال ابن جرير: (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، على القاعدين من أولي الضرر، درجة واحدة ـ يعني: فضيلة واحدة ـ وذلك بفضل جهاده بنفسه، فأما فيما سوىٰ ذلك، فهما مستويان).

وقوله: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾. قال السدي: (الجنة).

وقوله: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾. تأكيد لرجوح مباشرة الجهاد وقتال الأعداء، فإن ركوب أهوال الحرب ودخول ساحات الموت له ثوابه الخاص عند الله.

ففي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن، ومنه تتفجر أنهار الجنة][2].

وقوله: ﴿ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

تأكيد لدرجات اختصهم الله بها في الآخرة من درجات الجنة، رفعهم بها سبحانه على القاعدين لقاء ما أبلوا في ذات الله أثناء مواجهة الأعداء في ساحات القتال.

قال قتادة: (كان يقال: الإسلام درجة، والهجرة في الإسلام درجة، والجهاد في الهجرة درجة، والقتل في الجهاد درجة).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: [يا أبا سعيد، من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً ونبياً، وجَبت له الجنة. قال: فعَجِبَ لها أبو سعيد، فقال: أعِدْها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثم قال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2839)، و(4423)، وأخرجه أحمد (3/ 103)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2790)، ورواه أحمد في المسند، وقد مضىٰ.

رسول الله ﷺ: وأخرىٰ يرفع الله العبد بها مئة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله][1].

ثم أضاف سبحانه إلى الدرجات ، مغفرة الذنوب والزلات ، وحلول الرحمة والبركات ، فهو سبحانه لم يزل ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب عباده المؤمنين ، يصفح عنهم ما يقلقهم من الخطايا وركام التقصير ، ﴿رَّحِيمًا﴾ يتفضل عليهم بنعمه ، مع ما كان منهم من خلاف أمره ونهيه ، ووقوعهم وركوبهم معاصيه.

97 ـ 100. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99) ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (100)﴾.

في هذه الآيات: تَحْذيرٌ من التهاون في الدين بحجة الظروف وتحكّم الطغاة وكثرة الفساد ، فإن أرض الله واسعة والهجرة ممكنة إلى حيث الأمن علىٰ الدين والإيمان ، فمن اختار التهاون والمذلة في الدين فإن سوء المصير ينتظره ويتوعده ، ولا استثناء في ذلك إلا للمستضعفين من الرجال الشيوخ أو النساء والولدان لا حيلة لهم ، فأولئك عسىٰ أن يصفح الله عنهم. ثم إن في الهجرة خيراً كثيراً وأجراً كبيراً وكان الله غفوراً رحيماً.

أخرج البخاري في صحيحه عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال: [قُطِعَ على أهل المدينة بَعْثٌ ، فاكتتبتُ فيه ، فلقيتُ عكرمة مولىٰ ابن عباس فأخبَرته ، فنهاني عن ذلك أشد النهي ، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثِّرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ ، يأتي السهمُ يُرْمىٰ به فيصيب أحدهم فيقتله أو

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1884) ، والنسائي (6/ 19) ، وأحمد (3/ 14) ، وغيرهم.

يُضْرَب فيُقْتَل ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾][1] .

وأخرج ابن جرير بإسناد صحيح عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : [كان قوم من أهل مكة أسلموا ، وكانوا يستخفون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم ، فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأكرهوا! فاستغفروا لهم ، فنزلت : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ الآية ، قال : فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية ، لا عذر لهم . قال : فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة ، فنزلت فيهم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية ، فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فحزنوا وأيسوا من كل خير ، ثم نزلت فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فكتبوا إليهم بذلك : «إن الله قد جعل لكم مخرجاً» ، فخرجوا فأدركهم المشركون ، فقاتلوهم حتىٰ نجا من نجا ، وقتل من قتل][2] .

وفي سنن أبي داود بسند حسن عن سَمُرَة بن جندب قال : [أما بعد ، قال رسول الله ﷺ : من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله][3] .

وقوله : ﴿ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ . أي بالمكوث في جو الكفر وترك الهجرة .

وقوله : ﴿ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . أي لا نقدر على إقامة ديننا في بلادنا بسبب تسلط الكفار .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ ـ استنكار عليهم بعدم خروجهم في أرض وبلاد الله الواسعة يلتمسون فيها أمن دينهم وتوحيد ربهم وتعظيمه لا شريك له .

وقوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ . يعني مسكنهم ومصيرهم . ﴿ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي : ساءت مسكناً ومستقراً لمن كانت مسكنه ومصيره في الآخرة .

وقوله : ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾ الآية . قال ابن جرير : (وهم العجزة عن الهجرة ، بالعُسْرة ، وقلّة الحيلة ، وسوء البصر والمعرفة بالطريق ، من أرضهم أرض الشرك إلى أرض الإسلام) .

وقوله : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ . أي يصفح عنهم لعذرهم في ترك الهجرة .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4596) ، و(7085) ، والنسائي في «التفسير» (139) .
(2) حديث صحيح . أخرجه الطبري (10265) ، وإسناده صحيح ، رجاله ثقات كلهم .
(3) حديث حسن . أخرجه أبو داود في السنن (2787) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (2420) .

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾. أي ذو صفح سبحانه عن ذنوب عباده، وذو مغفرة وستر لذنوبهم بعفوه عنها.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: [بَيْنا رسول الله ﷺ يُصلي العِشاء إذ قال: سمع الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: اللهم أنج عيَّاش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف][1].

وأخرج عبد الرزاق في «التفسير» بسند صحيح عن عبيد الله بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس يقول: (كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان)[2].

وذكر البخاري في صحيحه عن ابن أبي مُليكة عن ابن عباس: «إلا المستضعفين» قال: (كانت أمي ممن عذر الله عز وجل)[3].

وقوله: ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

قال ابن عباس: (المُراغَم التحول من أرض إلى أرض). وقال مجاهد: («مراغماً كثيراً»: يعني مُتَزحزحاً عما يكره). وقال سفيان بن عيينة: («مراغماً كثيراً»: يعني بروجاً).

وقال ابن جرير: («مراغماً كثيراً»: وهو المضطرب في البلاد والمذهب).

وقال ابن كثير: (والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه الممتَنَعُ الذي يُتحصَّن به، ويُراغَمُ به الأعداء).

والمقصود ترغيب المؤمن بمفارقة دار الكفر والفساد وحياة المشركين، إلى دار الإيمان وأخوة الإسلام، فإنه حيثما اتجه المؤمن يجد بإذن الله مندوحة وملجأ يتحصن فيه ويفرّ بدينه. والمُراغَمُ في كلام العرب المذهَبُ والمَهْرب.

وقوله: ﴿وَسَعَةً﴾. قال ابن عباس: (السعة في الرزق). وقال قتادة: (إي والله، من الضلالة إلى الهدىٰ، ومن العَيْلة إلى الغنىٰ).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4598)، ومسلم (675) ح (295)، وأخرجه أبو داود (1442).

(2) حديث صحيح. أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (632)، وأورده الحافظ ابن كثير في التفسير.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4597) من حديث ابن أبي مُليكة عن ابن عباس، وكذلك أخرجه من وجه آخر (1357)، (4587).

وقوله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. ضمان من الله سبحانه بكامل الأجر ووافي الثواب لمن خرج من منزله بنية الهجرة فمات أثناء الطريق، أي فله أجر من هاجر دون نقصان.

أخرج ابن جرير بسند صحيح عن ابن عباس قال: [نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾، فكان بمكة رجل يقال له ضمرة من بني بكر، وكان مريضاً فقال لأهله: أخرجوني من مكة فإني أجد الحر، فقالوا: أين نخرجك؟ فأشار بيده نحو المدينة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى آخر الآية][1]. ورواه أبو يعلىٰ وفيها: (فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي ﷺ).

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنىٰ في تمام أجر من خرج مهاجراً إلى الله ومات في الطريق:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأهل السنن والمسانيد عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: [إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوىٰ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يُخْرِجُهُ إلا إيمانٌ بي وتصديق بِرُسلي أن أَرْجِعَهُ بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخِلَه الجنة، ولولا أن أشقَّ على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولودِدْتُ أني أُقتل في سبيل الله، ثم أُحيا، ثم أُقتل، ثم أُحيا ثم أقتل][3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [كان في بني إسرائيل رجلٌ قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل، فأتىٰ راهباً فسأله فقال له: توبة؟ قال: لا، فقتله، فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قريةَ كذا وكذا، فأدْركه الموت فناءَ بصدْرِهِ نحوَها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن جرير في «التفسير» (10299) ورجاله ثقات، كما قال الهيثمي، وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ سورة النساء، آية (100).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1) ومسلم (1907)، وأحمد (1/ 43)، وأبو داود (2201) والترمذي (1647) والنسائي (7/ 13)، وابن ماجة (4227)، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (36)، كتاب الإيمان، وانظر كذلك (7457)، كتاب التوحيد.

العذاب ، فأوحىٰ الله إلى هذه أن تقرّبي ، وأوحىٰ إلى هذه أن تباعدي ، وقال: قيسوا ما بينهما ، فوُجِدَ إلى هذه أقربَ بشبرٍ فغُفِرَ له][1] .

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ . يعني لم يزل ساتراً ذنوب عباده المؤمنين ، يصفح عن ذنوبهم ويتجاوز عن كثير مما سقطوا فيه من الآثام إذا تابوا إليه ، «رحيماً» بهم رفيقاً ورؤوفاً وحليماً .

101 . قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ .

في هذه الآيــة: ترخيصٌ من الله سبحانه في قصر الصلاة لمطلق السفر والضرب في الأرض.

فقوله: ﴿ضَرَبْتُمْ﴾ . أي: سافرتم. وفي التنزيل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾ [المزمل: 20].

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: [إن الصلاة فُرِضت في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة][2] .

وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن يعلىٰ بن أمية قال: [سألت عمر بن الخطاب قلت له: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وقد أَمِنَ الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبْتُ مما عجِبْتَ منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال: صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته][3] .

فبقيت الرخصة قائمة في مطلق السفر ومطلق الظروف ، فالآية تدل على تشريع القصر ، وتحدده بالخوف من الكفار ، والسنة تطلقه في جميع الأحوال.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3470) ، كتاب أحاديث الأنبياء ، ومسلم (2766) ، وأحمد (3/ 20). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (687) ، وأبو داود (1247) ، والنسائي (3/ 168 ـ 169) ، وغيرهم. من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (686) ، وأبو داود (1199) ، والترمذي (3034) ، وابن ماجة (945) ، وأحمد (1/ 25) ، (1/ 36) ، والبيهقي (3/ 134) ، (3/ 140).

أخرج الترمذي بسند صحيح عن محمد بن سيرين ، عن ابن عباس : [أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين ، فصلىٰ ركعتين][1].

وله شاهد عند ابن أبي شيبة عنه بلفظ : [صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ، ونحن آمنون لا نخاف بينهما ، ركعتين ركعتين][2].

وأخرج البخاري عن حارثة بن وَهْب قال: [صَلّىٰ بنا رسول الله ﷺ آمَن ما كان بمنى ركعتين][3].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ، فَأُقِرَّت صلاة السفر ، وزيدَ في صلاة الحضر][4].

قلت: والورع هو الأخذ بالرخصة في السفر وقصر الصلاة فهو الأحب إلى الله ورسوله ، وليس الإتمام.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ يحب أن تُؤتىٰ رخصه ، كما يحبُ أن تؤتىٰ عزائِمه][5].

وفي لفظ : (كما يكره أن تؤتىٰ معصيته).

ويرىٰ مالك أن القصر فرض ، في حين أكثر العلماء أنه سنة وهو مذهب الشافعي.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾. أي: قد أبانوا عداوتهم بمناصبتهم لكم الحرب على إيمانكم بالله ورسوله ، فتمسكوا بدينكم فهو عزّكم وبه تغيظون عدوكم ، واحرصوا على رخصة ربكم ، ففيها إظهار لجمال شعائركم وهديكم.

102 . قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (547) ، والنسائي (3/ 117) ، وأحمد (1/ 215) ، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (2/ 337) ، والنسائي (3/ 117 ـ 118).
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1083) ، (1656) ، وأخرجه أحمد (4/ 306) ، وابن حبان (2757). من حديث حارثة بن وهب رضي الله تعالى عنه.
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (350) و(1090) ، ومسلم (685) وأحمد (6/ 272) ، وغيرهم.
(5) حديث صحيح. وأخرجه البيهقي والطبراني وابن حبان. انظر صحيح الجامع (1881) ، (1882).

أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾.

في هذه الآية: تشريعُ صلاة الخوف أثناء القتال في المعركة: للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة ركعة، ولها أيضاً أشكال كثيرة. فإلىٰ تفصيل ذلك التشريع الرهيب.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن مجاهد، عن أبي عياش الزرقي قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بِعُسْفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلىٰ بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غِرَّتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً..][1].

قلت: وقد وردت صلاة الخوف في السيرة في أشكال مختلفة، راعىٰ فيها النبي ﷺ ظروف القتال.

قال الخطابي: (صلاة الخوف أنواع صلاها النبي ﷺ في أيام مختلفة وأشكال متباينة، يتوقىٰ فيها كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة).

وتفصيل ذلك:

الشكل الأول: صف مع الإمام وصف وُجَاه العدو، فيصلي بالذين يلونه ركعة ثم يقوم قائماً حتىٰ يصلي الذين معه ركعة أخرىٰ، ثم ينصرفون وجاه العدو، وتجيء الطائفة الأخرىٰ التي دخلت معه بالصلاة ليصلي بهم ركعة، ويثبت جالساً، فَيُتِمُّونَ لأنفسهم ركعة أخرىٰ، ثم يسلم بهم جميعاً.

والدليل ما روىٰ البخاري من حديث أبي حثمةَ رضي الله عنه: [أن النبي ﷺ صلىٰ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (4/ 59 ـ 60)، وأبو داود (1236)، والنسائي (3/ 176).

بأصحابه في خوف[1] فجعلهم خلفه صفين ، فصلىٰ بالذين يلونه ركعة ، ثم قام فلم يزل قائماً حتىٰ صلى الذين خلفهم ركعة ، ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قُدّامَهُمْ ، فصلىٰ بهم النبي ﷺ ركعة ، ثم قعد حتىٰ صلى الذين تخلفوا ركعة ، ثم سلم][2] .

الشكل الثاني: صفان خلف الإمام ، يركع بهم جميعاً ، ثم يسجد بالصف الأول والآخرون قيام يحرسونهم ، فإذا قاموا سجد الآخرون ، ثم تأخر الصف الأول لمكان الثاني ، وتقدم الثاني لمكان الأول ، ثم يركع بهما ويسجد بالأول والآخرون يحرسونهم ، فإذا جلس الإمام والصف الذي يليه سجد الآخرون ثم جلسوا جميعاً ثم سلم بهم جميعاً .

والدليل ما روىٰ أبو داود عن أبي عياش الزرقي قال: [كنا مع رسول الله ﷺ بعُسْفان ، وعلى المشركين خالد بن الوليد ، فصلينا الظهر ، فقال المشركون: لقد أصبنا غرة . لقد أصبنا غفلة ، لو كنا حملنا عليهم وهم في الصلاة ، فنزلت آية القصر بين الظهر والعصر ، فلما حضرت العصر ، قام رسول الله ﷺ ، مستقبل القبلة والمشركون أمامه ، فصَفَّ خلفَ رسول الله ﷺ صف ، وصفَّ بعد ذلك الصف صف آخر ، فركع رسول الله ﷺ وركعوا جميعاً ، ثم سجد وسجد الصف الذين يلونَهُ ، وقام الآخرون يحرسونهم ، فلما صلىٰ هؤلاء السجدتين وقاموا سجد الآخرون الذين كانوا خلفهم ، ثم تأخر الصف الذي يليه إلى مقام الآخرين ، وتقدم الصف الأخير إلى مقام الصف الأول ، ثم ركع رسول الله ﷺ وركعوا جميعاً ، ثم سجد وسجد الصف الذي يليه ، وقام الآخرون يحرسونهم .

فلما جلس رسول الله ﷺ والصف الذي يليه سجد الآخرون ، ثم جلسوا جميعاً ، فسلم عليهم جميعاً ، فصلاها بعُسْفان ، وصلاها يوم بني سليم][3] .

الشكل الثالث: صف خلف الإمام وصف وجاه العدو ، فيصلي بالأول ركعة ويثبت قائماً ، ويتموا لأنفسهم ركعة ثم يسلموا وينصرفوا وجاه العدو ، ثم تجيء الطائفة الأخرىٰ ، واختلف في السلام .

---

(1) والمراد كما في رواية: يوم ذات الرقاع .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (4131) ، كتاب المغازي ، وانظر كتابي: السيرة النبوية (2/ 1157) لتفصيل أشكال صلاة الخوف في عهد النبوة .

(3) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1096) ، باب صلاة الخوف .

والدليل ما في الصحيحين عن صالح بن خوّات: عمن صلى مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف: [أن طائفة صفت معه ، وطائفة وجاه العدو ، فصلىٰ بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً ، وأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو. وجاءت الطائفة الأخرىٰ فصلىٰ بهم الركعة التي بقيت من صلاته ، ثم ثبت جالساً ، وأتموا لأنفسهم ، ثم سلم بهم][1].

وفي سنن أبي داود عن سهل بن أبي حثمة نحوه قال: [ثم يقبل الآخرون الذين لم يصلوا فيكبرون وراء الإمام فيركع بهم ويسجد بهم ، ثم يسلم فيقومون فيركعون لأنفسهم الركعة الباقية ، ثم يسلمون][2].

ورواه البخاري دون ذكر التسليم. قال الألباني رحمه الله: (وهو موقوف ، وما قبله مرفوع ، وفيه سلام الإمام بالطائفة الثانية وهو الأصح).

الشكل الرابع: يكبرون معاً وإن كانوا مستدبري القبلة ثم يصلي بمن معه ركعة ، ثم يأتون مصاف أصحابهم ويجيء الآخرون فيركعون لأنفسهم ركعة ، ثم يصلي بهم ركعة ثم تقبل الطائفة التي كانت مقابل العدو فيصلون لأنفسهم ركعة ، والإمام قاعد ، ثم يسلم بهم جميعاً.

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن مروان بن الحكم: [أنه سأل أبا هريرة: هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ قال أبو هريرة: نعم ، قال مروان: متىٰ؟ فقال أبو هريرة: عام غزوة نجد ، قام رسول الله ﷺ إلى صلاة العصر ، فقامت معه طائفة ، وطائفة أخرىٰ مقابل العدو ، ظهورهم إلى القبلة ، فكبر رسول الله ﷺ فكبروا جميعاً الذين معه والذين مقابلي العدو ، ثم ركع رسول الله ﷺ ركعة واحدة ، وركعت الطائفة التي معه ، ثم سجد فسجدت الطائفة التي تليه ، والآخرون قيام مقابلي العدو ، ثم قام رسول الله ﷺ ، وقامت الطائفة التي معه فذهبوا إلى العدو فقابلوهم ، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابلي العدو فركعوا وسجدوا ، ورسول الله ﷺ قائم كما هو ، ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرىٰ وركعوا معه ، وسجد وسجدوا معه ، ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابلي العدو ، فركعوا وسجدوا ، ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه ، ثم كان

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4129) ، كتاب المغازي ، ورواه مسلم وغيره.
(2) حديث إسناده صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (1104) ، باب صلاة الخوف.

السلام ، فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً ، فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ، ولكل رجل من الطائفتين ركعة ركعة][1] .

الشكل الخامس: يصلي بكل طائفة ركعة ثم يسلم ، فيقوم كل صف فيصلون لأنفسهم ركعة .

والدليل ما في الصحيحين عن ابن عمر : [أن رسول الله ﷺ صلّىٰ بإحدىٰ الطائفتين ركعة ، والطائفة الأخرىٰ مواجهة العدو ، ثم انصرفوا ، فقاموا في مقام أولئك ، وجاء أولئك فصلىٰ بهم ركعة أخرىٰ ، ثم سلم عليهم ، ثم قام هؤلاء فقضوا ركعتهم ، وقام هؤلاء فقضوا ركعتهم][2] .

الشكل السادس: يصلي بكل طائفة ركعة ولا يقضون .

والدليل ما روىٰ أبو داود بسند صحيح عن ثعلبة بن زهدم ، قال : [كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقام فقال : أيكم صلىٰ مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ فقال حذيفة : أنا ، فصلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا][3] .

وقد مضىٰ حديث ابن عباس عند الإمام مسلم وفيه فرض الله تعالى الصلاة في الخوف ركعة .

الشكل السابع: يصلي بكل طائفة ركعتين .

فقد أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي بكرة قال : [صلّىٰ النبي ﷺ في خوف الظهر ، فصف بعضهم خلفه وبعضهم بإزاء العدو ، فصلىٰ بهم ركعتين ثم سلّم ، فانطلق الذين صلوا معه فوقفوا موقف أصحابهم ، ثم جاء أولئك فصلوا خلفه فصلىٰ بهم ركعتين ثم سلم ، فكانت لرسول الله ﷺ أربعاً ، ولأصحابه ركعتين ركعتين][4] .

قال أبو داود : (وبذلك كان يفتي الحسن) .

وجملة القول : فصلاة الخوف تُصلىٰ بأشكال مختلفة ، وذلك حسب ما يقرره القائد المسلم .

---

(1) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود ، حديث رقم ـ (1105) ـ باب صلاة الخوف .
(2) حديث صحيح . رواه الشيخان عن ابن عمر ، ورواه أبو داود . انظر المرجع السابق (1108) .
(3) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم (1109) ـ باب صلاة الخوف .
(4) حديث صحيح . انظر المرجع السابق ـ حديث رقم (1112) ـ الباب السابق .

قال الحافظ ابن كثير: (وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة بل يصلون فرادىٰ مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة).

ثم ذكر قول الأوزاعي رحمه الله: (إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتىٰ ينكشف القتال أو يأمنوا فيصلوا ركعتين).

وقال: ومن العلماء من قال: (يصلون والحالة هذه ركعة واحدة). وبه قال أحمد بن حنبل. وقال إسحاق بن راهويه: (أما عند المسابقة فيجزيك ركعة واحدة تؤمئ بها إيماء)[1].

قلت: فَيَاوَيْلَ من ضيّع صلاة الجماعة في الحضر والرخاء دون عذر، وقد أبىٰ الله إلا الجماعة حتىٰ في القتال وأثناء الخوف واقتراب العدو، وقد استدل كثير من الفقهاء من صلاة الخوف وتشريعها على وجوب الصلاة في المسجد مع الجماعة لمن سمع النداء إلا من عذر، كمرض أو سفر.

وقوله: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

المعنىٰ: تمنىٰ الكفار لو تشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم ليحملوا عليكم حملة واحدة، ولينالوا منكم غِرَّة يكون فيها قتلكم واستباحة عسكركم.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: [﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾ قال: عبد الرحمن بن عوف وكان جريحاً][2].

قال الحافظ ابن حجر: (أي فنزلت الآية). قلت: والتصريح بلفظ النزول أخرجه الحاكم[3].

---

(1) انظر تفسير ابن كثير ـ سورة النساء، آية (102) ـ، وكتابي: السيرة النبوية (2/ 1162).

(2) حديث صحيح. انظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة النساء ـ آية (102).

(3) أخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأقره الذهبي. وانظر المرجع السابق.

وقوله: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾. أَمْرٌ بأخذ الحذر، لئلا ينال العدو أمله ويدرك فرصته.
وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾. أي: عذاباً مذلاً موجعاً فيه الألم والذل والمهانة.

103 ـ 104. **قوله تعالىٰ**: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾.

في هذه الآيات: تأكيد على ذكر الله عقب صلاة الخوف مع ورود الترغيب فيه عقب كل صلاة، إلا أنه أثناء المعركة وفي ساحات القتال أمر أبلغ، فإن حاجة المجاهد إلى عون الله ومدده شديدة لإحداث الهزيمة في العدو. ثم تأكيد على وجوب صلاة الجماعة والمحافظة على أوقات الصلوات المكتوبات. ثم حث على تحمل آلام القتال والنزال فإن العدو يألم كما تألمون معشر المسلمين مع أنهم لا يرجون ما ترجون، وكل أمر يمضي بعلمه وحكمته سبحانه وتعالىٰ.
فقوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

قال ابن جرير: (بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنىٰ والفقر، والسقم والصحة، والسّر والعلانية، وعلى كل حال). وقال ابن كثير: (أي في سائر أحوالكم).

وقوله: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. يعني: إذا ذهب الخوف فصلوا صلاتكم بإقامة أركانها وواجباتها وخشوعها وجميع شؤونها، ويشمل ذلك عند انتهاء القتال أو العودة إلى حياة السلم.

قال قتادة: (يقول: إذا اطمأننتم في أمصاركم، فأتموا الصلاة). وقال السدي: (فإذا اطمأننتم بعد الخوف). وقال ابن زيد: (فإذا اطمأننتم فصلوا الصلاة، لا تصلها راكباً ولا ماشياً ولا قاعداً).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾. قال ابن عباس: (أي مفروضاً).

وقال ابن مسعود: (إن للصلاة وقتاً كوقت الحج). وقال زيد بن أسلم: (منجَّماً، كلما مضىٰ نجم جاء نجْم آخر. يقول: كلما مضىٰ وقت جاء وقت آخر) ذكره ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾.

قال قتادة: (يقول: لا تضعفوا في طلب القوم، فإنكم إن تكونوا تيجعون، فإنهم ييجعون كما تيجعون، وترجون من الله الأجر والثواب ما لا يرجون).

أي: كما ينزل بكم ألم الجراح والقتل، فإنه ينزل بعدوكم، وأنتم أولى بالصبر منه فإنكم: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ يعني المثوبة والجنة مقابل القتال والجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض.

وفي التنزيل: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: 140].

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. أي يعلم أمثل القضاء والتقدير فيمضيه بحكمته الكاملة، فهو أحكم الحاكمين.

105 ـ 109. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109)﴾.

في هذه الآيات: خِطاب من الله لرسوله بأن الكتاب المنزل عليه حق من الله ويتضمن الحق في كل أمره وخبره، ليحكم به بين الناس ووفق منهاجه، فلا تدافع به عن خائن. وأَمْرٌ من الله لرسوله باستغفاره عما سلف من خصومته لذلك الخائن أو هَمّ بذلك. ثم تحذير من المجادلة عن الخونة ومرتكبي الخيانة والآثام فإن الله لا يحب أهل الخيانة والإثم. الذين يستخفون في الدنيا والله مطلع على سرائرهم ومكرهم وتنتظرهم فضيحة الآخرة، فإنه إن وجد من يجادل عنهم في الدنيا فمن لهم بين يدي الله يوم القيامة، ومن يتوكل بالدفاع عنهم؟!

أخرج الترمذي وابن جرير بسند حسن. . . حدثنا محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن أبيه، عن جدّه قتادة بن النعمان رضي الله عنه قال: [كان أهل بيت منا يقال لهم: بَنُو أُبيرق: بِشْر وبُشَير ومُبَشَّر، وكان بُشَير رجلاً منافقاً، يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم يَنْحَلُهُ، لبعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا وقال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث قالوا: وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدِمت ضافِطَةٌ[1] من الشام من الدَّرْمَكِ[2] ابتاع الرجل منها فخصَّ بها نفسَهُ، وأماالعيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافِطَةٌ من الشام فابتاع عمي رفاعةُ بن زيد حمْلاً من الدَّرْمَكِ فجعله في مَشْرَبة له، وفي المشربة سلاح ودرع وسيف، فعُدِي عليه من تحت البيت، فنُقِّبت المشربة، وأخذ الطعام والسلاح. فلما أصبح أتاني عمّي رفاعة فقال: يا ابن أخي، إنه قد عُدِي علينا في ليلتنا هذه، فَنُقِبَتْ مشربتنا، فَذُهِبَ بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسَّسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أُبَيرقٍ استوقَدوا في هذه الليلة، ولا نُرىٰ فيما نُرىٰ إلا على بعض طعامكم. قال: وكان بنو أُبَيرقٍ قالوا ـ ونحن نسأل في الدار ـ والله ما نرىٰ صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجلاً منا له صلاح وإسلام. فلما سمع لبيد اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟! والله ليخالطنّكم هذا السيف أو لَتُبَيِّنُنَّ هذه السرقة. قالوا: إليك عنا أيها الرجل فما أنت بصاحبها. فسألنا في الدار حتىٰ لم نَشُكّ أنهم أصحابُها، فقال لي عمّي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له. قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء عَمَدُوا إلى عمي رفاعة بن زيد، فَنَقَبُوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه فليردّوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ: سآمر في ذلك. فلما سمع بذلك بنو أبيرق أتوا رجلاً منهم يقال له: أُسير بن عُروة فكلّموه في ذلك، فاجتمع في ذلك أناس من أهل الدار فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمَّه، عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بَيّنةٍ ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت النبي ﷺ فكلّمتُه، فقال: عَمَدْتَ إلى أهل بيت ذُكِرَ منهم إسلام وصلاح،

(1) الضافطة: الضفاط: القوم الذين يجلبون الميرة والطعام إلى المدن وكانوا يومئذ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغير ذلك.

(2) الدرمك: الدقيق الأبيض.

ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت؟ قال: فرجعت ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلِّم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة فقال: يا ابن أخي، ما صنعتَ؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ يعني بني أبيرق، ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ﴾ أي مما قلت لقتادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿رَّحِيمًا﴾ أي لو استغفروا الله لغفر لهم ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قولهم للبيد. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، فلما نزل القرآن أتىٰ رسول الله ﷺ بالسلاح فرده إلى رفاعة. فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح وكان شيخاً قد عشا أو عسا ـ الشك من أبي عيسىٰ ـ في الجاهلية وكنت أرىٰ إسلامه مدخولاً، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي هو في سبيل الله، فعرفت أن إسلامه كان صحيحاً، فلما نزل القرآن لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾. فلما نزل على سلافة بنت سعد، رماها حسان بن ثابت بأبيات من شعر، فأخذت رحله فوضعته على رأسها ثم خرجت به فرمته في الأبطح، ثم قالت: أهديت لي شعر حسان ما كنت تأتيني بخير][1].

وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ﴾.

قال القرطبي: (معناه على قوانين الشرع، إما بِوَحْيٍ وَنَص، أو بنظر جارٍ على سنن الوحي. وهذا أصل في القياس، وهو يدل على أن النبي ﷺ إذا رأىٰ شيئاً أصاب، لأن الله تعالىٰ أراه ذلك، وقد ضمن الله تعالى لأنبيائه العِصْمة، فأما أحدنا إذا رأىٰ شيئاً يظنه فلا قطع فيما رآه).

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (3036)، والحاكم (4/ 385)، وابن جرير الطبري في التفسير (10416)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وله شواهد. وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2432) ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء ـ الآيات (105 ـ 109).

فهذه الآية تبين أن للنبي ﷺ أن يحكم باجتهاده ، وقد استدل بها علماء الأصول على ذلك.

وفي الصحيحين عن أم سلمة : [أن رسول الله ﷺ سمع جَلبة خَصْمٍ بباب حُجْرَتِه ، فخرج إليهم فقال: ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضي بنحو ما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون أَلْحَنِ بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيت له بحقّ مسلم فإنما هي قطعة من نار فَلْيَحْمِلْها أو لِيَذَرها][1] .

وتفصيل هذا الحديث في مسند أحمد ، قالت أم سلمة : [جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريثَ بينهما قد دَرَسَتْ ، ليس عندهما بَيّنَةٌ ، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ، وإنما أنا بشرٌ ، ولعلَّ بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجته من بعض ، وإنما أقضي بينكم على نحوٍ مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطعُ له قطعةً من النار ، يأتي بها إسطاماً في عنقه يوم القيامة». فبكىٰ الرجلان وقال كل منهما : حقّي لأخي. فقال رسول الله ﷺ: أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما ، ثم توخَّيا الحق بينكما ثم اسْتهِمَا ، ثم لِيُحْلِلْ كل واحد منكما صاحبه][2] .

وقوله : ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ . فيه نهي عن الدفاع عن المبطل والمتَّهم في الجور والخصومة أو عضده والنيابة عنه.

وقوله : ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

قال ابن عطية : (وهذا ليس بذنب ، لأن النبي ﷺ إنما دافع على الظاهر وهو يعتقد براءتهم). قيل : فالمعنىٰ استغفر الله للمذنبين ، وقيل: أمر بالاستغفار على طريق التسبيح . وقيل : الخطاب للنبي ﷺ والمراد بنو أبيرق ، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وقوله : ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ ، ذكره القرطبي.

وذهب ابن جرير إلى أن المخاطب النبي ﷺ ليستغفر من ذنبه في خصام الخائن ، وهذا مذهب من جوّز الصغائر على الأنبياء صلوات الله عليهم.

قلت: والعبد يحتاج إلى الاستغفار في كل أحواله ، وكذلك الحاكم والعالم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2680) ، ومسلم (1713) ، وأحمد (6/ 203) ، وأكثر أهل السنن. من حديث أم سلمة رضي الله عنها.
(2) إسناده جيد. أخرجه أحمد (6/ 308) ـ (6/ 320) ، وأبو داود (3583) ، والبيهقي (6/ 66).

والمجتهد ليسلم منهاجه عند الله حتىٰ لو اجتهد فأصاب ، فالاستغفار تطهير للنفس من حظوظها ، وكلما رقيت مرتبة العبد بين الناس احتاج لذلك الاستغفار أكثر ، فالخطاب وإن كان موجهاً للنبي ﷺ ، فهو للولاة والقضاة والحكام بعده من باب أولىٰ .

وفي صحيح مسلم عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنه ليُغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة][1] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة][2] .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ .

أي لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم ، والمجادلة المخاصمة . قيل من الجدل: الفتل ، أو من الجَدالة وهي وجه الأرض ، فكل واحد من الخصمين يريد أن يُلقي صاحبه عليها . والخوّان: الخائن ، إلا أنه في لفظ أبلغ ، لعظم خيانته .

وقوله: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ . أي: يستترون من الناس لئلا يفتضحوا ، وقد غفلوا عن رؤية الله لهم ﴿ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ أي بعلمه وسمعه وبصره .

وقوله: ﴿ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ . أي: يقولون ما لا يرضاه تعالى لأهل طاعته . قاله ابن عباس .

وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ . أي: محصياً حافظاً لا يخفىٰ عليه من أمرهم شيء حتىٰ يوافيهم ويجازيهم به يوم القيامة .

وقوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ .

استفهام بمعنىٰ التوبيخ والإنكار ، فهو يشمل كل من خاصم عن الخونة وقام بتدبير أمورهم والدفاع عنهم في أكلهم أموال الناس وحقوقهم بالباطل ، فهم إن عبروا في الدنيا ولم يكشف أمرهم أو ظهروا بمظهر مزيّف كاذب ، فمن لهم يوم القيامة يقوم

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2702) (41) ، وأبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (1515). والغين: ما يتغشىٰ القلب من الغفلات.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (11/ 85) ، وأخرجه الترمذي في السنن (3255) ، وغيرهما.

بأمرهم إذا أخذهم الله بعذابه وأدخلهم النار ، ومن يتوكل للدفاع عنهم يومئذ ، وقد جُعل الوكيل والموكل له في نقاش الحساب ، ومن نوقش الحساب فقد هلك .

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة : [أن النبي ﷺ قال: ليس أحد يحاسبُ يومَ القيامة إلا هلك . قلت : أو ليس يقول الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فقال : إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش في الحساب يهلك][1] .

وفي سنن ابن ماجة ومستدرك الحاكم بسند صحيح عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال : [من أعان على خصومة بظلم ، لم يزل في سخط الله حتىٰ ينزع][2] .

وله شاهد عند أبي داود في السنن ، وعند الحاكم والسياق له عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : [من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن مات وعليه دينٌ فليس ثَمَّ دينار ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتىٰ ينزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه ، حبس في ردغة الخبال ، حتىٰ يأتي بالمخرج مما قال][3] .

110 ـ 113 . قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : تَرغيبٌ في التوبة مما اكتسب العبد من الظلم واجترح من الآثام ،

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4939) ، وأخرجه مسلم (2876) .
(2) حديث صحيح . أخرجه ابن ماجة في السنن (2320) . انظر صحيح ابن ماجة (1878) . ورواه الحاكم . انظر تخريج الإرواء (2376) ، وصحيح الجامع الصغير ـ رقم (5925) .
(3) صحيح الإسناد . أخرجه أبو داود (2/ 117) ، والحاكم (2/ 27) ، وأحمد (2/ 70) . وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (438) ، وله شواهد .

وتَحْذيرٌ من الإصرار والتعمد ، أو الافتراء والظلم ونسب المعصية إلى غير صاحبها ، وتَفضُّلٌ من الله على نبينا ﷺ بالرعاية والحماية من الزلل ، وإنزال الكتاب والسنة عليه وتعليمه الحق والحكم وكان فضل الله عليه عظيماً .

قال ابن عباس : (﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ، قال : أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه ، وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ، ولو كانت ذنوبه أعظم من السماوات والأرض والجبال) .

وقوله : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . المعنىٰ : لا يغني أحد عن أحد ، ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ ، وهذا من علم الله وحكمته .

وقوله : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ . هذا في الذي يرمي بما أتىٰ من المعصية من هو بريء ، فقد أتىٰ فرية وكذباً وهو البهتان ، وتحمل وزراً عظيماً ، يبين عن أمر متحمِّله وجراءته على ربه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : [أن النبي ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكْرُكَ أخاك بما يكره . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه][1] .

وفي لغة العرب : بَهَتَه بَهْتاً وبَهَتاً وبُهْتاناً إذا قال عليه ما لم يفعله . وبُهِتَ : دُهِشَ وتحيّر .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ . قيل : بأن نبهك للحق ، وقيل : بالنبوءة والعصمة . ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ عن الحق ، وذلك في شأن سؤالهم رسول الله ﷺ أن يبرئ ابن أُبيرق من التهمة ويُلحقها اليهودي .

وقوله : ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ ـ لأن وبال ذلك راجع عليهم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ ﴾ ـ لأنك معصوم وقد تكفل الله بحمايتك من الزلل .

وقوله : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ . أي : القرآن والسنة . قيل هذا ابتداء ، وقيل الواو للحال .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2589) ، وأبو داود (4874) ، وأحمد (2/ 230) ، وغيرهم .

قال القرطبي: (فالكلام متصل، أي ما يضرونك من شيء مع إنزال الله عليك القرآن. «والحكمة» القضاء بالوحي).

وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾. أي من التشريع وفصل القضاء والأحكام.

وقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ـ بكل ما سبق بيانه وبغيره من النعم الكبيرة الأخرىٰ.

114 ـ 115. قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

في هذه الآيات: الندب إلى الصدقة وفعل الخيرات والإصلاح بين الناس والنجوىٰ بنحو ذلك، والتحذير من ترك سنة الرسول ﷺ ومنهاج المؤمنين.

قال ابن جرير: (لا خير في كثير من نجوىٰ الناس جميعاً).

وقوله: «﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. المعروف: هو ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير. والإصلاح بين الناس: يعني بين المتخاصمين ليعودوا إلى الألفة ووحدة الكلمة ويسدوا الباب على الشياطين.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه، عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ليس الكذاب الذي يُصْلِحُ بين الناس فَيَنْمي خيراً أو يقول خيراً][1].

وقالت: [لم أسمعه يرخِّص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها][2].

وفي سنن أبي داود والترمذي بسند جيد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2692)، كتاب الصلح. باب: ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس. من حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (6/ 403)، وأبو داود (4920)، وانظر صحيح مسلم (2605)، ورواه الترمذي (1938)، وانظر سنن البيهقي (10/ 197)، وصحيح ابن حبان (5733).

[ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله. قال: إصلاح ذات البَيْن. قال: وفساد ذات البين هي الحالقة][1].

وقوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

أي: من يأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس يريد بذلك وجه الله سبحانه، فإن الله سبحانه قد تكفل له بأعظم الثواب وأحسن الأجر.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾.

أي: من يفارق طريق رسول الله أو يعاديه، ويمضي على غير سبيل ومنهاج أصحابه المؤمنين الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، فإن الله يتوعده أسوأ العذاب في جهنم وبئس المصير.

وقد عوّل الشافعي رحمه الله في هذه الآية على الاحتجاج بكون الإجماع حُجّة تَحْرُم مخالفته.

116 ـ 122. **قوله تعالىٰ**: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ترهيب من مغبة الشرك وسوء عاقبته عند الله وإمكانية مغفرة ما دونه

(1) إسناده جيد. أخرجه أبو داود (4919)، والترمذي (2519)، وأحمد (6/ 444)، وغيرهم.

من الكبائر والصغائر ، فالشرك ضلال بعيد ، إنهم يدعون أوثاناً ويزعمون الملائكة بناتاً ، وهم يدعون شيطاناً مريداً استحق لعنة الله فتوعد بإضلال الذرية من بني آدم ، بأمرهم بتغيير خلق الله وتبتيك آذان الأنعام واتباع الجاهلية ، فيتوعد الله من يطيعه بصلي نار جهنم. وأما المؤمنون الذين يعملون الصالحات فقد وعدهم ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار فيها نعيم وخلود ، والله أصدق القائلين.

قال السدي : (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، يقول : من يجتنب الكبائر من المسلمين).

وقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾. أي زال بشركه عن قصد السبيل ، وطريق الحق زوالاً شديداً ، فالضياع كل الضياع ، والضلال كل الضلال في الشرك.

وقوله : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل :

1 ـ إن يدعون من دونه إلا اللات والعزى ومناة ، فسماهن الله إناثاً بتسمية المشركين إياهنّ بتسمية الإناث. قال السدي : (يسمونهم «إناثاً» : لاتٌ ومناة وعُزّىٰ).

وقال أبو مالك : (اللات والعزى ومناة ، كلها مؤنث). وقال ابن زيد : (آلهتهم ، اللات والعزىٰ ويَسَاف ونائلة ، إناث ، يدعونهم من دون الله. وقرأ : ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾).

2 ـ قيل بل المعنىٰ : إن يدعون من دونه إلا مواتاً لا رُوح فيه.

قال ابن عباس : (﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ يقول : مَيْتاً). وقال قتادة : (إلا ميتاً لا رُوح فيه). وقال الحسن : (و «الإناث» كل شيء ميت ليس فيه روح : خشبة يابسة أو حجر يابس).

3 ـ قيل بل عني بذلك قول المشركين : الملائكة بنات الله.

قال الضحاك : (﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ ، قال : الملائكة ، يزعمون أنهم بنات الله).

4 ـ قيل بل المعنىٰ : (الإناث : الأوثان). قال مجاهد : («إناثاً». أوثاناً).

والقول الأول هو الراجح وهو اختيار شيخ المفسرين ابن جرير رحمه الله.

وقوله: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾. قال قتادة: (تَمَرَّدَ على معاصي الله). والمقصود أنه متمرد على الله بمخالفة أمره وتكبّره وغروره.

وقوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾. أي: أخزاه وأقصاه وأبعده من كل خير، فهو ملعون رجيم.

وقوله: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾. قال الضحاك: (معلوماً).

فالشيطان أخذ على نفسه إذ أبعده الله إغواء ذرية بني آدم حسداً وعلواً وبغياً، بتزيين الضلالة لهم حتىٰ يزيلهم عن منهج طريق الهدىٰ ويركبوا طريق الضلال، فمن اتبع ذلك فهو من نصيبه المعلوم، وحَظِّهِ المقسوم، ويكون قد صدّق بذلك ظن إبليس وأمانيه إذ رضي لنفسه أن يكون جزءاً من حظ أماني إبليس اللعين.

وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾. أي: لأصدنهم عن الطريق، ولأزيغنهم بالأماني الكاذبة التي تملأ نفوسهم.

وقوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾. قال قتادة: (البتك في البحيرة والسائبة، كانوا يبتكون آذانها لطواغيتهم). وقال السدي: (فيشقونها، فيجعلونها بحيرة).

وقال عكرمة: (دينٌ شرعه لهم إبليس، كهيئة البحائر والسُّيَّب).

والمقصود: تشقيق آذان بعض الأنعام وجعلها علامة وَسِمَةً للبحيرة والسائبة والوصيلة. فكانت العرب في الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر شقوا أذنها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تمنع عن ماء ولا مرعىٰ، وإذا لقيها المعيي المنقطع به لم يركبها. وهذه هي البحيرة.

وأما السائبة: فهي الناقة تسيّب للأصنام لنحو بُرْء من مرض أو نجاة في حرب. وسيأتي تفصيل ذلك في آية المائدة إن شاء الله.

وقوله: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾. قال ابن عباس: (يعني بذلك خصاء الدواب). وقال الحسن: (الوشم). وقال مجاهد: (الفطرة، دين الله).

قلت: وكل ما يجري اليوم من عمليات التجميل والوشم والنمص وتغيير لون البشرة وتفليج الأسنان للحسن وغير ذلك مما يشير إلى عدم الرضا عن الله في خلقه داخل في مفهوم هذه الآية ووعيدها.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: [أن رسول الله ﷺ لعن الواصِلَة والمُسْتَوْصِلَة والواشِمة والمُسْتَوشِمة][1].

والواشمة هي التي تغرز إبراً في الجلد ليخرج الدم وتذرّ بموضعه كحل أو نيل ليتلون به، والمستوشمة من تطلب أن يفعل بها ذلك.

والوشر تحديد الأسنان، وقد جاء النهي عن تفليج الأسنان للحسن.

ففي الصحيحين عن ابن مسعود قال: [لعن الله الواشمات والمستوشِمات، والنامِصات والمتنمصات، والمتفلّجات للحُسْن، المغيّرات خلقَ الله][2].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجْتالَتْهُم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم][3].

والمقصود أن خلق الله هو الأقوم والأمثل، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الأحسن والأكمل، ومخالفة ذلك اتباع لسبيل الشياطين.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كُلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه، أو يُنَصِّرانه، أو يمجِّسَانه، كما تولد البهيمة بهيمةً جَمْعَاءَ، هل تُحسّون فيها من جدعاء][4].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾.

أي: من يطع الشيطان ويرضاه ويواليه نصيراً من دون الله فقد أورد نفسه موارد العطب والخسارة والهلاك.

وقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾. قال ابن جرير: (يعد الشيطان المَرِيدُ أولياءَه الذين هم نصيبُه المفروض: أن يكون لهم نصيراً ممن أرادهم بسوء، وظهيراً لهم عليه، يمنعهم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 317)، ومسلم (2124)، وأخرجه الترمذي (2784)، وغيرهم. من حديث عبد الله بن عمررضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (10/ 313)، و(10/ 314)، وأخرجه مسلم (2125)، وغيرهما. من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865)، وأحمد (4/ 266)، وابن حبان (653)، وغيرهم.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4775)، ومسلم (2658)، وأحمد (2/ 253)، وغيرهم.

منه ويدافع عنهم ، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم والفَلَج عليهم). وقال ابن كثير: (يعد أولياءه ويمنِّيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترىٰ في ذلك).

وقوله: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾. أي: إلا باطلاً وكذباً ومكراً.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾. أي: جهنم مأوىٰ الذين اتخذوا الشيطان ولياً من دون الله ، ولا يجدون عنها مَعْدِلاً يعدلون إليه ، ولا مندوحة ولا مناص ولا خلاص. وفي لغة العرب: حاصَ فلان عن أمر فهو يحيص حَيْصاً إذا عدل عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾.

هذه هي الصورة المقابلة لتلك الصورة ، بساتين نعيم وجمال وخلود ، وأنهار تجري في ربوعها ، أعدّها الله نزلاً للقائمين بأمره المتنكرين لسبل الشيطان وغروره ومنهاجه ، وَعْدٌ من الله وهو أصدق من وعد سبحانه وتعالىٰ ، وأصدق من قال.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر: [كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرَّت عيناه ، وعلا صَوْتُه ، واشتد غضبُه ، حتىٰ كأنه مُنْذِرُ جيش يقول: صبّحكم مَسَّاكُم... ويقول: أما بعدُ ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد].

وفي روايات أخرىٰ عند النسائي والبيهقي وابن ماجة وأحمد ـ واللفظ للنسائي: [إن أصدق الحديث كلام الله ، وخيرُ الهَدْي هَدْيُ محمد ﷺ ، وشرُّ الأمور مُحْدَثاتها ، وكلُّ محدثة بدعة ، وكلُّ بدعة ضلالة ، وكلُّ ضلالة في النار][1].

123 ـ 126. قوله تعالىٰ: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

(1) حديث صحيح. انظر للروايات المختلفة صحيح مسلم (867) ، وسنن النسائي (3/ 188) ، وابن ماجة (45) ، وأحمد (3/ 310 ـ 311 ـ 337 ـ 338 ـ 371) ، والبيهقي (3/ 213).

نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

في هذه الآيات: تأكيدٌ على مجازاة الذنوب والخطايا في الدنيا والآخرة وما يدفع الله أكثر ، وترغيب في إتباع الخطايا بالتوبة والعمل الصالح ، فإنّ ذلك من أحسن ما يعالج به الزلل ، ثم تنبيه لثواب الإخلاص لله في المنهج واتباع ملة التوحيد ملة أبينا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فهو أعلى مقامات العمل ، والله له كل ما في هذا الكون الفسيح ، وهو محيط بكل شيء ، قد وسع كل شيء علماً.

يروي ابن جرير بسنده عن مسروق قال: (تفاخر النصارىٰ وأهل الإسلام ، فقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! وقال هؤلاء: نحن أفضل منكم! قال: فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ﴾).

وكذلك روىٰ عن قتادة قال: (ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب: نبيُّنا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولىٰ بالله منكم! وقال المسلمون: نحن أولىٰ بالله منكم ، نبيُّنا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله! فأنزل الله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ، إلى قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ، فأفلج الله حُجَّة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان).

وذكر عن السدي نحوه وفي آخره: (ثم فضل الله المؤمنين عليهم فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾).

ثم قال ابن جرير: (إنما هو خبر من الله عن أماني أولياء الشيطان. وما إليه صائرة أمانيهم ، مع سيِّئ أعمالهم من سوء الجزاء ، وما إليه صائرة أعمال أولياء الله من حسن الجزاء. وإنما ضمّ جل ثناؤه أهل الكتاب إلى المشركين في قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَٰبِ﴾ ، لأن أماني الفريقين من تمنية الشيطان إياهم التي وعدهم أن يمنِّيهموها بقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ﴾).

وقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾. أي كل من عمل سوءاً صغيراً أو كبيراً من مؤمن أو كافر ، جوزي به. وفي هذا المعنىٰ أحاديث:

الحديث الأول: أخرج سعيد بن منصور بسند حسن عن عُبيد بن عُمير ، عن عائشة: [أن رجلاً تلا هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ، فقال: إنا لنُجْزىٰ بكل عمل؟ هلكنا إذن. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: نعم يُجْزَىٰ به المؤمن في الدنيا في نفسه وفي جسده فيما يؤذيه][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: [لما نزلت: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ بلغَتْ من المسلمين مَبْلَغاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ: قاربوا وسدِّدوا ، ففي كلِّ ما يُصابُ به المسلم كفَّارةٌ ، حتىٰ النَّكبَةِ يُنْكَبُها ، أو الشوكةِ يُشَاكها][2].

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد وأبي هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: [ما يُصيبُ المسلم من نصبٍ ولا وصب ولا سَقَمٍ ولا حَزَنٍ ، حتىٰ الهمِّ يُهَمُّه إلا كفَّر الله بها من سيئاته][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد بسند جيد عن زينب بنت كعب بن عُجرة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: أرأيت هذه الأمراض التي تُصيبنا ، ما لنا بها؟ قال: كفارات. قال أُبيّ: وإن قَلَّت. قال: وإن شوكة فما فوقها. قال: فدعا أبي على نفسه أنه لا يفارقه الوعكُ حتىٰ يموت ، في أن لا يشغله عن حَجّ ولا عُمْرة ولا جهاد في سبيل الله ، ولا صلاة مكتوبة في جماعة ، فما مسَّه إنسان إلا وجد حرَّه ، حتىٰ مات رضي الله عنه][4].

وذكر ابن جرير بسنده عن الربيع بن زياد قال: (قلت لأبيّ بن كعب: قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ، والله إن كان كل ما عملنا جُزينا به هلكنا! قال: والله إن كنتُ لأراك أفقهَ مما أرىٰ! لا يُصيب رجلاً خدشٌ ولا عثرةٌ إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، حتىٰ اللَّدغة والنَّفْحة).

---

(1) إسناده حسن ، رجاله ثقات. انظر تفسير ابن كثير ، حديث رقم (2279).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2574) ، كتاب البر والصلة ، وأخرجه أحمد في المسند (2/ 248).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5641) ، ومسلم (2573) ، وأحمد (3/ 4) ، (3/ 48) ، وغيرهم. من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(4) حديث رجاله ثقات. أخرجه أحمد في المسند (3/ 23) ، ورواه أبو يعلىٰ (995) ، وله شواهد.

ثم روىٰ عن أبي المهلب قال: دخلت على عائشة كي أسألها عن هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ ، قالت: (ذاك ما يصيبكم في الدنيا).

والخلاصة: لاَ مَفَرَّ من تذوق أثر الخطايا والذنوب في الحياة الدنيا قبل الآخرة، وما يدفع الله أكثر، ثم إن من تاب وتاب الله عليه نجّاه يوم القيامة وستر عليه.

يروى الطبراني بسند حسن عن البراء بن عازب مرفوعاً: [ما اختلج عِرْقٌ ولا عَيْنٌ إلا بذَنْبٍ، وما يدفَعُ الله عنه أكثر][1].

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ . أي لا يجد فاعل المعصية من بعد الله من يحميه من غضب الله وبأسه أو ينصره من عقاب الله وألمه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ .

قال السدي: (أبىٰ أن يقبل الإيمان إلا بالعمل الصالح، وأبىٰ أن يقبل الإسلام إلا بالإحسان).

والمقصود: لابد من العمل الصالح مع الإيمان، فإن الإيمان يشمل القول والعمل معاً، والموعد الجنة ولا يظلم أحد نقيراً. قال مجاهد: (النقير، الذي يكون في ظهر النواة). وقال عطية: (النقير، الذي في وسط النواة).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ﴾ .

فإن شرط القبول: الإخلاص وسلامة المنهج. والمنهج هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ملة التوحيد وإفراد الله بالتعظيم.

قال القاسمي رحمه الله: («وهو محسن» أي آت بالحسنات تارك للسيئات. أو آت بالأعمال الصالحة على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي).

فخلاصة المعنىٰ: أحسن الدين عند الله ما كان:

---

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم 1053) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2215).

1 ـ على الإخلاص ابتغاء وجهه تعالىٰ لا شريك له. أي على منهاج التوحيد ملة أبينا إبراهيم.

2 ـ على منهج الشريعة التي جاء بها محمد ﷺ في العمل الصالح وبلوغ مرتبة الإحسان.

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. أي: ولياً. والخلة أرفع درجات المحبة، وقد ثبتت لنبينا محمد ﷺ أيضاً.

ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري: أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال: [أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً، لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله][1].

وفي صحيح مسلم من حديث جُندب بن عبد الله البَجلي وعبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: [إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً][2].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾.

المعنى: كل ما في هذا الكون الفسيح: مخلوقاته وجماداته وما في أرجاء سماواته وأرضه تحت تصرفه سبحانه، وعلمُه نافذ في جميع ذلك لا تخفىٰ عليه خافية فله الكبرياء وحده لا شريك له.

127. قوله تعالىٰ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧)﴾.

في هذه الآية: 1 ـ تحذير من نكاح اليتيمة ـ في حجر صاحبها ـ دون أن يمهرها مهر مثلها. 2 ـ وتحذير إن لم يكن له رغبة في نكاحها أن يعضلها ويمنعها عن الأزواج خشية

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3904)، ومسلم (2383) ح (6) ـ واللفظ له. وأخرجه الترمذي (3660)، وابن حبان (6861) بلفظ مشابه، وله ألفاظ متقاربة في الصحيحين.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (532) ح (23)، وانظر النسائي في «التفسير» (143).

أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها. 3 ـ دعوة إلى العدل في القسمة والمواريث.

أخرج البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير: [أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ ـ فذكرت نحو ما تقدم في أول السورة ـ قال: قالت: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾].

وفي لفظ البخاري عن عائشة رضي الله عنها: [﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾، قالت عائشة: هو الرجل تكون عنده اليتيمة، هو وليّها ووارثها، قد شركته في ماله حتىٰ في العَذْقِ، فيرغب أن ينكحها ويكره أن يزوِّجها رجلاً فيشركه في ماله بما شَرِكته، فيعضُلها، فنزلت هذه الآية][1].

وقوله: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾.

أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت: [وقول الله عز وجل: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حِجْرِه حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من يتامىٰ النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن][2].

ويلخص معنىٰ الآية ما ذكره علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:

قال ابن عباس: (كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيُلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتىٰ تموت، فإذا ماتت ورثها فَحَرَّم الله ذلك ونهىٰ عنه).

وقوله: ﴿ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

قال السدي: (كانوا لا يورثون جارية ولا غلاماً صغيراً، فأمرهم الله أن يقوموا لليتامىٰ بالقسط. و«القسط»: أن يعطىٰ كل ذي حق منهم حقه، ذكراً كان أو أنثىٰ،

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (4600)، وصحيح مسلم (3018)، وسنن أبي داود (2068)، والنسائي في «التفسير» (144)، والبيهقي (7/ 141)، وانظر: «الصحيح المسند من أسباب النزول» للرواية الأولىٰ ـ سورة النساء ـ آية (127).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (2494)، ومسلم (3018) من حديث عائشة مطولاً.

الصغير منهم بمنزلة الكبير). وبنحوه عن ابن عباس وفيه: (كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: «لا تؤتونهن ما كتب لهن»).

وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

دعوة إلى التجارة الرابحة ـ مع الله سبحانه ـ، فإن الله لم يزل عالماً بما يكون منكم، وهو يحصي ذلك ليجازيكم به يوم الحساب.

128 ـ 130. **قوله تعالىٰ**: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)﴾.

في هذه الآيات: إرشاد للمرأة الخائفة من إعراض زوجها عنها لبغض أو كراهة أن تترك له يومها أو تضع عنه بعض الواجب لها من حق عليه لاستدامة مُقامه على عقدها والصلح خير من الفراق عند المشاحة. وإرشاد للزوج أن يتجاوز ما يجده من كراهية ويحسن لزوجته والله لا يخفىٰ عليه هذا الإحسان ويجزي به. ثم في الآيات تَنْبيه لعدم طاقة الرجال غالباً في العدل بين النساء في المحبة، وتحذير من الجور عند الميل لواحدة دون أخرىٰ، وإن تصلحوا وتعدلوا يستر عليكم سبحانه ما فات من الجور. فإن أبت المرأة التي أعرض عنها زوجها إلى ضرتها لجمال أو شباب أو شيء مما تميل إليه النفوس الصلحَ بصفحها لزوجها عن يومها وليلتها وطلبت حقها كاملاً بالقَسْم والنفقة وأبىٰ الزوج الإحسان وتفرقا بطلاق فإن الله يغني كلاً من سعته وكان الله واسعاً لهما في رزقه حكيماً فيما قضىٰ بينهما من الفرقة والطلاق.

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: [﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد أن يفارقها

فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية في ذلك](1).

وأخرج أبو داود والحاكم عن عائشة ـ قالت لعروة ـ: [يا ابن أختي كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتىٰ يبلغ إلىٰ التي هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسَنّتْ وفرقت أن يفارقها رسول الله ﷺ: يا رسول الله! يومي لعائشة، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منها. قالت: تقول في ذلك أنزل الله عز وجل وفي أشباهها أراه قال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾](2).

وأخرج الحاكم بسند صحيح عن رافع بن خديج: [أنه كانت تحته امرأة قد خلا من سنها فتزوج عليها شابة، فآثر البكر عليها، فأبت امرأته الأولىٰ أن تقرّ على ذلك، فطلقها تطليقة، حتىٰ إذا بقي من أجلها يسير قال: إن شئت راجعتك وصبرت على الأمر، وإن شئت تركتك حتىٰ يخلو أجلك. قالت: بل راجعني أصبر على الأثرة، ثم آثر عليها فلم تصبر على الأثرة، فطلقها الأخرىٰ وآثر عليها الشابة. قال: فذلك الصلح الذي بلغنا أن الله قد أنزل فيه: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾](3).

وخلاصة المعنىٰ:

لو خافت المرأة نفور زوجها عنها فلها أن تُسقط عنه بعض حقها في النفقة أو الكسوة أو المبيت، وله أن يقبل ذلك منها. يدل على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾. ثم قال: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، أي: من الفراق.

وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

أي: وأحضرت أنفس النساء الشح على أنصبائهن من أنفس أزواجهن وأموالهم.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2450) و(5131)، وأخرجه مسلم (3021) ح (13).

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (2135)، والحاكم (2/ 186)، والبيهقي (7/ 74 ـ 75).
وأخرج نحوه الترمذي عن ابن عباس قال: [خشيت سودة أن يطلقها النبي ﷺ فقالت: لا تطلقني وأمسكني واجعل يومي لعائشة، ففعل فنزلت: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾. فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز]. صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2434) ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء، آية (128).

(3) حديث صحيح. انظر مستدرك الحاكم (2/ 308 ـ 309)، والصحيح المسند من أسباب النزول ـ سورة النساء، آية (128). من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

قال ابن عباس: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾، قال: نصيبها منه). وقال عطاء: (في الأيام والنفقة). وقال سعيد بن جبير: (المرأة تشحُّ على مال زوجها ونفسه).

وقيل: وأحضرت نفس كل واحد من الرجل والمرأة، الشحَّ بحقه قِبل صاحبه. والأول أرجح واختاره ابن جرير. فتأويل المعنىٰ: وأحضرت أنفس النساء أهواءَهن، من فرط الحرص على حقوقهن من أزواجهن، والشح بذلك على ضرائرهن. قال ابن عباس: (والشح: هواه في الشيء يحرص عليه).

فالصلح خير من الفراق عند المشاحة، ولذلك صالحت سودة بنت زمعة رسول الله ﷺ حين كبرت وعزم على فراقها، على أن يمسكها وتهب يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها.

ففي الصحيحين عن عائشة قالت: [لما كَبِرتَ سَوْدَةُ بنت زَمْعة وهبَتْ يومها لعائشة، فكان النبي ﷺ يقْسِمُ لها بيوم سَوْدَةَ][1].

وقوله: ﴿وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

قال ابن كثير: (وإن تَتَجشّموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتَقْسِموا لهنَّ أسوة أمثالهن، فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء).

وقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

قال مجاهد: (واجب، أن لا تستطيعوا العدل بينهن). وقال عبيدة: (﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾. قال: بنفسه في الحب والجماع).

والمقصود: مهما حاول الرجل العدل الظاهر في المبيت والنفقة، فإنه لا بد من التفاوت في أمر المحبة والشهوة والجماع.

وقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾. أي: إن حصل الميل فانتبهوا من المبالغة المؤذية. وقوله: ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾. أي: فتبقىٰ الأخرىٰ معلقة. قال قتادة: (كالمسجونة). وقال ابن عباس: (تذروها لا هي أيّم، ولا هي ذات زوج). وقال الربيع: (لا مطلقة ولا ذات بعل). وقال الضحاك: (لا تدعها كأنها ليس لها زوج).

أخرج أبو داود والترمذي والنسائي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (212)، وأخرجه مسلم (1463)، وأبو يعلىٰ (4621).

رسول الله ﷺ: [من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شقّيه ساقط][1]. وفي رواية: (وشقّه مائل).

وقوله: ﴿وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إن تداركتم ما حصل منكم من ميل أو ظلم فأصلحتم واتقيتم الله عاد عليكم سبحانه بالمغفرة والتوبة والرحمة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

يعني إن تعذر كل ما فيه إصلاح وكان الفراق آخر المطاف ، فإن الله سبحانه بكرمه يغني كل واحد منهما فيعوضه خيراً من صاحبه ، ويبارك له في حياة جديدة أفضل ، إنه سبحانه واسع الفضل والكرم ، عظيم المنّ والعطاء ، حكيمٌ في كل ما يقدر ويشرع.

131 ـ 134. قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (132) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (133) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)﴾.

في هذه الآيات: يخبر تعالىٰ أنه الحاكم لهذا الكون ، فكل ما في السماوات والأرض ملك له يمضي بأمره ، وليس للإنسان في ذلك من شيء إلا أن يتقي الله ، فهي وصية الله لكل الأمم والله هو الغني الحميد ، وهو الوكيل القائم على كل نفس بما كسبت ، ولو شاء أذهبكم وأتىٰ بقوم آخرين يطيعونه ولا يعصونه ، فمن أراد هذه الدنيا فليعلم أن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، فليكن سعيه لهما جميعاً وإن الآخرة خير وأبقىٰ.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2133) ، والترمذي (1141) ، والنسائي (7/ 63) ، وأحمد (2/ 471) ، وابن أبي شيبة (4/ 388) ، وغيرهم.

فقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

قال ابن جرير: (ولله جميع مُلك ما حوته السماوات السبع والأرضون السبع من الأشياء كلها. وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ﴾، تنبيهاً منه خلقَه على موضع الرغبة عند فراق أحدهم زوجته، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوَحشة بفراق سكنه وزوجته، وتذكيراً منه له أنه الذي له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء، فغير متعذر عليه أن يغنيه وكلَّ ذي فاقة وحاجة، ويؤنس كلَّ ذي وحشة).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

التقوىٰ عماد كل أمر، وعنوان كل عمل، فبدونها يهزل العمل ويصبح صورة وحركة بلا مضمون. قال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾. وقال جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

والتقوىٰ حالة في القلب يرجح بها تعظيم أمر الله ومحابه، فتنعكس بالخوف منه سبحانه على أعمال الجوارح. وقد أورد الإمام البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان قول ابن عمر رضي الله عنه: (لا يبلغ العبد حقيقة التقوىٰ حتىٰ يدع ما حاك في الصدر).

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقِرُه، التقوىٰ ها هنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات...][1].

ولأهمية التقوىٰ، أوصىٰ الله بها أهل الكتاب قبلنا ـ أهل التوارة والإنجيل ـ كما أوصانا بها، «اتقوا الله» أي احذروا الوقوع في ما يسخطه ويغضبه.

وقوله: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

أي: إن كفرتم فلا تضرون بخلافكم وصيته سبحانه، ورضاكم بالكفر إلا أنفسكم فالله ملك هذا الكون الفسيح ذي السماوات السبع والأرضين السبع.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2559)، كتاب البر والصلة.

وعن علي رضي الله عنه: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، قال: غنياً عن خلقه، «حميداً»، قال: مستحمداً إليهم) ذكره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾. قال قتادة: (حفيظاً).

وقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾. قال سعيد، عن قتادة: (قادرٌ والله ربنا على ذلك: أن يهلك من يشاء من خلقه، ويأتي بآخرين من بعدهم).

وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ قال ابن كثير: (أي: بيده هذا وهذا، فلا يقتصرَنَّ قاصرُ الهمَّة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن هِمَّتُه سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كلِّه إلى الذي بيده الضر والنفع، وهو الله الذي لا إله إلا هو، الذي قد قسم السعادة والشقاوة في الدنيا والآخرة، بين الناس وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا. ولهذا قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾).

قلت: بل طلب العبد سعادة الآخرة بصدق يورثه سعادة الدنيا والآخرة، وحرصه على الآخرة بصدق يقابله مجيء الدنيا إليه وهي راغمة.

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [من كانت الآخرة همَّهُ، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له][(1)].

135 ـ 136. **قوله تعالىٰ:** ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 76). وله شاهد عند ابن ماجة (2/ 524)، وابن حبان (72) من حديث زيد بن ثابت مرفوعاً. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (949 ـ 950).

أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: أَمْرٌ مِنَ الله عباده بإقامة العدل والقسط وأداء الشهادة ابتغاء وجه الله دون تحريف أو كتمان، وإن كانت الشهادة على الوالدين أو الأقربين أو على غني أو فقير، فإياكم والهوىٰ أو التحاكم إلى العواطف وميل النفس فإن فعلتم نالكم الوعيد والتهديد. ثم أَمْرٌ للمؤمنين بالاستمرار على منهج الإيمان والثبات عليه فإن من كفر به أو حاد عنه فقد سلك سبيل الضلال يعقبه الهلاك.

قال قتادة: (﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾ الآية، هذا في الشهادة. فأقم الشهادة، يا ابن آدم، ولو على نفسك، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو شَرَفِ[1] قومك، فإنما الشهادة لله وليست للناس، وإن الله رضي العدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزان الله في الأرض، به يردّ الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق).

وقال ابن زيد: (لا يحملك فقرُ هذا على أن ترحمه فلا تقيم عليه الشهادة. قال: يقول هذا للشاهد).

وقوله: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾. أي عن الحق، فتجوروا. وفيه ثلاثة أقوال متقاربة:

1 ـ إن عدلتم عن الحق كنتم من الجائرين ممن يتبع الهوىٰ.

2 ـ لا تتبعوا أهواء نفوسكم هرباً من القسط في إقامة الشهادة.

3 ـ لا تتبعوا الهوىٰ لتعدلوا، بمعنىٰ النهي عن ذلك لأجل إقامة العدل.

والخلاصة: نهي عن اتباع الهوىٰ وتقديم العصبية والتحاكم إلى العاطفة عند الحكم، فإن ذلك يباعد من القسط وإقامة العدل. وفي التنزيل: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾.

(1) شَرَف: جمع شريف، كما يجمع «شريف» على أشراف وشرفاء.

وقوله: ﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

اللَّي: هو التحريف وتعمد الكذب، والإعراض: كتمان الشهادة وتركها. فإلى أقوال أهل التفسير:

1 ـ قال ابن عباس: (يقول: تلوي لسانك بغير الحق، وهي اللَّجلجة، فلا تقيم الشهادة على وجهها. والإعراض: الترك).

2 ـ قال مجاهد: («وإن تلووا»، بتبديل الشهادة، و«الإعراض» كتمانها).

وقال: (إن تحرفوا أو تتركوا).

3 ـ عن ابن عباس قال: (هما الرجلان يجلسان بين يدي القاضي، فيكون ليُّ القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر). فوجه الخطاب هنا إلى الحكام، عندما يميل الحاكم في الحكم لأحد الخصمين على الآخر.

واختار ابن جرير المعنىٰ الأول والثاني. قلت: والبيان الإلهي يحتمل التأويل الثالث والله تعالىٰ أعلم.

وفي مسند أحمد بسند حسن عن الشريد بن سويد عن النبي ﷺ قال: [ليُّ الواجِدِ يُحِلّ عرضه وعقوبته][(1)].

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. أي: مطلع على قضائكم وشهادتكم ليجازيكم بها.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشُعَبِهِ وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه).

وقوله: ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يعني القرآن. ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ يشمل جميع الكتب المتقدمة. والفرق بين «نزّل» و«أنزل» أن القرآن نزل منجماً مفرقاً على الوقائع، بينما أنزلت الكتب السابقة دفعة واحدة.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (3628)، وابن ماجة (2427). وأخرجه أحمد والنسائي والحاكم. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5363). قال ابن الأعرابي: (عقوبته حبسه، وعرضه شكايته).

وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾.
أي: من يخرج عن سبيل المؤمنين في منهاج الإيمان فقد رضي لنفسه الضلال عن قصد الطريق وما يعقبه من الهلاك والعطب.

137 ـ 140. **قوله تعالىٰ**: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

في هذه الآيات: تحذيرٌ من سلوك المنافقين في أمر الإيمان، الذين يتقلبون يتذبذبون بين الإيمان والكفر، ثم يختم الله لهم بالكفر مقابل نفاقهم ولا يغفر لهم، ولهم عذاب أليم. ذلك بأنهم اتخذوا الكافرين بطانة لهم من دون المؤمنين يبتغون عزة فارغة جوفاء، والعزة الحقيقية هي بالله ودينه وبالمؤمنين. لقد حذر الله المؤمنين من الجلوس مع قوم يستهزئون بالله أو رسله أو دينه ووعد ليجمعن الكافرين والمنافقين في جهنم جميعاً.

فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾.

أي دخلوا في الإيمان ثم رجعوا ثم عادوا فيه ثم رجعوا واستمروا على الضلال حتىٰ ماتوا. قال ابن عباس: (تمّوا على كفرهم حتىٰ ماتوا).

وقوله: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾. أي: لم يكن الله ليستر عليهم كفرهم وذنوبهم، بل الأمر غير ذلك، سيفضحهم بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ولا سبيل لهم إلى هدايته سبيل التوفيق والنجاة.

1 ـ قيل: لا يخصهم بالتوفيق كما يخص أولياءه.

2 ـ وقيل: «لا ليهديهم سبيلاً»: طريقاً إلى الجنة.

يروي ابن أبي حاتم وابن جرير عن عامر الشعبي ، عن علي رضي الله عنه ، أنه قال: (يستتاب المرتد ثلاثاً ، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾).

وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أي: موجعاً في نار جهنم.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. أي: يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ، وإذا خلوا بهم قالوا: إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون. يعني بأهل الإيمان ، يحرصون على عرض الدنيا ورياستها وزينتها الفانية على حساب نصرة الدين الحق والجهاد في سبيل الله.

وقوله: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

هل يريد هؤلاء الذين ينافقون للذين كفروا العزة من هؤلاء؟! فهؤلاء الكفار هم الأذلاء في الدنيا والآخرة ، رغم ما يظهر للناس من سلطانهم وكبرهم وغرورهم ، فإن هذا الظاهر من أسباب العلو والبغي سيفنىٰ عما قريب ، وتبقىٰ العزة لله جميعاً. كما قال جل ذكره: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وكما قال جل ذكره: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

إن فخر الأمة بالانتساب لغير الإسلام والاعتزاز بغير الله هو مصدر ذلها وشقائها ، فلا فخر للأمة ولا فرح لها إلا بنصر هذا الدين العظيم ، وانهيار كل مناهج النفاق والكفر والانحراف في الأرض ، فلا بد أن يرتبط أي فرح للأمة بمعنىٰ من معاني نصر دينها.

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا ، إنما هم فحم جهنم ، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعَلِ الذي يُدَهْدِه الخُرْءَ بأنفه ، إن الله أذهبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من التراب][1].

وكذلك أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد صحيح عن أُبيّ ، عن النبي ﷺ قال: [انتسب رجلان على عهد موسىٰ ، فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان ، حتىٰ عدَّ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (3955). انظر صحيح الترمذي (3100). ورواه أحمد. انظر تخريج المشكاة (4899) ، وصحيح الجامع الصغير ـ رقم (5358).

تسعة فمن أنت لا أمَّ لك؟ قال: أنا فلانُ بن فلان ابن الإسلام. فأوحىٰ الله إلى موسىٰ، أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم في النار، وأما أنت أيها المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة][1].

وقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

هذه الآية العظيمة ـ آية المفاصلة ـ أو ـ آية الولاء والبراء ـ بين المؤمنين والمنافقين أو الكافرين، فلا يجوز للمسلم أن يجلس في مكان يُستهزأ به في دين الله، ولا يجوز له أن يقعد مع قوم ينالون من أمر الله أو منهاجه أو من رسله، أو يتحاكمون لغير هذا الدين العظيم، الذي ارتضاه سبحانه منهجاً فريداً للعالمين. فإن استمر في الجلوس معهم وهم على ذلك كان مثلهم، وتوعده الله أن يجمعه معهم في العذاب يوم القيامة.

وقد كان الوعيد أخف في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وهي مكية. فجاء التهديد الشديد في آية النساء ـ وهي مدنية ـ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾. أي في المأثم.

أخرج الترمذي والدارمي والحاكم بسند حسن عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمّام بغير إزار، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدخل حليلتَه الحمام، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلسْ على مائدة يُدار عليها الخمر][2].

قال شيخ الإسلام: (فاتباع سنة رسوله ﷺ واتباع شريعته باطناً وظاهراً هو موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيل الله، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها)[3].

وفي الصحيحين وسنن ابن ماجة عن حذيفة، عن النبي ﷺ قال: [تكون دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، هم قومٌ من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (5/ 128)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2/ 88/ 1).
(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2801)، والدارمي (2/ 112). وانظر صحيح الجامع (6382).
(3) انظر تفصيل ذلك في «التحفة العراقية»: ص (76).

فالزم جماعة المسلمين وإمامهم ، فإن لم تكن جماعة ولا إمام فاعتزل تلك الفرق كُلَّها ، ولو أن تعضَّ بأصل شجرة حتىٰ يدركك الموتُ وأنت كذلك][1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : (أي : كما اشتركوا في الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال ، والقيود والأغلال ، وشراب الحميم والغسلين لا الزُلال) .

141 ـ 143 . قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

في هذه الآيــات: فَضْحٌ لسلوك المنافقين وطبيعة قلوبهم المريضة الهزيلة ، فهم ينتظرون السوء والمصائب أن تحل بالمؤمنين ليفرحوا وليشمتوا ، فإن ظهر المسلمون جاؤوا يدّعون النصرة ويطالبون بالاشتراك في الغنيمة . إنهم يخادعون أنفسهم والله يمكر بهم لقاء قيامهم الهزيل إلى الصلاة ، ومقابل الرياء الذي شغل عليهم قلوبهم ، حتىٰ أصبحوا مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ولا سبيل ولا فلاح لمن أعماه الله عن سواء السبيل .

قال ابن جريج : (﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ : المنافقون يتربصون بالمسلمين ، ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ ﴾ ، قال: إن أصاب المسلمون من عدوهم غنيمة قال المنافقون: ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ، قد كنا معكم فأعطونا غنيمة مثل ما تأخذون ، ﴿ وَإِن

---

(1) حديث صحيح. رواه البخاري في الفتن (7084) ، ورواه مسلم في الإمارة (1847) ، ورواه ابن ماجة. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2991).

كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ، يصيبونه من المسلمين ، قال المنافقون للكافرين : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، قد كنا نثبِّطهم عنكم).

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ من الاستحواذ ، وهو الغلبة. قال السدي : (نغلب عليكم). وقال ابن جريج : (ألم نبين لكم أنا معكم على ما أنتم عليه). وفي التنزيل : ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة : 19].

وقوله : ﴿ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. قال السدي : (حُجّة). وقال ابن عباس : (ذاك يوم القيامة).

وقد يكون المعنىٰ في الدنيا ، أي : لن تكون العاقبة والغلبة للكفار على المؤمنين وإن كانت لهم جولة ، فالنهاية لابد أن تكون بالنصر الأكيد للمؤمنين ، لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾. ولقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

قال ابن كثير : (وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصحِّ قولي العلماء ، وهو المنع من بيع العبد المسلم من الكافر ، لما في صحّة ابتياعه من التسليط له عليه والإذلال).

وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

قال السدي : (يعطيهم يوم القيامة نوراً يمشون به مع المسلمين كما كانوا معهم في الدنيا ، ثم يسلبهم ذلك النور فيطفئه ، فيقومون في ظلمتهم ، ويُضرب بينهم بالسُّور).

والمقصود أن الله سبحانه يستدرجهم في طغيانهم ويخذلهم عن الحق الذي عادوه إلى حيث هلاكهم وهم لا يشعرون ، كما قال جل ذكره : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : 54]. ومن السنة الصحيحة في آفاق معنى الآية أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الشيخان من حديث جندب ، عن النبي ﷺ قال : [من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به ، ومن راءىٰ راءى الله به][1].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال : [إذا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6499) ، ومسلم (2987) ، وأحمد (4/ 313) ، وغيرهم.

أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافى به يوم القيامة][1] .

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسىٰ ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله تعالىٰ ليُملي للظالم ، حتىٰ إذا أخذه لم يُـفْلتـه][2] .

الحديث الرابع: أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة عن النبي ﷺ قال: [إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نَسِيَ ذكَّره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعلَ له وزيرَ سوء ، إن نسيَ لم يذكِّره ، وإن ذكر لم يُعِنْـهُ][3] .

وقوله: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ .

قال ابن زيد: (هم المنافقون ، لولا الرياء ما صلوا). وقال قتادة: (والله لولا الناس ما صلّى المنافق ، ولا يُصَلي إلا رياء وسُمْعة).

وقال ابن عباس: (يُكرهُ أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طَلْق الوجه عظيم الرَّغبة شديد الفرح ، فإنه يناجي الله وإن الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ ﴾). رواه ابن مردويه عن عطاء عن ابن عباس.

وقوله: ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قال الحسن: (إنما قلَّ لأنه كان لغير الله).

وقال قتادة: (إنما قلّ ذكر المنافق ، لأن الله لم يقبله. وكل ما ردَّ الله قليل ، وكل ما قبل الله كثير).

والمقصود أن المنافقين هذه صفتهم في أجل الأعمال وأشرفها وهي الصلاة ، فقد أفسدت عليهم نيّتهم كل خشية أو خوف من الله ، فقاموا بين يديه كسالىٰ مستهترين.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: [أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتُقام ، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم أنطلق معي برجال ، ومعهم حُزَمٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (2/ 64) ، والبيهقي في «الأسماء» ص (154).
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4686) ، كتاب التفسير. وأخرجه مسلم (2583) ، كتاب البر والصلة. ورواه ابن ماجة والترمذي وغيرهم. انظر صحيح الجامع (1818).
(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2932). انظر صحيح سنن أبي داود (2544).

من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة ، فأحرِّق عليهم بيوتهم بالنار][1] .

وفي رواية للبخاري: [والذي نفسي بيده ، لو عَلِمَ أحدهم أنه يجد عَرْقاً سميناً أو مَرْماتَيْن حَسَنَتين ، لشَهِدَ الصلاة][2] .

زاد أحمد في رواية: [ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرَّقْتُ عليهم بيوتهم بالنار] .

وفي الموطأ ومسند أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق: يجلس يَرْقُبُ الشمس حتىٰ إذا كانت بين قَرْني الشيطان ، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً][3] .

وقوله: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ .

قال مجاهد: (يقول: لا إلى أصحاب محمد ﷺ ، ولا إلىٰ هؤلاء اليهود) .

وقال ابن زيد: (بين الإسلام والكفر). وقال ابن جريج: (لم يخلصوا الإيمان فيكونوا مع المؤمنين ، وليسوا مع أهل الشرك) .

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال: [مَثَلُ المنافق كمثل الشاة العائِرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ، ولا تدري أيتهما تَتْبَع][4] .

وفي مسند أحمد بسند صحيح ، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: [بينما عُبيد بن عُمَير يَقُصُّ وعنده عبد الله بن عمر ، فقال عُبيد بن عمير: قال رسول الله ﷺ: مثلُ المنافق كالشاة بين رَبيضَين ، إذا أتت هؤلاء نطحتها ، وإذا أتت هؤلاء نطحتها. فقال ابن عمر: ليس كذلك قال رسول الله ﷺ ، إنما قال رسول الله ﷺ: كشاة بين غنمين. قال: فاحتفظ الشيخ وغَضِبَ ، فلما رأىٰ ذلك ابن عمر قال: أما إني لو لم أسمعه لم أردُدْ ذلك عليك][5] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (657) ، ومسلم (651) ح (252) ، وأبو داود (548) ، وأخرجه أحمد (2/ 424) ، وابن ماجة (791) ، والبيهقي (3/ 55) ، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (644) . والزيادة لأحمد في المسند (2/ 367) .

(3) حديث صحيح. أخرجه مالك (1/ 221) ، ومن طريقه أخرجه أبو داود (413) ، وأخرجه أحمد (3/ 149) ، وكذلك أخرجه مسلم (622) ، والبيهقي (1/ 443) .

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2784) ، وأحمد (2/ 102) ، والنسائي (8/ 124) ، وابن جرير.

(5) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (2/ 32) ، والطيالسي (1802) ، وأورده الحافظ ابن كثير بأسانيد مختلفة يقوي بعضها بعضاً ، في سورة النساء ، آية (142) .

وقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

أي: من صرفه الله عن سبيل المؤمنين مقابل النفاق الذي مشىٰ عليه ورضيه لنفسه منهجاً، فلا طريق له ولا منقذ ولا هادي له، قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: 186].

وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتىٰ يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][1].

144 ـ 147. قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

في هـذه الآيـات: نَهْيٌ عَنْ موالاة الكفار، ومناصحتهم وإطلاعهم على أسرار المؤمنين، ومن فعل ذلك كان من المنافقين، ممن يجعلون لله عليهم حجة يوم القيامة، وقد وعد الله المنافقين أسفل دركات جهنم، إلا من تاب وأصلح وأخلص لله من جديد فإن الله يقبله مع المؤمنين، أصحاب الأجر العظيم، فما يفعل الله بعذابكم إن أصلحتم وتبتم وشكرتم، فإن من شكر شكر الله له، ومن آمن قلبه به علمه، وأحسن جزاءه وثوابه.

وعن قتادة: (﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن

(1) حديث صحيح. رواه الإمام مسلم وغيره. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1990).

﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ قال: إن لله السلطان على خلقه، ولكنه يقول: عذراً مبيناً).

قال عكرمة: (ما كان في القرآن من «سلطان»، فهو حجة).

وفي التنزيل: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 28].

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

أي في الطبق الأسفل من أطباق جهنم، وبئس المقر وبئس المصير، حيث لا نصير لهم. وقرأها كذلك قراء الكوفة «الدرْك» بتسكين الراء، في حين قرأها قراء المدينة والبصرة «الدَّرَك» بفتح الراء، وهما قراءتان مشهورتان.

قال ابن عباس: (﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، يعني: في أسفل النار). وروى ابن جرير، عن خيثمة، عن عبد الله قال: (توابيت من نار تُطْبَقُ عليهم).

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد بسند حسن عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يُحشَرُ المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقون من عُصارة أهل النار، طينة الخبال][1].

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾.

أي: فمن ندم وتاب وأصلح ما كان أفسد من علاقة بالله سبحانه ودينه وعباده المؤمنين ـ بنفاقه أو موالاته الكفار أو ركوبه معصية الله ـ فرجع واعتصم بالله وأخلص له السريرة والعمل، فبدل الرياء بالإخلاص فإن الله سبحانه بكرمه يقبله مع المؤمنين ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقوله: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ﴾.

أي ما يصنع الله بعذاب المنافقين إن تابوا وآمنوا وأحسنوا الرجوع والشكر لله.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن. أبواب صفة القيامة. انظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2025). ورواه أحمد. انظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (7896).

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. أي: يشكر سبحانه من يشكر له، ويعلم من آمن وصدق قلبه الإيمان، فيجزيه أحسن الثواب.

148 ـ 149. قوله تعالىٰ: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

في هذه الآيات: لا يحب الله سوء القول وأن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فالله يسمع ويعلم ما يكون، وإن تقولوا جميلاً من القول أو لا تجهروا به أو تصفحوا فالله يحب العفو ويعفو عن خلقه، وهو ذو قدرة على الانتقام منهم.

لقد ورد الجهر بسوء القول بمعنيين أو أكثر:

1 ـ عند الظلم واسترجاع الحقوق:

قال ابن عباس: (لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أَرْخَصَ له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وإن صبر فهو خير له). وقال قتادة: (عذر الله المظلوم كما تسمعون: أن يدعو). وقال السدي: (إن الله لا يحب الجهر بالسوء من أحد من الخلق، ولكن من ظلم فانتصر بمثل ما ظُلم، فليس عليه جناح).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [المُسْتَبّانِ ما قالا، فعلىٰ البادئ، ما لمْ يعتد المظلوم][(1)].

فإن تمكن المظلوم من استرجاع حقه دون تشهير بمن ظلمه، أو عفا عنه فذلك أرفع. ففي صحيح مسلم أيضاً عنه، عن رسول الله ﷺ قال: [ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله][(2)].

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2587)، كتاب البر والصلة، باب النهي عن السباب.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2589)، الكتاب السابق، باب استحباب العفو والتواضع.

2 ـ **عند التفريط بحق الضيافة.**

فقد روى ابن جرير بسنده إلى مجاهد قال: (﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ الآية. قال: ضاف رجل رجلاً فلم يؤدِّ إليه حق ضيافته، فلما خرج أخبر الناس، فقال: ضفت فلاناً فلم يؤد حق ضيافتي! فذلك جهرٌ بالسوء إلا من ظلم، حين لم يؤد إليه ضيافته). وقال: (هو في الضيافة، يأتي الرجل القوم، فينزل عليهم فلا يضيفونه، رخَّصَ الله له أن يقول فيهم).

وفي الصحيحين واللفظ للبخاري، عن عقبة بن عامر قال: [قلنا للنبي ﷺ: إنك تَبْعَثُنا فَنَنْزِلُ بقومٍ لا يَقْرونَنا، فما ترىٰ فيه؟ فقال لنا: إن نزلتم بقوم فَأُمِرَ لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف][1].

وله شاهد أخرجه أحمد والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [أيما ضيف نزل بقوم، فأصبح الضيف محروماً، فله أن يأخذ بقدر قِراه، ولا حرج عليه][2].

وشاهد آخر أخرجه أحمد عن المقدام أبي كريمة، سمع رسول الله ﷺ يقول: [ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفنائه محروماً كان ديناً له عليه، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه][3].

3 ـ **عند اشتداد أذىٰ الجـار.**

أخرج البخاري في الأدب المفرد عن أبي جحيفة قال: [شكا رجل إلى النبي ﷺ جاره، فقال: احمل متاعَكَ فضعه على الطريق فمن مر به يلعنه. فجعل كل من مرَّ به يلعنه. فجاء إلى النبي ﷺ فقال: ما لقيت من الناس؟ فقال: إنَّ لعنة الله فوق لعنتهم. ثم قال للذي شكا: كُفيتَ أو نحوه][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2461)، ومسلم (1727)، وأحمد (4/ 149)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 380)، والحاكم. وأخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (4/ 40). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (640).

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (4/ 130) من حديث المقدام، وأخرجه أبو داود في السنن (3750)، وإسناده على شرط الشيخين.

(4) حسن صحيح. انظر صحيح الأدب المفرد (93)، باب شكاية الجار. وانظر للشاهد بعده مسند البزار (1903)، وسنن أبي داود (5153)، ومستدرك الحاكم (4/160).

ورواه البزار من حديث أبي هريرة: [أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ، فقال: إن لي جاراً يؤذيني. فقال له: أخرج متاعك فضَعْه على الطريق. فأخذ الرجل متاعه فطرَحَهُ على الطريق، فكل من مَرَّ به قال: ما لك؟ قال: جاري يؤذيني، فيقول: اللهم العنه، اللهم أخزه. قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، والله لا أؤذيك أبداً].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾.

أي: كان الله ولم يزل ﴿سَمِيعًا﴾ بما تجهرون به من سوء القول ومن جميع كلامكم، ﴿عَلِيمًا﴾ بما تخفون وما تعلنون من قولكم وكلامكم، وسيجازيكم على إحسانكم أو إساءتكم.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

المعنىٰ: إن إخفاءكم خير القول أو إظهاره، أو عفوكم عمن أساء إليكم، هو مما يقربكم عند ربكم. والله هو العفو القدير: يعفو عن مسيئكم إن تاب ويصفح عنه، وهو ذو قدرة على الانتقام من كل مسيء بقول أو عمل.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبد الرحمن بن عوف، عن النبي ﷺ قال: [ثلاثٌ أُقسِمُ عليهن: ما نقصَ مالٌ قط من صدقة، فتصدقوا. ولا عفا رجل عن مظلمة ظُلِمَها إلا زاده الله تعالىٰ بها عِزّاً، فاعفوا يزدكم الله عِزّاً، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة يسأل الناس إلا فتح الله عليه باب فقر][1].

150 ـ 152. قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا

(1) حديث صحيح. رواه أحمد والبزار، انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3022)، وله شاهد عند الإمام مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2588).

مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ .

في هذه الآيـات: تَوَعُّـدٌ من الله للذين يكفرون به وبرسله من اليهود والنصارىٰ الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، كما فعلت اليهود بتكذيبهم عيسىٰ ومحمداً صلى الله عليهما وسلم ، فأولئك توعدهم الله عذاباً مهيناً. وأما المؤمنون الذين آمنوا بالله وبجميع رسله دون تمييز في ذلك فأولئك أعد لهم نزلاً كريماً.

قال قتادة: (أولئك أعداء الله اليهود والنصارىٰ. آمنت اليهود بالتوراة وموسىٰ ، وكفروا بالإنجيل وعيسىٰ. وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسىٰ ، وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ).

وقال السدي: (﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ ، يقولون: محمد ليس برسولٍ لله ، وتقول اليهود: عيسىٰ ليس برسول لله! فقد فرقوا بين الله وبين رسله ، ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ ، فهؤلاء يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض).

وقال ابن جريج: (آمنت اليهود بُعزيرٍ وكفرت بعيسىٰ ، وآمنت النصارىٰ بعيسىٰ وكفرت بعزير ، وكانوا يؤمنون بالنبي ويكفرون بالآخر ، ﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ ، قال: ديناً يدينون به الله).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ .

إن منهاج الإيمان عند المؤمنين أن يؤمنوا بالله ويعظموه وحده لا شريك له ، ولا يفرقوا بين أحد من رسله ، بل يقرون أن الجميع جاؤوا بالحق من عند الله ، وأن خاتمهم محمداً ﷺ جاء بشرع ناسخ لكل الشرائع قبله فيفردوه بالمتابعة فهو أسوة الأمة إلى يوم القيامة ، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا ﴾ يغفر ما سلف من الآثام والتقصير لمن شاء من عباده ، ﴿ رَّحِيمًا ﴾ لم يزل كذلك بتفضله على المخلصين بالهداية في الدنيا والنجاة يوم الحساب.

153 ـ 154. قوله تعالىٰ: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يسألك يا محمد أهل التوراة من اليهود أن تنزل عليهم كتاباً خاصاً بهم على سبيل التعنت والعناد والكبر والإلحاد، شأن كفار قريش سألوا نحو ذلك، فاعلم يا محمد أن هؤلاء اليهود أحفاد من سلفهم من أجدادهم الذين عاجزوا موسىٰ بالأسئلة ومحاولات التشكيك فسألوا رؤية الله فنالتهم صاعقة من الله سبحانه بتنطعهم، ثم عبدوا العجل وانتكسوا عن عبادة الله بعدما هداهم بالبينات الواضحات، ثم عفا عنهم وأكرم موسىٰ عليه السلام بالحجج الدالة على نبوته وصدقه، فلما عادوا إلى التشكيك رفعنا الطور فوقهم بما أعطوا الله الميثاق والعهد بالعمل بالتوراة، وقلنا لهم اختباراً ادخلوا باب بيت المقدس سجداً، وألا يأكلوا الحيتان يوم السبت، وواثقناهم على ذلك.

قال السدي: (﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، قالت اليهود: إن كنت صادقاً أنك رسول الله، فآتنا كتاباً مكتوباً من السماء، كما جاء به موسىٰ).
وقال قتادة: (أي: كتاباً، خاصة).

وقال محمد بن كعب القرظي: (جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن موسىٰ جاء بالألواح من عند الله، فأتنا بالألواح من عند الله حتىٰ نصدقك! فأنزل الله: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾).

وقوله: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾. يعني أسلاف هؤلاء اليهود.

وقوله: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾. أي: عياناً نعاينه وننظر إليه.

وقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾. أي: فصعقوا بظلمهم لأن مسألتهم رؤية الله مما لم يكن لهم مسألته.

وفي التنزيل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة: 55 ـ 56].

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾.

أي: من بعد ما رأوا من المعجزات الكبيرة كإغراق فرعون وجنوده، وآيات على يد موسىٰ ﷺ. فلما مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138]. ثم اتخذوا العجل الذي كان السامري نبذ فيه ما نبذ من القبضة التي قبضها من أثر فرس جبريل عليه السلام، إلهاً يعبدونه من دون الله، كل ذلك من بعد ما أراهم الله الآيات الواضحات على صدق موسىٰ ووجوب اتباعه ونبذ كل أشكال الهوىٰ.

وقوله: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾. أي: فعفونا عن عبدة العجل صنيعهم بتوبتهم، وعن السائلين رؤية الله حين أنابوا إلى الطريق وأعطينا موسىٰ زيادة من الحجج التي تبين صدقه وحقيقة نبوته.

وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾. قال ابن كثير: (وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسىٰ عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبَلاً، ثم أُلزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقُط عليهم، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171]).

وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾. قال قتادة: (كنا نحدّث أنه باب من أبواب بيت المقدس). أمروا أن يدخلوه سجداً مع قولهم حطة، أي: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونُكولنا عنه، حتىٰ تُهنا في التيه أربعين سنة، وكانوا أمروا بتلك الهيئة في الدخول ليظهر منهم التواضع لله سبحانه والشعور الحقيقي بندم التقصير والزلل، إلا أنهم كانوا عند أسوأ الظن، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يستهزئون ويقولون: حِنْطة في شعيرة.

وقوله: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾. أي: بترك أكل الحيتان يوم السبت أو صيدها، وكذلك ترك التحايل عليها يوم السبت، فمكروا وتحايلوا ونصبوا لها الشباك ليأخذوها في اليوم التالي.

وقوله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾. أي: عهداً مؤكداً بالعمل بهذه الأوامر وترك كل ما جاء النهي عنه.

155 ـ 159. قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)﴾.

في هذه الآيات: ومن ذنوبهم وإجرامهم نقض المواثيق والعهود، وإنكار المعجزات والآيات وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا في غطاء لا تعي ما يقال، وإنما ختم الله عليها بكفرهم وعنادهم فَقَلَّ ما آمنوا حق الإيمان، بل كفروا وتجرؤوا على مريم بالبهتان، وادّعوا تطاولاً وغروراً قتل المسيح عليه السلام، ولم يفعلوا بل شبه لهم شبهاً له، وقد التبس عليهم وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه، وسيعود قبل يوم القيامة ويؤمن به أهل الكتاب، أو يضرب رقابهم بالسيف، وسيحتج عليهم يوم القيامة ويشهد بما كذبوه أو صدقوه.

فعن قتادة: (﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾، يقول: فبنقضهم ميثاقهم لعنّاهم، ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: لا نفقه، ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، ولعنهم حين فعلوا ذلك).

وقوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾. قال ابن عباس: (يعني: أنهم رموها بالزنا).

وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾. فكذبهم الله بادعائهم وسفاهتهم وجراءتهم ووقاحتهم فقال جل ذكره: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

قال ابن إسحاق: حدثني رجل كان نصرانياً فأسلم: (أن عيسىٰ حين جاءه من الله: «إني رافعك إليّ» قال: يا معشر الحواريين، أيّكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة، على أن يشبه للقوم في صورتي فيقتلوه مكاني؟ فقال سرجس: أنا، يا روح الله! قال:

فاجلس في مجلسي. فجلس فيه، ورُفِعَ عيسىٰ صلوات الله عليه. فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه، فكان هو الذي صلبوه وشُبِّه لهم به) ـ ذكره ابن جرير بسنده عنه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾. قال ابن جرير: (﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾، اليهود الذين أحاطوا بعيسىٰ وأصحابه حين أرادوا قتله. وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت قبل دخولهم، فيما ذكر. فلما دخلوا عليهم، فقدوا واحداً منهم، فالتبس أمرُ عيسىٰ عليهم بفقدهم واحداً من العدَّة التي كانوا قد أحصوها، وقتلوا من قتلوا على شك منهم في أمر عيسىٰ).

وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾. قال ابن عباس: (يعني لم يقتلوا ظنَّهم يقيناً).

وقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾. أي: رفع الله المسيح إليه، وهذه من الآيات العظيمة الدالة على علو الله على جميع خلقه، وأنه على السماء واستوىٰ على العرش، وكل المخلوقات دونه، سبحانه وتعالىٰ عما يضل الجهال به علواً كبيراً.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾. أي: في انتقامه من أعدائه وأعداء رسله وأوليائه. ﴿حَكِيمًا﴾ في تدبيره وخلقه وقدره وتشريعه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. قال ابن عباس: (يعني: أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسىٰ، فيؤمنون به).

قال الحسن: (قبل موت عيسىٰ. والله إنه الآن لحيٌّ عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون).

وقال ابن جريج: (﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، أنه قد أبلغهم ما أُرسل به إليهم). وقال قتادة: (يكون عليهم شهيداً يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالة ربه، وأقر بالعبودية على نفسه).

قلت: يحكم عيسىٰ بن مريم عليه الصلاة والسلام حين ينزل بالقرآن والسنة، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويقاتل الناس على الإسلام فلا يقبل الجزية بل الإسلام أو السيف، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام. فمن أدركه من أهل الكتاب آمن به واتبع منهجه في الحكم بالكتاب والسنة، وإلا كان بينه وبينهم السيف. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

[والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم ، حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد ، حتىٰ تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها. ثم يقول أبو هريرة: فاقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ الآية][1] .

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: [ليس بيني وبينه نبيٌّ ـ يعني عيسىٰ ـ وإنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مَرْبوعٌ ، إلى الحمرة والبياض ، بين مُمَصَّرتَيْن ـ الممصرة: ثياب فيها صفرة خفيفة ـ كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدقُّ الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يُتوفىٰ فيصلي عليه المسلمون][2] .

الحديث الثالث: يروي ابن ماجة والحاكم وابن خزيمة بسند صحيح من حديث أبي أمامة ، عن النبي ﷺ قال: [. . . فيكون عيسىٰ بن مريم في أمتي حكماً عدلاً ، وإماماً مقسطاً ، يدق الصليب ، ويذبح الخنزير ، ويضع الجزية ، . . . وتكون الكلمة واحدة ، فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها. . .] الحديث[3] .

وقد فصلت كل هذه الأحوال ـ من صفات عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ، ونزوله وأعماله إلى موته ـ في كتابي: أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فَلِلّه الحمد والمنة.

160 ـ 162. قولـه تعالىٰ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2222) ، (2476). وأخرجه مسلم برقم (155) ، ورواه أحمد في المسند (240/2). وأخرجه الترمذي (2233) ، وابن ماجة (4078). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6954) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (2/ 1051) لتفصيل الروايات وصفات عيسىٰ عليه السلام.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن من حديث أبي هريرة. انظر صحيح سنن أبي داود (3635) ، والمرجع السابق (2/ 1052).

(3) جزء من حديث طويل. رواه ابن ماجة والحاكم وابن خزيمة. انظر صحيح الجامع الصغير (7752).

بِٱلْبَٰطِلِۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

في هذه الآيات: إنه بسبب ظلم اليهود واجتراحهم الذنوب والآثام حرم الله عليهم طيبات كان أحلها لهم، ومن هذه الآثام نقض الميثاق مع ربهم، وكفرهم بآياته وقتلهم الأنبياء وقول البهتان على مريم، والصد عن سبيل الله وأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل، وفي الآخرة عذاب أليم. واستثنىٰ الله من أهل الكتاب من آمن بالله واليوم الآخر وما أنزل عليهم وما أنزل على محمد ﷺ فأولئك لهم أجر عظيم.

قال قتادة: (﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الآية، عوقب القوم بظلم ظلموه وبَغْيٍ بَغَوْه، حرمت عليهم أشياء ببغيهم وبظلمهم).

وعن مجاهد: (﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، قال: أنفسهم وغيرهم عن الحق).

وقوله: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾. يعني: انتشار الربا بينهم وهو محرم يعرفونه.

وقوله: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِۚ﴾. يعني أخذهم الرُّشا على الحكم، وأخذهم أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم ثم يقولون ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 79].

وفي التنزيل: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 62].

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. أي: للكافرين بالله ورسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود، أعد الله لهم عذاباً مؤلماً موجعاً.

وقوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

قال قتادة: (استثنىٰ الله أُثْبِيَّةً[1] من أهل الكتاب، وكان منهم من يؤمن بالله وما أنزل عليهم، وما أنزل على نبي الله، يؤمنون به ويصدّقون، ويعلمون أنه الحق من ربهم).

---

(1) «الأثبية» و«الثُّبة»: الجماعة من الناس.

وقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

ذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود: ﴿والمقيمون الصلاة﴾. والراجح أنها ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وهي كذلك في مصاحف الأئمة، ومصحف أبي بن كعب، والأشهر عند جماهير القراء.

فيكون التأويل بأحد طريقين:

1 ـ وأمدح ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ للصلاة، أو: وأخص ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾ الصلاة منهم. فيكون لفظ ﴿المقيمين﴾ قد نصب على المدح أو الاختصاص، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: 177]. أي: وأخص الصابرين، أو: وأمدح الصابرين.

2 ـ أن يكون مخفوضاً، أي: في محل جر، والتأويل: (بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة) ـ أي: بالعطف على ما سبقها، والتقدير: وبإقامة الصلاة، أي: يعترفون بوجوبها ويقرون بكتابتها عليهم.

وذهب ابن جرير إلى أن المقصود الملائكة، ولا وجه له ولا يدل عليه السياق، بل الأنسب أن يقال: استثنىٰ أهل الرسوخ في العلم من يهود من المؤمنين الذين يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ ـ وخاصة الذين يقيمون الصلاة مع المؤمنين ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ـ زكاة الأموال، وزكاة النفوس. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: أي: يشهدون لله بالوحدانية ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء والحساب.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. أي: الجنة، لقاء هذا التحول في تجديد الإيمان من رسولهم إلى خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام، ومتابعتهم له بمنهج الإيمان والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي بُردة بن أبي موسىٰ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: [ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيّه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران، وعبد مملوك أدّىٰ حق الله عز وجل عليه وحق سَيّده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غِذاءها ثم أدّبها فأحسن أدبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران][1].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1/ 93). وانظر مختصر صحيح مسلم (21).

163 ـ 165. **قوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾.

في هذه الآيات: إنا أرسلنا إليك يا محمد بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح وإلى سائر الأنبياء الذين سميتهم لك من بعده، والذين لم أسمهم لك، واختص الله موسىٰ بالتكليم فكلّمه كما كلّمك يوم المعراج، وأراد الله بإرسال جميع الرسل إقامة الحجة على عباده، لئلا يكون لأحد من خلقه حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً.

قال الربيع بن خُثَيم: (﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، قال: أوحىٰ إليه كما أوحىٰ إلى جميع النبيين من قبله).

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ـ وهو الكتاب المسمىٰ (زبوراً).

وقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾. يعني: وأوحينا إلى رسل قد قَصَصْناهُم عليك، ورسل لم نقصصهم عليك.

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾. أي: كلاماً مباشراً دون جبريل عليه السلام. وهو تشريف لموسىٰ ﷺ.

ففي الصحيحين والمسند عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [احتج آدم وموسىٰ، فقال موسىٰ: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك جنته، أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم! قال آدم: يا موسىٰ أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وأنزل عليك التوراة، أتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني؟ فحجّ آدم موسىٰ][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4738) و(6614). وأخرجه مسلم برقم (2652). وأخرجه أبو داود (701)، وابن ماجة (80)، وأحمد (248/2)، وأخرجه ابن حبان (6180). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (182).

وقوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. التقدير: أرسلتهم رسلاً إلى جميع عبادي مبشرين برحمتي وثوابي وجنتي لمن أطاعني، منذرين غضبي وعقابي وناري لمن عصاني، فلا حجة لأحد بعد ذلك.

وفي الصحيحين والمسند عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: [لا أحد أغْيَرُ من الله، من أجل ذلك حَرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحبُّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين][1].

وفي لفظ عند الإمام مسلم: [من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه][2].

166 ـ 170. قوله تعالىٰ: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

في هذه الآيات: فإن يكفر هؤلاء ـ ممن أشرك وكفر من أهل الكتاب وأنكر نبوتك والتنزيل ـ فالله يشهد بتنزيله إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه وخليله وصفيّه، وكذلك الملائكة يشهدون بذلك، فلا يحزنك تكذيب من كذب فالله خير الشاهدين. إن جزاء المكذبين بك يا محمد، وبأن الله اصطفاك وأوحىٰ إليك هذا القرآن، هو الحرمان من المغفرة والهداية إلا إلى طريق جهنم، وهو أمر يسير على الله فالخلق خلقه والكل مقهور بإرادته. فأنيبوا أيها الناس إلى ربكم وتابعوا نبيّه وصدقوه خير لكم، فإن أبيتم

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4634)، (7403)، وأخرجه مسلم (2760)، وأخرجه أحمد (1/ 381)، (1/ 436)، والترمذي (3530)، والنسائي في «الكبرىٰ» (11173) و(11183)، وأخرجه ابن حبان (294) من حديث ابن مسعود.

(2) رواية صحيحة. رواها مسلم برقم (2760) ح (35)، من حديث عبد الله بن مسعود.

فالله ملك هذا الكون يعلم ما تبيتون وما أنتم صائرون إليه من طاعة أو كفر، وهو الحكيم في إيرادكم المصير الذي ينتظركم، وفي كل أمر قدره وشرعه.

وعن قتادة: (﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾. قال: شهودٌ والله غيرُ مُتَّهمة).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾. أي: جاروا عن قصد السبيل جوراً أكيداً شديداً، حين وضعوا مكرهم أمام تقدم الناس لمتابعة الرسل لإقامة الحق في الأرض وتحكيم شرع الله العظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

هذه هي الهداية إلى النار يوم القيامة. فمراتب الضلال ثلاثة:

1 ـ مرتبة الضياع والانحراف. قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: 108].

2 ـ مرتبة الخذلان والحرمان. قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: 34].

3 ـ هداية إلى النار يوم القيامة. قال تعالىٰ: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: 22 ـ 24].

وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾. قال ابن عباس: (ومن أشبههم من الظلمة). وقال أبو العالية: (الذين ظلموا وأشياعهم).

وبنحو هذا قوله تعالىٰ في آية النساء السابقة: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ فهي الهداية إلى النار يوم القيامة بعد تجاوز مرحلة الضياع إلى مرحلة الخذلان إلى بئس المصير.

أخرج الإمام أحمد في المسند، والترمذي في الجامع، بسند حسن، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: [يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ

بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال](1).

وتفصيل هذا البحث ـ مراتب الهداية والضلال ـ في كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فَلِلَّه الحمد والمنة وعليه التكلان .

وقوله : ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ . قال ابن جرير : (وكان تخليد هؤلاء الذين وصفت لكم صفتهم في جهنم ، على الله يسيراً ، لأنه لا يقدر من أراد ذلك به على الامتناع منه ، ولا له أحد يمنعه منه ، . . . لأن الخلق خلقُه ، والأمرَ أمرُه) .

وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ .

التأويل ـ أيها الناس : قد جاءكم محمد ﷺ بدين الحق الذي لا يقبل الله سواه ، فآمنوا والتمسوا طريق النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ، وإن لم تفعلوا فالله غني عنكم وعن إيمانكم ولا يؤثر كفركم على ملكوته ، وهو العليم بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الضلال فيضله ويشقيه ، وهو الحكيم في أمره ونهيه وقدره وشرعه وفي كل شأنه .

171 . قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ ﴾ .

في هذه الآية : نهي الله سبحانه أهل الكتاب عن الغلو والتنطع في الدين ، كما أبعدوا الإطراء والوصف في شأن عيسىٰ عليه السلام ، الذي هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، ودعوة لهم للإيمان بالله ورسله ونبذ عقيدة التثليث التي خاضوا فيها ، فإنما الله إله واحد لا شريك له ولا ولد ، له ما في هذا الكون الفسيح ، وحسب

---

(1) حديث حسن . أخرجه الترمذي (2492) . انظر صحيح سنن الترمذي (2025) . ورواه أحمد . انظر تخريج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896) .

ما في السماوات وما في الأرض بالله قيّماً ومدبّراً ورازقاً ، من الحاجة معه إلى غيره.

قال الربيع: (صاروا فريقين: فريق غَلوا في الدين ، فكان غلوهم فيه الشك فيه والرغبة عنه ، وفريق منهم قصّروا عنه ، ففسقوا عن أمر ربهم).

وأصل الغلو في لغة العرب مجاوزة الحد. وهذا واقع في النصارىٰ إذ تجاوزوا الحد في أمر عيسىٰ فرفعوه من مرتبة النبوة لمرتبة الألوهية ، وغلوا في أتباعه فنسبوا العصمة لهم. كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: 31].

أخرج البخاري في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، عن ابن عباس ، عن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال: [لا تُطروني كما أطرت النصارىٰ عيسىٰ بن مريم. فإنما أنا عبد ، فقولوا: عبد الله ورسوله][1].

فحذّر النبي ﷺ من سلوك سبيلهم بالغلو في المدح ، والمبالغة في الإطراء.

وأخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أنس بن مالك: [أن رجلاً قال: يا محمد ، يا سيدَنا وابن سيِّدنا ، وخَيْرَنا وابن خيرنا ، فقال رسول الله ﷺ: أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينَّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبد الله ، عبد الله ورسوله ، والله ما أحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل][2].

وقوله: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾. أي: لا تتجرؤوا على الله بوصفه بغير صفاته سبحانه ، فلا تنسبوا له صاحبة ولا ولداً ولا غير ذلك مما يسخطه سبحانه ، تنزهت أسماؤه وصفاته ، وتفرّد بالتعظيم والوحدانية والتقديس والكبرياء.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾.

قال قتادة: (﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾: هو قوله: «كن» ، فكان).

وقوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾. قال مجاهد: (ورسول منه). وقال غيره: (ومحبة منه). وقال غيره: (ورحمة منه).

وخلاصة المعنىٰ: أي إنَّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مخلوق من روح مخلوقة ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3445) ، وأحمد (1/ 23 ، 24) ، وأبو يعلىٰ (153).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (3/ 153) ، (3/ 241) ، والنسائي في «الكبرىٰ» (10078).

خلقها سبحانه ، ثم أرسلها إلى مريم فدخلت بها ، فَصَيَّرَها الله تعالىٰ روحَ عيسىٰ عليه السلام ، وقد أضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف .

أخرج البخاري عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل](1) .

وقوله : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ . أي : الزموا منهج الإيمان بالله ورسوله دون تحريف أو تشبيه ، فالله واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم تكن له صاحبة ، وعيسىٰ بن مريم عبده ورسوله .

وقوله : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ .

قال ابن جرير : (يعني : ولا تقولوا : الأرباب ثلاثة . قال : انتهوا أيها القائلون : الله ثالث ثلاثة ، عما تقولون من الزور والشرك بالله ، فإن الانتهاء عن ذلك خير لكم من قيله ، لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم ـ على قيلكم ذلك ، إن أقمتم عليه) .

وفي التنزيل : ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ ﴾ [المائدة : 73]. وكذلك : ﴿ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ ﴾ [المائدة : 72] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ .

أي : تعالىٰ الله وتقدس أن يكون له صاحبة أو ولد ، فهو الملك له جميع ما في السماوات والأرض ، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ ﴾ [الأنعام : 101]. فإن من كان له ولد لا يستحق الإلهية ، وكذلك من كان له صاحبة ، لا يصح أن يكون إلهاً معبوداً .

قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3435) ، ومسلم (28) ، وأحمد (5/ 313) ، وغيرهم .

وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 88 ـ 95].

وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾. قال ابن جرير: (يقول: وحسب ما في السماوات وما في الأرض بالله قيّماً ومدبّراً ورازقاً، من الحاجة معه إلى غيره).

172 ـ 173. قوله تعالىٰ: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

في هذه الآيات: لن يأنف المسيح عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أن يكون عبداً خاضعاً لله ولن يتكبر عن ذلك، وكذلك الملائكة المقربون، لا يمتنعون من الإقرار لله بالعبادة والتعظيم وحده لا شريك له، فمن يأنف من التذلل لله ويستكبر فالجميع قادمون يوم الحشر لموعده. فيعز المؤمنين الخاضعين ويزيدهم من الثواب ويضاعف لهم أعمالهم الصالحات، ويعذب الذين تكبروا عن عبادته عذاباً مخزياً لا نصير لهم ولا منقذ ولا سبيل لمنعه عن أنفسهم.

قال قتادة: (﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: لن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة).

وقوله: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾. أي: الذين قرّبهم الله ورفع منازلهم واختصهم بمراتب مميزة.

وقوله: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾. أي: ـ كما قال شيخ المفسرين ـ: (ومن يتعظّم عن عبادة ربه، ويأنف من التذلل والخضوع له بالطاعة من الخلق كلهم، ويستكبر عن ذلك، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، يقول: فسيبعثهم يوم القيامة جميعاً، فيجمعهم لموعده عنده).

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.
يعني: يثيبهم على الأعمال الصالحة، ويزيد في بعضها من الثواب ورفع الدرجات مما

لا يعلمه إلا هو سبحانه ، فإن الأعمال تتفاوت أحوالها وأوزانها عندالله .

أخرج الحاكم بسند جيد عن سلمان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال: [يوضع الميزان يوم القيامة ، فلو وزن فيه السماوات والأرض لَوَسِعَت. فتقول الملائكة: يا رب: لِمَنْ يزن هذا؟ فيقول الله تعالىٰ: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. ويوضع الصراط مثل حد الموسى ، فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول: من شئت من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك][1].

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: وأما الذين تعظموا عن عبادته سبحانه وإفراده بالإلهية والتعظيم فينتظرهم عذاب موجع لا منقذ منه ولا دافع ولا مانع.

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي ﷺ قال: [يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثالَ الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يُساقون إلى سجن في جهنم يسمىٰ بولس ، تعلوهم نار الأنيار ، يُسْقون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال][2].

174 ـ 175. قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

في هذه الآيات: يا أيها الناس من كل الأصناف والملل ـ التي مضىٰ ذكرها في هذه السورة ـ قد أتتكم حجة الله عليكم وهي نبوة محمد ﷺ ، والوحي الذي أنزله الله عليه ، فآمنوا بالله واعتصموا بمنهجه وهدي نبيّه ، يدخلكم في رحمة منه تنجيكم من عقابه ، ويهديكم إلى سبيل النعيم في الدنيا والآخرة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/ 586) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (941).

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2492). انظر صحيح سنن الترمذي (2025). ورواه أحمد. انظر تخريج المشكاة (5112) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7896) ، وقد مضىٰ.

فعن مجاهد: (﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ، قال: حجة). وقال قتادة: (بينة من ربكم).

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾. قال ابن جريج: (القرآن).

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾. قال ابن جريج: (بالقرآن). وقوله: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾. قال ابن جرير: (فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه ، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته ، ويلحقهم من فضله ما لَحِقَ أهل الإيمان به والتصديق برسله).

وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. أي: في الدنيا والآخرة. أي: طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه ولا انحراف. قال ابن كثير: (وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات).

176. قوله تعالىٰ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

هذه الآية: هي آية الميراث ، أو آية الفرائض ، وفيها تفصيل لأحكام كثيرة.

أخرج الإمام مسلم والترمذي وابن ماجة عن محمد بن المنكدر ، أنه سمع جابر بن عبد الله قال: [مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فَأُغمي عليَّ ، فتوضأ ثم صَبَّ عليَّ من وضوئه فأفقت ، قلت: يا رسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئاً حتىٰ نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾][1].

وفي لفظ عند الإمام أحمد والبخاري ـ قال محمد بن المنكدر: سمعت جابر بن عبد الله قال: [دخل علي رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل ، فتوضأ ثم صَبَّ عَلَيَّ ـ أو

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1616) ح (5). وأخرجه الترمذي (2097) ، وابن ماجة (2728) ، وأحمد (3/ 307) ، وأخرجه أبو داود (2886).

قال: صُبّوا عليه ـ فَعَقَلْتُ فقلت: إنه لا يرثني إلا كلالة ، فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض][1] .

قال البخاري: حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، قال: سمعت البراء قال: [آخر سورة نزلت: «براءة» ، وآخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾][2] .

وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ فيه محذوف ، والتقدير: يستفتونك عن الكلالة! ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه. قال ابن كثير: (ولهذا فسَّرَها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد. ومن الناس من يقول: الكلالة من لا ولد له ، كما دلت عليه هذه الآية: ﴿إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾).

قلت: ولا شك أن فهم الكلالة وأحكامها يحتاج إلى رسوخ في العلم ، وصبر في متابعة علم الفرائض وأحكام المواريث ، وحسن فقه واستنباط.

ففي الصحيحين عن عمر أنه قال: [ثلاث وَدِدْتُ أن رسول الله ﷺ ، كان عَهِدَ إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجَدُّ ، والكلالة ، وأبواب من أبواب الربا][3] .

وفي صحيح مسلم عن مَعْدان بن أبي طلحة قال: قال عمر بن الخطاب: [ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة ، حتىٰ طَعَنَ بإصبعه في صَدْري وقال تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء][4] .

وفي جامع الترمذي بسند صحيح عن البراء قال: [آخر آية أنزلت ، أو آخر شيء أنزل ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾][5] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (149) ، (5676) ، ومسلم (1616) ح (8) ، وأحمد (3/ 298). من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3605) ، و(4654) ، ومسلم (1618) ، وأخرجه أبو داود (2888) ، والترمذي (3044) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5588) و(7337) ، ومسلم (3032) ، وابن حبان (5353).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (567) و(1617) ، وأخرجه أحمد (1/ 15) ، والنسائي ، وغيرهم. وقال بعض أهل العلم: سميت هذه الآية بذلك لأن نزولها كان في الصيف.

(5) حديث صحيح. أخرجه أبو داود والترمذي. انظر صحيح سنن الترمذي (2435) ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء ، آية (176). وأصله في الصحيحين.

وفيه عن البراء قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ فقال له النبي ﷺ: «تجزئك آيةُ الصيف»][1].

وذكر ابن جرير بسنده عن قتادة قال: (وذُكِرَ لنا أنّ أبا بكر الصديق قال في خطبته: ألا إن الآية التي نزلت في أول سورة النساء في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها في أُولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، مما جرَّت الرحم من العَصَبَة).

وقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾. أي: مات. قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾. قال الحافظ ابن كثير: (تمسَّكَ به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الولد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الوالد. وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه. ولكن الذي يُرْجَعُ إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد، ويدلّ على ذلك قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً، لأنه يحجبها بالإجماع، فدلَّ على أنه من لا ولد له بنصِّ القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً، لأن الأُخت لا يُفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية).

وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

أخرج البخاري عن هُزيل بن شُرَحبيل قال: [سئل أبو موسىٰ الأشعري عن ابنةٍ، وابنة ابن، وأخت. فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وائْتِ ابن مسعود فَسَيُتابِعُني. فَسُئِل ابن مسعود ـ وأُخْبِرَ بقول أبي موسىٰ ـ فقال: لقد ضَلَلْتُ إذن وما أنا من المهتدين، أقضي فيها بما قضىٰ النبي ﷺ: للابنة النصف، ولابنة الابن السُّدُسُ تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأتينا أبا موسىٰ فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال: لا تسألوني ما دام هذا الحَبْرُ فيكم][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي وأبو داود. انظر صحيح سنن الترمذي (2436) ـ كتاب التفسير ـ سورة النساء، آية (176)، وأصله في صحيح مسلم من حديث عمر كما تقدم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6736)، (6742)، وأبو داود (2890)، وأحمد (1/ 440).

وقد نقل ابن جرير عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت، لقوله: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ قال: (فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للأخت). قال ابن كثير: (وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة: للبنت النصف بالفَرْض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية، وهذه الآية نَصَّت أن يُفْرض لها في هذه الصورة. وأما وراثتُها بالتعصيب فلما رواه البخاري من طريق سليمان، عن إبراهيم، عن الأسود قال: [قضَىٰ فينا مُعاذ بن جَبَل على عهد رسول الله ﷺ: النصف للبنت، والنصف للأخت][1]).

وقوله: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾.

المعنىٰ: إذا ماتت كلالة فإن الأخ يرث كل مالها، وذلك حالة ليس لها ولد، أي: ولا والد. فإن الأخ لا يرث مع وجود الوالد.

قال ابن كثير: (فإن فرض أن معه من له فَرْضٌ صُرِفَ إليه فرضُه، كزوج أو أخ من أم، وصُرِف الباقي إلى الأخ. لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: [أَلحِقُوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأَوْلى رجل ذكر][2]).

وقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾.

أي: إن ترك الميت كلالة أختين فلهما الثلثان، وما زاد على الأختين فهو في حكمهما. ويشبه ذلك حكم البنتين فأكثر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾.

أي: إن كان المتروكون من إخوته رجالاً ونساءً فيخصص للذكر منهم مثل نصيب اثنتين من أخواته. قال ابن جرير: (وذلك إذا ورث كلالةً، والإخوة والأخوات إخوته وأخواته لأبيه وأمه، أو: لأبيه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6741)، وانظر تفسير ابن كثير، سورة النساء، آية (176).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6732)، ومسلم (1615)، وأحمد (1/ 292)، وغيرهم.

وقال ابن كثير: (هذا حكم العصبات من البنين وبني البنين ومن الإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أُعطي الذكر منهم مثل حظ الأنثيين).

وقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

أي: يبين الله لكم القسمة الشرعية للمواريث، وحكم الكلالة، وكل ما تحتاجونه من الحق لئلا تقعوا في الجور أو الإثم. قال ابن جريج: (﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ﴾، قال: في شأن المواريث). والله عليم بمصالح عباده، وأفضل القسمة لمواريثهم، وبعواقب الأمور في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة النساء
بعون الله وتوفيقه، وواسع منِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ ربط الله تعالىٰ التقوىٰ بصلة الرحم ، فإن الرحم معلقة بالعرش ، وهي شجنة من الرحمان ، من يصلها يصله ، ومن يقطعها يقطعه.

2 ـ تحريم أكل المهور ، وخير النكاح أيسره ، ولليتيمة مهر مثلها. ولا زواج فوق أربع ، ويجب العدل في المبيت والنفقة.

3 ـ تعليق إجابة دعوة واضع ماله بيد السفهاء. والسفهاء هم: الصغار ، المجانين ، قليل الدين ، المفلس.

4 ـ ولي اليتيم الغني يستعفف ، والفقير يأكل بالمعروف ، وآكل مال اليتيم ظلماً إنما يأكل في بطنه ناراً.

5 ـ ترك توريث النساء والأطفال من عادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام. فللذكر مثل حظ الأنثيين ، وللنساء فوق اثنتين الثلثان ، فإن كانت واحدة فلها النصف.

6 ـ الدَّين مقدّم على الوصية ، وأقصىٰ الوصية الثلث.

7 ـ الكلالة: من لا ولد له ولا والد ، ولا وصية لوارث.

8 ـ حدّ الزنا: الجلد لغير المحصن والرجم للمحصن. وحدّ عَمل قوم لوط: قتل الفاعل والمفعول به.

9 ـ تحريم الجمع بين الأختين ، وتحريم نكاح ما نكح الآباء ، فذلك من أمور الجاهلية.

10 ـ العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات.

11 ـ الرضاعة تحرّم ما يحرّم النسب والولادة ، ولا تحرّم إلا خمسُ رضعات.

12 ـ الربيبة حرام ، سواء كانت في حجر الرجل أم لم تكن .

13 ـ تحرم زوجات الأبناء من الأصلاب ، والجمع بين الأختين حرائر أو إماء .

14 ـ نكاح الأمة بإذن سيدها ، أو بإذن وليِّ سيدتها .

15 ـ حدّ المملوك نصف حدّ الحر ، ولا رجم عليه .

16 ـ قتل النفس بحديدة أو بِسُمّ مصير صاحبه إلى النار .

17 ـ نشوز الزوجة يُعالج بالوَعظ والهجر والضرب غير المبرّح .

18 ـ النهي عن اقتراب السكران الصلاة ، وكل مسكر حرام .

19 ـ جواز مرور الجنب والحائض في المسجد ، وإباحة التيمم لفقدان الماء ، والتيمم ضربة للوجه والكفين ، فإن وجد الماء بعد ذلك لزمه أن يمسه بشرته .

20 ـ لمس المرأة لا ينقض الوضوء ، والمقصود بـ ﴿ لَمَسْتُمُ ﴾ الجماع .

21 ـ الطاغوت كل ما عُبد من دون الله ، كالأصنام والشيطان والطغاة .

22 ـ أداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل هو جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة .

23 ـ وجوب تولية ولي الأمر على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده .

24 ـ إنما الطاعة في المعروف ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل .

25 ـ التحاكم للكتاب والسنة دليل الإيمان ، وإلى سواهما دليل الكفر .

26 ـ جواز التوسل بالرسول ﷺ ـ أي بدعائه ـ في حياته ، وامتناع ذلك بعد وفاته .

27 ـ الجنة وعد الله المجاهد إن قتل ، وإن عاد فبالأجر والغنيمة .

28 ـ الجهاد لم يشرع بمكة ، لقلة عدد المؤمنين وعدم اكتمال بناء الجماعة ، فلما اكتمل البناء في المدينة شرع الله الجهاد وأذن بقتال الأعداء .

29 ـ الأصل طاعة الله وطاعة رسوله ، والتماري بين المؤمنين شر ، والجهل بالقرآن يعالج بالرد إلى عالمه .

30 ـ إفشاء السلام بين المؤمنين سبيل عظيم إلى تحابب قلوبهم ، ورد السلام واجب من الواجبات ، وحق من حقوق المسلم على أخيه .

31 ـ الولاء للمؤمنين ، والبراء من الكفار والمنافقين: من اتخاذهم أولياء ، أو الاستنصار بهم على الأعداء.

32 ـ دية قتل الخطأ على العاقلة ، وخطأ الإمام أو نائبه يضمنه بيت المال.

33 ـ الدية مخففة ومغلظة ، فالمخففة تجب في قتل الخطأ ، والمغلظة تجب في شبه العمد. وأما دية قتل العمد إذا عفا وليّ الدم فهي ما اصطلحوا عليه.

34 ـ الدية المغلظة: مئة من الإبل في بطون أربعين منها أولادها.

35 ـ ديةُ المعاهدِ نصفُ ديةِ الحُرِّ المسلم ، ودية عَقْل الكافر نِصْفُ عَقْلِ المؤمن.

36 ـ النطق بـ «لا إله إلا الله» يعصم المال والنفس ، وحساب صاحبه على الله.

37 ـ المؤمن والكافر لا تتراءىٰ ناراهما ، والهجرة واجبة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام.

38 ـ المسافر يقصر الصلاة ما دام لم ينو الإقامة ببلد السفر.

39 ـ صلاة الخوف تجزئ ركعة واحدة عند المسايفة إيماء.

40 ـ إن للصلاة وقتاً كوقت الحج ، لا تجوز بعد فواته ، فويل لمؤخريها.

41 ـ سنة الرسول ﷺ هي المنهاج ، وسبيل المؤمنين هو التفسير والبيان.

42 ـ عضل اليتامىٰ اللاتي في حجور المسلمين ظلم ، فإما الزواج بهن أو تزويجهن ، والمرأة إذا خافت نشوز بعلها فلها أن تسقط عن حقها.

43 ـ وجوب العدل بين الزوجات في المبيت والنفقة ، وأما ميل القلب فلا ملك للرجل فيه.

44 ـ النهي عن الجلوس في مجلس ينتقص فيه من دين الله ، ومن فعل ذلك فإنه مثلهم ، وكلمة «مصلحة الدعوة» قد تكون مزلة من الشيطان ، غفل عن ذلك كثير من المسلمين.

45 ـ صلاة الجماعة واجبة في المسجد لمن سمع النداء ، والمتخلفون عن صلاة الجماعة في المساجد همّ الرسول بتحريق بيوتهم عليهم.

46 ـ اليهود أمكر خلق الله ، قتلوا الأنبياء ، وهموا بقتل عيسىٰ عليه السلام ، فرفعه الله خزياً لهم.

47 ـ نزول عيسىٰ بن مريم عليه السلام آخر الزمان في مدينة دمشق ، وحكمه في المؤمنين بالإسلام ، وبيده يكون قتل المسيح الدجال.

48 ـ المسيح عليه السلام سيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

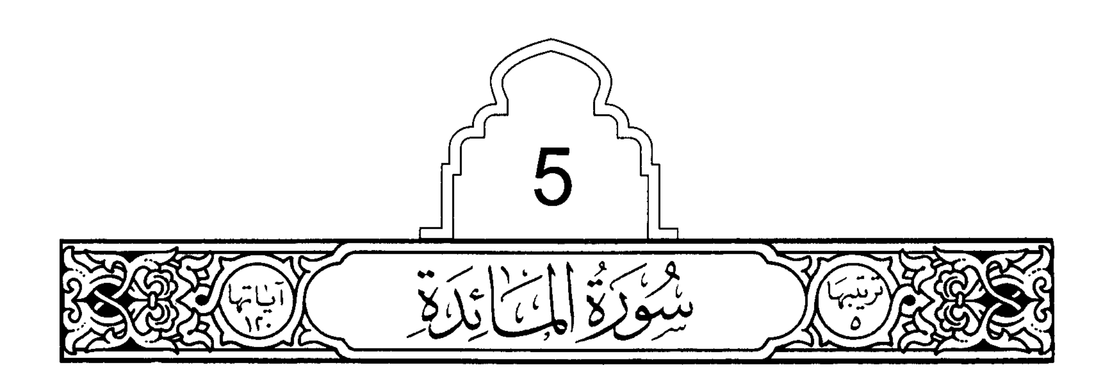
49 ـ ما من نبي إلا حذر أمته الأعور الكذاب ، إنه أعور ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، كاتب وغير كاتب.

50 ـ المسيح عيسىٰ عليه السلام لا يستنكف أن يكون عبداً لله فما بال هؤلاء القوم يؤلهونه!! وإنما الحجة الخالدة في البيان القرآن والسنة المطهرة.

51 ـ الكلالة: من ليس له ولد ولا والد.

52 ـ رجوع عمر بن الخطاب إلى قول أبي بكر في تعريف الكلالة.





وهي سورة مدنية ، وعدد آياتها (120) .

أخرج الحاكم بسند جيد عن جُبير بن نُفَير قال: [حَجَجْتُ فدخلتُ على عائشة ، فقالت لي: يا جُبير! تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيهامن حرام فحرِّموه][1] .

ورواه أحمد عن عبد الرحمن بن مَهْدي ، عن معاويةَ بن صالحٍ ، وزاد: [وسألتها عن خُلق رسول الله ﷺ ـ فقالت: القرآن] .

موضوع السورة

العقود والصيد وقصة المائدة والتنطع في الدين ، وذم أهل الكتابين في تحريفهم وتركهم العمل بالوحي المبين .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ أمْرُ الله تعالى عبادهُ المؤمنين الوفاء بالعقود والعهود والمواثيق .

---

(1) إسناده جيد. أخرجه النسائي في «الكبرى» (11138) ، والحاكم (311/2) وصححه ووافقه الذهبي ، وهو على شرط مسلم ، والرواية بعده لأحمد (188/6) .

2 ـ إعلام الله تعالى عباده بكون بهيمة الأنعام حلالاً إلا ما استثني بنص تحريم الميتة والدم وما أهل لغير الله وما شابهها.

3 ـ الصيد محرم حالة الإحرام.

4 ـ ما ذبح لغير الله نجس وأكله حرام.

5 ـ يعفىٰ أكل جوارح السباع المعلمة.

6 ـ إكمال الله تعالى هذا الدين، وكل بدعة ضلالة ولو سموها حسنة.

7 ـ إباحة كل المحرمات للمضطر، والله تعالى يحب أن تؤتىٰ رخصه.

8 ـ الصيد بالجوارح المعلمة مع التسمية عند الانطلاق حلال أكله.

9 ـ طعام أهل الكتاب والمحصنات من نسائهم حلال لنا.

10 ـ لا يقبل الله صلاة بغير طَهُور، وأركان الوضوء: غسل اليدين إلى المرافق وغسل الوجه ومسح جميع الرأس وغسل القدمين، مع النية والتتابع.

11 ـ العدل واجب حتىٰ على الأعداء والخصوم، فلا يجوز جعل البغض مانعاً من العدل.

12 ـ تذكير الله المؤمنين بنعمهِ عليهم بأن أنجاهم من غدر اليهود.

13 ـ أَخْذُ الله الميثاق على بني إسرائيل، وحلول لعنة الله بهم بنقضهم العهد.

14 ـ أَخْذُ الله الميثاق على النصارىٰ، وحلول العداوة والبغضاء فيهم بإخلافهم.

15 ـ تِبيانُ الرسول ﷺ ما أخفىٰ أهل الكتاب وما بدلوا وما حرّفوا.

16 ـ إثبات كفر من قال إنّ الله هو المسيح، وتكذيب اليهود والنصارى في زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه.

17 ـ قَطْعُ الله ببعث محمد ﷺ حجة من سيقول: ما جاءنا من نذير. ومحمد ﷺ هدىٰ الخلائق وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء.

18 ـ أَمْرُ الله بني إسرائيل استرداد بيت المقدس من العمالقة، وتحريم الله على اليهود دخول بيت المقدس أربعين سنة لعصيانهم.

19 ـ اليهود هم المغضوب عليهم من الله، ويزعمون أنهم أحباؤه.

20 ـ هابيل أول مقتول، وقابيل أول قاتل، وتَقَبُّل الله قربان هابيل، وسخَطُه على قابيل الذي قتل أخاه حسداً.

21 ـ قاتِلُ النفس ظلماً كأنما قتل الناس جميعاً ، والحاكم مُخَيَّرٌ في قطاع الطريق بين القتل والقطع والنفي.

22 ـ مفهوم التوسل ، وإثبات الخلود في النار للكافرين ، وعدم الخلود لعصاة الموحدين.

23 ـ تشريع قطع اليد في السرقة.

24 ـ تحاكم اليهود إلى محمد ﷺ بشرط موافقة أهوائهم ، والرسول يحكم في زناة يهود بالرجم الذي حرفوه وأخفوه في توراتهم.

25 ـ من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

26 ـ تشريع القصاص في الجراح ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

27 ـ الإنجيل تصديق للتوراة ، وأهل الإنجيل مأمورون بالتحاكم لما أنزل الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون.

28 ـ الأمر بالتحاكم إلى القرآن ، فهو أمين وشاهد وحاكم على الكتب قبله ، وأحكامه هي النافذة ، ولا أحسن من الله حكماً للمؤمنين الموقنين.

29 ـ النهي عن اتخاذ المؤمنين أولياء من غيرهم ، ومن يفعل ذلكَ فإنه منهم ، ورسول الله والمؤمنون هم حزب الله ، وإنهم هم الغالبون.

30 ـ غضب الله على بعض اليهود فمسخهم قردة وخنازير.

31 ـ علماء اليهود ورؤساؤهم لم ينهوهم عن قول الإثم وأكل السحت.

32 ـ قول اليهود : يد الله مغلولة ـ غلت أيديهم ـ بل يداه مبسوطتان.

33 ـ لو اتبع أهل الكتابين كتابيهما لقادهم ذلكَ إلى الحق.

34 ـ بلاغ الرسول الحق جعله الله له حصانة فاستغنىٰ عن الحراسة.

35 ـ إخبار أهل الكتاب أنهم ليسوا على شيء من الدين حتىٰ يتبعوا محمداً ﷺ.

36 ـ اليهود حكموا بأهوائهم وشهواتهم وقدموها على ما جاءت به الشرائع.

37 ـ إثبات كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم أو إن الله ثالث ثلاثة ، وتبرئة عيسىٰ عليهِ الصلاة والسلام من هذا الزيغ والضلال.

38 ـ لَعْنُ الكافرين من بني إسرائيل لتآمرهم على فشو المنكر وعدم التناهي عن فعله.

39 ـ اليهود والمشركون أشد الناس عداوة للمؤمنين ، والنصارىٰ أقربهم مودة لهم.

40 ـ نهي الله المؤمنين عن تحريم طيبات أحلت لهم ، فالحرام ما حرّم الله ورسوله .

41 ـ لا عبرة للغو اليمين ، وإنما العبرةُ باليمين المنقعدة ، والكفارة إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

42 ـ آية تحريم الخمر ، والخمر ما خامر العقل ، وكل مسكر خمر ، وكل خمر حرام .

43 ـ ما يقتل من الحيوانات المضرة في الحل والحرم . ؟

44 ـ الحكم بذبح مثل ما قتل يجب أن يصدر عن عدلين مسلمين ، فإن لم يجد مثل ما قتل فإطعام أو صيام بحسب نوع الصيد .

45 ـ صيد البحر حلال ، وصيد البر محرم حالة الإحرام .

46 ـ النهي عن السؤال عن أشياء إذا علمت ساءت سائلها .

47 ـ الإنكار على أهل الجاهلية أمر البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وتشريع ما لم يأذن به الله استجابة لضلالهم وضلال آبائهم .

48 ـ المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ثم لا يضرهم من ضل إذا اهتدوا .

49 ـ جواز استشهاد الذميين في الوصية عند فقدان المسلمين في السفر ، وأولياء الميت يحلفون الشاهدين الذميين بعد الصلاة إذا ارتابوا منهما ، فإن تبين خيانتهما حلف شاهدان من أولياء الميت ببطلان شهادة الذميين ، وعند ذلك يستحقون ما يدعون عليهما .

50 ـ الغيب لا يعلمه إلا الله ، وعلم المرسلين بالنسبة لِعِلْمِ الرَّبِ كَلا علم .

51 ـ امتنان الله تعالى على المسيح ابن مريم وعلى والدته .

52 ـ طَلَبُ أصحاب عيسىٰ ﷺ أن ينزل الله عليهم مائدة من السماء ، ونزول المائدة فعلاً ، امتحاناً لهم .

53 ـ سؤال الله تعالىٰ عيسىٰ ﷺ غداً: أَأَنْتَ قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله ، وبراءة عيسىٰ من ذلك .

54 ـ شفاعة رسول الله ﷺ لا تنال المشركين ، بل هي للمؤمنين الموحِّدين .

55 ـ الله تعالى جَلَّ عن النظير والعديل والصاحبة والوالدة والولد .

❑ ❑ ❑

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1-2 . قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ (1) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (2)﴾.

في هذه الآيات: أَمْرٌ من الله لعباده المؤمنين بالوفاء بالعهود والمواثيق. وإعْلامٌ بكون بهيمة الأنعام حلالاً إلا ما استثني بنص تحريم الميتة والدم وما أهل لغير الله وما شابهه، وكذلك حالة الإحرام حرم عليكم الصيد، والله سبحانه له الحكم يحكم ما يشاء. ثم فيها نهي عن تعدي حرمات الله وحدوده، والقتال في الشهر الحرام ـ إلا حالة الاعتداء ـ ولا تتركوا الإهداء إلى البيت، ففيه تعظيم لشعائر الله، وكذلك لا تتركوا تقليدها في أعناقها، لِيُعْلَمَ أنها هَدْيٌ إلى الكعبة، ولا تستحلوا قتال القاصدين بيت الله الحرام فمن دخله كان آمناً، فإذا فرغتم من إحرامكم وحَلَلْتُم حَلَّ لكم الصيد، ولا يَحْمِلَنَّكُم بغض قوم كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام ـ عام الحديبية ـ أن تقتصوا منهم ظلماً، بل أقيموا العدل في كل أحد، وتعاونوا على فعل الخيرات، ولا تعاونوا على فعل الآثام والمنكرات، واتقوا الله واحذروا أن تنزل بكم العقوبات.

وتفصيل ذلك:

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

قال ابن عباس: (العهود). وقال مجاهد: (ما عقد الله على العباد مما أحل لهم وحرّم عليهم). وقال عبد الله بن عبيدة: (العقود خمس: عُقدة الأَيْمان، وعُقدة النكاح، وعقدة العَهد، وعقدة البيع، وعقدة الحِلف).

وقال ابن زيد: (العقود خمس: عقدة النكاح، وعقدة الشركة، وعقد اليمين، وعقدة العهد، وعقدة الحلف).

والعقود: جمع عَقْد. وعقد الشي بغيره هو وصله به. ومنه قولهم: يعقد الحبل بالحبل. وعقد فلان مع فلان عقداً: إذا واثقه وعاهده على الوفاء بما في العقد.

قلت: ولا شك أن الآية عامة في الوفاء بجميع العهود والمواثيق ووجوب القيام بمقتضاها.

وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾.

قال الحسن: (بهيمة الأنعام، هي الإبل والبقر والغنم)، وهو قول قتادة والربيع. أي يشمل الأنعام كلها.

والجنين يباح أكله إذا وجد في بطن البقرة أو الشاة المذبوحة ولو كان ميتاً.

وفي ذلك حديثان:

الحديث الأول: أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد بسند حسن لغيره عن أبي سعيد قال: [قلنا: يارسول الله!! ننحر الناقة، ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقيه أم نأكله؟ فقال: كلوه إن شئتم، فإن ذكاته ذكاة أمه][1].

وهو قول ابن عمر، وابن عباس، والشافعي وأحمد.

الحديث الثاني: أخرج أحمد والحاكم وابن حبان بسند صحيح عن أبي سعيد،

(1) حسن لشواهده. أخرجه أبو داود (2827)، والترمذي (1476)، وابن ماجة (3199)، وأخرجه أحمد (31/3)، (53/3)، والبيهقي (335/9)، وغيرهم.

وكذلك أبو داود والحاكم عن جابر عن النبي ﷺ قال: [ذكاة الجنين ذكاةُ أمه][1].

وقوله: ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني بذلك: الميتةَ، والدمَ، و لحمَ الخنزير).

وقال قتادة: (يعني بذلك: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه).

قال ابن كثير: (والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد بذلك قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾، فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا قال: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ يعني: منها، فإنه حرام لا يمكن استدراكه، وتلاحقُه. ولهذا قال تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾، أي: إلا ما سيُتْلى عليكم من تحريم بعضها في بعض الأحوال).

وقوله: ﴿ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾.

قال القرطبي: (أي ما كان صيداً فهو حلال في الإحلال دون الإحرام، وما لم يكن صيداً فهو حلال في الحالين). والإحرام يشمل الحج والعمرة.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾.

أي له الحكم يشرع لعباده ما يشاء، كما يشاء. وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾.

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ﴾.

أي لا تتعدوا حدود الله ـ والخطاب للمؤمنين ـ والشعائر جمع شعيرة. قال ابن عباس: (يعني بذلك: مناسك الحج). وقال مجاهد: (الصفا، والمروة، والهدي، والبدنُ من شعائر الله).

قلت: ويبدو أن الآية تعم أكثر من ذلك. كما قال عطاء: (شعائر الله جميع ما أمر الله به ونهى عنه). وقال الحسن: (دين الله كله). فالمراد تعظيم حرمات الله والتحذير من انتهاكها، كما قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2828)، وأحمد. انظر صحيح أبي داود (2452). ورواه الحاكم عن أبي أيوب وعن أبي هريرة. انظر صحيح الجامع (3425)، والحديث السابق.

وقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾.

المقصود النهي عن استحلال القتال فيه، إلا إن اعتدى العدو وبادر إلى انتهاك هذه الحرمات. كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾.

قال ابن القيم: (والمقصود: أن الله سبحانه قد حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يُبْرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبرُ وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، لا سيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصِّرين نوعَ تقصير يغفره الله لهم في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله، وإيثار ما عند الله، فهم كما قيل:

وإذا الحبيبُ أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

فكيف يُقاس ببغيض عدو جاء بكل قبيح، ولم يأت بشفيع واحد من المحاسن)[1].

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾.

نَهْيٌ عن استحلال الهَدْي جملة، ثم خصّ ذوات القلائد تأكيداً ومبالغة في التنبيه على الحرمة في التقليد. والهديُ ما أُهدي إلى بيت الله تعالى من ناقة أو بقرة أو شاة. والقلائد كل ما عُلّق على أسنمة الهدايا وأعناقها علامة أنه لله سبحانه.

قال ابن كثير: (﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾، يعني: لا تتركوا الإهداء إلى البيت، فإن فيه تعظيماً لشعائر الله، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هَدْي إلى الكعبة، فيجتنبها من يريدُها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هُدى كان له من الأجر مثلُ أجور من اتبعه، ومن غير أن ينقص من أجورهم شيئاً).

(1) انظر: «زاد المعاد» (3/170-171)، وكتابي: السيرة النبوية (1/527).

أخرج البخاري ومسلم من حديث عائشة قالت: [أهدى رسول الله ﷺ مرّة إلى البيت غَنَماً فقلّدها][1].

وهو قول الشافعي وأحمد، وأنكر ذلك مالك وأصحاب الرأي، وكأنهم لم يبلغهم هذا الحديث في تقليد الغنم. والصواب أن التقليد سنة بالغنم والبقر. وأما البقر إن كان لها أسنمة أُشعرت كالبُدن، وهو قول ابن عمر، وبه قال مالك.

وقوله: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾.

المعنى: نَهْيٌ عن قتال من قصد البيت الحرام طالباً فضل الله ورضوانه أو التجارة.

قال ابن عباس: (﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾: يعني من توجه قبل البيت الحرام).

وقوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾. قال مطرف بن الشِّخِّير: (التجارة في الحج، والرضوان في الحج). وقال ابن عباس: (يعني: أنهم يترضّون الله بحجهم).

وقال مجاهد: (يبتغون الأجر والتجارة).

وذكر ابن جرير الإجماع أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، وإن أمّ البيت الحرام أو بيت المقدس، وروى عن قتادة قال: (نسخ من «المائدة»: ﴿آمين البيت الحرام﴾، نسختها «براءة» قال الله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ.. ﴿٥﴾﴾. وقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ.. ﴿١٧﴾﴾. وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا.. ﴿٢٨﴾﴾.

وهو العام الذي حج فيه أبو بكر، فنادى فيه بالأذان).

ولا شك أن من قَصَد البيت بالإلحاد فيه، والشرك عنده، والكفر به، يمنع للآية السابقة.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾.

فيه إباحة الصيد عند الفراغ من الإحرام والتحلل. قال مجاهد: (هي رخصة). وقال: (إذا حلّ، فإن شاء صاد، وإن شاء لم يصطد). وكان مجاهد لا يرى الأكل من هدي المتعة واجباً ويتأول الآية السابقة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1701)، (1702)، (1703)، وأخرجه مسلم (1321) ح(365). من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾.

الشنآن: البُغْض. قال ابن عباس: (لا يحملنكم شنآن قوم) ـ أي على العدوان.

والمقصود: الحكم بالعدل وترك الاقتصاص ممن منع المسلمين يوم الحديبية من الوصول إلى المسجد الحرام. كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۞﴾. وهو أمر بالعدل في جميع الأحوال.

أخرج البزار والطبراني بسند حسن عن أنس، عن النبي ﷺ قال: [ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجياتٌ، فقال: ثلاث مهلكات: شُحٌّ مطاع، وهوىً مُتَّبَعٌ، وإعجاب المرءِ بنفسه. وثلاث مُنْجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا][1].

قال بعض السلف: (ما عاملتَ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعَدْلُ به قامت السماوات والأرض).

وقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾.

أَمْرٌ من الله عباده بالتعاون في فعل الخيرات وأعمال البر والتقوى، وترك المنكرات والمآثم وعدم المعاونة عليها. وفي السنة الصحيحة كنوز كثيرة في هذا المعنى:

الحديث الأول: أخرج البخاري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قيل: يا رسول الله! هذا نصرتُه مظلوماً، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: تحجُزُه وتمنعه، فإن ذلك نصره][2].

وفي رواية: [تمنعه من الظلم فذاك نصْرك إياه].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن يحيى بن وثّاب، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: أظنه ابن عمر ـ عن النبي ﷺ قال: [المؤمن الذي يُخالط

---

(1) حديث حسن. أخرجه البزار (رقم ـ 80)، وبنحوه الطبراني في «الأوسط» (5584)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1802)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3041).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2443)، (6952)، وأخرجه أحمد (99/3).

الناس ويصبر على أذاهم ، أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم][1] .

وفي رواية : (خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم) .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم وأبو داود من حديث أبي مسعود البدري الأنصاري قال: [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أُبْدِعَ بي[2] فاحملني. فقال: ما عندي. فقال رجل: يا رسول الله! أنا أَدُلُّه على من يَحْمِلُهُ ، فقال رسول الله ﷺ: من دَلَّ على خير فله مِثْلُ أجرِ فاعِله][3] .

وله شاهد عند البزار من حديث ابن مسعود بلفظ : [الدال على الخير كفاعله] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن زيد بن خالد الجُهَنِيِّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: [من جَهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا][4] .

وله شاهد عند ابن خزيمة والنسائي عنه بلفظ : [من جهز غازياً ، أو جهز حاجاً ، أو خلفه في أهله ، أو فطّر صائماً ، كان له مثل أجورهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء] .

وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ .

أَمْرٌ بالتقوى ، وتحذير من عقوبة المتجرئ بالمعصية .

3 . قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (365/5) ، ورجاله رجال البخاري ومسلم ، وجهالة الصحابي لا تضر. وانظر للرواية الأخرى المسند (43/2)، وابن ماجة (4032)، وغيرهم.

(2) أي هلكت دابتي وهي مركوبي.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم(1893) ، كتاب الإمارة. وأخرجه أبو داود(5129)، وغيرهما. وانظر للشاهد مسند البزار (154) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (3393).

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1895) ، كتاب الإمارة. من حديث زيد بن خالد الجهني. وانظر للشاهد بعده صحيح الترغيب (1072/1).

ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾﴾.

في هذه الآية: إخبار من الله عن بعض المحرمات: كالميتة ـ وهي ما مات من الحيوان حتف أنفه ـ، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، وما مات خنقاً، أو بالضرب، أو بالتردي من شاهق، أو بسبب نطح غيرها، أو بسبب اعتداء السبع عليها، إلا ما أمكن تداركه من هذه الأنواع بالذبح الشرعي، وكذلك حرّم من الحيوان ما ذبح عند الأصنام أو الآلهة المزيفة ولو ذكر اسم الله عليها، كما يحرم الاستقسام بالأزلام، فإن تعاطيه فسق وغي وضلال وشرك، فاليوم يئس الكفار أن تراجعوا دينهم فأفردوا الله بالخشية، فقد أتم لكم دينكم في هذا اليوم وأكمل بيان تشريعه لكم، فمن وقع في العنت وألجأته الضرورة لأكل بعض ما سبق من المحرمات فبالحد الأدنى ويستغفر الله الغفور الرحيم.

وتفصيل ذلك:

قوله ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾.

أي ما مات حَتْف أنفه دون صيد أو ذكاة شرعية. والتحريم خير، لما تتضمن الميتة عادة من المضرّة كالدم المحتقن الفاسد، وإمكانية تجمع الجراثيم وتشكل الأوبئة والأمراض.

ويستثنى من الميتة السمك والجراد. وفي ذلك حديثان:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد والبيهقي بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: [أحلت لنا ميتتان ودمان: أما الميتتان فالحوت والجراد. وأما الدمان فالكبد والطحال][1].

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنا نركب البحر. ونحمل معنا القليل من

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/255/96)، والبيهقي (254/1)، وانظر صحيح الجامع (208).

الماء. فإن توضأنا به عطشنا. أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هو الطَّهُور ماؤه ، الحِلُّ ميتَتُه][1].

وقوله: ﴿ وَٱلدَّمُ ﴾. يعني به: الدم المسفوح. ويؤيده قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾.

قلت: والنهي عن أكل الدم لا يعني نجاسة الدم ، فنجاسته في الأكل مثل نجاسة الخمر ـ أي نجاسة معنوية. وإلا فدم مأكول اللحم طاهر غير نجس ، وكذلك دم الإنسان طاهر ـ إلا دم الحيض والنفاس فهو نجس.

أخرج البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر قالت: [جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إحدانا يصيب ثوبها من دم الحيض كيف تصنع؟ فقال: تحتّه ثم تقرصه بالماء ثم تنضحه ، ثم تصلي فيه][2].

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه: [أن خولة بنت يسار قالت: يا رسول الله ، ليس لي إلا ثوب واحد ، وأنا أحيض فيه؟ قال: فإذا طهرت فاغسلي موضع الدم ثم صلي فيه. قالت يا رسول الله: إن لم يخرج أثره؟ قال: يكفيك الماء ولا يضرك أثره][3].

وقوله: ﴿ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾.

يعني: حُرِّم عليكم لحم الخنزير ـ أهْلِيُّه وبرِّيُّهُ ، إِنْسِيُّه وَوَحْشِيُّه. واللحم يعمّ جميع أجزائه حتى الشحم.

أخرج البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: [أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول وهو بمكةَ عام الفتح: إن الله ورسولَه حَرَّم بَيْعَ الخمرِ والمَيْتَةِ والخِنْزير والأصنام. فقيل: يا رسول الله ، أرأيت شحومَ المَيْتَةِ فإنَّها يُطْلى بها السُّفُن

(1) حديث صحيح. أخرجه مالك (1/44-45) ومن طريقه أخرجه أصحاب السنن. انظر صحيح أبي داود (76) ، وكذلك صحيح سنن ابن ماجة (309) ، والسلسلة الصحيحة (480).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (1/240/291) واللفظ له ، وأخرجه البخاري (1/410/307). والقرص: هو الأخذ بأطراف الأصابع ، والحديث أورده الفقهاء في بحث النجاسات ـ دم الحيض. والنفاس له حكم الحيض.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2/26/361) . انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (351) ، ورواه البيهقي (2/408).

ويُدْهَنُ بها الجلود ، ويَسْتَصْبحُ بها الناس ، فقال: لا ، هو حرام. ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: قاتل الله اليهود ، إن الله لمّا حرّم شحومَها جَمَلوه ثم باعوه فأكلوا ثمنَه][1].

وفي صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمِيّ - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: [من لعبَ بالنَّرْدَشِير[2] فكأنما صبغَ يده في لحم الخنزير ودمه][3]. وفي لفظ أحمد: (فكأنما غمس يده في لحم الخِنزير ودمِه).

قال ابن كثير - في التفسير -: (فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس ، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذي به. وفيه دلالة على شُمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره).

وقوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.

هو كل ما ذُبح فذكر عليه اسم غير الله ، من صنم أو وثن أو طاغوت أو أي مخلوق ، فهو حرام لاقترانه بالشرك.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162 - 163].

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه قال: [حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوىٰ مُحْدِثاً ، لعن الله من غيَّر منار الأرض][4].

قال شيخ الإسلام: (﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ ظاهره: أنه ما ذبح لغير الله ، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا)[5].

وقال الزمخشري: (كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2236) ، كتاب البيوع. ومسلم (1581) ، وأحمد (324/3).
(2) النرد: معرَّب ، لعبة معروفة اخترعها أردشير بن بابك ، ولهذا يقال النردشير.
(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2260)، وأبو داود (4939)، وأحمد (352/5)، وغيرهم.
(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه - رقم (1978)(43) ، كتاب الأضاحي.
(5) انظر لهذا الأثر وما بعده كتابي: أصل الدين والإيمان - (457/1). وفتح المجيد (157).

خوفاً أن تصيبهم الجن ، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك).

وذكر إبراهيم المروزي: (أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه ، أفتى أهل بخارىٰ بتحريمه ، لأنه مما أهل لغير الله).

وفي سنن أبي داود بسند حسن عن ابن عباس قال: [نهى رسول الله ﷺ ، عن مُعَاقَرَةِ الأعراب][1].

قال الخطابي في معالم السنن (2702): (والمعاقرة: هو أن يتبارى الرجلان كل واحد يجادل صاحبه فيعقر هذا عدداً من إبله ، ويعقر صاحبه فأيهما كان أكثر عقراً غلب صاحبه. وكره أكل لحومها لئلا يكون مما أهل لغير الله به).

أي: كان يتبارى الرجلان في الجود والسخاء ، فيعقر هذا إبلاً ويعقر هذا إبلاً حتى يعجز أحدهما رياء وسمعة وتفاخراً ولا يقصدون به وجه الله ، فشبه به ما ذبح لغير الله.

ويشهد لهذا ما روى أبو داود أيضاً بسند حسن عن عكرمة يقول: وكان ابن عباس يقول: [إن رسول الله ﷺ نهى عن طعامِ المتبارِيَيْنِ أن يُؤْكَل][2].

وقوله: ﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾. هي التي تموت خنقاً عمداً أم دون قصد. فهي حرام.

وقوله: ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾. هي التي تموت بالضرب. قال الضحاك: (﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾: التي تضرب حتى تموت). وقال قتادة: (كان أهل الجاهلية يضربونها بالعِصِيّ ، حتى إذا ماتت أكلوها). وقال عبيد بن سليمان: سمعت الضحاك يقول في قوله: ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾: (كانت الشاة أو غيرها من الأنعام تضرب بالخشب لآلهتهم ، حتى يقتلوها فيأكلوها).

أخرج البخاري ومسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن المِعْراض فقال: [إذا أصَبْتَ بِحَدِّه فكل ، فإذا أصاب بِعَرْضه فَقَتَلَ فإنه وقيذٌ فلا تأكل][3].

---

1) حسن صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (2446) ـ باب ما جاء في أكل معاقرة الأعراب.

2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (3754) ، بإسناد حسن ـ لأجل هارون بن يزيد ـ وباقي رجاله ثقات.

3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5476) ، (5486) ، وأخرجه مسلم برقم (1929) ، وأخرجه أحمد في المسند (256/4) ، وغيرهم.

وفي لفظ: [قلت يا رسول الله! إني أرمي بالمِعْراض الصيدَ فأصيب. قال: إذا رميت بالمِعْراض فَخَرق فَكُلْه ، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيذٌ فلا تأكله].

وقوله: ﴿وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ﴾ - هي التي تسقط من شاهق فتموت.

قال ابن عباس: (التي تتردّى من الجبل). وقال قتادة: (كانت تتردى في البئر فتموت ، فيأكلونها). وقال السدي: (هي التي تَرَدَّىٰ من الجبل ، أو في البئر ، فتموت).

وقوله: ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ - هي التي تموت بسبب نطح غيرها لها. فهي نطيحة على وزن فعيلة بمعنى مفعولة - أي منطوحة. فهي حرام ولو خرج الدم بسبب النطح. قال ابن عباس: (﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾: الشاة تنطح الشاة). وقال الضحاك: (الشاتان تنتطحان فتموتان). وقال السدي: (هي التي تنطحها الغنم والبقر فتموت).

وقال قتادة: (كان الكبشان ينتطحان ، فيموت أحدهما ، فيأكلونه).

وقوله: ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ - أي ما عدا عليها حيوان مفترس فأكل بعضها فماتت ، ولو سال الدم من افتراس ذلك الحيوان لها ، والسَّبُعُ يدخل في اسمه الأسد والفهد والنمر والذئب والكلب ونحو ذلك.

قال قتادة: (كان أهل الجاهلية إذا قتل السبع شيئاً من هذا أو أكل منه ، أكلوا ما بقي). فجاء التحريم: أي حرِّم عليكم ما أخذ السبع ، أو ما أكل السبع غير المُعَلَّم من الصوائد.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

أي: إلا ما تداركتم من الأنواع السابقة بالذبح الشرعي قبل خروج الروح منه.

قال ابن عباس: (يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح ، فكلوه ، فهو ذَكِيّ).

وقال أيضاً: (ما أدركت ذكاته من هذا كله ، يتحرّك له ذنب ، أو تطرِف له عين ، فاذبح واذكروا اسم الله عليه ، فهو حلال).

وروى ابن جرير بسنده عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن علي بن أبي طالب قال: (إذا ركضت برجلها ، أو طرفت بعينها ، وحركت ذنبها ، فقد أجزأ).

قال الضحاك: (كان أهل الجاهلية يأكلون هذا ، فحرّم الله في الإسلام إلا ما ذُكِّيَ

منه، فما أُدرك فتحرّك منه رجل أو ذنب أو طَرْف، فذكِّي، فهو حلال).

وخلاصة القول: إن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهي حلال، وبه قال الجمهور، وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل. خالف الإمام مالك وقد سئل عن الضَّبعُ يعدو على الكبش فيَدُق ظهره، أترى أن يذكى قبل أن يموت، فيؤكل؟ فقال: إن كان قد بلغ السُّحرة ـ وفي لفظ: إن كان بلغ السَّحْر ـ أي الرئة ـ فلا أرى أن يؤكل، وإن كان إنما أصاب أطرافه، فلا أرى بذلك بأساً. قيل له: وثب عليه فدَقّ ظهره؟ قال: لا يعجبني أن يؤكل، هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ قال: إذا شق بطنها، فلا أرى أن تؤكل. ذكره ابن جرير بسنده عن يونس عن أشهب.

قلت: ولا دليل على هذا التخصيص، فالآية عامة لا استثناء فيها، والقول قول الجمهور، وهو مذهب الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة والشافعي وأحمد.

أخرج البخاري ومسلم عن رافع بن خَدِيج أنه قال: [قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غَداً، وليس معنا مُدىً، أفنذبحُ بالقصب؟ فقال: ما أنهرَ الدم وذُكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السِّنَ والظفرَ، وسأحدِّثكم عن ذلك، أما السِّنُ فعظم، وأما الظفر فمدىٰ الحبشة][1].

وقوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾. هو نوع من الشرك كان عليه أهل الجاهلية.

قال مجاهد: (كانت النُّصب حجارة حول الكعبة). وقال ابن جريج: (وهي ثلاث مئة وستون نُصُباً، كان العرب في جاهليتها يذبحون عندها، ويَنْضَحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويُشَرِّحون اللحم ويضعونه على النُّصب).

قال ابن كثير: (فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحَرَّم عليهم أكل هذه الذبائح التي فُعِلت عند النُّصب حتى ولو كان يُذكر عليها اسم الله في الذبح عند النُّصُب، من الشرك الذي حرّمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تمّ تحريم ما أُهِلَّ به لغير الله).

وقوله: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾.

نوع آخر من الشرك بالله، والأزلام قداح ثلاثة: مكتوب على أحدها: «افْعَل»،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5543) ـ كتاب الذبائح والصيد. ورواه مسلم وغيره.

وعلى الآخر: «لا تَفْعَلْ» ، والثالث غُفْل ليس عليه شيء. وقيل مكتوب على أحدها: «أمرني ربي» ، وعلى الآخر: «نهاني ربي» ، والثالث دون شيء. فإذا أجالها فخرَج السهم الآمر فَعَل ، أو الناهي ترك ، وإن ظهر الذي ليس عليه شيء أعاد الاستقسام.

والاستقسام مأخوذ من طلب القَسْم من الأزلام ، والأزلام: جمع زَلَم أو زُلَم.

قال ابن عباس: (والأزلام قِداحٌ ، كانوا يستقسِمون بها في الأمور).

وقال سعيد بن جبير: (﴿ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ﴾: القداح ، كانوا إذا أرادوا أن يخرجوا في سفر جعلوا قداحاً للجلوس والخروج. فإن وقع الخروج خرجوا ، وإن وقع الجلوس جلسوا). وقال أيضاً فيها: (حصىً بيض كانوا يضربون بها). وقال مجاهد: (حجارة كانوا يكتبون عليها ، يسمونها «القِداح»).

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [إن رسول الله ﷺ لما قدِمَ أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأُخرِجَتْ ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيلَ في أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله ، أمَا والله لقد عَلِموا أنهما لم يستقسِما بها قط][1].

وفي صحيح البخاري أيضاً ـ من حديث سراقة بن مالك في قصة لحاقه بالنبي ﷺ وصاحبه أثناء الهجرة ـ: [فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزلام ، فاستَقْسَمْتُ بها: أضُرّهم أمْ لا؟ فخرَج الذي أكْرَه ، فركبت فرسي وعَصَيْتُ الأزلام][2].

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: [لن يلجَ الدرجات العُلا من تكهَّنَ ، أو استقسم ، أو رجع من سفر تطيُّراً][3].

وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: من أكل من ذلك كله فهو فسق). فيدخل في ذلك أكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وكل ما ذكر من المحرمات في الأكل ، والاستقسام بالأزلام. فإن الله سبحانه قد حرّم الخبائث وأباح الطيبات ، ونهىٰ عن كل ألوان الشرك وأمر بالتوكل عليه وإقامة منهاج التوحيد.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1601) ـ كتاب الحج. وكذلك (398). ورواه أحمد (334/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3906) ـ كتاب مناقب الأنصار ـ وهو ضمن حديث طويل.

(3) حديث حسن. أخرجه الطبراني كما في المجمع (118/5) ح(8487). وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5102). وإسناده حسن.

فالبديل عن المحرمات هو ألوان الطيبات التي لا تُحصى ، والبديل عن الذبح على النصب هو النسك لوجه الله ، والبديل عن الاستقسام بالأزلام هو التوكل على الله وطرق باب الاستخارة.

أخرج الإمام البخاري وأحمد وأهل السنن عن جابر قال: [كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ، ويقول: إذا همّ أحدُكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدِركَ بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تَقْدِرُ ولا أَقْدِرُ ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علّام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم هذا الأمر ـ ويسميه باسمه ـ خيراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدُرْه لي ويسِّره لي وبارك لي فيه ، اللهم وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاصرِفْني عنه ، واصْرِفْه عني ، واقْدُر لي الخير حيث كان ، ثم رضِّني به][1].

وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ﴾ ـ فيه تفاسير متكاملة ، منها:

1 ـ الآن انقطع طمع الأحزاب وأهل الكفر والجحود من دينكم أن تتركوه فترتدوا عنه راجعين إلى الشرك.

قال ابن عباس: (﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ ﴾ ، يعني: أن ترجعوا إلى دينهم أبداً).

وقال السدي: (أظن ، يئسوا أن ترجعوا عن دينكم).

2 ـ قيل بل المراد: يئسوا من مشابهة المسلمين ، بما تميّز به المسلمون من صفات المخالفة للشرك وأهله.

3 ـ وقيل: بل المراد يئس المشركون من أي تنازل يكون في دينكم لصالحهم.

وقد صنّف الإمام مسلم في صحيحه باباً في هذا المعنى: «باب تحريش الشيطان ، وبعثه سراياه لفتنة الناس ، وأن مع كل إنسان قريناً».

روى فيه عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إن الشيطان قد أَيِسَ أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم][2].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1162) ، (6382) ، وأحمد (344/3) واللفظ له ، وأهل السنن.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2812) ، وأحمد (313/3) ، والترمذي (1938).

وروى فيه عن جابر أيضاً ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [يَبْعَثُ الشيطان سراياه فَيَفْتِنُون الناسَ ، فأعْظَمُهُم عنده منزلة أعظمهم فتنة].

وقوله: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ﴾.

قال ابن جريج: (فلا تخشوهم أن يظهروا عليكم).

وقال ابن جرير: (فلا تخشوا ، أيها المؤمنون ، هؤلاء الذين قد يئسوا من دينكم أن ترجعوا عنه من الكفار ، ولا تخافوهم أن يظهروا عليكم ، فيقهروكم ويردوكم عن دينكم ، . . . ولكن خافون ، إن أنتم خالفتم أمري واجترأتم على معصيتي ، وتعدّيتم حدودي ، أن أُحل بكم عقابي وأنزل بكم عذابي).

قال ابن كثير: (أي: لا تخافوا منهم في مخالفتكم إياهم واخشوني ، أنصرُكم عليهم ، وأُبيدُهم ، وأُظْفِركُم بهم ، وأَشْفي صدوركم منهم ، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة).

والخشية تعرف بضدها كما قال الحسن: (عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمناً).

قال ابن القيم رحمه الله: (والوجل والخوف والخشية والرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة).

وفي التنزيل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾. هو وصف لحال قلوب المؤمنين.

أخرج الإمام أحمد في المسند ، عن عائشة رضي الله عنها: [أنها قالت: يا رسول الله! الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات][1].

وقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ ﴾.

قال ابن عباس: (وهو الإسلام. قال: أخبر الله نبيّه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان ، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً ، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبداً ، وقد رضيهُ الله فلا يَسْخَطه أبداً).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (159/6) ، والترمذي (201/2) ، وانظر السلسلة الصحيحة (162).

وهذه الآية شرف عظيم لهذه الأمة ، إذ كمل دينها فلا تحتاج إلى أحد بزيادة أو حذف، ولا إلى نبيّ يقدّم لها بعد وفاة نبيّها، فهو ﷺ خاتم الرسل والأنبياء، وقد بعث إلى الجن والإنس، والدِّين هو ما تركنا عليه يوم مات، لايحيد عن منهاجه إلا هالك ، والحلال والحرام هو الذي استقر عليه الأمر بمغادرة النبي ﷺ.

أخرج البخاري عن طارق بن شهاب ، عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه: [أن رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا مَعْشَر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال: أيُّ آية؟قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ . قال عمر: قد عَرَفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يَوْمَ جُمُعَة][1] .

وأخرج ابن جرير وإسناده على شرط الصحيح ـ عن عمّار ـ مولى بني هشام ـ [أن ابن عباس قرأ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ . فقال يهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومَها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في يوم عيدين اثنين: يوم عيدٍ ويوم جمعة][2] .

وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال ابن عباس: (﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾ ، يعني: في مجاعة). وقال السدي: (ذكر الميتة وما فيها ، فأحلها في الاضطرار ، ﴿ فِى مَخْمَصَةٍ ﴾ ، يقول: في مجاعة). وقال ابن زيد: (المخمصة: الجوع).

وقوله: ﴿ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ﴾ .

قال ابن عباس: (غير متعمد لإثم). وقال ابن زيد: (لا يأكل ذلك ابتغاء الإثم ، ولا جراءة عليه).

وقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يعني من ألجأته الضرورة لأكل بعض هذه المحرمات فلا حرج والله غفور له رحيم ، يتجاوز عن عبده ما أوقعه فيه العنت والهلاك .

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (45) ، ومسلم (3017) ، والنسائي (114/8) ، وغيرهم.
(2) حديث صحيح. أخرجه الطبري في «التفسير» ـ حديث رقم ـ (11102) ـ وإسناده على شرط الصحيح ، من حديث عمار ـ مولى بني هاشم ـ عن ابن عباس.

4 . قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (4)﴾.

في هذه الآية: يسألك يا محمد أصحابك عن حلال الطعام فأخبرهم أنه ما كان من الطيبات. يعني الذبائح الحلال الطيبة. وما اصطدتموه بالجوارح المعلمة. فكلوا منه واذكروا اسم الله واشكروه وعظموه.

قال مقاتل: (فالطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق).

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾.

الجوارح: هنّ الكواسب من سباع البهائم: من الكلاب والفُهود والصُّقور وأشباه ذلك. يعني أحل لكم ما اصطدتموه بهذه الجوارح. سميت كذلك من الجَرْح، وهو الكَسْبُ. والعرب تقول: جرح فلان لأهله خيراً: إذا أكسبهم خيراً. وفلان جارحةُ أهله: يعني كاسبهم. ولا جارح لفلان، أي: لا كاسب له. وفي التنزيل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ..﴾ [الأنعام: 60] - يعني ما كسبتم وعملتم من خير أو شر.

والجمهور على أن صيدالطيور كصيدالكلاب، لأنها تَكْلَبُ الصيدَ بمخالبها، كما تَكْلَبُهُ الكلاب. وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك، وكذلك الإمام أحمد إلا أنه استثنى صيدَ الكلب الأسود، لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه. وفي ذلك حديثان:

الحديث الأول: روى مسلم عن أبي ذر، أن رسول الله ﷺ قال: [يقطع الصلاة الحمارُ والمرأة والكلب الأسود. فقلت: ما بالُ الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: الكلب الأسود شيطان][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم وأحمد وأبو داود عن مُطَرِّفِ بن عبد الله يحدث

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (510) - كتاب الصلاة. باب قدر ما يستر المصلي.

عن ابن المُغَفَّل قال: [أمر رسول الله ﷺ بقَتْلِ الكلاب. ثم قال: ما بالهم وبالُ الكلاب؟ ثم رَخَّصَ في كلب الصيد وكلب الغنم](1).

وفي حديث أبي داود عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: [لولا أن الكلاب أُمَّةٌ من الأمم لأمرت بقَتْلِها ، فاقتلوا منها الأسود البهيم](2).

قلت: والراجح قول الجمهور ، فإن الكلب الأسود المعلّم يَجوز صيده ، ولا حرج. فكونه يقطع الصلاة أو يستحب قتله أمر آخر - والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾.

المعنى: إذا كان الجارح مُعَلَّماً وأمسك على صاحبه ، وكان قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله حلَّ ذلك الصيد وإن قتله بالإجماع. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الشيخان وأصحاب السنن عن عدي بن حاتم قال: [سألت النبي ﷺ ، قلت: إني أرسل الكلاب المُعْلَمة فتمسك عَليَّ أفآكل؟ قال: إذا أَرْسَلْتَ الكلاب المُعْلَمَة ، وذكَرْتَ اسمَ الله ، فكلْ ممّا أمْسَكْنَ عليك. قلت: وإن قَتَلْنَ؟ قال: وإن قَتَلْنَ ما لم يَشْرَكْهَا كلبٌ ليس منها. قلت: أرمي بالمعراض فأصيب أفآكل؟ قال: إذا رَمَيْتَ بالمِعْرَاضِ وَذَكَرْتَ اسمَ الله ، فأصابَ فَخَزَّقَ فَكُلْ ، وإن أصابَ بِعَرْضِه فلا تأكُلْ](3).

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن عدي بن حاتم قال: [سألت النبي ﷺ ، قلت: إنا نصيد بهذه الكلاب؟ فقال لي: إذا أرسلت كِلاَبَكَ المُعْلَمَةَ وذكرتَ اسم الله عليها فكل مما أمْسَكْنَ عليك ، وإن قَتَلَ ، إلا أن يأكل الكلبُ ، فإن أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون إنما أمْسَكَهُ على نفسه](4).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم وأبو داود عن عدي بن حاتم ، أن النبي ﷺ قال: [إذا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ وذكرتَ اسم الله فوجدتَه من الغد ولم تجده في ماء ولا فيه أثرٌ

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (280) ، كتاب الطهارة ، باب حكم ولوغ الكلب.
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2845) كتاب الصيد: باب في اتخاذ الكلب للصيد وغيره.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5476) ، ومسلم (1929) ، وأبو داود (2847) واللفظ له ، ورواه بقية أهل السنن. والمعراض: سهم بلا ريش ولا نصل. والمزراق: رمح قصير.
(4) حديث صحيح. أخرجه الشيخان وأبو داود - واللفظ له. انظر صحيح سنن أبي داود (2474). وصحيح البخاري (175) ، (5477) ، وكذلك صحيح مسلم (1929).

غَيْرَ سهمك فكلْ ، وإذا اخْتَلَط بكلابك كَلْبٌ مِن غيرها ، فلا تأكلْ ، لا تَدْري لعلَّهُ قَتَله الذي ليس منها][1] .

وفي رواية : [أرسل كلبي فأجد عليه كلباً آخر ، فقال : لا تأكلْ لأنك إنما سميت على كَلْبك] .

الحديث الرابع : أخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي ثعلبة الخشني قال : قلت : يا رسول الله ، إني أصيد بكلبي المعلم ، وبكلبي الذي ليس بمعلم ، قال : [ما صدت بكلبك المُعْلَم ، فاذكر اسم الله وكُلْ ، وما أَصَدْتَ بكلبك الذي ليس بِمُعْلَم ، فأدْرَكت ذكاتَهُ فكل][2] .

وقوله : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ .

أي : احذروا مخالفة حدود ربكم ، وأن تأكلوا من صيد الجوارح غير المعلَّمة ، أو مما أمسكت على نفسها ، أو أن تطعموا ذبائح المشركين عبدة الأوثان ، فإن الله سريع حسابه ، يجازي الشكور والمطيع ، ويعاقب العاصي بمعصيته .

5 . قوله تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٥ ﴾ .

في هذه الآية : اليوم أحل لكم أيها المؤمنون حلال الطعام وذبائح أهل الكتاب دون غيرهم من سائر أهل الشرك ، وذبائحكم أيها المؤمنون حِلٌّ لأهل الكتاب ، وأحل لكم نكاح المحصنات ـ أي العفيفات ـ من نسائكم ونساء أهل الكتاب إذا دفعتم لهن مهورهن وأنتم أعفاء لا معالنين بسفاح ولا متخذي أخدان ـ ذات الخدن ، ذات الخليل

---

(1) حديث صحيح . انظر صحيح سنن أبي داود (2475) ، (2479) ـ كتاب الصيد . ورواه الشيخان . انظر صحيح البخاري (5486) ، وصحيح مسلم (1929) ، ومسند أحمد (4/ 256) .

(2) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (2855) من حديث أبي ثعلبة . انظرصحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (2480)ـ كتاب الصيد . وأصله في الصحيحين .

الواحد ـ ومن يجحد ما أمر الله بالإيمان به بطل ثواب عمله وهو في الآخرة من الهالكين.

فقوله: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾.

يعني الحلال من الذبائح والمطاعم دون الخبائث منها. ذكره ابن جرير.

وقوله: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾.

قال مجاهد: (ذبائحهم). وقال الضحاك: (أحل الله لنا طعامهم ونساءهم) ـ وبه قال ابن عباس.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لما فُتحت خَيْبَرُ أُهدِيَت للنبي ﷺ شاة فيها سُمّ. .] الحديث(1).

قال ابن إسحاق: (فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلّام بن مِشْكم، شاة مَصْلِيّة ـ أي مشوية ـ، وقد سألت أي عُضْو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السُّم، ثم سمّت سائرالشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع فلاكَ منها مضغة، فلم يُسغها، ومعه بِشْرُ بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ، فأما بِشْر فأَساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليُخبرني أنه مسموم).

قال ابن كثير: (ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه، ولم يسألهم: هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شَحْمِها أم لا؟. قال: وفي الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ أضافه يهوديٌّ على خُبْزِ شَعير وإهالة سَنِخَةٍ(2)، يعني: وَدَكاً زَنِخاً).

وقوله: ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾.

المعنى: ولكم أن تجازوهم بإطعامهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم، فهو من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة. ذكره ابن كثير ثم قال: (فأما الحديث الذي فيه:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (5777) ـ كتاب الطب. ضمن حديث طويل.
(2) أخرجه أحمد (3/210-211) من حديث أنس، وأخرجه البخاري (5437)، ومسلم (2041)، وأخرجه أبو داود (3782)، وأخرجه ابن حبان (4539).

«لا تصحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي»[1] ، فمحمول على الندب والاستحباب ، والله أعلم).

وقال القرطبي: (﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ : دليلٌ على أنهم مخاطبون بتفاصيل شَرْعنا ، أي إذا اشتروا منا اللحم يَحِلُّ لهم اللحم ويَحِلّ لنا الثمن المأخوذ منهم).

وخلاصة المعنى: لكم ـ أيها المؤمنون ـ أن تأخذوا ثمن اللحوم التي يشترونها منكم ، ولكم أن تكافئوهم على إطعامكم ذبائحهم بإطعامهم من ذبائحكم ، ولهم أن يأكلوا من ذبائحكم فهي حل لهم ، يعلمون ذلك عندهم.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

يعني أحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات. وقد تقدم المعنى في «البقرة» و«النساء» ولله الحمد.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

أي يحل لكم نكاح نساء أهل الكتاب بشروطٍ:

1 ـ أن تكون من العفيفات العاقلات.

2 ـ أن تكون تحصن فرجها فلا تزني.

3 ـ أن يكون المؤمن صلباً في دينه لا يترك دينه لدينها ولا يتأثر بمحاولاتها في ذلك.

4 ـ أن لا يتزوج من نساء أهل الكتاب إلا عندما تلجئه الحاجة إلى ذلك ، فالأصل نكاح المؤمنات الطاهرات ، والنظر القويم إلى مستقبل أولاده وأسرته.

فعن مجاهد: (﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قال: العفائف).

وقال الشعبي: (إحصان اليهودية والنصرانية: أن لا تزني).

وعن سعيد بن المسيب والحسن: (أنهما كانا لا يريان بأساً بنكاح نساء اليهود والنصارى ، وقالا: أحلّه الله على علم).

يروى ابن جرير بسنده عن الحسن ـ وسأله رجل: أيتزوج الرجل المرأة من أهل

(1) حديث إسناده جيد. أخرجه أبو داود (4832) ، والترمذي (2395) ، وأحمد (38/3) ، وغيرهم.

الكتاب؟ ـ قال: (ما له ولأهل الكتاب ، وقد أكثر الله المسلمات ، فإن كان لا بد فاعلاً فليعمد إليها حَصاناً غير مسافحة).

ولا فرق بين الحرة والأمة ، فالعفاف أهم شرط في نكاح الذمية ، وهو قول الجمهور.

وقوله: ﴿ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾. قال ابن عباس: (يعني: مهورهن).

وقال ابن جرير: (فإن «الأجر»: العوض الذي يبذله الزوج للمرأة للاستمتاع بها ، وهو المهر).

وقوله: ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: ينكحوهن بالمهر والبينة ، غير مسافحين متعالنين بالزنا ، ﴿ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ ﴾ يعني: يسرّون بالزنا).

قال رجل للحسن: ماالمسافحة؟ قال: (هي التي إذا لمح الرجل إليها بعينه اتّبعته).

وقال ابن كثير: (﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ ﴾ ، فكما شرط الإحصان في النساء ، وهي العفة عن الزنا ، كذلك شَرَطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضاً مُحْصِناً عفيفاً ، ولهذا قال: ﴿ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ وهم: الزناة الذين لا يرتدِعون عن معصية ، ولا يَرُدّون أنفسَهم عمن جاءهم ، ﴿ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ ﴾ ، أي: ذوي العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن).

وقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ ، قال: بالله). وقال عطاء: (الإيمان: التوحيد).

وقال ابن عباس: (أخبر الله سبحانه أن «الإيمان» هو العروة الوثقىٰ ، وأنه لا يقبل عملاً إلا به ، ولا يحرِّم الجنة إلا على من تركه).

ومن ذلك الإيمان ما أحل الله من تزوج نساء أهل الكتاب على تلك الشروط.

وقوله: ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

أي من الهالكين ، نتيجة الكفر بأوامر الله أو بعضها.

6 . قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦)﴾.

في هذه الآيــة: ذكر أحكام شرعية تتعلق بالطهارة، من أركان الوضوء وأحكام تخص التيمم ومشروعيته، وبيان نعمة الله سبحانه على المؤمنين بهذا التشريع، وغير ذلك.

أخرج البخاري عن عائشة قالت: [خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء ـ أو بذاتِ الجَيْش ـ انقطع عِقْدٌ لي فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا: ألا ترىٰ إلى ما صنعتْ عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس، وليسواعلى ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضعٌ رأسه على فخذي قد نام. فقال: حَبَسْتِ رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء. قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يَطْعَن بيده في خاصرتي، ولا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رأس رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمّم، فتيمّموا. فقال أُسَيْدُ بن الحُضَير: ما هي بأول بركتكم ياآل أبي بكر. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العِقْدَ تحتَه][1].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

أي على غير طهر. وعليه أقوال المفسرين:

1 ـ سئل عكرمة عن قول الله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (334)، ومسلم (367)، والنسائي (1/162-164)، وغيرهم.

﴿ٱلْمَرَافِقِ﴾ ، فكل ساعة يتوضأ؟ فقال: قال ابن عباس: (لا وضوءَ إلا من حَدَث).

وقال عكرمة: (كان سعد بن أبي وقاص يُصلي الصلوات بوضوء واحد).

وقال: (كان سعد بن أبي وقاص يقول: صلِّ بطهورك ما لم تحدث) رواه ابن جرير.

2 ـ عن قتادة ، عن واقع بن سحبان ، عن يزيد بن طريف ـ أو: طريف بن يزيد: (أنهم كانوا مع أبي موسى على شاطئ دجلة ، فتوضؤوا ، فصلَّوا الظهر ، فلما نودي بالعصر ، قام رجال يتوضؤون من دجلة ، فقال: إنه لا وضوء إلا على من أحدث).

3 ـ عن زيد بن أسلم قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قال: (يعني: إذا قمتم من النوم).

أخرج الإمام أحمد والبخاري عن أنس قال: [كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال: قلتُ[1]: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلي الصلوات بوضوء واحد ما لم نُحْدِث][2].

وقوله: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

قال الحافظ ابن كثير: (قد استدل طائفة من العلماء بقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ على وجوب النية في الوضوء ، لأن تقدير الكلام: إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها).

قلت: بل النية ركن من أركان الوضوء الذي بيّن الله في هذه الآية ، فأركان الوضوء:

1 ـ **النية**: ومحلها القلب ، وتعني القصد والإرادة ، والتلفظ بها لا أصل له. وقد ثبت في الصحيحين من حديث عمر: [إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى][3].

2 ـ **غسل الوجه**: عرضاً من شحمة الأذن اليمنى إلى شحمة الأذن اليسرىٰ ، ومن منبت الشعر من الرأس إلى أسفل اللحيين طولاً. لقوله تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾.

---

1) هو عمرو بن عامر الأنصاري راوي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (132/3) ، والبخاري في الصحيح (214) ، وأبو داود في السنن (171) ، والترمذي في الجامع (60).

3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (1) ـ كتاب بدء الوحي ، ورواه مسلم وأهل السنن.

أخرج الإمام الترمذي بسند جيد عن أبي وائل قال: [رأيت عثمان توضأ ـ فذكر الحديث ـ قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت][1].

وأخرج البخاري عن عطاء عن ابن عباس: [أنه توضأ فغسل وجهه، أخذ غَرْفَةً من ماء فَمَضْمَضَ بها واسْتَنْشَق، ثم أخَذَ غَرْفَةً من ماء فجعل بها هكذا أضافها إلى يده الأخرى، فغَسَل بها وَجْهَهُ، ثم أخذ غَرفَةً من ماء فغسل بها يدَه اليمنى، ثم أَخَذَ غَرْفَةً من ماء فغسل بها يده اليُسرى، ثم مسح برأسه، ثم أخذ غَرْفَةً من ماء فَرَشَّ على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غَرْفَةً أُخرى فغسل بها رِجْلَهُ يعني اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ][2].

3 ـ **غسل اليدين إلى المرافق.**

المرفق هو العظم «المفصل» الذي بين العضد والساعد. لقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾.

4 ـ **مسح الرأس كله.** لقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾.

والباء تفيد الإلصاق ـ وفعله ﷺ يدل على ذلك ـ ومن ذهب إلى التبعيض فالحديث التالي حجة عليه، إذ فيه وصف مسحه ﷺ الذي علينا أن نتابعه فيه.

أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن وأحمد والبيهقي وابن حبان ـ من حديث عمرو بن يحْيى المازني، عن أبيه، أن رجُلاً قال لعبد الله بن زيد ـ وهو جدّ عمرو بن يحيى ـ: أتستطيع أن تُرِيَني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بماء فَأَفْرَغَ على يديه فغسل مرتين، ثم مَضْمَضَ واستنثر ثلاثاً، ثم غَسَل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر، بدأ بِمُقَدَّم رأسه حتى ذهب بهما إلى قَفاه، ثم ردَّهما إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غَسَلَ رجليه][3].

---

(1) حديث إسناده جيد. أخرجه الترمذي في السنن (31)، وابن ماجة (430)، والحاكم (149/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (140)، كتاب الوضوء. وأخرجه أحمد (268/1).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (185) ـ كتاب الوضوء. باب مسح الرأس كله. وأخرجه مسلم (235)، وأبو داود (118)، والترمذي (32)، والنسائي (71/1)، وابن ماجة (434)، وأخرجه=

فالحديث يدل على وجوب تكميل مسح جميع الرأس، وهو مذهب مالك وأحمد.

5 ـ **غسل القدمين إلى الكعبين**. لقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾.

ونصبت ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالعطف على ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾. قال ابن عباس: (رجعت إلى الغسل).

والكعبان هما العظمان الناتئان على جانبي مشط القدم، ويدخل مع القدم العقب وهو العظم الناتئ أسفل القدم آخر المشط الذي يرتكز عليه الإنسان إذا مال إلى الخلف ويسمى عند الناس أحياناً «كاحلاً» فيجب غسله مع القدم.

ففي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو قال: [تخلَّف عنا رسول الله ﷺ في سَفْرَةٍ سافرناها، فأدرَكَنا وقد أَرْهَقَتْنَا الصلاةُ صلاة العصر ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: أَسْبِغُوا الوضوءَ، ويل للأعقاب من النار][1]. وفي لفظ عند أحمد: [ويل للعراقيب من النار].

وفي لفظ آخر: [ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار][2].

6 ـ **الموالاة**: أي غسل الأعضاء بعضها إثر بعض بلا فارق زمني.

ففي مسند أحمد وسنن داود من حديث خالد بن معدان، عن بعض أزواج النبي ﷺ: [أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي، وفي ظَهْرِ قَدَمِهِ لُمْعَةٌ قدرُ الدّرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء][3].

زاد أبو داود: [والصلاة].

وأما واجبات الوضوء وسننه فلها مكان آخر في الفقه سيأتي في موسوعة خاصة به إن شاء الله تعالى.

= أحمد (38/4)، والبيهقي (59/1)، وابن حبان (1084)، (35).

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (60)، (96)، ومسلم (241)، وأحمد (193/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (191/4)، والحاكم (162/1)، من حديث جابر بن عبد الله.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (424/3)، وأبو داود في السنن (175)، لكن «عن بعض أصحاب النبي ﷺ»، وجهالة الصحابي لا تضر.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾.

تقدم الكلام عن تفصيل ذلك في سورة النساء ، وبيان أسباب النزول في ذلك.

وقد أخرج البخاري ـ حول هذه الآية ـ عن عائشة رضي الله عنها: [سقطت قِلادةٌ لي بالبيداء ونحن داخِلون المدينة ، فأناخ النبيُّ ﷺ ونزَلَ ، فثنى رأسَهُ في حِجْري راقِداً ، أَقْبَلَ أبو بكر فلكزَني لكْزَةً شديدة وقال: حبست الناس في قِلادَةٍ ، فَبِيَ الموتُ ، لِمكانِ رسول الله ﷺ وقد أوْجَعني ، ثم إن النبي ﷺ استيقظَ وحَضَرَتِ الصُّبْحُ ، فالتُمِسَ الماء فلم يوجدْ ، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية ، فقال أُسيد بن حُضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر ، ما أنتم إلا بركةٌ لهم][1].

وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾.

قال عكرمة: (من ضيق). أي أباح سبحانه لكم التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ولئلا يعنتكم.

وقوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قال ابن جرير: (﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ ، ولكن الله يريد أن يطهركم ، بما فرض عليكم من الوضوء من الأحداث ، والغسلِ من الجنابة ، والتيمم عند عدم الماء ، فتنظّفوا وتطهّروا بذلك أجسامكم من الذنوب).

أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [إذا توضأ العبدُ المسلمُ ـ أو المؤمن ـ فغسل وَجْهَهُ ، خرج من وجهه كُلُّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء ـ أو: مع آخِر قطْرِ الماء ـ فإذا غسل يديه خرجَ من يديه كُلُّ خطيئة بطشتها يداه مع الماء ـ أو: مع آخر قطر الماء ـ فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء ـ أو: مع آخر قطر الماء ـ حتى يخرج نقيّاً من الذنوب][2].

وأخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة ، قال: قال رسول الله ﷺ: [من

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4608) ، كتاب التفسير. تفسير سورة المائدة.
(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (244) ، والترمذي (2) ، ومالك (32/1) ، وأحمد (303/2).

توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة ، خرجت ذنوبه من سَمْعه وبصره ويديه ورجليه](1) .

وروى أحمد وأبو يعلى والبزار بسند صحيح عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، أنه دعا بماء فتوضأ ثم ضحكَ، فقال لأصحابه: ألا تسألوني ما أضحكني؟ فقالوا: ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: [رأيت رسولَ الله ﷺ توضأ كما توضأت ، ثم ضحك فقال: ألا تسألوني: مَا أضحكك؟ فقالوا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: إن العبد إذا دَعَا بِوَضوءٍ ، فغسل وَجْهَهُ ، حَطَّ الله عنه كلَّ خطيئة أصابها بوجهه ، فإذا غسل ذِراعَيْه كان كذلك، وإذا طَهّرَ قَدَميه كان كذلك. زاد البزار: فإذا مسح رأسَه كان كذلك](2) .

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

أي كي تشكروا الله على هذه النعم الجليلة عليكم ، بطاعتكم إياه وتعظيمكم لأوامره ، فقد خصّكم بجزيل الثواب على الطاعة والتعظيم.

7 ـ 11. قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ ﴾ .

في هذه الآيات: تَوْجِيهٌ من الله سبحانه لذكر نعمته عليكم ـ أيها المؤمنون ـ في

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (252/5) ، (256/5) ، والطبري (11548) ، وغيرهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأبو يعلى. إسناد أحمد جيد ، ورواه البزار بسند صحيح. انظر صحيح الترغيب (179/1) ـ كتاب الطهارة ، الترغيب في الوضوء وإسباغه.

ما هداكم له من ميثاق طاعته ونجاتكم من الضلالة والرّدى. وأَمْرٌ منه سبحانه أن تكونوا قائمين بالحق لا يحملكم بُغض قوم على ترك العدل، وهو سبحانه عليمٌ بذات الصدور، خبيرٌ بأعمالكم، وقد وعد المؤمنين القائمين بمنهاج العمل الصالح مغفرة وأجراً عظيماً، في حين وعد الكافرين عذاباً أليماً. ثم ذكرهم إذ نجّاهم من مكر قوم من أعدائهم هموا ببسط الأذى لهم ـ أفلا يحملكم هذا كله على التقوى وصدق التوكل على الله جل ثناؤه. فإلى تفصيل ذلك:

فعن مجاهد: (﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾، قال: النعم، آلاء الله).

وعن ابن عباس: (﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ الآية، يعني: حيث بعث الله النبي ﷺ وأنزل عليه الكتاب، فقالوا: «آمنا بالنبي ﷺ وبالكتاب وأقررنا بما في التوراة» فذكّرهم الله ميثاقه الذي أقروا به على أنفسهم، وأمرهم بالوفاء به). فالنعمة الإسلام، والميثاق كما قال ابن جرير: (يعني: وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة له في المنَشط والمكره والعُسر واليسر).

ففي الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: [بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في مَنْشَطِنا ومكرهنا، وعُسْرِنا ويُسْرنا، وأَثرةٍ علينا، وأن لا نُنَازِعَ الأمر أهله. قال: إلا أن تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عندكم فيه من الله برهان][1].

ـ وقيل هو العهد المأخوذ على ذرية آدم يوم استخرجها من صلبه، وقيل بل هو العهد المأخوذ على اليهود في متابعة محمد ﷺ ـ والأول أظهر ورجّحه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أَمْرٌ بالتقوى، وتَحْذِيرٌ من مخالفة عهد من يعلم السر وأخفىٰ.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾.

قال ابن كثير: (أي: كونوا قائمين بالحق لله ـ عز وجل ـ لا لأجل الناس والسمعة).

وقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

أَمْرٌ بإقامة العدل وتحذير من الظلم والجَوْر.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7055)، (7056)، ومسلم (1840)، وأحمد (321/5).

وقوله: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ .

أي لا تقحموا حظوظ نفوسكم في القضاء والحكم بين الناس ، بل أقيموا العدل على كل أحد ، قريباً كان أم بعيداً ، صديقاً كان أم عدواً.

وقوله: ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

أي مقام العدل هو الذي يحبه الله ويرضاه، وأما الظلم فهو بغيض إليه جلت عظمته.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه الوصية من الله تعالى لعباده المؤمنين:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير أنه قال: [نَحَلني أبي نَحلاً ، فقالت أمي عَمْرَةُ بنتُ رواحة: لا أرضىٰ حتى تُشهد رسول الله ﷺ. فجاءه لِيُشْهِدَه على صدقتي ، فقال: أَكُلَّ ولدك نحلت مثله؟ قال: لا. قال: اتقوا الله ، واعدِلُوا في أولادكم. وقال: إني لا أشهد على جَور. قال: فرجع أبي فردَّ تلك الصدقة][(1)] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال: [اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشّح فإن الشّح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم][(2)] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم ـ أيضاً ـ من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: [لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يُقادَ للشاة الجَلْحَاء من الشاة القرناء][(3)] .

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

أي: احذروا معشر المؤمنين الجور ومغبة الظلم، فإن الله قد اطلع على أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2586) ، ومسلم (1623) ، والنسائي (258/6) ، ومالك (751/2). من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه برقم (2578) ـ كتاب البر والصلة.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2582) ـ الباب السابق ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والجلحاء: الشاة التي لا قَرْنَ لها.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾﴾ .

هذا من تمام عدله سبحانه: موافاة المؤمنين نتيجة أعمالهم وإقامة الحق والعدل المغفرة والأجر العظيم ، في حين ينتظر الكافرين: الظالمين أنفسهم بالكفر وغيرهم بالظلم والجور ، عذاب الجحيم .

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ . فيه أكثر من تأويل :

التأويل الأول: قيل نزلت في شأن بني النضير حين همّوا بإلقاء الرّحىٰ على رأس رسول الله ﷺ ، حين ذهب إليهم ليعينوه في دية الرجلين من بني كلاب اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في أعقاب حادثة بئر معونة ، وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة ، فكانت نعمة الله بفضحهم وإجلائهم .

قال مجاهد: (﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾: اليهود ، دخل عليهم النبي ﷺ حائطاً لهم وأصحابُه من وراء جداره ، فاستعانهم في مَغْرَم دِية غرمها ، ثم قام من عندهم ، فائتمروا بينهم بقتله. فخرج يمشي القهقرى ينظر إليهم ، ثم دعا أصحابه رجلاً رجلاً حتى تتاموا إليه)[1] .

ويروي ابن جرير في التفسير أن حيي بن أخطب قال لهم: (لا ترون أقرب منه الآن ، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه ، ولا ترون شراً أبداً ، فجاؤوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاءه جبريل) .

التأويل الثاني: قيل بل نعمة الله المذكورة هنا إعلام الله نبيّه بطعام قدمه له يهود أرادوا به قتله وقتل أصحابه. قال ابن عباس في الآية: (وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله وأصحابه طعاماً، ليقتلوه إذا أتى الطعام، فأوحى الله إليه بشأنهم فلم يأت الطعام، وأمرَ أصحابه فلم يأتوه) .

التأويل الثالث: قيل بل النعمة هنا إطلاع الله نبيّه ﷺ على محاولة عدوه المشرك قتله في بَطْن نَخْل حين استلّ سيفه ، وتشريع صلاة الخوف للأمة .

(1) انظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين. (802/2)ـ غدْر اليهود وإجلاء بني النضير ـ وانظر تفسير الإمام الطبري (11560-11563)، وأسباب النزول (387) ـ للواحدي .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: [أَقْبَلْنا مع رسول الله ﷺ ، حتى إذا كنا بذاتِ الرِّقاع قال: كُنَّا إذا أَتَيْنَا على شجرة ظَليلةٍ تَركْناها لرسول الله ﷺ ، قال: فجاء رجل من المشركين وسيفُ رسول الله ﷺ مُعَلَّقٌ بشجرة ، فأخذ سيف نبيّ الله ﷺ فاخترطَه ـ أي سَلَّهُ ـ فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: لا. قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله يَمْنَعُني مِنْك. قال: فتهدّدَهُ أصحاب رسول الله ﷺ ، فَأَغْمَدَ السيف وعَلَّقَهُ ، قال: فنودي بالصلاة ، فَصَلّى بطائفة ركعتين ، ثم تأخروا ، فصلى بالطائفة الأخرى ركعتين ، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربعُ ركعات ، وللقوم ركعتان][1].

قال معمر: (وكان قتادة يذكر نحو هذا ، وذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ ، فأرسلوا هذا الأعرابي ، وتأوّل: ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ الآية) ذكره ابن جرير.

قلت: والراجح التأويل الأول ، ورجحه شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله ، وقد بسطت القول في ذلك في كتابي السيرة النبوية ـ على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة ـ عند إجلاء بني النضير ، فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

أَمْرٌ من الله بالتقوى فهي سرّ كل فلاح ، وإِخْبَارٌ عن صفة المؤمنين بتوكلهم على الله واعتمادهم عليه كما عَلَّمَهُم ذلك نبيّهم ، فالله يحب المتوكلين ، ومن توكل على الله كفاه وعصمه وحفظه.

12 - 14. قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (843) ، كتاب صلاة المسافرين ـ باب صلاة الخوف.

ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرٌ للعهود والمواثيق التي أخذها الله على أهل الكتابين: اليهود والنصارىٰ، وبيان مغبة نقضهم تلك العهود وما حلّ بهم من ضنك العيش في الدنيا، وما ينتظرهم من شقاء يوم القيامة. فإلى تفصيل ذلك:

قوله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾.

قال الحسن: (اليهود من أهل الكتاب). وقال أبو العالية: (أخذ الله مواثيقهم أن يخلصوا له، ولا يعبدوا غيره).

والنقيب في لغة العرب كالعريف، بل هو فوقه، وهو الأمين الضامن على القوم.

يقال: نقَب فلان على بني فلان فهو ينقُبُ نقْباً. ويقال: عَرُف عليهم يَعْرُف عِرافة.

قال قتادة: (﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، من كل سِبْط رجل شاهد على قومه). وقال الربيع: (النقباء: الأمناء).

والمقصود أنهم عرفاء القوم ينوبون عن قبائلهم بالتمثيل والمبايعة، قال ابن كثير: (يعني: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة، والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه).

وقال ابن جرير: (إنما كان الله عز ذكره أمر موسى نبيّه ﷺ ببعثة النقباء الاثني عشر من قومه بني إسرائيل إلى أرض الجبابرة بالشأم، ليتحسَّسوا لموسى أخبارَهم، إذْ أراد هلاكهم، وأن يورِّث أرضَهم وديارَهم موسى وقومَه، وأن يجعلها مساكن لبني إسرائيل، بعدما أنجاهم من فرعون وقومه، وأخرجهم من أرض مصر. فبعث موسى الذين أمره ببعثهم إليها من النقباء).

وقد بايع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة اثنا عشر نقيباً من الأنصار، هم الذين وَلُوا

المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة. منهم عشرة من الخزرج واثنان من الأوس.

أخرج البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت ـ أحد النقباء ـ أن رسول الله ﷺ قال: [تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه. قال: فبايعته ـ وفي رواية: فبايعناه على ذلك][1].

وكذلك فإن الخلفاء في هذه الأمة الذين هم على منهاج النبوة عددهم اثنا عشر خليفة. ففي الصحيحين والمسند عن جابر بن سَمُرة قال: سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول: [لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليَهم اثنا عشر رجلاً. ثم تكلم النبي ـ ﷺ ـ بكلمة خَفِيَتْ عليّ، فسألت أبي: ماذا قال النبي ـ ﷺ ـ؟ قال: كلهم من قريش][2].

وقدمضى منهم الخلفاء الراشدون الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم. وكذلك عمر بن عبد العزيز، وقيل عبد الله بن الزبير أيضاً. ويبدو أن البقية الستة يكونون مع عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة مرة أخرى كما في حديث حذيفة:

فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن النعمان بن بشير قال: [كنا قعوداً في المسجد، وكان بشير رجلاً يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبته، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة يرفعه إلى النبي ﷺ: تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3892) ـ كتاب مناقب الأنصار.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7222)، ومسلم (1821) ح(6)، واللفظ له، ورواه أحمد في المسند (86/5)، وأخرجه أبو داود (4279)، والترمذي (2223)، والبيهقي في «الدلائل» (519/6)، وغيرهم.

تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت][1] .

وقوله : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ .

أي بحفظي وكَلاءتي ، بسمعي وبصري ، وإني ناصركم على عدوكم وعدوي الذين أمرتكم بقتالهم .

وقوله : ﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي ﴾ .

أي حافظتم على إقامة الصلاة وإعطاء الزكاة ، وصدقتم بما أتاكم به رسلي من شرائع ديني .

وقوله : ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ .

قال مجاهد : (نصرتموهم) . وقال ابن زيد : (التعزيز والتوقير : الطاعة والنصرة) .

وقوله : ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ . أي أنفقتم في سبيله وابتغاء مرضاته .

وقوله : ﴿ لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ .

أي أستر عليكم ذنوبكم ، وأتجاوز عنها فأمحوها ، وأتحفكم بدخول جنات النعيم التي تجري من تحتها الأنهار .

وقوله : ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

أي : فمن جحد هذا الميثاق منكم ـ يا بني إسرائيل ـ بعد شدّه وتوكيده ، فقد أخطأ طريق النجاة ، وَزَلَّ في طريق الهلاك .

وقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ ﴾ .

قال ابن عباس : (هو ميثاق أخذه الله على أهل التوراة فنقضوه) . وقال قتادة : (فبنقضهم ميثاقهم لعناهم) ـ أي طردناهم عن الهدى والحق .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ﴾ .

أي : فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً لغلظتها وقسوتها .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد في المسند (273/4) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (5) ، وكتابي : أصل الدين والإيمان (989/2) لتفصيل البحث .

وقوله: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: حدود الله في التوراة، ويقولون: إن أمركم محمد بما أنتم عليه فاقبلوه، وإن خالفكم فاحذروا).

والمقصود أنهم حملوا كلام الله في التوراة على غير مراده ومعناه، وأشاعوا فهماً منحرفاً له يوافق أهواءهم وشهواتهم.

وقوله: ﴿ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾.

قال السدي: (يقول: تركوا نصيباً).

وقال الحسن: (تركوا عُرَى دينهم، ووظائفَ الله جل ثناؤه التي لا تُقبل الأعمالُ إلا بها).

والمقصود: أنهم تركوا العمل بما ذكروا به رغبة عنه إلى دنيا عكفوا عليها.

وقوله: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾.

يعني الغدر من أكثرهم والخيانة.

قال قتادة: (﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ ﴾، قال: على خيانة وكذب وفجور).

وقال مجاهد: (هم يهودُ، مِثْلُ الذي هموا به من النبي ﷺ يوم دخل حائطهم).

وقوله: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

قال ابن كثير: (وهذا هو عينُ النَّصر والظفر، كما قال بعض السلف: «ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تُطيع الله فيه». وبهذا يحصُلُ لهم تأليفٌ وجَمْعٌ على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، يعني به: الصفح عمن أساء إليك).

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾.

أي: وكذلك الذين زعموا أنهم على دين عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأنهم متابعوه على هديه ومناصروه ومآزروه، وقد عقدوا لذلك المواثيق والعهود ـ كما فعل اليهود من قبل ـ على الإيمان به وبكل نبي يرسله الله بعده إلى الأرض، إلا أنهم كانوا كسابقيهم عند أسوأ الظن. قال قتادة: (نسوا كتاب الله بين أظهرهم، وعهدَ الله الذي

عهده إليهم ، وأمر الله الذي أمرهم به). وقال السدي: (قالت النصارى مثل ما قالت اليهود ، ونسوا حظاً مما ذكروا به).

وقوله: ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾.

يعني: أوقع الله بينهم ، فأصبحوا طوائف يأكل البغض والحسد بعضُهم بعضاً.

قال إبراهيم النخعي: (هذه الأهواء المختلفة والتباغض ، فهو الإغراء).

وقوله: ﴿ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

فيه تَوَعُّدٌ من الله بالانتقام منهم إذ كذبوا على الله ورسوله ، وجعلوا لله صاحبة وولداً ، ونقضوا العهود والمواثيق ، وحرّفوا التنزيل والأمر والنهي ، تعالى الله الواحد الأحد ، الذي لم يلد ولم يولد ، وتقدست أسماؤه وجلت عظمته.

15 - 16. قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: عالمية دعوة محمد ﷺ: إلى الناس كافة ، إلى الجن والإنس ، إلى الأمم جميعها من أهل الكتاب وغيرهم. وبيان ما حصل من التحريف والتبديل في الكتب المتقدمة ، وإخبار عن القرآن العظيم وما فيه من النور المبين ، وطريق السعادتين في الدنيا والآخرة.

فعن قتادة: (﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا ﴾: وهو محمد ﷺ).

وعن عكرمة عن ابن عباس قال: (من كفر بالرجم ، فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب. قوله: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ ، فكان الرجم مما أخفوا) رواه ابن جرير والحاكم.

وقوله: ﴿ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾. أي يسكت عن أشياء أخرى مما غيّروا وبدلوا وحرّفوا لا فائدة ببيانها.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾.

قال ابن جرير: (يعني بالنور محمداً ﷺ الذي أنار الله به الحق، وأظهر به الإسلام، ومحق به الشرك،.. ومن إنارته الحق، تبيينه لليهود كثيراً مما كانوا يخفون من الكتاب. وقوله: ﴿ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾، يقول جل ثناؤه: قد جاءكم من الله تعالى النور الذي أنار لكم به معالم الحق، ﴿ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾، يعني كتاباً فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم: من توحيد الله، وحلاله وحرامه، وشرائع دينه، وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد ﷺ، يبيّن للناس جميع ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، ويوضحه لهم، حتى يعرفوا حقَّه من باطله).

وعن السدي: (﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾، سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه، وابتعث به رسله، وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا به، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية).

قال القرطبي: (قوله ﴿ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ أي: ما رضيه. ﴿ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾: طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة، والمؤمنة من كل مخافة، وهي الجنة).

وقوله: ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

أي من ظلمات الجاهلية والكفر إلى نور الحق والإسلام.

وقوله: ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾.

قال ابن جرير: (تحبيبُه إياه الإيمان، برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سُبل السلام).

فمن باشر السير في طريق رضوان الله سبحانه، هيّأ له سُبلاً من الخير والتوفيق والإلهام، وأسباباً لسعادة الدنيا والآخرة.

وأصل الهداية في لغة العرب من الهدى، وهو الرشاد والدلالة، وهو يذكر ويؤنث.

والهداية هنا تعني هداية التوفيق والإلهام، وهي هداية خاصة بالمؤمنين الذين صدقواالرسل واتبعوهم، وصار لهم قدم صدق في الإسلام والإيمان والإحسان، وتعلقت قلوبهم بالله ومحابه، فهناك يكرمهم ربهم تباركت أسماؤه وصفاته بهداية خاصة بعدهداية الدلالة والإرشاد. فإن مراتب الهداية كما وردت في الكتاب والسنة:

1 ـ هداية الخلق العامة.

2 ـ هداية الدلالة والإرشاد.

3 ـ هداية التوفيق والإلهام.

4 ـ هداية إلى طريق الجنة يوم القيامة.

فقوله هنا: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ هو كقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. وكقوله في سورة مريم: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: 76].

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالى قال: من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعْطِيَنَّهُ، وإن استعاذني لأعيذنه، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته][1].

وقوله: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: يرشدهم إلى دين الله القويم، ويسدّد خُطاهم إليه، وينجيهم من فساد واعوجاج بقية المسالك، فليس بعد الحق إلا الضلال.

17 - 18. قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (231/4)، والبغوي في شرح السنة (2/142/1)، ويشهد له ما في مسند الإمام أحمد (256/6)، وانظر تمام بحث الهداية في كتابي: أصل الدين والإيمان (900/2).

مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآيات: حكم الله في الذين ادعوا الألوهية في عيسى عليه الصلاة والسلام، وإثبات عبودية المسيح وأمه لله الملك سبحانه، وتكذيب الذين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه من أهل الكتابين، وإثبات العذاب على المكذبين بالله ورسله وتوحيده يوم القيامة.

فقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ﴾.

قال القرطبي: (وكفر النصارى في دلالة هذا الكلام إنما كان بقولهم: إن الله هو المسيح بن مريم على جهة الدينونة به، لأنهم لو قالوه على جهة الحكاية منكرين له لم يكفروا).

وقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ﴾. أي: أخبر الله المسيح عليه الصلاة والسلام أن لو كان إلهاً لقدر على دفع الضرّ عنه مما أصابه، فقد أمات أمه ولم يتمكن من دفع ذلك عنها، وكذلك لو أراد سبحانه إهلاكه وإهلاك جميع أهل الأرض.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: كل المخلوقات والموجودات في هذا الكون الفسيح تحت تصرفه سبحانه وفي ملكه ينفذ فيها أمره، فلو كان المسيح وأمه إلهين فأين سيكونان؟ إن المسيح وأمه ﴿بَيْنَهُمَاۚ﴾ أي مخلوقان محصوران بين السماوات والأرض، وما أحاط به الحدّ والنهاية لا يصلح للإلهية، والله وحده على كل شيء قدير.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾.

فرأوا لأنفسهم فضلاً وشرفاً. قال ابن عباس: (خوّف رسول الله ﷺ قوماً من اليهود العقاب فقالوا: لا نخاف فإنا أبناء الله وأحِبّاؤه، فنزلت الآية).

قال ابن كثير: (أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبُّنا. ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكري». فحملوا هذا على غير تأويله وحرّفوه. وقد ردّ عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يُطلَقُ عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني: ربِّي وربِّكم. ومعلوم أنهم لم يدّعوا لأنفسهم من البُنُوَّةِ ما ادعوها في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك مَعَزَّتهم لديه وحُظْوَتَهم عنده، ولهذا قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه).

وقوله: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ ﴾. تكذيب لهم من الله في ادعائهم.
وفيه أكثر من تأويل:

1 ـ التأويل الأول: قيل معنى ﴿ يُعَذِّبُكُم ﴾ عَذَّبكم. أي حين مسخهم قردة وخنازير. ذكره القرطبي.

2 ـ التأويل الثاني: قيل فلم أعدّ لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم. ذكره ابن كثير.

3 ـ التأويل الثالث: هو اعتراف اليهود أن الله سيعذبهم أربعين يوماً عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل. ذكره ابن جرير.

قلت: والبيان الإلهي يحتمل بإعجازه كل ما سبق ذكره. والسنة الصحيحة تؤيده في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن حبان في صحيحه، والطبراني في «المعجم الكبير» بإسناد صحيح عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [الحيَّات مسخُ الجن، كما مُسِخَت القردة والخنازير من بني إسرائيل][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: [لما فُتحت خَيْبَرُ أُهديت للنبي ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: اجمعوا إليَّ من كان هاهنا من يهود. فجمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادِقيَّ عنه. فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان، فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان.

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (1080)، والطبراني في «المعجم الكبير» (11946). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1824)، وصحيح الجامع الصغير (3198).

قالوا: صدقت. قال: فهل أنتم صادِقِيَّ عن شيءٍ إن سألْتُ عنه؟ فقالوا: نعم ياأبا القاسم، وإن كذبنا عَرَفْتَ كَذِبَنا كما عرفْتَه في أبينا، فقال لهم: مَنْ أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تَخْلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسؤوا فيها، واللهِ لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال: هل أنتم صادِقِيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، قال: هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟ قالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يَضُرَّك][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: [والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولانصراني، ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار][2].

وقد استدل قوم بهذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ أن الحبيب لا يعذب حبيبه. وهذا استدلال طيب، فإن اليهود لو قالوا لا يعذبنا كذّبوا ما في كتبهم من أن الله سيعذب العصاة، ولو قالوا يعذبنا أقرّوا أنهم ليسوا أبناء الله وأحباءه.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: [مرّ النبي ﷺ بأناس من أصحابه، وصبي بين ظهراني الطريق، فلما رأت أمه الدواب خشيت على ابنها أن يوطأ، فسعت والهة، فقالت: ابني! ابني! فاحتملت ابنها، فقال القوم: يا نبي الله! ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، فقال رسول الله ﷺ: لا والله، لا يلقي اللهُ حبيبَه في النار][3].

وأخرج الإمام أحمد والبخاري من حديث عتبان بن مالك عن النبي ﷺ قال: [لن يُوافِيَ عَبْدٌ يوم القيامة يقول: لا إله إلا الله يبتغي بها وَجْهَ الله، إلا حَرَّمَ الله عليه النار][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب الجزية من صحيحه. انظر مختصر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (1281). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم: (20) ـ، وصحيح مسلم (93/1).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (177/4)، وأحمد (104/3)، وهو على شرط الشيخين.

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6423) ـ كتاب الرقاق. ورواه أحمد في المسند. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (5106).

وقوله: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾.

قال السدي: (يقول: يهدي منكم من يشاء في الدنيا فيغفر له، ويميت من يشاء منكم على كفره فيعذّبه).

وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18) ﴾.

أي جميع الخلق في هذا الكون ملك لله، والمرد إليه سبحانه لا محالة. وفيه تهديد ووعيد للمغترين بالأماني وفضائل الآباء والأسلاف كأولئك القائلين: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾.

19. قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19) ﴾.

في هذه الآية: الخطاب لأهل الكتابين في أن الله أرسل لهم محمداً ﷺ، وهو خاتم النبيين والمرسلين.

قال قتادة: (وهو محمد ﷺ، جاء بالفرقان الذي فَرَق الله به بين الحق والباطل، فيه بيان الله ونوره وهداه، وعصمةٌ لمن أخذ به).

وقوله: ﴿ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ ﴾.

أي على انقطاع من الرسل. وقد روى ابن جرير في التفسير قال: حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة قال: (كانت الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما، ذكر لنا أنها كانت ست مئة سنة، أو ما شاء من ذلك والله أعلم). ورواه البخاري عن سلمان الفارسي. وهناك أقوال أخرى ولكن ذكرت الراجح، وربما يعود اختلاف الأرقام بين المفسرين لاختلاف السنة الشمسية والقمرية. ثم إنه لم يكن بين عيسى عليه الصلاة والسلام ونبينا محمد ﷺ بعثة نبي.

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أنا أولى الناس بابن مريم، والأنبياءُ أولادُ عَلّات، ليس بيني وبينه نبيّ][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3442)ـ كتاب أحاديث الأنبياء. وانظر كذلك (3443).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السُّبُل، وتَغَيُّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمةُ به أتمَّ النعم، والحاجة إليه أمرٌ عَمَمٌ، فإن الفساد كان قد عمَّ جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهرَ في سائر العباد، إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعُبَّاد النصارى والصابئين).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن عياضِ بن حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ، أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خُطْبَتِهِ: [ألا! إن ربي أَمَرَني أن أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُم مِمَّا عَلَّمَني، يَوْمي هذا، كُلُّ مال نَحَلْتُهُ عبداً، حلالٌ، وإني خَلَقْتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنهم أَتَتْهُم الشياطين فاجْتالَتْهُم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأَمَرَتْهُم أن يُشركوا بي ما لَمْ أُنْزِلْ به سلطاناً، وإن الله نَظَرَ إلى أهل الأرض فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُم وعَجَمَهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بَعَثْتُك لأبتليك وأَبْتَلِيَ بك، وأَنْزَلْتُ عليك كِتاباً لا يَغْسِلُه الماءُ، تَقْرَؤُه نائِماً ويَقْظانَ، وإن الله أَمَرَني أن أُحَرِّقَ قُرَيْشاً، فقلتُ: ربِّ! إذن يَثْلَغُوا رأسي فيَدَعوه خُبْزَةً، فقال: استَخْرِجْهُم كما استخرجوك، واغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وأَنْفِقْ فَسَيُنْفَقَ عليك، وابْعَث جَيْشاً نبعثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وقاتِلْ بِمَنْ أطاعك من عصاكَ، قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سُلطان مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، ورجُلٌ رحيمٌ رقيقُ القلب لكل ذي قُربىٰ ومُسْلِم، وعفيفٌ ومُتعففٌ ذو عيال. قال: وأهل النار خَمْسَةٌ: الضعيفُ الذي لا زَبْرَ لَهُ، الذين هم فيكم تَبَعاً لا يَتْبَعونَ أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفىٰ لَهُ طَمَعٌ - وإن دَقَّ - إلا خانَهُ، ورجُلٌ لا يُصْبِحُ ولا يُمْسي إلا وهو يخادِعُكَ عنْ أهلِكَ ومالِكَ. وذكر البُخْلَ أو الكذِبَ وَالشِّنْظيرُ: «الفَحَّاشُ»][1].

وقوله: ﴿أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾.

أي كي لا تقولوا، أو أن لا تقولوا. قال ابن جرير: (كي لا تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير. يعلمهم عزّ ذكره أنه قد قطع عذرهم برسوله ﷺ، وأبلغ إليهم في الحجة).

والبشير المبشِّر بالثواب لمن أطاع الله وآمن برسوله، والنذير المنذر بالعقاب لمن عصى الله وكذب رسوله.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2865)، كتاب الجنة ونعيمها - باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ورواه أحمد (262/4)، والبيهقي (60/9).

وقوله: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

تأكيد لنبوة محمد ﷺ وإرساله إلى الأمم كافة، والله لا يعجزه مجازاة من أطاع، ولامعاقبة من كذب وتولى، فهو القادر على كل شيء، والفعال لما يريد.

20 - 26. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارٌ من الله عن تذكير موسىٰ عليه السلام قومه نعم الله المتراكمة عليهم في تتابع الأنبياء فيهم، وجمع الله أسباب الدنيا وخيرها عليهم، وجعلهم أشراف الناس في زمانهم. ثم تحريض موسىٰ عيه السلام لبني إسرائيل على الجهاد والدخول في بيت المقدس، الذي كان بأيديهم زمان أبيهم يعقوب عليه السلام، ويبشرهم بالنصر والظفر فنكلوا وعصوا، وتخوفوا قوماً جبارين فيها، حتى حرّضهم رجلان ممن يخاف أمر الله وحلول عقابه ولهم فيهم مهابة، بأنكم إن توكَّلْتُم على الله وواجهتم عدوكم ينصركم سبحانه، فنكلوا بأبشع وجه وقالوا لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾، فهنالك دعا موسىٰ ربه أن يقضي بينه وبينهم وقال لا أملك إلا نفسي وأخي، فحكم الله عليهم بتحريم دخولها مدة أربعين سنة يقعون في التيه ولا يهتدون للخروج منه. وتفصيل ذلك:

قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.

قال ابن عباس: (عافية الله عز وجل). وقال ابن عيينة: (أيادي الله عندكم وأيامه).

وقوله: ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: كلما هَلَكَ نبيٌّ قام فيكم نبيٌّ، من لَدُن أبيكم إبراهيم وإلى ما بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعُونَ إلى الله ويُحذرون نقمتَهَ، حتى خُتموا بعيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ ثم أوحىٰ الله إلى خاتم الرسل والأنبياء على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ، وهو أشرف من كل من تقدَّمه منهم، ﷺ).

وقوله: ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾.

قال ابن جرير: (سخّر لكم من غيركم خدماً يخدمونكم).

قال قتادة: (كنا نحدَّثُ أنهم أول من سُخِّر لهم الخدم من بني آدم وملكوا).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ قال: (الزوجة والخادم والبيت).

وقال: (كان الرجل من بني إسرائيل إذا كانت له الزوجة والخادم والدار يسمىٰ ملكاً). وعن السدي قال: (يملك الرجل منكم نفسه وأهلَه وماله).

وذكر الطبري بسنده إلى أبي عبد الرحمن الحُبُلي قال: (سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم! قال ألك مسكنٌ تسكُنُه؟ قال: نعم! قال: فأنت من الأغنياء! فقال: إن لي خادماً. قال: فأنت من الملوك) ـ ورواه مسلم[1].

أخرج الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن عبيد الله بن محصن، عن النبي ﷺ قال: [من أصبح منكم معافىً في جسده، آمِناً في سِرْبِهِ، عنده قوت يومِه، فكأنما حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها][2].

وقوله: ﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

كانوا أفضل أهل زمانهم، وأشرف من سائر بني آدم. كما قال تعالى في سورة

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2979) ـ كتاب الزهد. ورواه ابن جرير.

(2) حديث حسن. أخرجه الترمذي (2346)، وابن ماجة (4141)، وقال الترمذي: حَسَن غريب.

الجاثية: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾. وكذلك قوله في سورة البقرة: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

وعن مجاهد: (﴿ وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قال: المنّ والسلوى والحجر والغمام).

ولكن هذه الأمة أفضل عند الله منهم، وأشرف منزلة يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾. وذلك لحسن صحبتها لنبيّها محمد ﷺ يوم كان بين ظهرانيهم، ولبشائر استمرار طائفة على الحق في حراسة هذا الدين ومنهاجه في الأرض إلى يوم القيامة. فإلى ذكر بعض الأحاديث الصحيحة في ذلك:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يَضُرّهم من خَذَلَهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك](1).

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: [قام معاوية خطيباً فقال: أين علماؤكم؟ أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تقوم الساعة إلا وطائفة من أمتي ظاهرون على الناس، لا يبالون من خذلهم وَلا من نصرهم](2).

الحديث الثالث: أخرج أبو داود وأحمد بسند جيد عن أبي بردة عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [أمتي أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابُها في الدنيا الفتنُ والزلازل والقتل].

وفي لفظ: [أمتي هذه أمة مرحومة، ليس عليها عذاب في الآخرة، إنما عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل والبلايا](3).

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1920) ـ كتاب الإمارة. وانظر صحيح ابن ماجة (10).

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن. انظر صحيح ابن ماجة (9) ـ باب اتباع سنة رسول الله ﷺ، وأصله في صحيح مسلم (1037) من حديث عمير بن هانئ.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4278)، وأحمد (410/4)، (418/4)، والحاكم (444/4) وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وأقره الألباني، انظر السلسلة الصحيحة، حديث (959).

وقوله: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ ، فيه أقوال متكاملة ، مفادها أن الأرض المقدسة هي بيت المقدس.

1 ـ قال مجاهد: (﴿ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾: الطور وما حوله).

2 ـ قال قتادة: (﴿ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾: هي الشأم).

3 ـ قال ابن زيد: (﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ قال: أريحا) ـ والمراد بيت المقدس.

4 ـ وقيل: إن ﴿ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ ، دمشق وفلسطين وبعض الأرْدن. ذكره ابن جرير ، ثم روى عن مجاهد: (﴿ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ قال: المباركة).

قال ابن كثير: (قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس ، الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب ، لما ارتحل هو وبَنُوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف ـ عليه السلام ـ ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى ، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين ، قد استحوَذُوا عليها وتملكوها ، فأمرهم رسول الله موسى ـ عليه السلام ـ بالدخول إليها ، وبقتال أعدائهم ، وبَشَّرهم بالنصرة والظَّفَر عليهم ، فنكَلُوا وعَصَوا وخالفوا أمره ، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سَيْرهم حائرين ، لا يدرون كيف يتوجَّهونَ فيه إلى مَقْصِدٍ مُدّةَ أربعين سنة ، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى ، فقال تعالى مُخبراً عن موسى أنه قال: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ أي: المُطَهَّرَة).

وقوله: ﴿ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾.

قال القرطبي: (أي فرض دخولها عليكم ووعدكم دخولها وسكناها لكم). والمقصود أنَّ الله سبحانه قد وعدهم دخولها على لسان أبيهم إسرائيل أنه وراثةُ من آمن منكم.

وقوله: ﴿ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ ﴾.

تحذير لهم من تضييع الجهاد وتركه والركون إلى الدنيا. ولذلك قال: ﴿ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾.

فاعتذروا عن الدخول والقتال بقولهم إن فيها رجالاً عمالقة ذوي خِلَق هائلة وقوىً شديدة: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾. يريدون بذلك أن لا طاقة لهم على الصمود أمامهم ولامصاولتهم، فإن خرجوا دخلوها آمنين مستقرين. فلما نكلَ بنو إسرائيل عن طاعة الله ورسوله

موسىٰ ﷺ: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

أي حثّهم على الجهاد رجلان صالحان منهم ممن يخاف بأس الله وعقابه ، قد أنعم الله عليهما بالإيمان واليقين والصلاح ، فأشارا إلى بني إسرائيل أن لا يهولنَّكُم عظم أجسامهم فقلوبهم مُلئت رُعباً وحرصاً على الدنيا ، فالأجسام عظيمة والقلوب خاوية ضعيفة ، وهذا شأن الكفار على مدار الزمان ، فثقوا بالله وأقدموا ، وقد وعد الله المؤمنين المتوكلين عليه النصر والظفر.

فأجابوا مرة أخرى بالجبن والخوف ، وبالموقف المخزي في تاريخهم مع موسى عليه السلام الذين قاسىٰ منهم الكثير ، ومن ضعف إيمانهم وتردد قلوبهم وظهور النفاق الذي تكشفه الشدائد: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ .

ومن هنا تدرك أفضلية هذه الأمة ـ أمة محمد ﷺ ـ يوم عُرضت عليها الشدائد كما عرضت على بني إسرائيل قبلها ، فأجابوا بقوة الدين والصدق عند اللقاء ، النابع من علو الثقة بالله ونصره: (والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون). فإلى استعراض هذه الصفحات المشرقة والمواقف المشرفة من تاريخ هذه الأمة:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس: [أن رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان[1] قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه ، ثم تكلم عمر فأعرض عنه ، فقام سعد بن عبادة ، فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرْكِ الغُمَاد لفعلنا ، قال: فندب رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا][2].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن أنس: [أن

(1) يبدو أن هذه هي المشاورة الأولى في المدينة قبل الخروج إلى بدر ، شاور فيها كبار أصحابه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1779) ـ كتاب الجهاد والسير. وانظر كتابي: السيرة النبوية (531/1). وبرك الغماد: موضع بعيد باليمن ، وقيل بل هي مدينة بالحبشة.

رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عُمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشرَ الأنصار، إياكم يريدُ رسول الله ﷺ. قالوا: إذن لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾، والذي بعثك بالحق لو ضَرَبْتَ أكبادها إلى بَرْكِ الغُمَاد لاتبعناك][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والبخاري ـ واللفظ لأحمد ـ عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ رضي الله عنه: [لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبَه أحبُّ إليّ مما عُدِلَ به: أتى رسول الله وهو يدعو على المشركين، فقال: والله ـ يا رسول الله ـ لا نقولُ كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يَسارك، ومن بين يديك ومن خلفِكَ. فرأيت وَجْهَ رسول الله ﷺ يُشْرِقُ لذلك، وسَرَّه بذلك][2].

الحديث الرابع: يروي ابن إسحاق بسند صحيح إلى ابن عباس، وكذلك الطبراني بسند حسن، وبنحوه البيهقي وأحمد في خبر أحداث بدر، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: [وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم، فاستشار الناس[3]، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن. ثم قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثم قام المقدادُ بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ۝٢٤ ﴾. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْكِ الغُمَاد لجالدنا معك من دونه حتى تَبْلغه، فقال له رسول الله ﷺ خَيْراً، ودعا له به][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (105/3)، (188/3)، والنسائي في «التفسير» (161).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (389/1-390)، وانظر صحيح البخاري (3952)، (4609)، بلفظ قريب، وكذلك ما أخرجه النسائي في «التفسير» (160).

(3) وهذه هي الاستشارة الثانية من النبي ﷺ لأصحابه يوم بدر، وكانت قبل بدء المعركة.

(4) حديث صحيح. انظر سيرة ابن هشام (614/1-615) بإسناد صحيح، فقد صرح ابن إسحاق بالسماع. وأخرجه الطبراني بسند حسن. انظر تفصيل الروايات في كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (530/1-541).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيَّ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: اقض بيني وبينهم). وقال السدي: (غضب موسىٰ ﷺ حين قال له القوم: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾، فدعا عليهم فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيَّ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾).

والمعنى: لقد غضب موسىٰ عليه الصلاة والسلام حين أظهروا الخوار والضعف وعدم الأهلية لحمل الأمانة وراية الجهاد، فقال داعياً: رب إني لا أقدر على أحد أن أحمله على أمرك لقتال عدوك إلا نفسي وأخي، فافصل بيننا وبين هؤلاء القوم الخارجين عن طاعتك بما تحب وترضىٰ لهم. فأجابه الله سبحانه:

﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾. أي: قضى الله عليهم أن حرّم عليهم ـ حين أبوا حَرْب الجبارين ـ دخول مدينتهم أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه، وقيل هنا حصل لهم من الخوارق العجيبة: كتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وإخراج الماء الجاري من صخرة صماء تُحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسىٰ بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجري لكل شَعْبٍ عين، والله تعالى أعلم.

وأصل التِّيه في لغة العرب الحَيرة، يقال: تاه يتيه إذا تَحَيَّرَ، والأرض التَّيْهاء هي الأرض التي لا يُهتدىٰ فيها، فكانت عقوبة من الله لبني إسرائيل مقابل نكولهم عن الجهاد وركونهم إلى الدنيا والشهوات، أن حرّم عليهم دخول مدينتهم أربعين سنة يتيهون، ثم فتحها عليهم وأسكنهموها وأهلك الجبارين بعد حرب منهم لهم، بعد انقضاء الأربعين سنة وخروجهم من التيه.

وعن السدي: (لما ضُرب عليهم التّيه، ندم موسىٰ ﷺ، فلما ندم أوحىٰ الله إليه: ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، لا تحزن على القوم الذين سمّيتهم فاسقين، فلم يحزن).

وهذه الآيات تحمل الدرس البليغ لهذه الأمة أَنَّ تركها الجهاد هو تشبه منها بأمة يهود التي حلّ بها غضب الله سبحانه وعقوبته، عندما جبنوا عن لقاء عدوهم، وخافوا على دنياهم، فالجهاد عِزُّ المسلمين وشوكتهم إلى يوم القيامة.

أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند صحيح عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: [عليكم

بالجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى ، فإنه باب من أبواب الجنة ، يُذهِبُ الله به الهَمَّ والغَمّ][1] .

27 - 31. **قوله تعالى** : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: بيان ما يؤول إليه البغي والحسد ، ويوقع الإنسان في شباك الندم ، وبيان مرتبة التقوى والصلاح وماتؤول إليه من القبول عند الله ، وبيان أثر إحداث المعصية في الأرض وما يؤول إليه من تراكم الآثام على محدث الذنب الأول. كل ذلك يرد في قصة ابن آدم القاتل الأول مع أخيه التقي المقتول.

فقوله : ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾ .

أي : اتل يا محمد على هؤلاء المكرة اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليكم ، وعلى أشباههم من الظلمة ، وعلى أصحابك كذلك خبرَ ابني آدم ـ قابيل وهابيل ـ ، وعرِّفهم بذلك ما يعقب الظلم من وخيم العاقبة وسوء المنقلب. وقوله : ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي على اليقين الذي لا يشوبه لبس أو كذب.

وقوله : ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ ﴾ .

قال ابن كثير : (وكان من خبرهما ، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى كان قد شرع لآدم ـ عليه السلام ـ أن يُزَوِّجَ بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن

---

1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «الأوسط». من طريق أبي أمامة ، والحاكم (2/74-75) من طريق عبادة بن الصامت. وانظر مسند أحمد (5/314) ، (5/326) ، وصحيح الجامع (3942).

قالوا: كان يُولَد له في كل بطن ذكرٌ وأنثى ، فكان يزوِّجُ أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيلَ دَمِيمةً ، وأخت قابيلَ وضيئةً ، فأراد أن يستأثِر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلا أن يقرِّبا قرباناً ، فمن تُقُبِّلَ منه فهي له ، فقرّبا فَتُقُبِّلَ من هابيل ولم يُتَقَبَّل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه).

وقوله: ﴿ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

قال قتادة: (ذكر لنا أنهما هابيل وقابيل. فأما هابيل ، فكان صاحب ماشية ، فعمدَ إلى خير ماشيته فتقرّب بها ، فنزلت عليه نار فأكلته ـ وكان القربان إذا تُقُبِّلَ منهم ، نزلت عليه نار فأكلته. وإذا رُدَّ عليهم أكلته الطّير والسباع ـ وأما قابيل ، فكان صاحب زرع ، فعمد إلى أردأ زرعه فتقرب به ، فلم تنزل عليه النار ، فحسد أخاه عند ذلك فقال: لأقتلنك! قال: إنما يتقبل الله من المتقين) ذكره ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (ما أنا بمنتصر ، ولأمسكنَّ يدي عنك). وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: ايم الله ، إن كان المقتول لأَشَدَّ الرجلين ، ولكن منعه التحرُّج أن يبسط إلى أخيه)[1]. والتحرج: الورع.

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. أي: أخاف في بسط يدي إليك لقتلك مالكَ الخلائق كلها عقوبته.

وقوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (إثم قتلي ، إلى إثمك الذي في عنقك).

وقال قتادة: (يقول: بقتلك إياي ، وإثمك قبل ذلك).

وقال مجاهد: (إني أريد أن يكون عليك خطيئتك ودمي ، تبوء بهما جميعاً).

وقوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ ﴾: شجعته على قتل أخيه).

(1) ذكره الطبري في التفسير بإسناده إلى عبد الله بن عمرو. انظر تفسير الطبري (11730).

وقال قتادة: (زينت له نفسه قتل أخيه فقَتله).

وأصل «طوّعت» من الطوع: وهو الانقياد. أي آتته نفسه وساعدته عليه. قيل: قتله بحديدة في يده، وقيل بل وجده نائماً فشدخ رأسه بصخرة، وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

أي في الدنيا والآخرة، فقد وقع في شباك ذنبه فلا رجوع ولا استئناف، إذ ترك نفسه للشيطان فتسلّط عليها حتى أوقعه.

وفي القصة فوائد كثيرة أخبرنا بها نبيّنا ﷺ:

الفائدة الأولى: تحريم التقاء المسلمين بالسلاح.

فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكرة عن النبي ﷺ قال: [إذا تواجَهَ المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار. قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بالُ المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه][1].

الفائدة الثانية: اعتزال الفتن وعدم المشاركة فيها.

فقد أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: [إن بينَ يدي الساعةِ فِتَناً كَقِطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، القاعدُ فيها خير من القائم، والماشي فيها خيرٌ من الساعي، فكسروا قسيكم، وقَطعوا أوتاركُمْ، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دُخِل ـ يعني: على أحد منكم ـ فليكن كخير ابْنَي آدم][2].

وفي مسند الإمام أحمد عن بُسْر بن سعيد، أن سَعْدَ بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: [إنها ستكون فتنة، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ خيرٌ من الماشي، والماشي خيرٌ من الساعي. قال: أفرأيت إن دَخَلَ عليَّ بيتي

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (31)، (7083)، وأخرجه مسلم برقم (2888)، ورواه أحمد في المسند (46/7)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3582) ـ باب في النهي عن السعي في الفتنة، وسنن ابن ماجة (3961). من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فبسط يده إلي ليقتلني؟! قال: كن كابن آدم][1]. ورواه أبو داود من طريقه عن يزيد بن خالد الرملي عن المفضَّل عن عيّاش بن عباس عن بُكير عن بُسر. وقال فيه: [وتلا يزيد: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾].

الفائدة الثالثة: لزوم الصبر عند اختلاط الأمور، وبيت الرجل خير له من مشاهدة الفتن، والتماس التقوىٰ والعمل الصالح للنجاة.

أخرج أبو داود وابن ماجة عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: [يا أبا ذر! قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال: كيف أنت إذا أصاب الناسَ موتٌ يكون البيت فيه بالوصيف ـ وفي لفظ: بالعَبْدِ: يعني القبر ـ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، أو قال: ما خار الله لي ورسوله، قال: عليك بالصَّبْر. أو قال: تَصْبر. ثم قال لي: يا أبا ذر! قلت: لبيك وسعديك، قال: كيف أنت إذا رأيت أحْجار الزيت[2]، قد غرقت بالدم؟ قلت: ما خار الله لي ورسوله، قال: عليك بمن أنت منه. قلت: يا رسول الله أفلا آخذ سيفي وأضعه على عاتقي؟ قال: شاركت القومَ إذنْ. قلت: فما تأمرني؟ قال: تَلْزمُ بيتك. قلت: فإن دُخِلَ علىٰ بيتي؟ قال: فإن خشيت أن يَبْهَرَكَ شعاعُ السيف، فألقِ ثوبك على وجهك، يبوءُ بإثمك وإثمه][3].

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [إن بين أيديكم فِتناً كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل فيها مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: كونوا أحلاس بيوتكم][4].

وفيه من حديث المقداد بن الأسود قال: ايم الله! لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (185/1)، والترمذي في الجامع (2195)، وقال: حديث حسن، بل هو صحيح لكثرة شواهده، وانظر للرواية بعده سنن أبي داود (4257)، وكذلك مسند أحمد (168/1-169). وصحيح أبي داود (3581) ـ باب النهي عن السعي في الفتنة. ولبعضها شواهد في صحيح الإمام مسلم.

(2) موضع في الحرة ـ خارج المدينة المنورة ـ، أحجاره فيها لمعان.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود(4261) ـ الباب السابق. انظر صحيح أبي داود (3583)، وصحيح ابن ماجة (3197)، باب التثبت في الفتنة. والوصيف: القبر. والمعنى: يكون العبد قيمة للقبر بسبب كثرة الأموات، أو يباع البيت بالعبد لقلة من يسكنه من كثرة الموت.

(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4262)، وانظر صحيح أبي داود ـ حديث (3584).

[إن السعيدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَن ، إن السعيد لمن جُنِّبَ الفتن ، إن السعيد لمن جنب الفتن ، ولمن ابتلي فصبَرَ فواهاً][1] .

الفائدة الرابعة : تعلّق الآثام بمحدثها ومن سنّ أمرها .

فهذا ابن آدم الأول القاتل يتحمل تبعة كل قتل ظلم في الأرض إلى يوم القيامة .

فقد أخرج البخاري ومسلم عن مسروق ، عن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : [لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دَمِها ، لأنه أوَّلُ من سَنَّ القتل][2] .

وفي لفظ : [ليس من نفس تُقْتَلُ ظُلْماً إلا كان على ابن آدمَ الأولِ كِفْلٌ منها ـ وفي رواية : من دمها ـ لأنه سنَّ القتل أولاً] .

وفي صحيح مسلم من حديث المنذر بن جرير ، عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : [من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة ، فله أجْرُها ، وأجْرُ من عَمِلَ بها بعدَه ، من غيرِ أن ينقُصَ من أجورهم شيءٌ ، ومنْ سَنَّ في الإسلام سنَّةً سيئة ، كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ من عمِلَ بها من بعدِه ، مِنْ غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيءٌ][3] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ .

قال السدي : (لما مات الغلام تركه بالعراء ، ولا يعلم كيف يُدفن ، فبعث الله غرابين أخَوين ، فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر له ثم حثا عليه) .

وقال ابن عباس : (جاء غراب إلى غراب مَيّت ، فبحث عليه من التراب حتى واراه ، فقال الذي قتل أخاه : ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود في السنن (4263) ، وإسناده صحيح على شرط مسلم . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (975) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (3335) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ، وكذلك (7321) للرواية الثانية ، وأخرجه مسلم (1677) ، والترمذي (2673) ، وأحمد (382/1) ، وغيرهم .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1017) ـ كتاب الزكاة ، وكذلك في كتاب العلم ، ورواه أكثر أهل السنن . من حديث المنذر بن جرير عن أبيه مرفوعاً .

وقوله: ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾.

قال القرطبي: (حيث رأى إكرام الله هابيل بأن قيض له الغراب حتى واراه، ولم يكن ذلك ندم توبة. وقيل: إنما ندمه كان على فقده لا على قتله، وإن كان فلم يكن موفياً شروطه. أو ندم ولم يستمر ندمه).

قال ابن عباس: (ولو كانت ندامته على قتله لكانت الندامة توبة منه).

قلت: ويؤيد هذا ما أخرج الطبراني عن أبي سعيد الأنصاري، عن النبي ﷺ قال: [الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له][1].

فلو استوفى العبد شروط التوبة ـ وأهمها الندم على ما وقع منه يعقبه الاستغفار والعزم على ألا يعود، تاب الله عليه وقبل منه.

32 ـ 34. قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾.

في هـذه الآيات: تشريع القصاص على بني إسرائيل من أثر جناية ابن آدم القاتل ظلماً، وبأنَّ سفْكَ دَمٍ ظلماً هو بمثابة سفك للدماء وانتشار للفساد والهرج في الأرض إن لم يُردع بحد القصاص، فحياة النفس هي حياة للنفوس جميعاً، ثم في الآيات تشريع حد المحاربة والإفساد في الأرض: القتل والصلب وقطع اليد والرِّجل من خلاف

(1) حديث حسن. أخرجه الطبراني في «الكبير»، وأبو نعيم في الحلية. انظر صحيح الجامع (6679).

أو النفي من الأرض حسب المصلحة التي يراها الحاكم المسلم خزياً وردعاً للمفسدين، ثم من لم يتب فينتظره في الآخرة عذاب عظيم.

فقوله: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ﴾.

أي: من جريرة وجناية القاتل الأول من ولد آدم أخاه ظلماً وعدواناً.

وقوله: ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ـ أي شرعنا القصاص لهم.

قال الضحاك: (﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾، يقول: من أجل ابن آدم الذي قتل أخاه ظلماً).

وقوله: ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

فيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: من قتل نبياً أو إماماً عادلاً فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن شدّ على عضد نبي أو إمام عدل، فكأنما أحيا الناس جميعاً.

قال ابن عباس: (من شدّ على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً، ومن قتل نبيّاً أو إمام عدل، فكأنما قتل الناس جميعاً).

وقال: (يقول: من قتل نفساً واحدة حَرّمْتُها، فهو مثل من قتل الناس جميعاً، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ يقول: من ترك قتل نفس واحدة حرمتها مخافتي، واستحياها أن يقتلها، فهو مثل استحياء الناس جميعاً، يعني بذلك الأنبياء).

التأويل الثاني: من قتل نفساً ظلماً فكأنه قتل الناس جميعاً عند المقتول في الإثم، والعكس بالعكس.

يروي ابن جرير بسنده عن مرة الهمداني، عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: (قوله: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، عند المقتول، يقول في الإثم، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾، فاستنقذها من هلكة، ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، عند المستنقَذ).

التأويل الثالث: قاتل النفس ظلماً يصلى النار كما يصلاها لو قتل الناس جميعاً.

قال مجاهد: (لو قتل الناس جميعاً، كان جزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه

ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً). وقال: (يصير إلى جهنم بقتل المؤمن، كما أنه لو قتل الناس جميعاً لصار إلى جهنم). وقال: (من لم يقتل أحداً فقد استراح الناس منه).

التأويل الرابع: القصاص الواجب على القاتل للنفس ظلماً مثل الذي يجب عليه لو قتل الناس جميعاً.

قال ابن زيد: (يجب عليه من القتل مثلُ لو أنه قتل الناس جميعاً).

وقوله: ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا** ﴾. أي: من عفا عمن وجب له القِصاص منه فلم يقتله.

قال الحسن: (مَنْ قُتِلَ حَميمٌ له فعفا عن دمه).

التأويل الخامس: ﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا** ﴾ ـ أي من أنجاها من غرق أو حرق.

قال مجاهد: (﴿ **وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا** ﴾ قال: من أنجاها من غَرَق أو حَرَقٍ أو هَلَكة). أو قال: (من غَرَقٍ أو حَرَقٍ أو هَدَمٍ).

وقال الضحاك: (لو لم يقتله لكان قد أحيا الناس، فلم يستحلّ محرماً).

قلت: وكلها تدل على آفاق المعنى، وتزيد في بيان أبعاده ومعانيه.

وإن كان الأظهر منها ـ كما قال سعيد بن جبير: (من استحل دم مسلم فكأنما استحلّ دماء الناس جميعاً، ومن حَرّم دمَ مسلم فكأنما حَرّم دماء الناس جميعاً).

ويدل عليه قول النبي ﷺ: [المسلمون تتكافأ دماؤهم].

فقد أخرج أبو داود وابن ماجة بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [المُسلمون تتكافأ دماؤهم: يسعى بذمَّتِهم أدناهم، ويجير عَليهم أقصاهم، وهم يَدٌ على من سواهم، يَرُد مُشِدُّهُمْ على مُضْعِفِهم، ومُتَسرعهم على قاعِدهم، لا يُقْتَلُ مؤمن بكافر، ولا ذو عَهْد في عهده][1].

وذكر ابن جرير بإسناده عن سليمان بن علي الربعي قال: (قلت للحسن: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ** ﴾ الآية، أهي لنا يا أبا سعيد، كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره، كما كانت لبني إسرائيل! وما جعل دماءَ بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا).

---

(1) حديث حسن صحيح. أخرجه أبو دواد في السنن من حديث عبد الله بن عمرو. انظر صحيح أبي داود (2390) ـ كتاب الجهاد ـ باب في السرية. ورواه ابن ماجة (2683).

وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي من حديث عثمان ، عن النبي عليه الصلاة والسلام ، قال: [لا يحل دمُ امرئٍ مسلم إلا بإحدى ثلاثٍ: رجل زنىٰ بعدَ إحصان ، أو ارتد بعد إسلام ، أو قتل نفساً بغير حق ، فيقتل به][1] .

وأصله في الصحيحين والمسند والسنن من حديث ابن مسعود ، قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفس بالنفس ، والثيِّبُ الزاني ، والمفارق لدينه التاركُ للجماعة][2] .

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ .

أي بالآيات الواضحات ، والأدلة والحجج والبراهين القاطعات .

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ .

يعني اليهود من بني إسرائيل كما ذكر ابن جرير .

قال ابن كثير: (وهذا تقريع لهم وتوبيخٌ على ارتكابهم المحارِمَ بعد عِلْمِهم بها ، كما كانت بنو قُرَيظَةَ والنَّضير وغيرهم من بني قَيْنُقاع ممن حَوْل المدينة من اليهود ، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب في الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدَوا من أسروه، ووَدَوا من قتلوه) .

وقد عاب الله عليهم خيانة العهد والميثاق بذلك بقوله في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟

---

(1) حديث صحيح . ورواه أحمد والنسائي من حديث عائشة كذلك . انظر صحيح الجامع (7517) .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6878) ـ كتاب الديات . وأخرجه مسلم برقم ـ (1676) ـ كتاب القسامة والمحاربين ، باب ما يباح به دم المسلم ، وأخرجه أحمد وأهل السنن . انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (7519) .

﴿أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾. فيه سببان للنزول:

السبب الأول:

أخرج أبو داود بسند صحيح عن أنس بن مالك ـ في حديث العرنيين ـ قال فيه: [فبعث رسول الله ﷺ، في طلبهم قافَةً[1]، فأتي بهم، قال: فأنزل الله تبارك وتعالىٰ في ذلك: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية][2].

وأصله في الصحيحين من حديث أنس بن مالك: [أن نفراً من عُكْلٍ ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسَقِمت أجسامُهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها؟ فقالوا: بلى، فخرجوا، فشربوا من أبوالها وألبانها، فَصَحُّوا، فقتلوا الراعِيَ وطردوا الإبل. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم، فأُدْرِكوا، فجيء بهم، فَأَمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِرت أعينهم، ثم نُبِذُوا في الشمس حتى ماتوا][3]. وفي لفظ لهما: [من عُكل أو عُرينة]. وفي لفظ عند البخاري وأبي داود:

قال أبو قلابة: (فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله).

وقال أنس: (فلقد رأيت أحدهم يَكْدِمُ الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا).

وفي لفظ لمسلم والنسائي عن أنس قال: (إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك، لأنهم سَملوا أعين الرعاة)[4]. وفي لفظ لأبي داود عن ابن عمر قال: (ونزلت فيهم آية المحاربة).

وقوله: (سمل أعينهم): أي فقأ أعينهم بمسمار أو حديدة محماة. وثبت في صحيح البخاري: أن النبي ﷺ: [أمر بمسامير فأحميت فَكَحلهم].

---

(1) القائف: الذي يعرف الآثار، والجمع: القافَة. يقال: قافَ أثره إذا تبعه، مثل قفا أثره.
(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4366). انظر صحيح سنن أبي داود (3670) ـ باب في المحاربة.
(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (233) و(1501)، (4192)، وأخرجه مسلم (1671)، وأبو داود (4364)، والنسائي (94/7)، وأحمد (198/3)، وغيرهم.
(4) حديث صحيح. انظر صحيح سنن النسائي (3773)، ورواه مسلم. وانظر لرواية ابن عمر بعدها ـ حديث رقم ـ (3674) من صحيح أبي داود.

السبب الثاني:

أخرج أبو داود والنسائي واللفظ للنسائي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية قال: [نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يُقدر عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست هذه الآية للرجل المسلم، فمن قتل وأفسد في الأرض، وحارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يُقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يُقام فيه الحَدُّ الذي أصاب][1].

والمحاربة: هي المضادّة والمخالفة. قال ابن كثير: (وهي صادِقَةٌ على الكفر، وعلى قَطْعِ الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يُطلق على أنواع من الشر). وقد جاء في تفسيرها أقوال متقاربة ومتكاملة:

1 ـ قال قتادة وعطاء: (هذا اللص الذي يقطع الطريق، فهو محارب) ـ وهو قول لأوزاعي.

2 ـ قال الوليد بن مسلم: وأخبرني مالك: (أن قتل الغيلة عنده بمنزلة المحاربة). لت: وما قتل الغيلَة؟ قال: (هو الرجل يخدَع الرجلَ والصبيَّ فيدخِله بيتاً أو يخلو به، يقتله، ويأخذ ماله. فالإمام وليّ قتل هذا، وليس لولي الدم والجرح قَوَد لا قصاص). وهو قول الشافعي.

3 ـ قال مجاهد: (الزنا، والسرقة، وقتل الناس، وإهلاك الحرث والنسل).

4 ـ قال أبو حنيفة: (لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا، لأنه يلحقه الغوثُ إذا استغاث، بخلاف الطريق لِبُعده ممن يُغِيثُه ويُعينه).

قلت: والراجح أن الحرابة هي خروج طائفة مسلمة في دار الإسلام، لإحداث الفوضى، وسفك الدماء وسلب الأموال، وهتك الأعراض، وإهلاك الحرث والنسل، متحدِّية بذلك الدين والأخلاق والنظام والقانون[2].

وقوله: ﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

يبدو أن الأمر للتخيير، وهو يرجع إلى قرار الحاكم المسلم، وبه قال الإمام مالك.

---

(1) صحيح الإسناد. انظر صحيح سنن النسائي (3776)، وصحيح سنن أبي داود (3675).

(2) انظر فقه السنة (393/2)، وكتاب «الوجيز» ص (444) في حدّ الحرابة.

قال ابن عباس: (من شهر السلاح في قبّة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظُفِرَ به وقُدِر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله). وقال الحسن: (ذلك إلى الإمام).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا التخيير. فقد أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: [لا يحِلُّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: رجل زنىٰ بعد إحصان فإنه يرجم، ورجل خرج محارباً لله ورسوله، فإنه يقتل، أو يصلب، أو ينفى من الأرض، أو يقتل نفساً فيقتل بها][1].

وقد وَرَدَتْ «أو» في موضع التخيير كثيراً من القرآن، من ذلك:

1 ـ في جزاء الصيد. قال تعالى: ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا . . . ﴾ [المائدة: 95].

2 ـ في كفارة الفدية. قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ . . . ﴾ [البقرة: 196].

3 ـ في كفارة اليمين. قال تعالى: ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ . . . ﴾ [المائدة: 89].

واختلف الفقهاء هل يُصَلَّبُ حياً ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب أو يُقتل ثم يُصَلَّب تنكيلاً وتشديداً وعبرة لغيره من المفسدين. والذي يبدو لي أنه راجع إلى قرار الحاكم من خلال رؤيته لطبيعة إفساده أو مماثلته بصنيع مثل صنيعه ـ والله تعالى أعلم.

وأما النفي من الأرض فيه أقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (نفيُه أن يطلب). وقال الزهري: (نفيه أن يُطلب فلا يقدر عليه، كلما سُمِعَ به في أرض طُلِبَ).

2 ـ قال سعيد بن جبير: (من أخاف سبيل المسلمين، نُفي من بلده إلى غيره، لقول

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن من حديث عائشة. انظر صحيح سنن أبي داود (3659) ـ كتاب الحدود ـ باب الحكم فيمن ارتد. وصحيح النسائي (4418).

الله جل وعز: ﴿ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾). وقال الضحاك: (إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام).

3 ـ وقيل: (النفي من الأرض هنا الحبس) ـ وهو قول أبي حنيفة.

قال ابن جرير: (هو نفيه من بلد إلى بلد غيره، وحبْسُه في السجن في البلد الذي نفي إليه، حتى تظهرتوبته من فسوقه، ونُزُوعه عن معصية ربِّه).

قلت: وكل ما سبق محتمل، والقرار في اختيار الشكل يعود للحاكم.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي هو لهؤلاء المحاربين شر وعار ونكال وذلة وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة، فإن لم يتوبوا كان ينتظرهم عذاب أشد خزياً في نار جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

هذه الآية تؤيد أن المحاربة هي من خروج طائفة مسلمة في دار الإسلام لإحداث الفوضى من سفكٍ للدماء أو سلبٍ للأموال، أو هَتْكٍ للأعراض، أو غير ذلك على ما سبق بيانه. قال القرطبي: (ومعلوم أن الكفار لا تختلف أحوالهم في زوال العقوبة عنهم بالتوبة بعد القدرة كما تسقط قبل القدرة. والمرتد يستحق القتل بنفس الردة ـ دون المحاربة ـ ولا يُنفى ولا تُقطع يده ولا رجله ولا يخلّىٰ سبيله بل يقتل إن لم يُسلم، ولا يصلب أيضاً).

وقال القاسمي: (دلّ قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ على أن توبة المحاربين قبل الظفر بهم تسقط عنهم حد المحاربين المذكور في الآية. سواء كانوا مشركين أو مسلمين).

وقال ابن كثير: (أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك، فظاهر). أي: فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم، سقط عنهم جميع الحدود المذكورة. فلا يطالبون بشيء مما أصابوا من مالٍ أو دم. قال: (وأما المحاربون المسلمون، فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القَتْل والصَّلْب وقطع الرجل، وهل يسقط قطعُ اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة).

قال القرطبي: (استثنى جل وعز التائبين قبل أن يقدر عليهم، وأخبر بسقوط حقه

عنهم بقوله: ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾. أما القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط).

وفي مذهب الشافعي أن ما تعلق به حقّ الآدمي قصاصاً كان أو غيره فإنه لا يسقط بالتوبة قبل القدرة عليه.

قلت: وهذا هو الراجح، فالحدود كفارات لأهلها وتبقى حقوق الآدميين.

أخرج الإمام البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: [تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفّىٰ منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه. قال: فبايعناه على ذلك][1].

35 ـ 37. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ۝٣٧ ﴾.

في هذه الآيات: أَمْرٌ من الله سبحانه المؤمنين بلزوم طاعته والخوف منه والتقرب إليه بالتقوى والعمل الصالح والجهاد، وإخبار منه جل ذكره عن خزي موقف الكفار يوم القيامة وهم يتمنون كل ما في الدنيا وأمثاله لو كان لديهم ليفتدوا به من عذاب جهنم وما الله بقابل ذلك، وقد قضىٰ عليهم لزوم عذاب السعير وبئس المصير.

وقوله: ﴿ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾. يعني القربة.

(1) حديث صحيح. انظر صحيح البخاري ـ حديث رقم ـ (3892) ـ كتاب مناقب الأنصار. وكتابي: السيرة النبوية (402/1) لتفصيل هذه البيعة.

وفي لغة العرب: توسلت إلى فلان بكذا، أي تقربت منه. وأقوال المفسرين على ذلك:

1 ـ قال عطاء: (﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾، قال: القربة). وقال أبو وائل: (القربة في الأعمال).

2 ـ وقال قتادة: (أي تقربوا إليه بطاعته والعملِ بما يرضيه).

3 ـ وعن السدي: (﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾، قال: فهي المسألة والقربة).

4 ـ وقال ابن زيد: (المحبّة، تحبّبوا إلى الله. وقرأ: ﴿ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾).

والوسيلة أيضاً هي منزلة خاصة برسول الله ﷺ يوم القيامة، جاءت الأحاديث الصحيحة تحث المؤمنين أن يسألوها لنبيّهم، لتنالهم شفاعته بإذن ربهم.

الحديث الأول: أخرج البخاري وأحمد وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال حين يَسْمَعُ النداء: اللهم ربّ هذه الدعوة التامة، والصلاةِ القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، إلا حَلَّت له الشفاعة يوم القيامة][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم وأحمد وأكثر أهل السنن عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه سمع النبي ﷺ يقول: [إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول، ثم صَلُّوا عليَّ، فإنه مَنْ صَلّىٰ عليَّ صلاةً صلّى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلةٌ في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكونَ أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حَلَّت عليه الشفاعة][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي سعيد، عن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (614)، وأبو داود (529)، والترمذي (211)، والنسائي (26/2)، (28/2)، وابن ماجة (722)، وأخرجه أحمد (354/3).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (384)، وأبو داود (523)، والترمذي (3614)، والنسائي (25/2)، وأخرجه أحمد (168/2)، والبيهقي (410/1)، وغيرهم.

النبي ﷺ قال: [الوسيلة درجة عند الله ، ليس فوقَها درجة ، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة][1] .

وقوله: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

أي: جاهدوا أيها المؤمنون أعداء الله الذين يحادون الله ورسوله ، والذين يعادون دينه وشرعه ويحولون دون ظهوره على الدين كله ، لعلكم تبلغون فلاح الدنيا وفلاح الآخرة.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [جاهدوا المشركين بأموالكم ، وأنفسكم وألسنتكم][2] .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ .

أخرج البخاري ومسلم عن أنس ، عن النبي ﷺ قال: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أنَّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تُشرك بي].

وفي لفظ آخر: [يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم! كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع ، فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم ، فيقول: كذبت ، قد أردت منك أهون من هذا ، وأنت في صلب (وفي رواية: ظهر) آدم ، أن لاتشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار ، فأبيت إلا الشرك ، فيؤمر به إلى النار][3] .

وفي التنزيل : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ . [الحج : 22].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي سعيد بسند صحيح. انظر صحيح الجامع (7028) ، وكذلك صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو (4/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (2504). انظر صحيح أبي داود (2186). ورواه أحمد ورواه النسائي وابن حبان والحاكم. انظر صحيح الجامع (3085).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. انظر مختصر صحيح مسلم (1955) ، وصحيح البخاري (3334) ، ومسند أحمد (127/3).

وكذلك قوله جلت عظمته: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: 20].

فلا مندوحة للكافر عن العذاب يوم القيامة ولا محيص له ولا مناص، فقد قضى الله تعالى ليملأن جهنم من المشركين والمجرمين، وأنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به، وأنَّ ذَهَبَ الأرض وكنوزها لا تنفع أحداً منهم يوم الحساب.

وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) ﴾.

أي عذاب دائم مستمر ثابت لا يزول عنهم ولا يتحول، هو للذين كفروا بربهم يوم القيامة.

يروي ابن جرير بسنده عن عكرمة: أن نافع بن الأزرق قال لابن عباس رحمه الله: أعمىٰ البصر أعمىٰ القلب، يزْعُمُ أن قوماً يخرجون من النار، وقد قال الله جل وعز: ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ﴾؟ فقال ابن عباس: (ويحك، اقرأ ما فوقها! هذه للكفار).

وفي صحيح مسلم عن سمرة بن جندب، أن النبي ﷺ قال: [منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوَته][1].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين منكبي الكافر في النار مسيرةُ ثلاثة أيام للراكب المسرع][2].

38 ـ 40. قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) ﴾.

في هذه الآيات: تشريع قطع يد السارق، وأنَّ الله يقبل توبته بعد سرقته إذا أناب

(1) حديث صحيح. رواه مسلم في الصحيح من حديث سمرة. انظر تفصيل الروايات في كتابي: أصل الدين والإيمان (766/2). وانظر مختصر صحيح مسلم (1953).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (8/ 154)، من حديث أبي هريرة مرفوعاً. وانظر مختصر صحيح مسلم (1983)، وله شاهد عند الترمذي. انظر صحيح الجامع (2110).

إلى الله وأصلح ، وأن الله له ملك كل شيء وهو الحكم وإليه المرجع في كل تشريع وفي كل أمر ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، وهو على كل شيء قدير .

السرقة : هي أخذ مال الغير على وجه الخفية والاستتار ، وهي من الكبائر ، وحدّها ثابت بالكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وأما السنة ففيها أحاديث :

الحديث الأول : أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : [أن رسول الله ﷺ قطع سارقاً في مِجَنٍّ قيمته ثلاثة دراهم](1) .

الحديث الثاني : أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [لَعَنَ الله السارقَ ، يَسرِقُ البيضة فتُقطعُ يده ، ويسرِقُ الحَبْلَ فتقطع يده](2) .

الحديث الثالث : أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : [لا تُقطعُ يد السارق إلا في رُبع دينار فصاعداً](3) .

فقه الأحاديث والمسألة :

1 ـ قال ابن المنذر : (وأجمعوا على أن قطع يد السارق يجب إذا شهد عليه بالسرقة شاهدان عدلان ، مسلمان حرّان)(4) .

فإذا سرق البالغ العاقل مختاراً فقد وجب عليه الحدُّ بإقراره أو بشهادة عدلين .

2 ـ ويشترط أن يبلغ المسروق نصاباً ، وأن يكون محروزاً .

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6795) ، (6798) ، ومسلم (1686) ، وأحمد (54/2) .
(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6799) ، (6783) ، ومسلم (1687) ، وأحمد (253/2) .
(3) حديث صحيح . أخرجه البخاري (6789) ، ومسلم (1684) ، وأبو داود (4362) ، وغيرهم .
(4) انظر الإجماع (140/621) ، وانظر كتاب : «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز» ص (443) .

قال ابن المنذر: (وأجمعوا أن القطع إنما يجب على من سرق ما يجب فيه قطعٌ من الحرز)[1].

والحرز هو ما يُصَانُ في مثله المال ويحفظُ، كالدار المغلقة، والخزانة، والمحل المغلق، ونحو ذلك.

قال صاحب «الروضة الندية» (277/2): (والحرز ما يعدُه الناس حرزاً لمثل ذلك المال، فالمتبن حرزٌ للتبن، والاصطبل للدواب، والمراح للغنم، والجرين للثمار).

والجرين: مثل البيدر للقمح، يجفف فيه التمر.

أخرج أبو داود بسند حسن عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ: أنه سُئِل عن الثَمر المعلق فقال: [من أصابَ بفِيهِ مِنْ ذي حاجَة، غَيْرَ مُتَّخِذٍ خُبْنَة، فلا شيء عليه، ومَنْ خَرَجَ بشيء منه فَعَلَيْه غَرامَةُ مِثْلَيْه[2] والعقوبة، ومَنْ سَرَقَ منه شيئاً بعد أن يؤوِيَه الجَرينُ فبلغ ثمن المجنِّ فعليه القطع][3]. والمجن: الترس.

3 ـ وللمسروق منه أن يعفو عن السارق قبل رفعه إلى السلطان.

فقد أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن صفوان بن أمية قال: [كنت نائماً في المسجد عَليَّ خميصة لي ثمنُ ثلاثين درهماً، فجاء رجل فاختلسها مني، فأُخذ الرجلُ فأُتي به رسول الله ﷺ فأُمِرَ به ليُقطَعَ. قال: فأتيتهُ، فقلت: أتقطعه من أجل ثلاثين درهماً، أنا أبيعه وأنسئه ثمنها؟ قال: فهلاّ كان هذا قبل أن تأتيني به][4].

وفي سنن النسائي وأبي داود بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ قال: [تَعافَوا الحدودَ فيما بينكم، فما بلغني من حَدٍّ فقد وجب][5].

4 ـ حكم تكرر السرقة من السارق.

قال صاحب «الروضة الندية» (279/2): (اتفق أهل العلم على أن السارق إذا سرق

---

(1) انظر الإجماع (139/615)، والمرجع السابق ص (443).
(2) وفي رواية: (ومن سرق دون ذلك فعليه غرامة مثليه والعقوبة).
(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم (3689) ـ باب ما لا قطع فيه.
(4) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4394). انظر صحيح أبي داود (3693). وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2103) ـ باب من سرق من الحرز.
(5) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (3680) ـ باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان، وانظر سنن النسائي (4885)، (4886)، وصحيح سنن النسائي (4538)، (4539).

أول مرة تقطع يده اليمنى ، ثم إذا سرق ثانياً تقطع رجله اليسرى ، واختلفوا فيما إذا سرق ثالثاً بعد قطع يده ورجله ، فذهب أكثرهم إلى أن تقطع يده اليسرى ـ قلت: قد صحّ هذا عن أبي بكر وعمر عند البيهقي (284/8) ـ ثم إذا سرق أيضاً تقطع رجله اليمنىٰ ، ثم إذا سرق أيضاً يعزّر ويحبس).

وقوله: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾.

قال قتادة: (لا تَرْثوا لهم أن تقيموا فيهم الحدود ، فإنه والله ما أمر الله بأمرٍ قطُّ إلا وهو صلاحٌ ، ولا نهىٰ عن أمرٍ قطُّ إلا وهو فساد).

وقوله: ﴿ نَكَٰلٗا ﴾.

أي: تنكيلاً من الله بهما مقابل ما اقترفاه. ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أي: في انتقامه من السارق والسارقة وأهل المعاصي والآثام. ﴿ حَكِيمٞ ﴾ في تشريعه وحكمه وقضائه.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾.

أي: من أناب إلى الله وتاب من هذا الصنيع وأصلح نفسه وزكاها بطاعة الله فإن الله يتوب عليه ، ولكن لا بد من ردّ الحقوق إلى أهلها.

أخرج النسائي بسند صحيح عن ابن عمر: [كانت امرأة مخزومية تَستعِيرُ متاعاً على ألسنة جاراتها وتجحَدُه ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها][1].

وفي لفظ آخر: [أن امرأة كانت تستعيرُ الحلي للناس ثم تمسكه ، فقال رسول الله ﷺ: لتتب هذِه المرأة إلى الله ورسوله وتَرُدَّ ما تأخذُ على القوم ، ثم قال رسول الله ﷺ: قُمْ يا بلال فخذ بيدها فاقطعها][2].

ويبدو أن المرأة قد تابت وحسنت توبتها ، بعد أن قطعت يدها.

ففي الصحيحين عن عائشة: [أن قُريشاً أهمهم شأنُ المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح ، فقالوا: من يُكَلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أسامةُ بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فأُتِيَ بها رسول الله ﷺ فكلَّمَهُ فيها أسامة بن زيد ، فتَلَوَّنَ وجْه رسول الله ﷺ فقال: أتشفعُ في حَدٍّ من حدود الله عز وجل؟ فقال له أسامة:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «الكبرى» (7375) ، وأبو داود في السنن (4395).

(2) حديث حسن. أخرجه النسائي في «الكبرىٰ» (7376) ، وله شواهد.

استغفِر لي يا رسول الله. فلما كان العَشِيّ قام رسول الله ﷺ فاختَطَبَ ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال: أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشريف تركوه ، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ ، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمةَ بنت محمد سَرَقَتْ لقطعتُ يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سَرَقَتْ فَقُطِعَتْ يدُها. قالت عائشة: فَحَسُنَتْ توبتُها بعدُ ، وتزوَّجت ، وكانت تأتي بعد ذلك ، فأرفع حاجتَها إلى رسول الله ﷺ][1].

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

أي: الله سبحانه هو المالك لجميع ما في هذا الكون ، وهو الحكم يحكم بين عباده، وشرعه أعلى من كل تشريع ،والرحمة والمغفرة أوالعذاب بأمره وحكمته، فيغفر لمن يشاء أو يعذب من يشاء ، وهو القادر على ذلك لا شريك له.

41 ـ 44. قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4375) ، ومسلم (1688) ، وأبو داود (4373) ، والترمذي (1430) ، والنسائي (8/73 - 74) ، وابن ماجة (2547) ، وغيرهم.

ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ (44) ﴾.

في هذه الآيات: التقريع على اليهود الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المتحاكمين لأهوائهم وما تعارفوا عليه في أقوامهم، المعرضين بذلك عن حدود الله وتعظيمها.

بيان أسباب النزول:

السبب الأول للنزول:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب قال: [مُرَّ على النبي ﷺ بيهوديٍّ مُحَمَّماً مَجْلوداً، فدعاهم فقال: هكذا تجدون حَدَّ الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أَنْشُدُكَ بالله الذي أَنْزَلَ التوراة على موسى! أهكذا تجدون حَدَّ الزاني في كِتابِكُم؟ قال: لا، ولولا أنك نَشَدْتني بهذا لم أخبركَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، ولكنه كَثُرَ في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف، أَقَمْنا عليه الحَدّ، قلنا: تَعالوا فلنَجْتَمِعْ على شيءٍ نُقيمُهُ على الشريف والوَضِيع، فجعلنا التحميم والجَلْدَ مكانَ الرَّجم، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أَوَّلُ من أَحْيا أَمْرَكَ إذ أماتوه. فأمَرَ به فَرُجم، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ** ﴾. يقول: ائتوا مُحَمَّداً ﷺ، فإن أَمَرَكُم بالتحميم والجَلْدِ فخذوه، وإن أفتاكم بالرَّجْم فاحذروا، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾. ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ في الكفّار كُلُّها][1].

السبب الثاني للنزول:

أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح عن ابن عباس، قال: [كان قريظة، والنضير، وكان النضيرُ أشرفَ من قريظة، فكان إذا قَتَلَ رجلٌ من قريظة رجلاً من

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1700) ـ كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة، في الزنى، وأخرجه أبو داود في السنن (4447)، والنسائي في الكبرىٰ (7218)، ورواه ابن ماجة (2558)، وأحمد (286/4).

النضير قُتِلَ به ، وإذا قَتَلَ رجلٌ من النضير رجلاً من قريظة ، فودِيَ بمئة وَسْقٍ من تمر . فلما بعث النبي ﷺ ، قتلَ رجلٌ من النضير رجلاً من قريظة ، فقالوا : ادفعوه إلينا نقتله ، فقالوا : بيننا وبينكم النبي ﷺ ، فائتوه ، فنزلت : ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾ ، والقسط : النفس بالنفس ، ثم نزلت : ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾][1] .

قلت : ولا مانع من اجتماع السببين معاً في نزول الآيات ـ والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

فيه أقوال يفسر بعضها بعضاً :

القول الأول: يروي ابن جرير بسنده عن علقمة ومسروق : (أنهما سألا ابنَ مسعود عن الرَّشوة ، فقال : مِنَ السُّحت . قال : فقالا : وفي الحُكم؟ قال : ذاك الكفر! ثم تلا : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾) .

القول الثاني: قال السُّدي :(يقول : ومن لم يحكم بما أنزلتُ ، فتركَه عمداً ، أو جار وهو يعلم ، فهو من الكافرين) .

القول الثالث: قال ابن عباس : (من جَحَد ما أنزل الله فقد كفر . ومن أقرَّ به ولم يحكم ، فهو ظالم فاسق) .

قلت : والفصل في هذه المسألة أن من ترك التحاكم لشرع الله جحوداً وعناداً فهو الكفر المخرج من الملة ، ومن تركه لشهوة أو ظلم مع إقراره به فهو كفر دون كفر . قال طاووس : (ليس بكفر ينقل عن المِلّة) . وقال ابن عباس : (ليس بالكفر الذي يذهبون إليه) . وقال في تفسير الآية : (هي به كفر) . وقال عطاء : (كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق) رواه ابن جرير . وقال ابن طاووس : (وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله) ذكره ابن كثير . وقد فصّلت في هذه المسألة في كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، في بحث توحيد التشريع ، فلله الحمد والمنة .

فائدة (1): الحكم بغير ماأنزل الله سبب إلى الفقر .

فقد أخرج الطبراني بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : [خمسٌ بخمس :

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أبو داود (4494) ـ كتاب الديات ، باب النفس بالنفس ، انظر صحيح أبي داود (3772) ، وأخرجه النسائي (8/18-19) ، والحاكم (4/366) ، والبيهقي (8/24) .

ما نقض قومٌ العهدَ إلا سُلِّطَ عليهم عدوُّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، ولا ظهرت فيهمُ الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طفَّفُوا المِكيال إلا مُنِعوا النبات ، وأُخِذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حُبِسَ عنهم القَطر][1] .

فائدة (2): ترك الحكام التحاكم لشرع الله هو عقوبة الله للأمة عند استهتارها. قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : 129] .

وفي المسند ومعجم الطبراني بسند صحيح عن عابس الغفاري ، عن النبي ﷺ قال : [بادروا بالأعمال سِتاً: إمارةَ السفهاء ، وكثرةَ الشُّرَط ، وبيعَ الحكم ، واستخفافاً بالدم ، وقطيعة الرحم ، ونشواً يتخذون القرآن مزاميرَ ، يقدمون أحدَهم ليغنيهم ، وإن كان أقلَّهم فِقْهاً][2] .

45 ـ 47. قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (45) وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (47) ﴾ .

في هذه الآيات: تأكيد على العدل في القصاص الذي أنكره اليهود وخالفوا كتابهم التوراة وفي نصه: أن النفس بالنفس ، أي: تقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ، وكذلك: العين بالعين ـ تفقأ عين المعتدي بالعين المفقوءة ـ والأنف بالأنف ـ يجدع الأنف بالأنف ـ وتقطع الأذن بالأذن ، وتقلع السن بالسن ، ويقتص من الجارح غَيْرَهُ ظلماً للمجروح ، فمن تصدق به فهو كفارة ـ للمجروح ـ وقيل للجارح ، ومن ترك

(1) حديث حسن. رواه الطبراني بإسناد حسن. انظر صحيح الجامع الصغير (3235).
(2) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (324/1) (1-2) ، والحاكم (443/3) ، وانظر مسند أحمد (494/3) ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (979).

التحاكم لما أنزل الله كان من الظالمين. وفي الآيات: أن عيسىٰ بن مريم جاء بالإنجيل من عند الله يُصَدّق التوراة في المنهج الذي ارتضاه الله لعباده في العبادة والتحاكم، فمن ترك التحاكم له من النصارى كان من الفاسقين. وتفصيل ذلك:

قوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾.

1 ـ يراعى في القصاص اختلاف الدين فلا يقتل مسلم بكافر.

أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يقتل مسلم بكافر][1].

2 ـ لا فرق بين الرجل والمرأة في القصاص.

فقد أخرج النسائي والحاكم: أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم: [أن الرجل يُقْتَلُ بالمرأة][2].

وقد مضىٰ قوله عليه السلام: [المسلمون تتكافأ دماؤهم] ـ أخرجه أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده[3].

3 ـ القصاص من حق الحاكم.

قال القرطبي: (لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولو الأمر، فرضٌ عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود، وغير ذلك).

وعلة ذلك ما ذكره الصاوي ـ حاشيته على الجلالين ـ قال:

(فحيث ثبت أن القتل عمداً عدوانٌ، وجب على الحاكم الشرعي أن يمكن ولي المقتول من القاتل، فيفعل فيه الحاكم ما يختاره الولي من القتل، أو العفو، أو الدية، ولا يجوز للولي التسلط على القاتل من غير إذن الحاكم، لأن فيه فساداً وتخريباً. فإذا قتله قبل إذن الحاكم عُزِّر)[4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (111)، ومسلم (1370)، وأحمد (81/1)، وأخرجه أبو داود في السنن (2035)، وغيرهم. من حديث علي رضي الله عنه.

(2) حديث حسن. أخرجه النسائي (8/57-58)، والحاكم (395/1)، والبيهقي (77/1-78).

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4531)، وابن ماجة (2659)، وأحمد (191/2)، وغيرهم.

(4) انظر: «فقه السنة» (453/2)، وكتاب: «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز» ص (457).

وقوله: ﴿ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾.

هذا الحكم وإن كان قد كتب على من قبلنا من أمم أهل الكتاب إلا أنه في التحقيق شرع لنا، وذلك لتقرير النبي ﷺ له في أمته.

ففي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [أن الرُّبَيِّع بنت النضر بن أنس كسرت ثنية جارية، ففرضوا عليهم الأَرْش، فأبوا إلا القصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله تكسر ثنية الربيع! والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال النبي ﷺ: يا أنس كتاب الله القصاص. فرضي القوم وعفوا. فقال رسول الله ﷺ: إن من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبَرّه][1].

وشروط القصاص فيما دون النفس:

1 ـ تكليف الجاني.

2 ـ تعمد الجناية. فالخطأ لا يوجب القصاص في النفس فما دونها أولىٰ.

3 ـ تكافؤ دم المجني عليه والجاني. فلا يقتص من مسلم جرح ذمياً، ولا من حرّ جرح عبداً، ولا من والد جرح ولداً.

شروط القصاص في الأطراف:

1 ـ إمكان الاستيفاء بلا حيف. بأن يكون القطع من مفصل كالمرفق والكوع.

2ـ المماثلة في الاسم والموضع. فلا تقطع يمين بيسار، ولا يسار بيمين، ولا خنصر ببنصر.

3 ـ استواء طرف الجاني والمجني عليه في الصحة والكمال. فلا يؤخذ عضو صحيح بعضو أشل، ولا يد صحيحة بيد ناقصة الأصابع، ويجوز العكس.

وأما دية الأعضاء.

إذا أتلف إنسان من آخر عضواً وجبت الدية كاملة، ولو أتلف أحد زوجي العضو وجب نصف الدية. فتجب الدية كاملة في الأنف، والعينين، وفي العين الواحدة

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2703)، والنسائي في «التفسير» (1650)، وابن ماجة (2649). ولفظ مسلم مقارب، انظر صحيح مسلم (1675)، ومسند أحمد (128/3)، (284/3).

نصفها ، وفي أصابع اليدين والرجلين الدية كاملة ، وفي كل أصبع عشر من الإبل ، وفي الأسنان كامل الدية ، وفي كل سن خمس من الإبل.

ففي سنن النسائي والبيهقي بسند صحيح لغيره عن عمر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

[في الأنف الدية إذا استُوعب جدعُه مئة من الإبل ، وفي اليد خمسون ، وفي الرجل خمسون ، وفي العين خمسون ، وفي الآمة ثلث النفس ، وفي الجائفة ثلث النفس ، وفي المنقلة خمس عشرة ، وفي الموضحة خمس ، وفي السنّ خمس ، وفي كل أصبع مما هنالك عشر][1].

الآمّة أو المأمومة: هي التي لا يبقى بينها وبين الدماغ إلا جلدة رقيقة. وفيها ثلث الدية.

الجائفة: هي كل ما يصل إلى الجوف: كبطن ، وظهر ، وصدر ، وحلق ، ومثانة. وفيها ثلث الدية أيضاً.

المُنَقِّلَة: هي التي ينقل منها العظم من موضع إلى موضع. وفيها خمس عشرة من الإبل.

المُوضِحة: هي الإصابة التي تبلغ إلىٰ العظم ، وفيها خمس من الإبل.

دية المرأة:

دية المرأة إذا قُتِلت خطأ نصف دية الرجل ، وكذلك دية أطرافها وجراحاتها على النصف من دية الرجل وجراحاته.

فعن شريح قال: [أتاني عروة البارقي من عند عمر أن جراحات الرجال والنساء تستوي في السن والموضحة ، وما فوق ذلك فدية المرأة على النصف من دية الرجل][2].

دية أهل الكتاب:

إن دية أهل الكتاب إذا قتلوا خطأ نصف دية المسلم ، فدية الذكر منهم نصف دية المسلم ، ودية المرأة من نسائهم نصف دية المرأة المسلمة.

---

(1) حديث صحيح بشواهده. انظر صحيح سنن النسائي (4513) ، والبيهقي (86/8).

(2) إسناده صحيح. انظر: تخريج «الإرواء» (307/7) ، وانظر كذلك كتاب: «الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز» ص (465).

ففي سنن الترمذي وابن ماجة بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: [أن رسول الله ﷺ قضىٰ أن عقل أهل الكتابين نصف عقل المسلمين، وهم اليهود والنصارىٰ][1].

وقوله: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾. أي: مقاصّة.

قال القرطبي: (ولا قصاص في كل مَخُوف ولا فيما لا يُوصَلُ إلى القصاص فيه إلا بأن يخطئ الضارب أو يزيد أو ينقص).

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن عمران بن حصين: [أنّ رجلاً عضَّ يد رجل فنزع يده فوقعت ثنيتاه فاختصما إلى النبي ﷺ فقال: «يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أخاهُ كَمَا يَعَضُّ الفَحْلُ، لا دِيَةَ لك». فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾][2].

وقوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾.

أي: تصدق بالقصاص فعفا فهو كفارة له، أي: للمتصدق. وقيل: بل كفارة للجارح فلا يؤاخذ بجنايته في الآخرة، والقول الأول أظهر وعليه أكثر الصحابة، وهو أحد قولي ابن عباس، والسنة الصحيحة تؤيده:

فقد أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: [ما من مسلم يصاب بشيء من جسده فيهبه إلاّ رفعه الله به درجة وحَطّ عنه به خطيئة][3].

وله شاهد عند النسائي عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما من رجل يُجْرَح مِن جسده جراحة، فيتصدَّق بها، إلا كفَّر الله عنه مثل ما تَصَدَّق به][4].

وشاهد آخر عند أحمد من حديث أبي هريرة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: [من أصيب بشيء من جسده، فتركه لله، كان كفارة له][5].

(1) حديث حسن. أخرجه الترمذي (1434)، وابن ماجة (2644)، والنسائي (45/8) نحوه.
(2) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن من حديث عمران بن حصين. انظر صحيح سنن الترمذي (1144) ـ أبواب الديات ـ باب القصاص. وأصله في الصحيحين.
(3) حديث حسن. أخرجه الترمذي(1393)، وابن ماجة (2693)، والطبري (12085).
(4) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «التفسير» (166)، وأحمد (316/5)، وهو صحيح لشواهده.
(5) أخرجه أحمد (412/5) ح (22983). انظر تخريج أحاديث تفسير ابن كثير ـ (2665) ـ المهدي.

قال ابن العربي: (والذي يقول إنه إذا عفا عنه المجروح عفا الله عنه لم يقم عليه دليل ، فلا معنىٰ له)[1].

وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

قال طاووس: (كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق).

والمقصود أن جحود التحاكم إلى الله وإنكاره بالكلية هو الكفر الثاني المخرج من الملة وهو الظلم والفسق الثاني الذي دونه الظلم الأول والفسق الأول.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

أي: أتبعنا عيسى بن مريم على آثار النبيين من قبله ، وبعثناه بالإنجيل مصدقاً لكتاب موسىٰ من قبل ، وفيه هدى للحق ، وهو نور لكشف الشبهات والمعضلات وحل المشكلات.

وقوله: ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

قال ابن جرير: (يقول: وزجراً لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال ، وتنبيهاً لهم عليه).

وقوله: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ ﴾ ـ أَمْرٌ لأهل الإنجيل أن يعظموا الوحي النازل إليهم من ربهم. وقوله ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ فيه قراءتان:

القراءة الأولى: ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بالنصب ـ قراءة جماعة من قراء الكوفة. والمعنى: وآتيناه الإنجيل كي يحكمَ أهلُهُ بِمَا فيه من حكم الله. أو: وآتيناه الإنجيل ليحكمَ أهل مِلّتِه به في زمانهم.

القراءة الثانية: ﴿ وَلْيَحْكُمْ ﴾ بتَسْكين اللام ـ قراءة قراء الحجاز والبصرة وبعض الكوفيين. أي: على وجه الأمر. والتقدير: وآتيناه الإنجيل وأمرنا أهله أن يحكموا بما فيه.

وكلاهما قراءتان مشهورتان ، ومن ثمّ فإن الآية تحتمل آفاق المعنيين ، وهذا من إعجاز هذا الكتاب الكريم.

---

1) ذكره القرطبي في التفسير. سورة المائدة ـ آية (45).

وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

قال ابن زيد: (الكاذبون). وقال: (كل شيء في القرآن إلا قليلاً «فاسق» فهو كاذب. وقرأ قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ﴾. قال: «الفاسق» هاهنا، كاذب).

قلت: والفسق يشمل أكثر من ذلك، فهو يتضمن جميع أشكال الخروج عن الطاعة وارتكاب المخالفات الشرعية.

قال ابن كثير: (﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، أي: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق).

48 ـ 50. **قوله تعالى**: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ثَنَاءٌ من الله سبحانه على القرآن الكريم وَمَدْحٌ له، وَأَمْرٌ منه جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ بالتحاكم إليه وإقامة منهاجه في الحكم، وتَحْذِيرٌ من الانحراف عنه إلى مناهج أهل الشبهات والشهوات وطريقة الجاهلية.

فقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾. أي: هذا القرآن.

وقوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾. أي: بالصدق واليقين.

وقوله: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾. أي: يصدق ما جاء في كتب الله المتقدمة.

وقوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ ـ فيه أقوال متكاملة:

1 ـ عن ابن عباس: (قوله: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، يقول: شهيداً). قال: القرآن شاهد على التوراة والإنجيل، مصدقاً لهما).

وقال السدي: (شهيداً عليه). وقال قتادة: (أميناً وشاهداً على الكتب التي خلت قبله).

2 ـ قال مجاهد: (﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، مؤتمناً على القرآن، وشاهداً ومصدِّقاً).

وقال ابن جريج: وقال آخرون: (القرآن أمين على الكتب فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتابهم بأمر، إن كان في القرآن فصدقوا، وإلا فكذبوا).

وقال ابن جريج: (القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل).

3 ـ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (والمهيمن الأمين. قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله). وقال: (يعني: أميناً عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب).

قلت: ولا شك أن اسم «المهيمن» يشمل هذه المعاني، فالقرآن أمين وشاهد وحاكم على الكتب قبله. وأما ما جاء عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: (﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾، قال: محمد ﷺ، مؤتمن على القرآن). فهو صحيح المعنىٰ، لكنه بعيد التفسير والتأويل في هذا الموضع، لذلك استبعده شيخ المفسرين الإمام ابن جرير، وتبعه على ذلك ابن كثير وغيره من المفسرين. فالآية تدل على هيمنة القرآن الكريم على الكتب التي كانت قبله إلى يوم القيامة، وقد تكفل الله سبحانه بحماية فهم هذا الكتاب كما حمىٰ تنزيله.

فقد أخرج الإمام أحمد في المسند، عن أبي سعيد الخدري قال: [كنا جلوساً ننتظر رسولَ الله ﷺ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلّفَ عَلَيْهَا عليٌّ يَخْصِفُها، فمضىٰ رسول الله ﷺ ومضينا معه، ثم قام ينتظره، وقمنا معه، فقال: إن منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن كما قاتلت على تنزيله.

فاستشرفنا وفينا أبو بكر وعمر ، فقال: لا ، ولكنه خاصف النعل. قال: فجئنا نبشِّره][1] .

وقوله: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ ﴾ .

أَمْرٌ من الله لرسوله ﷺ أن يقيم القرآن في الأمة منهاجاً للحكم والتحاكم .

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾ .

أي: آراءهم وأعرافهم التي تعارفوا على تحكيمها وهي مخالفة في هديها لشرع الله .

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح لغيره عن أبي ذر قال: كنت مخاصراً للنبي ﷺ يوماً إلى منزله ، فسمعته يقول: [غيرُ الدجال أخوفُ على أمتي من الدّجال ، الأئمة المضلون][2] .

أخرج البزار والبيهقي بسند حسن ، عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ قال: [ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات. فقال: ثلاث مهلكات: شحٌ مطاع ، وهَوىً مُتَّبَعٌ ، وإعجاب المرء بنفسه. وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية ، والقصد في الفقر والغنىٰ ، والعدل في الغضب والرضا][3] .

وقوله: ﴿ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ .

قيل المعنى: لا تنحرف عما جاءك من الحق متبعاً أهواءهم. وقيل التقدير: عادلاً عمّا جاءك. ذكره القاسمي. وقال القرطبي: (ومعنىٰ: «عمّا جاءك» على ما جاءك).

وقوله: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴾ .

الشريعة في كلام العرب هي الطريق الذي يُتوصل منه إلى الماء. والشريعة أيضاً ما شرع الله لعباده من الدّين. قال الرازي: (« والشِّرْعة » الشريعة ، ومنه قوله تعالى: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴾). والشارع الطريق الأعظم. وشرعَ لهم: أي: سنَّ. فيكون مفهوم الشرعة والشريعة أنه الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة.

والمنهاج: الطريق الواضح. يقال: نَهَجَ الطريق أبانه وأوضحه. ونَهَجَه أيضاً سَلَكه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه النسائي في «خصائص علي» ص (29) ، وأخرجه أحمد في المسند (33/3). وسنده صحيح.

(2) حديث صحيح لغيره. أخرجه أحمد (145/5) ، وبلفظ قريب ـ أخرجه أبو داود (203/2) ، والدارمي (70/1) ، (311/2) ، وأخرجه الترمذي (231/3) ، والحاكم (449/4).

(3) حديث حسن. أخرجه البزار (رقم ـ 80) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1/382/2).

قال أبو العباس محمد بن زيد: (الشريعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر).

قال القرطبي: (والمنهاج الطريق المستمر، وهو النَّهْجُ والمَنْهَج).

وأما أقوال أهل التأويل في ذلك:

1 ـ قال قتادة: (﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، يقول: سبيلاً وسُنّة. والسنن مختلفة: للتوراة شريعة، وللإنجيل شريعة، وللقرآن شريعة، يحلُّ الله فيها ما يشاء، ويحرِّم ما يشاء بلاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه. ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل غيره: التوحيدُ والإخلاصُ لله، الذي جاءت به الرسل).

2 ـ قال ابن عباس: (﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، قال: سبيلاً وسنة).

وفي رواية عنه: (سنة وسبيلاً).

3 ـ قال مجاهد: (الشرعة: السنة، و﴿وَمِنْهَاجًا﴾ قال: السبيل، لكلكم، من دخل في دين محمد ﷺ، فقد جعل الله له شرعة ومنهاجاً. يقول: القرآن، هو له شرعة ومنهاج). وقال: (الشرعة والمنهاج دين محمد عليه السلام، وقد نسخ به كل ما سواه).

قلت: والراجح عندي أن الشرعة هي الأحكام الشرعية والسنن الخاصة بكل أمة من أمم الأنبياء، والمنهاج هو الكتاب المنزل في ذلك الذي يوضح الله فيه بيان الطريق الكامل لإقامة أمره في كل أمة. فالتوراة منهاج، والإنجيل منهاج، والقرآن منهاج. ويجمع هذه المناهج توحيد الله وإفراده بالتعظيم والعبادة. والله تعالى أعلم.

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخْوَةٌ لعلّات، أمهاتهم شتّىٰ ودينهم واحد][1].

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنه تعالى شرعَ الشرائع مختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومَعْصِيَتِهِ، بمافعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله). وقال

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3442)، (3443) ـ كتاب أحاديث الأنبياء، ورواه مسلم وغيره.

عبد الله بن كثير: (﴿ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ ، يعني: من الكتاب). وقال ابن جريج: (ليبلوكم فيما آتاكم من الكتب).

وقوله: ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

أي: سارعوا إلى الطاعات، وبادروا إلى الأعمال الصالحات، فالمرد إلى الله سبحانه وهو يفصل بين عباده يوم القيامة، فيجازي المحسنين بإحسانهم، والعصاة والمجرمين بآثامهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾.

المعنىٰ: أقم حكم القرآن في الأمة يا محمد، واحذر أعداءك اليهود الذين يمكرون لئلا تقيم فيهم أمر الله، فإن أعرضوا عن الامتثال للحق فاعلم أن الله قد كتب ذلك وقدّره عقوبة لهم نتيجة تماديهم واستهتارهم ليصرفهم عن الهدىٰ فقد تراكمت ذنوبهم وأقفلت قلوبهم، وإن أكثرالناس خارجون عن طاعة ربهم.

وفي التنزيل: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الأنعام: 116].

وكذلك قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: 103].

وهذه الآيات وأمثالها تفيد أن الكثرة في الغالب ليست في موضع المدح، وأن القلة المؤمنة الصادقة هي الممدوحة في القرآن، سنة الله في عباده، فإن الجنة قد حفت بالمكاره، وحفت النار بالشهوات.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

قال أبو السعود: (إنكار وتعجيب من حالهم وتوبيخ لهم).

والمعنىٰ: أيعدلون عن حكمك فيبغون حكم الجاهلية. فليس من حق أحد أن يضع قوانين وتشريعات للناس إلا الخالق سبحانه، ومن ثم فمن جعل من نفسه أو غيره مشرعاً لقوانين وأنظمة لم يأذن بها الله فقد أشرك بالله، ودعا إلى عبادة غير الله. قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [الشورى: 21].

وقال جل ذكره: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ﴾.

قال أبو العالية: (أُسِّس الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له).

أخرج الدارمي بسند صحيح عن زياد بن حُدَير قال: [قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا. قال: يهدمه زَلّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين](1).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: أن النبي قال: [أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلْحِدٌ في الحَرَم، ومُبْتَغٍ في الإسلام سُنّةَ الجاهلية، ومُطَّلِبُ دَمِ امرئٍ بغير حقٍّ لِيُهريقَ دَمَهُ](2).

51 ـ 53. **قوله تعالى**: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: نَهْيٌ عن موالاة اليهود والنصارى، وَتَوَعُّدٌ مِنَ الله مَنْ خَرَقَ ذلك من المسلمين. ثم فيها فَضْحٌ لسبيل المنافقين، وَإِنْكارٌ لأساليبهم وحججهم الواهية في ذلك، وتوضيحٌ وتأكيدٌ لانهيار أعمالهم وخسارتهم في الآخرة.

فقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾.

تَحْذيرٌ من تقريبهم ومعاشرتهم ومناصرتهم.

قال المهايمي: (إذا كان تودّد أهل الكتاب لرسول الله ﷺ لقصد افتتانه عن بعض ما أنزل الله مع غاية كماله، فكيف حال من يتودد إليهم من المؤمنين؟).

وقوله: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾.

إشارةٌ لعلة النهي. قال القاسمي: (أي: فإنهم متفقون على خلافكم، يوالي بعضهم

(1) حديث صحيح. انظر سنن الدارمي (71/1)، وتخريج المشكاة (269/1).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6882)، كتاب الديات، وروىٰ نحوه الطبراني (10749).

بعضاً لاتحادهم في الدين. وإجماعهم على مضادتكم. فما لمن دينه خلاف دينهم ولموالاتهم!!).

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

قال الزمخشري: (وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين واعتزاله).

وقال القرطبي: (﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ شرط وجوابه، أي: لأنه قد خالف الله تعالى ورسوله كما خالفوا، ووجبت معاداته كما وجبت معاداتهم، ووجبت له النار كما وجبت لهم، فصار منهم أي: من أصحابهم).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن جرير عن عبد الله البجلي:

[أن رسول الله ﷺ بايعه على أن: «تنصح لكل مسلم، وتبرأ من الكافر»](1).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود بسند صحيح عن جرير بن عبد الله قال: [بعث رسول الله ﷺ سرية إلى خثعم فاعتصم ناس منهم بالسجود. فأسرع فيهم القتل. قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فأمر لهم بنصف العقل. وقال: أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: يا رسول الله! لِمَ؟ قال: لا تراءىٰ ناراهما](2).

الحديث الثالث: أخرج ابن أبي شيبة ـ والطبراني ـ عن ابن مسعود مرفوعاً: [أوثق عرىٰ الإيمان: الحب في الله والبغض في الله](3).

الحديث الرابع: أخرج الطبراني في «الكبير» عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: [أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله](4).

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (357/4)، (358/4)، وله شواهد.

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (2645)، كتاب الجهاد ـ باب على ما يقاتل المشركون. وصححه الألباني في صحيح أبي داود (2304) وقال: (صحيح) دون جملة العقل.

(3) حديث حسن. انظر كتاب «الإيمان» لابن أبي شيبة ص (45)، والمسند (286/4).

(4) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير» (69/1). وهو حديث حسن. انظر صحيح الجامع (2536). وقد أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (11537)، وله شاهد في مسند أحمد (286/4) من حديث البراء. انظر الحديث السابق.

الحديث الخامس: أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئاً][1].

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

المقصود: إن الله لا يوفق من أعطىٰ الولاية لأعدائه، وكان لهم ظهيراً ونصيراً.

وقوله: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾.

ففي المقصود بذلك قولان:

1 ـ قيل عني بذلك عبد الله بن أبي بن سلول. قاله عطية بن سعد. وقال: ﴿ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ (أي: في ولايتهم). أي: لقول ابن أبي: (إني أخشى دائرة تصيبني).

2 ـ قيل بل المعني قوم من المنافقين كانوا يناصحون اليهود ويغشُّون المؤمنين.

قال مجاهد: (المنافقون، في مصانعة يهود، ومناجاتهم، واسترضاعهم أولادَهم إياهم. وقول الله تعالى ذكره: ﴿ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ قال يقول: نخشىٰ أن تكون الدائرة لليهود).

وكلا التأويلين وارد محتمل، فهو خبر عن المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود والنصارىٰ ويخدعون المؤمنين بحجة احتمال أن يدور الدهر فيظفر اليهود أو النصارى، أو أهل الشرك، أو تنزل نازلة بهؤلاء المنافقين، فيكون لهم إلى أولئك حاجة.

وقوله: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾.

الفتح عني به أمران عند المفسرين:

1 ـ فتح مكة. فعن السدي: (﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾، قال: فتح مكة).

2 ـ قيل القضاء والفَصْل. فعن قتادة: (﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ قال: بالقضاء).

---

(1) انظر: «حلية الأولياء» (312/1) عن ابن عباس، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي ص (30)، الطبعة الثالثة، سنة (1382) هـ.

ويجوز أن يكون القضاء والفصل هو فتح مكة فيجتمع المعنيان. فإن الفتح في لغة العرب القضاء.

وقوله: ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾. قال السدي: (الأمر الجزية ـ يعني ضرب الجِزية على اليهود والنصارى).

وقوله: ﴿ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾.

أي: يصبح المنافقون الذين ارتضوا لأنفسهم موالاة اليهود والنصارى نادمين على ما أقدموا عليه، إذ لم يجنوا من ذلك إلا الضعف والخزي والفضيحة بين المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾.

فيه تفسيران:

1 ـ هو قول بعض المؤمنين لبعض بعد الفتح ونزول النصر: أهؤلاء ـ إشارة إلى المنافقين ـ الذين حلفوا واجتهدوا في الأيمان وقالوا إنهم لمعكم معشر المؤمنين، فهاهم قد فضحهم الله وأخزاهم وهتك سترهم اليوم. ذكره ابن جرير.

2 ـ هو قول المؤمنين لليهود على جهة التوبيخ: أهؤلاء ـ إشارة إلى المنافقين ـ الذين حلفوا بالله غاية أيمانهم أنهم يعينونكم على محمد. ذكره القرطبي.

وقوله: ﴿ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾.

أي: بطلت بنفاقهم. ﴿ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ فيه معنيان:

المعنى الأول: قد خسروا الثواب وضيّعوا مستقبلهم بنفاقهم.

المعنى الثاني: قد خسروا في موالاة اليهود، فقد أجلى النبي ﷺ اليهود وقتل طائفة منهم.

والخلاصة: قد خسر هؤلاء المنافقون الصفقة الهزيلة مع اليهود الذين أخزاهم الله بالقتل والإجلاء، وكذلك فقد خسروا رضوان الله، فضيّعوا الدنيا والآخرة.

54 ـ 56. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ

لَآيِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارٌ من الله سبحانه عن استغنائه وقدرته ، فمن ترك دين الإسلام أو ارتد عنه فإنه يخلق جلت عظمته لدينه العظيم رجالاً أوفياء ينصرون هذا الدين ويجاهدون في سبيل الله ولا يخافون أحداً وقف في طريقهم. إنه ليس لكم أيها المؤمنون ناصر إلا الله ورسوله وأهل الإيمان ـ أهل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتعظيم شرائع الحق ـ فمن وثق بالله وتولىٰ الله ورسوله وعباده المؤمنين فهؤلاء لهم الدولة والغلبة على فئة الشيطان وحزبه.

قال ابن عباس: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ الآية ، وعيد من الله أنه من ارتَدَّ منكم ، أنه سيستبدل خيراً منهم).

وقوله: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (أرقّاء عليهم ، رحماءَ بهم).

وقوله: ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

قال علي: (أهل غلظة على من خالفهم في دينهم).

وقوله: ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: لا يردُّهم عَمّا هُمْ فيه من طاعة الله ، وقتال أعدائه ، وإقامة الحدود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يَرُدُّهم عن ذلك رادّ ، ولا يصدّهم عنه صادّ ، ولا يَحيكُ فيهم لومُ لائم ، ولا عَذْلُ عاذِلٍ).

وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والطبراني في الأوسط ، بسند جيد عن أبي ذرّ قال: [أمرني خليلي ـ ﷺ ـ بسبع: أمرني بحبِّ المساكين والدنوِّ منهم ، وأمرني أن أَنْظُرَ إلى من هو دُوني ، ولا أنظُرَ إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أَصِلَ الرَّحِمَ وإن أَدْبَرَتْ ، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحقَّ وإن كان مُرّاً ،

وأمرني ألا أخافَ في الله لومة لائم ، وأمرني أن أُكثِرَ من قولِ: لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله ، فإنهن من كنْزٍ تحت العرش][1] .

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن الله ليَسْألُ العبدَ يوم القيامة. حتى يقول: ما منعكَ ، إذ رأيت المُنْكَرَ أن تُنْكِرَهُ؟ فإذا لَقَّنَ الله عبداً حُجَّتَهُ ، قال: يارب! رَجَوْتُكَ وَفَرِقْتُ من النَاس][2] . وفي لفظ: [وثقت بك ، وفرقت من الناس].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي وابن ماجة بسند صحيح لغيره عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: [لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه(أو شهده أو سمعه)][3] .

وروى أحمد نحوه وفيه: [إذا رآه أو شهد ، فإنه لا يُقَرِّبُ من أَجَل ، ولا يباعِدُ من رِزْق ، أنْ يقولَ بِحَقٍّ ، أو يُذَكِّرَ بعظيم][4] .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ .

أي: تلك الصفات والنعوت السابقة هي من فضل الله على المؤمنين الذين اتصفوا بها.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ ﴾ . أي: جواد بفضله وكرمه ومنّه ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بموضع ذلك الجود والعطاء ومن يستحقه من عباده.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ .

أي: ليس لكم ، أيها المؤمنون ، ناصر ومعين ومؤيد ومحب إلا الله ورسوله وأهل الإيمان ، الذين وصفت خصالهم بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ .

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد (159/5) ، والطبراني في «الأوسط» (5635). وقال الهيثمي في «المجمع» (263/10): وأحد إسنادي أحمد ثقات.

(2) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4017) ، وابن حبان (1845) ، وغيرهما.

(3) صحيح لغيره. أخرجه الترمذي (2191) ، وابن ماجة (4007) ، والحاكم (506/4) ، وغيرهم. وانظر للزيادة مسند أحمد (53/3) بسند صحيح على شرط مسلم.

(4) حديث صحيح. أخرجه أحمد (50/3) ، (87/3) ، وأبو يعلى (88/1-2) ، وهو صحيح الإسناد.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

قال السدي: (أخبرهم ـ يعني الرب تعالى ذكره ـ مَن الغالب، فقال: لا تخافوا الدولة ولاالدائرة، فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾، و«الحزب»، هم الأنصار).

وفي التنزيل: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

فمن نصر دين الله نصره الله وكتب له الغلبة على عدوه، سنة الله ولن تجد لسنته تبديلاً.

57 ـ 58. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تَحْذِيرٌ من الله للمؤمنين من موالاة أعداء الإسلام من الكتابيين والمشركين، الذين يستهزئون بأفضل أديان البرية الذي لا يقبل الله غيره بعد بعثة محمد ﷺ إلى يوم القيامة. وَتَنْفِيرٌ من صنيع أولئك المستهزئين عند ندائكم لصلاتكم، إذ يرونها من اللهو واللعب، وقد اتهمهم الله بعقولهم مقابل ذلك.

قرأ جماعة من قراء الحجاز والبصرة والكوفة ﴿والكفارِ أولياء﴾ بكسر الراء. والتقدير: لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الكفار أولياء. في حين قرأ ذلك عامة قراء المدينة والكوفة بالفتح: ﴿ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾. والتقدير: لا تتخذوا ـ أيها المؤمنون ـ الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً والكفارَ ـ أولياء. أي: «ولا الكفارَ أولياء». وذلك بالعطف للكفار على الذين اتخذوا.

قال ابن جرير: (إنهما قراءتان متفقتا المعنى، صحيحتا المخرج، قد قرأ بكل واحدة منهم علماء من القرأة، فبأي ذلك قرأ القارئ فقدأصاب).

وفي التنزيل : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : 28].

فالموالاة والمحبة والنصرة والتأييد للمؤمنين ، فإنما المؤمنون إخوة .

أخرج الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : [المسلم أخو المسلم](1) .

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : [المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذُله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عِرضه ، ومالُه ، ودمُه ، التقوى هاهنا ـ وأشار إلى القلب ـ بِحَسْبِ امرئٍ من الشر أن يحقِرَ أخاه المسلم](2) .

وقوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

أي : بشرع الله العظيم الذي يحاول هؤلاء المبطلون الاستهزاء به .

وقوله : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ .

قال ابن جرير : (يقول تعالى ذكره : وإذا أذن مؤذنكم ، أيها المؤمنون ، بالصلاة سخر من دعوتكم إليها هؤلاء الكفار من اليهود والنصارىٰ والمشركين ، ولعبوا من ذلك) . وقال ابن كثير : (وهذه صفات أتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حُصاص ـ أي : ضُراط ـ حتى لا يسمع التأذين) .

وَقَدْ جاءت السنة الصحيحة بهذا المفهوم في أحاديث :

الحديث الأول : أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : [إذا نُودِيَ للصلاة أدبر الشيطان له ضُراط ، حتى لا يسمعَ التأذين ، فإذا قُضي النداءُ أقبل ، حتى إذا ثُوِّبَ للصلاة أدْبر ، حتى إذا قُضيَ التَّثْويبُ أقبلَ حتىٰ يَخْطُرَ بين

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2442) ـ كتاب المظالم . باب : لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يُسْلِمُه .

(2) حديث صحيح . أخرجه الترمذي عن أبي هريرة . انظر صحيح الترمذي (1572) . باب ما جاء شفقة المسلم على المسلم . وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6582) ، (6583) .

المرء ونفسه ، يقول: اذكر كذا ، اذكر كذا ، لما لم يكن يذكرُ حتى يظل الرجل لايدري كم صَلّىٰ][1] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا أذن المؤذن أدْبرَ الشيطان ، ولهُ حُصَاص][2] .

وفي لفظ: [إن الشيطان ، إذا نُودي بالصلاة ، وَلّىٰ وله حُصَاص].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: [إن الشيطان إذا سمع النداءَ بالصلاة ، ذهب حتى يكون مكان الروحاء][3] .

قال سليمانُ: فسألتُه عن الرَّوحاء؟ فقال: هي من المدينة سِتَّةٌ وثلاثون ميلاً.

وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ .

أي هزواً بالدعاء إلى الصلاة ولعباً بذلك. ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾. أي: ما لهم في إجابة النداء إلى الصلاة ، وما عليهم في سخريتهم من العقاب ، فلو عقلوا ما فعلوا ذلك.

ولقد تألق مُعَلِّم البشر وعالم النفس الأول في هذه المعمورة رسول الله ﷺ حين عالج هذا النقص والعيب في الشخصية ، وهو مرض هزال الروح وحب السخرية والاستهزاء الذي ما زال الناس يضربهم الشيطان به من زمان آدم ونوح عليهما السلام ، إلى زماننا هذا. فلنصغ معاً كيف عالج النبي ﷺ ما اعترىٰ أبا محذورة من هزال النفس والاستهزاء عندما سمع النداء!

أخرج أبو داود والنسائي وابن ماجة ـ واللفظ له ـ عن عبد الله بن مُحيريز ، وكان يتيماً في حِجر أبي مَحذورة بن مِعْيَر ، حين جهزه إلى الشام. فقلت لأبي محذورة: أي عم! إني خارج إلى الشام ، وإني أُسأل عن تأذينك؟ فأخبرني أن أبا محذورة قال: [خرجت في نفر. فكنا ببعض الطريق. فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة ، عند

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (608) ـ كتاب الأذان ـ باب فضل التأذين. وروى مسلم نحوه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (389) ـ كتاب الصلاة. باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (388) ـ كتاب الصلاة. الباب السابق.

رسول الله ﷺ. فسمعنا صوت المؤذن ونحن عنه متنكبون. فصرخنا نحْكيه. نهزأ به. فسمع رسول الله ﷺ . فأرسل إلينا قوماً فأقعدونا بين يديه. فقال: أيُّكم الذي سمعت صوته قد ارتفع؟ فأشارَ إليَّ القوم كُلُّهم ، وصَدَقوا. فأرسل كُلَّهُم وحَبَسني. وقال لي: قُمْ فأذِّن. فقُمتُ ، ولا شيء أكرهُ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا مِمَّا يأمُرُني به. فقمتُ بين يدي رسول الله ﷺ ، فألقى عَلَيَّ رسولُ الله التأذين هو بنفسِه. فقال: قُلْ: الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أنْ لا إله إلا الله ، أشهدُ أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسولُ الله ، أشهد أن محمداً رسول الله. حيّ على الصلاة ، حيَّ على الصلاة. حيَّ على الفلاح ، حيَّ على الفلاح. الله أكبر ، الله أكبر. لا إله إلا الله. ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صُرَّة فيها شيء من فِضّة. ثم وضع يَدَه على ناصية أبي مَحْذورة. ثم أَمَرَّها على وجهه ، ثم على ثدييه ، ثم على كبِدِه ، ثم بَلَغَتْ يَدُ رسول الله ﷺ سُرَّة أبي محذورة. ثم قال رسول الله ﷺ: بارك الله لك وبارك عليك. فقلت: يا رسول الله! أمرتني بالتأذين بمكة؟ قال: نعم. قد أمرتُك. فذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهية ، وعاد ذلك كُلُّهُ مَحَبَّةً لرسول الله ﷺ. فَقَدِمْتُ على عَتّاب بن أَسِيدٍ ، عامِلِ رسول الله ﷺ بمكة ، فَأَذنتُ مَعَهُ بالصلاة عَنْ أمْرِ رسول الله ﷺ][1].

لقد عالج رسول الله ﷺ مشكلة الهزال والسخرية بالأمور الآتية:

1 ـ أرسل رسول الله ﷺ على الفور فجمع القوم بين يديه.

2 ـ سأل بقوة وحزم عن صاحب ذلك الصوت.

3 ـ أشار القوم جميعهم إلى مصدر الصوت ذبّاً عن أنفسهم ما يُرى أنه ذمّ.

4 ـ أطلق النبي ﷺ القوم وحبس صاحبه ليزيده خوفاً وندماً على ما فعل.

5 ـ أمره أن يقوم فيؤذن بما استهزأ به ، فداواه بالتي كانت هي الداء.

6 ـ ألقىٰ عليه التأذين بحزم ليردّده خلفه، ثم دعاه فكافأه بالمال ليظهر قيمة مافعل، وليبقىٰ راسخاً في ذهن أبي محذورة إلى الأبد أن هذا التأذين غال وثمين ولا يُهزأ به.

7 ـ ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على ناصية ووجه وَصدر وكبد أبي محذورة ودعا له بالعافية والبركة فبرأ مما كان في نفسه بإذن الله.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (503) ، والنسائي (5/2) ، وابن ماجة (708). انظر صحيح ابن ماجة (581) ـ كتاب الأذان والسنة فيها ـ باب الترجيع في الأذان. ورواه أحمد في المسند (409/3). وانظر صحيح مسلم (379) ، وسنن الترمذي(192) ، وسنن البيهقي (393/1).

8 ـ ثم استعمله بالعمل نفسه على أهل مكة ، فبَتَرَ بذلك الاستهزاء بالتأذين من نفسه إلى الأبد ، إذْ أصبح قائماً على هذا العمل فكيف يهزأ بنفسه؟!

فهذه لمسات من بعض أساليب التربية النبوية في معالجة أمراض السلوكية ، وقد بسطت بذلك القول في كتابي: «الأمراض النفسية وعوامل الشد إلى الخلف» ، ولله الحمد والمنة.

59 ـ 63. **قوله تعالى**: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

في هـذه الآيـات: يقول جل ثناؤه: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين بدينكم من أهل الكتاب: هل يحملكم على ذلك إلا أن صدقنا وأقررنا بالله فوحدناه ، وبما أنزل إلينا من القرآن ، وبما أنزل إلى المرسلين قبلنا ، وإلاّ أَنَّ أكثركم عاصون لله خارجون عن طاعته. فهل أنبئكم يامعشر أهل الكتاب بِشَرٍّ من جزاء ما تنقمون منا من الإيمان ـ إنه من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم المُسوخ القردة والخنازير غضباً من الله وسخطاً وخزياً عاجلاً في الدنيا قبل الآخرة ـ. فهؤلاء شر مكاناً ممن نقمتم عليهم من المؤمنين ، وأنتم معشر اليهـود أضل عن قصد الطريق وَأَجْوَرُ عن سبيل الهدى والرشاد. وإذا جاءكم ـ أيها المؤمنون ـ هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا آمنا بألسنتهم ، وما تبطن صدورهم هو الكفر والله أعلم بما يبطنون. ثم إن أكثرهم يسارعون بالمعصية والبغي وأكل الرشوة وسيِّئ العمل ، فأين علماؤهم لينهوهم عن ذلك ويحذروهم سيِّئ ما كانوا يعملون.

وتفصيل ذلك:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

قال القاسمي: (أي ما تعيبون وتنكرون منا ﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ وهو رأس الكمالات ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ وهو أصل الاعتقادات والأعمال والأخلاق ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ وهو يشهد لما أنزل إلينا ﴿ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ أي متمردون خارجون عن الإيمان بما ذكر).

وقال ابن كثير: (أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أي خارجون عن الطريق المستقيم).

وفي التنزيل: ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ﴾ [البروج].

وفيه أيضاً: ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ... ۝٧٤ ﴾ [التوبة].

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ ﴾ .

أي: إن من اتصف بهذه الصفات الذميمة هم شر مكاناً، وهم أصحاب الخزي يوم القيامة، لا الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه وصدقوا المرسلين والتزموا العمل الصالح.

فمن ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي طرده من رحمته ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ فلا يرضى بعدها عنه، ومسخ حاله وهيئته إلى أحوال وهيئات القردة والخنازير خزياً عاجلاً لهم في الدنيا قبل الآخرة هم ومن مضىٰ على منهاجهم الفاسد من أحفادهم موضع النقص والعيب والعار ومظنة الهلاك في الآخرة.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: وذكرت عنده القردة ـ أي عند النبي ﷺ ـ وفي لفظ: فقال رجل: يا رسول الله! القردة والخنازير هي مما مُسِخَ؟ فقال النبي ﷺ: [إن الله عز وجل لم يُهْلِك قوماً، أو يُعَذِّب قوماً، فيجعلَ لهم نسْلاً، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك][1].

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس، عن

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2663)، كتاب القدر، وأخرجه أحمد (413/1) (390/1)، ورواه أبو يعلىٰ (5313) من طريق مسعر عن علقمة به.

النبي ﷺ قال: [الحياتُ مسخ الجن صورةً ، كما مُسِخَت القِرَدةُ والخنازيرُ من بني إسرائيل][1] .

وقوله: ﴿ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ ـ فيه قراءتان أو أكثر .

القراءة الأولى: قراءة قراء الحجاز والشام والبصرة وبعض الكوفيين: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عَبَدَ الطاغوت كما جعل منهم القردة والخنازير .

القراءة الثانية: قراءة جماعة من الكوفيين: ﴿ وَعَبُدَ الطاغوت﴾ . والمعنىٰ: وجعل منهم خدم الطاغوت . أي خدّامه وعبيده .

وكلاهما قراءتان مشهورتان وإن كانت القراءة الأولى أشهر ، واختار ذلك ابن جرير .

وقد مضىٰ بيان مفهوم كلمة ﴿ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾في مواضع سابقة، فأغنى ذلك عن إعادته هنا .

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال الزجاج: (أولئك شر مكاناً على قولكم) .

2 ـ قال النحاس: (ومن أحسن ما قيل فيه: أولئك الذين لعنهم الله شر مكاناً في الآخرة من مكانكم في الدنيا لما لحقكم من الشر) .

3 ـ وقيل: أولئك الذين نقموا عليكم شر مكاناً من الذين لعنهم الله .

4 ـ وقيل: أولئك الذين لعنهم الله شر مكاناً في الآخرة من مكانكم في الدنيا لما لحقكم من الشر .

5 ـ وقال القرطبي: (﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ لأن مكانهم النار ، وأما المؤمنون فلا شرَّ في مكانهم) .

6 ـ وقال ابن كثير: (﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ ، أي: مما تظنون بنا) .

قلت: والسياق يقتضي ما ذكره القرطبي وابن كثير ، إذ جاء قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً ﴾ ، والله تعالى أعلم .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (348/1) ح (3245) ، والطبراني (1146) ، وابن حبان (1080) .

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾ .

قال ابن عباس: (وإنهم دخلوا وهم يتكلمون بالحق، وتُسِرُّ قلوبهم الكفر، فقال: ﴿ دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾).

وفي التنزيل: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: 72].

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾ .

أي: بما تنطوي عليه سرائر هؤلاء المنافقين.

وقوله: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ .

قال السدي: (الإثم: الكفر). وقال قتادة: (﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ ، وكان هذا في حكّام اليهود بين أيديكم).

قال ابن جرير: (وأما قوله: ﴿ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ ، فإنه يعني به الرشوة التي كانوا يأخذونها على حكمهم بغير كتاب الله لمن حكموا له به).

والمقصود كشف هؤلاء اليهود في تعاطيهم المآثم والمحرمات والاعتداء على الناس، وكشف خداعهم ولعبهم بدينهم مقابل الرشوة والمال الباطل.

وقوله: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ . أي: مما سبق من المخالفات الشرعية.

وقوله تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ .

الأحبار: العلماء. والربانيون: العلماء العُمَّال أرباب الولايات عليهم، فهم أخص. والآية توبيخ للطرفين مقابل سكوتهم عن انحراف ومخالفات بني إسرائيل في انتشار الآثام والمعاصي بينهم، وانتشار السحت: أي الرشوة والمال الحرام.

قال ابن عباس: (ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية).

وقال الضحاك: (ما في القرآن آية أخوف عندي منها: أنا لا ننهىٰ). وقال: (﴿ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ ﴾ فقهاؤهم وقراؤهم وعلماؤهم. وما أخوفني من هذه الآية).

وقال ابن جرير: (وكان العلماء يقولون: ما في القرآن آية أشدَّ توبيخاً للعلماء من هذه الآية، ولا أخوف عليهم منها).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذه الآية.

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن قيس بن أبي حازم، عن أبي بكر الصديق أنه قال: [أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا بيده، أَوْشَكَ أن يعمّهم الله بعقاب منه][1].

ورواه ابن ماجة بلفظ: [وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر لا يُغَيِّرونه، أوشكَ أن يَعُمَّهُم الله بعقابه][2].

الحديث الثاني: أخرج الترمذي وابن ماجة ـ واللفظ له ـ والحاكم عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ، قام خطيباً. فكان فيما قال: [ألا، لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً، هَيْبَةُ الناس، أن يقول بحقٍّ، إذا عَلِمَهُ][3]. قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد والله! رأينا أشياء، فهبنا.

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عبيد الله بن جرير، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: [ما من قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي، هُمْ أَعَزُّ مِنهم وأَمْنَعُ، لا يُغَيِّرون، إلا عَمَّهُم الله بعقاب][4].

64 ـ 66. **قوله تعالى**: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (29)، (53)، وأبو داود (217/2)، والترمذي (25/2) وغيرهم.
(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3236) ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي(30/2)، وابن ماجة (4007)، والحاكم (506/4).
(4) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن ـ حديث رقم ـ (4009)، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3238).

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ .

في هذه الآيات: ذِكْرُ جرأة اليهود على ربهم وتطاولهم في الكلام بصفاته دون تأدب أو خجل ، وتجاهل نعمه عليهم وكثرة صفحه وعفوه عنهم ، فوصفوه بالبخل كما وصفوه بالفقر عليهم لعائن الله ، بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء وعنده خزائن كل شيء. ثم فيها إِخْبارٌ من الله لنبيه محمد ﷺ أن ما أكرمك الله به من الوحي والحق سيكون نقمة على اليهود وأمثالهم وسيزدادون به حسداً وحقداً وطغياناً ، كما يزداد به المؤمنون إيماناً وإحساناً. ثم لا تجتمع قلوبهم بل سيفتك الحقد والبغي بين فرقهم مقابل كفرهم ، وكلما أبرموا حالة اجتماع ليحاربوك فيها يمزقها الله ويبطلها ، ومن صفاتهم استمرار إشعال الأرض بنار الفساد والله لا يحب المفسدين. ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله وكفوا عن الظلم والآثام وأقاموا التوراة والإنجيل ثم أقاموا القرآن النازل إليهم لبسط الله لهم ألوان البشائر والنعيم في الدنيا والآخرة ، ولكن قليل مَنْ آمن واتقى منهم ، وأكثرهم فاسقون.

وتفصيل ذلك :

قوله : ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾ .

قال ابن عباس : (ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقةٌ ، ولكنهم يقولون : إنه بخيل أمسك ما عنده ، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً) .

فكذبهم الله بما قالوا ووبّخهم فقال جل ثناؤه : ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ .

قال قتادة : (قالوا : الله بخيل غير جواد! قال الله : ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾) .

وقال الضحاك : (﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ ﴾ ، يقولون : إنه بخيل ليس بجواد! قال الله : ﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ ، أمسكت أيديهم عن النفقة والخير. ثم قال يعني نفسه : ﴿ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ ﴾ . وقال : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ . ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء] ، يقول : لا تمسك يدك عن النفقة) .

قال القرطبي : (﴿ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ ﴾ . قيل : المراد أنهم أبخل الخلق ، فلا

ترى يهودياً غير لئيم. وفي الكلام على هذا القول إضمار الواو ، أي قالوا: يد الله مغلولة وغلت أيديهم. واللعن الإبعاد).

فيكون المعنى: كذب اليهود المتجرئون على صفات الله سبحانه ، فهم البخلاء الفاسدون المنعوتون بصفات الشح والبخل والطمع والبغي ، والله تعالى هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الكثير النعم ، فنعمه لا تحصىٰ ، وكرمه على عباده لا حدود له ، وعنده خزائن السماوات والأرض ينفق كيف يشاء وهو الحكيم الكريم المتعال.

قال في سورة إبراهيم: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾.

وقال في سورة لقمان: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً... ﴿٢٠﴾﴾.

قلت: وضلّ قوم أَوَّلوا صفة اليد بالنعمة أو القدرة ، فبماذا يستقيم على زعمهم قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾! هل يقال بل قدرتاه أو نعمتاه حينئذ! هذا مما لا يستقيم في لغة العرب. والحق أن هذه الآية تثبت صفة اليدين لله العظيم ، كما تثبتها الآية الأخرى في سورة (صَ): ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾. وقد جاءت السنة الصحيحة بإثبات ذلك لله كما يليق بجلاله وكماله ـ أي: دون تشبيه ولا تعطيل ـ بل كلتا يديه يمين سبحانه وتعالى ، كما ثبت في الصحيح.

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: [إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا][(1)].

الحديث الثاني: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: [إنَّ يَمين الله مَلأى لا يَغيضُها نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ ، الليلَ والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم ينقُصْ ما في يمينه ، وعَرْشُهُ على الماء ، وبيده الأخرى الفَيْضُ ـ أو القَبْضُ ـ يَرْفَعُ ويخْفِض][(2)].

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [احتجَّ

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1827) ، كتاب الإمارة. باب فضيلة الأمير العادل وعقوبة الجائر.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (7419) كتاب التوحيد. وانظر (4684) منه. وأخرجه مسلم (993) ح (37) ، وأحمد (313/2) ، وابن حبان (725) ، والترمذي (3045).

آدمُ وموسىٰ عليهما السلام عند ربِّهما ، فحجَّ آدمُ موسى ، قال موسى : أنت آدمُ الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من رُوحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جَنَّتِه ، ثم أهْبَطْتَ الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ قال آدم عليه السلام : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تِبْيان كل شيء ، وقرّبك نَجِيّاً ، فبِكَمْ وَجَدْتَ الله كتب التوراة قبل أن أُخلَقَ؟ قال موسىٰ : بأربعين عاماً ، قال آدم : فهل وجدت فيها : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ . قال : نَعَمْ . قال : أفتلومني على أن عَمِلْتُ عملاً كتبه الله عليَّ أن أعْمَلَهُ ، قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟قال رسول الله ﷺ : فحجَّ آدم موسىٰ][1] .

وقوله : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ .

قال قتادة : (حملهم حسدُ محمد ﷺ والعرب على أن كفروا به ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم) .

وفي التنزيل : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : 82] .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ .

قال مجاهد : (أي بين اليهود والنصارىٰ) . وقيل : (ألقينا بين طوائف اليهود) .

قال القرطبي : (فهم متباغضون غير متفقين ، فهم أبغض خلق الله إلى الناس) .

وفي التنزيل : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الحشر] .

قلت : والراجح أنه من ذكر اليهود ، فإن السياق يقتضي ذلك ، والمقصود : أن الفرقة والتمزق ستعم طوائف بني إسرائيل ، فلا تجتمع قلوبهم ، وتسري العداوة بينهم . قال إبراهيم النَّخعي : (﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ قال : الخصومات والجدال في الدين) .

وقوله : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾ .

قال السدي : (كلما أجمعوا أمرهم على شيء فَرَّقَهُ الله ، وأطفأ حَدَّهم ونارهم ، وقذف في قلوبهم الرعب) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم (2652) ح (15) ، كتاب القدر ، وانظر صحيح البخاري (4738) .

وقوله: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: من سَجِيَّتِهم أنهم دائماً يَسْعَوْنَ في الإفساد في الأرض ، والله لا يحب من هذه صفته).

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

قال قتادة: (﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ ﴾ ، يقول: آمنوا بما أنزل الله ، واتقوا ما حرّم الله ، ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾).

قال ابن جرير: (﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ ، يقول: مَحَوْنا عنهم ذنوبهم فغطينا عليها ، ولم نفضحهم بها ، ﴿ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ، يقول: ولأدخلناهم بساتين ينعمون فيها في الآخرة).

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ .

قال ابن عباس: (يعني القرآن). أي وعملوا بما أنزل إليهم من ربهم من الفرقان الذي جاءهم به محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ ﴾ . يعني من القَطْر والنبات.

قال ابن عباس: (﴿ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ ، يعني: لأرسل السماء عليهم مدراراً ، ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ ﴾ ، تخرج الأرض بركتها).

وقال قتادة: (إذن لأعطتهم السماء بركتَها ، والأرض نباتها).

وقال السدي: (يقول: لو عملوا بما أنزل إليهم مما جاءهم به محمد ﷺ ، لأنزلنا علنيهم المطر ، فلأنبت الثّمر).

وفي الآية تنبيه لهذه الأمة ألا تسقط كما سقطت أمة يهود ، وأن تتمسك بقرآنها فهو فلاحها في الدنيا والآخرة ، وقد خشي النبي ﷺ على هذه الأمة أن تترك قرآنها والعمل به كما حصل في أمم أهل الكتاب. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج ابن ماجة بسند صحيح ، عن زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً ، فقال: [ذاكَ عِنْدَ أَوانِ ذهابِ العِلم. قلت: يا رسول الله! وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونُقْرِئُهُ أبناءنا ويُقْرِئُهُ أبناؤنا أبناءَهم ، إلى يوم القيامة؟ قال: ثَكِلَتْكَ

أُمُّكَ ، زيادُ! إنْ كُنْتُ لأراكَ مِنْ أفقه رجلٍ بالمدينة. أو لَيْسَ هذه اليهود والنصارىٰ يقرؤون التوراة والإنجيل ، لا يَعْمَلُون بشيءٍ مما فيهما؟][1].

الحديث الثاني: أخرج الحاكم عن ابن عباس مرفوعاً: [لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب دخلتم ، وحتى لو أن أحدهم ضاجع أمه بالطريق لفعلتم][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند بإسناد صحيح عن أبي عامر ـ عبد الله بن يحيىٰ ـ قال: [حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلىٰ صلاة الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعني الأهواء ـ كلها في النار إلا واحدة ـ وهي الجماعة ـ وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارىٰ بهم الأهواء كما يتجارىٰ الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله ، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاءكم به نبيّكم ﷺ ، لغيركم من الناس أحرىٰ أن لا يقوم به][3].

وقوله: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾.

يعني: منهم جماعة مقتصدة في القول في عيسى بن مريم ، وبعيدة عن الغلو والتنطع.

قال قتادة: (﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ ، يقول: على كتابه وأمره. ثم ذمّ أكثر القوم فقال: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾).

وقال السدي: (﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ ، يقول: مؤمنة).

وقال الربيع بن أنس: (فهذه الأمة المقتصدة ، الذين لا هم جَفَوا في الدين ولا هم غَلوا).

وفي التنزيل: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف: 159].

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3272) ـ باب ذهاب القرآن والعلم.

(2) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (455/4) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورجاله ثقات. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1348).

(3) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (332/2) ، وسنن أبي داود (503/2) ، والترمذي (367/3) ، وابن ماجة (479/2) ، والحاكم (128/1) ، وصحيح الجامع (1093) ، (1094).

هذا في قوم موسىٰ. وقال في أتباع عيسى: ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ [الحديد: 27].

قال ابن كثير: (فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقين. كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا .. ﴾.. الآية [فاطر: 32 ـ 33]. والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة يدخلون الجنة).

67. قوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

في هذه الآية: يأمر الله سبحانه نبيّه ﷺ بإقامة البلاغ المبين لهذا التنزيل العظيم والوحي الكريم، ومن ثم فإن أحداً لن يستطيع أن يتسلط عليه بأذى، فهو في عصمة الله وحمايته، والله هو يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو أعلم بمن يستحق الفضل والهداية.

أخرج ابن حبان في صحيحه، بسند حسن عن أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً نظروا أعظم شجرة يرونها فجعلوها للنبي ﷺ، فينزل تحتها وينزل أصحابه بعد ذلك في ظل الشجر، فبينما هو نازل تحت شجرة وقد علق السيف عليها إذ جاء أعرابي فأخذ السيف من الشجرة، ثم دنا من النبي ﷺ وهو نائم فأيقظه فقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ: الله. فأنزل الله عز وجل: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾](1).

قلت: ولا شك أن البلاغ المبين لهذا الدين عصمة للمؤمن من الله، يجد بركته في حياته، ونوره في قبره، وغبطته وسروره في أهله، ونجاته وفوزه يوم القيامة. وقد بلغ النبي ﷺ هذا الدين أتم البلاغ وجاهد من أجل ذلك أرفع الجهاد، وتحمل في ذات الله

---

(1) حديث حسن. انظر صحيح ابن حبان (2882) و(4537)، ومسند أحمد (364/3) من حديث جابر، وأصله في الصحيحين. انظر صحيح البخاري (2913)، ومسلم (1786/4) (13). وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة المائدة، آية (67).

عز وجل ما أصابه لينقذ الأمة من جحيم مناهج أهل الشهوات والأهواء ومن جحيم النار يوم القيامة ، إلى نور الحياة في ظل منهج الله سبحانه في الدنيا وظل روضات الجنان في الآخرة.

أخرج البخاري عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: [مَنْ حَدَّثك أن محمداً ﷺ كتم شيئاً مما أُنزِلَ عليه فقد كَذَبَ ، والله يقول: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية][1].

قال البخاري: قال الزهري: (من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم).

وقد استنطق النبي ﷺ أمته في أعظم المحافل ، فشهدت له بأتم البلاغ ، وفهمت منه الوداع.

الحديث الأول: أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب الناس يومَ النَّحر فقال: [يا أيها الناس ، أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يومٌ حرام ، قال: فأي شَهْرٍ هذا؟ قالوا: شَهْرٌ حرام ، قال: فإن دِماءَكُم وأموالكم وأعراضَكُم عليكم حرامٌ كحُرْمةِ يومِكُم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا. فأعادها مِراراً ، ثم رَفَعَ رأسه فقال: اللهم هل بَلَّغْتُ؟ اللهم هل بَلَّغْتُ؟ - قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده! إنها لَوَصِيَّتُهُ إلى أُمَّتِه - فليبلغ الشاهدُ الغائبَ ، لاترجعوا بعدي كُفّاراً يَضْرِبُ بعضكم رقابَ بعض][2].

قال البخاري: وقال هِشامُ بنُ الغازِ: أخبرني نافعٌ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما: (وقف النبي ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ بين الجَمَراتِ في الحَجَّة التي حَجَّ بهذا ، وقال: هذا يوم الحج الأكبر. فطفق النبي ﷺ يقول: اللهم اشهد. فوَدَّعَ الناسَ فقالوا: هذه حَجَّةُ الوداع)[3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (4612) - كتاب التفسير - باب: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح - حديث رقم - (1739) - كتاب الحج. باب الخطبة أيامَ منىٰ. وأخرجه أحمد في المسند (230/1).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه عقب حديث (1742) - كتاب الحج. الباب السابق. وانظر كذلك الحديث (4403) منه.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر ـ في حجة النبي ﷺ ـ أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: [أيها الناس ، إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهدُ أنك قد بَلَّغْتَ وأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ. فجعل يرفَعُ إصْبَعَهُ إلى السماء وينكتها إليهم ويقول: اللهم هل بَلّغت ، اللهم هل بلغت. وفي لفظ: فقال بإصبعه السبّابة ، يرفعها إلى السماء ويَنْكتُها إلى الناس: اللهم اشهد ، اللهم اشهد. ثلاث مرات][1].

الحديث الثالث: أخرج ابن أبي حاتم عن هارون بن عَنْتَرة ، عن أبيه قال: [كنت عند ابن عباس ، فجاءه رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يُبْدِه رسول الله ﷺ للناس. فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ، والله ما وَرَّثنا رسول الله ﷺ سوداءَ في بيضاء][2].

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

أي: يمنعك من أن ينالوك بسوء أو أذى ، فأنت في حفظ الله وكلاءته وتأييده. وقد كان النبي ﷺ يُحرس عند وصوله المدينة قبل نزول هذه الآية.

أخرج الترمذي بسند حسن عن عائشة قالت: [كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة ، فقال لهم: يا أيها الناس انصرفوا ، فقد عصمني الله][3].

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: [سَهِرَ رسول الله ﷺ مَقْدَمَهُ المدينة ليلةً ، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة. قالت: فبينا نحن

---

1) حديث صحيح. وهو جزء من حديث رواه مسلم (1218) من حديث جابر ـ في حجة النبي ﷺ.

2) إسناده جيد ، كما ذكر الحافظ ابن كثير في التفسير ـ سورة المائدة (آية 67). ويشهد له ما في صحيح البخاري من حديث أبي جُحَيفة: [قلت لعلي: هل عندكم شيءٌ من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن ، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل ، وفكاكُ الأسير ، وألا يُقتلَ مسلم بكافر].

3) حديث حسن. أخرجه الترمذي بإسناد حسن من حديث عائشة رضي الله عنها. انظر صحيح سنن الترمذي (2440). أخرجه الحاكم (313/2) ، وأخرجه الطبري (12279).

كذلك سمعنا خَشْخَشَةَ سلاح ، فقال: مَنْ هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص. فقال رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوفٌ على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه ، فدعا له رسول الله ﷺ ، ثم نام][1].

ورواه أحمد وفيه: [فقال: ما جاء بك؟ قال: جئتُ لأحرُسَكَ يا رسول الله. قال: فَسَمِعْتُ غطيطَ رسول الله ﷺ في نومه].

قال الحافظ ابن كثير: (ومن عصمة الله لرسوله حفظُهُ له من أهل مكة وصناديدها وحُسَّادها ومُعَانديها ومترفيها ، مع شدة العداوة والبَغْضَة ونَصْبِ المحاربة له ليلاً ونهاراً ، بما يَخْلُقُهُ الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة. فصانه في ابتداء الرسالة بعمّه أبي طالب ، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش ، وخلق الله في قلبه محبة طبيعيَّة لرسول الله ﷺ لا شرعِيَّة ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارُها وكبارها ، ولكن لَمَّا كان بينه وبينهم قَدَرٌ مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذىً يسيراً ، ثم قيَّضَ الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يَتَحَوَّلَ إلى دارهم ـ وهي المدينة ـ فلما صار إليها حَمَوْهُ من الأحمر والأسود ، فكلّما هَمَّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله وَرَدَّ كيدَه عليه ، لَمَّا كاده اليهود بالسحر حَمَاه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواءً لذلك الداء. ولما سَمَّ اليهود ذراعَ تلك الشاة بِخَيْبَرَ ، أعلَمَهُ الله به ، وحماه منه. ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها).

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

أي: لا يوفقهم لسلوك سبيل الهداية والرشاد جزاء استهتارهم وردّ شرع الله وبلاغ الرسل.

قال القرطبي: (أي لا يرشدهم. . وقيل: أَبْلغ أنت فأما الهداية فإلينا. نظيره: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾). وقال ابن جرير: (إن الله لا يوَفّق للرُّشْد من حَاد عن سبيل الحق ، وجار عن قصد السبيل ، وجحد ما جئته به من عند الله ، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2410) ـ كتاب فضائل الصحابة. وانظر صحيح البخاري (2885) وكذلك (7231) ، ومسند أحمد (141/6) ، والنسائي في «الكبرى» (8867). وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين (522/1-523) لتفصيل تلك الأحداث والروايات.

68 ـ 69. **قوله تعالى:** ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ثناؤه: قل يا محمد لأهل الكتاب إنكم لستم على شيء من الدين الحق حتى تعملوا بما جاءكم في كتبكم فتؤمنوا بما فيها ، وبما تضمنته من نبوة محمد ﷺ ووجوب متابعته ونصرته ، ولكن يا محمد لن يكون الأمر كما تحب ، فإن الكبر والغرور قد أهلك هؤلاء ، فلن يزيدهم ما أنزل إليك من القرآن إلا كبراً وجحوداً وعناداً وطغياناً ، فلا تحزن عليهم فَهُمْ إنما يَرِدُونَ بذلك مهالكهم. إنّ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من المؤمنين واليهود والصابئين والنصارى والتزم ما أُمِرَ به فلا خوف عليهم فيما قدموا عليه من أهوال القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا ولا على ما خلّفوا وراءهم فيها من ذرية ودنيا ، بعد أن يبصروا نعيم الآخرة وما أعدّ الله لهم من عظيم الثواب والسرور والملذات.

قال ابن زيد: (﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟﴾ ، حتى تعملوا بما فيه). أي بما جاء في التوراة والإنجيل دون التحريف. وعن مجاهد: (﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ﴾ يعني: القرآن العظيم).

وعن ابن عباس: (﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ﴾ قال: الفرقان ، يقول: فلا تحزن). وقال ابن جرير: (وأقسم: ليزيدن كثيراً من هؤلاء اليهود والنصارى الذين قصّ قصصهم في هذه الآيات ، الكتاب الذي أنزلته إليك يا محمد ، ﴿طُغْيَٰنًا﴾ ، يقول: تجاوزاً وغُلُوّاً في التكذيب لك ، على ما كانوا عليه لك من ذلك قبل نزول الفرقان ، ﴿وَكُفْرًا ۖ﴾ ، يقول: وجحوداً لنبوتك).

وقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ . قال السدي: (لا تحزن).

ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. وهم: المسلمون الذين صدقوا بالله ورسوله. ﴿ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ هم اليهود حملة التوراة. وقوله: ﴿ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ ﴾. قال ابن كثير: (لما طال الفصل حسن العطف بالرفع) ـ والصابئون: طائفة بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد. وعنه: بين اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبير: (بين اليهود والنصارىٰ). وعن الحسن: (إنهم كالمجوس). وقال قتادة: (هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور). وقال وهْب بن مُنَبِّه: (هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً). وقيل غير ذلك، والله تعالى أعلم.

وأما النصارى: فهم حملة الإنجيل، الذين بعث فيهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

يعني: من آمَنَ بالله فَصَدَقَهُ التوحيد والتعظيم، وآمن باليوم الآخر، واستعدّ له بالعمل الصالح، فكان على منهاج كتابه الذي أنزل إليهم، ثم آمن بمحمد ﷺ إن عاصره وأدركه فنصره وتابعه، فأولئك لا خوف عليهم في مشهد المحشر يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا وعلى ما خلّفوا فيها، فالطمأنينة والأمن في الدنيا والآخرة.

70 ـ 71. **قوله تعالى:** ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: تَذْكِيرٌ من الله سبحانه بالمواثيق والعهود التي أخذها على بني إسرائيل بالصدق والسمع والطاعة ومتابعة الرسل، ولكنهم كانوا عند أسوأ الظن، فقد خانوا العهود ونقضوا المواثيق وركبوا أهواءهم، فإن وافق الرسول المرسل إليهم شهواتهم قبلوه وإلا قتلوه. وظنوا أن الأمر هكذا دون امتحان واختبار فعموا عن الحق

والوفاء بالميثاق وصموا عنه ثم تاب الله عليهم ثم عادوا إلى التكذيب والخيانة والله يرى أعمالهم وسيجازيهم بها.

وقولُه جل ذكره: ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (كلما جاءهم رسول لنا بما لا تشتهيه نفوسهم ولا يوافق مَحَبَّتَهم، كذّبوا منهم فريقاً، ويقتلون منهم فريقاً، نقضاً لميثاقنا الذي أخذناه عليهم، وجرأة علينا وعلى خلاف أمرنا).

وقوله: ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾. قال ابن عباس: (الشرك). وقال قتادة: (حسب القوم أن لا يكون بلاء). وقال السدي: (حسبوا أن لا يبتلوا).

وقوله: ﴿ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ﴾.

قال قتادة: (كلما عرض بلاء ابتلوا به، هلكوا فيه).

وقال السدي: (حسبوا أن لا يبتلوا، فعموا عن الحق وصموا). وهم كما قال مجاهد: (اليهود).

وقال ابن جريج، عن عبد الله بن كثير قال: (هذه الآية لبني إسرائيل. قال: والفتنة: البلاء والتمحيص).

والمقصود أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يبصرون الحق ولا يصغون له ولا يهتدون إليه.

وقوله: ﴿ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾. أي: مما كانوا فيه من العمىٰ والصمم. ﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ﴾ مرة أخرى وعادوا للانتكاس. ﴿ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أي: يبصر أعمالهم ويحصيها عليهم ليجازيهم بها يوم يلقونه.

72 ـ 75. **قوله تعالى:** ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (72) لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ

لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

في هذه الآيات: حُكْمٌ من الله بتكفير الذين ادّعوا ألوهية المسيح ابن مريم من فِرق النصارىٰ: من الملكِيَّةِ واليَعْقوبية والنَّسْطورية ، وَتَبْرِئَةٌ للمسيح ابن مريم من ذلك وأنه دعا إلى عبادة الله وحده وَحَذَّرَ من الشرك به ، وبيّن أن مصير من أشرك بالله تعالى النار ثم لا سبيل ولا نصير.

ثم في الآيات حُكْمٌ بالكفر على من قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وتوعّدٌ لهم من الله بعذاب أليم إن لم يتوبوا ويرجعوا عن قولهم واعتقادهم. ثم بيانٌ من الله لحقيقة عيسىٰ ابن مريم عليه الصلاة والسلام بأنه رسول كبقية الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأمه مؤمنة صادقة ، يأكلان الطعام كسائر الناس ، فأين يذهب هؤلاء بضلالهم!

فقوله: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ ﴾ .

كقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: 48].

وقال ابن جرير: (قوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ . وهذا قولٌ كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكية والنَّسطورية. كانوا فيما بلغنا يقولون: «الإلّه القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم: أباً والداً غير مولود ، وابناً مولوداً غير والد ، وزوجاً متتبَّعةً بينهما). فكذبهم الله بقوله سبحانه: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

يشمل قائلي المقالتين ، ولذلك قال: ﴿ لَيَمَسَّنَّ ﴾ ولم يقل «ليمسّنهم» كما ذكر شيخ المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

دَعْوَةٌ لهم طيبة كريمة من الله ليستأنفوا التوحيد بعد الشرك والإيمان بعد الكفر ، والله بمنّه وكرمه يتجاوز عن ذلك مما سلف منهم ، كيف لا وهو سبحانه لم يزل يعافيهم ويرزقهم مع ما يسمعه من شركهم.

فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا أَحَدَ أَصْبَرُ على أذىً يَسْمَعُهُ من الله عز وجل، إنه يُشرك به، ويُجْعلُ له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم][1].

وفي لفظ: [ما أَحَدٌ أصبرَ على أذىً يَسْمَعُه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نِدّاً، ويجعلونَ له وَلَداً، وهو مع ذلك يَرْزُقُهم ويُعَافيهم وَيُعطيهم].

وقوله: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾.

قال القرطبي: (أي ما المسيح وإن ظهرت الآيات على يديه فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل، فإن كان إلٰهاً فليكن كل رسول إلٰهاً، فهذا ردّ لقولهم واحتجاج عليهم).

وفي التنزيل: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ ﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ ﴾ أي مؤمنة صادقة، آمنت بالله وصدقته بآياته.

وعن الحسن: (إنما قيل لها صديقة لكثرة تصديقها بآيات ربها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به).

قلت: والآية لا تدل أنها كانت نبيّة. فإن الله لم يبعث بالنبوة والرسالة إلا الرجال.

قال الحافظ ابن كثير ـ في التفسير ـ: (وقوله: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ ﴾ أي: مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدَلّ على أنها ليست بنبيّة، كما زعمه ابن حزم وغيره، ممن ذهب إلى نبوة سارَّة أُمِّ إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارَّة ومَرْيم، وبقوله: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ ﴾ [القصص: 7]. وهذا معنى النبوة. والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيّاً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ.. ﴾ [يوسف: 109]).

وقوله: ﴿ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ﴾.

أي هما كسائر البشر لا تقوم حياتهما دون غذاء، ومن كان هذا شأنه فلا يصلح إلٰهاً.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2804) ـ كتاب صفات المنافقين. باب في الكفار.

وقوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ .

أي: نظهر لهم الدلالات الواضحات والحجج الدامغات.

وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ .

أي: كيف يصرفون عن الحق وإلى أي ضلال يذهبون.

76 ـ 77. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: زيادة توبيخ لصنيع هؤلاء، والذين يعبدون ما يعبدون من الأوثان والأصنام والأنداد، وتَحْذيرٌ من اتباع الأهواء وأصحاب الضلال.

قال القرطبي: (أي أنتم مقرون أن عيسى كان جَنيناً في بطن أمه، لا يملك لأحد ضرّاً ولا نفعاً، وإذ أقررتم أن عيسى كان في حال من الأحوال لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم ولا ينفع ولا يضر، فكيف اتخذتموه إلٰهاً؟ ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي لم يزل سميعاً عليماً يملك الضرّ والنفع، ومن كانت هذه صفته فهو الإلـٰه على الحقيقة).

وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ . الآية.

قال ابن كثير: (أي: لا تُجاوزوا الحدَّ في اتباع الحق، ولا تُطْروا من أُمِرتُم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتىٰ تخرجوه عن حيّز النبوة إلى مقام الإلـٰهية، كما صنعتُم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلـٰهاً من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفُكم ممن ضل قديماً، ﴿ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾، أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلالة).

قلت: وقد حذّر النبي ﷺ من الغلو في الدين، وتقليد أهل الكتاب فيما سلكوه،

كما حذّر من أئمة الجهل والضلال الذين يقودون الأمة إلى المهالك. وفي ذلك أحاديث من السنة الصحيحة المطهرة:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [لاتطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، ولكن قولوا عبد الله ورسوله][1].

والإطراء: مجاوزة الحد في المدح، أي لا تمدحوني بالباطل.

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [هلك المتنطعون ـ قالها ثلاثاً][2]. وهم المتعمقون المتشددون.

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد في المسند، بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو][3].

الحديث الرابع: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إنّ الدين يُسْرٌ، ولن يُشَادَّ الدينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ، فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوةِ والرَّوحة وشيءٍ من الدُّلْجَةِ][4].

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد في المسند، والطبراني في المعجم الكبير عن أبي الدرداء، وأبو نعيم في الحلية عن كعب عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون][5]. قال كعب: (فقلت والله ما أخاف على هذه الأمة غيرهم). ولفظ أحمد: [إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلّون].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (355/6) ـ كتاب أحاديث الأنبياء.
(2) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1824). وصحيح مسلم (2670)، كتاب العلم. من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.
(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (215/1)، وانظر تحقيق: «فتح المجيد» (249-250).
(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (39)، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ورواه النسائي. انظر صحيح سنن النسائي ـ حديث رقم ـ (4661).
(5) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في الحلية (46/6)، وأحمد في المسند (441/6). وسنده حسن.

78 - 81. **قوله تعالى:** ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨١ ﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارٌ من الله سبحانه عن لعن الكافرين المغالين في الإثم والمعصية واستحلال المنكر من بني إسرائيل، بسبب اجترائهم في المعصية وبغيهم وإشاعة المنكر والفواحش في الأرض. فقد كانوا لا ينتهون عن منكر أتوه، ويتولون المشركين أعداء الله ويعادون أولياء الله ورسله، ولو كانوا موحدين صادقين في تعظيمهم لله ووحيه وما أنزل على نبيه محمد ﷺ ما اجترؤوا على كل ذلك، ولكن كثيراً منهم أهل خروج عن طاعة الله إلى ما يسخطه وإلى ما يغضبه، وأهل استحلال لما حرم من القول والفعل.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾، قال: لعنوا بكل لسان: لعنوا على عهد موسىٰ في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن).

وقال قتادة: (لعنهم الله على لسان داود في زمانه، فجعلهم قردة خاسئين، وفي الإنجيل على لسان عيسى، فجعلهم خنازير).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾.

أي: بسبب مخالفاتهم الشرعية وتجاوزهم حدود الله سبحانه.

وقوله: ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ ﴾.

قال ابن جريج: (لا تتناهىٰ أنفسهم بعد أن وقعوا في الكفر).

أخرج ابن أبي حاتم بسند حسن في الشواهد عن عبد الله بن مسعود قال: قال

رسول الله ﷺ: [إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذَّنْبِ نهاه عنه تعذيراً ، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأىٰ منه أن يكون أكيلَه وخليطه وشريكه ـ وفي لفظ: وشريبه ـ ، فلما رأى الله ذلك منهم ضَرَب قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. ثم قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخُذُنَّ على يد المسيء ولتأْطُرُنَّهُ على الحق أطراً ، أو ليضربَنَّ الله قلوب بعضكم على بعض ، أو ليلعنكم كما لعنهم][1].

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج أبو داود وابن ماجة بسند صحيح عن قيس ، قال: [قال أبو بكر ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ . . . ﴾ [المائدة: 105] ، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أَوْشَكَ أن يَعُمَّهم الله بعقاب. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما مِنْ قوم يُعْملُ فيهم بالمعاصي ، ثم يقدرون على أن يغيروا ، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب][2].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند حسن عن عائشة ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مُرُوا بالمعروف ، وانْهوا عن المنكر ، قَبْل أن تَدْعُوا فلا يُسْتَجابُ لكم][3].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري: [أن رسول الله ﷺ قام خطيباً ، فكان فيما قال: ألا ، لا يَمْنَعَنَّ رَجُلاً ، هيْبَةُ الناسِ ، أن

---

(1) حسن بشواهده. أخرجه أبو داود (4337) ، وأبو يعلى (5035) ، والطبري (12309) والبغوي في «التفسير» (816) بإسناد منقطع، لكن له شواهد يتقوىٰ بها، منها ما أخرجه الطبراني كما في «المجمع» (12153) من حديث أبي موسى ، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح.

(2) حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود (3644) ـ كتاب الفتن ، باب الأمر والنهي. وسنن ابن ماجة (4005). من حديث أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3235) ـ كتاب الفتن ، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

يقول بحقٍ ، إذا عَلِمَهُ. قال: فبكىٰ أبو سعيد ، وقال: قد والله! رأينا أشياء ، فهبنا][1] .

الحديث الرابع: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [مَنْ رأى منكم مُنْكراً فليُغَيِّرْهُ بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطِعْ فبقلبِه ، وذلك أضعف الإيمان][2] .

الحديث الخامس: أخرج أبو داود بسند صحيح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: [أن النبي ﷺ قال: لن يَهْلِكَ الناس حتى يَعْذِرُوا ، أو يُعْذِرُوا ، من أنفسهم][3] .

ورواه أحمد بلفظ: [لن يهلِكَ الناس حتى يُعْذَروا من أنفسهم].

وقوله: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ . أي: في تركهم الانتهاء عن معاصي الله وركوب محارمه ـ والذي سيوردهم المهالك والآلام.

وقوله: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ .

قال مجاهد: (يعني بذلك المنافقين).

وقوله: ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ .

قال ابن كثير: (يعني بذلك مُوالاتهم للكافرين ، وتركهم موالاةَ المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم سُخطاً مُسْتمراً إلى يوم مَعادِهم ، ولهذا قال: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ وفَسَّر بذلك ما ذَمَّهُم بِه. ثم أخبر عنهم أنهم ﴿ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ يعني يوم القيامة).

وقوله: ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ .

قال مجاهد: (المنافقون).

أي: لو كان هؤلاء المنافقون الذين يتولون كفار يهود يصدقون الله ويؤمنون به حق الإيمان ويوحّدونه ، ويصدّقون نبيّه محمداً ﷺ بما أُنزل إليه من القرآن العظيم ، ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً من دون المؤمنين.

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾. أي خارجون عن طاعة الله إلى

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (4007) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، الباب السابق. وانظر صحيح ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3237).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (49) ـ كتاب الإيمان ، باب بَيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4347)، وانظر صحيح الجامع ـ حديث رقم ـ (5107).

معصيته ، سالكون في سبيل ما يغضبه ويسخطه ، أهل استحلال لما حرّم الله عليهم من القول والفعل.

82 - 86. **قوله تعالى:** ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: خِطَابٌ من الله سبحانه لنبيّه محمد ﷺ: لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة للمؤمنين ـ من أهل الإسلام الذين صدقوك واتبعوك ـ اليهود وعبدة الأوثان والطواغيت ، ولتجدنّ أقرب الناس مودة ومحبة لأهل الإسلام الذين زعموا أنهم نصارى[1] على منهاج عيسى عليه السلام ، فقرُبت مودة هؤلاء لأهل الإيمان من أجل أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون. وأنهم إذا سمعوا الوحي الكريم يُتلى فاضت أعينهم مما عرفوا من صدق هذا التنزيل ، يسألون ربهم بإيمانهم أن يكتبهم مع الشاهدين وفي القوم الصالحين. وقد تكرم الله على هؤلاء الصادقين الذين آمنوا بالإنجيل ثم آمنوا بالقرآن بأن أثابهم بصدقهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها جزاء الإحسان والصدق والإيمان ، في حين هيأ للكافرين صلي السعير والجحيم والنيران.

---

(1) أي أنصار الله ودينه ورسوله. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف: 14]. وقال تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [آل عمران].

قوله: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير: (ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عنادٌ وجحودٌ ومباهتةٌ للحق، وغَمْطٌ للناس وتَنَقُّصٌ بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هَمُّوا بقَتْلِ الرسول ﷺ غير مَرَّةٍ وسَحَرُوه وأَلَّبُوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة).

وقال القرطبي: (بيّن الله سبحانه في هذه الآيات أنّ أشدّ الكفار تمرداً وعتوّاً وعداوة للمسلمين اليهود، ويضاهيهم المشركون، وبيّن أن أقربهم مودة النصارى).

وقوله: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ .

قال عطاء: (هم ناس من الحبشة آمنوا، إذ جاءتهم مهاجِرَةُ المؤمنين).

وقال قتادة: (نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسى، فلما بعث الله محمداً ﷺ آمنوا به فأثنى الله عليهم).

وفي التنزيل: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: 27] .

فصدق الإيمان بالوحي جعل في قلوبهم رأفة ورحمة ومودة لأهل الإيمان على اختلاف الكتب المنزلة إليهم.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

القسيسون: جمع قِسِّيس وقَسّ. والرهبان: جمع راهب.

قال ابن زيد: (﴿ القسيسين ﴾ عبّادهم). قلت: ولكن لفظ القسيسين يشمل أيضاً علماءهم وخطباءهم وحكماءهم. في حين يدل لفظ الرهبان على العبّاد. فهو مشتق من الرهبة وهي الخوف.

وقوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

قال القاسمي: (أي: يتواضعون لوداعتهم ولا يتكبرون كاليهود. وفي الآية دليل على أن الإقبال على العلم، والإعراض عن الشهوات، والبراءة من الكبر ـ محمود. وإن كان ذلك من كافر).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ .

أخرج البزار والنسائي وابن جرير بسند صحيح عن عبد الله بن الزبير قال: [نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ الآية][1].

قال القرطبي: (وهذه أحوال العلماء يبكون ولا يصعقون، ويسألون ولا يصيحون، ويتحازنون ولا يتموّتون، كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23]. وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]).

وقوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أي: مع محمد ﷺ وأمته الذين يشهدون بالحق، وهم أمة الشهادة على الناس في الدنيا والآخرة.

وفي التنزيل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]. قال الحسن: (الذين يشهدون بالإيمان). وقيل: الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك.

وقال ابن عباس: (﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، قال: محمد ﷺ وأمته، إنهم شهدوا أنه قد بلّغ، وشهدوا أن الرسل قد بلغت).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى:

أولاً ـ في الدنيا: هم أمة الشهادة على الناس يقبل الله شهادتهم.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم وأحمد وأهل السنن عن أنس رضي الله عنه قال: [مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة، فأثني عليها خيراً، وتتابعت الألسن بالخير، فقالوا: كان ـ ما علمنا ـ يحب الله ورسوله، فقال نبي الله ﷺ: وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأُثني عليها شراً، وتتابعت الألسن لها بالشر، فقالوا: بئس المرء كان في دين الله، فقال نبي الله ﷺ: وجبت وجبت وجبت، فقال عمر: فدىً لك أبي وأمي، مُرَّ

(1) أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عثمان وهو ثقة، وأخرجه النسائي في «التفسير» (168)، وابن جرير (12330)، وإسناده صحيح إلى عروة. وانظر: الصحيح المسند من أسباب النزول ـ الوادعي ـ سورة المائدة ـ آية (83).

بجنازة فأُثني عليها خيراً ، فقلت: وجبت وجبت وجبت ، وَمُرَّ بجنازة فأثني عليها شراً ، فقلت: وجبت وجبت وجبت؟ فقال رسول الله ﷺ: من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، الملائكة شهداء الله في السماء وأنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، (وفي رواية: والمؤمنون شهداء الله في الأرض) ، إن لله ملائكة تنطق على ألسنة بني آدم بما في المرء من الخير والشر][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري وأحمد والنسائي عن أبي الأسود الديلي قال: [أتيت المدينة ، وقد وقع بها مرض ، وهم يموتون موتاً ذريعاً ، فجلست إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فمرت جنازة ، فأثني خيراً ، فقال عمر: وجبت ، فقلت: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال النبي ﷺ: أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة ، قلنا: وثلاثة؟ قال: وثلاثة. قلنا: واثنان؟ قال: واثنان ، ثم لم نسأله في الواحد][2].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد والحاكم بسند صحيح عن أنس أن النبي ﷺ قال: [ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل جيرانه الأَدْنِينَ أنهم لا يعلمون منه إلا خيراً ، إلا قال الله تعالى وتبارك: قد قبلت قولكم ، أو قال: بشهادتكم ، وغفرت له ما لا تعلمون][3].

وفي لفظ: [قد قبلت علمكم فيه وغفرت له ما لاتعلمون].

ثانياً ـ في الآخرة: هم أمة الشهادة على أقوام الرسل ، يشهدون للرسل بالبلاغ.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد مرفوعاً: [يجيء النبيُّ ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثرُ من ذلك وأقلُّ، فيُقالُ له: هل بلّغت قومَك؟ فيقول: نعم، فيُدْعى قومُهُ، فيُقال: هل بلّغكم هذا؟ فيقولون: لا . فيقالُ: من شهِدَ لك؟

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3/177-178) ، ومسلم (3/53) ، والنسائي (1/273) ، والترمذي (2/158) ، وابن ماجة (1/454) ، وأبو داود (2/72) ، وأحمد(3/179) ، و(3/186) من طرق ، وهذه مجموع روايات من الصحيحين والمسند والسنن. وانظر أحكام الجنائز (26).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري والنسائي والترمذي وصححه البيهقي (4/75) ، وأحمد (129) (204). من حديث أبي الأسود الديلي.

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (3/242) من حديث أنس رضي الله عنه ، والحاكم في المستدرك (1/378) ، وقال: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

فيقول: محمدٌ وأمته، فتُدْعى أمةُ محمدٍ، فيُقال: هل بَلَّغَ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول: وما عِلْمُكُمْ بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبيُّنا بذلك أن الرسل قد بلَّغوا، فَصَدَّقناه، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.. ﴾][1].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾.

قال ابن زيد: (القوم الصالحون: رسولُ الله ﷺ وأصحابه).

وقوله تعالى: ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

قال القرطبي: (دليل على إخلاص إيمانهم وصدق مقالتهم، فأجاب الله سؤالهم وحقّق طمَعَهم ـ وهكذا من خَلَصَ إيمانه وصدق يقينه يكون ثوابه الجنة).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

أي: الذين جحدوا توحيد الله وأنكروا نبوة محمد ﷺ، فأولئك هم سكان جهنم ذات الجحيم، وهو ما اشتد حرّه من النار والعياذ بالله.

قال ابن جرير: (﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾، هم سكّانها واللابثون فيها).

87 - 88. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: نَهْيٌ من الله سبحانه المؤمنين أن يتشبهوا بالقسيسين والرهبان من أهل الكتاب الذين حرموا على أنفسهم طيبات أحلها الله لهم، وتَرْغيبٌ بالاستمتاع بالرزق الحلال الطيب مع شكر الله المنعم المتفضل.

قال ابن جرير: (﴿ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني بـ﴿الطيبات﴾، اللذيذات

(1) ـ حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (58/3)، وأخرجه ابن ماجة (2/573-574)، وغيرهما.

التي تشتهيها النفوس، وتميل إليها القلوب، فتمنعوها إيّاها، كالذي فعله القسِّيسون والرُّهبان، فحرّموا على أنفسهم النساء والمطاعِمَ الطيِّبة، والمشارِبَ اللذيذة، وحَبَس في الصَّوامِعِ بعضُهم أنفسَهم، وساحَ في الأرض بعضهم).

وقد دلت السنة الصحيحة على آفاق هذا المعنى في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس قال: [جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخْبروا كأنهم تقالّوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غَفَرَ الله له ما تقدَّمَ من ذنبهِ وما تأخَّرَ، فقال أحدهم: أمّا أنا فأنا أصلّي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدَّهْرَ ولا أُفْطِر، وقال آخَرُ: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفْطِر، وأصلّي وأَرْقُدُ، وأتزوج النساء، فمن رَغِبَ عن سنتي فليس مني][1].

الحديث الثاني: أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: [كنا نَغْزو مع النبي ﷺ وليْسَ معنا نِسـاءٌ فقلنا: ألا نَخْتصي؟ فنهـانا عن ذلك، فرَخَّصَ لنا بعد ذلك أن نتزوّجَ المرأة بالثوب، ثم قرأ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند حسن لغيره، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: [النِّكاح من سُنَّتي، فمنْ لم يَعْمَلْ بسنتي فليس مني، وتزوّجوا، فإني مكاثرٌ بكم الأمم، ومن كان ذا طَوْلٍ فَلْيَنْكِح، ومنْ لمْ يَجِدْ فعليه بالصيام، فإن الصومَ له وِجاءٌ][3].

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ـ فيه أقوال متقاربة:

1 ـ أي لا تحرموا ما أحلّ الله وشرع ـ فالمراد التأكيد. ذكره السدي وعكرمة.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (5063)، كتاب النكاح، ورواه مسلم برقم (1401)، ورواه أحمد في المسند (241/3)، وغيرهم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4615)، كتاب التفسير، وأخرجه مسلم برقم (1404)، ورواه البيهقي (79/7).

(3) صحيح في الشواهد. أخرجه ابن ماجة (1846)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (2383)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6683)، وكذلك أخرج نحوه البزار (ص 146 ـ زوائده).

2 ـ أي لا تعتدوا فتحلوا حراماً ، ولا تشدّدوا فتحرموا حلالاً. ذكره الحسن البصري ، واختاره القرطبي.

3 ـ لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم في تحريم المباحات عليكم ـ قاله بعض السلف.

4 ـ أي: كما لا تُحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقَدْر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحدَّ فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [الأعراف: 31]. وكقوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: 67]. ذكره الحافظ ابن كثير وقال: (فَشَرْعُ الله عدلٌ بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط).

وقوله: ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾.

قال عكرمة: (يعني: ما أحل الله لهم من الطعام).

وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: خافوا الله معشر المؤمنين من الاعتداء بتحليل الحرام أو تحريم الحلال أو التنطع في الدين ، فإن هذا الدين متين ، ولن يشاده أحد إلا غلبه ، فخافوا الله واتقوه حق تقاته.

89 . قوله تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩) ﴾.

في الآيـة: تَمْييزٌ بين لغو اليمين ، واليمين المنعقدة. فالأولى لا حرج فيها ، والثانية في مخالفتها الكفارة: إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. ثم تَنْبِيهٌ من الله سبحانه عباده أن يحفظوا أيمانهم ولا يستخدموها في كل أمر ، تعظيماً لأسماء الله تعالى وصفاته.

وتفصيل ذلك:

أولاً ـ تعريف الأيمان.

الأَيمان ـ بفتح الهمزة ـ جمع يمين. وأصل اليمين في لغة العرب: اليد. وأطلقت على الحلف لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كلٌّ بيمين صاحبه.

وهي في الشرع: توكيد الشيء بذكر اسمٍ أو صفةٍ لله.

ثانياً: بم تنعقد اليمين.

لا تنعقد اليمين إلا بالله تعالى. أو اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته.

أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: [أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسيرُ في رَكْبٍ يَحْلِفُ بأبيه فقال: ألا إن الله ينهاكم أن تَحْلِفُوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو لِيَصْمُت][1].

قال عمر: (فوالله ما حلفْتُ بها مُنْذُ سمعت النبي ﷺ ذاكِراً ولا آثِراً).

وفي الصحيحين وجامع الترمذي عن أنس بن مالك، قال النبي ﷺ: [لا تزال جهنّم تقول: هل من مزيد، حتى يضع ربّ العزة فيها قدمه، فتقول: قط قط وعزتك، ويُزوىٰ بعضها إلى بعض][2].

ثالثاً: الحلف بغير الله شرك.

فقد أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك][3].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [من حلف منكم فقال في حلفه: باللات. فليقل لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك. فليتصدق][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6646) ـ كتاب الأيمان والنذور، وكذلك (6647)، ورواه مسلم (1646).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6661)، ومسلم (2848)، والترمذي (3326).

(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن ـ حديث رقم ـ (1574)، أبواب النذور والأيمان. وانظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (6204).

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6650) بزيادة «باللات والعزىٰ»، ورواه مسلم (1647)، ورواه النسائي (7/ 7).

رابعاً: من حلف بملة غير الإسلام.

أخرج البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك قال: قال رسول الله ﷺ: [من حلف بملّة سوى الإسلام كاذباً متعمّداً ، فهو كما قال][1] .

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: [من قال: إني بريء من الإسلام ، فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً لم يَعُد إليه الإسلامُ سالماً][2] .

خامساً: مَنْ حُلِفَ له بالله فليرض.

أخرج الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [رأى عيسى بن مريم رجلاً يسرق ، فقال: أسرقت؟ قال: لا. والذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله ، وكذّبت بصري][3] .

وفي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: [سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: لا تحلفوا بآبائكم. مَنْ حَلَفَ بالله فليصدق. ومَنْ حُلِفَ له بالله فليرض ، ومن لم يرض بالله فليس من الله][4] .

سادساً: أقسام اليمين:

تنقسم الأيمان أقساماً ثلاثة:

1 ـ اليمين اللغو.

2 ـ اليمين الغموس.

3 ـ اليمين المنعقدة.

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6652) ، ومسلم (110) (177) واللفظ له ، وأبو داود (3240).

(2) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (3241) ، والنسائي (7/6) ، وابن ماجة (2100) ، وغيرهم.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3444) ، ومسلم (2368) ، والنسائي (249/8) ، وابن ماجة (2102). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (2101) ، وانظر صحيح ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (1708). من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

1 ـ اليمين اللغو وحكمها:

لغو اليمين: هو الحلف من غير قصد اليمين، كقول الرجل: والله لتأكلن، أو لتشربن ونحو ذلك، لا يريد به يميناً. أو هو كلام المرء دون قصد: لا والله، وبلىٰ والله، وهو مذهب الشافعي.

قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾.

قال القاسمي رحمه الله: (إنه ما يسبق إليه اللسان بلا قصد الحلف، كقول الإنسان: لا، والله! وبلىٰ والله! والمراد بالمؤاخذة: مؤاخذة الإثم والتكفير، أي: فلا إثم في اللغو ولا كفارة).

أخرج أبو داود بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها: [﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ ﴾ قالت: أنزلت في قوله: لا والله، وبلى والله][1].

2 ـ اليمين الغموس وحكمها:

هي اليمين الكاذبة التي تُهضَم بها الحقوق، أو التي يقصد بها الفسق والخيانة. وسميت بذلك لأنها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار.

وهي من أكبر الكبائر، ولا كفارة فيها، لأن الله يقول: ﴿ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ﴾، وهذه يمين غير منعقدة، لأن المنعقد ما يمكن حلّه، ولا يتأتىٰ في اليمين الغموس البرُّ أصلاً[2].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: 94].

قال الطبري رحمه الله: (معنى الآية: لا تجعلوا أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم توفون بالعهد لمن عاهدتموه، دخلاً أي خديعة وغدراً، ليطمئنوا إليكم وأنتم تضمرون لهم الغدر).

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما قال: [جاء أعرابي

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح أبي داود (2789)، وكذلك صحيح البخاري (6663).

(2) انظر تفصيل ذلك كله في بحث الأيمان ـ كتاب الأيمان والنذور ـ الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز ص (385).

إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: الإشراك بالله. قال: ثم ماذا؟ قال: ثم عقوق الوالدين. قال: ثم ماذا؟ قال: اليمين الغَمُوس. قلت: وما اليمينُ الغَمُوس؟ قال: الذي يقتطع مالَ امرئٍ مُسلمٍ هو فيها كاذب][1].

وفي رواية: [الكبائر: الإشراك بالله، وعُقوق الوالدين، وقَتْلُ النفس، واليمين الغموس].

وفي مسند الإمام أحمد بسند حسن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله عز وجل، وقتل النفس بغير حق، أو نهب مؤمن، أو الفرار من الزحف، أو يمين صابرة يقتطع بها مالاً بغير حق][2].

3ـ اليمين المنعقدة وحكمها.

اليمين المنعقدة هي اليمين التي يقصدها الحالف ويصمّم عليها، توكيداً لفعل شيء أو تركه. وبعبارة أخرى: هي عقد القلب في المستقبل ألا يفعل أمراً أو ليفعلنَّه.

فإن برّ بيمينه فلا شيء عليه، وإن حنث فعليه الكفارة، لقوله تعالى:

ـ ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْۗ . . ﴾ [البقرة: 225].

ـ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَۖ . . . ﴾ [المائدة: 89].

أي يؤاخذكم بما صَمَّمْتُم عليه من الأيمان وقصدتموها، ثم حنثتم بعد توثيقكم لها. وفي الكلام محذوف، والتقدير: ولكن يؤاخذكم بنكث ما عقدتم.

وقوله: ﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾.

أي: محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه. قال سعيد بن جبير: (الرجل يحلف على المعصية ثم يقيم عليها، فكفارته إطعام عشرة مساكين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (6920) ـ كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، وكذلك (6675).

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (14/68/220) (الفتح الرباني)، وانظر صحيح الجامع (3247).

وقوله: ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾.

قال ابن عباس: (أي من أعدل ما تطعمون أهليكم). وقال عطاء: (من أمثل ما تطعمون أهليكم).

وقال ابن جرير: (أي: في القلّة والكَثْرة). وروىٰ بإسناده عن ابن سيرين عن ابن عمر في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ قال: (الخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم: الخبز واللحم).

وأما مقدار ما يطعمهم ففيه أقوال:

1 ـ قال الحسن ومحمد بن سيرين: (يكفيه أن يُطْعِمَ عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً).

زاد الحسن: (فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخلاً حتى يشبعوا).

2 ـ قال علي رضي الله عنه: (يغديهم ويعشيهم). ذكره ابن أبي حاتم بإسناده عن الشعبي عن الحارث عنه.

3 ـ الإطعام عند مالك مُدٌّ لكل واحد من المساكين العشرة، وبه قال الشافعي.

4 ـ قال أبو حنيفة: (يُخْرِجُ من البرّ نصف صاع، ومن التمر والشعير صاعاً).

5 ـ وقال آخرون: (يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من برّ أو تمر ونحوهما). وهو قول عمر وعلي وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعيّ.

قلت: والراجح أنه يشبعهم من أوسط طعامه ولا فرق هنا بين مقدار البرّ والتمر والشعير في كون البرّ نصف صاع والتمر والشعير كامل الصاع. فإن الفرق قد ثبتَ فقط في زكاة الفطر. لما أخرج الطحاوي عن عروة بن الزبير: [أن أسماء بنت أبي بكر كانت تخرج على عهد رسول الله ﷺ عن أهلها ـ الحر منهم والمملوك ـ مُدَّين من حنطة أو صاعاً من تمر، بالمد أو الصاع الذي يقتاتون به][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه الطحاوي (43/2) من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه.

وأما كيفية إطعامهم ففيه أقوال:

1 ـ قال مالك: (إن غَدَّىٰ عشرة مساكين وعشّاهم أجزأه).

2 ـ قال الشافعي: (لا يجوز أن يطعمهم جملة واحدة، لأنهم يختلفون في الأكل، ولكن يعطي كل مسكين مدّاً).

3 ـ قال القرطبي: (لا يجوز عندنا دفع الكفارة إلى مسكين واحد، وبه قال الشافعي. وأصحاب أبي حنيفة يمنعون صرف الجميع إلى واحد دفعة واحدة، ويختلفون فيما إذا صرف الجميع في يوم واحد بدفعات مختلفة، فمنهم من أجاز ذلك وأنه إذا تعدّد الفعل حسن أن يقال في الفعل الثاني لا يُمنع من الذي دُفعت إليه أوّلاً، فإن اسم المسكين يتناوله).

4 ـ وقال آخرون: (يجوز دفع الكفارة إلى مسكين واحد في أيام، وإن تعدّد الأيام يقوم مقام أعداد المساكين). وقال أبو حنيفة: (يجزئه ذلك، لأن المقصود من الآية التعريف بقدر ما يطعم، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه).

قلت: والراجح في المسألة إمكان جمع المساكين على مائدة واحدة، والأفضل أن يكونوا مختلفين ـ أي عشرة مساكين مختلفين ـ لعموم الآية في ذلك، فإن دعا عائلة مؤلفة من عشرة أشخاص ـ من الفقراء ـ جاز ذلك، فإن كانوا خمسة أشخاص ودعاهم مرتين على طعام مشبع حصل المقصود. فإن لم يتيسر له ورأىٰ إطعام مسكين واحد عشر مرات حصل المقصود، فإن تعذر عليه وقدّر قيمة ذلك من المال وأعطاها لذلك المسكين أو لتلك العائلة فهذا من البدائل للتيسير، والأفضل الإطعام لصراحة الآية في ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾.

فيه أقوال:

1 ـ قال مجاهد: (في كسوة المساكين في كفارة اليمين: أدناه ثوب). أو قال: (أدناه ثوب، وأعلاه ما شئت). وكذا قال الحسن: (ثوب لكل مسكين). وقال مجاهد: (يجزئ في كفارة اليمين كل شيء إلا التُّبَّان[1]).

---

(1) التُّبَّان: سروال قصير إلى الركبة أو ما فوقها، يستر العورة.

2 ـ قال منصور: (القميص ، أو الرِّداء ، أو الإزار).

3 ـ قال ابن عباس: (ثوب ثوب لكل إنسان ، وقد كانت العباءة تقضي يومئذ من الكسوة). وقال: (الكسوة: عباءة لكل مسكين ، أو شِمْلة) ذكره ابن جرير.

4 ـ قال سعيد بن المسيب: (عباءة وعمامة لكل مسكين).

5 ـ قال ابن عمر: (في الكسوة في الكفارة: إزار ورداء وقميص) ذكره ابن جرير.

6 ـ قال الشافعي: (لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يَصْدُقُ عليه اسمُ الكُسْوَةِ من قميص أو سراويل ، أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك).

7 ـ وقال مالك وأحمد: (لا بُدَّ أن يدفعَ إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصحُّ أن يصلي فيه ، إن كان رجلاً أو امرأة ، كل بحسبه).

8 ـ وقال إبراهيم النَّخَعِيّ: (ثوب جامع كالمِلْحَفَةِ والرِّداء). ولايرى الدرع[1] والقميص والخمار ونحوه جامعاً.

قلت: والراجح في ذلك ما يصدق عليه اسم الكسوة: (إزار وقميص مثلاً) ، مما يكسىٰ به بدن المسكين ، كأن كان عارياً ثم كساه ، وهو قريب من كلام الشافعي رحمه الله.

أما قول مالك وأحمد مما يصح الصلاة فيه ، فإن الصلاة تصح بما يغطي العورة ـ بين السرة والركبة ـ ولا شيء على بقيّة الجسد ، ولكن هذا ليس كسوة.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ .

قال ابن جرير: (أو فك عبد من أسر العبودة وذلها). واختار الشافعي رحمه الله تقييدها بالإيمان. وقال: (لا بد أن تكون مؤمنة). قال ابن كثير: (وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل، لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب. ومن حديث معاوية بن الحكم السّلمي الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عِتْقَ رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء ، فقال لها رسول الله ﷺ: أين الله؟ قالت: في السماء. قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة).

(1) الدرع: قميص المرأة. والملحفة: لباس فوق سائر اللباس من دِثار البرد ونحوه.

وقوله: ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ﴾ .

أي يبدأ بالإطعام وهو الأسهل الذي اختاره الله سبحانه ، ثم الكسوة التي هي أيسر من العتق، فرُقيَ بالكفارة من الأدنى إلى الأعلى، فإن تعذر ذلك مما سبق كفَّر عن يمينه بصيام ثلاثة أيام، ولا يلزمه أن يصومها متتابعات، فإن السياق يدل على ذلك ـ كما قال تعالىٰ في قضاء صوم رمضان في حق المريض والمسافر: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ـ وهو أحد قولي الشافعي وإليه ذهب الإمام مالك.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ .

أي: الإطعام أو الكسوة أوالعتق فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ـ وهي الكفارة الشرعية التي شرعها الله تعالى عند الحنث في اليمين.

وقوله: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ .

أي: بتعظيم أمر الحلف وعدم الخوض والإقحام له في كل شأن. ثم يتناول الحفظ أيضاً المبادرة إلى التكفير دون تأخير.

قال القرطبي: (﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ . أي: بالبِدار إلى ما لزمكم من الكفّارة إذا حَنِثتم. وقيل: أي بترك الحَلِف ، فإنكم إذا لم تحلفوا لم تتوجه عليكم هذه التكليفات).

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89) ﴾ .

قال ابن جرير: (كما يبيّن لكم كفارة أيمانكم ، كذلك يبين الله لكم جميع آياته ـ يعني أعلام دينه فيوضِّحُها لكم ـ لئلا يقول المضيع المفرّط فيما ألزمه الله: «لم أعلم حكم الله في ذلك!» ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ يقول: لتشكروا الله على هدايته إياكم وتوفيقه لكم).

90 - 93 . قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَٰوَةَ وَالْبَغْضَآءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (91) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ (92) لَيْسَ عَلَى

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

في هذه الآيات: أَمْرُ الله سبحانه عباده المؤمنين باجتناب الخمر والقمار والأنصاب التي يُذبح عندها والأزلام التي يستقسم بها في الجاهلية إذا ما أرادوا الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة. ثم تَوْضِيحٌ لمحاولات الشيطان استخدام تلك المسكرات وألوان القمار للصد عن الذكر والصلاة وضياع الدين. ثم أَمْرٌ منه جل ذكره بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وتَحْذِيرٌ من مغبة المخالفة وركوب الأهواء. ثم بَيانُ عفو الله عما مضىٰ من التعاطي من تلك المحرمات إذا ما حصل الانتهاء والتماس التقوى والعمل الصالح والله يحب المحسنين.

أخرج الحاكم والبيهقي بسند صحيح عن ابن عباس قال: [نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل منهم يرىٰ الأثر بوجهه ولحيته فيقول: فعل بي هذا أخي فلان، وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن، والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما فعل بي هذا، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾. فقال ناس من المتكلفين: هي رجس وهي في بطن فلان قتل يوم بدر، وقتل فلان يوم أحد، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ الآية][1].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: [كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ[2]، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت. قال: فقال لي أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فخرجت فهرقتها، فجرت في سكك المدينة. فقال بعض القوم: قد قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾][3].

الخمر: هو الشراب الذي خامر العقل أي خالطه فستره. ذكره القاسمي. وهو يطلق

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (4/141-142)، والبيهقي (8/285-286)، وأخرجه الطبراني كما ذكر الهيثمي في «المجمع» (7/18) وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(2) وفي رواية: وما شرابُهم إلا الفضيخ: البسرُ والتمر.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2464)، (4620)، ومسلم (1980)، وأحمد (3/227)، وغيرهم. من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

على كل مسكر ، فكل مسكر خمر ، وكل خمر حرام.

وأما الميسر فهو: القمار. وهو يضيع المال، كما يضيع الخمر العقل، فجاء تحريمهما. والأنصاب: حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها. وقيل هي الأصنام المنصوبة للعبادة. والأزلام: قِداحٌ كانوا يستقسمون بها، وهي من أمر الجاهلية، وتنافي الإيمان بالقدر.

قلت: والعطف بين هذه الأمور في التحريم يقتضي أن النجاسة في كل منها معنوية لا حسية، فالأنصاب حجارة، والأزلام قداح، فدَلّ هذا أن نجاسة الخمر والميسر نجاسة معنوية.

قال ابن عباس: (﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾، يقول: سَخَطٌ). وقال ابن زيد: (الرجس: الشر).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سليمانَ بنِ بُرَيْدَةَ، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال: [مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِير، فكأنما صَبَغَ يَدَهُ في لَحْمِ خنزيرٍ ودمِه][1].

قال العلماء: النردشير هو النرد. فالنرد عجميّ معرّب، وشير معناه حلو.

وأخرج أحمد وأبو داود بسند حسن عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [من لعب بالنَّرْدِ فقد عصىٰ الله ورسوله][2].

فعطف التحريم على التحريم، لا التحريم على النجاسة، فإنه لا يُعطف التحريم على النجاسة، أي تحريم النرد على تحريم أكل لحم الخنزير أو بيعه، وكنّى عن ذلك بصبغ الرجل يده في لحم الخنزير ودمه.

وقوله: ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: فاتركوه وارفضوه ولا تعملوه).

وقال القرطبي: (يريد أبعدوه واجعلوه ناحية، فأمر الله تعالى باجتناب هذه الأمور، واقترنت بصيغة الأمر مع نصوص الأحاديث وإجماع الأمة، فحصل الاجتناب في جهة التحريم، فبهذا حرمت الخمر). ثم قال: (قوله: ﴿ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ يقتضي الاجتناب المطلق

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم (2260)، كتاب الشعر. باب تحريم اللعب بالنردشير.

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (397/4)، وأبو داود (4938)، وأبو يعلىٰ (7290)، وغيرهم.

الذي لا ينتفع معه بشيء بوجه من الوجوه ، لا بشرب ولا بيع ولا تخليل ولا مداواة ولا غير ذلك).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث تبيّن مفاسد الخمر كما تبين تحريم الانتفاع بها.

الحديث الأول: روىٰ مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: [إنَّ رَجُلاً أهدىٰ لرسول الله ﷺ راوِيَةَ خَمْرٍ ، فقال له رسول الله ﷺ: هل عَلِمْتَ أنَّ الله تعالى قَدْ حَرَّمَها؟ قال: لا ، فَسَارَّ إنساناً ، فقال له رسول الله ﷺ: بِمَ سارَرْتَهُ؟ فقال: أمَرْتُهُ بِبَيْعِها ، فقال: إنَّ الذي حَرَّمَ شُرْبَها حَرَّمَ بَيْعَها. قال: فَفَتَحَ المَزَادَةَ حتى ذهب ما فيها](1).

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند ، والطبراني في المعجم ، والبيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [أتاني جبريل فقال: يا محمد إن الله عز وجل لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وشاربها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبائعها ، ومبتاعها ، وساقيها ، ومستقيها](2).

الحديث الثالث: أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند حسن ، عن عبد الله بن عمرو ، قال: قال رسول الله ﷺ: [الخمر أم الخبائث ، فمن شربها لم تُقْبَل صلاتُه أربعين يوماً ، فإن مات وهي في بطنه مات ميتةً جاهلية](3).

الحديث الرابع: أخرج الطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [الخمر أم الفواحش ، وأكبر الكبائر ، مَنْ شَرِبَها وقع على أمه وخالته وعمته](4).

الحديث الخامس: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: [مدمن الخمر إن مات لقي الله كعابد وثن](5).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (1579) ـ كتاب المساقاة. باب تحريم بيع الخمر.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (316/1) ، والحاكم في المستدرك (145/4) ، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (1/150/2).

(3) حديث حسن. رواه الطبراني في «الأوسط» (3810) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1854).

(4) حديث حسن. رواه الطبراني (رقم 11372-11498) ، وفي «الأوسط» (3285).

(5) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (272/1) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (677).

قلت: ووجه الارتباط بين الخمر والشرك: أن المشرك يعبد حجراً أو صنماً، وشارب الخمر المدمن عليه يعبد كأساً، وكلاهما يصرف العبادة والخضوع لغير الله.

الحديث السادس: أخرج ابن حبان في صحيحه عن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: [لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولامؤمن بسحر، ولا قاطع رحم][1].

فقرنها رسول الله ﷺ مع السحر وقطيعة الرحم، فنعوذ بالله من هذا الشراب الخبيث، ومن مجالسة أهله وعشاقه، الذين استذلتهم الكأس حتى ذهبت عقولهم وهانت عليهم المعصية.

أخرج البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على مِنْبَر رسول الله ﷺ: [أيها الناس، إنه نزل تحريمُ الخَمْرِ وهي من خمسة: من العِنَب، والتَّمر، والعَسَل، والحِنْطَةِ، والشعير. والخمرُ ما خامر العقل][2].

وقوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

فعلّق الفلاح باجتناب تلك المحرمات.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

تَحْذيرٌ من مسلك الشيطان في تحبيب شرب الخمر والمياسرة بالقداح وتحسين ذلك حتى يوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين ويصدهم بسكرهم ولهوهم عن ذكر الله الذي فيه سعادة دنياهم وأخراهم، وكذلك عن الصلاة الواجبة عليهم التي فيها صلتهم بربهم ومناجاتهم له، فهل أنتم منتهون ـ أيها المؤمنون ـ عن هذا الشراب الخبيث وذلك القمار المشين، ومقبلون على ما فيه صلاح دنياكم وأخراكم.

أخرج الإمام مسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: [نزلت فيَّ آيات من القرآن. وفيه قال: وأتيت على نفر من الأنصار، فقالوا: تعال نُطْعِمك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن تُحرم الخمر، قال: فأتيتهم في حَشٍّ ـ والحَشُّ البستان ـ فإذا رأس جزور مشوي عندهم، وزقٌّ من خمر. قال: فأكلتُ وشربتُ معهم، قال: فذكرت

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في صحيحه ـ برقم (1381) ـ وانظر المرجع السابق (678).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (5581)، (5588)، ومسلم (3032)، وأبو داود (3669)، والترمذي (1874)، والنسائي (295/8)، وابن حبان (5353).

الأنصار والمهاجرين عندهم ، فقلت: المهاجرون خيرٌ من الأنصار، قال: فأخذ رجل لَحْيَي جمل فضربني به فجرح أنفي (وفي رواية: ففزره وكان أنف سعد مفزوراً) فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فأنزل الله تعالى فيّ ـ يعني نفسه شأن الخمر ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾][1] .

وقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ﴾ .

قال القرطبي: (تأكيد للتحريم ، وتشديد في الوعيد ، وامتثال للأمر ، وكف عن المنهيّ عنه).

وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

أي: إن أعرضتم عن الامتثال وركبتم المخالفة فقد قامت عليكم الحجة ، وانتهت الأعذار ، ولم يبق إلا العقاب ونزول العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

المعنىٰ: ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات حرج فيما شربوا قبل التحريم إذا ما اتقى الله الأحياء منهم فخافوه وامتثلوا أمره في اجتناب ما حرّم عليهم ، وصدقوا الله ورسوله فيما أمراهم ونهياهم واكتسبوا من الأعمال الصالحة التي ترضيه سبحانه. ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ ـ أي: ثم خافوا الله وثبتوا على الإيمان واجتناب ما حرّم عليهم ولم يغيروا ولم يبدلوا ، ﴿ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ﴾ ـ أي تابعوا الترقي في منهاج التقوىٰ والخوف من الله حتى بلغوا أعلى المراتب في ذلك وهي مرتبة الإحسان: وهي أن يعبد العبد ربه كأنه يراه ، والله يحب المحسنين.

قال ابن جرير: (فالاتقاء الأول: هو الاتقاء بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق ، والدينونة به والعمل. والاتقاء الثاني: الاتقاء بالثبات على التصديق، وترك التبديل والتغيير. والاتقاء الثالث: هو الاتقاء بالإحسان ، والتقرُّب بنوافل الأعمال).

قال مجاهد: (﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ ، لمن كان يشرب الخمر ممن قتل مع محمد ﷺ ببدر وأحد).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (1748) (34) ، وكتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (827/2) لتفصيل نزول تحريم الخمر.

وقال ابن عباس: (ليس عليهم حرج فيما كانوا يشربون قبل أن أحرمها ، إذا كانوا محسنين متقين ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾). وقد مضى ذكر أسباب نزول هذه الآية في ذلك بالأسانيد الصحيحة.

94 - 95. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: اختبارُ الله للمؤمنين ببعض الصيد حالة إحرامهم ليعلم أهل طاعته والإيمان به والمعظمين لحدوده وشعائره ، وَتَوَعُّدٌ للمخالفين بعذاب موجع مؤلم. ثم نَهْيٌ صريح عن قتل صيد البر حالة الإحرام ، وإعلامٌ من الله تعالى ذكره عبادَه حكم القاتل من المحرمين الصيد الذي نهاه عن قتله متعمداً.

فقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾.

قال ابن عباس: (هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يبتلي الله تعالى ذكره به عباده في إحرامهم ، حتى لو شاؤوا نالوه بأيديهم. فنهاهم الله أن يقربوه).

وقال مجاهد: (النَّبل ، ﴿ رماحكم ﴾ ، تنال كبير الصيد، ﴿ وأَيْدِيكُمْ ﴾ تنال صغير الصيد ، أخذ الفرخ والبيض). وقال: (الفراخ والبيض، وما لا يستطيع أن يفرّ).

وقوله: ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ ﴾.

قال ابن كثير: (يعني: أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكّنون من أخذه بالأيدي والرماح سِرّاً وجهراً ، لتظهر طاعةُ من يُطيع منهم في سرّه وجَهْره. كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك]).

وقوله: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

قال السدي: (يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم).

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞ ﴾ .

خطاب عام لكل مسلم ذكر وأنثى.

قال القرطبي: (وهذا النهي هو الابتلاء المذكور في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ ﴾ الآية).

وهناك استثناء من السنة الصحيحة لعموم هذه الآية، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: [خَمْسُ فواسِقَ يُقْتَلْنَ في الحلِّ والحَرَم: الغُراب، والحِدَأةُ، والعقرب، والفأرة، والكلبُ العقور][1].

ورواه النسائي من طريق أيوب، وأخرجه أبو يعلىٰ من طريق جرير عن نافع عن ابن عمر وفيه: (قال جرير: وقال لي أيوب: قلت لنافع: فالحيةُ؟ قال: تلك لا يختلف فيها اثنان).

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم والنسائي عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: [خمسٌ يَقْتُلُهُنَّ المُحْرِم: الحَيَّةُ، والفأرة، والحِدَأةُ، والغراب الأبقعُ، والكلب العقور][2].

والغراب الأبقع: هو الذي في بطنه وظهره بياض، دون الأدْرَع وهو الأسود، والأعصم هو الأبيض. والكلب العقور هو الجارح المفترس. وأما الحدأة فهي أخس الطيور، تخطف أطعمة الناس من أيديهم.

قال الإمام مالك: (لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه).

وألحق الإمام مالك وأحمد بالكلب العقور الذئبَ، والسبع، والنَّمِر، والفهد لأنها أشدّ ضرراً منه. قال القاضي إسماعيل: (الكلب العقور مما يعظم ضرره على الناس. قال: ومن ذلك الحية والعقرب، لأنه يخاف منهما، وكذلك الحِدَأة والغراب، لأنهما يخطفان اللحم من أيدي الناس).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1829)، (3314)، ومسلم (1198)، والنسائي (208/5)، ومالك (357/1)، وأخرجه أحمد في المسند (122/6)، (261/6) من حديث عائشة.

(2) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (1198) ح(67)، وأخرجه النسائي (5/ 186 ـ 188). من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

وقال ابن بُكير: (إنما أُذِنَ في قتل العقرب لأنها ذات حُمَة[1] ، وفي الفأرة لقرضها السِّقاء والحذاء اللذين بهما قوام المسافر. وفي الغراب لوقوعه على الظهر[2] ونَقْبه عن لحومها).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: [أنبأنا صعب بن جَثَّامَةَ قال: مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا بالأبواء أو بوَدّان. فأهديت له حمار وحش. فرده عليّ. فلما رأىٰ في وجهي الكراهية قال: إنه ليس بنا ردٌّ عليك. ولكنّا حُرُمٌ][3].

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن علي بن أبي طالب، قال: [أُتي النبي ﷺ بلحم صيد، وهو مُحْرِمٌ، فلم يأكله][4].

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾.

فيه وجوب الجزاء على فاعل ذلك من مثل ما قتله ذلك المحرم.

قال القرطبي رحمه الله: (ما يُجْزِئ من الصيد شيئان: دوابٌ وطيرٌ، فيُجْزِئ ما كان من الدواب بنظيره في الخلقة والصورة، ففي النّعامة بَدَنة، وفي حمار الوحش وبقرة الوحش بقرة، وفي الظبي شاة، وبه قال الشافعي. وأقل ما يجزئ عند مالك ما استيسر من الهدي وكان أضحية، وذلك كالجذع من الضأن والثني مما سواه، وما لم يبلغ جزاؤه ذلك ففيه إطعام أو صيام).

قلت: والمِثْل يقتضي حسب ظاهر النص المثل الخِلْقي الصوري، ويدل عليه قوله: ﴿من النّعم﴾، فبَيّنَ بذلك سبحانه جنس المثل. وقد قضى الصحابة في النعامة ببدَنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بِعَنزٍ، ونحو ذلك.

أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن جابر، قال: [جعل رسول الله ﷺ في الضبع، يصيبه المحرم، كبشاً. وجعله من الصيد][5].

---

(1) الحمة: السم أو الإبرة تضرب بها العقرب والزنبور ونحو ذلك.

(2) أي على الإبل التي يحمل عليها ويركب.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (1825) ـ كتاب جزاء الصيد. وكذلك (2573)، ورواه مسلم، ورواه ابن ماجة (3090) ـ باب ما ينهىٰ عنه المحرم من الصيد. وانظر ما بعده.

(4) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3091) ـ الباب السابق. صحيح ابن ماجة (2508).

(5) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة (3085) ـ باب جزاء الصيد يصيبه المحرم. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (2504). من حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما.

وقوله: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾.

قال ابن كثير: (يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل، أو القيمة في غير المثل، عدلان من المسلمين).

وقال ابن جرير: حدّثنا ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن مُخارق، عن طارق قال: (أَوْطأ أربدُ ظَبياً فقتله وهو مُحْرِم، فأتىٰ عمر ليحكم عليه، فقال له عمر: احكم معي. فحكما فيه جَدْياً، قد جَمَعَ الماء والشجر. ثم قال عمر: ﴿ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾).

وفي هذا الأثر دلالة عند الشافعي وأحمد على جواز كون القاتل أحد الحكمين.

وفي أثر عنه مشابه قال عمر: (ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك. قال: فأتيت عبد الرحمن وسعداً، فحكما عليَّ بِتيسٍ أعفر) رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾.

أي: يصل إلى الكعبة ليُذبح هناك ويوزع على مساكين وفقراء الحرم.

وقوله: ﴿ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾.

قال ابن عباس: (إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد، حكم عليه فيه. فإن قتل ظبياً أو نحوه، فعليه شاة تذبح بمكة. فإن لم يجد، فإطعام ستة مساكين. فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام. وإن قتل أيّلاً أو نحوه فعليه بقرة. فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً. فإن لم يجد، صام عشرين يوماً. وإن قتل نعامة أو حمارَ وحش أو نحوه، فعليه بَدَنة من الإبل. فإن لم يجد، أطعم ثلاثين مسكيناً. فإن لم يجد، صام ثلاثين يوماً. والطعام مدٌّ مدٌّ، شِبَعَهم) ذكره بسنده ابن جرير.

قال ابن كثير: (إذا لم يجد المحرمُ مثل ما قتل من النعَم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قولُ مالك، وأبي حنيفةَ، وأبي يوسفَ، ومحمد بن الحسن، وأحدِ قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد ـ رحمهم الله ـ لظاهر الآية ﴿أو﴾ فإنها للتخيير. والقول الآخر أنها على الترتيب. فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوّم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشترىٰ به طعام ويتصدَّق به، فيصرف لكل مسكين مُدٌّ منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابنُ جرير. وقال أبو حنيفة

وأصحابه: يُطعم كلَّ مسكين مُدَّين ، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مُدٌّ من حنطة ، أو مُدَّان من غيره. فإن لم يجد ، أو قلنا بالتخيير ، صام عن إطعام كل مسكين يوماً).

قلت: ويبدو من الآية أنه عند تعذر وجُود مثل ما قتل من النّعم ، فالكفارة إطعام مساكين بقدر قيمة الصيد المقتول يتصدق به على الفقراء ، يُفرق بما يطعم كل فقير أو مسكين على حدة ، فإن لم يجد أو ذهبنا إلى التخيير صام عن إطعام كل مسكين يوماً.

وقوله: ﴿ لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾.

أي: مغبة المخالفة والعصيان لأمر الله.

وقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ .

أي: مما كان من قتل الصيد في الجاهلية ـ قاله عطاء. أو قبل نزول الكفارة. قاله آخرون.

وقوله: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ﴾ .

قال سعيد بن جبير: (معناه فينتقم الله منه بالكفارة). وقال ابن عباس: (من قتل شيئاً من الصيد خطأً وهو محرم ، يحكم عليه فيه كلما قتله ، وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرّة واحدة ، فإن عاد يقال له: «ينتقم الله منك» كما قال الله عزَّ وجل). وقال عطاء: (من عاد في الإسلام، فينتقم الله منه وعليه مع ذلك الكفارة).

قلت: ويبدو أن هذا الوعيد ترهيب من التهاون في تعظيم حرمات الله وشعائره ، فإنه لا يعني وجود الكفارة التهاون أبداً ، ولذلك هدّد سبحانه وتوعّد من سلك سبيل التهاون ، وهذا ينطبق على كل أمر شرعي وعلى كل مخالفة ـ والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

أي : منيع في ملكه ، له الكبرياء والجبروت وهو الواحد القهار ، ولو شاء انتقم ممن عصاه أو أعطاه فرصة ليستعتب ، فليتنبه المؤمن من ذلك إلى وجوب تعظيم حرمات الله وأوامره وشرعه.

96 ـ 99. قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ

ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ .

في هذه الآيات: حِلُّ صيد البحر وطعامه ، وتَحْرِيمُ صيد البر على المُحْرِمِ ، وَأَمْرٌ بالتقوى والاستعداد للقاء الله تعالىٰ. ثم بيان أن الكعبة صيّرها الله قواماً للناس الذين لا قِوَام لهم من رئيس يحجز قويهم عن ضعيفهم ، ومسيئهم عن محسنهم ، وظالمهم عن مظلومهم ، وكذا الشهر الحرام والهدي والقلائد يحجز الله بكل واحد من ذلك الناس بعضهم عن بعض ، وهي معالم لدينهم ، ومصالح أمورهم ، والله عليم بكل ما يجري في هذا الكون ، شديد العقاب لمن عاند أمره ، غفور رحيم لمن استعتب واستغفر من إساءته ، وقد أرسل رسوله بالبلاغ المبين ، وهو سبحانه يعلم ما تبدون وما تكتمون.

فقوله : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ .

قال ابن عباس : (صيده ، ما صيد منه). وقال : (صيده ، الطريّ). وقال سعيد بن جبير : (السمك الطري). وقال السدي : (أما ﴿صيد البحر﴾ فهو السمك الطري ، هي الحيتان). وقال مجاهد : (يصطاد المحرم والمحلُّ من البحر ، ويأكل من صيده). وقال ابن عباس : (طعامه ما قذف). أو قال : (كل ما ألقاه البحر). أو قال : (ما لفظ من ميتته). وقال أيضاً : (ما وجد على الساحل ميتاً).

أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن بسند صحيح عن أبي هريرة قال : [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله! إنا نركب البحر ، ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا . أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ : هو الطَّهورُ ماؤه ، الحِلُّ مَيْـتَـتُـه][1] .

وأخرج ابن ماجة بسند جيد عن ابن الفِرَاسِيِّ ، قال : [كنت أصيد وكانت لي قِرْبَةٌ

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/ 237) ، وأبو داود (83) ، والترمذي (69) ، والنسائي (1/ 50) ، وابن ماجة (386) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أجعل فيها ماء ، وإني توضأت بماء البحر ، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: هو الطَّهُورُ ماؤه ، الحِلُّ مَيْتَتُه][1] .

وله شاهد عنده من حديث جابر ، أن النبي ﷺ سئل عن ماء البحر ، فقال: [هو الطَّهُور ماؤه ، الحِلُّ مَيْتَتُـهُ][2] .

وقوله: ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ .

أي: منفعة للمقيمين وللسائرين المسافرين.

قال عكرمة: (﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾ لمن كان بحضرة البحر ، ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ، السَّفر).

وقال مجاهد: (﴿ وَطَعَامُهُ مَتَٰعًا لَّكُمْ ﴾ ، قال: أهل القرىٰ ، ﴿ وَلِلسَّيَّارَةِ ﴾ ، أهل الأمصار). والسيّارة جمع سيّار. والمقصود: منفعة لمن كان مقيماً حاضراً في بلده ، ومنفعة أيضاً ومتعة للسائرين من أرض إلى أرض.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: [بعث رسول الله ﷺ بَعْثاً قِبَلَ الساحل ، فأمَّرَ عليهم أبا عُبيدة بنَ الجرَّاح وهم ثلاثُ مئةٍ وأنا فيهم ، فخرجْنا حتىٰ إذا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّريق فَنِيَ الزَّادُ ، فأمَرَ أبو عُبيدة بأزوادِ ذلك الجيش فَجُمِعَ ذلك كُلُّهُ ، فكان مِزْوَدَيْ تَمْرٍ ، فكان يُقَوِّتُنا كُلَّ يومٍ قليلاً قليلاً حتى فَنِيَ ، فلم يكن يُصُيبنا إلا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ ، فقلت: وما تغني تَمْرَةٌ؟ فقال: لقد وَجَدْنا فَقْدَها حين فَنِيَتْ ، قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حُوتٌ مثلُ الظَّرْبِ فأكل منه ذلك الجيشِ ثمانيَ عَشْرَة لَيْلَة ، ثم أمر أبو عبيدة بِضِلْعَيْنِ من أضلاعِهِ فَنُصِبا ، ثم أَمَرَ براحلةٍ فَرُحِلَتْ ثُمَّ مَرَّتْ تَحْتَهُما فلم تُصِبْهما][3] .

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جابر قال: [بعثنا رسول الله ﷺ

---

(1) صحيح بما قبله. أخرجه ابن ماجة في السنن (387) ، باب الوضوء بماء البحر. وانظر صحيح سنن ابن ماجة (310). من حديث ابن الفِراسِيّ.

(2) حسن صحيح. أخرجه ابن ماجة في سننه (388) ـ الباب السابق ـ وانظر صحيح سنن ابن ماجة (311). من حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2483) ـ كتاب الشركة ، وكذلك (4360) ، وأخرجه مسلم (1935) ح(21) ، وأخرجه مالك (2/ 930) ، والبيهقي (9/ 252) ، والنسائي (7/ 207) ، وأحمد (3/ 308). من حديث جابر رضي الله عنه.

وأمَّرَ علينا أبا عُبيدة ، نَتَلَقَّىٰ عِيراً[1] لقريش ، وَزَوّدَنا جِراباً مِنْ تَمْرٍ لم يَجِدْ لنا غَيْرَه ، فكان أبو عُبيدة يعطينا تَمْرَةً تَمْرةً ، قال: فقلت: كيف كُنْتُم تَصْنَعون بها؟ قال: نَمَصُّها كما يَمَصُّ الصَّبي ، ثم نَشْربُ عليها من الماء ، فَتَكْفِينا يَوْمَنَا إلى الليل ، وكنا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الخَبَطَ ، ثم نَبُلُّهُ بالماء فنأكُلُه ، قال: وانطلقنا على ساحل البحر ، فَرُفِعَ لنا على ساحلِ البحر كهيئة الكثيب الضَّخم ، فأتيناهُ فإذا هي دابَّةٌ تُدعى العَنْبَرَ. قال: قال أبو عبيدة: مَيْتَةٌ ، ثم قال: لا ، بل نحن رُسُلُ رسولِ الله ﷺ ، وفي سبيل الله ، وقد اضْطُرِرْتُم فكلوا ، قال: فأقَمْنا عليه شهراً ، ونحن ثلاثُ مئةٍ حتى سَمِنَّا ، قال: ولقد رأيْتُنا نَغْتَرِفُ من وَقْبِ عَيْنِهِ ، بالقلال[2] ، الدُّهْنَ ، ونَقْتَطِعُ مِنْهُ الفِدَرَ كالثَّورِ ـ أي : كَقَدْرِ الثَّوْر ـ فلقد أخذَ منا أبو عبيدة ثلاثة عشرَ رجلاً ، فأقْعَدَهُم في وَقْبِ عينه ، وأخذ ضِلْعاً من أضلاعه ، فأقامها ، ثم رَحَلَ أعظم بعير مَعَنا فَمَرَّ من تحتِها ، فتزوَّدْنا من لحمه وَشَايِقَ[3] ، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ ، فَذَكَرْنا ذلك له ، فقال: هو رِزْقٌ أخرجَهُ الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيء فَتُطعمونا؟ قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ مِنْه ، فأكَلَهُ][4] .

الحديث الثالث: أخرج أحمد وابن ماجة بسند صحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [أحلت لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدَّمان فالكبدُ والطِّحال][5] .

ويستثنى الضفدع ، فقد ورد النهي عن قتله ، مع أنه يعيش في الماء. فقد أخرج أبو داود والنسائي بسند جيد عن عبد الرحمن بن عثمان التَّيمي : [أن رسول الله ﷺ نهىٰ عن قَتْلِ الضِفْدع][6] .

---

(1) العير: هي الإبل التي تحمل الطعام وغيره. وفي رواية أنه بعثهم ﷺ إلى سيف البحر لذلك.

(2) القلال: جمع قلة ، وهي الجرة الكبيرة التي يقلها الرجل بين يديه أي يحملها.

(3) قال أبو عبيد: هو اللحم يؤخذ فيُغلىٰ إغلاء ، ولا ينضج ، ويحمل في الأسفار. يقال: وشقت اللحم فاتشق ، والواحدة منه: الوشيقة.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم (1935) ـ كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة ميتات البحر.

(5) حديث صحيح. أخرجه أحمد (2/ 97) ، وابن ماجة (3314) ، والبيهقي (1/ 254) ، والحاكم ، وغيرهم. من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(6) حديث إسناده جيد. أخرجه أبو داود (3871) ، (5269) ، والنسائي (7/ 210) ، والحاكم (4/ 410). من حديث عبد الرحمن بن عثمان التيمي مرفوعاً.

وقوله: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ .

أي: ما كنتم محرمين ، لم تحِلوا من إحرامكم ، فإن صيد البر يَحْرُمُ عليكم .

فائــدة (1): لو اصطاد الحلال من أجل المحرم لم يجز للمحرم أكله .

فقد أخرج البخاري عن الصَّعْبِ بن جَثَّامَةَ اللَّيثي: [أنه أهدى لرسول الله ﷺ حِماراً وَحْشِيّاً وهو بالأبواء أو بِوَدَّانَ فَرَدَّهُ عليه ، فلما رأى ما في وجهه قال: إنا لم نَرُدَّه إلا أنا حُرُمٌ][(1)] .

وهو قول مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ـ في رواية ـ قالوا: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد ، لم يجز للمحرم أكله ، للحديث السابق .

فائــدة (2): لو لم يقصد الحلال المحرم بالاصطياد ، ولا أشار إليه ، ولا أعانه ، جاز له أن يأكل من ذلك الصيد .

فقد أخرج البخاري عن أبي قتادة رضي الله عنه: [أنه كان مع رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان ببعض طريق مكة تخلف مع أصحاب له مُحْرِمين وهو غيرُ مُحْرِمٍ ، فرأى حماراً وَحْشياً فاستوى على فرسه ، فسأل أصحابه أن يُناولوه سَوْطه فأبوا ، فسألهم رُمْحَهُ فأبوا ، فأخذه ثم شدَّ على الحمار فقتله ، فأكل منه بعض أصحاب النبي ﷺ ، وأبى بعضٌ ، فلما أدركوا رسولَ الله ﷺ سألوه عن ذلك؟ قال: إنما هي طُعْمَةٌ أطعمكموها الله][(2)] .

وفي رواية: (قال: هل معكم من لحمه شيء) .

وقد أورد البخاري رواية أخرى فيها تفصيل أكبر لما جرىٰ ، من حديث عبد الله بن أبي قتادة أن أباه أخبره: [أن رسول الله ﷺ خرج حاجاً فخرجوا معه فصرف طائفةً منهم فيهم أبو قتادة فقال: خذوا ساحلَ البحر حتى نلتقي ، فأخذوا ساحلَ البحر ، فلما انصرفوا أَحْرَمُوا كُلُّهم إلا أبو قتادةَ لم يُحْرِمْ ، فبينما هم يسيرون إذ رأوا حُمُرَ وَحْشٍ

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1825) ـ كتاب جزاء الصيد . باب: إذا أَهْدَى للمحرم حماراً وحشياً حَيّاً لم يقبل . وأخرجه مسلم (1193) ، والنسائي (5/ 183) ، ومالك (1/ 353) ، وأحمد (4/ 72) . من حديث الصعب بن جثامة .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري (1821 ـ 1822) ـ كتاب جزاء الصيد . وانظر كتابي: السيرة النبوية على منهج الوحيين: القرآن والسنة الصحيحة (2/ 980) ، (2/ 985) ، لتفصيل هذه الأحكام .

فحمل أبو قتادة على الحُمُرِ فَعَقَر منها أتاناً فنزَلوا فأكلوا من لَحْمِها وقالوا: أنأكل لحم صَيْدٍ ونحن محرمون! فَحَمَلْنا ما بقي مِنْ لحم الأتان ، فلما أتوا رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إنا كنا أحْرَمنا وقد كان أبو قتادة لم يُحْرِم ، فرأينا حُمُرَ وَحْشٍ فحمل عليها أبو قتادة فَعَقَر منها أتاناً فنزَلْنا فأكلنا من لحمها ثم قلنا: أنأكل لحْمَ صيدٍ ونحن محرمون ، فحملنا ما بقي من لحمها. قال: أمِنكم أحدٌ أمَرَهُ أن يحمل عليها أو أشار إليها؟ قالوا: لا ، قال: فكلوا ما بقي من لحمها][(1)].

فالذي أشكل على الصحابة أنهم حرم وقد اصطاد لهم أبو قتادة حماراً وحشياً فأكل بعضهم وامتنع بعض ، فلما التقوا بالنبي ﷺ في موضع يُقال له (السقيا) على مئة وثمانين كيلاً من المدينة ، سألوه فأذن لهم بأكله ما داموا لم يشتركوا في صيده ولم يشيروا أو يعينوا عليه.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾.

قال القرطبي: (تشديد وتنبيه عقب هذا التحليل والتحريم ، ثم ذكر بأمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير).

وقوله: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ﴾. فيه أقوال متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (قيامها ، أن يأمن من توجّه إليها). وقال: (يعني قياماً لدينهم ، ومعالم لحجهم).

2 ـ وقال مجاهد: (إنما سميت ﴿ ٱلۡكَعۡبَةَ ﴾ لأنها مربعة ، ﴿ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ ﴾ قال: قواماً للناس). وقال: (حين لا يرْجون جنة ولا يخافون ناراً، فشدّد الله ذلك بالإسلام).

3 ـ وقال قتادة: (﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ﴾: حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية ، فكان الرجل لو جرَّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يُقرب. وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه. وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادةً من شعر فأحمته ومنعته من

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1824) ـ كتاب جزاء الصيد. وأخرجه مسلم برقم (1196) ، ووراه أحمد في المسند (5/ 302).

الناس. وكان إذا نفر تقلّدَ قلادة من الإِذْخِر أو من لِحاء السمُر، فمنعته من الناس حتىٰ يأتي أهله، حواجِزُ أبقاها الله بين الناس في الجاهلية).

4 ـ وقال ابن عباس: (كان ناس يتقلّدون لحاء الشجر في الجاهلية إذا أرادوا الحجّ، فيعرفون بذلك).

5 ـ وقال ابن زيد: (كان الناس كلهم فيهم ملوك تدفع بعضهم عن بعض. قال: ولم يكن في العرب ملوكٌ تدفع بعضهم عن بعض، فجعل الله تعالى ذكره لهم البيت الحرام قياماً، يُدْفَعُ بعضُهم عن بعض به، والشهر الحرام كذلك، يدفع الله بعضهم عن بعض بالأشهر الحرام، والقلائد. قال: ويلقى الرجل قاتل أخيه أو ابن عمه فلا يعرض له. وهذا كله قد نُسخ).

وقولـــه: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾.

قال ابن جرير: (يعني تعالى ذكره بقوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، تصييره الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد. يقول تعالى ذكره: صيّرت لكم، أيها الناس، ذلك قياماً، كي تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث، مما به قوامكم، علماً منه بمنافعكم ومضاركم، أنه كذلك يعلم جميع ما في السماوات وما في الأرض مما فيه صلاحُ عاجلكم وآجلكم، ولتعلموا أنه بكل شيء ﴿ عَلِيمٌ ﴾، لا يخفىٰ عليه شيء من أموركم وأعمالكم، وهو محصيها عليكم، حتى يجازي المحسن منكم بإحسانه، والمسيء منكم بإساءته).

وقوله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾.

تخويف وترجية، ترهيب وترغيب، لا صلاح للعبد بدونهما، فهو بحاجة للخوف من الله ومن عقابه وعذابه، وللثقة بمغفرته وعفوه، حتى يستقيم توجهه إليه.

وقوله تعالى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴾.

أي: ليس للرسول إلا البلاغ، فأمر الهداية والتوفيق والعفو والثواب بيد الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى، فهو الذي يطلع على القلوب ويعلم ما تخفونه من الكفر والنفاق، أو من الصدق والإيمان.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إنّ الله لا ينظرُ إلى أجسامكم، ولا إلى صُوَركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم][1].

وفي لفظ: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم].

100 ـ 102. قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

في هذه الآيات: خِطابٌ من الله لعباده: لا يستوي الحلال الطيب القليل مع الحرام المخادع الكثير، فاتقوا الله يا أهل العقول لعلكم تنالون رضاه وتوفيقه. ثم تأدِيبٌ من الله سبحانه لعباده المؤمنين، وارتقاءٌ بهم عن الخوض فيما لا فائدة منه من السؤال والبحث، فلربما ظهر جواب ذلك فيما يشق عليهم وتكرهه نفوسهم، فقد حصل ذلك لأقوام مضوا فأصبحوا بذلك كافرين.

ففي قوله: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾.

قال السدي: (﴿ٱلْخَبِيثُ﴾، هم المشركون، ﴿وَٱلطَّيِّبُ﴾، هم المؤمنون).

وقال ابن جرير: (قل يا محمد: لا يعتدل الرديء والجيد، والصالح والطالح، والمطيع والعاصي، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾، يقول: لا يعتدل العاصي والمطيع لله عند الله، ولو كثر أهل المعاصي فعجبت من كثرتهم، لأن أهل طاعة الله هم المفلحون الفائزون بثواب الله يوم القيامة وإن قلُّوا، دون أهل معصيته، وإن أهل معاصيه هم الأخسرون الخائبون وإن كثروا).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2564) (33)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أيضاً (34) ـ باللفظ الذي بعده.

ولا شك أن الآية تعم كل قليل طيب مبارك ، وكل كثير خبيث فاتن ، سواء كان من الناس ومعادنهم ، أو كان من متاع هذه الحياة الدنيا .

أخرج أبو يعلىٰ في المسند ، والبيهقي في «الشعب» ، بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال: [ما قل وكفىٰ خير مما كثر وألهى][1] .

وقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠٠ ﴾ .

وَصِيَّــةٌ بالتقوى من الله سبحانه ، فهي سرّ سعادة الدنيا وسرّ النجاة يوم القيامة .

أخرج الإمام أحمد في المسند ، بإسناد حسن عن أبي سعيد الخدري ، أن رجلاً جاءه فقال: أوصني ، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك: [أوصيك بتقوى الله تعالىٰ فإنه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله تعالىٰ وتلاوة القرآن ، فإنه رَوْحُكَ في السماء وذكرك في الأرض][2] .

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ . الآية .

فإن فيها ثلاث أسباب صحيحة للنزول:

السبب الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال: [خطب النبي ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. قال: فغطّىٰ أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ، لهم خنين ، فقال رجل: من أبي؟ قال: فلان. فنزلت هذه الآية: ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾][3] .

السبب الثاني: أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء ، فيقول الرجل: من أبي ، ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ حتى فرغ من الآية كلها][4] .

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو يعلىٰ (1053) ، والبيهقي في «الشعب» (10730) ، وانظر صحيح الجامع (5529). من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(2) حديث حسن. أخرجه أحمد (3/ 82) ، وأخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (ص 197) .

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4621) ، ومسلم (2359) ، وأحمد (3/ 210) ، والترمذي (3058) ، وأخرجه الطيالسي (2/ 60) ، وغيرهم .

(4) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ (4622) ـ كتاب التفسير ، عند هذه الآية .

السبب الثالث: أخرج الطبري عن أبي هريرة ـ بسند رجاله ثقات ـ قال: [خطبنا رسول ﷺ فقال: يا أيها الناس كتب الله عليكم الحج. فقام محصن الأسدي فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: أما أني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم، اسكتوا عن ما سكت عنكم فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ إلى آخر الآية][1].

فهذه ثلاثة أسباب للنزول مسندة صحيحة، والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل إما على سبيل الاستهزاء والامتحان، وإما على سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان على الإباحة.

وقوله: ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: لا تسألوا عن أشياء إن نُزِّل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه).

وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنىٰ، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص، أن النبي ﷺ قال: [إن أعظم المسلمين جُرْماً مَنْ سأل عَنْ شيء لم يُحَرَّم فَحُرِّمَ من أجل مسألته][2].

الحديث الثاني: أخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: [سُئِل رسول الله ﷺ عن أشياء كَرِهَها، فلمّا أكثروا عليه المسألة غضب وقال: «سلوني»، فقام رجل فقال: يا رسول الله، مَنْ أبي؟ قال: أبوك حُذافَةُ. ثم قام آخَرُ فقال: يا رسول الله، مَنْ أبي؟ فقال: أبوكَ سالِمٌ مولىٰ شَيْبَةَ. فلما رأىٰ عُمَرُ ما بوجه رسول الله ﷺ من الغضب قال: إنا نتوب إلى الله عز وجلّ][3].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: [أن

(1) حديث حسن. أخرجه ابن جرير (ج 7) ص (82) بسند رجاله رجال الصحيح إلا محمد بن علي شيخ ابن جرير، وهو ثقة، وروىٰ نحوه الطبراني من حديث أبي أمامة. والدارقطني (2/ 282).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7289) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. وأخرجه مسلم برقم(2358)، ورواه أحمد (1/ 176).

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7291) ـ الكتاب السابق. باب ما يُكره من كثرة السؤال، ومن تكلف ما لا يعنيه.

النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصَلّىٰ الظُّهرَ ، فلما سَلَّم قام على المِنْبَرِ فذكر الساعة ، وذكر أن بين يديها أموراً عِظاماً ، ثم قال: مَنْ أَحَبَّ أن يسألَ عن شيء فليسأَلْ عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكُمْ به ما دُمْتُ في مقامي هذا ، قال أنس: فأكثر الأنصار البكاء ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول: «سلوني» ، فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مَدْخَلِي يا رسول الله؟ قال: «النار» ، فقام عبد الله بن حُذافة فقال: مَنْ أبي يا رسول الله؟ قال: «أبوكَ حُذافَةُ». قال: ثم أكثر أن يقول: «سلوني سلوني» ، فَبَرَكَ عُمَرُ على رُكْبَتَيْهِ فقال: رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً ، قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمرُ ذلك ، ثم قال رسول الله ﷺ: أَوْلىٰ ، والذي نفسي بيده لقد عُرِضَتْ عليَّ الجنة والنار آنفاً في عُرْضِ هذا الحائط وأنا أصلي ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشَّرِ][1] .

الحديث الرابع: أخرج البخاري من حديث أبي عَوَانَةَ: حدّثنا عبدُ الملك عن وَرَّادٍ كاتبِ المغيرة قال: كتبَ معاوية إلى المغيرة: اكتبْ إليَّ ما سمعتَ من رسول الله ﷺ. فكتب إليه: إن نبيَّ الله ﷺ كان يقول في دُبُر كل صلاة: «لا إله إلا الله وحْده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مَانِعَ لما أعطيت ، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ، ولا ينفَعُ ذا الجدِّ مِنكَ الجَدُّ». وكتب إليه: إنه كان ينهىٰ عَنْ: قيلَ وقالَ ، وكَثْرَةِ السُّؤَالِ ، وإضاعةِ المال ، وكان ينهىٰ عن: عقوق الأمَّهات ، وَوَأد البناتِ ، ومَنْعٍ وهاتِ][2] .

الحديث الخامس: أخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: [دعوني ما تركتكم ، فإنما هَلَكَ مَنْ كان قَبْلَكُم سُؤَالُهُمْ واخْتِلافُهُمْ على أنبيائِهِمْ ، فإذا نَهَيْتُكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشيء فائْتوا منه ما استطعتم][3] .

الحديث السادس: أخرج الدارقطني بسند جيد عن أبي ثعلبة الخشني قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله فَرَضَ فرائضَ فلا تُضَيِّعُوها ، وحَرَّمَ حُرُمات فلا تَنتهكوها ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7294) ـ الكتاب السابق ، الباب السابق ، وانظر حديث (93) منه.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7292) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. الباب السابق. وانظر (844) منه.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (7288) ـ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وحَدَّ حُدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها][1] .

وقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

أي : عفا الله عما كان منكم من ذلك ، وهو سبحانه الغفور لِزَلاَّتِكُم ، الحليم بعباده وما يصدر عنهم .

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾ .

قال ابن عباس: (نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصارىٰ من المائدة ، فأصبحوا بها كافرين ، فنهىٰ الله عن ذلك) .

وقال السدي: (قد سأل الآيات قوم من قبلكم ، وذلك حين قيل له: غيِّر لنا الصفا ذهباً!) .

قال ابن جرير: (قد سأل الآيات قوم من قبلكم ، فلما آتاهموها الله أصبحوا بها جاحدين) .

103 ـ 104 . قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: ما بَحَرَ الله بحيرة ، ولا سيّب سائبة ، ولا وصل وصيلة ، ولا حمىٰ حامياً ، بل هي من صنع المشركين الذين حرموا ما لم ينزل الله به سلطاناً ، وافتروا على الله الكذب ، وجعلوا بعض هذه الأنعام وقفاً على الأوثان والأصنام ، وأكثرهم لا يعقلون. وإذا رُدّوا إلى التحاكم لله ولرسوله اعتزوا بآبائيتهم وجاهليتهم حتىٰ ولو كانت مهترئة فاسدة عفنة .

فقوله : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ .

البحيرة: الفعيلة ، من بَحَرْت أذن الناقة أي : شققتها. وهي: الناقة تُشَقّ أذنها

(1) أخرجه الدارقطني (ص 502) ، وكذلك أورده صاحب مشكاة المصابيح (197) ، وسنده جيد .

وتُخَلّىٰ للطواغيت ، فكانت العرب في الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر شقوا أذنها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تمنع عن ماء ولا مرعىٰ ، وإذا لقيها المَعْيِيُّ المنقطع به لم يركبها.

قال ابن عباس: (هي الناقة إذا نُتِجَت خمس أبطن نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكراً ذبحوه ، فأكله الرجال دون النساء. وإن كان أنثىٰ جدعوا آذانها ، فقالوا: هذه بحيرة).

وقال سعيد بن المسيب: (البحيرة: التي يُمْنَعُ دَرُّها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس) ذكره البخاري.

وأما السائبة: فهي الناقة تُسَيَّبُ للأصنام لنحو بُرْءٍ من مرضٍ أو نجاة في حرب ، فلا يحمل عليها ولا تحبس عن مرعىٰ ولا ماء.

قال مجاهد: (هي من الغنم نحو ما فُسِّرَ من البحيرة ، إلا أنها ما ولدت من وَلَدٍ بينها وبينه ستة أولاد كان على هيئتها ، فإذا ولدت السابعَ ذكراً أو ذكرين ذَبَحوه ، فأكله رجالُهم دون نسائهم).

وقال محمذ بن إسحاق: (السائبة هي الناقة إذا ولدت عَشْرَ إناثٍ من الولد ليس بينهنَّ ذكر ، سُيِّبت فلم تُرْكَب ، ولم يُجزّ وَبَرُها ، ولم يَحْلِب لبنَها إلا الضيف).

وقال أبو رَوْقٍ: (السائبة: كان الرجل إذا خَرَجَ فَقُضِيَتْ حاجتُه ، سَيَّبَ من ماله ناقةً أو غيرها ، فجعلها للطواغيت. فما ولدت من شيء كان لها).

وقال السُّدي: (كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عُوفِي من مرض أَوْ كَثُرَ ماله سيَّبَ شيئاً من ماله للأوثان ، فمن عَرَضَ له من الناس عُوقِبَ بعقوبة في الدنيا).

وأما الوصيلة: فهي الناقة تترك للطواغيت إذا بَكَّرت بأنثىٰ ثم ثَنَّتْ بأنثى. يقال: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر.

قال ابن عباس: (هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا السابع ، فإن كان ذكراً أو أنثىٰ وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى استحيوها ، وإن كان ذكراً وأنثىٰ في بطن استحيوهما وقالوا: وَصَلته أختُ فحرَّمته علينا) رواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

وقال محمد بن إسحاق: (الوصيلةُ من الغنم إذا ولدت عَشْر إناث في خمسة أبطن ،

توأمين في كل بطن ، سُمّيَت الوصيلةَ وتُركت ، فما وَلدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى ، جُعِلت للذكور دون الإناث ، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها)

وقال سعيد بن المسيب: (فالوصيلةُ من الإبل ، كانت الناقة تبتكِرُ بأنثى ، ثم تُثنّي بأنثى ، فيسمُّونها الوصيلة ، ويقولون: وَصَلت أنثيين ليس بينهما ذكر ، فكانوا يجدّعونها لطواغيتهم) رواه عبد الرزاق ، ورُوي نحوه عن الإمام مالك.

وأما الحام: فهو الفَحْلُ لا يُرْكَبُ ولا يُحْمَلُ عليه إذا ضربَ عشرة أبطن.

قال ابن عباس: (كان الرجلُ إذا لقح فحلُه عَشْراً ، قيل: حام ، فاتركوه).

وقال أيضاً: (وأما الحام فالفحلُ من الإبل ، إذا وَلد لولده قالوا: حَمى هذا ظهره ، فلا يحملون عليه شيئاً ، ولا يجزّون له وبراً ، ولا يمنعونه من حِمَىً رَعْيٍ ، ومن حَوْضٍ يُشْرَبُ منه ، وإن كان الحوضُ لغير صاحبه).

وقال ابن وَهْبٍ: سمعت مالكاً يقول: (أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل ، فإذا انقضى ضِرَابُه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيَّبُوه) ـ ذكره الحافظ ابن كثير في التفسير.

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذه المعاني ، في أحاديث صحيحة:

الحديث الأول: قال البخاري: حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن صالح بن كَيْسان ، عن ابن شهاب ، عن سعيد بن المسيب قال: [البحيرةُ: التي يُمنَعُ دَرُّها للطواغيت ، فلا يَحْلبها أحد من الناس. والسائبة: كانوا يُسَيِّبُونها لآلهتهم ، لا يُحْمَلُ عليها شيء ـ قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عَمْرو بن عامر الخزاعيّ يجرُّ قُصْبَهُ[1] في النار ، كان أوّل من سيَّب السوائب» ـ والوصيلةُ: الناقةُ البِكْرُ ، تُبكّر في أول نتاج الإبل ، ثم تُثنّي بعد بأنثى ، وكانوا يُسَيِّبُونها لطواغيتهم ، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكرٌ. والحام: فَحْلُ الإبل يَضرب الضِّرَابَ المعدود ، فإذا قضى ضرابه وَدَعُوه للطواغيت ، وأعفوه عن الحَمْل ، فلم يُحْمَل عليه شيء ، وسَمَّوه الحامِيَ][2].

---

(1) قصبه: أمعاءه. قال أبو عبيد: الأقصاب: الأمعاء.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4623) ، ومسلم (2856) ح (51) ، وأحمد (2/ 275) ، وكذلك (2/ 266) ، وابن حبان (6260) ، والطبري (12819) ، والبيهقي (10/ 109) ، وغيرهم.

الحديث الثاني: أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [رأيت جهنَّم يَحْطِمُ بعضُها بعضاً ، ورأيت عَمْراً يَجُرُّ قُصْبَهُ ، وهو أوَّلُ من سَيَّبَ السوائِب][1].

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: [إنّ أوّلَ من سَيَّبَ السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عَمرو بن عامر ، وإني رأيتُه يَجُرُّ أمعاءه في النار][2].

الحديث الرابع: أخرج ابن جرير بسند صحيح عن أبي هريرة قال: [سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثَمَ بن الجون: يا أكثمُ ، رأيتُ عَمْرو بن لُحَيِّ بن قَمَعَةَ بن خِندِفٍ يجر قُصْبه في النار ، فما رأيت رجلاً أشبه برجلٍ منكَ به ، ولا بهِ منك. فقال أكثم: تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ (وفي لفظ ابن إسحاق: عسىٰ أن يضرني شبهه يا رسول الله)؟ فقال رسول الله ﷺ: لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أوَّلُ من غيَّرَ دين إبراهيم ، وبَحَرَ البحيرة ، وسَيَّبَ السائبة ، وحَمى الحَامي][3].

الحديث الخامس: أخرج أحمد في المسند ، وابن جرير في التفسير ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» بسند قوي عن أبي الأحوص الجُشَمي ، عن أبيه مالك بن نَضْلَة قال: [أتيتُ النبي ﷺ في خُلْقَانٍ من الثياب ، فقال لي: هل لك من مال؟ قلت: نعم. قال: من أيِّ المالِ؟ قال: فقلت: من كُلِّ المال ، من الإبل والغنم والخيل والرقيق. قال: إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ عليك. ثم قال: تُنْتِجُ إبلُكَ وافيةً آذانُها؟ قال: قلت: نعم ، وهل تُنْتَجُ الإبل إلا كذلك؟ قال: فَلَعَلَّكَ تأخذ الموسى فتقطع آذانَ طائفةٍ منها وتقول: هذه بُحُرٌ ، وتشق آذان طائفة منها وتقول: هذه حُرُمٌ؟ قلت: نعم. قال: فلا تفعلْ ، إن كُلَّ مالٍ آتاك الله لكَ حِلٌّ ، ثم قال: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4624) ـ كتاب التفسير ـ عند هذه الآية من سورة المائدة.

(2) حديث حسن لشواهده. أخرجه أحمد (1/ 446) ، وابن أبي عاصم في «الأوائل» (129) ، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1677) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (2020).

(3) حديث صحيح. أخرجه الطبري في «التفسير» ـ حديث رقم ـ (12820) ، وأبو يعلىٰ (6121) ، وابن حبان (7490) ، ولمسلم نحوه. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) إسناده قوي. أخرجه أحمد (3/ 473) ، والطبري (12829) ، (12830) ، وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (2/ 76) ، وكرره أحمد (15457) ، والطبراني في «الصغير» (489).

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة، ولكنِ المشركون افتروا ذلك، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يَتَقَرَّبون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وَبَالٌ عليهم).

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

قال ابن جرير: (ويقولون: نحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة، قد اكتفينا بما أخذنا عنهم، ورضينا بما كانوا عليه من تحريم وتحليل).

وفي التنزيل: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 22]. فأعمتهم الآبائية المظلمة عن إبصار نور الحق، وكان تقليدها الأعمىٰ سبب هلاك لهم. ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

أي: كيف يتبعونهم ولم يكونوا أهل علم أو صلاح أو اتباع لمنهج الرسل، بل كانت الجاهلية بأعرافها هي التي تحكمهم، وهي التي يعظمونها من دون شرع الله عز وجل! أَمَا وآباؤهم ليسوا أهل علم وهداية وطريق مستقيم فلا يصلحون للاتباع.

105. قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾.

في هذه الآية: يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاهتمام بإصلاح نفوسهم ودينهم، وأن يبذلوا وسعهم في ذلك، ثم لا يضرهم من اختار الضلال إذا جهدوا في إقامة الدين في خاصتهم مع ما قدروا عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمآل إلى الله سبحانه، وهناك يخبر تعالى عباده بأعمالهم ويثيبهم عليها عدل الجزاء.

فقوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾.

نصب على الإغراء. والتقدير: احفظوا أنفسكم من الزلل والآثام.

وقد جاءت السنة الصحيحة بآفاق ومعاني هذه الآية، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد وأبو داود بسند صحيح عن قيس، قال: قال

أبو بكر ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: [يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ، وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما مِنْ قوم يُعْمَلُ فيهم بالمعاصي ، ثم يقدرون على أن يغيروا ، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب][1].

قال سعيد بن المسيب: (﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ ، قال: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، لا يضرك من ضل إذا اهتديت).

الحديث الثاني: أخرج أبو داود وابن ماجة بسند حسن عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما مِنْ رَجُلٍ يكون في قوم يَعمَلُ فيهم بالمعاصي يقدرون على أن يغيّروا عليه فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا][2].

الحديث الثالث: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن رسول الله ﷺ قال: [كيف بكم وبزمان ـ أو يوشك أن يأتي زمان يُغربَلُ الناسُ فيه غَربلةً تبقىٰ حُثَالةٌ مِنَ الناس ، قَدْ مَرِجتْ عُهودهم وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ، وشبك بين أصابعه ، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون ما تعرفون ، وتذرون ما تنكرون ، وتقبلون على أمر خاصّتكم ، وتذرون أمر عامّتِكم][3].

106 ـ 108. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (1/5) ، وأبو داود (4338) ، والترمذي (2168) ، وابن ماجة (4005) ، وغيرهم. من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(2) حديث حسن. أخرجه أبو داود (4339) ، وابن ماجة (4009) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3646) بإسناد حسن ، من حديث جرير رضي الله عنه مرفوعاً.

(3) حديث صحيح. أخرجه أبو داود (4342) ، وأخرجه ابن ماجة (3957) ، وانظر صحيح سنن أبي داود (3648). من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يا أيها الذين آمنوا ليشهد بينكم وقت الوصية عند الموت اثنان ذوا رشد وعقل من المسلمين أو آخران من غير أهل ملتكم ـ من أهل الكتاب ـ إن أنتم سافرتم ذاهبين وراجعين في الأرض فنزل بكم الموت فأوصيتم إليهما، ودفعتم إليهما ما كان معكم من مال وتركة لورثتكم، فإنكم تحبسونهما من بعد الصلاة، فيحلفان بالله ـ إن اتهمتموهما بخيانة ـ لا نشتري بأيماننا بالله ثمناً، فلا نحلف كاذبين لجحد حق أو مال، ولو كان الذي نقسم له ذا قرابة منا. فإن ظهر منهما خيانة أنهما كذبا أو كتما فيقوم حينئذ مقامهما من ورثة الميت، فيحلف أولياء الميت أنه كان كذا وكذا، أو أن شهادة الكافرين باطلة، وما اعتدينا إنا إذن لمن الظالمين. وهذا الفعل، إن فعلتم بهم، أقرب لهم أن يصدقوا ولا يخونوا، خشية الفضيحة وحذراً أن ترد الأيمان إلى أولياء الميت فيكشف صنيعهم، فخافوا الله أيها الناس واسمعوا والله لا يوفق مَنْ فَسَقَ عن أمر ربه وخان الأمانة.

أخرج البخاري في صحيحه، وأبو داود في سننه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [خرج رجلٌ من بني سَهْمٍ مَعَ تميم الداريِّ وعَدِي بن بَدَّاءٍ، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جَاماً[1] من فضة مُخَوَّصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ثم وجدوا الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾][2].

فقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ﴾.

قال النسفي: (ارتفع اثنان لأنه خبرُ المبتدأ وهو شهادة، بتقدير: شهادة بينكم شهادة اثنين، أو لأنه فاعل «بينكم»، أي: فيما فرض عليكم أن يشهد اثنان. واتسع في

(1) الجام: الإناء.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2780)، وأبو داود (3606)، والترمذي (3060)، وغيرهم.

بين فأضيف إليه المصدر ، وإذا حضر ظرف للشهادة ، وحين الوصية بدل منه ، وفي إبداله منه دليل على وجوب الوصية ، لأن حضور الموت من الأمور الكائنة ، وحين الوصية بدل منه ، فيدل على وجود الوصية ، ولو وجدت بدون الاختيار لسقط الابتلاء ، فنقل إلى الوجوب ، وحضور الموت مشارفته وظهور أمارات بلوغ الأجل).

وقوله: ﴿ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ .

فيه أقوال:

1 ـ قال ابن عباس: (ذوا عدل من أهل الإسلام). وقال سعيد بن المسيب: (اثنان من أهل دينكم). وقال عبيدة: (من الملة). أو قال: (من أهل الملة).

2 ـ قال عكرمة: (ذوا عدل من حي الموصي).

3 ـ قال النسفي: (﴿ ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لاثنين ﴿ مِّنكُمْ﴾ من أقاربكم لأنهم أعلم بأحوال الميت).

قلت: والراجح أن المقصود من المسلمين. وهو مذهب الجمهور. فإن كانوا كذلك من قرابته أو من أهل حيّه فهذا أفضل لعلمهم بأحوال الميت وأهله.

وقوله: ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ .

قال ابن عباس: (من غير المسلمين ، يعني: أهل الكتاب) ـ رواه ابن أبي حاتم بسنده عنه.

وقال عكرمة: (أي: من غير قبيلة الموصي) ـ ذكره ابن جرير. والأول أصح ويدل عليه السياق.

وقوله: ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . أي: سافرتم. ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

قال القرطبي: (وفي الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم في الأرض ﴿فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِۚ ﴾ فأوصيتم إلى اثنين عدلين في ظنكم ، ودفعتم إليهما ما معكم من المال ، ثم متم وذهبا إلى ورثتكم بالتركة فارتابوا في أمرهما ، وادّعوا عليهما خيانة ، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة ، أي: تستوثقوا منهما. وسمىٰ الله تعالىٰ الموت في هذه الآية مصيبة. قال علماؤنا: والموت وإن كان مصيبة عظمىٰ ، ورزية كبرىٰ ،

فأعظم منه الغفلة عنه ، والإعراض عن ذكره ، وترك التفكر فيه ، وترك العمل له ، وإن فيه وحده لعبرة لمن اعتبر ، وفكرة لمن تفكر).

وقوله: ﴿ تَحۡبِسُونَهُمَا ﴾ .

صفة لآخران. واعترض بين الصفة والموصوف بقوله: ﴿ إِنۡ أَنتُمۡ ﴾. وهذه الآية أصل في حبس من وجب عليه.

قال الخطابي: (الحبس على ضربين: حبس عقوبة ، وحبس استظهار. فالعقوبة لا تكون إلا في واجب ، وأما ما كان في تهمة فإنما يستظهر بذلك ليستكشف به ما وراءه).

وعن ابن سيرين قال: (كان شُريح إذا قضىٰ على رجل بحق أمر بحبسه في المسجد إلى أن يقوم ، فإن أعطاه حقه وإلا أمر به إلى السجن) رواه معمر عن أيوب عنه.

قال القرطبي: (والحقوق على قسمين: منها ما يصلح استيفاؤه معجّلاً ، ومنها ما لا يمكن استيفاؤه إلا مؤجّلاً ، فإن خُلّي مَنْ عليه الحق غاب واختفىٰ وبطل الحق وتوِي[1] فلم يكن بدّ من التوثق منه ، فإما بعِوض عن الحق وهو المسمى رهناً ، وإما بشخص ينوب منابه في المطالبة والذمة وهو الحمِيل[2] ، وهو دون الأول ، لأنه يجوز أن يغيب كمغيبه ويتعذر وجوده كتعذره ، ولكن لا يمكن أكثر من هذا ، فإن تعذرا جميعاً لم يبق إلا التوثق بحبسه حتىٰ تقع منه التوفية لما كان عليه من حق ، أو تبيّن عسرته.

قال: فإن كان الحق بَدَنِيّاً لا يقبل البدل كالحدود والقصاص ولم يتفق استيفاؤه معجّلاً ، لم يكن فيه إلا التوثق بسجنه ، ولأجل هذه الحكمة شرع السجن ، روىٰ أبو داود والترمذي وغيرهما عن بَهْزِ بن حكيم عن أبيه عن جده: [أن النبي ﷺ حبس رجلاً في تهمة][3]. وروىٰ أبو داود عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه عن رسول الله ﷺ

---

(1) توى المال: ذهب فلم يرج.
(2) الحميل: هو الكفيل.
(3) حديث حسن. أخرجه أبو داود (3630) ، والترمذي (1417) ، وانظر صحيح سنن الترمذي (1450). من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده مرفوعاً.

قال: [لَيُّ الواجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وعُقُوبتَه][1]. قال ابن المبارك: يُحِلُّ عِرضَه يُغَلَّظ له، وعقوبته يُحبَس له).

وقوله: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ .

فيه أقوال:

1 ـ قال العوفي عن ابن عباس: (يعني صلاة العصر). وقال الحسن: (صلاة الظهر).

2 ـ قال الزهري: (يعني صلاة المسلمين).

3 ـ وقال السدي: (يعني صلاة أهل دينهما) ـ يعني إن كانا من غير المسلمين.

4 ـ وقال القرطبي: (يريد صلاة العصر، قاله الأكثر من العلماء، لأن أهل الأديان يعظمون ذلك الوقت ويتجنبون فيه الكذب واليمين الكاذبة).

5 ـ وقيل: إن فائدة اشتراطه بعد الصلاة تعظيماً للوقت، وإرهاباً به، لشهود الملائكة ذلك الوقت.

قلت: والراجح إطلاق لفظ الصلاة كما أطلقها الله تعالىٰ، فالمراد اجتماع الناس وشهود الأمر بين المتخاصمين، كما قال ابن كثير رحمه الله: (والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم).

وقوله: ﴿ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ ﴾ .

أي: فيحلفان بالله.

وقوله: ﴿ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ ﴾ .

أي: إن شككتم في أمانتهما، أو ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلا فيحلفان حينئذ بالله ﴿لا نشتري به ثمناً﴾. قال ابن زيد: (نأخذ به رشوة).

أي: لا نشتري بقسمنا عوضاً نأخذه ـ بدلاً مما أوصىٰ به ـ من عرض هذه الدنيا الفانية.

---

(1) إسناده قوي. أخرجه أبو داود في السنن (3628). انظر صحيح سنن أبي داود (3086). ورواه ابن ماجة (2427). ورواه أحمد والنسائي والحاكم. انظر تخريج المشكاة (2919)، وصحيح الجامع (5363). من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه مرفوعاً.

وقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾

قال النسفي: (أي: لا نحلف بالله [illegible] له قريباً منا).

وقوله: ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ ٱللَّهِ ﴾.

قال ابن كثير: (أضافها إلى الله تشريفاً [illegible]).

وقوله: ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴾.

أي: إن كتمنا أو حرّفنا الشهادة [illegible] القاسمي: (أي: المعدودين من المستقرين [illegible]).

أخرج أبو داود بسند صحيح عن الشعبي [illegible] بِدَقُوقاء[1] هذه، ولم يجد أحداً من [illegible] أهل الكتاب، فقدما الكوفة فأتيا أبا موسى الأشعري [illegible]، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي [illegible] بعد العصر، بالله ما خانا ولا كذبا، ولا بدّلا [illegible] وصية الرجل وتركته، فأمضى شهادتهما][2].

وقوله: ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا [illegible] ٱلْأَوْلَيَٰنِ ﴾ الآية.

قال قتادة: (أي: اطلع منهما على خيانة [illegible]).

وقال ابن عباس: (فإن حلفا على شيء يخالف [illegible] من الورثة، يعني اللذين ليسا من أهل الإسلام، ﴿ فَـَٔاخَرَانِ [illegible] ﴾ [illegible] فيحلفان بالله: «ما كان صاحبنا ليوصي بهذا [illegible]، ولشهادتنا أحق من شهادتهما»). والقراءة المشهورة: «الأوليان» [illegible] فيكون المعنى عندئذ كما قال ابن كثير: (أي: متى تحقق [illegible] فليقم

---

(1) دقوقاء: بلد بين بغداد وإربل [illegible].

(2) صحيح الإسناد ـ إن كان الشعبي سمعه من أبي [illegible] الذمة في الوصية في السفر. وانظر صحيح سنن أبي [illegible].

اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أوّلي من يَرِث ذلك المالَ ، ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا ﴾ ، أي: لقولنا إنهما خانا أحقُّ وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ ﴾ ، أي: فيما قلنا من الخيانة ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ، أي: إن كنا قد كذبنا عليهما).

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ ﴾ .

قال قتادة: (ذلك أحرى أن يصدقوا في شهادتهم ، وأن يخافوا العَقِب[1]).

وقال ابن كثير: (أي: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضيِّ ، من تحليف الشاهدين الذميين وقد استُرِيب بهما ، أقربُ إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي).

وقوله: ﴿ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ .

فيه تخويف لهم من الفضيحة بين الناس إذا رُدَّت اليمين على الورثة.

قال ابن زيد: (فتبطل أيمانهم ، وتؤخذ أيمانُ هؤلاء).

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ .

أي: خافوا الله أيها الناس حق مخافته وأطيعوا أمره وأدوا الأمانات إلى أهلها.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

أي: الخارجين عن طاعة الله والخوف منه ، والمستحلين لأنفسهم الحلف الكاذب وأكل أموال الناس بالباطل. قال ابن زيد: (﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ، الكاذبين ، يحلفون على الكذب). ولكن الآية عامة في كل فاسق ، فتشمل كل أنواع الفسق. كما اختار ذلك شيخ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله.

109 . قوله تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

في هذه الآية: إخبارٌ من خطاب الله سبحانه يوم القيامة المرسلين بماذا أجيبوا من

(1) العَقِب: العاقبة.

أقوامهم وأممهم حين دعوهم إلى التوحيد وإفراد الله سبحانه بالتعظيم ، فقالوا لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا .

فقوله : ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ .

كقوله في سورة الأعراف : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾ . وكقوله في سورة الحجر : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ .

وقوله : ﴿ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ .

قال مجاهد : (إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم) .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ .

قال ابن جريج : (معنى قوله : ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ ماذا عملوا بعدكم؟ قالوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾) .

قال أبو عبيد : (ويشبه هذا حديث النبي ﷺ أنه قال : «يرد عليّ أقوام الحوض فيختلجون فأقول أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك») .

قلت : وهذا في الصحيح . فقد أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [لَيَرِدَنَّ عليَّ ناسٌ مِنْ أصحابي الحوضَ حتىٰ إذا عرفْتُهُمُ اخْتُلِجوا دوني فأقول : أصحابي ، فيقول : لا تدري ما أحدثوا بَعْدَك][1] .

وكذلك أخرج البخاري عن أبي هريرة أنه كان يُحَدِّثُ أن رسول الله ﷺ قال : [يَرِدُ عَلَيَّ يوم القيامة رَهْطٌ من أصحابي ، فَيُجْلَوْنَ عَنِ الحَوضِ فأقول : يا ربِّ أصحابي ، فيقول : إنك لا عِلْمَ لك بما أَحْدَثُوا بَعْدَك ، إنهم ارتدّوا على أدْبارهم القَهْقَرىٰ][2] .

قال الماورديّ : (فإن قيل : فلم سألهم عما هو أعلم به منهم؟ فعنه جوابان : أحدهما ـ أنه سألهم ليعلمهم ما لم يعلموا من كفر أممهم ونفاقهم وكذبهم عليهم من بعدهم .
الثاني ـ أنه أراد أن يفضحهم بذلك على رؤوس الأشهاد ليكون ذلك نوعاً من العقوبة لهم) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (6582) ـ كتاب الرقاق ـ باب : في الحوض .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في صحيحه (6585) ـ كتاب الرقاق ـ باب : في الحوض .

110 ـ 111. قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إذ قال الله سبحانه يا عيسى اذكر أياديّ عندك وعند والدتك ، إذ قويتك برُوح القدس وأعنتك به صغيراً في المهد وكهلاً ، وكذلك اذكر نعمتي عليك إذ علمتك الخط والفهم لمعاني التنزيل ، وكذلك إذ تعمل وتصلح من الطين كصورة الطير بعوني على ذلك ، فتنفخ في الهيئة ، فتكون طيراً بإذني ، وتشفي الأعمىٰ والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتىٰ بإذني ، واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفّي عنك من همّ بقتلك من بني إسرائيل حين جئتهم بالأدلة المعجزة المثبتة لنبوتك فقال الذين تمرّدوا كبراً وجحدوا نبوتك وكذبوك إن هذا إلا سحر مبين. ثم اذكر كذلك إذ ألقيت إلى الحواريين أن صدقوا بي وبرسولي عيسىٰ فقالوا آمنا وصدقنا واشهد علينا بأننا سامعون مطيعون نازلون عند أمرك ، مستسلمون لقضائك.

فقوله: ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾.

قال ابن كثير: (﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾ أي: في خلقي إياك من أمٍّ بلا ذَكَرٍ ، وجعلي إياك آية ودلالةً قاطعة على كمال قُدرتي على الأشياء ، ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ ، حيث جَعلْتُك لها برهاناً على براءتها مما نَسَبَهُ الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة ، ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ ، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ وجعلتُكَ نبياً داعياً إلى الله في صِغَرِكَ وكبرك ، فأنطقتك في المهد صغيراً ، فَشَهِدْتَ ببراءة أمِّكَ من كُلِّ عيب ، واعترفت لي بالعبودية ، وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوتِكَ إلى عبادتي ، ولهذا قال

تعالىٰ: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ، أي: تدعو إلى الله الناس في صِغَرِك وكِبَرِك. وضُمِّنَ ﴿تكلم﴾ تدعو ، لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب).

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي : الخط والفهم.

قال ابن جرير: (﴿إذ علمتك الكتاب﴾ ، وهو الخط ، ﴿والحكمة﴾ ، وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك ، وهو الإنجيل)

وقوله: ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾.

أي : الكتاب الذي أنزل على موسىٰ ، والكتاب الذي أنزل عليك.

وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾.

أي : تجعل من الطين على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك التشكيل والتصوير.

وقوله: ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾.

أي: ثم تنفخ في ما شكّلت من تلك الصورة فإذا بها طائر له روح ، يتحرك ويطير بإذن الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾.

أي : وتشفي ﴿الأكمه﴾ وهو الأعمىٰ الذي لا يبصر ، كما تعالج الأبرص فيشفىٰ بإذن الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾.

قال ابن كثير: (أي: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقُدرته ، وإرادته ومشيئته).

وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قال القرطبي: (﴿كففت﴾ معناه دفعت وصرفت ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ حيث هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: الدلالات والمعجزات ، وهي المذكورة في الآية.

﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بك وجحدوا نبوّتك. ﴿ إن هذا ﴾ أي: المعجزات. ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾).

وقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾.

الوحي أقسام: وحي التنزيل، ووحي الإلهام، ووحي الإعلام.

1 ـ فوحي التنزيل: هو الوحي من الله تعالى بإرسال جبريل إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

2 ـ ووحي الإلهام: هو إفهام الله تعالىٰ بعض عباده بأمر يريده أو يحبه، كما في هذه الآية.

3 ـ وحي الإعلام: ويكون في اليقظة والمنام. قال أبو عبيدة: (أوحيت بمعنى أمرت). وفي التنزيل قوله تعالىٰ: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: 5].

أما في لغة العرب: الوحي معناه الإلهام. وهو المعنىٰ المراد هنا بهذه الآية، وهو القسم الثاني من أقسام مفهوم الوحي في الكتاب والسنة.

فيكون المعنىٰ: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ أي: ألهمتهم وأفهمتهم وقذفت في قلوبهم ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾. قال السدي: (﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾، يقول: قذفت في قلوبهم). وقال الحسن البصري: (ألهمهم الله ـ عز وجل ـ ذلك)، فصدقوا وآمنوا وامتثلوا ما أمروا به من الله تعالىٰ.

قال ابن كثير: (ويُحْتَملُ أن يكون المرادُ: وإذ أوحيت إليهم بواسطتك، فدعوتُهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك، فقالوا: ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾).

112 ـ 115. قوله تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً

مِنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: ذِكْرُ قصة المائدة التي بها تسمىٰ هذه السورة، يقول تعالى: واذكر يا عيسىٰ كذلك من جملة نعمي عليك، حين أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي، إذ قالوا لعيسىٰ بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء، فأجابهم عيسىٰ عليه الصلاة والسلام مستعظماً لما قالوه: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، وأمرهم بالتوبة والاستغفار من مغبة ما قالوا. فأجابوه أنهم قالوا ذلك رغبة في الأكل من تلك المائدة ليزدادوا يقيناً وإيماناً بالله وقدرته وجبروته. فهنالك دعا عيسىٰ ربه وسأله مائدة تنزل عليهم من السماء فيكون ذلك اليوم يوماً عظيماً في حياتهم وحياة من بعدهم يتذكرون به صفات الله وكرمه عليهم وأياديه الحسنىٰ فيزدادون بذلك عبادة له وتعظيماً. فاستجاب الله تعالىٰ دعاء نبيّه عليه السلام وأنزل المائدة وتوعّد من كفر بعد هذه الآية العظيمة عذاباً ما عاقبه أحد قبل ذلك.

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾.

فلقد سأل الحواريون عيسىٰ بن مريم ـ جهلاً منهم ـ بقولهم ذلك وآفاق مدلولاته، فهم بلفظهم الذي اختاروه كأنهم يجهلون أن الله على كل شيء قدير، ومن كذّب بقدرة الله فهو كافر، ولكن الجهل كان عذراً لهم عند الله ورسوله عليه السلام.

قال ابن جرير: (قال عيسى للحواريين: راقبوا الله، أيها القوم، وخافوه، أن يَنْزِلَ بكم من الله عقوبة على قولكم هذا، فإن الله لا يعجزه شيء أراده. وفي شكّكم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء، كفرٌ به، فاتقوا الله أن يُنْزِل بكم نقمته).

قلت: وهذه الآية دليل صريح أن الجاهل معذور بجهله. فإن من ثبتَ له الإسلام لا يُنْزَعُ منه إلا بما ينقُضُ الإسلام، ومن ثم فإن القصد والنية شرط صحة الأعمال، فالجاهل الذي صدر منه ما ينقض إيمانه ولم يقصد ذلك معذور إلى أن يحصل له العلم والبيان.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

تأكيدُ أنَّ ما قالوه أرادوا به زيادة الإيمان والثبات على الصدق، والإخلاص بمتابعة عيسى عليه السلام. فقالوا: ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾: أي: لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها. وهذا تفسير أقرب من التفسير الذي ذهب إليه آخرون أنهم قالوا ذلك لحاجتهم إلى الأكل منها.

وقوله: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾.

أي: إذا شاهدنا نزولها، وتمتعنا بهذا الرزق المباشر من الله تعالى من السماء. وذكر الماورديّ أن تأويل ذلك يحتمل ثلاثة أوجه:

1 ـ تطمئن قلوبنا إلى أن الله تعالىٰ قد بعثك إلينا نبياً.

2 ـ تطمئن قلوبنا إلى أن الله تعالىٰ قد اختارنا لدعوتنا.

3 ـ تطمئن قلوبنا إلى أن الله تعالىٰ قد أجابنا إلى ما سألناه.

وقال الثعلبي: (نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا).

وقال المهدويّ: (أي: تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا) ذكره القرطبي.

قلت: وكل ما سبق يدخل في آفاق قوله تعالىٰ عنهم: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾، فإن طمأنينة القلب بالإيمان وبرضىٰ الرحمان هي غاية سعادة العبد في الدنيا قبل الآخرة. قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28].

قال قتادة: (يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به). وقال ابن جرير: (ألا بذكر الله تسكن وتستأنس قلوبُ المؤمنين).

أخرج الإمام أحمد في المسند بسند صحيح، عن أبي ثعلبة، عن النبي ﷺ قال: [البرُّ ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب، وإن أفتاك المفتون][1].

(1) حديث صحيح. رواه أحمد بسند صحيح من حديث أبي ثعلبة. انظر تخريج المشكاة (2774)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (2878).

قال ابن القيم: (فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني علم أنه دينه الحق وهو صراطه المستقيم. وهو ناصره وناصر أهله وكافيهم ووليهم).

وقوله: ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ .

أي : بأنك رسول الله. قال ابن كثير: (أي: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك).

وقوله: ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ .

أي : لله بالوحدانية ، ولك بالرسالة والنبوة ، فنثبت بذلك على الإيمان بعد رؤية ومعاينة هذه الآية العظيمة.

وقوله: ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ .

فيه أقوال متقاربة متكاملة:

1 ـ قال السدي: (أي : نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومَنْ بعدنا).

2 ـ قال سفيان الثوري: (يعني يوماً نصلي فيه).

3 ـ قال قتادة: (أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم).

4 ـ وعن سلمان الفارسي: (عِظةً لنا ولمن بعدنا). وقيل: (كافية لأولنا وآخرنا) ، ذكره ابن كثير.

وقوله: ﴿ وَآيَةً مِّنكَ ﴾ .

يعني: دليلاً على قدرتك ، وإجابتك الدعاء ، وحجة لنا لمتابعة الطريق في الإيمان والدعوة والجهاد.

وقوله: ﴿ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

أي: نسألك رزقاً من عندك، فأنت خير من أعطىٰ وكفىٰ ، ورزق وبارك وعافى.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أي: استجاب الله ذلك الدعاء ، وتوعّد من كذب بها بعد ذلك أشدَّ العذاب.

قال القرطبي: (هذا وعد من الله تعالىٰ أجاب به سؤال عيسىٰ كما كان سؤال عيسىٰ

إجابة للحواريين ، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق ، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير. قال ابن عمرو: إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون).

116 ـ 118. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)﴾.

في هذه الآيات: خِطابٌ من الله سبحانه لنبيّه عيسىٰ عليه السلام يوم القيامة أمام من اتخذه وأمه إلٰهين من دون الله: أأنت قلت للناس أو أمرتهم ليتخذوك وأمك إلٰهين من دوني؟ فأجاب بقوله: سبحانك ، هذا أمر لا ينبغي أن يصدر من مثلي ، فلو كنت قلته لقد علمته ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وما أحد من خلقك يعلم ما في نفسك ، بل أنت علام الغيوب. كُلُّ ما أمرتهم أن اعبدوا الله ربي وربكم وأفردوه بالعبادة والخضوع والتعظيم ، وكنت قائماً على حفظ ذلك حياتي فيهم ، فلما غادرتهم إليك كنت أعلم بهم مني وأنت على كل شيء شهيد. فإن عذبتهم فالأمر لك وهم عبادك ، وإن غفرت لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

فقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

تهديد ووعيد للنصارىٰ ، وتوبيخ وتقريع لهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ، فإن عيسىٰ عليه الصلاة والسلام سيتبرأ اليوم من شركهم أمام بارئهم عز وجل. واختار ابن جرير أن ذلك كان حين رفعه الله ، ولكن السياق يدل أن ذلك يوم القيامة ، وكما ستدل عليه نصوص الأحاديث القادمة إن شاء الله.

قال ابن جريج: (﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: والناس يسمعون ، فراجعه بما قد رأيت ، وأقرّ له بالعبودية على

نفسه ، فعلم من كان يقول في عيسىٰ ما يقول : أنه إنما كان يقول باطلاً) .

وقوله : ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ .

قال القرطبي : (وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين ، أحدهما ـ تنزيهاً له عما أضيف إليه . الثاني ـ خضوعاً لعزته ، وخوفاً من سَطْوتِه . ثم قال : ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ : أي : أن أدعي لنفسي ما ليس من حقها ، يعني أنني مربوب ولست برب ، وعابد ولست بمعبود) .

ثم قال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ .

قال النسفي : (إن صح أني قلته فيما مضىٰ فقد علمته ، والمعنىٰ أني لا أحتاج إلى الاعتذار لأنك تعلم أني لم أقله ، ولو قلته لعلمته لأنك ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ ذاتي ﴿ وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ذاتك) .

ولا شك أن الله سبحانه أراد بذلك السؤال تنزيه نبيِّه عيسىٰ عليه الصلاة والسلام أمام الخلائق يوم القيامة مما نسب إليه المدعون الانتساب إليه من أهل الكتاب ، وليكون ذلك تقريعاً بالحجة والبرهان من كلام عيسىٰ ﷺ لمن ارتضىٰ واتخذه إلهاً من دون الله تعالىٰ .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾ .

أي : ما كان وما يكون ، وما لم يكن ، وما هو كائن ، وما لن يكون ، ولكن إن قُدّر له أن يكون كيف سوف يكون .

وقد بسطت القول في ذلك في أبحاث القدر ضمن كتابي : أصل الدين والإيمان ، عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، فللّه الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ .

أي : ما دعوتهم إلا إلى توحيدك وتعظيمك وإفرادك بالطاعة والعبادة والحاكمية والتشريع ، فزَلّ قوم منهم بعدي واتبعوا سبل الشياطين فصدوهم عن سبيلك وهديك .

ولذلك قال : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ .

أخرج البخاري ومسلم وبعض أصحاب السنن عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال :

[يا أيها الناس! إنكم تحشرون إلى الله حُفَاةً عُراةً غُرْلاً[1] ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ ألا وإن أول الخلائق يُكْسَىٰ يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم][2] .

وفي ختم الآيات بقوله: ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ . نكتة بديعة :

قال القرطبي: (ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره ، والتفويض لحكمه. ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شِرْكه وهذا مستحيل ، فالتقدير: إنْ تُبْقِهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تَهدهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده ، الحكيم فيما تفعله ، تضل من تشاء وتهدي من تشاء).

119 ـ 120. قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: خَتْمُ الله الكلام بعد سماع تبري نبيّه عيسىٰ عليه الصلاة والسلام يوم القيامة من النصارىٰ الملحدين الذين أشركوا به ونسبوا لعبده المسيح عليه السلام الألوهية كذباً وافتراء ـ بقوله جل ذكره: هذا يوم ينفع أهل الصدق في عبادة الله صدقهم في توحيد الله وتعظيمه واتباع رسله دون تأليههم ، وقد أعدّ الله جلت عظمته لهم أشرف استقبال ومقام في جنات تجري تحتها الأنهار وقد حظوا برضوان الله أبداً وذلك الفوز العظيم. فسبحان من له ملك السماوات والأرض وما فيهن من خلائق وعوالم وهو

(1) غُرْلاً: أي دون ختان ، كما خلقهم ربهم تعالىٰ أول مرة.
(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4625) ، (4740) ، ومسلم (2860) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (2151) ، وأخرجه الترمذي (1423) ، والنسائي (4/ 114) ، وأخرجه أحمد (1/ 229).

القوي المهيمن الجبار الأحد الصمد القدير. لا يعجزه شيء في هذا الكون الفسيح، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

فقوله: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾.

قال ابن عباس: (يوم ينفع الموحدين توحيدهم).

قال القرطبي: (أيْ صدقهم في الدنيا، فأما في الآخرة فلا ينفع فيها الصدق). وأراد بذلك صدق العمل لله وتصديق الرسل. وقال غيره: (المراد صدقهم في الآخرة، وذلك في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ، وفيما شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم، ويكون وجه النفع فيه أن يُكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم).

قلت: والآية تدل من السياق على أن الصدق المنجي للعبد يوم القيامة هو صدق التوحيد لله سبحانه وصدق إخلاص العمل لوجهه واتباع منهاج رسله، وإن كانت بعض المواقف يفيد فيها النطق بالحق يوم القيامة، كالشهادة للرسل بالبلاغ، وكقصة أصحاب الأعراف، ولكن هذا لا يكفي وحده للنجاة يوم الحساب ما لم يكن يسبقه صدق الإقرار بشهادة أن لا إله إلا الله.

أخرج أبو يعلىٰ والبزار بسند صحيح في الشواهد، عن أنس قال: [قال رسول الله ﷺ لرجل: يا فلان! فعلت كذا؟ قال: لا والذي لا إله إلا هو! والنبي ﷺ يعلم أنه قد فعله، فقال له: إنّ الله قد غفر لك كَذِبَكَ بتصديقك بـ «لا إله إلا الله»][1].

وروى أحمد وأبو داود نحوه، وفي لفظه: [فقال رسول الله ﷺ: قد فعلت، ولكن غُفِرَ لك بإخلاصك قول: لا إله إلا الله][2].

وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) حديث صحيح في الشواهد. أخرجه البزار (4/ 7/ 3068)، وأبو يعلىٰ في «مسنده» (6/ 104/ 3368)، والبيهقي في «السنن» (10/ 37)، وانظر مسند أحمد (2/ 68)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (3064).

(2) صحيح لشواهده. أخرجه أحمد (1/ 253)، (1/ 289)، (2/ 70)، وأخرجه أبو داود (3275) من حديث ابن عباس، وكذلك أخرجه أبو داود (3620) عن أبي الأحوص ـ مختصراً ـ.

[أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقىٰ الله بهما عبدٌ غير شاك فيهما إلا دخل الجنة . (وفي رواية : فيحجبَ عن الجنة)][1] .

وله شاهد عند أبي يعلىٰ من حديث عمر بلفظ : [أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يأتي بهما عبدٌ مُحِقٌّ إلا وقاه الله حرَّ النار][2] .

وقرأ نافع وبعض أهل الحجاز والمدينة ﴿يَوْمَ ينفع﴾ بنصب ﴿يَوْم﴾ على الظرفية أو غير ذلك . ورفع الباقون ، ومنهم قراء العراق : ﴿يومُ ينفع﴾ أي : خبر لهذا . وهناك قراءة ثالثة : ﴿يومٌ ينفعُ﴾ وهي قراءة الأعمش . والقراءتان الأولىٰ والثانية مشهورتان أكثر .

وقوله : ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ .

أي : من تحت غرفها وأشجارها ، وقد بشرهم الله بالخلود في هذا النعيم ، فهو لا يزول عنهم ولا يُزالون عنه .

وقوله : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ .

أي : هذا هو سبب ذلك النعيم وهذا الخلود ، حصول الرضا من الله عنهم ، بعد أن رضوا بالله رباً وبنبيه رسولاً ، وبالإسلام ديناً .

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

أي : الظفر الكبير والغنيمة العظمىٰ ، فلا شيء في هذا الوجود أجل من رضوان الله ، ولاشيء أجمل من جنة الله التي تتألف من جنان ثمان ، تعلوها جنة الفردوس .

أخرج ابن حبان في صحيحه ، بسَند على شرط الشيخين ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : [إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله عز وجل : هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ فيقولون : ربنا وما فوق ما أعطيتنا؟ قال : فيقول : رضواني أكبر][3] .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (1/ 42) . انظر مختصر صحيح مسلم (10) ص (10) كتاب الإيمان . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(2) صحيح لشواهده . أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (1/ 199 ـ 200/ 230) ـ والسياق له ـ ، وأخرجه البزار (1/ 13/ 11) ـ مختصراً ـ . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ، رقم (3221) .

(3) حديث صحيح . أخرجه ابن حبان (2647) ، والحاكم (1/ 82) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، وأقره الألباني . انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1336) ، ورواه ابن جرير (6/ 262/ 6751) ، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (2/ 141 / 1) ، وغيرهم .

وقوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾.

المعنىٰ: لله سلطان السماوات والأرض وما فيهن دون عيسىٰ ودون أمه ودون جميع خلقه، فهو المالك القهار لا يحتاج إلى خلقه، يدبر الأمر من فوق عرشه، والكل مفتقر إلى رحمته ومغفرته، وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: 54].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: 54].

وقال جل ثناؤه: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: 27].

أخرج الترمذي بسند حسن عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ قال: [خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير][1].

تم تفسير سورة المائدة

بعون الله وتوفيقه، وواسع مَنِّه وكرمه

❑ ❑ ❑

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (3837). وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم ـ (2837). باب في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (1503).

دروس ونتائج وأحكام

1 ـ المسلمون عند شروطهم ، والوفاء بالعهد واجب .

2 ـ جنين الأنعام الميت حلال ، ذبحه على ذبح أمِّه .

3 ـ من خاصم في باطل أو أعان بظلم وهو يعلم ، لم يزل في سخط الله حتىٰ ينزع .

4 ـ الترغيب في التعاون على البر والتقوىٰ ، والترهيب من التعاون على الإثم والعدوان .

5 ـ المستثنىٰ من الميتة : السمك والجراد ، وأما الخنزير فحرام كله .

6 ـ ما أنهر الدم وذكر عليه اسم الله فكلوه .

7 ـ ما ذبح لغير الله لا يؤكل ، ولو ذكر عليه اسم الله .

8 ـ إكمال الله هذا الدين ، والابتداع في الشريعة اتهام لتأكيد الله الكمال .

9ـ أكل المحرمات بالحد الأدنىٰ عند الاضطرار .

10 ـ علامة الجارح المعلم إذا دعوته أتى ولا يأكل من صيدهِ ، ومن ثم أحل ما صِيْدَ بالجوارح المعلمة مع التسمية عند الانطلاق .

11 ـ سمِّ الله إذا أطلقتَ جارحك أو سهمك ، ودخلت بيتك وعند طعامك .

12 ـ الترخيص بطعام أهل الكتاب ، ونكاح المحصنات من نسائهم .

13 ـ لا يقبل الله صلاة بغير طهور ، والمضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين واجب لثبوت ذلك عن الرسول ﷺ.

14 ـ وجوب مسح جميع الرأس ، ويجوز المسح على الناصية والتكميل على العمامة .

15 ـ الترتيب واجب في أعمال الوضوء ، وويل للأعقاب من النار ـ عدم غسل لمعة في القدم توجب إعادة الوضوء والصلاة ـ .

16 ـ مشروعية المسح على الخفين لمن لبسهما على وضوء ، ومدته يوم وليلة للمقيم ، وثلاثة أيام للمسافر.

17 ـ خطايا المؤمن تتساقط من كافة أعضائه مع الوضوء.

18ـ العدل واجب والظلم ظلمات يوم القيامة.

19 ـ إثبات كفر من قال إن الله هو المسيح بن مريم ، واليهود مغضوب عليهم ويزعمون كذباً أنهم أحباء الله.

20 ـ قابيل أول من سَنَّ القتل في الأرض ، فعليه إثم كل قتيل إلى يوم القيامة.

21 ـ تسليم المفسد نفسه إلى الحاكم قبل القدرة عليهِ يشمله العفو.

22 ـ التوسل إلى الله ممنوع إلا بأسمائه وصفاته والأعمال الصالحة ودعاء الرجل الصالح.

23 ـ لا قطع ليد سارق فيما دون ربع دينار.

24 ـ اليد الأمينة ثمينة ، فإذا خانت رخصت وهانت.

25 ـ التوبة تجبُّ ما قبلها ، والحد كفارة للجرم.

26 ـ شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكي مقرراً ولم ينسخ.

27 ـ الحكم بغير ما أنزل الله يتراوح بين الكفر والظلم والفسق.

28 ـ قول الحق لا يقرب أجلاً ولا يباعد رزقاً.

29 ـ النهي عن اتخاذ المستهزئين بالدين أحباء أو نصراء أو أولياء.

30 ـ استغناء رسول الله ﷺ عن الحرس لتولي الله حفظه.

31 ـ أول كلمة نطق بها المسيح في المهد ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾.

32 ـ المسيح رسول كغيره من الرسل وأمه صديقة عليهما السلام.

33 ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، سبيل أكيد إلى نزول العذاب.

34 ـ تحريم مآكل ومشارب وملابس معينة دون دليل ابتداع وتنطّع في الدين.

35 ـ كفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يستطع فصيام ثلاثة أيام.

36 ـ من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه.

37 ـ لُعن في الخمر عشرة: الخمر وعاصرها ومعتَصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقيها.

38 ـ الخمر ما خامر العقل، وكل مسكر خمر، وكل خمر حرام.

39 ـ الخمر أم الخبائث، من شربها لم تقبل صلاته أربعين يوماً، فإن مات وهي في بطنهِ مات ميتة جاهلية.

40 ـ الخمر أكبر الكبائر والفواحش، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته.

41 ـ مدمن الخمر إن مات لقي اللهَ كعابد وثن.

42 ـ النهي عن قتل الصيد حالة الإحرام، فإن صاد المحرم عامداً أثم وغرم، وإن صاد خطأ غرم وحرم عليه.

43 ـ أَكْلُ المحرم صيداً لم يصده أو لم يصد له حلال.

44 ـ صيد البحر ما أخذ منهُ حياً، وطعامه ما لفظه ميتاً.

45 ـ كره الله لهذه الأمة: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.

46 ـ عمرو بن لحي أول من أدخل الشرك في العرب وغيّر دين إبراهيم.

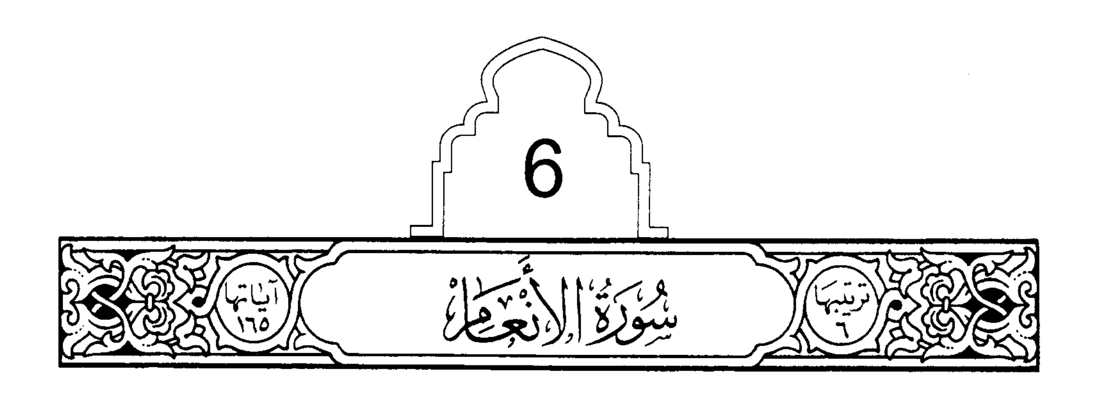
47 ـ جواز استشهاد الذميين في الوصية عند فقدان المسلمين أثناء السفر.

48 ـ براءة عيسىٰ وأمه عليهما السلام من شرك أهل الكتاب.

49 ـ الشفاعة يوم القيامة تخص المؤمنين ولا ينالها المشركون.

50 ـ جلّ الله وتعالى عن النظير والعديل والصاحبة والوالد والولد.

❑ ❑ ❑



وهي سورة مكية ، وعدد آياتها (165) .

قال ابن عباس : (أنزلت سورة الأنعام بمكة) . أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (إذا سرّك أنْ تعْلمَ جهلَ العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة في سورة الأنعام : ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾)[1] .

موضوع السورة

ذمّ المشركين والثناء على ملة إبراهيم وبيان وحدة منهاج المرسلين ، وامتنان الله على عباده بنعمة الثمار والأنعام وبيان منهاج التحريم .

ـ منهاج السورة ـ

1 ـ البدء بحمد لله خالق السماوات والأرض وجاعل الظلمات والنور وعالم السر والعلن .

---

(1) حديث موقوف . أخرجه البخاري في صحيحه (3524) عن ابن عباس موقوفاً . كتاب المناقب . باب قصة زَمْزَمَ وجَهْل العرب . والآيات من سورة الأنعام ما بين 130 - 140 . والآية المذكورة (140) .

2 ـ إعراض الكافرين عن آيات الله الكونية والقدرية وسوف يعلمون.

3 ـ تذكير الله المعرضين عن الإيمان به وطاعته هلاك الأمم السالفة المكذبة رغم القوة والبنيان، والأموال والأنهار والعمران.

4 ـ استكبار المشركين عن الإيمان بالرسول حتىٰ لو كان ملكاً كما تمنوا.

5 ـ السعيد من صُرِف عن عذاب الله في الآخرة والشقي من هلك فيه.

6 ـ الضر والنفع بيد الله، والله تعالى هو القاهر فوق عباده.

7 ـ المشركون يودون الرجعة إلى الدنيا حين يرون العذاب ليخلصوا لله الإيمان، ولكن هيهات هيهات وقد فات الأوان.

8 ـ حسرة الكفار يوم القيامة على تفريطهم وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم.

9ـ تسلية الله نبيّه عما يلقاه من أذىٰ المشركين وعنادهم، بصبر المرسلين قبله على تكذيب أقوامهم، حتىٰ جاءهم نصر الله.

10 ـ تشبيه الله تعالى الكفار بالموتىٰ لأنهم موتىٰ القلوب لا يفقهون ولا يسمعون.

11 ـ جميع ما يدُبّ في الأض أو يطير في السماء أمم خلقها الله وهداها، وهو محاسبها، حتىٰ يقتص يوم القيامة للشاة الجماء من الشاة القرناء.

12 ـ عطاء الله للعصاة إنما هو استدراج لهم، فإذا أخذ الله الظالم لم يفلته.

13 ـ الرسول ﷺ لا يملك خزائن الله ولا يعلم الغيب إلا ما علمه الله.

14 ـ النهي عن طرد المستضعفين المؤمنين، والأمر بتقريبهم وإكرامهم.

15 ـ الرسول ﷺ لا يملك إيقاع العذاب بأحد، وإنما ذلك لله وحده.

16 ـ الغيب كله لله تعالى لا يشاركه فيه أحد.

17 ـ النوم موت مؤقت، وهو وفاة الليل.

18 ـ المشركون يخلصون الدين لله في الضراء، ويشركون به في السراء.

19 ـ هجر المجلس الذي يُكذَّبُ فيهِ بآيات الله واجب، ولا يُتابعُ الجلوسَ مع الاستهزاء بالدين إلا منافق. ومن يهد الله قلبه إلى الحق فلا مضل له.

20 ـ دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه آزر إلى التوحيد، فلما أصر على الشرك تبرأ منه.

21 ـ علو محاكمات إبراهيم ﷺ في الاستدلال على الربوبية المقتضية للألوهية، وتألقه

عليه السلام في إقامة الحجة على قومه ، وأن الشرك هو أكبر الظلم ، وأن الأمن في الإيمان .

22 ـ الأنبياء دعوتهم واحدة ، وهي دين الإسلام ، وتبليغ الدعوة ثوابه عند الله ، ولا أظلم ممن أشرك بالله أو ادّعىٰ النبوة ، أو مماثلة القرآن .

23 ـ النجوم : زينة للسماء ورجم للشياطين وهداية في ظلمات الليل ، والمخلوقات المتعددة من كل شيء دالة على كمال قدرة الخالق عز وجل .

24 ـ اختلاق الكافرين لله بنين وبنات وشركاء تعالى الله وتقدس عمّا يصفون .

25 ـ القرآن للمؤمنين هدىٰ ، وللكافرين عمىٰ ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلى الله الحساب .

26 ـ النهي عن سب أصنام المشركين حتىٰ لا يسبوا الله عدواً بغير علم .

27 ـ المشركون يطالبون الرسل بالمعجزات ، فإذا نزلت لا يؤمنون .

28 ـ أكل ما لم يذكر اسم الله عليه حرام ، إلا أن يكون اضطراراً .

29 ـ علامة محبة الله العبد وتوفيقه شَرْحُ صَدْرِهِ للإسلام ، وعلامة غضبه تعالى عليه تضييق صدره وخذلانه عن الحق .

30 ـ استمتاع الجن بالإنس بخضوع الإنس لهم وتعظيمهم من دون الله ، واستمتاع الإنس بالجن بالسحر وما يتبعه من الفجور والزنا وأخذ أموال الناس بالباطل .

31 ـ الله تعالى يسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس بما كانوا يكسبون .

32 ـ استثناء الخلود في النار إنما هو لعصاة الموحدين ، ولا يهلك على الله إلا هالك .

33 ـ إقامة حجة الله على الثقلين يوم القيامةِ بإرساله الرسل .

34 ـ لكل من الجن والإنس درجات في الجنة أو النار ، كل بحسب عمله .

35 ـ ذمّ المشركين بجعل شيء من الحرث والأنعام لله وآخر لأصنامهم ، وكذلكَ بقتل الأولاد سفهاً بغير علم ، وبتحريم ما رزقهم الله افتراء عليه .

36 ـ امتنان الله تعالى على الناس بخلقه لهم أنواع الثمار وألوان الزروع وأصناف الأنعام ، والأمر بالصدقة مما تنبت الأرض .

37 ـ بَيانُ المحرمات من المآكِل ، وتضييق الله على اليهود في مآكلهم جزاء لبغيهم ، والله تعالى لم يحرم على المشركين ما حرموه على أنفسهم ، وأظلم الناس من كذب على الله .

38 ـ الوصية الجامعة: تحريم الشرك بالله والعقوق بالوالدين وقتل الأولاد واقتراف الفواحش وأكل مال اليتيم ، والأمر بالوفاء في الكيل والميزان والعدل في الرضا والغضب وقول الحق واتباع سبيل خير المرسلين.

39 ـ أَمْرُ الله المؤمنين بالجماعة ، ونَهْيُهم عن الاختلاف والتفرقة.

40 ـ الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، ولا يظلم الله أحداً.

41 ـ الصراط المستقيم هو ملة إبراهيم ، ملة التوحيد لله والتعظيم.

42 ـ صلاة المؤمن ونُسكهُ ومنهاج حياته كله لله رب العالمين.

43 ـ لا تزر وازرة وزر أخرىٰ ، وصحف العباد تشمل جميع أعمالهم.

44 ـ جعل الله العباد خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً ، وابتلاهم برفع بعضهم فوق بعض درجات.

45 ـ إن الله سريع العقاب وإنه لغفور رحيم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

1 - 3. **قوله تعالى**: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾.

في هذه الآيات: ثَنَاءُ الله سبحانه مادحاً نفسه الكريمة بما تفرد به جلت عظمته في خلق السماوات والأرض وتعاقب الظلمات والنور لمنافع عباده، ثم مع ذلك يعدل عن عبادته الكافرون. ثم أعقب ذلك بذكر خلق آدم عليه السلام أصل بني البشر وقد قضىٰ لنسله آجالاً، ثم وعدهم لقاءه في المحشر يوم القيامة، الذي يشك فيه الممترون. وهو سبحانه الإله الواحد الأحد المعبود في السماوات وكذلك في الأرض لا يخفى عليه سركم وجهركم ويعلم كسبكم وجميع أعمالكم.

فقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

قال ابن جرير: (وهذا كلام مخرجه مَخرج الخبر، يُنْحى به نحو الأمر. يقول: أخلصوا الحمد والشكر للذي خلقكم، أيها الناس، وخلق السماوات والأرض، ولا تشركوا معه في ذلك أحداً أو شيئاً، فإنه المستوجب عليكم الحمدَ بأياديه عندكم ونعمه عليكم، لا من تعبدونه من دونه، وتجعلونه له شريكاً من خَلْقه).

وأخرج الطبراني بإسناد حسن عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [ما أنعم الله على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان ذلك الحمد أفضلَ من تلك النعمة][(1)].

وله شاهد عن ابن ماجة بسند حسن من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺقال: [ما أنعم الله تعالى على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطىٰ أفضلَ مما أخذ][(2)].

---

(1) حديث حسن. أخرج الطبراني في «الكبير» من حديث أبي أمامة. انظر صحيح الجامع (5438).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في «السنن» (3805) ـ باب فضل الحامدين. انظر صحيح سنن ابن ماجة (3067). من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾.

قال السدي: (الظلمات ظلمة الليل، والنور نورُ النهار). وقال الحسن: (الكفر والإيمان).

قال ابن كثير: (فجمع لفظ الظلمات ووحَّدَ لفظ النور، لكونه أشرف، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ . . .﴾ [النحل: 48]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ . . .﴾ [الأنعام: 153]).

قلت: ولا شك أن الآية تعم إضافة لظلام الليل ونور النهار، ظلمات الباطل وسواد سبله، ونور الحق وسبيل أهل الإيمان. كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122].

والنور: هو نور الوحي ونور السنة، نور النبوة والرسالات. نور الفطرة والميثاق مع الله، الذي أخذه سبحانه على عباده ـ بِنَعْمانَ ـ وهو: واد إلى جنب عرفات.

وأما الظلمة: فهي ظلمة الطباع والجهل والأهواء، ظلمة الخضوع للغرائز والشهوات.

أخرج الإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: [إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ][1].

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار مرفوعاً: [قال الله تعالىٰ: إني خلقت عبادي حنفاء كُلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً][2].

وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.

قال ابن عطية: (فـ ﴿ثم﴾ دالة على قبح فعل الكافرين).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان في صحيحه (1812)، والحاكم في المستدرك (30/1)، وانظر مسند أحمد (176/2)، (197/2). وسنده صحيح.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2865)، وأخرجه أحمد في المسند (266/4).

والمعنى : إن خلقه سبحانه السماوات والأرض قد تقرّر ، وآياتها العظيمة في هذا الكون قد سطعت ، وإنعامه جل ذكره قد تبيّن ، ثم بعد ذلك كله عدل الكافرون عن عبادة ربهم وتعظيمه ، إلى تعظيم أهوائهم وشهواتهم من دون الله .

قال مجاهد : (﴿يعدلون﴾ . يشركون) .

وقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ .

قال قتادة : (﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ ، بدء الخلق ، خلق الله آدم من طين) .

وقال ابن زيد : (خلق آدم من طين ، ثم خلقنا من آدم حين أخذنا من ظهره) .

فالمعنى : بدأ الله تعالى الخلق بأن خلق آدم عليه السلام من تربة الأرض المختلفة ، ثم خرج منه نسله وذريته فانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها ، فكان الأصل من ذلك الطين الأول .

أخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال :

[إن الله تعالى خلق آدم من قَبْضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر ، والأبيض ، والأسود ، وبين ذلك ، والسَّهْلُ والحزْنُ ، والخبيث والطيِّبُ ، وبين ذلك][1] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ﴾ ـ فيه أقوال :

1 ـ قال قتادة : (أجل حياتك إلى أن تموت ، وأجل موتك إلى أن تُبْعَث . فأنت بين أجَلين من الله تعالى ذكره) .

2 ـ وقال الضحاك بن مزاحم : (﴿ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ﴾ ، قال : قضى أجل الموت ، وكل نفس أجلها الموت . قال : ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ﴾ ، يعني : أجل الساعة ، ذهاب الدنيا ، والإفضاء إلى الله) .

3 ـ وعن ابن عباس : (قوله : ﴿أجلاً﴾ ، قال : الدنيا ، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ﴾ ، الآخرة) .

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (406/4) ، وابن حبان (2083) (2084) ، وأخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح . وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (327) ، (385) .

وقال أيضاً: (﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ يعني أجل الموت، والأجل المسمىٰ: أجل الساعة والوقوف عند الله).

4 ـ وقيل: أما قوله: ﴿ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾ فهو النوم، تُقبض فيه الروح، ثم ترجع إلى صاحبها حين اليقظة، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾، هو أجل موت الإنسان. وقيل: أخذ الأجل والميثاق في أجل واحد مسمىٰ في هذه الحياة الدنيا.

والراجح ما ذكره ابن جرير: (ثم قضى أجل الحياة الدنيا، ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾، وهو أجل البعث عنده). وبنحوه الأقوال الثلاثة الأولى.

وقوله: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾.

قال السدي: (يعني تشكون في أمر الساعة). وقال: (الشك. وقرأ قول الله: ﴿ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ [هود: 17]. قال: في شك منه).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾.

حَمَلَ الجهمية هذه الآية على أن الله في كل مكان ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. والتفسير الصحيح لهذه الآية كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ـ وهو قول أهل السنة والجماعة ـ: (فأصح الأقوال أنه: المدعوّ الله في السماوات وفي الأرض، أي: يعبده ويوحِّدُه وَيُقِرُّ له بالإلٰهية مَنْ في السماوات وَمَنْ في الأرض، ويسمُّونه الله، ويدعونه رَغباً وَرَهَباً، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ... ﴾ [الزخرف: 84]، أي: هو إله مَنْ في السماء وإلهُ مَنْ في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ خبراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أنه الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض، من سِرٍّ وجهر. فيكون قولُه: ﴿يعلمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وقفٌ تام، ثم استأنف الخبر فقال: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾. وهذا اختيار ابن جرير. وقولُه: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ أي: جميعَ أعمالكم خيرها وشرها) انتهىٰ.

4 - 6. قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا

مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارٌ من الله تعالى عن كفر المشركين ومعاندة المكذبين ، وأن الآيات لم تنفع مع عنادهم وكبرهم ، ولا بد أن يروا مغبة استهزائهم ويذوقوا وبال استهتارهم. فهل نسوا القرون التي سبقتهم والأمم التي سلفتهم ، وقد أمددناهم بأسباب القوة والتمكين من الأموال والأولاد والجنود والملك والجاه والقوة ـ ما لم نمكن لهؤلاء الذين خلفوهم وساروا على منهاجهم في الكفر والعناد والتكذيب ـ ، إضافة إلى تكثير أمطار السماء وتفجير ينابيع الأرض استدراجاً لهم وإملاءً إلى أجل ، فلما جاء أجلهم أهلكناهم بسيئاتهم فكانوا كأمس الذاهب وصيرناهم أحاديث للناس على مدار الزمان ، وأنشأنا من بعدهم جيلاً جديداً وأمة تلو أمة.

فقوله: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ ﴾.

أي: علامة ودلالة ، كانشقاق القمر ، والإسراء والمعراج ، وآيات القرآن فيها خبر الأمم السالفة وما نزل بهم بسبب بغيهم ، وغيرها ﴿ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ الدالة على وحدانيته وحقيقة نبوتك يا محمد ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾.

قال القرطبي: (والإعراض ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله جل وعز من خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وأنه يرجع إلى قديم حي غني عن جميع الأشياء ، قادر لا يعجزه شيء ، عالم لا يخفىٰ عليه شيء من المعجزات التي أقامها لنبيّه ﷺ ، ليُستَدلّ بها على صدقه في جميع ما أتىٰ به).

وقوله: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ـ المراد مشركو مكة حين كذبوا بالحق: وهو القرآن ، أو محمد ﷺ.

وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: سوف يأتيهم أخبار استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من

آياتي وأدلتي التي آتيتهم. ثم وفّىٰ لهم بوعيده لمّا تمادوا في غيِّهم ، وعَتَوْا علىٰ ربهم ، فقتلهم يوم بدر بالسيف).

وقال ابن كثير: (وهذا تهديد لهم ووعيدٌ شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لا بدَّ أن يأتيهم خَبَرُ مَاهُمْ فيه من التكذيب ، وليجدُنّ غِبَّهُ ، وَلَيَذوقُنَّ وبَاله).

فالمراد ما نالهم يوم بدر من القتل والهزيمة. وقيل: المراد يوم القيامة. وكلا المعنيين حق يحتمله التأويل والبيان الإلهي.

وقوله: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾.

قال قتادة: (يقول: أعطيناهم ما لم نعطكم) ـ أي من الدنيا.

قال ابن كثير: (أي: من الأموال والأولاد والأعمار ، والجاه العريض ، والسَّعَةِ والجنود).

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

قال ابن جرير: (أمطرت فأخرجت لهم الأشجارُ ثمارها ، وأعطتهم الأرض رَيْع نَباتها ، وجابوا صخور جبالها ، ودَرَّت عليهم السماء بأمطارها ، وتفجرت من تحتهم عيون المياه بينابيعها بإذني ، فغمطوا نعمة ربهم ، وعصوا رسولَ خالقهم ، وخالفوا أمرَ بارئهم ، وبَغَوْا حتى حَقَّ عليهم قَوْلي ، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم ، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم ، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة ، وبعضهم بالصيحة ، وغير ذلك من أنواع العذاب).

وقوله: ﴿ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾.

أي: أخرجنا بعد هلاكهم جيلاً آخر للابتلاء ، بعد ما هلك الأولون فكانوا كأمس الذاهب ، فاحذروا معشر المكذبين بمحمد ﷺ ورسالته أن ينزل بكم مثل ما نزل بتلك الأمم قبلكم إذ دَكَّها الله دكاً وصيّرها للناس أحاديث ، فما أنتم بأعزَّ على الله منهم ، فإن الله تبارك وتعالىٰ لا يحابي أحداً من خلقه.

7 - 11. قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ

لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارٌ من الله تعالى عن عميق كفر المشركين وشدة عنادهم ومكابرتهم للحق وجدالهم المتخبط كقلوبهم: فلو شاهدوا الوحي النازل عليك يا محمد في قرطاس يمسونه بأيديهم لاتهموا ذلك بالسحر. ثم سألوك أن ينزل ملك من السماء يشهد لك بصدق ما يوحىٰ إليك، ولو أنزلنا ملكاً كما سَألوا ثم كفروا لَعَاجَلَهُم العذاب والخزي ولم يُنْظَروا حتى يتوبوا، ولو كان النازل إلى البشر رسولاً ملكِيّاً لكان على هيئة رجل ليُفهم منه وينتفع بمخاطبته، وحينئذ يلتبس عليهم أمره، فلم يدروا أَمَلَكٌ هو أم إنسيّ! فلم يوقنوا به أنه ملك، وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك، وصحة برهانك على نبوتك. فلا تحزن يا محمد، فلقد تعرض إخوتك الرسل قبلك إلى استهزاء المعاندين، حتى نزل بالمستهزئين سوء الوبال، وهذه الأرض تشهد بمواقع تلك الأمم ومساكن تلك الأقوام التي كذبت فَدَمَّرَ الله عليها، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت خاتمتها.

فقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾.

قال قتادة: (﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾، يقول: في صحيفة). وقال السدي: (الصحف).

قال ابن عباس: (يقول: لو نزلنا من السماء صُحُفاً فيها كتاب فلمسوه بأيديهم، لزادهم ذلك تكذيباً). وقال مجاهد: (﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، قال: فمسّوه ونظروا إليه، لم يصدِّقوا به). وقال قتادة: (فعاينوه معاينة).

وقوله: ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قال شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ: (أي: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر سحَرْتَ به أعيننا، ليست له حقيقة ولا صحة، ﴿مبين﴾، يقول: مبين لمن تدبّره وتأمّله أنه سحر لا حقيقة له).

وفي التنزيل: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 15].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾.

قال قتادة: (يقول: ولو أنهم أنزلنا إليهم ملكاً، ثم لم يؤمنوا، لم يُنْظَروا).

وقال السدي: (﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾، يقول: لجاءهم العذاب).

وقال مجاهد: (﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ في صورته، ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾، لقامت الساعة).

كما في التنزيل: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: 8].

وكذلك: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: 22].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾.

أي: لو أنزلنا ملكاً من السماء مصدقاً لك يا محمد، لجاءهم في صورة رجل، إذ لا تطيق أبصارهم رؤية الملك على صورته، ولحصل الالتباس عليهم فلم يدروا أملك هو أم إنسيّ. قال ابن عباس: (﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾، يقول: لشَبَّهْنا عليهم). أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون.

قال قتادة: (ما لبّسَ قوم على أنفسهم إلا لَبّسَ الله عليهم. واللَّبْس إنما هو من الناس). وقال السدي: (شبهنا عليهم ما يشبِّهون على أنفسهم). وقال الضحاك: (لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور).

وفي التنزيل: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: 95].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

يُسَلّي الله سبحانه نبيّه ﷺ مما يلقىٰ من تكذيب قومه وعنادهم، بأن هذه كانت طبيعة في أقوام إخوته الرسل قبله، فصبروا على ما كذبوا حتى جاءهم نصر الله وفرجه، ونزل بالمكذبين نكال ما كذبوا واستهزؤوا. قال السدي: (وقع بهم العذاب الذي استهزؤوا به).

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المعاندين الجاحدين النبوة والتنزيل بعدما ظهر لهم أنه الحق: جولوا في بلاد المكذبين قبلكم وانظروا في مساكنهم التي خلفوها بعدما نزل بهم العذاب والعطب وخزي الدنيا وعارها، وتفكروا فيما صاروا إليه من البوار وخراب الديار وعفوِّ الآثار. قال قتادة: (دمَّر الله عليهم وأهلكهم، ثم صيّرهم إلى النار).

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: (لما فتحت قبرس فرق بين أهلها، فبكىٰ بعضهم إلى بعض، رأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى).

وأخرج أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن مُرّة قال: سمعت أبا البختري يقول: أخبرني مَنْ سَمِعَ النبي ﷺ يقول: [لَنْ يَهْلِكَ الناسُ حتى يُعْذَروا مِن أنفسهم][1].

في مسند الإمام أحمد من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إذا ظهرت المعاصي في أمتي عَمَّهم الله بعذاب من عنده. فقلت: يا رسول الله، أما فيهم يومئذ أُناسٌ صالِحون؟ قال: بلى. قلت: فكيف يُصْنَعُ بأولئك؟ قال: يصيبهم ما أصابَ الناسَ، ثم يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان][2].

12 - 16. قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4347) ـ في الملاحم، باب الأمر والنهي. وأخرجه أحمد في المسند (260/4)، (293/5).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (304/6)، والبيهقي في «الشعب» (2/441/2) من حديث عائشة.

يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بربهم المشركين في عبادته: لمن ملك هذه السماوات والأرض وما فيها؟ ثم أخبرهم أن ذلك للملك سبحانه الذي قهر بسلطانه وجبروته كل شيء لا للأوثان والطواغيت، وقد مضىٰ أنه بعباده رؤوف رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم التوبة والإنابة، وليجمعنكم أيها العادلون بالله، ليوم القيامة لينتقم منكم بكفركم به، فالذين أهلكوا أنفسهم بالشرك فخسروها بغبنهم إياها حَظّها لا يصدقون بالمعاد ولا يستعدون لشر ذلك اليوم. إن الله الذي تشركون به ـ أيها القوم ـ ملك كل شيء، له ما استقر في الليل والنهار وهو السميع لما تقولون، العليم بما تُضْمِرون وَتُبيِّتُون. فكيف أستنصر غيره وأستعينه على النوائب والحوادث وهو مبدع السماوات والأرض، ويَرْزُق ولا يُرْزَق، بل إني أمرت أن أكون أوّل من خضع له بالعبودية والتعظيم، وأن أجتنب أن أكون من المشركين. ثم قل لهم يا محمد: إني أخاف إن عبدت غيره سوء يوم عظيم، لا ينجو من عذابه ومصائبه إلا من رحمه ربه وذلك الفوز المبين.

فقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ ﴾ ـ أي وعد بها فضلاً وكرماً، ولذلك يمهل عباده ويعطيهم فرصة ليتداركوا أنفسهم بالاستغفار والتوبة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ: [إنَّ الله لَمَّا خلق الخلقَ كتب كتاباً عنده فوق العرش، إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غضبي][1].

وقوله: ﴿ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ﴾.

قال ابن جرير: (وهذه اللام التي في قوله: ﴿ليجمعنكم﴾، لام قسم).

وقال ابن كثير: (هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعنَّ عباده لميقات يوم معلوم، وَهُوَ يَوْمُ القيامة الذي لاريبَ فيه، ولا شكَّ عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذِّبون فهم في ريبهم يتردّدون).

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾.

قال القرطبي: (ابتداء وخبر، قاله الزجاج، وهو أجود ما قيل فيه).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (3194)، (7404)، (7553)، ومسلم (2751)، وأحمد (313/2)، وغيرهم. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمعنى: الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة هم الذين أنكروا المعاد وجحدوا ذلك اليوم ومضوا في غيّهم وكفرهم.

وقوله: ﴿ ۞وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ ﴾. قال السدي: (يقول: ما استقرّ في الليل والنهار).

قال القاسمي: (والمعنىٰ: له تعالى كل ما حصل في الليل والنهار، مما طلعت عليه الشمس أو غربت. شبه الاستقرار بالزمان، بالاستقرار في المكان، فاستعمل استعماله فيه. أو ﴿سكن﴾ من السكون، مقابل الحركة. أي ما سكن فيهما وما تحرك، فاكتفىٰ بأحد الضدين عن الآخر).

وقال أبومسلم الأصفهانيّ: (ذكر تعالى في الآية الأولى السماوات والأرض، إذ لا مكان سواهما. وفي هذه الآية ذكر الليل والنهار، إذ لا زمان سواهما. فالزمان والمكان ظرفان للمحدثات، فأخبر سبحانه أنه مالك للمكان والمكانيات، ومالك للزمان والزمانيات).

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾. أي: يسمع كل ما تكلم به خلقه، ويعلم ما سكن وما تحرك وما تخفي صدور عباده.

وقوله: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾.

قال السدي: (أما «الولي»، فالذي يتولّونه ويُقرون له بالربوبية). وقال ابن جرير: (أشيئاً غير الله تعالى ذكره: ﴿ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا ﴾، أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث).

وقوله: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

قال قتادة: (خالق السماوات والأرض). أي مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما على غير مثال سبق.

وقوله: ﴿ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ ﴾.

قال السدي: (يَرْزُق ولا يُرزق).

قال القاسمي: (أي المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع. أي: فيجب

اتخاذه وليّاً ليعبد شكراً على إنعامه ، وكفايته الحوائج بلا طلب عوض).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أي: أمرت أن أكون أول من استسلم لأمر الله تعالىٰ وخضع له بالعبادة والتعظيم.

وعن الحسن: (أول من أخلص أي من قومي وأمتي). ـ أي بالعبادة لله وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أي: إني أخاف إن صرفت العبادة لغير ربي عز وجل أن ينالني السوء والعذاب يوم القيامة.

قال ابن عباس: (﴿أخاف﴾ هنا بمعنى أعلم). وقال القرطبي: (والخوف توقع المكروه).

وقوله: ﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ .

قال قتادة: (من يصرف عنه العذاب). ﴿ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ ، أي: فقد فاز وظفر ونجا.

وقوله: ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ .

أي: هو غاية الربح والفوز ، وأعظم الجائزة. كما في التنزيل: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ. . . ﴾ [آل عمران: 185].

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يومَ القيامة ، فَيُصْبَغُ في النار صَبْغَةً ، ثم يُقال: يا ابن آدم! هل رأيت خيراً قط؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ويؤتىٰ بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنة ، فيقال له: يا ابن آدم! هلا رأيت بؤساً قط؟ وهل مَرَّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله ، يا رب ، ما مَرَّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط][1].

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (1986) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (741/2 - 751) في تفصيل أحداث الحساب والقصاص والميزان ، وكذلك بحث الصراط على جهنم والشفاعة.

17 - 21. قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

في هذه الآيات: خِطَابٌ من الله سبحانه لنبيّه محمد ﷺ: يا محمد، إن يصبك الله بشدة أو ضيق فلن يكشف عنك ذلك إلا الله، وإن يصبك بخير أَوْ سَعَةٍ ورغد عيش فهو وحده القدير على تصريف ذلك. فهوالله المستعبد خلقه العالي عليهم، الحكيم في تصريفه شؤون عباده، الخبير بمنافعهم ومضارهم. فقل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: أي شيء أعظم شهادة وأكبر! ثم أخبرهم أن الله سبحانه أعظم شهادة، فهو شهيد بيني وبينكم، بالمحق منا من المبطل، والرشيد من السفيه، وقد أوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم عقابه، ولأنذر به أيضاً من بلغَهُ من سائر الناس، إنْ لَمْ يقم أمر الله وشرعه، نزولَ نقمة الله به، فيا أيها المشركون: أئنكم تشهدون أن معه معبودات غيره من الأوثان والأصنام، فأنا لا أشارككم هذا الغي، فإنما الله إله واحد، لا شريك له يستحق التعظيم والعبادة، وإنني بريء من كل شريك تدعونه معه أو تصرفون له شيئاً من العبادة والتعظيم. وإن أصحاب التوراة والإنجيل يعرفون أنما هو إله واحد، وأن محمداً نبيٌّ مرسل، وهؤلاء خسروا أنفسهم وأهلكوها بإنكارهم ذلك وجحودهم ما يجدونه مكتوباً في كتبهم. فمن أَشَدُّ اعتداء وظلماً وبغياً ممن تجرأ على الله بالكذب فزعم له شريكاً أو ولداً أو صاحبة! إنه لا يفلح الظالمون.

فقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

كقوله في سورة فاطر: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

أخرج البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة ـ وقد كتب إلى معاوية ـ: [أن النبي ﷺ كان يقول في دُبر كل صلاة مكتوبة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللَّهُمَّ لا مانعَ لما أعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ، ولا يَنْفَعُ ذا الجَدِّ مِنك الجَدّ][1]. وقال الحسن: جَدٌّ: غِنيً.

والخطاب في الآية من الله سبحانه للنبي ﷺ، يثبِّتُه على ما يلقىٰ من قومه، كما قال ابن جرير: (يا محمد، إنْ يصبك الله، ﴿بضر﴾ يقول: بشدة في دنياك، وشظف في عيشك وضيق فيه، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أول من أسلم لأمره ونهيه، وأذعن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ يقول: وإن يُصِبْكَ بخير، أي: برخاء في عيش، وسعة في الرزق، وكثرة في المال، فتقرّ أنه أصابك بذلك ﴿ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾).

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾.

قال ابن كثير: (أي هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقَهَرَ كلَّ شيء ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلالِهِ وكبريائه وعظمته وعُلُوِّه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حُكْمِه وقَهْرِه. ﴿ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ﴾، أي في جميع ما يَفْعَلُه، ﴿ ٱلْخَبِيرُ ﴾ بمواضع الأشياء ومحالِّها، فلا يعطي إلا لمن يستحق، ولا يمنع إلا من يستحِق).

أخرج ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، بسند على شرط البخاري، عن عائشة رضي الله عنها قالت: [كان إذا تَضَوَّر[2] من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القَهَّار، ربُّ السماواتِ والأرضِ وما بينهما العزيز الغَفَّار][3].

وفي الصحيحين عن ابن عباس: أن نبي الله ﷺ كان يدعو عند الكرب: [لا إله إلا الله

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (844) ـ كتاب الأذان، باب: الذكر بعد الصلاة. وأخرجه مسلم (593)، وأبو داود (1505)، والنسائي (70/3)، وأحمد (250/4)، والبيهقي (185/2).
(2) أي تلوىٰ وتقلب.
(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم في المستدرك (540/1)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (753)، وأخرجه ابن نصر في «قيام الليل» ص (43)، وابن حبان (2358). وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (2066).

الحليم الحكيم ، لا إله إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم][1] .

وقوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

أي من أعظم الأشياء شهادة . قال القرطبي : (ولفظ ﴿شيء﴾ هنا واقع موقع اسم الله تعالى ، المعنىٰ : الله أكبر شهادة أي انفراده بالربوبية ، وقيام البراهين على توحيده أكبر شهادة وأعظم ، فهو شهيد بيني وبينكم على أني قد بلّغتكم وصدقت فيما قلته وادّعيته من الرسالة) .

وقوله : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ .

أي : والقرآن شاهد بنبوتي لأنذركم به يا أهل مكة ، وكذلك مَنْ بلغه القرآن في أرجاء هذه المعمورة . قال مقاتل : (من بلغَه القرآن من الجن والإنس فهو نذير به) . وقال القُرَظي : (من بلغه القرآن فكأنما قد رأىٰ محمداً ﷺ وسمع منه) .

قلت : ولكن لا بد أن يكون البلاغ مبيناً ، كبلاغ الرسل ، قال تعالى : ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ . فإن البلاغ المشوّه ليس ببلاغ مبين ، ومن ثمَّ فإن القرآن حجة على الخلق جميعهم ، ونبينا محمد ﷺ قد بعث إلى العالمين كافة ، ولا نبي بعده .

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : [والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار][2] .

وفي صحيح مسلم عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : [فُضِّلْتُ على الأنبياء بِستٍّ : أُعطيت جوامعَ الكَلِم ، ونُصِرْت بالرعب ، وأحلت لي المغانم ، وَجُعِلَت لي الأرض طهوراً ومَسْجِداً ، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة ، وخُتِمَ بي النَّبيُّون][3] .

---

(1) حديث صحيح . انظر صحيح البخاري (6345) ، (7426) ، وصحيح مسلم (2730) . ورواه أحمد والترمذي ، والطبراني وزاد : (اصرف عني شرّ فلان) . انظر صحيح الجامع (4816) .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في صحيحه (93/1) ، وانظر مختصر صحيح مسلم (20) ص (13) .

(3) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (523) ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة . باب المساجد ومواضع الصلاة . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وله شاهد عند الطبراني من حديث السائب بن يزيد بلفظ: [فضلت على الأنبياء بخمس: بعثت إلى الناس كافة، وادّخرت شفاعتي لأمتي، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ شهراً أمامي، وشهراً خلفي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطَهوراً، وأُحِلّتْ لي الغنائم، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي][1].

وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾.

هذا استفهام فيه توبيخ وتقريع. والتقدير: إن تردىٰ قومك إلى هذا السقوط بإشراك مخلوقات من الأوثان والأصنام والطواغيت مع الله في العبادة، فترفع أنت بلا إله إلا الله، وقل: فأنا لا أشهد معكم. كما قال له تعالى في آية الأنعام: ﴿فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾.

ولكن: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾.

قال قتادة: (يعرفون أن الإسلام دين الله، وأن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل). وقال: (النصارى واليهود، يعرفون رسول الله في كتابهم، كما يعرفون أبناءهم).

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي خسروا أنفسهم كل الخسارة، وأوردوها مواقع الهلاك والعطب، عندما أنكروا نبوة محمد ﷺ التي يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم، ظلماً وبغياً وعلواً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

أي: من أشدّ اعتداء وبغياً ممن تقوّل على الله، فزعم أنه مرسل من الله ولم يكن كذلك، ثم من أظلم ممن جَحَدَ بآيات الله بعد ظهور حججه وبراهينه ودلالاته الواضحات القاطعات، لا شك أنه لا أظلم ممن سلك سبيل هذا النكران والجحود، ومن ثم فإنه لا يفلح هذا ولا ذاك، فإن الله سبحانه يكشف المنافق ويفضح المكذب: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الطبراني عن السائب، وقريب منه أخرجه البيهقي عن أبي أمامة. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم (4097)، (4096)، (4098)، والإرواء (285).

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله يدني المؤمن فيضَعُ عليه كنَفَهُ[1] ويستُرُه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ، حتى قرّره بذنوبه، ورأىٰ في نفسه أنه قد هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطىٰ كتاب حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادىٰ بهم على رؤوس الخلائق: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾][2].

22 - 26. **قوله تعالى**: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يخبر جل ثناؤه عن هؤلاء المفترين على الله الكذب الجاحدين آياته ونبوة رسوله، أن لا فلاح لكم بهذه البضاعة في الدنيا ولا في الآخرة، فتجارتكم خاسرة، فكيف إذا ناداكم يوم الحشر أين شركاؤكم الذين زعمتم أنهم آلهة لكم من دون الله، ثم لكن يكن جوابهم إلا كذباً منهم في أيمانهم: ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾. فانظر يا محمد كيف استخدم هؤلاء الأخلاق الفاسدة التي كانوا يتخلقون بها في الدنيا ـ من الكذب والفرية ـ في أرض المحشر. ومنهم يا محمد من يستمع القرآن منك، وما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره ونهيه، ولكنه لا يفقه ما تقول، ولا يوعيه قلبه، ولا يتدبره عقله، ولا يصغي له سمعه، فالقلوب مقفلة، والآذان غشيها الصمم، فلا يفهمون أي آية، بل يتهمون الحجج الدامغة أنها أساطير الأولين، وهم بذلك ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ، ويتباعدون عنه، وما يهلكون بصدهم عن سبيل الله ورسوله إلا أنفسهم وما يشعرون.

---

(1) أي: حفظه وستره.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2441)، وأخرجه مسلم (2768)، وأخرجه أحمد (74/2).

فقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

قال ابن عباس: (كل زعم في القرآن فهو كذب). وعلى ذلك فللآية تأويلان:

التأويل الأول: أي لا يفلح الظالمون في الدنيا ولا يوم نحشرهم. فهو متصل مع الآية السابقة.

التأويل الثاني: أي انظر كيف يكذبون يوم نحشرهم. فهو متعلق بما بعده.

وقوله: ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ﴾.

قال القرطبي: (سؤال إفضاح لا إفصاح).

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾.

أي: أنهم شركاء وشفعاء، وهذا توبيخ لهم.

قال القاسمي: (فالقصد من السؤال توبيخهم وتقريعهم، وأن يقرر في نفوسهم أن ما كانوا يرجونه مأيوس منه). وفي التنزيل: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: 62].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾: قولهم). وقال قتادة: (مقالتهم). وقال غيره: (معذرتهم).

والمقصود: اعتذارهم بالباطل والكذب. وقال أبو إسحاق الزجاج في تأويل ذلك: (تأويل هذه الآية لطيف جداً، أخبر الله عز وجل بقصص المشركين وافتتانهم بشركهم، ثم أخبر أن فتنتهم لم تكن حين رأوا الحقائق إلا أن انتفوا من الشرك).

وقد أجاد الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية حيث قال: (الفتنة الاختبار، أي لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال، ورأوا الحقائق، وارتفعت الدواعي: ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾. تبرؤوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله تعالى: أما إذْ كتموا الشرك فاختموا على أفواهِهم، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد

أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا يُكتم حديثاً، فذلك قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾).

وقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ ﴾: بتكذيب الله إياهم).

وقال القاسمي رحمه الله: (﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْۚ ﴾ أي: بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، بحضرة من لاينحصر من الشهود. ﴿وضل﴾ أي: وكيف ضاع وغاب ﴿ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي: من الشركاء، فلم تغن عنهم شيئاً، ففقدوا ما رجوا من شفاعتها ونصرتها لهم، كقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا... ﴾ [الأعراف: 37]).

قلت: وقد ثبت في السنة الصحيحة تكذيب الجوارح للعبد ونطقها بما يكتم.

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: [كنا عنه عند رسول الله ﷺ فَضَحِكَ فقال: هل تدرون مِمّا أضحك؟ قال قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: مِنْ مُخاطبة العَبْدِ ربَّهُ، يقول: يا ربِّ! ألم تُجِرْني من الظلم؟قال: يقول: بلىٰ، قال: فيقول: فإني لا أُجيزُ على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفىٰ بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شُهوداً. قال: فَيُخْتَمُ على فيه، فيقال لأركانه: انطِقي، قال: فَتَنْطِقُ بأعماله، قال: ثم يُخَلّىٰ بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعْداً لَكُنَّ وسُحْقاً، فَعَنْكُنَّ كنتُ أُناضِلُ][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، وكذلك ابن حبان من حديث أبي هريرة قال: [قالوا: يا رسول الله! هل نرى رَبَّنا يوم القيامة؟ قال: هل تُضَارُّون في رُؤية الشمس في الظهيرة، ليستْ في سَحابة؟ قالوا: لا، قال: فهل تُضارُّونَ في رؤية القمر ليلةَ البَدْر، ليس في سَحابة؟ قالوا: لا، قال: فوالذي نفسي بيده! لا تُضَارُّون في رؤية ربكم إلا كما تُضارُّونَ في رؤية أحدِهما، قال: فَيَلْقىٰ العَبْدَ فيقولُ: أي فُلْ[2]! ألم

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2969) ـ كتاب الزهد، باب: «الدنيا سجن للمؤمن جنة للكافر». من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(2) أي فل: معناه يا فلان، وهو ترخيم على خلاف القياس. وقيل: هي لغة بمعنىٰ فلان حكاها القاضي.

أُكْرِمْكَ ، وَأسَوِّدْكَ ، وَأُزَوِّجْكَ ، وَأُسَخِّرْ لك الخَيْلَ والإبِلَ ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بلىٰ ، قال: فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟ فيقول: لا ، فيقول: فإني أنساكَ كما نسيتني ، ثم يَلْقَى الثاني فيقول: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ ، وَأُسَوِّدْكَ ، وَأُزَوِّجْكَ ، وَأُسَخِّرْ لك الخَيْلَ ، والإبِلَ ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقول: بلىٰ ، يارَبِّ! فيقول: أَفَظَنَنْتَ أَنك مُلَاقِيَّ؟ قال: فيقول: لا ، فيقول: إني أنساك كما نسيتني ، ثم يلقىٰ الثالث فيقول له مِثْلَ ذلك ، فيقول: يا رَبِّ! آمنتُ بك وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ وصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ ، وَيُثْني بِخَيْرٍ ما استطاع ، فيقول: هاهنا إذن[1]. قال: ثم يقالُ له: الآن نَبْعَثُ شاهِدَنا عليك ، ويَتَفَكَّرُ في نفسه: مَنْ ذا الذي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ على فيه ، وَيُقالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِه: انْطِقي ، فَتَنْطِقُ فَخِذُه وَلَحْمُهُ وعِظامُهُ بِعَمَلِه ، وذلك لِيُعْذِرَ من نَفْسِه[2]. وذلك المنافِقُ ، وذلك الذي يَسخَطُ اللهُ عليه][3].

وقوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ .

أي : حجب الله الفهم والوعي عن قلوبهم بغطاء الكفر والضياع ، وأصم آذانهم عن السماع النافع.

قال قتادة: (يسمعونه بآذانهم ولا يعون منه شيئاً ، كمثل البهيمة التي تسمع النداء ، ولا تدري ما يُقال لها).

وقال السدي: (أمّا ﴿أكنة﴾ ، فالغطاء أكن قلوبهم ، لا يفقهون الحق ، ﴿ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ، قال: صمم). وقال مجاهد: (قول الله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ، قال: قريش).

وفي التنزيل: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171].

---

(1) هاهنا إذن: معناه قف هنا حتى يشهد عليك جوارحك إذ قد صرت منكراً.

(2) من الإعذار ، والمعنى ليزيل الله عذره من قبل نفسه بكثرة ذنوبه وشهادة أعضائه عليه ، بحيث لا يبقى له عذر يتمسك به.

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (2968) ، كتاب الزهد ، وأخرجه ابن حبان (4642).

وقوله: ﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

قال القاسمي رحمه الله: (إشارة إلى أنه لا يختص ما ذكر منهم بالقرآن، لرؤيتهم قصوراً فيه، بل مهما يروا من الآيات والحجج مما يدل على صدق الرسول لا يؤمنوا بها، ويحملوها على السحر، لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم، فلا فهم عندهم ولا إنصاف. كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: 32]. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ ﴾. أي: بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاؤوك يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل. ثم فسّر المجادلة بقوله: ﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي: أباطيلهم وأحاديثهم التي لا نظام لها. قال: وَعَدُّ أحسن الحديث وأصدقه، من قبيل الأباطيل «وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» ـ رتبةٌ من الكفر لا غاية وراءها) انتهىٰ.

قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أما قوله: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ ففيه قولان:

1 ـ أي ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول والانقياد للقرآن، ﴿ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾: أي ويبتعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحَيْن، لا ينتفعون ولا يتركون أحداً ينتفع، ويبتعدون. قال قتادة: (جمعوا النهي والنأي. و«النأي»، التباعد).

قال ابن عباس: (﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾: ينهون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به).

وقال أيضاً: (﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾، يقول: لا يلقونه، ولا يدعون أحداً يأتيه).

وقال سالم عن ابن الحنفية: (يتخلفون عن النبي ﷺ ولا يجيبونه، وينهون الناس عنه).

وقال قتادة: (ينهون عن القرآن، وعن النبي ﷺ ويتباعدون عنه).

2 ـ أي ينهون عن أذى محمد ﷺ ويتباعدون عن دينه واتباعه.

فعن ابن عباس: (نزلت في أبي طالب، كان ينهى عن محمد أن يؤذى، وينأى عما جاء به أن يؤمن به).

والراجح القول الأول ، وهو اختيار شيخ المفسرين الإمام ابن جرير ، وتابعه على ذلك الحافظ ابن كثير ، وهو أكثر مناسبة لسياق الآيات ، والله تعالى أعلم.

وقوله : ﴿ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .

أي لا يعود وبال هذا الصنيع إلا عليهم ، فهم يوردون أنفسهم موارد الهلاك والعطب ويختارون لها مستقبل الخزي والآلام وما يشعرون.

27 - 30. قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

في هذه الآيات: خِطَابٌ من الله سبحانه لنبيّه ﷺ ـ ولو ترى يا محمد هؤلاء الجاحدين المكذبين إذ حبسوا في النار فقالوا ياليتنا نرد إلى الدنيا فنتوب ونراجع طاعة الله ولا نجحد آياته ولا نكذب رسله ونكون من المؤمنين ، وما بهم في حقيقة الأمر الأسىٰ والندم على ما فرطوا وكفروا ، بل هو الإشفاق مما هو نازلٌ بهم من عقاب الله وأليم عذابه ، على ما اجترحوا من آثام وكانوا يخفونها عن أعين الناس ويسترونها منهم ، فأبداها الله وكشفها على رؤوس الأشهاد ، ففضحهم بها وأخزاهم أمام الخلق ثم جازاهم بها. ولو رددناهم إلى الدنيا لرجعوا في حقيقة الأمر إلى جحود الآيات والنعم والعمل بما يسخط ربهم ، لأنهم قالوا ذلك خشية من العذاب لا إيماناً بالله ولا رغبة في تعظيم أمره وشرعه وهدي رسوله. إنهم كانوا ينكرون الوقوف بين يدي ربهم يوم النشور ، بعد الفناء والبعث من القبور ، فلو ترى يا محمد هؤلاء المجرمين حين حبسوا على حكم الله وقضائه فيهم فقيل لهم: أليس هذا البعث والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونه في الدنيا ، حقاً؟ فقالوا: بلىٰ والله إنه لحق ، فقال الله لهم: فذوقوا عذاب الخزي والألم الذي كنتم به تكذبون.

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

معنىٰ: ﴿ إِذْ وُقِفُواْ ﴾ إذ حُبسوا. قال القرطبي : (أي إذا وُقفوا غداً ، و«إذْ» قد تستعمل

في موضع «إذا» و«إذا» في موضع «إذْ» وما سيكون فكأنه كان ، لأن خبر الله تعالى حقّ وصدق ، فلهذا عَبَّرَ بالماضي).

وقوله: ﴿ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ ـ فيه أكثر من تأويل:

1 ـ أي هم فوقها على الصراط وهي تحتهم. قال النسفي: (﴿ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ أروها حتى يعاينوها أو حبسوا على الصراط فوق النار).

2 ـ قيل «علىٰ» بمعنى الباء ، أي وَقَفوا بقربها وهم يعاينونها. قال الضحاك: (جُمعوا ، يعني على أبوابها).

3 ـ وقيل «على» بمعنىٰ «في» أي وقفوا في النار. والمقصود أنهم دخلوها.

قال ابن جرير: (﴿ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ ، يعني: في النار ـ فوضعت «على» موضع «في» كما قال: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ. . . ﴾ [البقرة: 102] ، بمعنىٰ: في ملك سليمان).

قلت: وكل هذه المعاني يحتملها التأويل والإعجاز القرآني ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف ليتسع لكل أنواع التصور من ألوان الشقاء ، وليذهب الوهم إلى كل شيء مبالغة في التخويف والتصوير لتلك الساعات العصيبة من حياة المشركين ، والتقدير: لو تراهم يا محمد وهم في تلك الحال لرأيت مشهداً مفزعاً ، ومنظراً عجيباً هائلاً ، وحالاً سيئاً.

وقوله: ﴿ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: يتمنّون لو أعطوا فرصة أخرى بأن يردوا إلى الحياة الدنيا فيصدقوا بآيات الله ورسله ولا يجحدوا حججه كما فعلوا أول مرة.

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أما قوله: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ ففيه أكثر من تأويل:

التأويل الأول: بدت لهم معاصيهم التي كانوا يخفونها ويسترونها عن أعين الناس ففضحهم بها الله تبارك وتعالى على رؤوس الأشهاد.

قال السدي: (﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ ، يقول: بدت لهم أعمالهم في

الآخرة ، التي أخفوها في الدنيا). وقال قتادة: (﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ ، قال: من أعمالهم).

قال ابن كثير: (أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يُخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة ، وإن أنكروها في الدنيا ، أو في الآخرة كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾).

التأويل الثاني: بل ظهر حينئذ ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صِدْق ما جاءت به الرسل في الدنيا ، وإن كانوا يُظهرون لأتباعهم خلافه.

قال القرطبي: (وقيل: المعنىٰ بل ظهر للذين اتبعوا الغُواة ما كان الغُواة يخفون عنهم من أمر البعث والقيامة).

وهذا المعنى كما جاء في القرآن من خبر موسىٰ عليه السلام حين قال لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ . . ﴾ [الإسراء: 102]. وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾.

التأويل الثالث: المراد المنافقون ، كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر.

أي: يظهر نفاقهم الذين كانوا يسرونه. قال القاسمي: (ولا ينافي هذا كون السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب بعد الهجرة. لأن الله تعالى ذكر وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت ، فقال: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾).

التأويل الرابع: بل بدا لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا ـ النار التي وقفوا عليها.

ذكره العلامة أبو السعود ، واعتبر أن النار هي التي سيق الكلام لتهويل أمرها ، والتعجيب من فظاعة حال الموقوفين عليها ، و(بإخفائها) تكذيبهم بها ، فإن التكذيب بالشيء كفر به ، وإخفاء له لا محالة. ثم قال: (وإيثاره على صريح التكذيب الوارد في قوله عز وجل: ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرحمن: 43]، وقوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: 14] ، مع كونه أنسب بما قبله من قولهم: ﴿ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا . . ﴾ [الأنعام: 27] لمراعاة ما في مقابلته من البدو. هذا هو الذي تستدعيه جزالة النظم الكريم).

التأويل الخامس: بل هو في أهل الكتاب ، يظهر لهم ما كتموه في كتبهم.

قال النسفي: (أو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله ﷺ).

قلت: وكل ما سبق يحتمله النظم الشريف وهو من وجوه إعجاز هذا القرآن العظيم ، وإن كان التأويلان الأول والثاني من أقواها. وأضيف على ذلك فأقول: بدا لهم ما كانوا يخفونه من معرفة صدق الرسل وصدق التنزيل وحقيقة النار التي وُعد بها الكافرون وقد دعتهم الرياسة والكبر وحب العلو في الأرض وحظوظ النفس والشهوات إلى إخفاء ذلك ومحاربته في أقوامهم لتكون لهم الكلمة في الدنيا والكبرياء ، فلما عاينوا ذلك يوم القيامة وأبصروا النار التي وقفوا عليها وشعروا بلهيبها على أجسامهم تَمَنَّوا الرَّجْعَةَ والتصديق لا التكذيب الذي أوردهم هذا المصير الشقي ، وهنا بدا لهم ما أخفوه ـ ليتأكد قوله تعالى بعدها: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ . أي: إن الذي دعاهم إلى إخفاء ما أخفوه لم يختلف ، فإنه ما بهم حب الله ودينه ورسوله ، وإنما بهم ألم جهنم ، ومن ثمّ فلو كتب الله لهم العودة إلى الدنيا لتجاوزوا مرة أخرى صدق المرسلين إلى تعظيم أهوائهم وشهواتهم ـ وإنهم لكاذبون.

فقوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

هو من علم الله سبحانه الذي اختص به نفسه ولا يشاركه فيه أحد ، فإنه يعلم سبحانه ما كان وما يكون وما سيكون ، وما لن يكون ـ لكن إن قُدِّر أن يكون كيف سوف يكون.

قال قتادة: (﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ ، يقول: ولو وصل الله لهم دنيا كدنياهم ، لعادوا إلى أعمالهم أعمال السوء).

قال شيخ المفسرين ـ الإمام ابن جرير ـ رحمه الله: (لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب ، لا إيماناً بالله). أي: ما بهم الأسى والندم على ترك الإيمان بالله والتصديق برسله ، بل هو إشفاق مما هو نازل بهم من عقاب الله وأليم عذابه.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

قال القرطبي: (أي: لعادوا إلى الكفر ، واشتغلوا بلذة الحال). ـ ولأنكروا المعاد.

وقوله: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ .

قال الجلال: (أي: عرضوا عليه). وقال ابن جرير: (﴿ إِذْ وُقِفُواْ ﴾ ، يوم القيامة ،

أي: حبسوا). وقال ابن كثير: (أي: أوقفوا بين يديه). وقال النسفي: (مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاقبه ، أوْ وُقِفُوا على جزاء ربهم). قلت: وكلها معان متقاربة متكاملة في إظهار آفاق المعنى.

وقوله: ﴿ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ﴾.

أي: أليس هذا المعاد ـ الذي أنكرتم وكذبتم في الدنيا ـ حقاً؟

فأجابوه: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾.

أي: بلىٰ والله إنه لحق. قال القاسمي: (أكدوا اعترافهم باليمين إظهاراً لكمال يقينهم بحقيّته ، وإيذاناً بصدور ذلك عنهم بالرغبة والنشاط ، طمعاً في نفعه).

فأجابهم مهيناً لهم قاطعاً كل أمل في نفوسهم بالنجاة أوالعودة: ﴿ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

أي: ذوقوا مسَّ العذاب الذي أنكرتم أو أخفيتم مقابل الكبر في الأرض وتعظيم الأهواء والشهوات وكبت المؤمنين ورفع شأن المجرمين الملحدين.

وفي التنزيل: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون: 105 ـ 111].

وفي التنزيل ـ كذلك ـ: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: 37].

أخرج الترمذي بسند صحيح عن أبي هريرة ، وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: [يُؤتىٰ بالعبد يوم القيامة فيقولُ له: ألمْ أجْعَلْ لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعامَ والحرثَ ، وتَركْتُكَ تَرْأَس وتَربعُ فكنت تَظُنُّ أنكَ مُلاقيَّ يومَكَ

هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني][1].

قال أبو عيسى: (ومعنى قوله: «اليوم أنساك كما نسيتني»: اليوم أتركك في العذاب).

31 - 32. **قوله تعالى**: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

في هذه الآيات: إِخْبَارٌ من الله تعالى عن خسارة المكذبين بلقائه، وعن خيبة أملهم وفرط ندمهم إذا عاينوا المشهد يوم القيامة وقد جاؤوا مثقلين بأوزارهم وخطاياهم. وإنما هذه الحياة باغيها في لعب ولهو، وإن الدار الآخرة هي دار القرار للمتقين أفلا تعقلون.

فقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾.

قال ابن جرير: (قد هلك وَوُكِسَ، في بيعهم الإيمان بالكفر). وقال النسفي: (﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ﴾ ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، أو هو مجرى على ظاهره لأن منكر البعث منكر للرؤية).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾.

قال القرطبي: (سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها).

وقال السدي: (أما ﴿ يَٰحَسْرَتَنَا ﴾، فندامتنا، ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾، فضيعنا من عمل الجنة).

وقال القاسمي: (والحسرة: التلهف على الشيء الفائت. وذكرت على وجه النداء للمبالغة. والمراد: تنبيه المخاطبين على ما وقع بهم من الحسرة. ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا ﴾ أي: قصرنا ﴿فيها﴾ أي: في الحياة الدنيا. أضمرت وإن لم يجر ذكرها، للعلم بها. أي: على ماضيعنا فيها، إذ لم نكتسب من الاعتقادات والأخلاق والأعمال ما ينجينا. أو

---

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي في السنن (2558) ـ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، وانظر صحيح سنن الترمذي ـ حديث رقم (1978). وأصل معناه في صحيح الإمام مسلم.

الضمير للساعة ، أي: على ما فرطنا في شأنها ، ومراعاة حقها ، والاستعداد لها ، بالإيمان بها ، واكتساب الأعمال الصالحة).

وقال ابن جرير: (الضمير يعود إلى الصفقة التي دل عليها قوله: ﴿قد خسر. .﴾ إلخ، إذ الخسران لا يكون إلا في صفقة بيع قد جرت. قال: والمعنى: قد وُكِسَ الذين كذبوا بلقاء الله، ببيعهم الإيمان الذي يستوجبون به من الله رضوانَه وجنته، بالكفر الذي يستوجبون به منه سَخَطَهُ وعقوبته. ولايشعرون ماعليهم من الخسران في ذلك ، حتى تقوم الساعة. فإذا جاءتهم الساعة بغتة ، فرأوا ما لحقهم من الخسران في بيعهم ، قالوا حينئذ تندماً: ﴿ يَحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا ﴾).

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾.

الأوزار: جمع وزر ، وهو الحمل الثقيل ، وسمي به الذنب لثقله على صاحبه ، والوَزَرُ الجَبَل. وخَصَّ الظهر بالحمل لأن المعهود حمل الأثقال عليه ، كما عهد الكسب بالأيدي.

قال القاسمي: (ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يُسْند إليه من تدبير الولاية: والمعنى أنهم لزمتهم الآثام فصاروا مثقلين بها).

وقوله: ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾.

أي: ما يحملون من الإثم والتبعات.

قال قتادة: (﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ، قال: ساء ما يعملون).

وقوله: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ ـ فيه أكثر من معنى:

1 ـ قال ابن جرير: (يقول: ما باغي لذاتِ الحياة التي أُدْنيت لكم وقربت منكم في داركم هذه ، ونعيمها وسرورها ، فيها ، والمتلذذُ بها ، والمنافس عليها إلا في لعب ولهو ، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذ فيها بملاذّها ، أو تأتيه الأيام بفجائعها وصروفها ، فتُمِرُّ عليه وتكدُر ، كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه ، ثم يعقبه منه ندماً ، ويورثه منه تَرَحاً).

2 ـ قال القرطبي: (﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ أي: لِقِصَرِ مدتها).

3 ـ قال النسفي: (﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ جواب لقولهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع ، واللهو الميل عن الجد إلى الهزل. قيل

ما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو. وقيل: ما أعمال الحياة الدنيا إلا لعب ولهو لأنها لا تعقب منفعة كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة).

4 ـ وقيل: معنىٰ ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ باطل وغرور. وقيل: (المعنى متاعُ الحياة الدنيا لعب ولهوٌ ، أي: الذي يشتهونه في الدنيا لا عاقبة له ، فهو بمنزلة اللعب واللهو) ذكره القرطبي.

5 ـ وقال ابن كثير: (﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي: إنما غالبها كذلك).

قلت: والراجح من المعنى لهذه الآية أنها متصلة بالآية قبلها ، لتدحض قول الكافرين: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ـ فجاء توضيح حقيقة هذه الحياة الدنيا ، أنها للكفار دار لهو ولعب ، وللؤمنين دار استثمار وعمل ، فيفوز العاملون المؤمنون في الآخرة ، ويشقىٰ الكفار اللاهون اللاعبون.

أخرج الترمذي وابن ماجة والحاكم بسند صحيح من حديث سهل بن سعد ، عن النبي ﷺ قال: [لو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله جناحَ بعوضة ما سقىٰ كافِراً منها شَرْبَةَ ماء](1).

وأخرج ابن حبان في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، بسند صحيح عن ابن عباس: [أن رسول الله ﷺ دخل عليه عمر وهو على حصير قد أثر في جنبه فقال: يا نبي الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا؟ فقال: ما لي وللدنيا؟! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها](2).

وله شاهد عند الترمذي وابن ماجة عن عبد الله مرفوعاً: [ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها](3).

وأخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب ، أن رسول الله ﷺ دخل على حمزة فتذاكرا الدنيا ، فقال رسول الله ﷺ: [إن الدنيا خَضِرَةٌ

(1) حديث صحيح. أخرجه الترمذي(2320) ، وابن ماجة (4110) ، والحاكم (306/4) ، وله شواهد.
(2) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان (2526) ، وأحمد (301/1) ، والحاكم (301/1) ، وبنحوه البيهقي. من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
(3) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (60/2) ، والحاكم (310/4) ، وابن ماجة (526/2) ، وأحمد (391/1) بإسناد صحيح من حديث عبد الله مرفوعاً.

حلوةٌ ، فمن أخذها بحقها بُورِكَ له فيها ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ في مال الله ومال رسوله ليس له إلا النارَ يوم يلقىٰ الله][1] .

وقوله : ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] .

وكقوله تعالى : ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص : 83] .

قال ابن جرير : (﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ، يقول : أفلا يعقل هؤلاء المكذبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به ، من أن الحياة الدنيا لعب ولهو ، وهم يرون من يُخْتَرم منهم ، ومن يهلك فيموت ، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبُه المصائب وتفجعه الفجائع . ففي ذلك لمن عقل مدَّكر ومزدجر عن الركون إليها ، واستعباد النفس لها ، ودليلٌ واضح على أن لها مدبِّراً ومصرفاً يلزم الخلقَ إخلاصُ العبادة له ، بغير إشراك شيء سواه معه) .

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينَه وبينه ترجمان ، ولا حجابٌ يَحْجُبُهُ ، فينظرُ أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم من عمله ، وينظرُ أشأمَ منه فلا يرى إلا ما قدَّم ، وينظر بين يديه فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشقِّ تمرة][2] .

33 - 36 . **قوله تعالى** : ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا

---

(1) حديث حسن صحيح . أخرجه الترمذي(277/3) ، وأحمد (364/6) (378/6) من طريقين .

(2) حديث صحيح . أخرجه البخاري في الصحيح (1413) ـ كتاب الزكاة ، وكذلك (7443) ، كتاب التوحيد ، ورواه مسلم في الصحيح (1016) ح (67) ـ كتاب الزكاة .

يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) ﴾ .

في هذه الآيات: تَسْلِيَةُ الله سبحانه نَبِيَّهُ ﷺ مما يلقى من تكذيب قومه ، فإنهم يا محمد لا يكذبونك فيما أتيتهم به من الوحي ، بل يعلمون صحته ، وإنما يجحدون حقيقته قولاً فلا يؤمنون به. فاصبر على ذلك العناد ، فقد كذبت رسل من قبلك أرسلتهم إلى أممهم ، فنالوهم بمكروه ، فصبروا حتى حكم الله بينه وبينهم وأنزل نصره ، فتأس بإخوتك الرسل ممن مضىٰ قبلك. وإن كان عظم عليك إعراضهم فشق عليك ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم فإن استطعت أن تتخذ سرباً في الأرض أو درجاً في السماء فتأتيهم بعلامة وبرهان على صحة قولك أفضل مما أتيناهم فافعل ، فإن الله تعالى لو شاء لجمعهم على محجة الحق ملة واحدة فتنبه ، فإنما يستجيب لدعائك من فتح الله عليه ، ونوّر قلبه بالحياة ، وسمعه بالحق ، وأما الأموات المبطلون فلا سبيل إليهم فقد طبع الله على قلوبهم وأصم آذانهم لكبرهم وتعاليهم على الحق ، ثم يبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ونكال العقاب.

فقوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

قال قتادة: (يعلمون أنك رسول الله ويجحدون). وقال سعيد بن جبير: (ليس يكذبون محمداً ، ولكنهم بآيات الله يجحدون).

وفي التنزيل: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: 8].

وكذلك قوله جل ذكره: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6].

وقوله جلت عظمته: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3].

يروي ابن جرير من طريق السدي قال: (التقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس بأبي جهل فقال: يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد: أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ها هنا من قريش غيري وغيرُك يسمع كلامنا. فقال أبو جهل: ويحكَ؟ والله إن محمداً لصادق ، وما كَذَب محمدٌ قطُّ ، ولكن إذا ذَهَبت بنو قُصَيّ باللواء والسقاية والحِجابة والنُّبوة ، فماذا يكون لسائر قريش؟).

وأخرج البيهقي في «الدلائل» نحوه من طريق محمد بن إسحاق: (قال الأخنس بن

شريق لأبي جهل: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سَمِعت من محمد؟ ـ وكان يستمع كل منهما قراءة النبي ﷺ من الليل ـ قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشَّرف: أَطْعَموا فَأَطْعَمْنا، وحمَلُوا فحَملنا، وأعطَوا فأعْطَيْنا، حتى إذا تجاثَينا على الركب، وكنا كفرسي رِهَان، قالوا: منا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء! فمتى نُدْرِكُ هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه)[1].

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾.

قال قتادة: (يُعَزّي نبيه ﷺ كما تسمعون، ويخبره أن الرسل قد كُذِّبَتْ قبله، فصبروا على ما كذبوا، حتى حكم الله وهو خير الحاكمين).

قال القرطبي: (﴿ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ ﴾ أي: فاصبر كما صبروا. ﴿ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ أي: عوننا، أي: فسيأتيك ما وُعِدْتَ به).

وقوله: ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: ولا مُغَيِّرَ لكلمات الله، و﴿كلماته﴾ تعالى ذكره: ما أنزل الله إلى نبيه محمد ﷺ، من وعده إياه النصر على من خالفه وضادّه، والظفَر على من تولّى عنه وأدبر).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

قال القاسمي: (أي: من خبرهم في مصابرة الكافرين، وما منحوه من النصر، فلا بد أن نزيل حزنك بإهلاكهم، وليس إمهالهم لإهمالهم، بل لجريان سنته تعالى بتحقيق صبر الرسل وشكرهم).

وقوله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾.

أي: إن شق عليك وثقل نأيهم عن الإيمان بما نزل عليك من القرآن، ونهيهم الناس عنه، فإنه وجدت منفذاً تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض لتستخرج لهم معجزة خارقة مما اقترحوه، أو تصعد مصعداً في السماء لتأتيهم بذلك فافعل.

قال ابن عباس: (قوله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾، و«النفق» السَّرب، فتذهب فيه، ﴿ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾، أو تجعل

(1) مرسل. أخرجه البيهقي في «الدلائل» (206/2 - 207) من طريق ابن إسحاق به.

لك سلماً في السماء ، فتصعد عليه ، فتأتيهم بآية أفضل مما أتيناهم به ، فافعل).

قال قتادة: (﴿ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾: سَرَباً ، ﴿ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، قال: السلم الدَّرَج).

قال الزجاج: (وهو مشتق من السلامة كأنه يسلمك إلى الموضع الذي تريد).

قال النسفي: (فافعل ـ وهو جواب ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ ﴾ ، وإن استطعت وجوابها جواب ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ ﴾. والمعنى إنك لا تستطيع ذلك ، والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم).

وقال القاسمي: (وَحَسُنَ حذف الجواب لعلم السامع به. أي: لكن لم يجعل الله لك هذه الاستطاعة ، إذ يصير الإيمان ضرورياً غير نافع).

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾.

قال ابن عباس: (إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سَبَقَ له من الله السعادة في الذكر الأول).
وهناك أقوال للمفسرين تكمل المعنىٰ وتزيده وضوحاً وبياناً:

1 ـ قال القرطبي: (﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: لخلقهم مؤمنين وطبعهم عليه ، بيَّن تعالى أن كفرهم بمشيئة الله ردّاً على القدرية. وقيل المعنى: أي لأراهم آية تَضْطَرّهم إلى الإيمان ، ولكنه أراد عزَّ وجل أن يثيب منهم من آمن ومن أحسن).

2 ـ قال النسفي: (﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾: لجعلهم بحيث يختارون الهدىٰ ، ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك).

3 ـ قال القاسمي: (﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: ولكنه شاء بمقتضى جلاله وجماله ، إظهار غاية قهره ، وغاية لطفه).

4 ـ وأكّد شيخ المفسرين هذه المعاني حيث قال: (يقول تعالى ذكره: إن الذين يكذبونك من هؤلاء الكفار ، يا محمد ، فيحزنك تكذيبهم إياك ، لو أشاء أن أجمعهم على استقامة من الدين ، وصواب من محجة الإسلام ، حتى تكون كلمة جميعكم واحدة ، وملتكم وملتهم واحدة ، لجمعتهم على ذلك ، ولم يكن بعيداً عليَّ ، لأني

القادر على ذلك بلطفي ، ولكني لم أفعل ذلك لسابق علمي في خلقي ، ونافذ قضائي فيهم من قبل أن أخلقهم وأصوِّر أجسامهم).

قلت: وهذه الآية العظيمة تندرج ضمن مفهوم المشيئة الإذنية ، فإن المشيئة كما وردت في الكتاب والسنة ثلاثة أقسام: كونية وشرعية ومشتركة.

أولاً: المشيئة الكونية. وهي نوعان: 1 ـ المشيئة الإجبارية. 2 ـ المشيئة الإذنية.

ثانياً: المشيئة الشرعية. ـ أمر الله ونهيه ـ.

ثالثاً: المشيئة المشتركة. ـ اشتراك المشيئة الكونية والمشيئة الشرعية ـ.

وقد فصلت ذلك ببيان مُدَلّل في كتابي: أصل الدين والإيمان ـ عند الصحابة والتابعين لهم بإحسان ـ في أبحاث القدر ـ الباب السادس: مفهوم المشيئة والاستطاعة. فلله الحمد والمنة.

وأما الآية الكريمة موضوع التفسير هنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ـ فهي تدل على مفهوم المشيئة الإذنية: وهي المشيئة المرتبطة بعلم الله وعدله وحكمته ، إذ علم سبحانه الأعمال وكتبها فلا أحد اختار الإيمان رغم مشيئة الله ، ولا أحد اختار الكفر رغم مشيئة الله ، بل الكل داخل في اختياره تحت مشيئته تعالى ، فلا أحد يخرج بإرادته ومشيئته عن إرادة الله ومشيئته عز وجل.

قال سبحانه في سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾. وقال جل ذكره في سورة النساء: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٦٤﴾﴾. وقال جل ثناؤه في سورة النحل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾. وقال جلت عظمته في سورة يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

فهو سبحانه لا يسأل عما يفعل لتمام علمه وكمال حكمته وعدله.

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند حسن، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [إن الله لو شاء أن لا يُعصى ما خلق إبليس][1].

وفي لفظ عند البيهقي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال النبي ﷺ لأبي بكر: [يا أبا بكر، لو أراد الله أن لا يُعصى ما خلق إبليس].

وقوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

فيه أكثر من تأويل:

1 ـ قال ابن جرير: (يقول: فلا تكونَنَّ ممن لا يعلم أن الله لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه بلطفه، وأن من يكفر به من خلقه إنما يكفر به لسابق علم الله فيه ونافذ قضائه بأنه كائن من الكافرين به اختياراً لا اضطراراً).

2 ـ قال القرطبي: (﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي: من الذين اشتد حزنهم وتحسروا حتى أخرجهم ذلك إلى الجزع الشديد، وإلى ما لا يَحِل. أي: لا تحزن على كفرهم فتقارب حال الجاهلين).

3 ـ وقال النسفي: (﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي: من الذين يجهلون ذلك. وهو أن لو شاء سبحانه: لجعلهم بحيث يختارون الهدىٰ، ولكن لما علم أنهم يختارون الكفر لم يشأ أن يجمعهم على ذلك ـ كذا قاله الشيخ أبو منصور رحمه الله).

4 ـ وقال القاسمي: (﴿ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي: بما تقتضيه شؤونه تعالى، التي من جملتها ما ذكر من عدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم. إما اختياراً، فلعدم توجههم إليه. وإما اضطراراً، فلخروجه عن الحكمة التشريعية المؤسسة على الاختيار).

5 ـ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة، فإن قلوب المسلمين كانت تضيق من كفرهم وإذابتهم.

قلت: والآية درس في إفهام أحد أركان الإيمان بالقدر، فإن هذا الركن العظيم يرتكز على أركان ثلاثة: هي صفات لله سبحانه:

1 ـ العلم. 2 ـ الحكمة. 3 ـ العدل.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (92/6)، والبيهقي في «الأسماء» (157).

فقد قضى سبحانه بعلمه وحكمته أن لا يجبر الناس على الإيمان ، بل بسط لهم صفحات هذا الكون الفسيح يقرؤون فيها دلالات إفراده تعالى بالتكبير والتعظيم ، ثم بسط لهم صفحات التنزيل الكريم ، يقرؤون فيها عن أسمائه وصفاته الحسنى ، وآياته ونعمه العظمىٰ ، وخبر الأمم التي أهلكها الله بالكفر والكبر والعناد ، وخبر المرسلين وأتباعهم المؤمنين ، وما أعدّ الله لهم من النعيم المقيم ، وما هيأ لأعدائه من العذاب المقيم. فالكتابة في اللوح المحفوظ عن كلٍ من اختيار الفريقين مصيرَهم هي كتابة علم لا كتابة جبر أو قهر. وبذلك يفهم حديث الكتابين اللذين أخرجهما رسول الله ﷺ يوماً أمام أصحابه:

فقد أخرج الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: [خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان ، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قال: قلنا: لا ، إلا أن تُخْبِرنا يا رسول الله. فقال للذي في يده اليمنىٰ: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أُجْمِلَ على آخرهم ، فلا يُزادُ فيهم ولا يُنْقَصُ منهم أبداً. ثم قال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين ، فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقَصُ منهم أبداً. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأي شيء إذن نعمَلُ إن كان هذا أمْراً قد فُرِغ منه؟ قال رسول الله ﷺ: سدِّدُوا وقاربوا ، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإن عمل أي عمل ، وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل ، ثم قال بيده فقبضها ، ثم قال: فرغ ربكم عزَّ وجلَّ من العباد ، ثم قال باليمنى فنبذ بها فقال: فريق في الجنة ، ونبذ باليسرى فقال: فريق في السعير][1].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ ، المؤمنون ، للذكر ، ﴿والموتىٰ﴾ ، الكفار ، حين يبعثهم الله مع الموتىٰ).

وقال قتادة: (هذا مثل المؤمن ، سمع كتاب الله فانتفع به وأخذ به وعقله. والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم ، وهذا مثل الكافر أصم أبكم ، لا يبصر هدىٰ ولا ينتفع به).

(1) حديث صحيح. انظر مسند أحمد (186/4) ، وصحيح ابن حبان (1806) ، ومستدرك الحاكم (31/1) ، ومسند أبي يعلى (171/2) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث (88).

فالكفار موتىٰ القلوب ، فكان ذلك تشبيهاً من الله لهم بأموات الأجساد .

وفي التنزيل : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس : 70] .

وقال في هذه الآية : ﴿ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ . قال ابن كثير : (وهذا من باب التهكم بهم ، والإزراء عليهم) .

37 - 39 . **قوله تعالى** : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : يخبر تعالى عن قيل هؤلاء المعرضين الجاحدين نبوة محمد ﷺ : هلا نزل على محمد آية من ربه؟ قل يا محمد لهؤلاء ـ قائلي ذلك ـ إن الله قادر أن ينزل حجة على ما يسألون ، ولكن أكثر الذين يسألون ذلك لا يدرون تبعات ذلك عليهم ، أو وجه ترك إنزال ذلك . ثم أعلمهم أن الله محيط بأعمالهم وأقوالهم ومواقفهم ، فلا يغفل سبحانه عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغير أو كبير ، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء ، بل كُلُّ هؤلاء أُمَمٌ مُصَنَّفَة ، قد أحصىٰ أحوالهم سبحانه ، وأثبت ذلك في أم الكتاب ، وجميعهم آتيه إلى أرض المحشر يوم القيامة . ولكن مثل الكافر كالأصم الأبكم ، لا يبصر هدىٰ ، ولا ينتفع به ، صم عن الحق في الظلمات ، لا يستطيع منها خروجاً ، والله سبحانه يضل من يشاء من عباده عدلاً ، ويهدي من يشاء إلى صراطه القويم فضلاً .

فقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ .

قال الحسن : (﴿لولا﴾ ها هنا بمعنى هلاّ) . قال القرطبي : (وكان هذا منهم تعنتاً بعد ظهور البراهين ، وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله ، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب) .

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾.

أي: قل لهم يا محمد إن الله قادر على إنزال الخوارق والمعجزات والآيات، بنحو ما تعنتوا كقولهم: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ ﴾ [الإسراء]. وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ـ فيه تفاسير متكاملة:

1 ـ لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، فهو العليم بمصالحهم.

2 ـ لا يعلمون ما يترتب عليهم في نزول ذلك من البلاء، أو ما يعقب ذلك من العقوبة لو كفروا بعد معاينة تلك الآيات.

3 ـ لا يعلمون ما كتب الله من إخراج عباد صالحين من أصلابهم يؤمنون بالله ورسوله، فلم يرد سبحانه من أجل ذلك استئصالهم.

4 ـ لا يعلمون ما وجه ترك إنزال ذلك عليك من حكمة الله التي لا يحيط بها أحد.

5 ـ لا يعلمون أن ذلك الاقتراح منهم دليل على جهلهم.

وقوله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾.

فيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال مجاهد: (أصناف مصنفة تُعرف بأسمائها).

2 ـ قال قتادة: (يقول: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة).

3 ـ وقال السدي: (﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾، يقول: إلا خلق أمثالكم).

4 ـ وقال ابن جريج فيها: (الذرّة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب).

قال ابن جرير: (وكيف يغفل عن أعمالكم، أو يترك مجازاتكم عليها، وهو غير غافل عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغير أو كبير، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناساً مُجَنَّسَة وأصنافاً مصنفة، تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومُثْبَت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب).

وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

يعني كتابة جميع دقائق تلك الأمم والعوالم في اللوح المحفوظ.

قال ابن عباس: (ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب).

وقال ابن زيد: (لم نغفل الكتاب، ما من شيء إلا وهو في الكتاب).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

فيه قولان:

1 ـ قال ابن عباس: (موت البهائم حشرها). قال: (حشرها الموت).

2 ـ قال أبو هريرة: (يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدوابَّ والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجَمَّاء من القَرْناء، ثم يقول: «كوني تراباً»، فلذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾) ـ ذكره بسنده ابن جرير.

والراجح القول الثاني، وهو أن الحشر هنا يُعنىٰ به الجمع لبعث الساعة وقيام القيامة.

أخرج عبد الله بن أحمد في مسند أبيه، عن عثمانَ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ـ قال: [إن الجماء لتقتصّ من القرناء يوم القيامة][(1)].

ويشهد له ما روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: [لَتُؤَدُّنَ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة، حتىٰ يُقاد للشاة الجلحاءِ من الشاة القَرْناء][(2)].

وكذلك يشهد له ما أخرجه الطيالسي في «مسنده» عن الأعمش قال: سمعت منذراً الثوري يحدث عن أصحابه عن أبي ذر قال: [رأىٰ رسول الله ﷺ شاتين تنتطحان، فقال: يا أبا ذر! أتدري فيما تنتطحان؟ قلت: لا، قال: ولكن ربك يدري، وسيقضي بينهما يوم القيامة][(3)].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

قال قتادة: (هذا مثل الكافر، أصم أبكم، لا يبصر هدى، ولا ينتفع به، صَمَّ عن الحق في الظلمات، لا يستطيع منها خروجاً، متسكّعٌ فيها).

(1) صحيح بشواهده. أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (72/1)، والبزار (3449).

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (2582) ـ كتاب البر والصلة ـ باب تحريم الظلم.

(3) حديث حسن. أخرجه الطيالسي في «مسنده» (480)، وأخرجه أحمد (162/5). وله شواهد.

وفي التنزيل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 17 ـ 18].

فالأصم الذي لا يسمع، والأبكم الذي لا يتكلم، وبذلك شبّه الله المكذبين بحججه وآياته في جهلهم وقلة علمهم وسوء فهمهم. قال القرطبي: (أي: عَدِموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم، فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون).

وقوله: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: هو سبحانه المتصرف في خلقه كما يشاء، فيهدي من يشاء منهم فضلاً، ويضل من يشاء منهم عدلاً، فهو وحده تبارك وتعالى الذي اطلع على قلوب عباده.

قال القاسمي: (فمن أحب هدايته، وَفَّقَهُ بفضله وإحسانه للإيمان، ومن شاء ضلالته تركه على كفره. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: 40]).

قلت: ومفهوم ذلك أن الله سبحانه يعاقب العبد على حبه الضلال بقسوة القلب، ويجازي المؤمن على إيثاره طاعة ربه بالهداية والثبات.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [تُعْرَضُ الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشربها نكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مُرْبداً كالكوز مُجَخِّياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه][1].

والصراط المستقيم هو طريق الحق الذي مشىٰ عليه الرسل والصالحون وثبتهم الله عليه، حتى أكرمهم يوم القيامة بتجاوز الصراط إلى دار النعيم المقيم، جعلنا الله والمؤمنين الصادقين من أهل صراطه المستقيم.

40 - 45. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ

(1) حديث صحيح. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (1/89 - 90)، وانظر مختصر صحيح مسلم (1990) ـ كتاب الفتن ـ من حديث حذيفة رضي الله عنه.

وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

في هذه الآيات: قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من قومك: أخبروني إن جاءكم عذاب الله كالذي نزل على أمم قبلكم فهلكوا ـ كالرجفة والصيحة والصاعقة والغرق ـ أو جاءتكم الساعة التي تخرجون فيها من قبوركم لمشهد الحساب يوم القيامة، أغير الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم!! هل تدعون شركاءكم وآلهتكم المكذوبة!؟ بل إنكم هنالك تفزعون إلى الله وحده ليكشف عنكم ما أغمكم من الشدائد والأهوال دون كل شيء غيره، وتنسون حينئذ ما تشركونه في العبادة. لقد أرسلنا إلى جماعات قبلكم من الأمم فأمرناهم ونهيناهم وامتحناهم بالفقر والضيق والأسقام لعلهم يخلصون العبادة لله ويفردونه بالتعظيم، وإذ لم يتضرعوا بل أقاموا على تكذيبهم واستكبارهم قساوة قلب منهم، واستهتاراً بعقاب الله، وقد حَسَّنَ الشيطان لهم أعمالهم التي يسخطها الله منهم، فلما أصروا على غيّهم استدرجناهم بعاجل لذات الدنيا حتى إذا فرحوا بسعة العيش والصحة وسكروا فاجأناهم بعقوبة مؤلمة وأخذناهم فأصبحوا هالكين. فاستؤصل القوم الذين عتوا على ربهم والحمد لله رب العالمين.

فقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ﴾. أي: أخبروني. وقوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾. أي: بمثل ما نزل بالأمم الماضية الكافرة التي عتت عن أمر ربها ورسله. ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يعني القيامة.

وقوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال القرطبي: (أي: أنتم عند الشدائد ترجعون إلى الله، وسترجعون إليه يوم القيامة أيضاً، فلم تصرّون على الشرك في حال الرفاهية؟! وكانوا يعبدون الأصنام ويدعون الله في صرف العذاب).

وقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾. أي: تخصون بالدعوة. ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾.

قال القاسمي: (أي: إن شاء كشفه. والتقييد بالمشيئة لبيان أن إجابتهم غير

مطردة ، بل هي تابعة لمشيئته تعالى ، المبنية على حِكَم استأثر بعلمها).

وقوله : ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ .

أي : وقت الحاجة والضرورة وحلول المهالك . وفي التنزيل : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : 67] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ ﴾ .

يعني : الفقر وضيق العيش والقحط والشدائد. ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ يعني الأمراض والأسقام والآلام . وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ . أي : يتذللون لله ويدعونه ويتضرعون إليه ويخشعون .

وقوله : ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ .

قال ابن كثير : (أي : فهلاّ إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتَمَسْكَنُوا لدينا).

وقوله : ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

قال القرطبي : (أي : صَلُبَت وغَلُظَت ، وهي عبارة عن الكبر والإصرار على المعصية ، نسأل الله العافية). وقال القاسمي : (وجيء بـ«لولا» ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم ، كما قال : ﴿ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فلم يكن فيها لين يوجب التضرع ، ولم ينزجروا وإنما ابتلوا به).

وقوله : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

أي : من الكبر والشرك والعجب والغرور .

قال النسفي : (وصاروا معجبين بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم).

أخرج ابن عدي والبيهقي بسند حسن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : [لو لم تكونوا تذنبون خشيت عليكم أكثر من ذلك : العجب][(1)] .

وفي لفظ البيهقي : [لو لم تكونوا تذنبون ، لخِفْتُ عليكم ما هو أكبَرُ من ذلك ، العُجْبَ العُجْبَ] .

---

(1) حديث حسن . أخرجه ابن عدي (164/1) ، والعقيلي (171) ، والبيهقي ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (658) .

وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.

أي: لما تمادوا بالغي والغرور والعجب والاستكبار فتحنا عليهم أبواب الملذات والرزق من كل ما يختارون استدراجاً لهم وعلامة على اقتراب النهاية.

قال ابن عباس: (﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾، يعني: تركوا ما ذكروا به). وقال ابن جريج: (ما دعاهم الله إليه ورسله، أبوْه وردّوه عليهم).

وعن مجاهد: (﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال: رخاء الدنيا ويُسْرها، على القرون الأولىٰ). وقال قتادة: (يعني الرخاء وسعة الرزق).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾.

قال السدي: (أخذهم العذاب بغتة، فإذا هم مهلكون، متغيِّر حالهم).

وقال مجاهد: (﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾، قال: الاكتئاب).

وقال ابن زيد: (المبلس الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه. والمبلس أشد من المُسْتكين، وقرأ: ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: 76]. وكان أول مرة فيه معاتبة وبقية. وقرأ قول الله: ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾، ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾، حتى بلغ: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم جاء أمرٌ ليس فيه بقية. وقرأ: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾، فجاء أمر ليس فيه بقية. وكان الأول، لو أنهم تضرعوا كُشف عنهم).

قلت: والإبلاس في كلام العرب الانكسار والحزن. يقال: أبلس فلان إذا سكت غمّاً. قال الرازي: («أبلس» من رحمة الله أي: يئس. ومنه سمي «إبليس»).

أخرج الإمام أحمد في المسند، وابن جرير في التفسير، بسند قوي، عن عقبة بن عامر مرفوعاً: [إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾][1].

وقوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

قال السدي: (قطع أصل الذين ظلموا). وقال ابن زيد: (استؤصلوا).

---

(1) صحيح لشواهده. أخرجه أحمد (145/4)، وابن جرير(115/7)، والبيهقي في «الشعب» (4540).

قال النسفي: (أي: أهلكوا عن آخرهم ولم يترك منهم أحد. ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة، وأنه من أجل النعم وأجزل القسم، أو احمدوا الله على إهلاك من لم يحمد الله).

وفي كلام العرب: الدابر الآخر. دبر فلان القوم إذا كان آخرهم في المجيء.

قال القرطبي: (ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأمور).

يروي ابن أبي حاتم عن قتادة قال: (بغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون).

فالحمد لله الذي أظهر حججه، ونصر رسله، وأهلك أعداءه، تمكيناً لدينه في الأرض، وتكرمة لأوليائه وأهل طاعته أتباع رسله، فله الحمد في الأولى والآخرة، وفي كل حال.

46 - 49. قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (٤٩) ﴾.

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله العادلين به الأوثان والطواغيت، المكذبين بنبوتك ماذا لو أصمّكم الله فذهب بأسماعكم، وأَعْماكُم فذهب بأبصاركم، وطبع على قلوبكم فعميت الفقه والحجة وعدمت الفهم! فأي إله غير الله ـ جلت عظمته ـ يرد عليكم ما ذهب عنكم، انظر يا محمد كيف نتابع عليهم الأمثال والحجج ليعتبروا ثم هم يعدلون ويعرضون. قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، المكذبين بنبوتك ماذا لو فاجأكم الله بعذاب من عنده، هل يحيق الهلاك إلا بالظالمين الآثمين. إنّما نرسل رسلنا بشارة لأهل الطاعة، نذارة لأهل المعصية فمن آمن وعمل صالحاً فلا خوف عليهم عند قدومهم على ربهم، ولا هم

يحزنون على ما خلفوا وراءهم في هذه الدنيا. وأما الذين كذبوا بالآيات والحجج وعاندوا فأولئك يباشرهم العذاب بما كانوا يكسبون.

فقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾.

أي: بأن أَصَمَّكُم وأَعْمَاكُم وغطىٰ على قلوبكم ما يزول به عقلكم وفهمكم.

وقوله: ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾.

أي: بما أخذ منكم وحرمكم من الاستمتاع بهذه النعم العظيمة. قال القاسمي: (وإنما خصت هذه الأعضاء الثلاثة بالذكر، لأنها أشرف أعضاء الإنسان، فإذا تعطلت اختل نظام الإنسان، وفسد أمره، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا).

وقوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾.

أي: انظر يا محمد كيف نورد هذه الدلالات والأمثال ثم يُصِرُّ هؤلاء المشركون على الجحود والعناد والإعراض بغياً وحسداً وكبراً. قال ابن عباس: (﴿يصدفون﴾: يعدلون).

وقال مجاهد: (﴿يصدفون﴾: يعرضون). وقال السدي: (يصدّون).

وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾.

أي: أخبروني إن فاجأكم الله بعذابه على غرة أو معاينة تنظرون إليه.

قال مجاهد: (﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً ﴾، فجأة آمنين، ﴿ أَوْ جَهْرَةً﴾، وهم ينظرون).

وقوله: ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

قال ابن جرير: (يقول: هل يهلك الله منا ومنكم إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العبادة، ويترك عبادة من يستحق علينا العبادة).

وقال القرطبي: (والظلم هنا بمعنى الشرك، كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾).

وقوله: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾.

قال الحسن: (مبشرين بِسعة الرزق في الدنيا والثواب في الآخرة. قال: ومعنى ﴿منذرين﴾ مخوفين عقاب الله).

وقوله: ﴿ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: فمن آمن قلبُه بما جاؤوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾، أي: بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي: بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خَلَّفُوه، وحافظهم فيما تَرَكوه).

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾.

أي: إن الذين كذبوا بالقرآن والمعجزات ونبوة محمد ﷺ سَيُبَاشِرُهُم العذاب بما كانوا يكفرون ويجحدون. قال ابن زيد: (كل ﴿فسق﴾ في القرآن، فمعناه الكذب).

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: [والذي نفس محمد بيده! لا يسمع بي أَحَدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصرانيٌّ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار](1).

50 - 54. قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (54) ﴾.

في هذه الآيات: خِطَابٌ من الله سبحانه لنبيّه ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (153) ـ كتاب الإيمان. باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته.

نبوتك ـ لست أملك خزائنِ الرب عزَّ وجلَّ ، خزائن السماوات والأرض ، ولست أعلم ما يغيب ولا أدعي أني مَلَك ، وإنما أنا عبد رسول أتبع ما يوحىٰ إليّ من ربي عز وجل ، فهل يستوي الأعمى عن الحق والبصير به أفلا تتفهمون هذه الحجج!! وأنذر بهذا القرآن يا محمد الذين يخافون ربهم ، والموقف في الحشر وأهوال ذلك اليوم ، حيث لا ناصر ولا شفيع يشفع عند الله من عقابه الذي قضاه لأهل الكفر والجحود، لعلهم يرهبون ويحذرون ما يسخطه ويعملون ما يحبه ـ جلت عظمته. ثم لا تطرد المؤمنين المستضعفين من مجلسك من أجل الطغاة المجرمين ، فإن جلوس المؤمنين أحب إلى الله من جلوس أولئك الذين يستكبرون أن يقعدوا جنب المؤمنين ، فحذار أن تطردهم فتكون من الظالمين. فإنما فَتَنَّا هؤلاء بهؤلاء بقسمة الأرزاق والأخلاق والقوة والضعف ليقول المجرمون المخدوعون بالقوة والمال أهؤلاء الفقراء الضعفة مَنَّ الله عليهم بالهدىٰ ونحن أحق! فأجابهم الله تعالى: أليس الله بأعلم بالشاكرين. وإذا جاءك المؤمنون يا محمد وقد انكسرت قلوبهم بذنوب زلّت نفوسهم وجوارحهم بها فبشرهم بسعة مغفرة الله ورحمته لمن تاب وآمن وعمل صالحاً وأنه سبحانه غفور رحيم.

فقوله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾.

أي: فيكون أمر التصرف بها إليّ ، وأجيبكم ما خَطَرَ لكم.

قال القاسمي: (لا أدعي أن خزائن رزق الله مفوضة إليّ ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهباً ، وغير ذلك). وقال القرطبي: (هذا جواب لقولهم: ﴿ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾ فالمعنى: ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات ، ولا أعلم الغيب فأخبركم به).

والخزائن جمع خزانة. وهي المكان الذي يخزن فيه الشيء. قال الرازي: (خزن المال جعله في الخزانة). وَخَزْنُ المال أو الشيء إحرازه، بحيث لا تناله الأيدي.

أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: [لا يَحْلُبَنَّ أَحدٌ ماشِيةَ امرئٍ بغير إذنه ، أَيُحِبُّ أحدُكُم أن تؤْتَىٰ مَشْرَبَتُهُ فَتُكْسَرَ خِزَانَتُهُ فَيُنْتَقَلَ طَعَامُه؟ فإنما تَخْزُن لهم ضروعُ مواشيهم أَطْعماتِهم ، فلا يَحْلُبَنَّ أحد ماشيةَ أحدٍ إلا بإذنه][1].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2435) ـ كتاب في اللقطة ـ باب: لا تُحْتَلَبُ ماشية أحد بغير إذنه. من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقوله: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾.

أي: لا أدعي أني ملك من الملائكة أُظهر الخوارق.

قال ابن جرير: (لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر في الدنيا، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك). وقال القرطبي: (وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي: لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر).

والخلاصـــة: قال لهم رسول الله ﷺ: لست ملكاً حتى تكلفوني بِخوارق العادات مما لا يطيقه البشر، من الرقيّ في السماء، ورؤية الأمور العظام، إنما أنا بشر يأكل ويشرب وينام ولكن الله اصطفاني بالوحي لأبلغ كلامه ورسالته، ولذلك قال: ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾.

وقوله: ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

قال مجاهد: (﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ ﴾، قال: الضال والمهتدي). وقال قتادة: (﴿الأعمى﴾ الكافر الذي قد عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، و﴿البصير﴾، العبد المؤمن الذي أبصر نافعاً، فوحد الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله).

وقوله: ﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾.

قال ابن جرير: (ومعناه، يعلمون أنهم يحشرون، فوضعت «المخافة» موضع «العلم»، لأن خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك).

وقوله: ﴿ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: أنذِرْ هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ـ عز وجل ـ ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾، فيعملون في هذه الدار عملاً يُنْجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويُضاعف لهم به الجزيل من ثوابه).

وقوله: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن سعد قال: [فِيَّ نزلت: ﴿ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ

﴿رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ ، قال: نزلت في ستة ، أنا وابن مسعود منهم ، وكان المشركون قالوا: تُدْني هؤلاء][1] .

وأخرج ابن ماجة والحاكم وابن جرير بسند صحيح عن المقدام بن شُرَيح عن أبيه ، عن سعد قال: [كنا مع النبي ﷺ ستة نفر ، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه ، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾][2] .

وقوله: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ ـ في تأويله أقوال:

1 ـ ذكر ابن عباس ومجاهد أن المراد بالدعاء المحافظة على الصلاة المكتوبة في الجماعة.

قال ابن عباس: (﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ ، يعبدون ربهم ، ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ ، يعني: الصلاة المكتوبة).

وقال مجاهد: (الصلاة المفروضة ، الصبح والعصر).

2 ـ ذكر إبراهيم أن المقصود بالدعاء الذكر. قال إبراهيم: (لا تطردهم عن الذكر). وقال منصور: (هم أهل الذكر).

3 ـ ذكر أبو جعفر أن المراد تعلمهم القرآن وقراءته. قال أبو جعفر: (كان يقرئهم القرآن ، من الذي يَقُصُّ على النبي ﷺ).

4 ـ ذكر الضحاك أن المقصود العبادة. قال الضحاك: (﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ قال: يعني: يعبدون ، ألا ترى أنه قال: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ . . . ﴿٤٣﴾ ﴾ [غافر] ، يعني: تعبدون).

---

(1) حديث صحيح. انظر صحيح مسلم (2413) ، وسنن ابن ماجة (4128) ، ومستدرك الحاكم (319/3). ورواه النسائي في «التفسير» (183) ، وأخرجه أبو يعلى(826) ، والطبري (13266) ، وغيرهم. من حديث سعد رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. انظر سنن ابن ماجة (4128) ـ باب مجالسة الفقراء. ومستدرك الحاكم (319/3) وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبي. وانظر الواحدي (431) ، والصحيح المسند ـ الوادعي. الأنعام (52). وأخرجه النسائي في «الكبرى» (11163) ، والطبري في «التفسير» (13266) ، وأبو يعلى (826). من حديث سعد رضي الله عنه.

قلت: والدعاء يشمل كل ما ذكر ، فالصلاة دعاء ، والذكر والقرآن والعبادة بجميع ألوانها وأشكالها من الدعاء. وفي الحديث: [إن الدعاء هو العبادة][1]. وفي الحديث: [ليس شيء أكرم على الله سبحانه من الدعاء][2].

وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ـ فيه قولان:

القول الأول: يريدون طاعته ، والإخلاص في عبادتهم لله تعالى ، فلا يتوجهون بذلك إلا إليه.

قال ابن جرير: (يلتمسون بذلك القربة إلى الله ، والدنو من رضاه).

القول الثاني: يبتغون الله الموصوف بالوجه. قال القرطبي: (يريدون الله الموصوف بأن له الوجه ، كما قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27]. وهو كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ . .﴾ [الرعد: 22]. وخصّ الغداة والعشي بالذكر ، لأن الشغل غالب فيهما على الناس ، وما كان في وقت الشغل مقبلاً على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل).

قلت: وكلا القولين صحيح. فإن الآية تفيد الإخلاص في العمل لله الواحد الأحد ، كما تفيد إثبات صفة الوجه لله الكريم. وقد أكدت السنة الصحيحة هذه الصفة الجليلة.

ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ، قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينام ، ولا ينبغي أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور (أو النار) ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره]. وفي لفظ: (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد وأصحاب السنن من حديث النعمان بن بشير. انظرصحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3086).

(2) حديث حسن. أخرجه ابن ماجة في السنن (3087) ـ كتاب الدعاء ـ باب فضل الدعاء. انظر صحيح سنن ابن ماجة ـ حديث رقم ـ (3087).

(3) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح (179) ، كتاب الإيمان. والحجاب هو الذي يحجب الأبصار أن تراه في الدنيا ، وهو الذي أشار إليه النبي ﷺ بحديث أبي ذر: [قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: نور أنّىٰ أراه]. أخرجه مسلم في صحيحه (178) ـ كتاب الإيمان. باب قوله ﷺ: «نور أنىٰ أراه» ، «رأيت نوراً».

وقوله: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾.

كقول نوح عليه السلام حين ردّ على قومه مثل ذلك، قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

والمعنى: إنما حسابهم على الله عز وجل، وليس عليّ من حسابهم شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء. ذكره القاسمي.

قال أبو السعود: (وذكر قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ مع أن الجواب قد تم بما قبله، للمبالغة في بيان انتفاء كون حسابهم عليه ﷺ، بنظمه في سلك ما لا شبهة فيه أصلاً، وهو انتفاء كون حسابه عليه السلام، عليهم، على طريقة قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾).

وقال النسفي: (وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم، فقال: حسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم).

وقوله: ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾.

جواب النفي وهو: «ما عليك من حسابهم».

وقوله: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

جواب النهي، وهو قوله: ﴿ولا تطرد﴾. أو في موقع العطف على ﴿فتطردهم﴾ على وجه التسبيب، لأن كونه ظالماً مسبب عن طردهم.

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾.

قال ابن عباس: (﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾، يعني أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، فقال الأغنياء للفقراء: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾، يعني: هداهم الله. وإنما قالوا ذلك استهزاء وسُخْرِيّاً).

فأجابهم سبحانه بهذه الآية التي تقرع العقول والقلوب وتُفهِّم بحث القدر: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

أي: هو تعالى وحده الذي اطلع على قلوب عباده وعلم أعمالهم وكتب ذلك في اللوح المحفوظ كتابة علم لا كتابة جبر، فقسم الأعمال والأخلاق والأرزاق. فهدىٰ

المؤمنين هداية توفيق وإلهام، اختصاصاً بهم بعد هداية الرسل الكرام. كما قال جل ذكره: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم]. وفي لفظ: [إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم](1).

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله تعالىٰ قال: من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقربَ إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته](2).

فهذا الشكر المتتابع من العبد لربه عز وجل بحرصه على محابّه، جلت عظمته، أعقبه الله فيه اختصاصاً وولاية، حتى صار في ذمة الله فمن عاداه فقد أعلن الله تعالى عليه الحرب، ومن آذنه الله بالحرب فقد هلك.

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾.

يعني: إذا جاءك يا محمد أهل الإيمان والتصديق فأكرمهم برد السلام عليهم، وبَشِّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة، وقرِّبهم منك ولا تبعدهم.

قال البيضاوي: (وصفهم تعالى بالإيمان بالقرآن، واتباع الحجج، بعدما وصفهم بالمواظبة على العبادة، وأمره بأن يبدأهم بالتسليم، أو يبلغ سلام الله تعالى إليهم، ويبشرهم بسعة رحمة الله تعالى وفضله، بعد النهي عن طردهم، إيذاناً بأنهم الجامعون لفضيلتي العلم والعمل. ومن كان كذلك ينبغي أن يقرّب ولا يطرد، ويُعَزّ وَلا يُذَل، ويُبَشَّر من الله بالسلامة في الدنيا، والرحمة في الآخرة).

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2564) (33)، وكذلك (34) من حديث أبي هريرة، كتاب في البر والصلة. وأخرجه أحمد في المسند (7814).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (231/4) من حديث أبي هريرة، والبغوي في شرح السنة (2/142/1)، ويشهد له ما في المسند (256/6).

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : [إنّ الله لمّا خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي][1] .

وقوله : ﴿ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال النسفي : (﴿أنه﴾ الضمير للشأن ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا ﴾ ذنباً ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال ، أي : عمله وهو جاهل بما يتعلق به من المضرة ، أو جعل جاهلاً لإيثاره المعصية على الطاعة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد السوء أو العمل ﴿وأصلح﴾ أخلص توبته ﴿ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾) .

55 - 59. قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

في هذه الآيات: يقول جل ذكره: كما فصلنا لك يا محمد في هذه السورة من ابتدائها حتى هذا الموضع ، كذلك نفصل لك الأدلة والحجج في كل حق لإزهاق محاولات أهل الباطل ولتتضح لك سبيل المجرمين. قل لهؤلاء المشركين ـ يا محمد ـ: إن ربي عز وجل نهاني عن عبادة ما تدعون من دونه ولن أوافق أهواءكم ، وإن فعلت فقد اخترت حينئذ سبيل الضلال. إني على بيان من الله وحجة ناصعة وبرهان ، وكذبتم أنتم بربكم ، وما تستعجلونه من النقم والعذاب ليس بيدي ، إنما الحكم في كل شأن في هذا الكون لله أعدل الحاكمين وخير الفاصلين. ولو أن بيدي ذلك لعجلت لكم به ،

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (3194) ، (7404) ، (7553) ، وأخرجه مسلم برقم (2751) ، ورواه أحمد في المسند (313/2).

ولأريتكم الآيات والخوارق ، والعذاب الذي تستعجلون ، ولكنه بيد الجبار سبحانه ، وهو أعلم بوقت إرساله على الظالمين. فعنده مفاتح الغيب لا يشركه بذلك أحد ، وهو الذي يعلم ما في البر والبحر وما يجري فيها وما يكون ، وما تسقط ورقة في الصحارى والجبال والبراري والأمصار والقرى إلا يعلمها ، وكذلك لا يغيب عنه علم كل حبة أو شجرة وكل رطب أو يابس في أرجاء هذا الكون ، بل هو مثبت في اللوح المحفوظ.

فقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾.

أي: كما فعلنا في هذه السورة من بدايتها وقد بسطنا لك يا محمد في ذكر ما يدحض حجج المبطلين ، فالأمر سيستمر كذلك في كل هذا القرآن العزيز. قال ابن جرير: (كذلك نفصل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حق ينكره أهل الباطل من سائر أهل الملل). قال قتادة: (﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ ، نبين الآيات).

وقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ـ فيه قراءات:

1 ـ قرأها عامة قراء المدينة: ﴿ولتستبين سبيلَ المجرمين﴾ بنصب سبيل. أي: لتستبينَ أنت يا محمد سبيل المعاندين المجرمين الذين رغبوا بطرد المؤمنين. قال ابن زيد: (﴿ولتستبين سَبِيلَ المجرمين﴾: الذين يأمرونك بطرد هؤلاء).

2 ـ وقرأها بعض المكيين والبصريين: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. والتقدير: ولتتضح لك يا محمد وللمؤمنين طريقُ المجرمين.

3 ـ وقرأها عامة قراء الكوفة: ﴿وليستبينَ سبيلُ المجرمين﴾ بالياء في الكلمة الأولى بدل التاء. وأشهر هذه القراءات وأقربها القراءتان الثانية والثالثة ، وهذا اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فلا يستحق التعظيم إلا الله.

قال النسفي: (أي: صرفت وزجرت بأدلة العقل والسمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله).

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ ـ تأكيد لقطع أطماعهم.

قال البيضاوي: (هو إشارة إلى الموجب للنهي ، وعلة الامتناع عن متابعتهم ،

واستجهال لهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم ، وأن ما هم عليه هوى ، وليس بهدى. وتنبيه لمن تحرّىٰ الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد).

وقوله: ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا ﴾.

أي: إن ركبت أهواءكم ، ومضيت كما مضيتم في تخبطكم.

وقوله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾.

أي: دخلت حينئذ في متاهات الضلال ، وانحرفت عن سبيل الهدىٰ والرشاد ، فشاركتكم في ضلالكم وضياعكم.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾.

أي: على بصيرة ونور من شريعة ربي عز وجل.

وقوله: ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ﴾.

أي: وقد كذبتم بالحق الذي شرفني الله به وعميتم عنه.

وقوله: ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ﴾.

قال القرطبي: (أي: العذاب ، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء[1]. وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها)[2].

وقوله: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: إنما يرجع أمرُ ذلك إلى الله ، إن شاء عجَّلَ لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجّلكم ، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة).

وقوله: ﴿ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ﴾.

قال القرطبي: (أي: يقص القصص الحق ، وبه استدل من منع المجاز في القرآن).

---

(1) كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32]. وكقولهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا. ﴾ [الإسراء: 92].

(2) كما قال تعالى في معرض ذكر اقتراحاتهم: ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾. وكقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾.
وكقوله: ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: 93].

وقوله: ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾.

أي: خير من فصل الخلافات والخصومات والقضايا، وهو سبحانه خير الفاتحين الحاكمين بين عباده. وفي التنزيل: ﴿ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: 46].

أخرج أبو داود والنسائي بسند صحيح، عن هانئ بن يزيد، عن النبي ﷺ قال: [إن الله هو الحكم، وإليه الحُكْمُ][1].

وقوله: ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾.

أي: لو كان أمر العذاب بيدي لأنزلته بكم وعاجلتكم به كما ترغبون، حتى ينقضي الأمر إلى آخره.

قال أبو السعود: (لأهلكتكم عاجلاً، غضباً لربي، واقتصاصاً من تكذيبكم به).

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال القرطبي: (أي: المشركين وبوقت عقوبتهم).

وقوله: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾.

قال السدي: (﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، يقول: خزائن الغيب).

وعن عطاء، عن ابن عباس: (﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾، قال: هن خمس: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ إلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾).

والمفاتح جمع مِفْتَح. يقال: مِفْتح ومِفْتاح. قال ابن جرير: (فمن قال: «مِفْتَح»، جمعه «مفاتح»، ومن قال: «مفتاح»، جمعه «مفاتيح»).

أخرج البخاري في صحيحه عن سالم بن عبد الله، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: [مفاتحُ الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾][2].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955). ورواه النسائي. انظر تخريج الإرواء (2682)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (1841).

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4627)، وأخرجه النسائي في السنن «الكبرى» (7728).

وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي والنسائي ، وابن ماجة ـ واللفظ له ـ من حديث أبي هريرة قال: [كان رسول الله ﷺ يوماً بارزاً للناس ، فأتاه رجل. فقال: يا رسول الله! ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر. قال: يا رسول الله! ما الإسلام؟ قال: أن تعبدَ الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيمَ الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصومَ رمضان. قال: يا رسول الله! ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إنْ لا تراه فإنه يراك. قال: يا رسول الله! متى الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعْلمَ من السائل ، ولكِنْ سَأُحَدِّثك عن أشراطِها. إذا وَلَدَت الأمَةُ رَبَّتَها فذلك من أشراطِها ، وإذا تطاول رِعاء الغنم في البُنْيان فذلك من أشراطها ، في خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلا الله. فتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾ ﴾][1].

وقوله: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾.

أي: من الخلق والعجائب. فإنه سبحانه يحيط علمه بجميع عوالم السماوات والأرض ، ولا يخفىٰ عليه شيء من ذلك ولو كان مثقال ذرة.

وقوله: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾.

قال ابن جرير: (ولا تسقط ورقة في الصحارىٰ والبراري ، ولا في الأمصار والقرىٰ ، إلا الله يعلمها). قال القرطبي: (أي: من ورقة الشجر إلا يعلم متىٰ تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء).

وقوله: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال ابن عباس: (خلق الله النُّون ـ وهي الدَّواة ـ وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خَلْق مخلوق ، أورِزْقٍ حلال أو حرام ، أو عَمَلٍ برٍّ أو فجور ، وقرأ هذه الآية: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا... ﴾ إلى آخر الآية) ـ رواه ابن أبي حاتم.

وظلمات الأرض بطونها ، والمعنى: لا تنبت حبة في أية بقعة في الأرض إلا يعلم سبحانه متى تنبت ، وكم تنبت ، ومن يأكلها. ولا تيبس أرض أو ترطب إلا يعلم

(1) حديث صحيح. انظرصحيح مسلم (8) ، وسنن ابن ماجة (64) ـ باب في الإيمان ـ واللفظ له. وأخرجه بنحوه الترمذي في السنن (2610) ، والنسائي (8/97) ، وأخرجه ابن حبان (168).

سبحانه يبسها إذا يبست ، ورطوبتها إذا رطبت .

قال النسفي : (وقوله : ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ كالتكرير لقوله ﴿ إِلَّا يَعۡلَمُهَا ﴾ ، لأن معنى ﴿ إِلَّا يَعۡلَمُهَا ﴾ ومعنى ﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ واحد، وهو علم الله أو اللوح).

وقال القرطبي : (﴿ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ . أي : في اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيان يلحقه ، تعالى عن ذلك . وقيل : كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر ، أي : اعلموا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب ، فكيف بما فيه ثواب وعقاب).

قلت : وقد دلت السنة الصحيحة على آفاق هذا المعنىٰ ، في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام أحمد في المسند ، بسند صحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : [قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة][1] .

الحديث الثاني: أخرج الطبراني بسند صحيح عن عَبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : [فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة][2] .

الحديث الثالث: أخرج الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء ، عن النبي ﷺ قال : [فرغ الله عز وجل إلى كل عبد من خمس : من أجله ورزقه وأثره ومضجعه وشقي أو سعيد][3] . وفي رواية : (من عمله وأجله ورزقه وأثره ومضجعه).

وله شاهد عند ابن عساكر بسند جيد عن أنس ، بلفظ : [فرغ الله من أربع : من الخَلق والخُلق والرزق والأجل].

---

(1) حديث صحيح . أخرجه أحمد (2/ 69) ، وأخرجه الترمذي (2259) من حديث عبد الله بن عمرو ، وانظر صحيح مسلم (51/8) بلفظ قريب . وأخرجه ابن حبان (6138) .

(2) حديث صحيح . رواه الطبراني بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . انظر تخريج الطحاوية (78) ، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4080) ، ورواه البيهقي .

(3) إسناده صحيح . أخرجه أحمد (197/5) ، وابن عساكر (2/493/17) ، والطبراني في الكبير والأوسط ، من حديث أبي الدرداء . قال الهيثمي (195/7) : (رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» ، وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات) . وانظر تخريج السنة لابن أبي عاصم (303) ، (304) ، (305) ـ الألباني . وانظر للشاهد بعده «صحيح الجامع» (4079) .

60 - 62. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

في هذه الآيات: عَطْفٌ على البيان السابق: ـ وقل لهم يا محمد: إن الله تعالى هو الذي يتوفىٰ أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم، ويعلم ما كسبتم من الأعمال في النهار، ثم يوقظكم من نومكم في النهار فيبعثكم، ليقضي الأجل الذي كتبه لحياتكم بالموت عند انتهاء العمر الذي اختاره لكم ثم معادكم ومردكم إليه سبحانه فيخبركم بما كنتم تعملون. وهو الغالب خلقه والعالي عليهم بقدرته وجبروته ويرسل ملائكته فيكم فيتعاقبون ليلاً ونهاراً يحفظون أعمالكم ويصعدون بذلك إلى الله، فإذا جاء الموت أرسل إليكم ملائكة يقبضون أرواحكم من ملك الموت ولا يفرطون في ذلك ويصعدون بها. ثم رُدَّت الملائكة الذين جاؤوا بالأرواح بعد نزعها ـ إلى الله سيدهم الحق، ألا له الحكم والقضاء وهو أسرع من حسب أعماركم وآجالكم وأعدادكم وأعمالكم.

فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

قال السدي: (أما ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ ففي النوم، وأما ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ فيقول: ما اكتسبتم من الإثم). وقال قتادة: (﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾، يعني بذلك نومهم، ﴿وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾، أي: ما عملتم من ذنب فهو يعلمه، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك). قال ابن جرير: (وهذا الكلام وإن كان خبراً من الله تعالى ذكره عن قدرته وعمله، فإن فيه احتجاجاً على المشركين به، الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم).

قلت: والتوفي المذكور في هذه الآية هو التوفي الأصغر، دون القبض التام للروح الذي هو التوفي الأكبر. كما قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا

وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ . . ﴾ [الزمر: 42].

قال الشوكاني: (﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾: أي: يقبضها عند حضور أجلها ويخرجها من الأبدان).

وقال الفراء: (المعنىٰ ويقبض التي لم تمت عند انقضاء أجلها. قال: وقد يكون توفيها نومها، فيكون التقدير على هذا: والتي لم تمت وفاتها نومها). قال ابن زيد: (فالنوم وفاة). والمقصود: يقبضها عن التصرف والتمييز مع بقاء الأرواح في أجسادها. وفي ذلك أحاديث:

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إذا آوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن حذيفة قال: [كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه، ثم يقول: «اللهم باسمك أموت وأحيا». وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»][2].

الحديث الثالث: أخرج الترمذي بسند حسن عن أبي هريرة، عن النبي ﷺقال: [إذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره][3].

الحديث الرابع: أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بسند صحيح عن جابر، عن النبي ﷺ قال: [النوم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنة][4].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6320) ـ كتاب الدعوات، وكذلك (7393) ـ كتاب التوحيد. ورواه مسلم (2714) ـ كتاب الذكر والدعاء. باب الدعاء عند النوم.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (6314) ـ كتاب الدعوات ـ باب وضع اليد تحت الخد اليمنى. وانظر (6312) منه ـ باب ما يقول إذا نام، وكذلك (6324)، (7394).

(3) حديث حسن. انظر تخريج الكلم الطيب (34)، (45)، وصحيح الجامع الصغير (326).

(4) حديث صحيح. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (2/36/2)، وأبو نعيم في الحلية (7 / 90).

قلت: فالوفاة هنا في هذه الآية بمعنىٰ النوم، والنوم أخو الموت، ولا ينام أهل الجنة. وقد بسطت القول في مفهوم الوفاة وأنواع استخدام لفظها، وكذلك الصلة بين الروح والنفس والفؤاد والعقل والجسد والمشاعر في كتابي: «تحصيل السعادتين» فلله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

قال مجاهد: (﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، قال: في النهار). وقال قتادة: (والبعث اليقظة).

وعن السدي: (﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، قال: هو أجل الحياة إلى الموت). وقال مجاهد: (وهو الموت). وقال عبد الله بن كثير: (﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، قال: مدّتهم).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ثم إلى الله بارئكم يكون معادكم ومآلكم، ثم تعرض عليكم أعمالكم في صحفكم، ثم يجازيكم بها، ولا تظلم نفس مثقال ذرة.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾، والله الغالب خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم).

وفي مستدرك الحاكم عن عائشة قالت: [كان إذا تَضَوَّرَ من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار، ربّ السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار][1].

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾.

أي: من الملائكة، يحفظون بدن العبد، وغيرهم يحفظ أعماله ويحصيها.

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: 11].

(1) حديث صحيح. أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث عائشة. انظر صحيح ابن حبان (2358)، ومستدرك الحاكم (540/1)، والسلسلة الصحيحة (2066).

2 ـ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10 ـ 12].

3 ـ وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق].

قال السدي: (﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾، قال: هي المعقبات من الملائكة، يحفظونه ويحفظون عمله). وعن ابن عباس: (والمعقبات من الله هي الملائكة، «يحفظونه من أمر الله» قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه).

وقال مجاهد: (﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: عن اليمين الذي يكتب الحسنات، وعن الشمال الذي يكتب السيئات).

وفي مُعْجَم الطبراني بسند حسن عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: [إن صاحب الشمال ليرفع القلم ستَّ ساعات عن العبد المسلم المخطئ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها، وإلا كُتبت واحدة](1).

وفي المسند بسند صحيح عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالىٰ ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه](2).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

قال إبراهيم: (أعوان ملك الموت). وكان ابن عباس يقول: (لملك الموت أعوان من الملائكة). وقال الكلبي: (إنّ ملك الموت هو يلي ذلك، فيدفعه، إن كان مؤمناً، إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافراً إلى ملائكة العذاب).

قلت: وقد جاءت السنة الصحيحة بهذا المعنى، في أحاديث:

---

(1) حديث صحيح. رواه الطبراني في «الكبير» (ق 2/25)، والبيهقي في «الشعب» (1/394/2).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (469/3)، ومالك (5/985/2)، والترمذي (52/2)، وأخرجه ابن ماجة في السنن (3969)، وابن حبان (1576)، والحاكم (1/ 45 ـ 46)، وغيرهم.

الحديث الأول: حديث البراء ـ أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم والطيالسي وفيه: [إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي لفظ: المطمئنة) اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، حتى إذا خرجت روحه صلّى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله تعالى: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾] الحديث. ثم يقول: [وإن العبد الكافر (وفي لفظ: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد سود الوجوه معهم المُسُوح من النار، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السَّفُود الكثير الشعب من الصوف المبلول. . . . فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح][1].

الحديث الثاني: أخرج ابن ماجة بسند صحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بِرَوْحٍ ورَيْحان، وربٍّ غير غضبان، فلا يزال يقالُ لها ذلك حتى تخرج[2]. قال: فإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغسَّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج][3].

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (287/4، 288، 295، 296)، وأبو داود(281/2) بسند صحيح من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وانظر أحكام الجنائز (159).

(2) وفي رواية: [ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى].

(3) حديث صحيح. أخرجه أحمد (364/2 - 365)، وأبو داود (3212) نحوه، وابن ماجة (4262).

الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ في قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ـ وفيه: قال النبي ﷺ: [فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ـ أي: حكماً ـ فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له. فقاسوا فوجدوه أدنىٰ إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة][1].

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

قال ابن عباس: (لا يضيّعون).

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

قال ابن جرير: (ثم ردت الملائكة التي توفَّوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم، إلى الله سيدهم الحق، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، يقول: ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾، يقول: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم، أيها الناس، وأحصاها، وعرف مقاديرها ومبالغها).

وقال القاسمي: (﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يومئذ لا حكم فيه لغيره، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ يحاسب الخلائق في أسرع زمان).

قلت: والله سبحانه من أسمائه الحكم، وهو بمعنى الحاكم، وحقيقته: الذي سُلِّم له الحكم وَرُدَّ إليه. كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾.

وكقوله في سورة المائدة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (6/373 - 374) من حديث أبي سعيد، وأخرجه مسلم في صحيحه ـ حديث رقم ـ (2766)، وغيرهما.

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن هانئ بن يزيد ، عن النبي ﷺ قال: [إن الله هو الحَكَمُ ، وإليه الحُكْمُ][1].

63 - 65. **قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

في هذه الآيات: خِطَابُ الله المتتابع لنبيّه ﷺ،قل لهؤلاء المشركين بربهم ـ يامحمد ـ: من الذي ينجيكم إذا دخلتم في ظلمات سبل البر أو البحر وشعرتم بالخوف ومظنة الهلاك وتحيّرتم بهذا الضياع والضلال ، إلا الله تعالى الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء ، تدعونه استكانة سراً وجهراً ، لئن أنجيتنا يا رب من هذه لَنُخْلِصَنَّ لك الشكر والعبادة. قل لهم يا محمد: الله وحده القادر على نجاتكم وفَرَجكم ثم أنتم بعد تكرُّمِه عليكم بالنجاة والفرج تشركون. إنه ـ جلت عظمته ـ هو القادر أن يعيدكم في الظلمات والأهوال مرة أخرىٰ مقابل خيانتكم العهود والمواثيق وانتكاسكم مرة ثانية في أوحال الشرك ، وأن يرسل عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يخلطكم أهواء مختلفة وأحزاباً متفرقة يقتل بعضكم بعضاً ، فانظر يا محمد تتابع هذه الحجج والآيات على هؤلاء المشركين لعلهم يفقهون.

فقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. ـ قال قتادة: (يقول: من كرب البر والبحر).

قال القاسمي: (﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾، أي: شدائده ، كخوف العدو ، وضلال الطريق. ﴿والبحر﴾ كخوف الغرق ، والضلال ، وسكون الريح. استعيرت الظلمة للشدة ، لمشاركتها في الهول ، وإبطال الأبصار ، ودهش العقول. يقال لليوم الشديد: يوم

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن (4955) ـ كتاب الأدب ـ باب في تغيير الاسم القبيح ، وأخرجه النسائي في السنن (5387) ـ وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (4145) ، وصحيح سنن النسائي ـ حديث رقم ـ (4980).

مظلم ، ويوم ذو كواكب. أي: اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، وظهرت الكواكب فيه).

وقوله: ﴿ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾.

قال ابن جرير: (﴿تضرعاً﴾ منكم إليه واستكانة وجهراً ، ﴿وخفية﴾ ، يقول: وإخفاء للدعاء أحياناً ، وإعلاناً ، وإظهاراً).

وقوله: ﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.

قال القرطبي: (﴿ لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ أي: من هذه الشدائد ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ أي: من الطائعين. فوبّخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد ، وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره بقوله: ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾).

وفي التنزيل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ . . . ﴾ [يونس: 22 ـ 23].

وفيه كذلك: ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: 63].

وقال في هذه الآية: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾.

أي: إن الله وحده القادر أن ينجيكم من هذه الظلمات ومن كل كرب وهم وغم دون شفاعة أحد ولا عون ، ثم أنتم بعد ذلك إذا رجعتم إلى الرخاء تشركون ولا تشكرون.

قال القرطبي: (﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ ، مثل قوله في أول السورة: ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾. لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعلوا بدلاً منه وهو الإشراك ، فَحَسُنَ أن يُقَرَّعُوا ويُوَبَّخُوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة).

وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ قيل ﴿من فوقكم﴾ عذاب السماء. ﴿ومن تحتكم﴾ الخسف في الأرض.

قال السدي: (﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ ، عذاب السماء ، ﴿ أَوْ مِن

﴿تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ ، فيخسف بكم الأرض). وكذا قال مجاهد: (الخسف).

2 ـ وقيل: (معنى: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح). ذكره سعيد بن جبير. ومعنى: ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ الخسف والرجفة كما فعل بقارون وأصحاب مدين. واختاره ابن جرير.

3 ـ قيل: ﴿مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ يعني: الأمراء الظلمة، و﴿مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ يعني: السّفِلة وعبيد السوء.

قال ابن عباس: (فأما العذاب من فوقكم، فأئمة السوء، وأما العذاب من تحت أرجلكم، فخدم السوء). وفي رواية: (﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾، يعني: من أمرائكم، ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ ، يعني: سفلتكم).

قلت: والراجح القول الأول وما في معنى القول الثاني، إذ عليه يدل السياق، وآيات التنزيل. قال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ [الإسراء: 66 ـ 69].

قال البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ـ باب: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ الآية. يلبسكم: يَخۡلِطَكُم من الالتباس. ﴿يلبسوا﴾ يخلِطوا. ﴿شيعاً﴾: فِرَقاً. حدثنا حمّاد بن زيد بن عمرو بن دينار، عن جابر رضي الله عنه قال: [لما نزلت هذه الآية: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ ، قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك. ﴿أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ﴾ قال رسول الله ﷺ: هذا أهْوَنُ ـ أو هذا أيْسَرُ][(1)].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4628) ـ كتاب التفسير ـ. ورواه في كتاب التوحيد (7406)، وأخرجه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (7313) وفي لفظه: (هاتان أهون، أو أيسر). وأخرجه الترمذي (3065)، والنسائي في «التفسير» (184)، وأبو يعلى (1982)، وغيرهم.

وقوله: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾.

أي: أو يخلطكم فرقاً ويجعلكم ملتبسين شيعاً متناحرين متخالفين. وفيه أقوال متقاربة:

1 ـ قال ابن عباس: (﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾: الأهواء والاختلاف).

2 ـ قال مجاهد: (الأهواء المتفرقة). قال: (ما كان منكم من الفتن والاختلاف).

3 ـ قال السدي: (يفرق بينكم). وقال ابن زيد: (الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء، وسفك دماء بعضهم بعضاً).

وقوله: ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾.

قال ابن عباس: (يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب).

وقال السدي: (بالسيوف). وقال مجاهد: (عذاب هذه الأمة أهل الإقرار، بالسيف: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾، وعذاب أهل التكذيب، الصيحة والزلزلة). وقال نوف البكالي: (﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾: هي والله الرجال في أيديهم الحراب، يطعنون في خواصركم).

قلت: وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى، في أحاديث:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن عامر بن سعدٍ عن أبيه، أن رسول الله ﷺ أقبل ذاتَ يومَ مِنَ العالية، حتى إذا مَرَّ بمسجد بني مُعاويةَ، دخَلَ فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربَّهُ طويلاً، ثم انصرف إلينا، فقال ﷺ: [سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألتُ ربي أَنْ لا يُهْلِكَ أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألتُه أن لا يُهْلِكَ أمتي بالغَرَقِ فأعطانيها، وسألته أَنْ لا يَجْعَلَ بأسَهُمْ بينهم فَمَنَعَنِيها][1].

الحديث الثاني: أخرج الإمام أحمد في المسند بسند جيد عن جابر بن عَتِيك أنه قال: [جاءنا عبد الله بن عُمَر في بني معاوية ـ قرية من قُرىٰ الأنصار ـ فقال لي: هل تَدْرِي أين صَلّى رسول الله ﷺ في مسجدكم هذا؟ فقلت: نعم. فأشرتُ إلى ناحيةٍ منه، فقال: هل تدري ماالثلاثُ التي دعا بهنّ فيه؟ فقلت: نعم. فقال: فَأَخْبرني بهنَّ،

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2890)، كتاب الفتن، وأخرجه أحمد (175/1)، (181/1)، وأبو يعلى (734).

فقلت: دعا بِألاَّ يُظهرَ عليهم عَدُوّاً من غيرهم ، ولا يُهْلِكَهُم بالسِنين فَأُعْطِيَهُما ، ودَعا بألاّ يجعل بأسهم بينهم ، فَمُنِعَها. قال: صَدَقْتَ ، فلا يزال الهَرْجُ إلى يوم القيامة][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام أحمد بسند صحيح ، عن شدّاد بن أوس ، أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله زوىٰ لي الأرض حتى رأيت مشارِقَها ومغاربها ، وإن مُلْكَ أمّتي سَيَبْلُغ ما زُوِيَ لي منها ، وإني أعطيتُ الكنزين الأبيض والأحمر ، وإني سألت ربي ـ عزّ وجل ـ ألا يُهلِكَ أمتي بِسنَةٍ بِعَامّةٍ ، وألا يُسَلِّطَ عليهم عَدُوّاً فيهلكهم بِعَامَّةٍ ، وألاّ يلبسَهُم شيعاً ، وألا يذيق بعضَهم بأس بعض. فقال: يا محمد ، إني إذا قضيتُ قَضَاءً فإنه لا يُرَدّ ، وإني قد أعطيتُك لأمتك ألاّ أُهْلِكَهُم بسنةٍ بعامّةٍ ، وألا أسلِّطَ عليهم عَدُوّاً ممن سواهم فَيهلكِوهم بعامَّة ، حتى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضاً ، وبعضُهم يقتل بعضاً ، وبعضهم يَسْبي بعضاً. قال: وقال النبي ﷺ: وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المُضِلّين ، فإذا وضع السيف في أمتي لم يُرْفَع عنهم إلى يوم القيامة][2] .

الحديث الرابع: أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن معاذ بن جبل قال: [صلىٰ رسول الله ﷺ يوماً صلاة ، فأطال فيها ، فلما انصرف قلنا: يا رسول الله أطلتَ اليوم الصلاةَ؟ قال: إني صليتُ صلاة رغبةٍ ورهبة ، سألت الله عز وجل لأمتي ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ، وردَّ عليَّ واحدةً ، سألتُه أن لا يُسَلّط عليهم عدواً من غيرهم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلكهم غَرَقاً ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فردّها عَلَيَّ][3] .

وفي رواية عند أحمد: (أن لا يبعث عليهم سنة تقتلهم جوعاً) بدل «غرقاً».

---

(1) إسناده جيد. أخرجه أحمد (445/5) ، والطبراني في «الكبير» (1781) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (221/7) : رواه أحمد ، ورجاله ثقات. وقال الحافظ ابن كثير في «التفسير»: (ليس هو في شيء من الكتب الستة ، وإسناده جيّد قوي ، ولله الحمد والمنّة).

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (123/4) ، والبزار (3291) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (221/7) رواه أحمد والبزار ، ورجال أحمد رجال الصحيح. ولأجزائه شواهد في الصحيح.

(3) حديث صحيح. أخرجه ابن ماجة في السنن (3951) ، وابن خزيمة في «صحيحه» (رقم ـ 1218) ، وأخرجه أحمد(240/5) ، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير رجاء الأنصاري ـ قال الذهبي: ما روىٰ عنه سوى الأعمش. لكن له شواهد في المسند (243/5) (247/5) من طريقين. وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (1724).

ويبدو من مجموع هذه الأحاديث أن ذكر الغرق والسنة محفوظ في أصل الحديث، والله تعالى أعلم.

وقوله: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾.

أي: انظر يا محمد كيف نبين لهم الحجج والدلالات ونفسر لهم الآيات لعلهم يفهمون مقصد هذه الحجج ويتدبرون آفاق هذه الدلالات وما يراد بها من بيان بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي والآثام.

66 - 69. قوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (66) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) ﴾.

في هذه الآيات: يتابع الله تعالى ذكره خطابه لنبيّه، فيقول: وكذب ـ يا محمد ـ قومك بما تخبر عن الله من الوحي وتنذر، قل لهم: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، ولكل خبر مستقر ونهاية، فيظهر في آخر المطاف الحق من الباطل ويتميز الصدق من الكذب وسوف تعلمون. وإذا رأيت ـ يا محمد ـ المشركين المستهترين الذين يخوضون في الوحي وآيات التنزيل هزواً ولعباً فصدّ عنهم وجهك وإياك ومجالستهم، بل قم عنهم واعتزلهم حتىٰ يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم، وإن أنساك الشيطان أمرنا هذا باجتنابهم حالة سخريتهم ثم ذكرت ذلك فامتثل الأمر فَوْرَ الذِّكرىٰ ولا تقعد مع القوم الظالمين. ومن اتقىٰ الله فعظم أوامره واجتنب نواهيه، وحصل أن جلس ولم يعرض عن مجلس هؤلاء المستهزئين فما عليه من تبعة إثمهم ما دام سخط ما كانوا عليه، ولكن الإعراض هو الأقرب للتقوىٰ ـ وهو الذي سيستقر عليه الأمر ـ لعلهم يتقون.

فقوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (66) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

قال السدي: (كذبت قريش بالقرآن وهو الحق، وأما ﴿الوكيل﴾ فالحفيظ، وأما ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾، فكان نبأ القرآن استقر يوم بدر بما كان يعدهم من العذاب).

وقال مجاهد: (﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾، لكل نبأ حقيقة، إما في الدنيا وإما في الآخرة، ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، ما كان في الدنيا فسوف ترونه، وما كان في الآخرة فسوف يبدو لكم).

وقال ابن عباس: (﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، يقول: فعل وحقيقة، ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة).

وقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾.

أي: إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والردّ والاستهزاء فاجتنب مجلسهم واعتزلهم، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو عام لجميع المؤمنين. قال القرطبي: (فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه).

قال مجاهد: (﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾: هم الذين يستهزئون بكتاب الله، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلا أن ينسىٰ فإذا ذكر قام).

قال ابن العربي: (وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل).

وقال ابن خُوَيْزَ مَنْداد: (من خاض في آيات الله تُركت مجالسته وهُجر، مؤمناً كان أو كافراً).

وقال السدي: (كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي ﷺ فسبوه واستهزؤوا به، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتىٰ يخوضوا في حديث غيره).

قلت: وهذا النهي ينسحب اليوم على أهل الأهواء والبدع فلا يجلس معهم أثناء بدعتهم.

قال الفضيل بن عياض: (من جَلَسَ مع صاحبِ بدعة لم يعط الحكمة، وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رَجَوْتُ أن يغفر الله له). وقال: (ومن زوّجَ كريمته من مُبْتدع فقد قطع رحمها).

وفي صحيح مسلم عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات:

[لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثاً ، لعن الله من غير منار الأرض][1] .

فقوله : «لعن الله من آوىٰ محدثاً» ، أي : مبتدعاً ، وإيواؤه الرضا عنه ، وحمايته عن التعرض له ، واتخاذه جليساً ونديماً ، وتقريبه وتوقيره .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ .

أي : حتى يأخذوا في كلام آخر غير الذي فيه تكذيب واستهزاء وسخرية بالشريعة .

وقوله : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

قال أبو مالك : (إن نسيت فذكرت فلا تجلس معهم) ذكره السدي عنه .

وفي التنزيل : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : 140] . أي : لو تابعتم الجلوس بعد ورود النهي فقد أقررتموهم على استهزائهم فشاركتموهم في الإثم .

وكذلك : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود : 113] .

وقد حفلت السنة الصحيحة بآفاق هذا المعنى في أحاديث :

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث سلمة ـ يوم الحديبية والصلح ـ قال : [فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا ببعض ، أتيتُ شجرة فكسحت شوكها فاضطجعت في أصلها . قال : فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأبغضتهم فتحولت إلى شجرة أخرى . . .] الحديث[2] .

الحديث الثاني: أخرج الترمذي بسند حسن عن جابر ، عن النبي ﷺ قال : [من كان

---

(1) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح (84/6) . وانظر مختصر صحيح مسلم (1261) ـ باب : في من ذبح لغير الله . من حديث علي رضي الله عنه .

(2) حديث صحيح . أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (1807) ، كتاب الجهاد ، باب غزوة ذي قرد ، وأخرجه أحمد في المسند (52/4 - 54) من حديث سلمة رضي الله عنه .

يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر][1] .

الحديث الثالث: أخرج الإمام مسلم في صحيحه ، عن نافع ، عن صَفِيّة ، عن بعض أزواج النبي ﷺ ، عن النبي ﷺ قال: [من أتىٰ عَرّافاً فَسَألَهُ عن شيء لم تُقْبَلْ له صلاةُ أربعين ليلة][2] .

وله شاهد عند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [من أتىٰ عَرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ].

وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ ـ فيه أقوال:

1 ـ ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك ، أي: إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم. قاله سعيد بن جبير.

2 ـ بل معناه وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شيء. وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية ، وهي قوله: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ ، قاله مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم ، وذكره الحافظ ابن كثير في التفسير.

3 ـ أي: إذا تجنّبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك ، فقد برئوا من عهدتهم ، وتخلصوا من إثمهم.

قلت: والقول الثالث أقواها ، أي: إن امتثلتم الاجتناب فاعتزلتم القوم الذين استطردوا بالخوض والاسْتهزاء بآيات الله ، فما عليكم من حسابهم من شيء ، وإن لم تفعلوا وتابعتم الجلوس فقد أشركتموهم في الإثم ـ كما قال تعالى في آية النساء: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ . وبذلك تكون الآيتان منسجمتين إذ لا دليل على النسخ المزعوم.

وقوله: ﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ .

قال ابن كثير: (أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه ، لعلهم يتقون ذلك ، ولا يعودون إليه).

قلت: وهذا تفسير قوي منسجم مع السياق ، ومع ما قبله ، وقد ذكر ابن جرير نحوه

(1) حديث حسن. وهو جزء من حديث أطول ، أخرجه الترمذي (2965) ـ باب ما جاء في دخول الحمام. من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم(2230) ـ كتاب السلام. باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان. وانظر للشاهد صحيح الجامع (5815) ، وكتابي: أصل الدين والإيمان (476/1) لتفصيل البحث.

عن السدي: (﴿ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ ﴾، يقول: إذا ذكرت فقم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ مساءتكم، إذا رأوكم لا تجالسونهم استحيوا منكم، فكفوا عنكم).

70. قوله تعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ۝٧٠ ﴾.

في هذه الآية: يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ في متابعة خطابه: ذر يا محمد هؤلاء الذين حوّلوا علاقتهم بدينهم إلى اللهو واللعب والاستهزاء، وقد اغتروا بزينة هذه الحياة الدنيا فألهتهم وفتنتهم وأنستهم الموت والسؤال والعذاب، وذكرهم بهذا القرآن وما فيه من الوعيد فلا تبسل أنفسهم بما كسبت من الأوزار فتحبس وتسلم للعذاب، ثم لا يقبل من أي نفس أبسلت يومئذ ولو جاءت بملء الأرض ذهباً لتفتدي به من الشراب الحميم والعذاب الأليم، الذي أعدّ للذين أبسلوا بما كسبوا من الآثام وكانوا يكفرون.

فقوله: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾.

أي: **دعهم واعتزلهم فإنهم بذلك على خَطر عظيم.**

قال القرطبي: (أي: لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تَعنّت وإن كنت مأموراً بِوَعْظِهم).

وقال النسفي: (﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ ﴾ الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام ﴿ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ سخروا به واستهزؤوا).

وقوله: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: انحصر اهتمامهم وعلمهم بهذه الحياة الفانية وزينتها.

وقوله: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ ﴾.

أي: بالقرآن أو الحساب أو الموقف يوم الحسرة والندامة.

وقوله: ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسُۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾.

المعنى كما قال ابن كثير: (لئلا تُبْسَل). وقال ابن جرير: (أن لا تبسل). فحذفت لا، لدلالة الكلام عليها، كما في قوله تعالى: ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾. أي: أن لا تضلوا، أو كي لا تضلوا. وفي معنى ﴿تبسل﴾ أقوال متكاملة:

1 ـ قال ابن عباس: (تُفضح).

2 ـ قال عكرمة والحسن ومجاهد: (تبسل: تُسْلَم).

3 ـ قال قتادة: (تُحْبَس).

4 ـ وقال مُرّة وابن زيد: (تؤاخذ).

5 ـ وقال الكلبي: (تجازىٰ).

وكلها أقوال متقاربة متكاملة في بيان المعنىٰ، مفادها كما قال القاسمي: (مخافة أن تسلم إلى الهلاك، وترتهن بسوء كسبها، وغرورها بإنكار الآخرة).

وأصل الإبسال المنع. يقال: أبسله لكذا: عرضه ورهنه، أو أسلمه للهلكة. قال الرازي: (أبسله: أسلمه للهلكة).

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾.

قال النسفي: (﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ ﴾ ينصرها بالقوة، ﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يدفع عنها بالمسألة). قال: والمعنى: (وذكر بالقرآن كراهة أن تبسل نفس عادمة ولياً وشفيعاً بكسبها).

وفي التنزيل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: 254].

وقوله: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾.

قال قتادة: (لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها).

وقال السدي: (فما يعدلها لو جاءت بملء الأرض ذهباً لتفتدي به ما قبل منها).

وقال ابن زيد: (﴿ وَإِن تَعْدِلْ ﴾، وإن تفتد، يكون لهُ الدنيا وما فيها يفتدي بها، ﴿ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾، عدلاً عن نفسه، لا يقبل منه).

وفي التنزيل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا

﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: 91].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: هؤلاء المشار إليهم الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وأسلموا للهلاك ولا ناصر ولا شفيع، إنما أسلموا إلى العذاب والهلاك بسبب اغترارهم بهذه الحياة الدنيا، وإنكارهم الحساب في الآخرة، والانهماك في الشهوات المحرمة واستباحتها.

قال القاسمي: (﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾. أي: ماء مغليّ يتجرجر في بطونهم، وتتقطع به أمعاؤهم، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ أي: بنار تشعل بأبدانهم، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم).

71 - 73. **قوله تعالى:** ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

في هذه الآيات: يقول جلت عظمته لنبيه ﷺ ـ قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين إفراد الله تعالى بالتعظيم، العادلين بربهم الأوثان والأنداد، الداعين لك إلى عبادة آلهتهم والأصنام معهم: أندعو من دون الله حجراً أو خشباً أو خلقاً آخر ضعيفاً لا يملك القدرة على جلب منفعة أو دفع مضرة، ونترك عبادة الله الواحد الأحد الصمد الذي بيده النفع والضر والحياة والموت والعز والذل، ونرد على أدبارنا منتكسين لم نظفر بحاجتنا ولم تجب دعوتنا، بعد أن لمسنا عز الهداية وأُنْسَ القرب من الله، فنكون في هذا التدلي كالرجل استتبعه الشيطان فهو يمضي في الحياة حيران، له أصحاب على الحق واستقامة المنهج ينادونه إلى الامتثال وسلوك سبيل النجاة، وهو يأبىٰ ذلك ويهوي في ضلاله. قل يا محمد لهؤلاء المتخبطين في منهاجهم ذلك: إن طريق الله هو الهدىٰ وأمرنا بلزومه

فهو ينقلنا إلى شاطئ السلامة ودار النعيم والأمن والقرار. وَأُمِرْنا بإقامة الصلاة والتزام تقوىٰ الله فإليه المرد والمآل ويحشر الناس إليه جميعاً. إنه وحده ـ جلت عظمته ـ الذي خلق السماوات والأرض بالحق والعدل الذي هو إفراده سبحانه بالتعظيم والعبادة، والأمر يومئذ قوله كن فيكون، فقوله الحق وله السلطان ولايشاركه أحد في الآخرة بأمر أو سلطان، فقد انقطع سلطان كل ذي سلطان يوم ينفخ في الصور، ولم يبق إلا أمر الواحد القهار عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير.

فقوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ الآية.

قال السدي: (قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، ﷺ. فقال الله تعالى ذكره: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾، هذه الآلهة، ﴿ وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾، فيكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين في الأرض. يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: «ائتنا، فإنا على الطريق»، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعكم بعد المعرفة بمحمد، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام) ـ ذكره ابن جرير.

ثم روىٰ عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: (هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً، إذ ناداه مناد: «يا فلان ابن فلان، هلم إلى الطريق»، وله أصحاب يدعونه: «يا فلان، هلم إلى الطريق»! فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدىٰ اهتدى إلى الطريق).

وعن مجاهد: (في قوله: ﴿ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾، قال: الأوثان).

وعن قتادة: (﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال: أضلته في الأرض حيران).

وقال مجاهد: (رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق، فذلك مثل من يضل بعد إذ هدي، وقال: (هذا مثل ضربه الله للكافر، يقول: الكافر حيران، يدعوه المسلم إلى الهدىٰ فلا يجيب).

وقوله: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال قتادة: (علمها الله محمداً وأصحابه، يخاصمون بها أهل الضلالة).

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾.

كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ .. ﴾ [الزمر: 37].

وكقوله سبحانه: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [النحل: 37].

وقوله: ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

قال ابن جرير: (وأمَرَنا ربنا وربّ كل شيء تعالى وجهه، لنسلم له، لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة).

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾. أي: وأمرنا ـ تعالى ذكره ـ أن أقيموا الصلاة.

وقوله: ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾.

قال ابن كثير: (أي: وَأُمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال).

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾. أي: يوم الحشر، يوم الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

قال القرطبي: (أي: فهو الذي يجب أن يعبد لا الأصنام. ومعنىٰ ﴿بالحق﴾ أي: بكلمة الحق. يعني قوله: ﴿كُنْ﴾).

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

قال القاسمي: (بيان لقدرته تعالى على حشرهم، بكون مراده لا يتخلف عن أمره، وأن قوله وأمره هو النافذ والواقع. والمراد بـ(القول) كلمة ﴿كن﴾ تحقيقاً أو تمثيلاً).

والتقدير: واذكر يوم يقول كن. أو اتقوا يوم يقول كن، أو قدّر يوم يقول كن. ذكره القرطبي. فيكون ﴿يومَ﴾ قد نُصِبَ على العطف على قوله ﴿واتقوه﴾ ـ أي: اتقوا يوم يقول كن فيكون. أو على قوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ ـ أي: وخلق يومَ يقول كن فيكون.

وإما على إضمار فعل تقديره اذكر ـ أي: واذكر يوم يقول كن فيكون. ذكره ابن كثير. قلت: وكلها من وجوه الإعجاز القرآني يحتملها السياق وتفيد في بسط المعنىٰ وآفاق مفهومه.

وقوله: ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

قال النسفي: (والمعنى: أنه خلق السماوات والأرض بالحق والحكمة وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة، أي: لا يكون شيئاً من السماوات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب).

وقوله: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ﴾.

أخرج الإمام أحمد والترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمرو قال: [قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصّور؟ قال: قَرْنٌ ينفخ فيه][1].

فالصور هو القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام حين يأخذ الأمر من ربه عز وجل. كما قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

وكما قال ـ جلت عظمته ـ: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: 87].

يروي البخاري عن ابن عباس: [قال في قوله تعالى: ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ الصور. و﴿الراجفة﴾: النفخة الأولى. و﴿الرادفة﴾: الثانية][2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت[3]. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ثم يُنزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبتُ البقلُ.

---

(1) حديث حسن. أخرجه أحمد في المسند (312/2)، وأبو داود في السنن (4742)، والترمذي في الجامع (3243)، والحاكم في المستدرك (506/2).

(2) حديث صحيح. رواه البخاري في ترجمة باب. انظر تخريج المشكاة (5529). وكتابي: أصل الدين والإيمان (727/2) ـ بحث النفخ في الصور ـ لمزيد من التفصيل.

(3) أي: امتنعت عن الجواب لأني ما أدري ما الصواب.

قال: وليس من الإنسان شيء لا يبلىٰ إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذنب[1]، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة][2].

فإذا تذكر المسلم هول ذلك اليوم ونفخة الصور قال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فقد أخرج الترمذي في جامعه بسند حسن، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: [كيف أنعم وصاحبُ الصور قد التقمه وأصغىٰ سمعه وحنىٰ جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ؟ فقالوا: يا رسول الله! وما تأمرنا؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل][3].

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ إما أن يكون بدلاً من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾.

أو أن يكون ظرفاً لقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، كما قال جل ذكره: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]. وكقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: 26].

وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

قال ابن عباس: (يعني: أن عالم الغيب والشهادة هو الذي ينفخ في الصور).

والراجح أن ﴿عالم﴾ صفة لـ﴿الذي﴾ خلق السماوات والأرض. أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هو».

والتقدير: أي وهو الذي خلق السماوات والأرض عالم الغيب. واختاره شيخ المفسرين، وكذلك الإمام القرطبي.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: الحكيم في أقواله وأفعاله، الخبير بأعمال عباده وأعمارهم ومستقبلهم بين يديه. قال النسفي: (﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في الإفناء والإحياء. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بالحساب والجزاء).

---

(1) هو العظم بين الأليتين أسفل الصلب، فمنه خُلِق ـ الإنسان ـ وفيه يركب. ففي رواية لمسلم: [كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجبَ الذنب، منه خلق وفيه يركب].

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري (4935)، وأخرجه مسلم (141/2955)، وغيرهما.

(3) حديث حسن. انظر صحيح سنن الترمذي (2585) ـ أبواب فضائل القرآن ـ سورة الزمر.

74 - 79. **قوله تعالى**: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩ ﴾.

في هذه الآيات: يتابع الله سبحانه في ذكر براهين الحق وحجج الدلالة والحكمة ليواجه نبيه ﷺ خصومه المنكرين الجاحدين المشركين ـ واذكر يا محمد خليلي إبراهيم إذ قال لأبيه آزر معيباً عليه اتخاذ الأوثان آلهة من دون الله ، ومنكراً عليه وعلى قومه باطل ما هم مقيمون عليه من الضلال في العبادة: كيف تعبد ـ يا أبت ـ هذه الأصنام وتتخذها ربّاً دون الله الذي خلقك وسَوّاك ورزقك. وكذلك ـ يا محمد ـ نُبَصِّرُ ـ إبراهيم في دينه ، ونريه الحق في ملكوت السماوات والأرض ليكون أحسن العابدين المؤمنين. فلما واراه الليل وغيّبه أبصر كوكباً حين طلع فقال هذا ربي ، فلما زال وقد علم أن ربه دائم لا يزول قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر قد طلع وسطع قال هذا ربي فلما ذهب قال لئن لم يمنّ الله عليّ بهدايته لأكونّن من الذين أخطؤوا طريق الحق والهدىٰ ، وعبدوا غير الله. فلما رأى الشمس طالعة قال هذا الطالع ربي ، هذا أكبر من الكوكب والقمر ، فلما غابت قال إبراهيم لقومه إني بريءٌ من عبادة الأوثان والأصنام وهذه المخلوقات الزائلة ، بل وجهت وجهي في عبادتي للذي خلق السماوات والأرض وهو الحي لا يموت ولا يزول ولا يفنىٰ ، مخلصاً له الدين وما أنا من المشركين.

فقوله: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾.

قال السدي: (اسم أبيه آزر).

وكذلك قال محمد بن إسحاق: (﴿آزر﴾ أبو إبراهيم).

قلت: ولا عبرة بكلام آخر غير هذا، فالقرآن صرّح باسم والد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه ﴿آزر﴾، وكذلك صرّحت السنة الصحيحة.

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

[يلقىٰ إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرَة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك. فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون، فأي خزي أخزىٰ من أبي الأبعد. فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين. ثم يقال لإبراهيم: ما تحتَ رجليك؟ فينظر فإذا هو بذِيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيُلقىٰ في النار][1].

وقوله: ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً ﴾.

أي: تتأله لصنم تصرف له العبادة من دون الله.

وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾.

أي: إني أراك والقوم السالكين دربك وطريقتك في العبادة تائهين ضالين جائرين عن الحق وعن قصد السبيل.

وفي التنزيل: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: 41 ـ 48].

قال ابن كثير: (فكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يستغفر لأبيه مُدَّةَ حياته، فلما مات على الشرك وتبيّن إبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له، وتبرّأ منه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: 114]).

---

(1) حديث صحيح. انظر مختصر صحيح البخاري (1344). والقترة: السواد من الكآبة والحزن. والذيخ: ذكر الضبع الكثير الشعر. والحديث ذكره الإمام البخاري في كتاب الأنبياء.

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

قال القاسمي: (أي: نطلعه على حقائقهما، ونبصره في دلالتهما على شؤونه عز وجل، من حديث إنهما بما فيهما، مربوبان ومملوكان، له تعالى. و﴿الملكوت﴾ مصدر على زنة المبالغة، كالرَّهَبوت والجبروت، ومعناه: الملك العظيم، والسلطان القاهر. وقيل: ملكوتهما عجائبهما وبدائعهما).

وفي التنزيل نحو ذلك:

1 ـ قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 101].

2 ـ وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: 185].

3 ـ وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: 9].

وقوله: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾.

قال النسفي: (فعلنا ذلك أو ليستدل، وليكون من الموقنين عياناً كما أيقن بياناً).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾.

أي: ستره بظلمته. قال ابن جرير: (وكل ما تواري عن أبصار الناس، فإن العرب تقول فيه: «قد جَنَّ»). ومنه الجَنّة والجِنّة والجُنّة والجَنين والمِجَنّ والجنّ كله بمعنىٰ الستر. قال القرطبي: (وجَنان الليل ادلهمامُه وستره).

قال: (ويقال: جنون الليل أيضاً. ويقال: جَنّه الليل وأجَنّه الليل، لغتان).

والمقصود: فلما أظلم الليل على إبراهيم عليه الصلاة والسلام وستره بظلامه ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾. أي: نجماً، والكوكب لغة النجم.

وفي قوله: ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾.

قال النسفي: (أي: الزهرة أو المشتري، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها ليس بإله لقيام دليل الحدوث فيها، ولأن لها محدثاً أحدثها ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها).

وقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾.

قال القاسمي: (إرخاء للعنان معهم بإظهار موافقته لهم أولاً، ثم إبطال قولهم بالاستدلال، لأنه أقرب لرجوع الخصم).

قال الزمخشري: (قول إبراهيم ذلك، هو قول من ينصف خصمه، مع علمه بأنه مبطل. يحكي قولَهُ كما هو غير متعصب لمذهبه، لأن ذلك أدعىٰ إلى الحق، وأنجىٰ من الشغَب. ثم يكرّ عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة).

وقوله: ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾. أي: غاب. ﴿ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾. قال قتادة: (علم أنَّ ربه دائم لا يزول).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾. أي: طالعاً منتشر الضوء. وبزغت الشمس إذا طلعت، وكذلك القمر.

وقوله: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾. على الأسلوب المتقدم. ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾. قال ابن جرير: (أي: من القوم الذين أخطؤوا الحق في ذلك، فلم يصيبوا الهدىٰ، وعبدوا غير الله).

قال النسفي: (نبّه قومه على أن من اتخذ القمر إلهاً فهو ضال، وإنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال، لأن الاحتجاج به أظهر، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب).

وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾.

فنصب قوله ﴿بازغة﴾ على الحال، لأن هذا من رؤية العين. وفي لغة العرب: بزغ وأفل متضادان. بزغ يَبْزُغ بُزوغاً إذاطلع، وأفلَ يأفِلُ أفولاً إذا غاب.

قال الكسائي: (﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ على معنىٰ: هذا الطالع ربي). وقيل: هذا الضوء.

قال القرطبي: (وقال: ﴿هذا﴾ والشمس مؤنثة، لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾. فقيل: إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعِظمها، فهو كقولهم: رجل نَسّابة وعلاّمة).

وقال ابن جرير: (﴿ هَٰذَآ أَكْبَرُ ﴾، يعني: هذا أكبر من الكوكب والقمر، فحذف ذلك لدلالة الكلام عليه).

وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾. أي: غابت. ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قال ابن كثير: (فلما انتفتِ الإلهيّة عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنورُ ما تقعُ عليه الأبصارُ، وتحقَّق ذلك بالدليل القاطع ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾، أي: أنا بريءٌ من عبادتهنَّ وموالاتهنَّ، فإن كانت آلهةً فكيدوني بها جميعاً ثم لا تُنْظرون).

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: إنما أتوجه بالعبادة وكمال التعظيم لخالق هذه الموجودات والأشياء ومخترعها ومسخّرها ومقدّر أمورها ومدبر أحوالها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وكل شيء في هذا الكون فقير إليه محتاج إلى قوته وقيوميته وتدبيره وتصريفه.

وفي التنزيل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف].

وفي التنزيل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٞ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل].

أخرج الإمام أحمد في المسند، وأبو داود في السنن، بسند صحيح، عن أبي تميمةَ عن رجل من قومه، أنه أتىٰ رسول الله ﷺ، أو قال: شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال: أنت رسول الله أو قال: أنت محمد؟ فقال: نعم. قال: فإلامَ تَدْعو؟ قال: [أدعو إلى ربك الذي إن مَسَّكَ ضر فدعوته كشَفَ عنك، والذي إن أضللت بأرض قفرٍ فدعوته ردّ عليك، والذي إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك][1].

وقد أثنىٰ الله سبحانه على إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في غير ما موضع في القرآن:

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أبو داود في السنن ـ حديث رقم ـ (4084). ورواه أحمد بسند صحيح. انظر تخريج المشكاة (918)، وصحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (242). وانظر صحيح سنن أبي داود ـ حديث رقم ـ (3442).

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

أخرج البخاري من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: [إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراةً غُرْلاً، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104]. وأول من يُكْسىٰ يوم القيامة إبراهيم][1].

وفي صحيح البخاري أيضاً عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما: [أن النبي ﷺ لما رأىٰ الصُّورَ في البيت لم يدخل حتى أمرَ بها فمُحِيَتْ، ورأىٰ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلامُ فقال: قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط][2].

وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾.

أي: مائلاً عن الأديان الباطلة، والتصورات الزائفة الزائغة، إلى الحق القويم، دين رب العالمين، ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [كل مولود يولد على الفِطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسَانه، كما تولد البهيمةُ بهيمةً جمْعاء، هل تحسون فيها من جدعاء][3].

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حِمار قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله عز وجل: إني خلقت عبادي حُنَفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحَرَّمت عليهم ما أَحْلَلْتُ لهم][4].

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه (3349) ضمن حديث أطول ـ كتاب أحاديث الأنبياء.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في صحيحه ـ حديث رقم ـ (3352) ـ كتاب أحاديث الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام. من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(3) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (4775)، ومسلم (2658)، وأحمد في المسند (253/2)، والترمذي في الجامع (2138). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(4) حديث صحيح. أخرجه مسلم في الصحيح ـ حديث رقم ـ (2865)، وأحمد في المسند (266/4)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (653).

80 - 83. **قوله تعالى:** ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾.

في هذه الآيات: يقول سبحانه: وجادل إبراهيم قومه في إفراده الله سبحانه بالتعظيم وبراءته من أصنامهم، وكانوا يزعمون أن آلهتهم خير من إلهه، فقال: أتجادلونني في توحيد الله الواحد الأحد الصمد وقد وفقني برحمته لمعرفة توحيده وإفراده بالعبادة والتعظيم، ولاأخاف آلهتكم التي تدعونها فما تملك لي ضراً ولا نفعاً، بل خوفي من الله الذي بيده النفع والضر، والرزق والضيق أو النقصان. ثم كيف أرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربّكم وهو مخلوق ضعيف لا يملك ضراً ولا نفعاً وأنتم لا تخافون الله الواحد القهارالذي دان له الكون بكل مافيه، فمن الذي هو أحق بالأمن إن كنتم تعلمون. إن المؤمنين الصادقين في توحيد ربهم وتعظيمه أحق بالأمن، فالأمن أمن الإيمان، والهلاك في الشرك وأهله، وهذه بعض حججنا علمناها إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليواجه بقوارعها بهتان قومه وعنادهم، نختار للمعالي والدرجات من نشاء من عبادنا، إن الله حكيم حيث يضع رسالته، عليم بقلوب وأفعال عباده.

فقوله: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ ﴾.

قال ابن جريج: (﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾، قال: دعا قومُه مع الله آلهة، وخوّفوه بآلهتهم أن يُصيبَهُ منها خبَل، فقال إبراهيم: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ ﴾، قال: قد عرفت ربي، لا أخاف ما تشركون به).

قال ابن جرير: (﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ يقول: ولكن خوفي من الله الذي خلقني وخلق السماوات والأرض، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو

بقاءٍ ، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك ، نالني به ، لأنه القادر على ذلك . ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ يقول : وعلم ربي كلَّ شيء ، فلا يخفىٰ عليه شيء ، لأنه خالق كل شيء ، ليس كالآلهة التي لاتضر ولا تنفع ولا تفهم شيئاً ، وإنما هي خشبة منحوتة ، وصورة ممثلة ، ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يقول : أفلا تعتبرون ، أيها الجهلة ، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون ، من عبادتكم صورة مصوّرة وخشبة منحوتة ، لا تقدر على ضر ولا على نفع ، ولا تفقه شيئاً ولا تعقله ، وترككم عبادة من خلقكم وخلق كل شيء ، وبيده الخير ، وله القدرة على كل شيء ، والعالم بكل شيء) .

وقوله : ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : (يقول : كيف أخاف وثناً تعبدون من دون الله لا يضر ولاينفع ، ولاتخافون أنتم الذي يضر وينفع ، وقد جعلتم معه شركاء لاتضر ولاتنفع) .

وقوله : ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن جريج : (أَمَنْ يعبد ربّاً واحداً ، أم من يعبد أرباباً كثيرة؟) .

قال محمد بن إسحاق : (يضرب لهم الأمثال ، ويصرِّف لهم العبر ، ليعلموا أن الله هو أحق أن يخاف ويعبد مما يعبدون من دونه) .

قال مجاهد : (قول إبراهيم حين سألهم : ﴿أي ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ﴾ ، هي حجة إبراهيم ﷺ) .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ .

قال محمد بن إسحاق : (أي : الذين أخلصوا كإخلاص إبراهيم ﷺ لعبادة الله وتوحيده ، ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ أي : بشرك ، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ ، الأمن من العذاب ، والهدىٰ في الحجة بالمعرفة والاستقامة) .

وقال ابن زيد : (﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ ، قال بِشرك . قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ . فأما الذنوب فليس يبرأ منها أحد) .

أخرج البخاري في صحيحه عن عبد الله قال : [لمّا نَزَلَتْ : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم

بِظُلْمٍ﴾، قال أصحابه: وأيّنا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾][1].

وأخرج الإمام مُسلم في صحيحه عن عَلْقَمَةَ، عن عبد الله قال: [لما نزلت ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيّنا لا يظلمُ نَفْسَه؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تَظُنُّون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]][2].

وفي لفظ أحمد: [إنه ليس الذي تعنُون! ألم تسمعوا ما قال العبدُ الصالح: ﴿يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إنما هو الشرك].

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾.

قال مجاهد: (قال إبراهيم حين سأل: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾؟ قال: هي حجة إبراهيم، وقوله: ﴿ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾، يقول: لقناها إبراهيم وبصّرناه إياها وعرّفناه).

وقرأ قراء الكوفة: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، في حين قرأها قراء الحجاز والبصرة: ﴿نرفع درجاتِ مَنْ نشاء﴾. وهما قراءتان مشهورتان متقارب معناهما. قال ابن جرير: (وذلك لأن من رفعت درجته، فقد رفع في الدرج، ومن رفع في الدرج، فقد رفعت درجته. قال: فمعنىٰ الكلام إذن: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾، فرفعنا بها درجته عليهم، وشرّفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة. فأما في الدنيا فآتيناه فيها أجره، وأما في الآخرة، فهو من الصالحين، ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، أي: بما فعل من ذلك وغيره).

وفي الصحيحين عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: [يا أيها الناس! إنكم تحشرون

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (32)، (4629). وأخرجه مسلم (124)، وأحمد (387/1)، وغيرهم. من حديث عبد الله رضي الله عنه.

(2) حديث صحيح. أخرجه مسلم (124) ـ كتاب الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده، ورواه ابن حبان في صحيحه (253)، وأخرجه ابن مندة (268)، وغيرهم. وانظر للفظ التالي مسند أحمد (378/1) بإسناد على شرط الشيخين.

إلى الله حُفاة عُراة غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ . ألا وإن أول الخلائق يُكْسَىٰ يوم القيامة إبراهيم . .] الحديث[1] .

وقال القرطبي : (﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ : أي : بالعلم والفهم والإمامة والملك) .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال القاسمي : (﴿حكيم﴾ في رفعه وخفضه ، ﴿عليم﴾ بحال من يرفعه واستعداده له) .

وقال شيخ المفسرين : (إن ربك ، يا محمد ، ﴿حكيم﴾ ، في سياسته خلقَه ، وتلقينه أنبياءَه الحجج على أممهم المكذبة لهم ، الجاحدة توحيد ربهم ، وفي غير ذلك من تدبيره ، ﴿عليم﴾ ، بما يؤول إليه أمر رسله والمرسل إليهم ، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم ، وهلاكهم على ذلك ، أو إنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله ، والرجوع إلى طاعته) .

84 - 90. **قوله تعالى :** ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

في هذه الآيات : اختصاصُ الله سبحانه إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذرية فيها النبوة ، منهم ابنه إسحاق ، وابن ابنه يعقوب ، هديناهم لسبيل الرشاد ، كما هدينا

(1) حديث صحيح. غُرْلاً أي غير مختونين. انظر مختصر صحيح مسلم (2151) ص (571) . ورواه البخاري في صحيحه (3349) ، ضمن حديث أطول.

نوحاً لذلك من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن. كما هدينا أيضاً من ذرية نوح إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وفضلناهم على العالمين. كما هدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم أمة اخترناها لهذا الدين ، وهذا الهدىٰ توفيق الله ولطفه بمن يشاء من عباده ، ولو أشرك هؤلاء الأنبياء لبطل ما كانوا يعملون ولذهب جزاء ما كانوا يتقربون. وهؤلاء الذين سميناهم من الأنبياء والرسل قد آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها قومك يا محمد ، فقد استحفظناها أولئك الرسل والأنبياء ومن سار معهم على هداهم وما كانوا بها كافرين ، وهؤلاء الذين هدى الله من إخوتك الأنبياء والرسل قبلك يامحمد موضع القدوة والأسوة في أمة الدعوة من الخلق أجمعين ، فامض على منهاجهم واصبر على إقامة الحق والدين في الأرض ، وأخبر قومك أنك لا تريد بهذا البلاغ عوضاً فما هو إلا ذكرىٰ للعالمين.

فقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾.

قال ابن كثير: (يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طَعَنَ في السنِّ ، وأيس هو وامرأته «سارّة» من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فَبَشَّروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: 72 ـ 73]. وبشروهما مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلاً وعَقِباً ، كما قال تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: 112]. وهذا أكمل في البشارة ، وأعظم في النعمة ، وقال: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: 71] ، أي: ويولد لهذا المولود ولدٌ في حياتكما ، فتقرّ أعينكما به كما قَرَّتْ بوالده ، فإن الفَرَح بِوَلَدِ الولدِ شديدٌ لبقاء النَّسل والعَقِب. ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يُتَوهَّم أنه لا يُعْقَبُ لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب» ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ حين اعتزل قومه وترَكهم ، ونزَحَ عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض ، فعوّضه الله ـ عز وجل ـ عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صُلْبه على دينه ، تَقَرُّ بهم عينه ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: 49]. وقال ها هنا: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾).

وقوله: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾.

أي: وفقناه إلى اتباع منهج الحق قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب. قال القاسمي: (﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبله، هديناه كما هديناه. وعدّ هداه نعمة على إبراهيم، من حيث إنه أبوه، وشرف الوالد يتعدىٰ إلى الولد). قال ابن كثير: (كل منهما له خصوصية عظيمة. أما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض، إلا مَن آمن به، وهم الذين صَحِبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح وكذلك الخليل إبراهيم عليه السلام، لَمْ يبعث الله ـ عز وجل ـ بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ والكتاب... ﴾ [العنكبوت: 27] الآية، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ [الحديد: 26]، وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم: 58]).

أخرج الإمام أحمد في المسند، والبيهقي في «الأسماء»، بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: [إن نبيّ الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ: «لا إله إلا الله» فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كنّ حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر. قال: قلت: أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ قال: أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان؟ قال: لا، قال: هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: لا. قيل: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: سفه الحق وغمص الناس][1].

وقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. فيه قولان:

---

(1) حديث صحيح. أخرجه أحمد (169/2 - 170)، والبخاري في «الأدب المفرد» (548)، وأخرجه البيهقي في «الأسماء» (79)، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة (134).

القول الأول: وهدينا من ذريته ـ أي: من ذرية نوح ﷺ هؤلاء الرسل الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن جرير: (﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾، من ذكر نوح. وذلك لأن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطاً فقال: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ومعلوم أن لوطاً لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين. قال: ولكنه من ذرية نوح).

القول الثاني: وهدينا من ذريته ـ أي: ذرية إبراهيم ـ ﷺ ـ هؤلاء الرسل الكرام.

قال ابن عباس: (هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرية إبراهيم، وإن كان فيهم مَنْ لم تلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أم، لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم).

والعرب تجعل العمّ أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: 133]. وإسماعيل عمٌّ يَعْقوب.

قال القرطبي: (وعدّ عيسىٰ من ذرية إبراهيم وإنما هو ابن البنت. فأولاد فاطمة رضي الله عنها ذرّية النبي ﷺ. وبهذا تمسك من رأى أن ولد البنات يدخلون في اسم الولد. قال أبو حنيفة والشافعي: من وَقَفَ وقفاً على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بناته ما تناسلوا).

قلت: وفي السنة الصحيحة ما يدل على هذا:

فقد أخرج البخاري من حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن علي: [إن ابني هذا سيِّد، ولعل الله أن يُصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين][1].

قال ابن كثير: (وعود الضمير ـ في ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ ﴾ إلى ﴿نوح﴾ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعودُه إلى ﴿إبراهيم﴾ لأنه الذي سيقَ الكلام من أجله حَسَن، لكن يشكل على ذلك ﴿لوط﴾، فإنه ليس من ذرية ﴿إبراهيم﴾، بل هو ابن أخيه ماران بن آزَرَ، اللهم إلا أن يُقالَ: إنه دخلَ في الذريّة تغليباً، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (2704)و(3629)، وأبو داود (4662)، وأحمد (49/5). وأخرجه النسائي (107/3). والحديث يدل أن بني البنات تدخل في وصية الرجل لذريته.

مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]، فإسماعيل عمه، ودخل في آبائه تغليباً. وكما في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ..﴾ [الحجر: 30 ـ 31]، فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذُمَّ على المخالفة، لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملتهم ودخل فيهم تغليباً، وإلا فهو كان من الجِنّ وطبيعته من النار والملائكة من نور).

قلت: وكلا المعنيين حق، ويحتملهما السياق، وإعجاز البيان الإلهي الكريم.

و(داود): هو داود بن إيشا. و(سليمان) هو ابنه: سليمان بن داود. و(أيوب): هو أيوب بن موص بن رازح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم. و(يوسف): هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. و(موسى): هو موسىٰ بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. و(هرون): هو أخو موسىٰ.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

قال النسفي: (ونجزي المحسنين جزاء مثل ذلك، فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف).

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدىٰ والرشاد من ذريته: زكريا بن إدُّو بن برخيَّا، ويحيى بن زكريا، وعيسىٰ بن مريم ابنة عمران بن ياشهم بن أمون بن حزقيا). ثم ذكر قولين في إلياس:

1 ـ كان ابن إسحاق يقول: هو إلياس بن يسي بن فنحاص بن العيزار بن هرون بن عمران، ابن أخي موسىٰ نبيّ الله ﷺ.

2 ـ وكان غيره يقول: هو إدريس. فعن عبد الله بن مسعود قال: («إدريس» هو «إلياس»، و«إسرائيل»، هو «يعقوب») ـ ذكره بسنده إليه.

ثم قال شيخ المفسرين: (وأما أهل الأنساب فإنهم يقولون: «إدريس»، جدّ نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، و«أخنوخ» هو «إدريس بن يرد بن مهلائيل». وكذلك روي عن وهب بن منبه. والذي يقول أهل الأنساب أشبه بالصواب. وذلك أن الله تعالى ذكره نسب «إلياس» في هذه الآية إلى «نوح»، وجعله من ذريته، و«نوح» ابن «إدريس» عند أهل العلم، فمحال أن يكون جدّ أبيه منسوباً إلى أنه من ذريته).

وقوله: ﴿ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾.

يعني هؤلاء الرسل الكرام: زكريا ويحيىٰ وعيسى وإلياس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ﴾.

المعنى: وكذلك هدينا أيضاً من تلك الذرية ﴿إسماعيل﴾، وهو: إسماعيل بن إبراهيم، ﴿واليسع﴾، وهو: اليسع بن أخْطُوب بن العجوز، كما ذكر ابن جرير.

قال القرطبي: (وتوهّم قوم أن اليسع هو إلياس، وليس كذلك، لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذكر. وقال وهب: اليسع هو صاحب إلياس، وكانا قبل زكرياء ويحيى وعيسىٰ). وقيل: إلياس هو الخضر، وقيل: بل اليسع هو الخضر، والله تعالى أعلم.

﴿ ويونس ﴾: هو يونس بن متىٰ. ﴿ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ يعني: على عالم أزمانهم.

وقوله: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ ﴾.

يعني: وهدينا كذلك مما لم نذكر آخرين سواهم من آباء مَنْ سمَّيْنا، وكذلك من ذرياتهم وإخوانهم، هديناهم للحق والدين الخالص ﴿ وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ ﴾. قال مجاهد: (أخلصناهم).

وقوله: ﴿ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

وهو الدين الحق الذي ارتضاه الله للأنبياء والرسل والعباد.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾.

أي: هذا التسديد والتوفيق لطاعة الله على منهاج الرسل الكرام ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ إنما هو شرف يؤتيه الله من يشاء من عباده، واصطفاء واجتباء منه سبحانه، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعرف بقلوب عباده وحبهم له ولطاعته وإقامة دينه كما قال جل ذكره: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

تحْذيرٌ من مغبة الشرك وتَغْليظٌ لأمره. وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: 81]. وكقوله

جل ذكره: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 17].

فالمعنىٰ: ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سمّاهم ربهم فعبدوا معه غيره، لبطل ثواب عملهم ولذهب الأجر وكان الهلاك. ولكنهم لم يفعلوا فقد كانوا خير البشر بحق، واستحقوا الاصطفاء بصدق، فليحذر مغبة الشرك أقوامهم ومن جاء بعدهم من أمة الخلق. فإن الله تعالى لا يحابي أحداً.

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعِزّ إزاري، فمن نازعني في شيء منهما عذّبته][1].

ورواه الإمام أحمد عنه بلفظ: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار][2].

ورواه الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً: [قال الله تعالىٰ: الكبرياء ردائي، فمن نازعني في ردائي قصمته][3].

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾.

يعني الفهم بالكتاب، وَفِقْهَ ما فيه من الأحكام والشرائع، واصطفاء مقام النبوة. والحديث عن الأنبياء والرسل الذين مضىٰ ذكرهم والثناء عليهم، فقد قاموا بمهمة النبوة والحكم بمنهاج الوحي أحسن قيام ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ ﴾.

قال ابن عباس: (يقول: إن يكفروا بالقرآن). والمعنىٰ: فإن يكفر ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركون من قومك. قال قتادة: (أهل مكة).

وقوله: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾.

قال قتادة: (أهل المدينة) ـ يعني الأنصار الذين استجابوا لله والرسول وحرسوا هذا الدين مع إخوانهم من المهاجرين. قال السدي: (إن تكفر بها قريش، ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾

---

(1) حديث صحيح. أخرجه مسلم في صحيحه (35/8 - 36)، وروىٰ البخاري في الأدب المفرد (552) نحوه. من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد (248/2)، (376/2)، وانظر سنن أبي داود (4090)، وسنن ابن ماجة (4174)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة (541).

(3) حديث صحيح. أخرجه الحاكم (61/1) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأقره الألباني. انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (4185).

الأنصار). قال ابن كثير: (أي: إن يكفر بهذه النعم[1] من كَفَرَ بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عَرَبٍ وعجم، ومِلّيين وكتابيِّين، فقد وكلنا بها قوما آخرين، يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، ﴿ لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾، أي: لا يجحدون شيئاً منها، ولا يَرُدّون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها: مُحْكَمِها ومُتَشَابهها، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه وإحسانه).

وقيل: المقصود: الملائكة. وقيل بل المقصود: الأنبياء الثمانية عشر. واختاره ابن جرير.

قلت: والراجح ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير، من أن المقصود مَنْ يحملُ رسالة النبي محمد ﷺ من أمته بعد استكبار كفار قريش وبعض العرب والملل عن ذلك، فيشمل المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم ومضىٰ على منهاجهم إلى يوم الدين، من جماعة الحق وطائفة المؤمنين حفظة هذا الدين.

أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: [أكرموا أصحابي فإنهم خياركم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يظهر الكذب، حتى إن الرجل ليحلف ولا يستحلف، ويشهد ولا يستشهد، ألا من سرَّه بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهم، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن][2].

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾.

قال ابن عباس: (ثم قال في الأنبياء الذين سماهم في هذه الآية: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾).

والمعنىٰ: هؤلاء أهل الهداية والمراتب الرفيعة عند الله ـ يا محمد ـ من إخوتك الأنبياء الذين سبقوك وكانوا على منهاج الحق والنبوة، فاقتد بهم في الطريق والمنهج فإن دين الأنبياء والمرسلين واحد.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن جريج قال: أخبرني سُليمان الأحْوَلُ: [أن

---

(1) يعني: النعم السابقة ـ الكتاب والحكم والنبوة.

(2) حديث صحيح. أخرجه أحمد في المسند (177/1) من حديث عمر رضي الله عنه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ـ حديث رقم ـ (431) بلفظ «أحسنوا».

مجاهداً أَخْبَرَهُ: أنه سألَ ابن عباس أفي ﴿صٓ﴾ سَجْدَةٌ؟ فقال: نَعَمْ، ثم تلا ﴿ووهبنا﴾ إلى قوله: ﴿فبهداهم اقتده﴾ ثم قال: هو منهم.

زاد يزيدُ بنُ هارون، ومحمدُ بن عُبَيْدٍ، وسَهْلُ بنُ يوسفَ عن العَوَّام، عن مجاهد: قُلْتُ لابن عباس، فقال: نبيّكم ﷺ مِمَّن أمِرَ أَنْ يَقْتَدي بهم][1].

وقوله: ﴿هو منهم﴾، قال الحافظ في الفتح (295/8): (أي: داود ممن أُمِرَ نبيكم أن يقتدي به). ومراد ابن عباس ـ كما ذكر أهل العلم ـ إثبات سنية السجود في سورة ﴿صٓ﴾ إذ سجد داودُ عليه السلام.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أولىٰ الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، ليس بيني وبينه نبي، والأنبياء أولادُ علّات (وفي رواية: الأنبياء إخوة من علات)، أمهاتهم شتى ودينهم واحد][2].

وبنو العلات هم أولاد الرجل الواحد من نساء شتىٰ، لذلك أمرنا نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بالصلاة عليهم كما نصلي عليه.

فقد أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» بإسناد حسن، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: [صلوا على أنبياء الله ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني][3].

وله شاهد عند ابن عساكر بسند حسن عن وائل بن حجر ولفظه: [صلوا على النبيين إذا ذكرتموني، فإنهم قد بُعثوا كما بُعثت].

فربط الله تعالى منهاج نبينا محمد ﷺ بمنهاج إخوته الأنبياء قبله، وأمرنا بالصلاة عليهم كلما ذكرناه وصلينا عليه، فإنهم قد بعثوا جميعاً بدين واحد ومنهج واحد فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح ـ حديث رقم ـ (4632) ـ كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾.

(2) حديث صحيح. أخرجه البخاري في الصحيح (3442)، كتاب أحاديث الأنبياء، وكذلك(3443)، ورواه مسلم في الصحيح (2365) ح (144) (145)، كتاب الفضائل.

(3) حديث حسن. أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان». انظر صحيح الجامع الصغير ـ حديث رقم ـ (3676)، وللشاهد بعده ـ حديث رقم ـ (3675)، وكذلك انظر تخريج فضل الصلاة ـ حديث رقم ـ (42) ـ الألباني. وروىٰ الخرائطي نحوه.

وقوله: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: لا أطلب منكم على القرآن جُعْلاً ولا أجرة ولا مالاً، بل هو موعظة للخلق، فمن شاء استفاد من هذه الذكرى واتعظ وتهيأ ليوم المعاد، ودافع الكفر بالصدق واليقين والإيمان.

91 - 92. **قوله تعالىٰ:** ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ (91) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (92) ﴾.

في هذه الآيات: يقول جلت عظمته: وما عظموا الله حق تعظيمه، وما أَجَلُّوه حق إجلاله، حين قالوا ما أنزل الله على آدمي كتاباً ولا وحياً! فقل يا محمد ـ لمشركي قومك ـ: من أنزل التوراة جلاءً وضياء وبياناً للناس يجعلها حملتُها قراطيس ـ أي: قِطعاً ـ يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرِّفون فيها ويبدلون ويغيرون ويقولون كذباً هذا من عند الله، ثم قل لهم يا محمد: ومَنْ أنزل القرآن الذي علّمكم الله فيه خبر الأمم التي سبقتكم، وأنبأكم فيه ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم؟! قل الله أنزله بعلمه ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يتخبطون ويلعبون. وهذا القرآن كتاب مبارك أنزله الله سبحانه وختم به الكتب من عنده مصدقاً لما قبله ولتنذر به مكة وما حولها من أحياء العرب وسائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، وكل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب ويحافظ على الصلاة وسائر الفرائض من شعائر هذا الدين.

فقوله: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾.

قال ابن عباس: (ما آمنوا أنه على كل شيء قدير). وقال الحسن: (ما عظموه حق عظمته).

قال القرطبي: (وشرحُ هذا أنهم لما قالوا: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ نسبوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح، فلم

يعظموه حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته). وقال أبو عبيدة: (أي: ما عرفوا الله حق معرفته).

قلت: والخطاب في الآية لقريش، كما قال ابن عباس: (يعني مشركي قريش). وقيل لليهود، والأول أرجح. وبه قال ابن جرير، ورجحه كذلك ابن كثير، لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وأما قريش فقد حكىٰ الله ذلك عنهم:

قال تعالى في سورة يونس: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾.

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (94) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (95) ﴾.

وقوله: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾.

فقد حاجَّهم سبحانه بقضية معروفة يَعْلمونها هُمْ نتيجة صلتهم ومعاملتهم لليهود، ويعلمها كل أحد، أن التوراة كتاب من عند الله أنزله على موسىٰ ليستضاء به في كشف الشبهات والظلمات ومحو الجهالات التي كانت في حياة بني إسرائيل.

وقوله: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾.

فيه قراءتان:

القراءة الأولىٰ: ﴿يَجعلونه قراطيس يُبْدونها ويخفون كثيراً﴾ بالياء. وهي قراءة مجاهد.

فالمعنى: أن اليهود كانوا يجعلون التوراة في قراطيس يكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديهم ويحرفون فيها ويبدلون حسب الأهواء والمصالح، حتى أخفوا ما جاء فيها من إثبات نبوة محمد ﷺ ووجوب متابعته والإيمان معه.

القراءة الثانية: ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾.

والمعنىٰ، كما قال القاسمي رحمه الله: (فهو التفات من خطاب قوم إلى خطاب قوم آخرين. وهو التفات عند الأدباء ـ حكاه الخفاجيّ ـ وإنما جعل من الانتقال عن خطابهم إلى خطاب اليهودية، تعريضاً لهم بأن إنكارهم إنزال الله تعالى من جنس فعل هؤلاء بالتوراة في البطلان، وعدم الإسناد إلى برهان).

قلت: وكلا المعنيين حق يحتمله السياق، ويقتضيه البيان الإلهي، فإن كانت هذه الآية مدنية دون سائر السورة، وعني بالخطاب اليهود، كان التأويل واضحاً وسهلاً.

وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾.

قال ابن كثير: (أي: ومَن أنزل القرآن الذي عَلَّمَكُم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تَعْلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم. وقد قال قتادة: هؤلاء مشركو العرب. وقال مجاهد: هذه للمسلمين).

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

قال ابن عباس: (أي: قلْ: الله أنزله).

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾. تهديد ووعيد.

قال القاسمي: (أي: يفعلون فعل اللاعب، وهو ما لا يجرّ لهم نفعاً، ولا يدفع عنهم ضرراً، مع تضييع الزمان).

والمقصود: اتركهم واعتزلهم حتى يأتيهم ـ وهم في غمرة ضلالهم وجهلهم ـ اليقين من الله، وحتى يوقنوا ويعاينوا لمن ستكون العاقبة أللمتقين أم للجاحدين المستهزئين.

وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

أي: وهذا القرآن كتاب من الله تعالى أنزله مباركاً مصدقاً ما سبقه من الكتب ومهيمناً عليها، وناسخاً لما سلفه من الشرائع السابقة بأحكام استقرت إلى يوم الدين، ولا يقبل الله من أحد يجحد بهذا الكتاب وَلَوْ آمَنَ بكل الكتب السابقة.

وعن ابن عباس: (يعني بـ: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من القرى إلى المشرق والمغرب).

وقال قتادة: (﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، مكة، ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، الأرض كلها). وقال: (بلغني أن الأرض دُحِيَت من مكة).

قلت: وأم كلّ شيء وسطه ومركزه وأصله ـ هكذا في كلام العرب ـ ومنه سميت مكة أم القرى لأنها توسطت الأرض.

والخلاصـــة: لتنذر ـ يا محمد ـ أهل مكة ـ ومن حولها من أحياء العرب وقبائلهم وكذلك من سائر طوائف بني آدم عربهم وعجمهم، فالكل داخل تحت بلاغ هذا النبي ﷺ ونذارته.

قال تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ... ﴾ [الأنعام: 19]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴾ [الأعراف: 158]. وقال جل ذكره: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: 1].

وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله ، أن النبي ﷺ قال: [أعطيت خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطَهوراً ، فأيُّما رجل من أمَّتي أدركتْهُ الصلاةُ فليصلِّ ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تَحِلَّ لأحدٍ قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومه خاصّةً وبُعِثت إلى الناس عامة][1].

وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.

المعنىٰ: إن كل مَنْ صَدّق بالآخرة خاف الوعيد الذي سينزل بمن كذب بهذا القرآن وهذا النبي ـ عليه الصلاة السلام ـ فيحمله هذا الخوف ـ ولا بد ـ على الإيمان واليقين ، والمحافظة على الصلاة عمود هذا الدين. قال النسفي: (خصت الصلاة بالذكر لأنها علم الإيمان وعماد الدين فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً).

وقال القاسمي: (وتخصيصها لكونها أشرف العبادات بعد الإيمان ، وأعظمها خطراً).

وقال الرازي: (ألا ترىٰ أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]. أي: صلاتكم. ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة. قال عليه الصلاة والسلام: من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر[2]. فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف ، لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام).

أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق ، قال في هذه الآية: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾: (أي: يحافظون على مواقيتها).

ولا شك أن المحافظة عليها تشمل أيضاً المحافظة على أركانها وواجباتها ووضوئها وركوعها وسجودها وخشوعها ، فهي عنوان التزام العبد بهذا الدين وَعَلَمُهُ وعمودُه.

---

(1) حديث صحيح. أخرجه البخاري (335) كتاب التيمم ، وكذلك (438) ، (3122) ، ورواه مسلم.

(2) روى مسلم في صحيحه عن جابر ، قال رسول الله ﷺ: [بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة]. انظر مختصر صحيح مسلم ـ حديث رقم ـ (204).